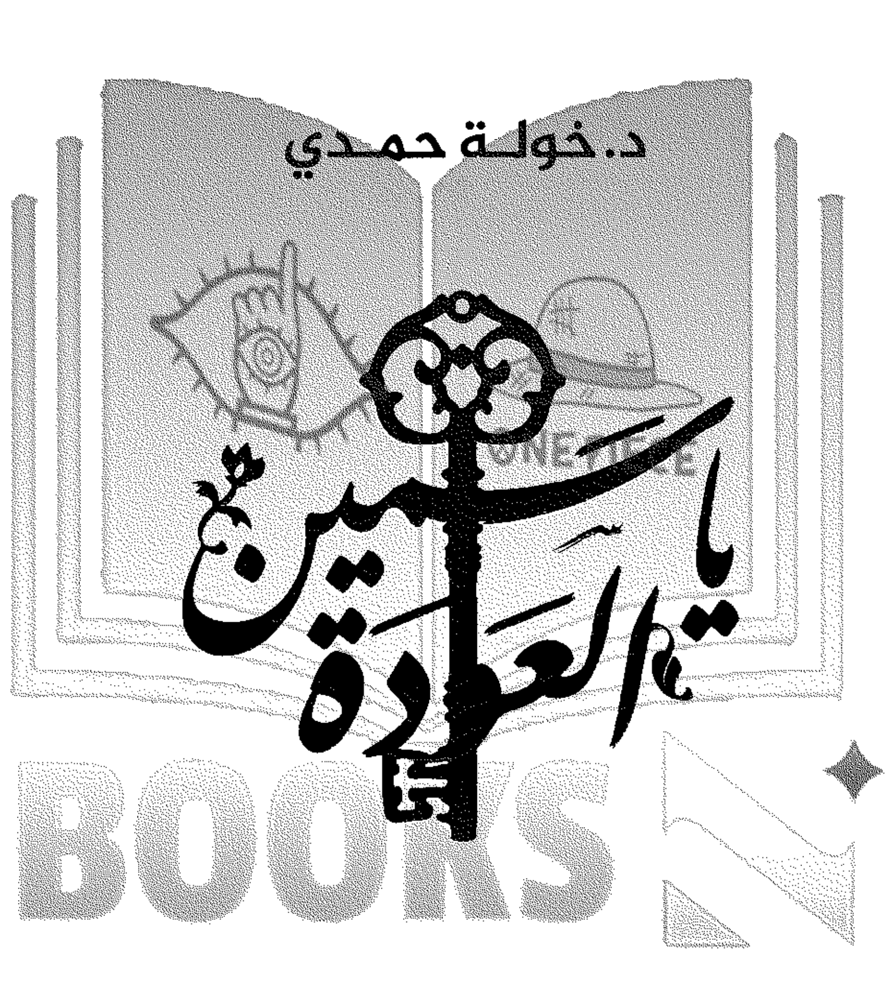
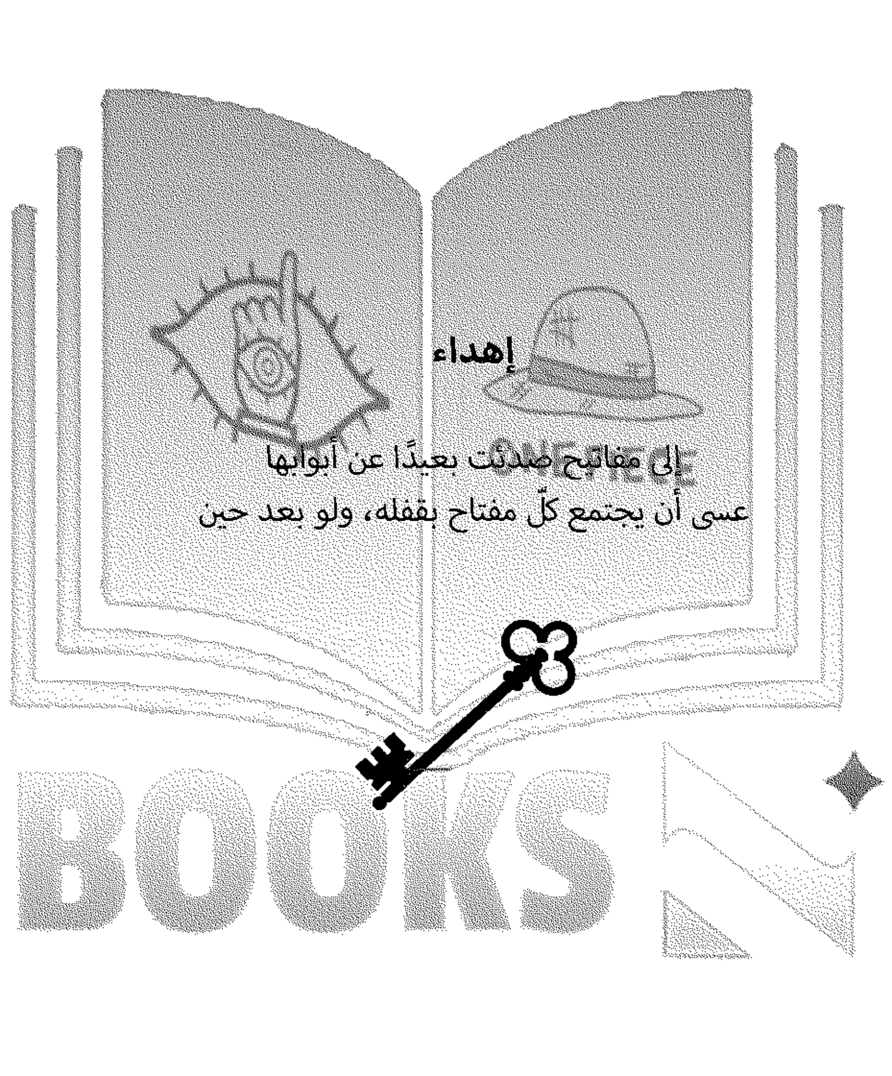

د.خولة حمدي
رواية
ياسمين العودة


د.خولة حمدي
ياسمين العودة



إهداء

إلى مفاتيح صدئت بعيدًا عن أبوابها

عسى أن يجتمع كلّ مفتاح بقفله، ولو بعد حين

-١-

باريس، أبريل ٢٠٠٨

خلال السّنوات الأربع التي قضتها ياسمين في باريس أصبحت لديها عاداتها الباريسيّة الخاصّة بها: مثل المشي بين الأشجار الباسقة في حديقة «اللكسمبورغ» يوم الأحد، وتناول كوب من المثلّجات عند محلّ «أمورينو» الإيطالي المعروف في الحيّ اللاتيني، والجلوس لساعات على ضفاف نهر السّين ومراقبة السّفن السّياحيّة التي تمخر عباب الماء.

كما أنّها تبنّت بعض عادات هيثم التي أحبّتها فضمّتها إلى لائحة أنشطتها المفضّلة.. فتتسلّق كلما سنحت الفرصة هضبة «مونمارتر» الشّاهقة، لتجلس على الدّرجات الحجرية البيضاء التي تتقدّم كاتدرائيّة «القلب المقدّس»، وتتأمل بنايات باريس من علٍ، أو تنعزل أمام طاولة منفردة في ركن قصيّ من مطعم عربيّ -عرّفها عليه هيثم أيضا- في الطابق الأرضيّ للمركز التجاري الذي يتربّع وسط ناطحات السحاب، في منطقة «الديفونس» التي تعمل بها.

- طبق شاورما عربيّة، من فضلك!

وقفت لدقائق قليلة، تترقّب أن تجهز وجبتها، ثمّ رفعت الطّبق واتّجهت إلى مائدتها المنفردة، مثل العادة.

مطعم «البيت الصغير» لم يكن مميّزا إلى درجة كبيرة، بل لعله أقلّ أناقة من معظم المطاعم التي يتخم بها الطابق العلويّ للمركز التّجاري. كما أنّه يقدّم أكلات سريعة لا تمتّ بصلة إلى الأكلات العربية الدّسمة، دون أن يكون في مستوى منافسة العمالقة الأمريكيين المختصّين في المجال. لعلّ ميزته الوحيدة هي تخصّصه في الأكل «الحلال» ممّا يجعل طاولاته العائلية وشرفته المظللة تمتلئ كل ظهيرة بزبائن من نوع خاص: المسلمين!

كانت ترى أشكالا مألوفة في ذلك الفضاء الصّغير، تؤنس غربتها؛ بشرات متوسّطيّة لوّحتها الشّمس، سيّدات محجّبات يشبهنها، ورجالا يطلقون اللّحى، وألسنة تنطق العربيّة، وتلقي بتحيّة الإسلام.

كانت ياسمين تحمل كتبها ومسوّداتها وتقضي استراحة الغداء هناك، معظم أيّام الأسبوع، تدوّن أفكارها وتحليلاتها، وتسرح في موضوع أطروحة الدّكتوراه خاصّتها. أحيانا تنضمّ إليها ميساء -شقيقة هيثم- حين تنتهي دروسها الصّباحيّة في الجامعة مبكرًا، وحين لا تنشغل ياسمين نفسها بزيارة ميدانية أو اجتماع عمل أو غداء جماعي لموظفي الشركة. لكنّها لم تكن تتناول الأكلات السّريعة كل يوم، بل كثيرًا ما تجلب معها وجبة صحيّة منزليّة التحضير وتكتفي بطلب كوب من عصير البرتقال الطازج أو فنجان قهوة محلّاة، تحتسيه على مهل لتطيل الجلسة.

وأصبح هيثم يطلّ عليها من حين لآخر منذ اكتشف مخبأها ذاك، من باب الإحراج لا أكثر! وبصيغة أخرى، أصبح يعرف أين يجدها إن احتاج إلى مناقشتها في بعض تفاصيل حفل الزّفاف الذي غدا وشيكا.

لم يستعجلا الأمر. ربّما استعجل هيثم، لكن ياسمين لم تفعل. بعد أن أعطت موافقتها المنتظرة، أعلنت الخطبة الرسميّة بمباركة جميع الأطراف. كانت خطبة تقليديّة، استنكرتها بداية، ثمّ تقبّلت شخصيّة هيثم تدريجيا. المواقف التي جمعت بينهما جعلتها تستشفّ أصالة معدنه وصدق مشاعره تجاهها.

رغم محاولات زهور -والدة هيثم- وميساء شقيقته، وفاطمة -والدة ياسمين- بتحريض من هيثم تعجيل إجراءات الزواج، إلا أن ياسمين ثبتت على رأيها. بعد طلاق والديها، وطلاق والدها الثاني من زوجته الفرنسيّة إيلين، منذ فترة قصيرة، وجدت أن التأني أسلم للجميع. وفترة الخطبة في نهاية الأمر ما جُعلت إلا ليدرس كل طرف الآخر ويتحقّق من التوافق. ومع رسالة الدكتوراه، بدت بطيئة في دراستها.

لم يحاول البروفيسور كمال أبدا التأثير على موقف ابنته، لأنّه من جهة أدرى بالهوّة التي تفصل ميولاتها -الرّجعيّة المتخلّفة الأصوليّة- عن

قناعاته -المتفتّحة المتحضّرة المتأثّرة بالثقافة الغربيّة- ومن جهة أخرى، كان على اقتناع بأنّ مسألة الزواج مسألة شخصية بحتة يتحمّل المعنيّ بالأمر مسؤوليتها الكاملة وعواقبها الوخيمة! وعليه أن يعترف، مع زواجين فاشلين في رصيده، لم يكن الطرف الأنسب لإسداء النّصائح بهذا الصّدد.

ولكن حين تعلّق الأمر بالحفل نفسه الذي استمرّ انتظاره ثلاث سنوات كاملة، لم يكتم البروفيسور كمال شروطه ومطالبه، فالعروس في نهاية الأمر ابنته! وشكل الاحتفال يجب أن يكون مناسبا لمقامه ومقام ضيوفه ذوي المراكز المرموقة!

بين العرس التقليدي الذي تمسّكت به زهور بيديها وأسنانها، وحفل الاستقبال الرسميّ الذي لم يتنازل عنه البروفيسور عالي الشأن، ضاعت جهود هيثم وياسمين التوفيقية. فاستقرّ الرأي في نهاية المطاف على الاحتفال المزدوج. عقد شرعيّ ووليمة في المسجد بعد عصر يوم الجمعة.. واحتفال نسوي بحت في السّهرة. ثم عقد مدنيّ في قصر البلدية صباح يوم السبت.. يليه عشاء رسميّ في مطعم باريسيّ فاخر.

- أنتِ هنا!

رفعت رأسها مبتسمة حين جاءها ذلك الصّوت المألوف.

- كأنّك لا تدري؟

رفع كفيه مدّعيا البراءة.

- جئت أطلب غدائي، لا غير.

- إذن خذ غداءك وارحل.

- تطردينني؟

- أحتاج بعض الهدوء لأركز.

- قاربت على الانتهاء؟

تصفّحت بحركة عابرة مسوّداتها التي تزيد على المائتي صفحة وقالت:

- ما زال الثلث.

- يا إلهي! إذن أتركك لعملك.. أريد أن أتزوّج في الوقت المحدّد!

التهبت وجنتاها حياءً، تجاهله هيثم وهو ينحني ليخرج من حافظته ورقة بيضاء مطويّة بعناية. وضعها على الطاولة في حركة بطيئة وقال بغموض متعمّد:

- حين تجدين بعض الوقت ألقي نظرة على هذه.

توّترت أصابع ياسمين على الطاولة دون أن تجرؤ على لمس الورقة وتمتمت في ارتباك:

- ما هذه؟

- خارطة توزيع المدعوين على موائد المطعم.. ماذا ظننتها؟!

- لا شيء.

أخفى الابتسامة حتى لا يحرجها أكثر، مع أنه يتعمّد إحراجها ويمتعه أن ينجح فيه. يدرك أن حركته أوحت بمراسلة سريّة ما، لكنه يتجاهل مدّعيا البراءة. أضاف وهو يبتعد نحو نافذة تسجيل الطلبات:

- أخبريني حين تجهز قائمة ضيوفك.

حيّاها ثم وقف في طابور الانتظار موليا إيّاها ظهره ومفرجا عن ابتسامته التي جاهد لكتمانها أمامها. يخترع لنفسه أساليب مبتكرة لصنع جوّ خاصّ بينهما، يعوّضه عن الغزل الممنوع والأحاديث الغرامية المحرّمة التي يمارسها العشّاق العاديّون. سرّه أنها لم تغيّر مخبأها، بعد أن اكتشف بشيء من الغبطة ارتيادها لمطعمه المفضل والقريب من مقرّ عمله أيضا. أصبح ينتهز الفرصة ليحيّيها من حين إلى آخر. لا يكثر من الزيارات حتى لا تملّ مطاردته وتفرّ إلى غير رجعة.

أحيانا يسوق بعض زملائه إلى ذلك المطعم بالذات ويجلس في ركن بعيد متظاهرا بالجديّة، كأنه لم يلمحها. وأحيانا يتوقّف للسؤال عن أحوالها باقتضاب ثم يمضي إلى طاولته. لكنه في أحيان أخرى، لا يعلم أحد غيره عنها شيئا، يمرّ أمام المحلّ دون أن يدخله. يلقي نظرة سريعة ليطمئن إلى وجودها هناك ثم يبتعد.

تابعتـه ياسـمين وهـو يتّخـذ موقفـا في طابـور الانتظـار، وخفّـت حمـرة وجنتيهـا تدريجيّـا. ثـمّ ألقـت نظـرة عـلى رسـوم الموائـد المسـتديرة الـتي خصّصـت كل منهـا لخمسـة أشـخاص وعقـدت حاجبيهـا.

كانـت تظـنّ الأعـراس العربيـة أكـثر تعقيـدًا مـن غيرهـا حيـث يمتـدّ بعضهـا لأسـبوع كامـل بـين عقـد القـران والولائـم اليوميّـة وحفـلات الحنّـاء النّسـائيّة وصـولا إلى السّـهرة الأخـيرة الـتي يجتمـع فيهـا العروسـان. لكـنّ ذلـك الأسـبوع برمّتـه لا يضاهـي تعقيـد العشـاء الرّسـميّ الوحيـد الـذي يحـرص عليـه الفرنسـيّون! فشـتان مـا بـين العفويّـة الـتي تجمـع الأقـارب والأحبـاب حـول أكلـة كسـكسي تونـسيّ بلحـم الخـروف منزليّـة التحضـير. وبـين الدّقـة الـتي يجـب توزيـع قائمـة المدعوّيـن بهـا عـلى الموائـد في حفـل فرنـسي! لا يوضـع اثنـان عـلى خـلاف عـلى نفـس الطاولـة.. ولا يفـرّق بـين صديقـين، ويجـب الحصـول بصفـة مسـبقة عـلى تأكيـد كلّ فـرد مدعـوّ. وتعويـض كل مـن يعتـذر بالشـخص الـذي يليـه عـلى قائمـة الانتظـار، حـتى لا يبقـى مقعـد واحـد شـاغر!

ثـم تظهـر معضلـة جديـدة لحـشر المدعـوّ الجديـد في الطاولـة المناسـبة! وهكـذا يسـتمر الضغـط حـتى اللحظـة الأخـيرة! لأنّ الطبـاخ سـيعدّ مائـة طبـق مقبـلات ومائـة طبـق رئيـسي ومائـة قطعـة حلـوى بـلا زيـادة أو نقصـان! أطبـاق فرنسـية فاخـرة تناسـب ذائقـة ضيـوف البروفيسـور كمـال!

مطّـت شـفتيها في ضيـق. لقـد حـارب هيثـم طويـلا ليقنـع صاحـب المطعـم بالـتزوّد مـن لحـم مذبـوح عـلى الطريقـة الإسـلامية، بعـد أن رفـض والـد العـروس إقامـة العـرس في مطعـم عـربي. إنّهـا تقـدّر لـه حقّـا احتـواءه لـنزوات والدهـا، وتقبّلـه لشروطـه المشـطّة، إكرامـا لهـا.. وحفظـا لمـاء وجههـا.

كلّ ذلـك يجعلـه يكـبر في عينهـا. وتـزداد غيظـا لكونهـا ابنـة البروفيسـور كمـال.. أو «سـامي كلـود» كمـا أخـذ يسـمّي نفسـه منـذ زواجـه مـن إيلـين كلود! فكّـرت، هـل تـراه يغـيّر اسـمه ثانيـة بعـد الطـلاق؟! ابتسـمت في تهكّـم وهـي تنهمـك في رسـم علامـات عـلى المقاعـد. لقـد تقاسـمت وهيثـم الطـاولات

العشرين بالتّساوي. ستمنح والدها أربع طاولات لضيوفه، لا أكثر. وتُبقي الستّة الأخرى لضيوفها وبعض معارف والدتها. صداقاتها محدودة في باريس، رنيم -شريكتها في السّكن- ومرافقها، دافيد المشرف على رسالتها، وحفنة من الزميلات.

ولأنّها لا تطمع بأن يرد كل من إيلين -طليقة والدها- وشقيقها باتريك على قائمة البروفيسور كمال، فيجب أن يكونا على قائمتها هي، فهما يعتبران من العائلة رغم كل شيء. إيلين كانت أكثر من صديقة، لقد قبلتها في بيتها وعاملتها بودّ، ولم تحمّلها وزر نزوات والدها. أما باتريك، فقد كانت البداية بينهما.. حسنا، فلتقلها.. سيّئة! لقد كان أكثر تحاملا من شقيقته. لكنّ الأمور قد غدت على ما يرام الآن. ماذا عن ابني إيلين، سارة وريان؟ على أيّة قائمة سيكونان؟

أسندت ذقنها إلى كفها وزمّت شفتيها في تفكير. إنّها تحاول إحسان الظنّ بوالدها، لكنّها ترجّح لؤمه! سيحاول استغلال كلّ الفرص لتوسيع قائمة ضيوفه. تتخيّله يبادرها في استغراب:

- ألم تضعي أخويك على قائمة ضيوفك؟ إنّهما على مسافة متساوية بيني وبينك من حيث درجة القرابة، فلا تتغابي يا عزيزتي!

وسيكون محقًّا، بالتّأكيد. البروفيسور كمال دائما على حق. ثمّ أليس من المنطقيّ أن يكون ريّان وسارة على مائدة أمّهما وخالهما؟ إذن فلتبادر وتملأ الطّاولة بنفسها.. إيلين وباتريك، سارة وريان، والمقعد الخامس لصديقة باتريك. لا شكّ أنّه سيرغب في اصطحابها.

ماذا عن والدها.. هل تراه يصطحب صديقته الرّوسيّة الجديدة؟

حين رفعت رأسها، لمحت هيثم وهو يصافح رجلا ما. نقرت بقلمها على الطاولة ثم أخذت تدوّن على حاشية الورقة قائمة مرتجلة لمدعوّيها. لديها متّسع لخمس وعشرين اسمًا بعد. توقفت فجأة، ورفعت عينيها مجدّدا لتحدّق في الرّجل الذي يتحدّث إلى هيثم. كيف أخطأته في المرّة الأولى؟

ارتبكت. ماذا عليها أن تفعل؟ هل تقف لتحيّيه وتسأل عن حاله؟ أم أنّها ستعرّض نفسها لنوبة غيرة أخرى -غير مبرّرة- من هيثم؟

عمر الرّشيدي!

غار منه هيثم قبل أن يعرفه وقبل أن تقبل هي بخطبته لها. غار منه منذ عرف بوجوده. منذ عرف أنّها بكت لحبسه. ثمّ ظهرت تلك الغيرة للعيان في مناسبات عدّة بعد ذلك. حرص على متابعة تفاصيل القضيّة عن قرب حتى لا يغيب الرّجل عن عينيه. وحين أطلق سراح عمر قام هيثم عنها بتوصيل صكّ التّعويض الذي تركته رنيم.

ومنذ اللقاء الأول، نشأت صداقة ما بين الرجلين!

تكذب لو أنّها أنكرت تسلّل الذّكريات القديمة إلى فؤادها بين الفينة والأخرى. تستعيد تلك الأيام البعيدة، حين كانت تركب المترو في «ليون» وتترقّب وصول «توأم عقلها».. لم تكن تعرف اسمه في تلك الآونة. كان مجرّد وجه، وعقل وكلمات! يشاركها ولعها بالقراءة، ويناقشها في كتبها المفضّلة، ثمّ يفترقان، بلا وعود أو عهود.

ولقد افترقا، إلى غير رجعة، ذات صباح.

ولم تدرك أبدا أنّ ما فرّق بينهما كان أبشع من أسوأ كوابيسها.. حتّى ملأ الخبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئيّة والمقروءة!

حادث مختبر الكيميائيات.. العمليّة الإرهابيّة المزعومة، وكبش الفداء: المتّهم العربيّ الذي كان حاضرا على عين المكان! لقد عاش عمر الكارثة، وحيدا، أصيب بحروق بالغة في الحادثة، وعانى من آلام فتّاكة.. ثمّ حين أخذ يتجاوز محنته، وجد نفسه في غرفة حجز انفراديّ، وقد وجّهت إليه تهمة التفجير الإرهابيّ!

تلمح تلك النّدبة البارزة أسفل عينه اليسرى. لم تفلح الجراحة في إخفائها. ستبقى شاهدة دائما على المأساة. استمرّت المحاكمة المضنية ثلاث سنوات كاملة، وقد استبسلت رنيم كمحامية دفاع، حتّى أثبتت براءته.. بعد حكم أوّل بالإدانة، واستئناف يائس! لقد صنعت تلك

العزيـزة المعجـزة، وقـد تورّطـت في القضيّـة حـتّى النخـاع، مهنيّـا ووجدانيّـا.

نعـمـ، يـا لقدرهـا! لقـد تُيِّمَـت هـي ورفيقتهـا، شريكـة سـكنها، بالرّجـل ذاتـه!

لكـنّ الظـروف كانـت قـد اختلفـت. لـم يكـن عمـر بحاجتهـا هـي -ياسـمين- في حبسـه، لكنّـه كان في حاجـة إلى رنيـم المحاميـة، إلى حماسـتها ومهارتهـا، ليسـتعيد حريّتـه.

هل كانت تضحية منها، أن تئد حلمها الوليد، وتفسح المجال لرنيم؟

وهل كان بيدها خيار آخر؟

إنّهـا لـم تكـن واثقـة إن كان عمـر يذكرهـا أصـلا! وهـل يفكّـر مـن يعيـش محنتـه في وجـهٍ مجهـولٍ كان يرافقـه في رحلـة المـترو؟! وحدهـم خاليـو البـال مـن الهمـوم يشـغلون أنفسـهم بالحـوادث البسـيطة العابـرة ويشـيّدون فوقهـا قصـورا مـن الرّمـال! وقـد كانـت هـي خاليـة البـال، مهيّـأة الوجـدان لاسـتقبال مغامـرة عاطفيّـة حالمـة!

لذلك خيّرت أن تكون واقعيّة عمليّة، وتحفظ ماء وجهها.

تـدرك الآن أنّهـا لـم تـره وجهـا لوجـه، منـذ سـنة عـلى الأقـل. منـذ الحفلـة الصّغـيرة، احتفـاءً ببراءتـه، قبـل سـنتين، تقاطعـت طرقهمـا بضـع مـرّات. لقـاءات قصـيرة خاطفـة، لا تحتسـب مقارنـة بحـوارات المـترو الخاليـة.

في تلك اللحظة، ارتفع رنين هاتفها، فانشغلت به عن المشهد أمامها.

- ياسمين، أين أنت؟

ارتفع نبضها أكثر عن ذي قبل وهي تردّ في تلعثم:

- أنا في «البيت الصغير».. ماذا عنك؟

- سأكون عندك خلال دقائق.

أغلقـت رنيـم الخـطّ قبـل أن تتمكـن ياسـمين مـن التّعليـق. هـل كان عليهـا أن تخبرهـا أن هنـاك زائـرا غـير اعتيـاديّ في المطعـم؟ حـين رفعـت ياسـمين رأسـها كان الرّجـلان عـلى بعـد خطوتـين مـن طاولتهـا. حيّاهـا عمـر بـأدب في

حين ظلّ هيثم يمسك بكفه في ألفة وودّ.

- كيف حال رسالة الدكتوراه؟

- بخير.. قريبا أنتهي منها.

علّق هيثم في خفة:

- إنّها تتعمّد التّأخير لتثير أعصابي!

ضحك عمر في حين احتجّت ياسمين:

- إنّه يبالغ. هل تظنّني أستمتع بإطالتها؟

- مرحبا!

التفت الجميع حين جاءهم صوت رنيم الذي يتداخل فيه المرح بالتذمّر، وهي تهرول في اتجاههم. وصلت بحضورها الطاغي مثل باقة زهر بريّ فوّاحة، أو جوقة عصافير كناري صادحة!

- الزّحام اليوم لا يطاق، والجو خانق بشكل لا يصدّق.. ونحن ما نزال في شهر أبريل! ينتظرنا صيف حارّ أكثر من العادة!

كانت تتكلّم، وأناملها تعبث بخصلاتها المسترسلة على كتفيها، مثل خيوط حرير ملتفّة في نهاياتها، بينما تتراقص أقراطها الماسيّة الطّويلة في نعومة وجاذبيّة. حتّى في ضيقها وعصبيّتها، يتدفّق من كيانها سحر لا يقاوم. لطالما تساءلت ياسمين، هل يمكن لبشر أيّا كان، ألا يقع في غرام رنيم؟!

لم تكن رنيم قد انتبهت إلى الرجل الذي يقف إلى جوار هيثم فتصرّفت على سجيّتها. وما إن التقت العيون وحصل التعارف حتّى توتّر الجوّ فجأة. توقفت الكلمات على شفتيها وفقد وجهها ألوانه. كان عمر أسرع منها في تمالك نفسه. سألها بلهجة محايدة:

- كيف حالك أستاذة رنيم؟

تمتمت بصوت مختنق لا تدري كيف تجاوز حلقها:

- بخير، وأنت؟

- بخير. شكرا لسؤالك.

كان يبدو باردا ولا مباليا لدرجة لم تتحمّلها. دون أن تشعر، أخذت تعبث في عصبيّة بالخاتم في يسراها. في الأثناء، كان هيثم قد استلم زمام الحديث ليمحو سطوة الارتباك التي سيطرت على الجميع. تحدّث بأمور عامّة بعيدا عن المسائل الشخصيّة، ثمّ دعا عمر لحضور حفل الزّفاف.

- سأحجز لك مكانا على طاولة العزّاب، حتّى تلفت انتباه الفتيات العازبات!

ضحك هيثم لمزحته.. لكن أحدهم لم يجاره. ارتسمت ابتسامات متشنّجة على وجوه ثلاثتهم. كان يحاول إضفاء بعض المرح، لكنّ ردّات الفعل جاءت مضطربة ومرتبكة. بدا أنّ أيّا من محاولاته لم تنجح في تجاوز المرارة التي غدت مسيطرة على العلاقات التي جمعتهم في السّابق. قالت رنيم وقد أيقنت أنّ عليها الإفلات أوّلا:

- كان من الجميل رؤيتكم جميعا، لكن لديّ عمل مستعجل.. يجب أن أذهب الآن.

ثمّ أضافت مخاطبة ياسمين:

- أراكِ مساءً!

أومأت ياسمين بابتسامة، ولوّحت تودّعها. لم يحاول أحدهم استبقاءها. وكأنّ رحيلها كان أمرا ضروريّا ومسلما به. استدارت على عقبيها وابتعدت بخطوات متعثّرة حتّى توارت في زحام المركز التّجاري. بعد دقيقتين، قال عمر وهو يشير إلى كيس الطعام في يده:

- لديّ بعض الأعمال. سآخذ طبقي وأتناوله في الطريق.

أومأ هيثم متفهّما ثمّ رافقه حتى المخرج.

تنهّدت ياسمين حين أصبحت بمفردها. عادت إلى مخطط موائد الحفلة وخربشت على طاولة في أقصى اليمين اسم رنيم، ثمّ اختارت أقصى طاولة ناحية الشمال ودوّنت عليها اسم عمر.

-٢-

دخل عمر غرفة الفندق وهو يشعر بضيق شديد. وضع ملفاته على المنضدة القريبة وفكّ ربطة عنقه وفتح ياقة قميصه، ثمّ استلقى على السرير المزدوج وهو يتنهّد. لم يكن يرتدي البدلات الرّسميّة وربطات العنق حبّا بها، لكنّها الأنسب في وضعه؛ فالياقة العالية والأكمام الطويلة تغطي مساحات جلده المحترق بشكل كاف.

رغم كلّ العمليّات الجراحيّة التي أجراها، فإنّه لم يحصل على جلد جديد بعد! ليس الأمر سهلا أو بسيطا. وتلك الندبة أسفل عينه اليسرى، قد لا ينجح في إخفائها أبدا. لكنّ ضيقه اليوم لم يكن بسبب الحروق. لقد مضى ما يناهز السّنوات الأربع على الحادثة. لقد ألف حالته الجديدة وتعوّد مشهد الجلد المنكمش المجعّد المشوّه.

لم يعد ذلك يؤثّر فيه؟

ليس بالضبط. لكنّه تقبّل ابتلاءه وتعايش معه. لم يعد يثير ذعره مثل الأيّام الأولى لتخلّصه من اللفافات القطنيّة البيضاء. ولم يعد صدره ينقبض ويقشعرّ جسمه كلّما التقت راحة يده بملمس تضاريس جلده البشع. لم تعد مسامّ بشرته تؤلمه ولا جراحه تؤرق نومه. لكنّ الوجع الجسديّ لم يكن أقسى ما عاناه بعد الحادثة.

بعد النّطق بالحكم الأوّل، عرف كيف تكون الوحدة حقّا. امرأتان كانتا عونا له في فترة تنويمه في المستشفى، اختفتا في نفس الوقت تقريبا. كارولين ورنيم. الأولى لم يكن يعتمد عليها كثيرا، لكنّ زياراتها سرّت عنه بعض الشيء. أمّا الثانية، فقد كانت كلّ شيء.. المحامية والصّديقة والأمل!

لا يذكر أنّه قد وثق في أحد من قبل مثلما وثق بها. أو افتقد أحدا

مـن قبـل مثلمـا افتقدهـا. لـم يكـن هنـاك سـبب أو مـبرّر معقـول واحـد لرحيلهـا المفاجـئ. وهـي لـم تكلّـف نفسـها حـتّى أن تختلـق واحـدا! حـتّى جـورج -رئيـس مكتبهـا- لـم يملـك أن يوضّـح شيئا. قـال إنّهـا رحلـت.. فقـط. هكـذا وبـدون مقدّمـات.

غيابهـا خلّـف فراغـا فظيعـا في وحدتـه. تزامـن ذلـك مـع انتقالـه إلى سـجن الإقليـم، حيـث وضـع في زنزانـة انفراديّـة. لـم تختلـف وحدتـه هنـاك عـن وحـدة المستشـفى أو عـن سـجن الإيقـاف. لكنّ الأمـل هـو الفـارق. لـم تعـد رنيـم تدخـل عليـه بأخبـار جديـدة وافتراضـات ونظريّـات. في الحقيقـة لـم يعـد يدخـل عليـه أحـد.. عـدا السّـجان حامـلا أطبـاق الطعـام الهزيلـة وغـير المستسـاغة.

وطـوال عـدّة أشـهر تلاعبـت بـه الهواجـس. توقّـع الأسـوأ. أن يكـون مكـروه قـد أصـاب بعـض أفـراد عائلتهـا، أو أن تكـون مشـكلتها الصحّيـة السّـالفة قـد غـدت مزمنـة وأقعدتهـا عـن العمـل، أو أن يكـون المدّعـي العـام قـد ورّطهـا في مخالفـة مـا حـتّى يتـمّ طردهـا مـن سـلك المحامـاة أو توقيفهـا عـن ممارسـة المهنة!

لـم يكـن هنـاك غـير تلـك الاحتمـالات المفجعـة الـتي بإمكانهـا إبعـاد رنيـم عـن القضيّـة. أو هـذا مـا ظنّـه لزمـن طويـل. حـتّى أخـبره جـورج بلهجـة هادئـة:

- رنيـم رجعـت إلى مـصر.. لـن تعـود. هـل تفهمـني؟ أنـا محاميـك الآن.. سـنقوم بعمـل جيّـد معـا. ثـق بي!

شرد عمـر في صدمـة. لقـد انتبـه في وقـت مبكّـر إلى ميلـه العاطفـيّ إليـه. لكنّـه اعتقـد طويـلا أنّـه سـيتجاهل تلـك المشـاعر ويقمعهـا بمجـرّد أن تنتهـي المحاكمـة. كان يحسـب أنّـه يمسـك بزمـام الأمـور وسـيتّخذ قـرار الانسـحاب بنفسـه عـن وعـي كامـل وقاطـع، حـين يصبـح الوقـت مناسـبا. لكنّهـا لـم تمهلـه. قـرّرت عنـه وانسـحبت مـن تلقـاء نفسـها لتتركـه في التّسـلل! عـاش انسـحابها كخيانـة قاسـية، لـم يتخطاهـا إلّا بصعوبـة.

لكنّها كانت فرصة سانحة، ليمحّص قناعاته ومبادئه. لقد كان ذلك هو الصّواب. الظّروف الشائكة: الحبس والوحدة والحاجة إلى الرّفقة، هي سبب التباس مشاعره. ما أحسّ به ناحية محاميته ليس إلا امتنان.. وما كان منها ليس إلا شفقة وتعاطف. مهما بدا ذلك قاسيا، فإنّ وضوح الرؤية أمر محمود، رغم ما يخلّفه من فراغ في الوجدان، وخواء في الرّوح.

ثمّ ظهرت اليوم. مثل رؤيا انشقّ عنها الضّباب! ظهرت هكذا، في تلك الظهيرة، رآها للمرّة الأولى منذ إطلاق سراحه. للمرّة الأولى يجمعهما فضاء مختلف عن السّجن والمستشفى وقاعة المحكمة. لم تعد تربطهما علاقة المحامية وموكّلها. كانت مختلفة. لا يقصد شكلها، فهي جميلة ومتألقة كعادتها. لكنّها لم تكن واثقة ومتحدّية مثل رنيم التي عرفها. بدت مذعورة وهشّة. كأنّها رأت شبحا!

نعم، لقد كان هو ذلك الشّبح. ولقد آلمته نظراتها الفزعة تلك. لم تسعد برؤيته.

لم يكن ينتظر منها ترحيبا حارّا أو مشاعر جارفة، لكنّه تمنّى لو يفاجئ في عينيها شيئا غير الصّدمة! ياسمين -فتاة المترو- كانت سعيدة برؤيته خارج السّجن، فلماذا لم تُبد رنيم قدرا ضئيلا من السّرور، كصديقة؟

نعم، لقد انتبه إلى الخاتم في يمناها، فهي لم تقصّر في شدّ الانتباه إليه. لكنّ ذلك لا يبرّر شيئا على الإطلاق. لم يكونا عدّوين يوما.. لماذا إذن؟

***

لم تدر كيف تمكّنت من الوصول إلى شقّتها، فقد كان كلّ شيء في الطّريق ضبابيّا وغائما من خلال دموعها. لم ترجع إلى المكتب لأعمال تشغلها كما ادّعت. كانت قد فرّغت فترة الظهيرة من أجل بعض التسوّق، ولعلّها كانت لتسحب ياسمين من بين أوراقها لترافقها. لكنّ كلّ مخطّطاتها انهارت في اللّحظة التي التقت فيها عيناها بعينيه.

تجاوزت غرفة الجلوس وألقت حقيبة يدها بإهمال، ثمّ هرولت إلى

غرفتها، وأغلقت بابها بإحكام، رغم أنّها كانت بمفردها في الشّقّة. اتّكأت عليه وأنفاسها تتهدّج في اضطراب. هل تحاول إيصاد أبواب قلبها، لتبقي مشاعرها الجارفة خارجه؟

كانت خائفة ترتعد، كأنّها ترفض حنينها إلى ماضٍ حسبته قد اندثر، حتّى داهمها على حين غرّة. ببطء شديد، انزلق ظهرها على امتداد الباب الخشبيّ حتّى استقرت جالسة على الأرض. حين لامس جسدها الجليز البارد، وضعت وجهها بين كفّيها وانخرطت في بكاء مرير.

كانت رؤية عمر اليوم أمرا غير متوقّع أو مأمول. مضت سنتان منذ رأته للمرّة الأخيرة في قاعة المحكمة، حين رافعت في قضيّته للمرّة الأخيرة. كان ذلك لقاءهما الوحيد خلال السّنوات الثلاث الماضية. لم تره قبلها أو بعدها، بعد أن فقدت كلّ السّيطرة على مجريات حياتها.

حين غادرت باريس قبل ثلاث سنوات، كانت تمنّي نفسها بعودة سريعة. إجازة قصيرة تقضيها مع عائلتها ثمّ تعود إلى عملها.. وإلى عمر. لكنّ أيّا من ذلك لم يحدث.

لقد تهت من ذاتك يا رنيم.. وفقدت البوصلة!

لقد كان رحيلها الأوّل اضطرارا.. لكنّ انسحابها من حياة عمر كان اختيارا. تستعيد الآن تفاصيل ذلك اليوم الأسود. يوم فرّت دامعة إلى المطار، بعد أن ساومت والدها على ثمن صحّتها. ستسافر إلى مصر، للنّقاهة، مقابل صكّ بقيمة خمسين ألف يورو! لقد أرادت لعمر أن ينتفع بذلك المبلغ، فيقوم بالجراحة التّجميليّة لندوبه إبّان الإفراج عنه.

كانت حالة كليتها الوحيدة المتبقّية قد تدهورت، بعد أن تبرّعت بكليتها الأولى، لحبّها الأوّل.. ميشال! تضحك الآن من نفسها. لشدّ ما كانت غبيّة! لقد تفانت في عاطفتها أكثر ممّا يقبله عقل. ضحّت بكلية، من أجل ميشال.. واقترضت مبلغا لا تقدر على سداده من أجل عمر!

والآن ماذا؟

لقد تخطّت كليهما.. أو هكذا حسبت.

***

القاهرة، أبريل ٢٠٠٥

حطت الطّائرة في مطار القاهرة عند العاشرة ليلا. كانت مرهقة من الرّحلة، مستنفدة الطّاقة بعد يومها المحتدم في المحكمة. قابلتها والدتها بحفاوة لم تعهدها، وعاملها الجميع برفق ومودّة.

- ريم، حبيبتي.. ما بال وجهك بهذا الشّحوب؟

ابتسمت في تمويه:

- أنا بخير.

- ستكونين كذلك.. تحتاجين القليل من الرّاحة. أنت جادّة وصارمة بشأن العمل.. مثل والدك تماما!

لم تشعر يوما بالقرب من والدتها. كانتا مثل غريبتين تحت سقفٍ واحد. طفلة، تركت تربيتها للمربّية، ولم تصاحبها في مراهقتها وشبابها، بل انشغلت عنها بالنّادي وسيّداته الـ«هاي كلاس»، ومنافساتهنّ السّخيفة حول الموضة والمكياج والمجوهرات والممتلكات.. ولم تطمع في أن يتغيّر ذلك فجأة.

تبيّنت بعد ذلك أنّ التّغيير المفاجئ كان بناءً على توجيهات والدها بمقتضى ثقافتها الحديثة. كانت تلك التمثيليّة المرتجلة للانسجام العائليّ ضمن خطّة ستكتشف كنهها تدريجيّا.

أمضت أيّاما هانئة بين النّزهة على شاطئ البحر والاسترخاء المريح في غرفتها، في شاليه الإسكندرية. كانت استراحة مستحقّة، بعد جهد مضنٍ في قضيّتها الشّائكة. وقد ساعد الطقس الرّبيعي المشمس على تحسّن مزاجها بشكل كبير.

كانت العائلة كلّها قد رافقتها في إجازة جماعيّة، لأوّل مرّة منذ.. منذ الأزل! لا تذكر قطّ اجتماع عائلتها الصّغيرة المتنافرة من أجل الإجازة في العقدين الماضيين.. والداها وهي وشقيقتها رانيا.. ولا أحد غيرهم!

لكنّ بالها ظلّ مشغولا بشدّة. كانت تتفقّد رسائلها الإلكترونية عدّة مرّات في اليوم، وأملها في كلّ مرّة أن تصلها بشرى من جورج بشأن الاستئناف. كانت قد سجّلت شهادة كارولين وحارس الشّركة -التي يفترض بها أن تصنع فارقا واضحا- وعهدت إلى رئيسها في مكتب المحاماة أن يرفع الطّلب إلى المحكمة. لكنّ كارولين نفسها اختفت، والشّهادة لا قيمة لها في ظلّ غياب صاحبتها! وكان على جورج أن يسعى في إثرها. ومع تعاقب الأيّام دون وصول الخبر المرجوّ، أخذت تثير موضوع الرّحيل من جديد.

قالت ذلك الصّباح على مائدة الإفطار وهي تتصنّع الانشراح:

- الله.. لقد كانت إجازة رائعة.. مضى زمن بعيد منذ حظيت بالاسترخاء هكذا لأيّام طويلة دون أن أفعل شيئا!

رمقها والدها بنظرة جانبيّة وهو يلوك لقمة من الأومليت، ولم يعلّق. فأضافت:

- أظنّني قد أخذت نصيبا كافيا من الخمول.

استمرّ يتجاهلها وهو يشير إلى مدبّرة المنزل بأن تسكب المزيد من الشّاي في قدحه، بينما تكلّمت رانيا التي لم تفارق عيناها جهاز الهاتف بين يديها، لتقول في سخرية:

- أفصحي يا أختي العزيزة.. قولي أنّك ترغبين في العودة من حيث أتيت، فالتّلميح لن يجدي!

رمقتها ريم بنظرة حادّة، وقالت في لين مخاطبة والدها:

- عندي قضايا معلّقة.. والعمل ينتظرني.

قال في لا مبالاة:

- سيتدبّرون أمرهم.

هتفت على الفور:

- إنّهم لا يفعلون! أنتظر منذ أيّام مستجدّات قضيّة هامّة.. هامّة جدّا.. لكنّهم لم يفعلوا شيئا بشأنها.. إن لم أهتمّ بالأمر بنفسي

فسـوف نخـسر القضيّـة!

ضرب بقبضته على المائدة في حزم:

- فلتذهب القضيّة إلى الجحيم! أنت لن ترجعي إلى فرنسا أبدا!

فغـرت فاهـا غـير مصدّقـة. لكـنّ والدهـا كان صارمـا أكـثر ممّـا توقّعـت. اسـتمعت إلى مرافعتـه الطويلـة عـن ضرورة نيـل قسـط وافـر مـن الرّاحـة لأنّها أهملـت صحّتها طويـلا وحمّلـت نفسـها مـا لا تطيـق، ثـمّ أعلـن بلهجـة قاطعـة:

- سـتعودين إلى الإقامـة مـع العائلـة بشـكل نهـائيّ في القاهـرة.. فهـذا مكانـك الطّبيعـي! تريديـن مكتبـا وقضايـا هامّـة؟ سـتحصلين عليهـا.. لا تقلقـي!

حاولت الاعتراض باستماتة:

- لكـنّ مسـيرتي المهنيّـة في باريـس كانـت في أوجهـا.. والتخـلّي عـن نجاحـاتي السّـابقة في هـذا التّوقيـت الحسّاس يعـني البـدء مـن الصّفـر!

- فليكن! لن تتغرّبي عنّا مرّة أخرى. لقد قررت وانتهى!

لـم تنفـع كلّ حججهـا: العقليّـة والمنطقيّـة، المهنيّـة والذّاتيّـة. كان والدهـا قـد غـدا أصمّ أمـام رجائهـا غـير المجـدي. حـين انـصرف إلى حصّـة الغولـف خاصّتـه، التفتـت إلى والدتهـا، تحـاول اسـتمالتها علّهـا تتكفّـل بإقناعـه، فقالـت السّيدة ناريمـان بابتسـامة:

- عزيـزتي، لقـد أصبحـت في سـنّ ملائمـة جـدّا للـزّواج، وعليـك ألا تؤخّـري ارتباطـك أكـثر ممّـا فعلـت.. ألا توافقينـي الـرّأي؟

كانـت قـد بلغـت السّـابعة والعشريـن. وكان يفـترض بهـا أن تتعـرّف إلى شـابّ «مناسـب» مـن حيـث المعايـير المجتمعيّـة. وبمـا أنّهـا لـم تحـضر عريسـا اختارتـه بنفسـها، فقـد صـار عليهـا أن تـرضى بطريقـة التعـارف التقليديّـة.. «زواج الصّالونـات»!

عضّـت عـلى شـفتها السّـفلى وهـي تـزن كلماتهـا التّاليـة. الأمّهـات غالبـا متفهّمـات لعواطـف بناتهـنّ. ربّمـا ليـس والدتهـا هـي، وربّمـا لـم تختـبر مـدى تفهّمهـا مـن قبـل. لكنّهـا قـد تنـدم إلى الأبـد إن هـي لـم تحـاول. قالـت في

تـردّد:

- في الحقيقة.. هناك شخص ما في حياتي!

التفتت إليها ناريمان بعينين متّسعتين دهشة وتحفّزا:

- حقّـا؟ لمـاذا لـم تنطقـي منـذ البدايـة؟ هـل هـو مـصريّ؟ مـن أيّ عائلـة؟ أيّ مركـز يشـغل والـده؟

زفـرت في ضيـق. مـا إن تـشرع في الـشرح، سـتفقد مسـاندتها المحتملـة عـلى الفـور.

- ليـس مصريّـا.. إنّـه مـن المغـرب! ولا أعـرف شـيئا عـن عائلتـه، لكنّـه دكتـور في الفيزيـاء، ومتميّز في مجالـه!

حدّثتهـا بشـأن عمـر وقضيّتـه الـتي كانـت تعمـل عليهـا في الفـترة الماضيـة، عـن الانفجـار التّخريـبيّ الـذي حطّـم حياتـه، وحبسـه ظلمـا وبهتانـا، ورجتهـا بـأن تسـاعدها في إقنـاع والدهـا بالسّـماح لهـا بالرجـوع إلى باريـس. وكانـت حدقتـا ناريمـان تتّسـعان صدمـة وذهـولا مـع كلّ كلمـة. حـين أنهـت رنيـم روايتهـا، كانـت ملامـح ناريمـان عابسـة جـادّة. لـم يكـن هـذا مـا توقّعتـه.

- دعيني أفكر.

لكـن مـا حصـل فيمـا بعـد، والـذي اعتبرتـه رنيـم خيانـة لسرّهـا، كان أبعـد مـا يكـون عـن التفهّـم والمسـاندة. فقـد نقلـت والدتهـا الحـوار بتفاصيلـه إلى والدهـا، ليدلـف إلى غرفتهـا في مسـاء اليـوم ذاتـه، وقـد انتفخـت أوداجـه واشـتعلت عينـاه حممـا. صرخ فيهـا في جنـون:

- مسـألة العـودة إلى باريـس أصبحـت طـيّ النّسـيان! ولا سـبيل إلى مراجعـة هـذا القـرار!

تكـوّرت رنيـم عـلى نفسـها في سريرهـا، مختنقـة بالعـبرة، وهـي تسـتعيد كلمـات والدهـا بحـقّ عمـر. كان ارتباطهـا بـه مرفوضـا تمامـا، فهـو لـم يكـن مصريّـا أوّلا، وعائلتـه لا تنتمـي إلى الطبقـة المخمليّـة ثانيـا، وهـو محكـوم بالسّـجن أخـيرا. وتلـك صفـات لا يمكـن تداركهـا!

-٣-

القاهرة، مايو ٢٠٠٥

مرّت ريم بفترة انهيار وإحباط شديدين. انتهت الإجازة التي أثبتت عدم جدواها، ورجع الجميع إلى القاهرة، يجرّون أذيال خيبة وتشتّت وتنافر!

أغلقت غرفتها على نفسها وامتنعت عن الحديث إلى والديها. جربّت إضراب الجوع لأيّام معرضة عن أطباق الطعام التي كانت تجيئها مع الخادمة. ثمّ أيقنت بأنّها محاولة يائسة، فلم يكن ذلك ليزحزح والدها عن موقفه قيد أنملة.

لكنّ معنوياتها ارتفعت فجأة، حين وردها اتّصال مفاجئ من جورج:

- عزيزتي ريم، أين أنت؟ عندي لك مفاجأة مذهلة!

- قل أيّ شيء يعيد إليّ الأمل يا جورج.. أتوسّل إليك!

ضحك وهو يقول في مرح:

- أين روحك القتالية يا أستاذة ريم؟ لم أعهدك مستسلمة هكذا!

همست في مرارة:

- ذلك أنّني لم أعرف الإقامة الجبريّة ولا إضراب الجوع آنفا! دعك من هذا.. هل ظهرت كارولين؟

- ليس كارولين.. لكن هل تذكرين البروفيسور ستيفان غارديان؟

- بالتأكيد!

إنها تعرف كلّ شاهد في القضية، ماضيه وخلفيّته وبياناته الشخصيّة، وتحفظ كلّ كلمة قيلت في نصّ شهادته!

- لقد زارني بالأمس في المكتب.. هل تصدّقين أنّه جاء يبحث عنك،

ليرفـع قضيّـة عـلى شريكـه كريسـتوف نـوارو؟!

كريسـتوف وسـتيفان، كانـا باحثـين في نفـس المركـز الـذي يعمـل بـه عمـر. كانـا شـاهدين رئيسـيّين في القضيّـة.. شـاهدي إدانـة! وجّهـا لـه تهمـة سرقـة تجاربهمـا البحثيّـة وتخريبهـا، ممّـا أدّى إلى حادثـة الانفجـار!

سـتيفان الـذي اكتشـف مـن خـلال محاكمـة عمـر وجـود ملـف أبحـاث ثـانٍ غـير ذلـك الـذي سُرق منـه، ذهـب للقـاء البروفيسـور سـامي كلـود -كمختـصّ مطّلـع وأيضـا كشـاهد في القضيّـة- وطلـب الحديـث معـه عـن أبحـاث عمـر.

كان عمـر قـد أرسـل نسـخة مـن أبحاثـه إلى البروفيسـور سـامي كلـود -والـد ياسـمين- قبـل حصـول الحادثـة وتفجـير المختـبر. حـين تيقّـن سـتيفان مـن وجـود اختـلاف جوهـريّ بـين البحثـين، تذكّـر أنّ شريكـه كريسـتوف هـو الـذي أوحـى إليـه بـإصرار أنّ الدكتـور عمـر كان يسـعى منـذ البدايـة إلى سرقـة أبحاثهمـا المشـتركة.. لذلـك تسـرّع ووجّـه إليـه تهمـة السرقـة العلميّـة في قاعـة المحكمـة!

لكـنّ كريسـتوف الـذي اطمـأنّ إلى الحكـم المسـلّط عـلى عمـر، اختفـى فجـأة دون إعـلام سـتيفان بوجهتـه، وتجاهـل أيّ تخطيـط للعمـل المرتقـب لاسـتكمال خطـوات مشروعهمـا المشـترك.

كل ذلك أثار ريبة ستيفان.

فقـام عـلى الفـور باتّصـالات كثيفـة بشـبكة علاقاتـه في مجـال الأبحـاث العلميّـة وقـد اسـتبدّت بـه الشـكوك، حـتى اكتشـف نشـاط كريسـتوف الجديـد مـع شركـة سـويسريّة لهـا فـرع محـليّ في منطقـة «غرونوبـل» الحدوديّـة. ولـم يطـل تقصّيـه حـتى اسـتوعب أنّ كريسـتوف بـاع حقـوق بحثهمـا المشـترك إلى تلـك الشركـة بالإضافـة إلى أبحـاث عمـر الـتي اسـتولى عليهـا!

ولأنّ الملفّـات الـتي صـارت بحوزتـه سريّـة وحصريّـة فقـد أدرك أنّ عليـه التـصرّف بسرعـة قبـل أن تصبـح المشـاريع قيـد التنفيـذ. كان يريـد الانتقـام مـن كريسـتوف بأبشـع الطـرق، وكانـت قضيّـة عمـر هـي الفرصـة المناسـبة.

لـم يكـن واثقـا مـن تـورّط كريسـتوف في قضيّـة التفجـيرات، لكـنّ بيعـه

مشروع عمر لشركة أجنبيّة كان كافيا للشك بشأنه. والقضيّة ستدمّر مستقبله المهنيّ وتنهي تعاقده مع الشركة السويسريّة. لذلك فقد دخل مكتب المحاماة ملوّحا بالمستندات الجديدة وهو يهتف:

- أين تلك المحامية؟

رحّب به جورج بشدّة حين علم فحوى الهديّة التي جاء بها ستيفان، ولم يتردّد بإعلامه عن شهادة الحارس بخصوص تواجد كارولين على عين المكان متكتّما عن اعترافاتها التي لم يكن بالإمكان توثيقها حتّى تلك اللحظة. لكنّ ستيفان صاح على الفور:

- يمكننا إثبات وجود علاقة وثيقة بين كريستوف وكارولين بسهولة. تواجد كارولين يوم الحادثة في الشركة وسرقة كريستوف لأبحاث عمر وبيعها لشركة أجنبيّة.. كلّ هذا يسمح بفتح ملفّ القضيّة من جديد!

هتفت رنيم غير مصدّقة:

- هذا مذهل يا جورج! يمكننا التقدّم بطلب الاستئناف حالا!

- متى ترجعين إذن؟

كتمت غصّة في حلقها وهي تقول في مرارة:

- ألم أخبرك؟ أنا رهن الإقامة الجبريّة! ابدأ الاستئناف بدوني.

***

تابعت رنيم المستجدّات عن طريق اتّصالات جورج المتواترة. صدرت بطاقة جلب دوليّة بحقّ كارولين، فتمّ إيقافها في مطار هيثرو البريطاني في غضون شهر واحد، في حين كان كريستوف يخضع للاستجواب بخصوص سرقة الملكيّة العلميّة. وما إن علمت كارولين بأنّ أمر كريستوف قد انكشف، تدفّقت الاعترافات من شفتيها بلا أدنى احتراز أو مواربة. لم تكن تدرك أنّ كريستوف يقاضى بشأن السّرقة وحسب وأن شهادتها هي التي ورّطته بصفة نهائية في قضيّة التفجيرات!

انتعشت رنيم في منفاها. كانت الأخبار تصلها أوّلا بأوّل. ورويدا رويدا

بـدأت تخـرج مـن عزلتهـا وقـد أعـادت الأخبـار الحيـاة إليهـا. وبـدأت العمـل عـلى خطّـة محكمـة لـم يكـن لهـا مـن هـدف وراءهـا إلّا إقنـاع والديهـا بالسّـماح لهـا بالسّـفر لحضـور المحاكمـة الجديـدة!

صـارت ترافـق والدتهـا للأمسـيّات الاجتماعيّـة الـتي كانـت تقدّمهـا خلالهـا بفخـر عـلى أنّهـا محاميـة ناجحـة عائـدة مـن تجربـة باريسـيّة متألّقـة.

ثمّ كانت تلك السّهرة.

وصلـت برفقـة والدتهـا قبيـل السّـاعة العاشرة. كان بهـو الفيـلا الـتي تقـام فيهـا حفلـة «الـتّزاوج» تلـك ممتلئـا عـن آخـره، بالأمّهـات الفخـورات والشّـبّان الأنيقـين والفتيـات المسرفـات في الزّينـة. وكانـت ناريمـان تحـرص عـلى الوصـول متأخّـرة عـن الجميـع، حـتّى يكـون لدخولهـا ورنيـم أثـر في نفـوس الحاضريـن، فتسـتدير الأعنـاق الفضوليّـة والمفتونـة لترقـب باهتمـام مقـدم الحسـناء الـتي تتكلّـم الفرنسـيّة! توصيهـا ناريمـان بحـرص:

- تكلّمي كأنّك في باريـس! الفرنسـيّة لغـة راقيـة ونغمتهـا ذات رنـين جـذّاب.. ثـمّ اعتـذري بخفّـة وقـولي.. «لقـد نسـيت نفسـي، باريـس أصبحـت جـزءا مـنّي»!

فتقهقـه رنيـم في اسـتمتاع! كانـت خطـط والدتهـا لاصطيـاد العريـس تذهلهـا وتغرقهـا في ضحـك هسـتيري. لكنّهـا كانـت تتعمّـد أن تفقدهـا أعصابهـا.. ففـي الوقـت الـذي تخطـو فيـه ناريمـان إلى البهـو، رافعـة ذقنهـا في خيـلاء، تتخلّـف عنهـا رنيـم خطوتـين، ثـمّ تنسـحب وتغيـب وسـط الجمـوع، قبـل أن تتمكّـن مـن تقديمهـا بالأسـلوب المتغطـرس الـذي ترتضيـه.

كانـت قـد تركـت المقاعـد الوثـيرة المتفرّقـة في البهـو والشّرفـة، وارتقـت برشـاقة -رغـم فسـتان السـاتان الطّويـل- لتجلـس عـلى حافّـة الجـدار المنخفـض المطـلّ عـلى المسـبح. التظاهـر باللّباقـة والـتزام الإيتيكيـت مـن أجـل إغـراء رجـل مـا -أو والدتـه- بالتقـاط الطّعـم لـم يكـن ضمـن نواياهـا.

- هل تحتاجين شيئا من البوفيه؟

التفتـت حـين وصلهـا ذلـك الصّـوت الرّجـالي. فألفـت شـابّا يرتـدي قميصـا

أبيض وبنطالا أسود. بدا مثل نادل. قالت بعفويّة:

- عفوا.. هل الاستهلاك إجباريّ؟

حدّق فيها الشّاب في دهشة، ثمّ قال موضّحا:

- كنت أهمّ بإحضار شيء لنفسي، ولاحظت أنّك لا تحملين طبقا.. فعرضت الخدمة!

ضحكت من نفسها في حرج وقالت:

- أنا آسفة.. المطاعم في باريس لا تسمح لك بالجلوس ما لم تطلب شيئا.. لذلك اعتقدت أنّ الأمر ينطبق على هذه الحفلة.

ابتسم وهو يقول مداعبا:

- آها.. إذن الآنسة كانت تعيش في باريس؟

التهبت وجنتاها وقد ازداد حرجها. ها أنّها تطبّق دون قصد مخطّط والدتها في التّعريف بنفسها! قال وقد لاحظ ضيقها:

- الطّعام هنا جيّد.. في الحقيقة، لا أحضر إلّا من أجل الوجبات المجانيّة!

ضحكت غصبا عنها، ثمّ قفزت بخفّة عن الجدار وهي تقول:

- حسنا، لقد أقنعتني.. سأنتقي شيئا آكله!

سارا باتّجاه البوفيه، اختار كلّ منهما بعض الأصناف، ثمّ عاد برفقتها إلى الجدار. شهاب.. كان ذلك اسمه. أسرّ إليها بأنّه يصحب والدته مكرها إلى تلك السّهرات، لأنّها لم تتوقّف عن محاولة إيجاد عروس من أجله. تحدّثا ببساطة عن كلّ شيء ولا شيء بدون تكلّف أو اهتمام. لم يسألها ابنة من تكون وماذا تعمل وهي لم تهتمّ بمقدار ثروة والديه والعلامة التّجاريّة لحذائه وساعته الأنيقين، وكان ذلك مناسبا لكليهما.

حين انتهت السّهرة، وحان موعد المغادرة، سألها ببساطة:

- هل أطمع في لقائك -صدفة- الأسبوع المقبل؟

ضحكت وهي تقول في غموض:

- ربّما!

حين انفردت بها ناريمان في السيّارة أخيرا، هتفت في استحسان:

- لقد رأيتك برفقة شهاب صادق.. بدوتما منسجمين!

قالت في لا مبالاة:

- إنّه شابّ لطيف.

- وعائلته ثريّة! إنّه مناسب من كلّ النّواحي.. دكتور جرّاح، لقد عاد لتوّه من أمريكا بعد أن أنهى تخصّصه!

قالت رنيم في سخرية:

- لقد أجدت التقصّي.. هل تعرفين مقاس حذائه؟

- كوني جادّة قليلا! والدته جاءت لتحدّثني بعد أن انتبهت إليك.. من الواضح أنك تعجبينها!

لم يكن ذلك ما خطّطت له. لقد أمضت أمسية جيّدة وحسب. هزّت كتفيها استهانة، بينما تواصل ناريمان:

- هل تعرفين أنّ والده يمتلك مصانع أحذية تصدّر إلى السّوق الأوروبيّة؟ وعمّه..

لم تعد تصغي عند ذلك الحدّ. سرحت بنظراتها عبر النّافذة. فكّرت في ضيق.. هل يعتقدون أنّ لقاءً عابرا في سهرة اجتماعيّة سخيفة، قد ينسيها عمر؟

***

تكرّر لقاؤها بشهاب «صدفة» بعد أسبوع. كانت تعرف عنه الكثير هذه المرّة، بقدر ما زنّت والدتها في أذنيها بشأنه.. وبدا أنّ والدته قد لقّنته كلّ المعلومات التي جمعتها عنها هي الأخرى! قال بتلقائية:

- محامية إذن؟

هزّت رنيم حاجبيها، وقالت بلهجة ذات معنى:

- هل يعترض الدّكتور الجرّاح على الاختصاص الأدبيّ؟

رفع كفّيه علامة الاستسلام وقال بأسلوب مسرحيّ:

- سأعترف بكلّ شيء.. إذا ضمنت محاكمة عادلة!

ضحكت، وقد بدا لها الحوار بشكل ما مكرّرا. لقد سمعت القصّة ذاتها، عن لقاء الرّجل «العلميّ» بالأنثى «الأدبيّة».. حين تعارف ياسمين وهيثم! علم الاجتماع والحاسب الآلي.. والآن، المحاماة والطبّ. ابتلعت مرارتها مع جرعة العصير وهي تقول في نفسها ساخرة.. لقد قرع الحبّ بابي وبابك يا عزيزتي، لكنّنا انتهينا إلى زواج الصّالونات!

- ما رأيك في هذه اللعبة.. تحدّثيني عن أكثر قضيّة عملت عليها إثارة، وأحدّثك عن أكثر عمليّة جراحيّة أجريتها تعقيدا!

لم ترقها الفكرة. لم يكن يسلّيها أن تتحدّث عن قضيّتها الأهمّ -قضيّة عمر- في الوقت الحالي. لذلك قالت متظاهرة بالتقزّز:

- عمليّات جراحيّة ودماء وبطون مفتوحة وأعضاء خارج الجسم؟! لا شكرا، لست مهتمّة!

ابتسم شهاب، ثمّ قال بهدوء:

- لا تبدين في مزاج جيّد اليوم!

رشفت ريم من عصيرها في صمت. شعرت بالضّجر فجأة، فقالت في ملل:

- لن تكون هناك «صدفة» أخرى.. لقد قرّرت التمرّد. لن أحضر سهرات سخيفة بعد الآن!

أومأ شهاب مؤيّدا:

- قرار شجاع!

- حظّا موفقا إذن.

- ماذا لو حذوت حذوك؟

رفعت حاجبيها:

- هل الابن المطيع قادر على التمرّد أيضا؟

- فلنقل أنّني وجدت بعض الحجج.. بفضلك!

- آها؟

- سأحتفظ بها لنفسي في الوقت الحالي.. لكنّني سأخبرك بكلّ شيء، إذا وافقت على لقاء آخر.

زوت ما بين حاجبيها في شكّ، فسارع يقول:

- كصديقين!

لم يكن لدى رنيم أصدقاء في تلك الآونة. كانت قد خلّفت ياسمين وعمر وجورج في باريس وانقطعت عن العالم منذ رجوعها. أمّا معارفها الجدد، فلم يثر أيّ منهم رجلا كان أم امرأة اهتمامها.. ما عدا شهاب. لذلك لم ترفض. قالت في تمنّع مصطنع:

- سأفكّر في الأمر.

- جميل.. نادي الفروسيّة؟ السّبت القادم.. على السّاعة الرّابعة عصرا؟

وقد كانت في الموعد. لم يمانع والداها أبدا، بل أبديا غبطة عارمة لعلاقتها المرتقبة بشهاب. رافقته رنيم بضع مرّات إلى نادي الفروسيّة، فتعرّفا على بعضهما بعضا بين الجولات على صهوة الجياد العربيّة الأصيلة.

كان شابا محترما وعلى قدر من الوسامة والجاذبيّة. لم يغازلها بوقاحة ولم يتبجّح بثروته ومكانته الاجتماعيّة، إضافة إلى كونه مستمعا جيّدا.. وهي كانت بحاجة إلى التّنفيس عن مكنونات صدرها. شكت له عناد والديها ومنعهما إيّاها من السفر للانتهاء من قضيّتها، لكنّها سكتت عن مشاعرها الخاصّة تجاه عمر. فوجدت منه تشجيعا ومساندة.

ثمّ وصلتها دعوة مفاجئة من والدة شهاب على العشاء!

- لا تخشي شيئا.. إنّها مجرّد وجبة عشاء عائليّة!

قال مهوّنا عليها وهو يلمح صدمتها.

- ما الذي يظنّه والداك بشأني.. أصدقني القول؟

- إنّهما يظنّان ما يريدان أن يظنّاه. أوليس كلّ الأولياء بهذا الشّكل؟

طمأنتها ابتسامته. إنّها تعرف توقّعات والديها أيضا. لكنّ علاقتها بشهاب لم تتعدّ الصّداقة البريئة. أخذت نفسا عميقا وقالت:

- ما الذي سيحصل لو اعتذرت؟

- لا شيء! لا شيء حقا.. أنت لست مجبرة. لكن...

- لكن ماذا؟

- قبولك سيكون خدمة لي ولك.. لا مزيد من السّهرات الاجتماعيّة السّخيفة.. أليس كذلك؟

فكّرت للحظات. لقد كان محقًا. تنهّدت وهي تقول:

- أقبل وأمري لله!

حين أعلنت ذلك المساء أمام والديها أمر الدّعوة، قرأت علامات الفرح الطاغي على ملامحهما. كانت تلك خطوة مبشّرة. لقد باتت قاب قوسين أو أدنى من الارتباط المنتظر! لم تنم ناريمان تلك اللّيلة وهي تقلّب في خزانة رنيم، تنتقي عنها الفستان المناسب للقاء رسميّ بحماتها المستقبليّة!

في الأثناء، كانت إجراءات الاستئناف تتقدّم وأصبحت مسألة السّفر ملحّة أكثر. وقد كان توقيت الدّعوة مناسبا للغاية. حين رجعت من ضيافة عائلة شهاب، تحدّثت بإسهاب عن الاستقبال الفاخر والطعام الشهيّ والحفاوة البالغة.. تركت لوالديها المساحة الكافية ليهنّئا نفسيهما بالمصاهرة الثّمينة التي تلوح في الأفق. لكنّها بدت شاردة ومهمومة على مائدة الإفطار في الغد. استجوبتها ناريمان في شكّ:

- هل اتّصل شهاب؟ هل قال والداه شيئا بشأنك؟

هزّت رأسها علامة النّفي، فتنهّدت والدتها في ارتياح ثمّ رمقتها في عتاب:

- يفترض بالعروس الموعودة أن تكون أكثر تألقا.. أم أنّ السّهرة أرهقتك؟

تنهّدت رنيم في ضيق وهي تقول:

- لقد تحدّد موعد المرافعة في القضيّة بعد أسبوعين.

اختلست نظرة مترقّبة إلى والديها، وهي تضيف بزفرة حارّة:

- أشعر بأنّني إن لم أقف في قاعة المحكمة هذه المرة، لأنهي ما بدأته.. فسأندم بقيّة حياتي!

بشكل غريب -ومتوقّع في آن- كان والدها ألين عريكة وأكثر تفهما هذه المرّة:

- إن كان الأمر يعني لك الكثير، فلا بأس.. يمكنك المرافعة لمرّة أخيرة في هذه القضيّة!

قفزت غير مصدّقة لتعانقه بحماس وبهجة. صبرها وخطّتها المحكمة آتيا أكلهما أخيرا! لكنّها كانت تشعر بشيء من الضّيق لاستغلالها شهاب، من أجل تحقيق غايتها.

أعاد إليها والدها جواز سفرها في الغد بعد أن انتزع منها وعدا بأن تمكث أسبوعا واحدا، وترجع بعد النطق بالحكم مباشرة ودون تأخير. كانت تدرك أنّ علاقتها بشهاب هي الضّمان الرئيسي بالنسبة إليه وليس الوعد الذي قطعته!

***

سافرت إلى باريس مرّة أخرى.

عكفت مع جورج على إعداد المرافعة طيلة الأسبوع، وسمح لها هذه المرّة أيضا بأخذ الكلمة. كانت تبدي من الاستماتة قدرا لا يدع للشك في جدّيتها مجالا.

دمعت عيناها وهي تدلف إلى قاعة المحكمة من جديد بعد إجازتها القسريّة. ظهر عمر عند منصّة الدّفاع. كانت قد غابت عنه قرابة الشهور السّتة! قرأت في عينيه الدّهشة والمفاجأة، وهو يراها تتّخذ مجلسها إلى جواره، كأنّ شيئا لم يكن!

كأنّها لم تتركه كلّ تلك المدّة للهواجس تنهشه!

تلقي التّحيّة ببساطة، كأنّها قد تحدّثت إليه بالأمس!

تأخـذ الكلمـة ليصـدح صوتهـا في قاعـة المحكمـة مثـل الأيّـام الخـوالي! لـم يكـن يعلـم كـم تطلّـب الأمـر مـن تضحيـات ومعانـاة حـتّى تقـف ذلـك الموقـف مـن جديـد. ولـم يكـن ليحـزر كـم جاهـدت لتغلـب عبرتها وتتماسـك أمـام القـاضي والمحلّفيـن، ووجهـهُ النّاضـح بالمـرارة والقسـوة يلـوح لهـا مـع كلّ التفاتـة.

- شكرا لاستماعكم!

أنهـت مرافعتهـا. ألقـت بمـا في جعبتهـا عـلى مسـامع الحاضريـن، ثـمّ فـرّت خـارج قاعـة المحكمـة.. وقـد غلبتهـا العـبرة. وضعـت كفّهـا عـلى صدرهـا، تسـيطر عـلى اضطـراب نبضهـا، ولهفـة فؤادهـا وحرقـة أنفاسـها. لقـد فعلـت مـا بوسـعها، والأمـر الآن بـين يـدي الله!

- لقد عاد المحلّفون!

ناداها جورج وهو يبتعد مهرولا.. لكنّها ابتسمت في وهن وقالت:

- اذهب أنت.

هـل بوسـعها أن تتحمّـل الوقـوف عـلى المنصّـة لحظـة إضافيّـة؟ سـتخونها قدماهـا لا محالـة، مهمـا كانـت نتيجـة الحكـم!

***

سيطر الذّهول على مشاعره ذلك اليوم.

رآهـا تدخـل قاعـة المحكمـة، بـدت أكـثر نحافـة وأشـدّ شـحوبا. لـم يخـبره جـورج بقدومهـا، ولـم تشـارك في جلسـات التّحضـير للاسـتئناف. وصلـت مـن أجـل المرافعـة النّهائيّـة.. دخلـت مثـل ريـح عاصـف، صدحـت بخطبتهـا العصمـاء، بصـوت واثـق مزلـزل، ثـمّ دارت عـلى عقبيهـا لتغـادر بنفـس الكبريـاء والأنفـة!

كأنّهـا تذكـره بأنّهـا محاميـة لا أكـثر، وأنّهـا تضـع مسـافة بينهـا وبـين موكّلهـا الـذي بـدأت علاقتهـا بـه تحيـد عـن المسـار الجـادّ. لقـد عـادت مـن أجـل

المهمّـة وحدهـا!

وهل يمكنه أن يلومها؟

لكنّ ذلك لم يكن كلّ نصيبه من الصّدمات!

في مقاعـد الحضـور في قاعـة المحكمـة، لمـح وجهـا مألوفـا آخـر.. فتـاة المـترو! كانـت تبتسـم، وتشـير إليـه بكفّيهـا المضمومتـين بتحـدّ، أن اصمـد!

ثـمّ خـرج المحلّفـون، بعـد مـداولات قصـيرة -مثـل المـرّة الأولى- للنّطـق بالحكـم. لقـد كانـت عودتهـم السريعـة سـابقا نذيـر شـؤم.. فهـل تكـون بـشرى خـير هـذه المـرّة؟

***

انتظـرت رنيـم خـارج القاعـة وهـي تصـارع متناقضـات الإحبـاط والأمـل داخلهـا. كانـت أوفـر ثقـة هـذه المـرّة، لكـنّ للانتظـار رهبتـه.

فجـأة، تعالـت صيحـات عاليـة في الدّاخـل. فهـوى قلبهـا عنـد قدميهـا. لـم تتمالـك نفسـها، واتّصلـت في لهفـة بياسـمين. قبـل أن تنطـق بكلمـة واحـدة، وصلهـا صوتهـا النّابـض فرحـا، يهتـف في حـرارة:

- مبارك يا رنيم مبارك! براءة!!

- حمدا لله!

تمتمت في تأثر وقد تركت العنان لدموع الارتياح وغشيتها السّكينة.

- لكن أين أنت؟ لا أراك في قاعة المحكمة؟

كفكفت رنيم دموعها ثمّ همست مودّعة:

- لا تقلقي بشأني.. ولا تنسي الأمانة!

ثمّ أنهت المكالمة، وأغلقت الهاتف.. ومضت إلى المطار.

***

براءة!

ظنّ أنّه لن يسمع تلك الكلمة أبدا.

انهار عمر على المقعد، وأجهش ببكاء مرّ. لقد انقضى الكابوس! أخفى وجهه بين كفّيه، فلامستا آثار الحريق على بشرته. هل انتهى الكابوس حقّا؟ إنّه هنا، في كل مكان من جسده، وهنا أيضا داخل صدره. تنهّد بحرقة. هذا الكابوس لا ينتهي.. ولن ينتهي أبدا.

لقد ترك بصمة أبديّة في كلّ إنش من كيانه!

أحاطت به جموع المهنئين، جورج في المقدّمة، ووجوه أخرى مجهولة، عرب وفرنسيّون، صحفيّون وناشطو حقوق إنسان، ومواطنون عاديّون، رجال ونساء.. وبين كلّ هؤلاء، كان وجه فتاة المترو يطالعه مطمئنا بابتسامة وديعة. تجوب عيناه بين السّحنات الأجنبيّة، ثمّ تعود لتحطّ على ملامحها الدّافئة والمطمئنة.

من الغريب أن يحفّ وجهها بمحنته ابتداءً وانتهاءً.

ياسمين. كان ذلك اسمها. وقد عرفه أخيرا. بعد سنتين. وبعد فوات الأوان!

كانت آخر شخص فكّر فيه قبل أن يحصل الانفجار، وبعد ما يقارب السّنتين، كانت أوّل الوجوه التي رحّبت به في عالم الطلقاء. لا شكّ أنّ فترة السّجن الطّويلة بلّدت إحساسه. لم يعرف أيّ نوع من ردود الفعل كان يجدر به أن يبدي.. لذلك فقد اكتست ملامحه بالذّهول وحده!

لم يدر كيف ومتى وصلتها أخباره حتّى جاءت من «ليون» -حيث خلّفها- لتحضر محاكمته. ولم يكن بوسعه أن يسأل، فقد كان برفقتها خطيبها. هيثم.

كان ثقب مظلم قد ابتلعه طيلة فترة الأسر ولم يلفظه سوى اليوم.. لكنّ الحياة خارج ثقبه الأسود كانت قد استمرّت، غير عابئة بغيابه! رغم ضبابيّة أفكاره وارتباك حواسّه أمام سمفونيّة المشاعر المتضاربة التي تعصف بوجدانه، فقد تساءل فجأة.. هل كان مقدّرا له أن يسجن حتّى تذهب هي في سبيلها؟

هل هذا ما يسمّونه «المكتوب»؟

ماذا تراه حلّ بها لو كان سبق القدر وتقدّم إليها قبل ساعات من الانفجار؟

لم يشأ أن يبحر في لجّة الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة، لأنّ أيّ شيء من ذلك لم يعد مهمّا.

- يجب أن نحتفل!

كان جورج من اقترح، وأيّده آخرون. أمّا هو، فقد كان مسيّرا، كأنّ الحدث لا يهمّه. يرى البشر على وجوههم، ولا يجد صدى له بداخله.

هل ماتت روحه أثناء المحنة، فما عاد يعرف سرورا ولا حياة؟

كانوا قد أعدّوا احتفالا من أجله. تناولوا وجبة معا في مطعم عربيّ قريب. كانوا جميعا سعداء ومنشرحين، وبدا هو تعيسا ومتعبا بشكل لا يمكن تفسيره! رغم الدّعوات السّخيّة الّتي تلقاها، انسحب وحيدا إلى غرفة فندق. أوصله جورج حتّى مكتب الاستقبال، وسلّمه تذكرة قطار ينطلق إلى «ليون» صباح الغد، كان قد طلبها منه.

قبل أن يرحل عن المطعم، لحق به هيثم عند ناصية الشّارع. وضع في كفّه ظرفا مغلقا، فحدّق به عمر متسائلا:

- ما هذا؟

- تعويض بسيط، عن كلّ الألم الذي عشته. لعلّه لن يمحو ما حدث.. لكنّه سيساعدك على بداية جديدة. تقبّله منّي، نيابة عن كلّ الأشخاص الذين لا تعرفهم.. لكنّ أمرك يهمّهم!

لبث فاغرا فاه لبرهة. هذا رجل غريب يراه للمرّة الأولى، لكنّ كلماته تبدو صادقة وقريبة من القلب. لم يكن قد استوعب الموقف بعد، حين أخرج هيثم بطاقته الشخصيّة ووضعها في كفّه أيضا.

- هذا رقم هاتفي.. اتّصل بي متى شئت. سيكون شرفا لي أن نصبح صديقين.

ابتسم في ودّ وامتنان.

لقد أحسنت فتاة المترو اختيار رجلها.

-٤-

بـات في غرفـة الفنـدق ليلـة واحـدة قبـل أن يسـافر إلى شـقّته في ليـون. اتّصـل بـه جـورج ذلـك المسـاء، وتحدّثـا طويـلا. انتهـت المحاكمـة، لكـنّ المعركـة الحقيقيّـة تبـدأ الآن. قـال جـورج في تصميـم:

- لا يجـب أن يمـرّ الحـادث مـرّ الكـرام. بإمكاننـا الإفـادة مـن الأزمـة، إذا عرفنـا كيـف نوجّـه الدّفـة لصالحنـا. طبعـا، لا أتحـدّث عـن التّعويـض الـذي قضـت بـه المحكمـة. كريسـتوف سـيدفع.. لكنّـه لـن يكـون الوحيـد!

أصغى إليـه عمـر في اهتمـام. كان منهـكا مـن التّجربـة القاسـية، ولـم يكـن يحلـو لـه الاسـتغراق في البـكاء عـلى الأطـلال.. لكـنّ اقـتراح جـورج كان يسـتحقّ الانتباه.

- هنـاك جبهتـا هجـوم يجـب أن نقـف عليهـا. الحـادث والمسـؤوليّة القانونيّـة فيـه، بالشّـكل الـذي عشـته أنـت يعتـبر «حـادث عمـل».. الحـادث مدبّـر، نعـم. لكـنّ المـواد الأوليّـة متوفّـرة في إطـار العمـل. وهـو نتـاج تجربـة كيميائيّـة، وهـذا مـن صميـم محيـط العمـل. الآن، المختـبر قـد تدمّـر بالكامـل، وشركـة التّأمـين سـتنتهي قريبـا إلى دفـع التّعويضـات للمتضرّريـن. هنـاك عائـلات الضّحايـا.. وأيضـا، يجـب أن يكـون لـك نصيـب لا بـأس بـه منهـا! للـضّرر الجسـديّ والنّفسيّ سـويّا! سـنطالب بأكـبر قيمـة ممكنـة.. رقـم بسـتة أصفـار، إن كنـت تفهمنـي!

سكت جورج برهة، يترك لمحدّثه مهلة لاستيعاب الفكرة:

- أمّـا الجبهـة الثّانيـة، فهـي مهاجمـة مؤسّسـة النّيابـة العموميّـة، ومـن ورائهـا الدّولـة الفرنسـيّة! محاكمـة الضّحيّـة بتهمـة الإرهـاب وسـنتا سـجن لمصـاب بحـروق مـن الدّرجـة الثالثـة.. لا يمكـن غـضّ الطّـرف عـن هـذا! سـنرفع قضيّـة بتهمـة التحيّز والتّعامـل بأسـس عنصريّـة.. القـذف وتشـويه السّـمعة، وسـنثبت الـضّرر النّفـسي الـذي عانيـت منـه طيلـة سـنتين مـن الحبـس

الظالـم.

أومأ عمر في تركيز، بينما تابع جورج:

- هنـاك سـابقة قضائيّـة تحـضرني.. في ١٩٩٣، اختُطـف موظّفون ديبلوماسيّون مـن القنصليّـة الفرنسـيّة بالجزائـر، واتّهـم في تلـك الحادثـة نشـطاء مـن المعارضـة الجزائريّـة يقيمـون في باريـس.. حوكمـوا عـلى الفـور، ودسّـت وثائق تثبـت إداناتهـم لتوريطهـم. منـذ سـنوات قليلـة، في ٢٠٠٢، ثبـت التّدليـس في الأدلّـة وأعلنـت بـراءة المتّهمـين، ثـمّ حكمـت المحكمـة بتعويـض هائـل.. ملايـين اليـوروات! هـل فهمـت مـا أعنيـه؟

قـضى عمـر أسـبوعين في ليـون، رتّـب خلالهمـا أمـوره دون حمـاس أو اهتمـام. تخلّـص مـن محتويـات الشّـقة وأثاثهـا. جمـع حاجياتـه الأساسـيّة وكتبـه ومراجعـه العلميّـة في حقيبتـين، وسـافر إلى المغـرب.

حـطّ في «مراكـش»، عنـد شـقيقته عائشـة. كان أصغـر إخوتـه الأربعـة. أنجبتـه والدتـه عـلى كـبر، بعـد ثلاثـة ذكـور وأنثـى واحـدة. ثـمّ رحـل والـداه وخلّفـاه مراهقـا يافعـا، لتعنـى عائشـة بأمـره مثـل ابنهـا البكـر.

نـام نومـا عميقـا، في ليلتـه الأولى في مراكـش، عـلى حشـيّة صوفيّـة ملقـاة فـوق حصـير حلفـاء، في غرفـة المؤونـة مـن منـزل شـقيقته! اختـار تلـك الغرفـة القصيّـة، ليكـون بمفـرده. كانـت أطـول نومـة عرفهـا، منـذ أمـد بعيـد. ولـم يكـن يريـد أن يسـتيقظ. لـم يكـن هنـاك مـا يدعـوه إلى الاسـتيقاظ!

لـم يكـن قـطّ اجتماعـيّ الطّبـع، وقـد اعتـاد العزلـة والعتمـة فـترة الحبـس. كان قليـلا مـا يغـادر الغرفـة النّائيـة الـتي تقـع في الفنـاء الخلفـيّ للبيـت، ولـم يكـن أحـد يقتحـم عليـه منفـاه.. باسـتثناء عائشـة، حـين تحـضر لـه طعامـه أو تذكّـره بدوائـه، أو تحـاول مسـامرته.. فـلا تجـد منـه إلّا إعراضـا.

يطـلّ عليـه ولداهـا اليافعـان مـن حـين لآخـر في فضـول، يسـترقان النّظـر عـبر شـقّ البـاب إلى الخـال المهاجـر الـذي لـم يزرهمـا منـذ سـنين، ثـمّ يتهامسـان بشـأنه لبرهـة قبـل أن ينسـحبا دون التجـرّؤ عـلى مخاطبتـه.

- ألن تنضمّ اليوم إلينا على المائدة؟

استوى جالسا حين انفرج الباب وعبر شعاع الشّمس التي غدت في كبد السّماء مساحة انزوائه.

- إخوتك هنا.. اتّصل بي حامد مساء أمس حين عرف بعودتك. إنّهم قلقون بشأنك!

ابتسم في سخرية. ليسوا مثالا للعائلة المتلاحمة. حتّى أنّ غيابه لثلاث سنوات متتالية لم يثر قلقهم أو حتّى فضولهم! لا شكّ أنّهم تهامسوا فيما بينهم كما يفعلون دائما:

- عمر محظوظ.. إنّه يتنعّم بجنّة أوروبا، بينما نحن مدفونون بالحياة!

أومأ في استسلام:

- سآتي بعد قليل!

ترك مرقده بعد انصرافها. جرّ قدميه باتّجاه صنبور المياه بالحوش الخارجيّ. غمر وجهه بالماء، ومسح على شعره، علّ برودته اللّاذعة تنبّه حواسّه الخاملة. رفع رأسه إلى السّماء. إنّها رحبة وشاسعة، يحلّق فيها الطّير بجناحين مشرعين، وينطلق إلى الحرّيّة.. أما أنت يا عمر -فرغم حريّتك التي تحسب نفسك استعدتها- مكبّل بأصفاد من نوع آخر.

لقد خرجت من السّجن المادّي، لكنّك محبوس وراء قضبان اليأس. ما أنت اليوم؟ لم تعد سوى بقايا شابّ محطّم، معطوب الجسد والرّوح.

عبر الفناء ومشى في اتّجاه الصّالة المفتوح بابها، وقد انسدلت ستارة تخفي الوجوه وتسمح بتسرّب الأصوات.

- ما الذي جاء به؟ هل تكلّم عن التّركة؟

كان ذلك صوت أخيه الأكبر حامد! ما زال على جشعه القديم.. لا يعنيه شيء، عدا التّركة. لقد تنازل لهم عمر عن حقّه المشروع في إرث والده، يوم قرّر السّفر والانتفاع بمنحة اليونسكو.

قال حامد يومها:

- من يرد نصيبا من الأرض عليه أن يرويها بعرقه! أنت تريد أن تكون

مهندسا أو دكتورا أو ما شئت من المهن «النّظيفة»، تحفظ كفّيك من التجعّد والجفاف والعمل الشاقّ في القيظ والصقيع.. وتقبض نصيبك من ريعها آخر السّنة؟ لا يا أخي، هذا ليس عدلا! نحن ضحّينا، وقرّرنا البقاء في الأرض، نعزقها ونحرثها ونسقيها ونحصدها.. أمّا أنت فلا تريدها، لذلك ارفع يديك عنها، الآن وإلى الأبد!

وقد فعل.

لقد اختار طريقه آنذاك، ولم يتراجع. لكنّ رجوعه المباغت -وقد فقد عمله واعتلّ جسده- لا شكّ يخيفهم! ابتسم في تهكّم. ليسوا خائفين عليه، كما يجدر بالأشقّاء أن يفعلوا، حين يكون أصغرهم في محنة، بل منه! مدّ ذراعه ليرفع السّتارة، لكنّه تسمّر مكانه حين وصله صوت عائشة، دافئا وصارما، كما عرفها دوما، أمّا رؤوما وأختا جانية:

- أخوك ليس بحاجة إلى مالك يا حامد.. بل إلى قلبك، وحضنك، ووقفتك إلى جانبه! أهذا كلّ ما تفكّر فيه الآن؟ التّركة؟ لولا ذكرى المرحوم أبي، وقدرك كأخ أكبر، لما سمحت لك أن تخطو داخل بيتي مرّة أخرى!

تدخّل عمّار، مهدّئا النّفوس المتوتّرة:

- رويدك يا عائشة.. حامد لا يقصد ذلك.. قلبه أبيض، لكنّ لسانه بريء منه!

همّ حامد بالاعتراض، فشدّ سعيد على ذراعه وأشار عليه بالسّكوت، فتابع عمّار:

- المهمّ الآن، ما الذي يحتاج إليه عمر؟

- لا أحتاج شيئا منكم!

دخل عمر وفي عينيه نظرة كبرياء مترفّعة. تشنّجت الملامح وغامت النّظرات بدخان النّفور والارتياب.

- تعال وسلّم على إخوتك يا عمر.. نتغدّى ثمّ نتحدّث.

كانت عائشة من تكلّم.

- نسلّم ونتغدّى، لكن لا نتحدّث! مشاكلي أحلّها بنفسي. اطمئنوا، لم آت لأعكّر صفو حياتكم. إنّها مجرّد زيارة عابرة.. اعتبروني ضيفا، عابر سبيل.. أمكث أياما، ثم أمضي لشأني!

- بل هذا بيتك يا أخي.. تأتي متى أردت وترحل متى أردت!

كانت عائشة قد ورثت منزل والديهم، بعد أن تنازلت بدورها عن نصيبها من الأرض الفلاحيّة. رنا إليها عمر في امتنان، في حين تململ الإخوة في ضيق. تناولوا الغداء في صمت، ثمّ رحلوا. علم أنّه لن يرى أحدهم قريبا.

***

- يجب أن تخضع للعلاج يا عمر!

كانت عائشة تلحّ عليه للمرّة الألف.

أمضى شهورا لا يفعل شيئا. كأنّه قد ألف الوحدة والفراغ، ولم يعد بإمكانه العيش خارجهما. كأنّ الاحتكاك بالعالم الخارجي يفسد توازنه الهشّ.. أو شبه التّوازن المرتبك الذي انتهى إليه.

لوقت طويل، لم يفكّر في الصكّ البنكي ذي السّتّين ألف يورو الذي سلّمه إياه هيثم قبل رحيله. نام الصّك بين دفّتي كتاب، حتى اتّصل به جورج ليبشّره بحصوله على التعويض المرجوّ!

- اخصم أتعاب المكتب أوّلا.

- طبعا، سأفعل.

ضحك جورج، وقد سرّه أنّ جهده ورنيم لم يذهب هباءً. كانت القضيّة تعيينا من مكتب المدّعي العام، بمقابل زهيد. ولم يكن يأمل حين قبلها أيّة أرباح حقيقيّة. ومع ذلك فقد جارى رنيم في حماسها. وبهذا التّعويض المجزي، لن تذهب سنتان من العمل المضني في مهبّ الرّيح.

- هل ستزور باريس قريبا؟

- لا أدري بعد.

- عليـك أن تحـضر بنفسـك، مـن أجـل إنهـاء المعامـلات والتّوقيـع عـلى الاسـتلام.

إن كان قـد نجـح في إخفـاء الصّك عـن عائشـة، فلـم يكـن بمقـدوره إخفـاء أمـر الاتصـال الـذي كان تحـت أسـماعها. فلـم تدّخـر جهـدا في إقناعـه بضرورة خضوعـه إلى الجراحـة.

- ستشفى، وسترجع مثل سابق عهدك.

- أنا بخير هكذا.

كان قـد انتهـى إلى حـال مـن البـلادة والـلا مبـالاة بوضعيـه ممّـا جعلـه في منـأى عـن التفكـير في تجميـل شـكله.

- لست بخير! أنا أراك، وأعلم أنّك لست بخير.

تردّدت قليلا، ثمّ أضافت:

- حتّى لو تقبّلت ما حصل وتعايشت معه.. فماذا عن زوجة المستقبل؟

رفع حاجبيه في سخرية مرّة:

- زوجة المستقبل؟ عمّ تتحدّثين؟

- أنـت في الثّانيـة والثلاثـين.. مـا يـزال العمـر أمامـك. عليـك أن تفكّـر في المسـتقبل!

أصغـى في ألـم. وهـل مـا زالـت في نفسـه رغبـة بالـزّواج؟ هـذا الجسـد المشـوّه وهـذه الـرّوح الذّاويـة لـم يعـودا يصلحـان لـشيء.. وخاصّـة لبنـاء عائلـة!

لكنّهـا لبثـت تلـحّ وتلـحّ. تـزنّ عنـد أذنيـه مثـل نحلـة عاملـة مجـدّة، حـتّى استسـلم لرغبتهـا. سـيعود إلى باريـس، يلتقـي جـورج ويسـتلم التعويـض.. ثـمّ يبـدأ رحلـة الجراحـة التّجميليّـة المضنيـة!

-٥-

باريس، ديسمبر ٢٠٠٥.

أحكمت ياسمين إغلاق معطفها حين لسعتها البرودة القارسة، ثمّ سارت باتّجاه محطّة قطار الأنفاق. توقّفت عند مكتبة المحطّة. كانت تطالع الواجهة في اهتمام، حين رنّ هاتفها. كانت ميساء.

- هل وصلت؟

- ليس بعد.. لقد غادرت المكتب للتوّ.

- لا تتأخّري.. سيبرد العشاء.

- حسنا.

كانت ميساء تهمّ بإغلاق الخطّ، حين استوقفتها ياسمين في حرج:

- ميساء.. قولي.. أيّ نوع من الكتب يفضّل أخوك؟

- كتب؟!

انفجرت ميساء ضاحكة.

- هيثم، يقرأ؟ ما عدا كتب البرمجة، لا أذكر متى رأيته يقرأ آخر مرّة.. لحظة تذكّرت! لقد كانت قصّة «ذات الرّداء الأحمر»!

ضحكت ياسمين بدورها، ثم قالت في فتور:

- حسنا.. اذهبي في سبيلك إذن!

- إن كنت تفكّرين في هديّة، فسأخبرك بما يعجبه.. ألعاب الفيديو!

- ماذا؟

هتفت ياسمين في صدمة، ثمّ قالت منهية الموضوع:

- أراك لاحقا إذن.

أنهـت الاتّصـال وسرحـت مـن جديـد عـبر الواجهـة. كانـت مدعـوّة للعشـاء في مـنزل الخالـة زهـور، وهـي دعـوة متكـرّرة، قبـل الخطبـة وبعدهـا. لكنّهـا أصبحـت تسـتثقل الزّيـارة، الـتي اكتسـت طابعـا رسـميّا نوعـا مـا، ولـم تعـد بالعفويّـة الـتي كانـت عليهـا آنفـا. تكلّـف الخالـة زهـور نفسـها مشـقّة بالغـة مـن أجـل إكـرام وفادتهـا، وتقـضي سـاعات في المطبـخ لإعـداد أصنـاف كثيرة!

لـم تحـبّ ياسـمين التحـوّل الـذي عرفتـه علاقتهـا بأفـراد العائلـة.. وقـد غـدت ترهـب موقعهـا كـ«كنّـة» مرتقبـة. تـزور بيـت حماهـا! فكّـرت في اقتنـاء هديـة. كانـت مولعـة بـشراء الكتـب، لديهـا أكـوام منهـا في غرفتهـا، لـم تسـعها مكتبتهـا الصّغـيرة، فكدّسـتها قـرب الجـدار. لكـنّ يبـدو أنّ هيثـم لا يشـاركها ولعهـا بالقـراءة.

دلفـت إلى المحـلّ الصّغـير، قلّبـت في ركـن ألعـاب الفيديـو كمـا أشـارت عليهـا ميسـاء. لـم تكـن خبـيرة بهـا، وكان مـن الصّعـب أن تنتقـي قرصـا مناسـبا. بعـد دقائـق طويلـة مـن التّحديـق في علـب الألعـاب، اسـتدارت مـن جديـد لتواجـه الكتـب.

توقّفـت فجـأة عنـد عنـوان شـدّها بشـكل خـاصّ: «التعـافي مـن الصّدمـة». قـرأت العنـوان الفرعـي باهتمـام: كيـف تتجـاوز الصّدمـات النفسـيّة. أمسـكت الكتـاب بـين كفّيهـا وأخـذت تقلّـب صفحاتـه باهتمـام، ثـم توقّفـت عنـد النـصّ القصـير عـلى الغـلاف الخلفـيّ:

«قـد تكـون تعرّضـت لحادثـة سـيّارة، لاعتـداء أو كارثـة طبيعيّـة. منـذ ذلـك اليـوم، اختلـف كلّ شيء. «لا تفكّـر في الأمـر!»، «لقـد انتهـى».. تسـمع تلـك النصّائـح مـن محيطـك. الكلمـات سـهلة، لكـنّ النّسـيان مسـتحيل. القلـق يسـيطر عليـك، ولا أحـد يتفهّـم جراحـك الدّاخليـة».

حسـمت أمرهـا. دفعـت ثمـن الكتـاب ووضعتـه في حقيبتهـا، ثـمّ مـرّت عـلى المخـبز واختـارت قطـع كعـك مـن أجـل زيارتهـا.

***

كانوا جميعا متحلّقين حول مائدة العشاء، العمّ عبد الحميد والخالة زهور، هيثم وميساء ووائل آخر العنقود.. بالإضافة إلى ياسمين ضيفة الشرف. لكزت ميساء ياسمين بمرفقها، وأشارت بسبّابتها باتّجاه والدتها، فهزّت ياسمين رأسها في إشارة مطمئنة، وهي تهمس:

- سأحدّثها بعد العشاء.

أخذ هاتفها يهتزّ في حقيبتها بصمت. ألقت نظرة سريعة، كان الرّقم مجهولا. عقدت حاجبيها في حيرة، ثمّ اعتذرت ووقفت لتردّ على الاتّصال.

- الآنسة ياسمين؟

- نعم؟

- أتّصل بشأن الإعلان.

- آه، نعم!

كانت قد كتبت إعلانا من أجل غرفة ريم التي غدت شاغرة، وعرضته عند بقّال الحيّ وفي مدخل البناية. لم يعد بإمكانها تحمّل كلفة الشقّة بمفردها. ريم كانت تدفع ما عليها في الفترة الأولى، لكن بعد انتهاء المحاكمة، وتيقّنها من استحالة عودتها، أعلمتها بأنّ الشقّة باتت لها وحدها الآن. لذلك فقد صار عليها أن تجد شريكة سكن جديدة.. أو تنتقل إلى شقّة أصغر.

- هل يمكنني أن ألقي نظرة على الشقة؟

- نعم بالتّأكيد.. متى يناسبك؟

- غدا، في الرّابعة عصرا؟

- بالتأكيد.

عادت إلى مجلسها، تحت نظرات هيثم المتابعة لتحرّكاتها. قالت ببساطة:

- ربّما أكون قد وجدت مستأجرة للغرفة أخيرا.

يراودها إحساس دائم بأنّ عليها طمأنة هيثم بشأن علاقاتها واتّصالاتها. لم يكن في صالحها التصرّف بغموض.. فذلك يفتح باب الغيرة.

- ماذا؟

هتفت ميساء بانزعاج. هزّت ياسمين كتفيها وأومأت في اعتذار، بينما اكتست ملامح ميساء ضيقا غير مفسّر.

كانت تحاول منذ شهور إقناع والديها بالسّماح لها بالسّكن مع ياسمين. لكنّهما لم يقتنعا أبدا. كانت قد أنهت دراستها الجامعيّة منذ ستّة أشهر.. ولم تجد عملا بعد. شرعت في تعلّم التّصميم والخياطة، وتحلم بافتتاح متجر لملابس المحجّبات. وحتّى يأتي ذلك الوقت، كانت تمنّي نفسها ببعض الاستقلاليّة عن والديها.

حاولت ياسمين أن تخفّف عنها، فقالت:

- هل يمكن لميساء أن تمكث عندي في العطلة؟

- حسنا، لا بأس.

قالت زهور بابتسامة. بينما عقّب هيثم:

- متى ستقابلين المستأجرة؟

- غدا عصرا.. لماذا؟

- من الأفضل ألا تكوني بمفردك.. من يدري.

- هيثم على حقّ.. العالم لم يعد آمنا يا ابنتي.

قال هيثم من جديد:

- سأوصل ميساء عندك قبيل الرّابعة إذن.

هزّت رأسها موافقة وواصلت الأكل في صمت، وإحساس بالدّفء يملؤها. كان يشعرها باهتمامه بشتّى الطّرق، وكان يسبقها دائما في التّفكير بأمنها وسلامتها. لو كان الأمر بيده، لما سمح لها بالإقامة بمفردها في تلك الشّقة.

- سلمت يداك يا خالتي!

- عسى أن يكون الطعام قد أعجبك؟

- جدّا.. لا آكل جيّدا إلّا حين أزوركم!

- إذن سأعدّ لك بعض علب الغداء، تأخذينها معَك.

حاولت ياسمين أن تمتنع، لكنّ الكلمة الحاسمة كانت لزهور. قال هيثم مداعبا:

- أمّي تحبّك أكثر ممّا تحبّني! لا نصيب لي من علب الغداء؟

قالت زهور في لهجة جافّة:

- العلب لمن يقدّرها حقّ قدرها! ألست تأنف أن تتناول طعام البيت أمام زملائك؟

هتف وائل ذو الأربعة عشر ربيعا:

- راحت عليك يا زهور! سيأتي يوم يأخذ فيه علب ياسمين إلى العمل ولا يتذمّر!

ضحكت ميساء وقالت:

- علب ياسمين؟ عسى أن تجد ياسمين وقتا لتطبخ لنفسها!

قالت زهور في جدّيّة:

- وهل ستستمرّ في دراستها إلى الأبد؟ قريبا تأخذ الشّهادة وتقرّ في بيتها.

قالت ذلك في لهجة حاسمة، ثم وقفت. تبادل هيثم وياسمين نظرات صامتة ومتوتّرة، ولم يعقّب أحد. تنقّلت ميساء وياسمين بين مائدة الطّعام والمطبخ تجمعان صحون العشاء.. ثمّ أحضرت زهور العصير وقطع الكعك إلى غرفة الجلوس. قالت ميساء في لهجة مشاكسة:

- تخيّلوا.. ياسمين كانت تريد شراء كتابٍ لهيثم!

انفجر الجميع ضاحكين، بينما ازداد خجل ياسمين. أضاف وائل:

- أذكر حين طلبت منّا المعلّمة تلخيص رواية السّنة الماضية، قال

هيثـم: لا تضيّـع وقتـك في القـراءة، وشـاهد الشّريـط!

تعالـت الضّحـكات مـن جديـد، بينمـا راقبهـم هيثـم بابتسـامة غامضـة، ثـم قـال بهـدوء:

- قد أفاجئكم جميعا.. لقد اشتريت كتابا الأسبوع الماضي!

حدّقوا فيه في عدم تصديق، ثمّ قالت ميساء متحدّية:

- هل هو كتاب برمجة حاسب؟

هزّ رأسه علامة النّفي.

- ماذا إذن؟

- ثقافة عامّة!

- لا أصدّق.. ما الذي حصل لك؟

رمى نظرة سريعة على ياسمين ثم قال:

- هناك مرّة أولى لكلّ شيء!

صفّر وائل في إشارة ذات معنى ثم قال:

- الحبّ يصنع المعجزات!

لمزتـه زهـور ليكـفّ عـن مشـاغبة شـقيقه الأكـبر، ثـمّ سـاد صمـت قصـير، ريثمـا راح كلّ منهـم يتنـاول قطعـة الكعـك الخاصّـة بـه. ثـمّ، ومثـل كلّ مـرّة، انسـحب الجميـع واحـدا إثـر الآخـر مـن غرفـة الجلـوس، ليتركـوا لهيثـم وياسـمين مسـاحة كافيـة لحديـث خـاصّ. قـال هيثـم أخـيرا وعـلى شـفتيه نفـس الابتسـامة المسـتمتعة:

- في المرّة القادمة، إذا فكّرت في شراء هدية.. لا تستشيري ميساء.

ازداد وجههـا احمـرارا واضطربـت أنفاسـها. قالـت مغـيّرة الموضـوع بعـد أن رشـفت مـن كوبهـا ببـطء شـديد:

- ما اسم الكتاب الذي تقرؤه إذن؟

اتّسعت ابتسامة هيثم، وتنهّد وهو يقول:

- ظننت أنّك لن تسألي أبدا!

وقـف عـلى الفـور وغـاب للحظـات داخـل غرفتـه، ثـمّ عـاد وبـين كفّيـه كيـس ورقيّ ملـوّن.

- لقد أنهيته.. يمكنك استعارته!

تسـلّمت الكيـس في دهشـة. لقـد فاجأهـا بمبادرتـه غـير المتوقّعـة. كانـت تفكّـر في إهدائـه كتابـا، فانتهـى بهـا الأمـر بتلقـي كتـاب منـه! في السـاعة التّاسـعة، أوصلهـا هيثـم وميسـاء إلى شـقّتها، مثـل كلّ مـرّة تزورهـم فيهـا. كان هيثـم صامتـا طيلـة الطّريـق، بينمـا كانـت البنتـان تخطّطـان لعطلتهمـا المشـتركة في شـقة ياسـمين.

حـين اختلـت ياسـمين بنفسـها أخـيرا، فتحـت الكيـس واخرجـت الكتـاب. قـرأت العنـوان، ثـمّ اتّسـعت عيناهـا ذهـولا، وقـد أدركـت سرّ ابتسـامة هيثـم:

«أسرار الحياة الزوجية الناجحة»!

***

كان يـوم الخميـس يومهـا المفضّـل في الأسـبوع. غالبـا مـا ينـصرف دافيـد مبكّـرا، مـن أجـل اجتماعـات خـارج الشّركـة، ويسـمح لهـا بأخـذ اسـتراحة طويلـة فـترة الظّهـيرة. كانـت السّـاعة قـد تجـاوزت الثانيـة ظهـرا، حـين اسـتقرّت في مقعدهـا الاعتيـاديّ في مطعـم «البيـت الصغـير».

تفصلهـا ساعتان عـن موعدهـا مـع المسـتأجرة المحتملـة. كانت قـد واعدت ميسـاء وهيثـم عـلى اللّقـاء في المطعـم، ثـم يرافقانهـا إلى الشـقّة. تصفّحـت أوراق عملهـا في ملـل، ثـم رفعـت عينيهـا إلى واجهـة المطعـم الزّجاجيّـة. كان الثّلـج قـد أخـذ يتسـاقط في الخـارج. انتابهـا الحمـاس فجـأة. جمعـت دفاترهـا واتّجهـت إلى الشّرفـة الخارجيّـة. وقفـت في الجـزء المكشـوف، وهـي تعـرّض كفّهـا العاريـة لنـدف الثّلـج النّاصعـة الـتي تنحـدر ببـطء نحوهـا، فمـا أن تلمـس بشرتهـا الدّافئـة حـتّى تـذوب عـلى الفـور وتصـير قطـيرات مـاء.

كم تحبّ الثّلج، والبرودة!

لبثـت سـاهمة لبرهـة، وقـد غابـت في لجّـة أفكارهـا. ثـمّ تنهّـدت وهـي تعـود لتسـتقرّ عـلى أحـد مقاعـد الشّرفـة. كانـت تلمـح مـن مجلسـها ناطحـات السّـحاب الباسـقة الـتي تحـفّ السّـاحة متراميـة الأطـراف، ومدخـل محطّـة قطـار الأنفـاق الـذي يهـرع إليـه المـارّة للاحتمـاء مـن تهاطـل الثّلـج المتزايـد.

أخرجـت مـن حقيبتهـا الكتـاب الـذي اقتنتـه بالأمـس، وارتسـمت عـلى شـفتيها ابتسـامة. سـتأخذ اسـتراحة في الهـواء المنعـش، وتقـرأ فيـه قليـلا.

لا تـدري عـلى وجـه الدّقـة مـا الـذي جعلهـا تختـار ذلـك الكتـاب بالـذّات. لا يمكنهـا أن تنكـر، لقـد سـيطر عـلى تفكيرهـا منـذ قـرأت العنـوان. «التعـافي مـن الصّدمـة». ومـن غـيره عـاش مأسـاة أليمـة وصدمـة عظيمـة؟ لقـد تسـاءلت كثـيرا، بعـد أن عرفـت مـا مـرّ بـه مـن أهـوال، كيـف تصـير الحيـاة في عيـني مـن يُبتـلى مثلـه؟ أيّ كوابيـس يـرى أثنـاء نومـه، وأيّ هواجـس تلازمـه في نهـاره؟ ولأنّ خيالهـا القـاصر لا يمكـن أن يحيـط بالواقـع مهمـا حاولـت، فقـد انكبّـت عـلى الكتـاب، تسـائله، علّـه يعـرف أكـثر ممّـا تعـرف!

- التعافي من الصّدمة!

رفعــت عينيهــا مفزوعــة، حــين وصلتهــا تلــك الكلمــات بصــوت مألــوف. حدّقـت في الرّجـل الماثـل أمامهـا، في ذهـول وارتبـاك. كان معطفـه الصّـوف الطّويـل مغطّـى الكتفـين بطبقـة رقيقـة مـن الثّلـج، وبـدا شـعره الأسـود مبتـلّا لامعـا، كأنّـه يقـف هنـاك منـذ أمـد.

لـم تكـن تتخيّـل! لقـد كان هـو، مـرّة أخـرى. يقـرأ عنـوان كتابهـا بصـوت مسـموع، لتلتقـي العيـون بعـد لحظـات وقـد غشـيتها الدّهشـة.

- عمر!

***

عـبرَ الممـشى الفاصـل بـين محطّـة القطـار والمركـز التّجـاري على مهـل. كان الثّلـج يتسـاقط، وكانـت الـبرودة اللّاذعـة الـتي تصاحبـه منعشـة لحواسّـه. لقـد

فقـد القـدرة عـلى تحسّـس الأشياء في مناطـق عـدّة مـن جسـده، فلـم تعـد بشرتـه تمـيّز الـبرد أو الحـرّ.. إلّا في درجاتـه القصـوى. وهـذه الـبرودة الـتي يفـرّ منهـا النّـاس فيلجـؤون إلى الشرفـات المسـقوفة أو باطـن الأرض، هـي نعيـم بالنّسـبة إليـه!

أغمـض عينيـه، مستسـلما، مثـل شـجرة مغروسـة في السّـاحة، فتغمرهـا طبقـة بيضـاء ناعمـة مـن النّـدف الهشّـة، ووجهـه إلى أعـلى، يسـتقبل هبـات السّـماء.

حـين فتـح عينيـه، تـراءت أمامـه لافتـة المطعـم المضيئـة: «البيـت الصّغـير».. لقـد كان هنـاك بالأمـس، ولـم يكـن الطّعـام سـيّئا. السّـاعة اقتربـت مـن الثالثـة، وهـو لـم يتنـاول غـداءه بعـد. سـاقته قدمـاه خطـوة بعـد خطـوة في اتّجـاه المبـنى. وفي الشّرفـة الخارجيّـة المقابلـة، ظهـر أمامـه شـبحها. تلـك الفتـاة ذات الحجـاب، المنكبّـة عـلى كتـاب، تقـرأ وكأنّـه كل عالمهـا، فـلا تشـعر بـشيء ممّـا حولهـا.

يسـتحضر في لا وعيـه مشـهدا مماثـلا. فتـاة المـترو، تقـف قبالتـه، وجههـا غائـب وراء كتـاب، وكفّهـا تمسـك بالعمـود المعـدنيّ، تحـاول الحفـاظ عـلى تـوازن هـشّ تتلاعـب بـه هـزّات المـترو المتكـرّرة مـع كلّ فرملـة مفاجئـة. ثـمّ بغتـة، يختـلّ توازنهـا ويسـقط الكتـاب، ويظهـر وجههـا الصّغـير المرتبـك.

- التّعافي من الصّدمة!

وقفـت ياسـمين مثـل الملسـوعة، وسـقط الكتـاب عـلى الأرض. تقـدّم عمـر في هـدوء، وانحـنى ليلتقـط الكتـاب الـذي تدحـرج عنـد قدميـه، عـلى قيـد خطوتـين مـن مجلسـها.. وفي ذاكرتـه -وذاكرتهـا- يتكـرّر المشـهد بحذافـيره.

- «الهويّات القاتلة»!

لقـد كان كتابهـا الأوّل نبـوءة لمسـتقبله. فهـل تواصـل فراسـتها، ويجـد التّعـافي لـه سـبيلا؟ يبتسـم، في مزيـج مـن الحنـين والمـرارة، والسّرور، للقائهـا غـير المتوقّـع. بـدت وجنتاهـا متورّدتـين.. بفعـل الـبرودة ربّمـا؟

- عمر.. أنت في باريس؟!

- نعم، وصلت منذ أسبوع.

يسمع رنين اسمه على لسانها، للمرّة الأولى. ياسمين. لا يجرؤ على النّطق باسمها، حتّى بينه وبين نفسه. يخشى أن يطرق أبوابا لا يجوز له عبورها. لا يزال الكتاب بين راحتيه، يتشاغل به، غاضّا بصره عنها.

- لم أتوقّع رؤيتك هنا!

- أنت تعرف هذا المطعم؟

- لقد اكتشفته منذ يومين.. هيثم دعاني على العشاء!

- آه!

هيثم! لقد رأته بالأمس، كانت ضيفة في بيت أهله، ورافقها إلى الشّقة مساء.. لكنّه لم يقل حرفا واحدا عن لقائه وعمر!

- هل يتعلّق الكتاب ببحثك؟

يحاول أن يجد تفسيرا منطقيّا لوجود ذلك الكتاب بين يديها. تفسير لا يأخذ أفكاره إلى مسارات الممكن والمأمول. لكنّها قالت في ارتباك واضح:

- لا!

اكتفت بالنّفي، دون إثبات من أيّ نوع. كأنّها تحتفظ ببقيّة الإجابة لنفسها. كأنّها تخفي شيئا لا تريد أن تواجهه به، أو لا تجرؤ حتّى على مصارحة ذاتها به. ولم يكن يجدر به أن يسأل أكثر. فلا معنى لأيّ شيء ممّا يراوده من رجاء. قال بما وسعه من رباطة جأش:

- أتركك لقراءتك إذن.. سأطلب غدائي.

كان يهمّ بوضع الكتاب على الطاولة المنخفضة إلى جوارها، والانسحاب قبل أن يفقد السّيطرة على.. كلّ شيء! لكنّها بادرته بسرعة:

- يمكنك الاحتفاظ به!

رفع بصره إليها مبغوتا. بينما كانت نظراتها تلتصق بالأرض، في حرج

جلي.

لقد أدركت أنّها ما اشترت الكتاب إلا من أجله. هل كانت تأمل رؤيته قريبا؟ لم يكن هناك ما يدعوها إلى الاعتقاد بعودته، ناهيك عن لقائه صدفة! لكنّ كلّ ما رجته وهي تلتهم صفحات الكتاب، أن تجد تلك الكلمات طريقها إلى عمر.. وأن تطبطب عليه، وتسرّي عنه، ويجد سبيلا إلى التّعافي.

- اعذرني.. عليّ الانصراف الآن!

التقطت حقيبتها، وولّت مدبرة على الفور، دون أن تسمح له بردّ أو اعتراض.

لبث برهة بعدئذٍ، في الشّرفة المكشوفة، بعد أن اختفت عند مدخل المحطّة، والكتاب بين يديه. لا يمكنه تفسير ردّ فعلها، إلا بألم ينهش صدره من الدّاخل.

لقد فاتك القطار يا عمر!

***

- تأخّرت عليكم؟

ظهرت عند شرفة المطعم محمّلة بأكياس مشترياتها، بابتسامة معتذرة. تطلّعت حولها في حذر. لم يكن هناك سوى هيثم وميساء بانتظارها. لقد انصرف، كما أملت.

- وصلنا منذ خمس دقائق وحسب.. هيّا حتّى لا تتأخّري عن موعدك!

- هاتي عنك.

تركت هيثم يأخذ عنها الأكياس، ويسبقهما إلى المرآب، بينما سارت إلى جوار ميساء على مهل.

- كيف تتوقّعين أن تكون، المستأجرة؟

- لكنتها بدت لي أجنبيّة.

- عربيّة، ربّما؟

- ربّما! حين نطقت اسمي، بدت الحروف ليّنة على لسانها.. تعرفين، ليس مثلما ينطقه الفرنسيّون!

- فهمت.

توقّفت السيّارة قرب رصيف البناية، وصعد ثلاثتهم إلى الشقّة في الطابق الثالث. عند المدخل، كانت هناك سيّدة في منتصف العمر، تضع قبّعة صوفيّة على رأسها. استدارت باتّجاههم، وسألت:

- ياسمين؟

- نعم! أنت.

- سكينة.. اتّصلت بك من أجل الغرفة!

- أهلا بك! تفضّلي.

بدت في منتصف الأربعينيات وعلى قدر من الجمال، وكانت لكنتها العربيّة المشرقيّة واضحة الآن، وفي عينيها غلالة حزن غامضة. فتحت ياسمين الباب ودلف أربعتهم. جلس هيثم وميساء في الصّالة، بينما قادت ياسمين سكينة في جولة بين الغرف.

- أنت المستأجرة؟

فكّرت أنّها ربّما تزور الشقة نيابة عن ابنتها. كانت في سنّ مناسبة لتكون لديها ابنة يافعة ترتاد الجامعة.

- نعم، أنا.. لعلّك توقّعت طالبة جامعة؟

ضحكت سكينة، بينما قالت ياسمين في حرج:

- بالفعل.. الموقع قريب من الجامعة، لذلك توقعت طالبة غالبا.

- أنا مدرّسة أطفال.

سألت ياسمين في حذر:

- هل لديك عائلة في فرنسا؟

فهمت سكينة السّؤال، فقالت:

- كانت.. أنا مطلّقة.

- آه، أنا آسفة.

- لا عليك.

لـم تكـن تتخيّـل أن تكـون شريكتهـا الجديـدة في السّـكن سـيّدة تكبرهـا بعقديـن ربّمـا. لعـلّ ذلـك لـن يكـون مريحـا كمـا ترجـو. لعلّهـا مـن النّـوع الـذي يـأوي إلى السّريـر في وقـت مبكّـر ولا يحـبّ الإزعـاج؟ أو العكـس، ربّمـا تتلقـى الكثـير مـن الزّيـارات؟ لـو كانـت طالبـة فتيّـة، سـيكون بوسـعها أن تفـرض القوانـين الـتي تناسـبها، لكـن مـاذا عـن سـيّدة في عمـر والدتهـا أو تـكاد؟

عضّـت عـلى شـفتها السّـفلى في تفكـير. لـم تكـن في وضـع يسـمح بكثـير تـردّد. تحتـاج شريكـة سـكن تخفّـف عنهـا حمـل الإيجـار الثقيـل. وهـذه السّـيدة العربيّـة تقبـل بالعـرض!

- هل أعجبتك الشقة؟

- ممتازة. متى يمكنني الانتقال؟

- متى أردت.

- الأسبوع المقبل إذن!

تصافحتا واتّفقتا على تسجيل العقد في الوكالة العقاريّة بداية الأسبوع.

***

«السّـؤال الـذي يُطـرح في أغلـب الأحيـان في وجـه الصّدمـة هـو «لمـاذا». «لمـاذا تعرضـت للإسـاءة والاعتـداء أو لمـاذا تعرّضـت لهـذا الحـادث؟ لمـاذا، لمـاذا، لمـاذا؟»».

الأشـخاص المرنـون يتجـاوزون الإجابـات المشـعرة بالذنـب مـن «لمـاذا» إلى «مـن أجـل مـاذا». بمعـنى آخـر: فيـم سـيفيدني هـذا الحـدث؟ بمـا أنـني لا أسـتطيع محـوه مـن حيـاتي، فمـا الـذي يقدّمـه لي؟ الصدمـة تسـلب الرّاحـة

النّفسية لكنها تثري الشخصية، وتبصّر بمعنى كلّ ما يحيط بك».

أغلق عمر الكتاب، وبقي السّؤال يتردّد في رأسه. ما هي العبرة التي عليه استخلاصها من التّجربة؟ وما هي المعاني التي عليه إبصارها في الأشياء من حوله؟ أين يمكنه أن يضع طاقته المتبقيّة؟ لأيّ هدف؟

لم يتمالك نفسه، شرع في القراءة على الفور، قبل أن يصل إلى غرفة الفندق. شيء ما كان يدعوه إلى الغوص في الكتاب، دون تأخير.. العنوان الواعد، وحماسة فتاة المترو!

كان قد غدا ثريّا بين عشيّة وضحاها، بفضل التّعويضات الهائلة التي تلقّاها. لم يكن عليه العمل لكسب قوت يومه! بإمكانه اقتناء مزرعة شاسعة في ريف مراكش، وإدارتها بقيّة حياته! بوسعه شراء سيّارات فارهة، أو السّفر حول العالم!

لكنّ أيّا من ذلك لن يهب حياته معنى!

إنّه لا يرى بعد كيف يمكن للحادث أن يصنع منه شخصا أفضل.

خطا باتّجاه بهو الاستقبال ثمّ ركب المصعد حتّى الطّابق الخامس. دلف إلى غرفته، نزع عنه المعطف الثّقيل وربطة العنق، واستوى جالسا على المقعد الوثير قبالة الشرفة، واستمرّ في القراءة.

«يقال غالبا أنك لست مرنا بمفردك. من خلال الشهادات والسّير الذاتية والدّراسات العلمية، حدّدت ثلاث قيم أساسية مساعدة: اللّطف والتعاطف وتلقّي الحبّ من الأقرباء أو من شخص خارجي...».

تنهّد وأغمض عينيه.. استحضر في ذهنه وجه شقيقته عائشة.. ووجه صاحبة الكتاب! قليلة هي النّفوس المتعاطفة من حوله. لكنّه ما فتئ يتلقّى الاهتمام.

«كيف تصرّف طاقتك في مسار نافع؟ البعض يشارك الآخرين تجربته لمساعدتهم على تجاوز صعوباتهم، والبعض الآخر ينشئ جمعيّة خيريّة أو ينضمّ إليها، للدّفاع عن حقوق الأفراد المشابهين له...».

فكّر في سخرية.. هل توجد جمعيّة تُعنى بالنّاجين من الانفجارات الكيميائيّة والمتّهمين بتدبيرها؟ أو ضحايا العنصريّة والحوادث الكبرى؟ لعلّ عليه أن يُنشئ واحدة!

انتبه على رنين هاتفه معلنا وصول رسالة. تطلّع إلى الشّاشة، ليُبصر رقم عائشة. ابتسم في حنان، وهو يطالع كلماتها:

«كتب الفاروق عمر بن الخطاب إلى موسى الأشعريّ رضي الله عنه يقول: (أمّا بعد، فإنّ الخير كلّه في الرّضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر)».

حدّق في الرّسالة طويلا، يستشعر كلماتها بكلّ جوارحه. هذا حديث عمر بن الخطّاب، سميّه. وهذه رسالة تخاطبه دون غيره، كأنّما كتبت من أجله!

هذا قضاء الله عزّ وجلّ قد أصابه.. وليس من قضاء الله هرب! لقد تمرّغ في نعمه في سابق أيّامه، فحمد الله دائما.. والآن هو يعيش هذه البليّة، عليه أن يحمد الله أيضا.. ويرضى بما قسمه الله له من خير وشقاء!

تدحرجت العبرات على وجنتيه بهدوء. التّنظير سهل، لكنّ داخله يحترق، لم تنطفئ ناره بعد.

لقد قرّر سلوك تلك الطّريق الآن، يهدهده حلم بأنّ الغد سيكون أفضل. لم يصل إلى مرحلة اليقين. لا يؤمن بمستقبله كما يجدر به أن يفعل.

لعلّه لم يرض بعد.. لكنّه سيصبر!

-٦-

نانت، ديسمبر ١٩٩٥

فتحت سكينة الصّنبور فتدفّقت المياه بقوّة داخل الحوض. عرّضت كفّها للتيّار تتحسّس حرارته ثمّ حرّكت المقبض لتتحكّم في مقدار السّخونة. حين اطمأنت إلى اعتدالها، تركت الماء يجري ليمتلئ الحوض، رفعت صوتها منادية:

- هيا يا أولاد، حان موعد الاستحمام!

جرى الولدان في أنحاء الدّار محدثين الكثير من الصّخب، ثم تدافعا باتجاه الحمّام وهما لا يكفّان عن الصّراخ. حدجتهما سكينة بنظرة صارمة وألزمتهما النظام، فاستسلما ليديها تنزع عنهما ثيابهما، ثم قفزا داخل الحوض في مرح طفولي.. يتراشقان بالماء ويعبثان بفقاعات الصابون. ابتسمت سكينة وجلست على مقربة، تراقبهما وهما يلهوان. ستعطيهما بعض الوقت قبل أن تليّفهما وتغسل شعريهما.

كان جاسر قد بلغ الخامسة من عمره. ولد خجول وساكن معظم الأحيان. لكنّ رامز المشاغب الذي يصغره بسنة ونصف، كان يثير في شقيقه روح المرح والمشاكسة، فتسري فيه عدوى الصّخب حين يلتقيان في لعب أو شجار. كانا كلّ حياتها وشغلها شبه الوحيد طوال اليوم. حين رضيت بترك عملها كمدرّسة ابتدائية في حلب السوريّة ومرافقة زوجها في هجرته إلى مدينة نانت الفرنسية، كانت تعلم يقينا أنها ستودّع الحياة الاجتماعية والعلاقات الأسرية إلى أمد غير قصير. ولم يكن جهلها المدقع باللغة الفرنسية ليخفّف عنها وطأة الغربة والفراغ.

اشترى لها نجيب، زوجها، كتابا خفيفا بعنوان «الفرنسية للمبتدئين»، كانت تقرأ فيه بضع صفحات كل صباح. لكنّ فرص التطبيق كانت شبه

منعدمـة. فهـي لـم تكـن تغـادر الشـقة إلا لتقصـد البقالـة القريبـة، حيـث لـم تكـن تضطـر إلى كلام كثـير. يكفيهـا أن تدقـق في المعروضـات وتقـرأ لافتـات الأسـعار ثـم تحسـب المبلـغ الجمـلي في ذهنهـا حـتى لا تتلكأ أمـام الصّنـدوق.

حـين دخـل جاسر المدرسـة التحضيريـة منـذ سـنتين، صـارت تراجـع معـه دروسـه وتتعلّـم منـه. أدهشـتها طاقـة اسـتيعاب الصغـير وتعلمـه اللغـة بشـكل سريـع. كان في كل مـرة يفاجئهـا بكلمـة جديـدة لا تنتمـي إلى معجمهـا البسـيط، فاتخـذت قـرارا بمتابعـة دروس في اللغـة.

كان عليهـا أن تقنـع نجيـب بإعطائهـا تلـك الفرصـة، وأن تجـد حاضنـة للأطفـال في أوقـات غيابهـا.. وهـا أن سـتة أشـهر قـد مـرّت منـذ بـدأت دروسـها، شـعرت فيهـا بعـودة الحيـاة إلى قلبهـا. تلـك الـدّروس جعلتهـا تتعـرّف إلى صديقـات جديـدات، بعضهـن عربيّـات، والأخريـات صينيـات، روسيات، تركيـات.. البعـض جـاء فرنسـا للدراسـة أو العمـل، والبعـض الآخـر مثلهـا ربّـات بيـوت. تلـك الفسـحة الدوريّـة كانـت بالنسـبة إليهـن كلهـنّ مـلاذا آمنـا، يتبادلـن فيـه أفكارهـن وهمومهـن، بفرنسـية مبعـثرة وعبـارات مهشّـمة الأوصـال، دون أن يقاطعهـن أحـد بسـيل مـن الكلمـات غـير المفهومـة! بقليـل مـن الإشـارات ومزيـج مـن لغاتهـن الأصليـة، كـنّ يتمكـنّ مـن التواصـل، ويتقدّمـن في تعلـم الفرنسـية بشـكل متفـاوت.

ارتفـع رنـين هاتـف الشـقة فجـأة. كانـت سـكينة قـد انتهـت مـن غمـر الولديـن بشـامبو الشـعر ولـم تليّفهمـا بعـد. لكـنّ الهاتـف كان أكـثر إلحاحـا. غسـلت كفيهـا وجففتهمـا ثـم قالـت محـذرة:

- لا تغادرا الحوض.. سأعود سريعا.

تناهـت إليهـا أصـوات العـراك والتناقـر المـرح الـتي تواصلـت بعـد مغادرتهـا وهـي ترفـع السّـماعة مـن غرفـة الجلوس.

- مرحبـا داليـا.. كيـف حالـك وكيـف الأولاد؟ اعذريـني، انشـغلت قليـلا فلـم أتصـل هـذا الأسـبوع...

انهمكت في حديثها مع شقيقتها المتّصلة من البلد، فقد كانت أخبار الأهل في البلد دائما لذيذة. قالت أكثر من مرّة وهي تهمّ بقطع المكالمة «الأولاد في الحوض، يجب أن أنهي تحميمهما»، لكنها كانت تستجيب إلى نكتة أخرى أو خبر آخر تلقيه داليا فتضحك من جديد وتستمرّ المكالمة.

فجأة، سمعت دويّ ارتطام عنيف ثمّ علا نحيب طفل مفجوع من بعيد. في منتهى الهلع، أفلتت سكينة سماعة الهاتف وركضت إلى الحمّام وقلبها يكاد يتوقّف عن النبض. وسط الحوض، لمحت جاسر الذي التصق بالحائط وهو يرتجف فرقا ونشيجه المتواصل يمزّق نياط قلبها. للوهلة الأولى، لم تر رامز. كادت أنفاسها تنقطع وهي تبحث عنه بعينيها لتطمئن إلى سلامته. ثمّ ارتدّت نظراتها إلى الأرض المبلّطة، قرب المغسلة. هناك عند قدميها، كان جسد الولد هامدا بلا حراك، وعند رأسه بقعة دم سوداء، كانت تتّسع.. وتتّسع.

صاحت. ولولت. ثمّ انحنت على الجسد الصغير ترفعه بيدين متعرّقتين. تحسّست وجها لمّا تفارقه الحرارة وصدرا لم تعد تراوده الأنفاس، ثم نكشت شعرها بكفين محضبتين بدمائه الزكية.

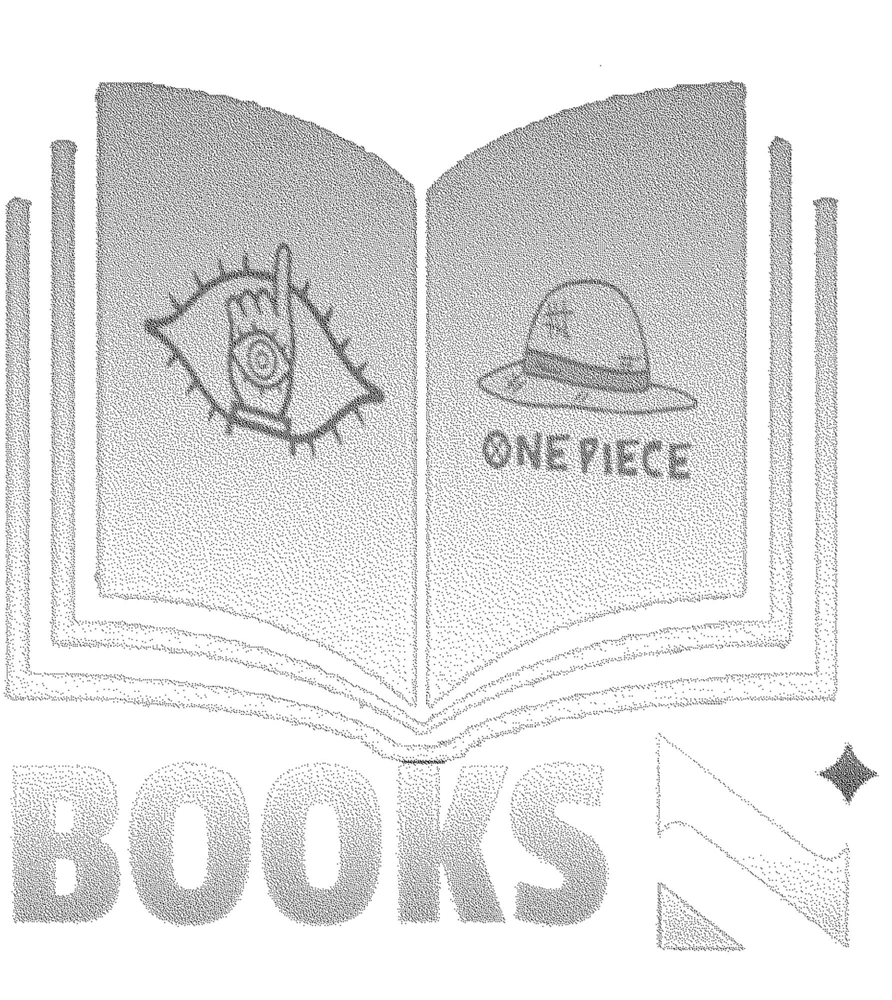
لا تدري كم مضى من الوقت وهي تبكي بشكل هستيريّ، قبل أن تنتبه إلى ولدها الآخر الذي شحب من أثر الصّدمة. تحرّكت بإلهام من الله. أخرجته من الحوض ووضعت بعض الثياب عليه، ثمّ لفت رامز في لحاف خشن وجرت بهما خارج الشقة. لم يكن هناك وقت للاتصال بأحد. إن كان هناك أمل بإنقاذه، فهي وحدها القادرة على ذلك. هلع سائق سيارة الأجرة حين قفزت أمامه على الطريق وهي بذلك الشكل المرعب من الفوضى والانهيار.

- إلى أقرب مستشفى...

دعت الله كثيرا طوال الطريق وهي تضمّ رامز بكفّ، وتضغط على كتف جاسر المصدوم بكفّ أخرى. حين دخلت إلى قسم الطوارئ، انهارت على الأرض وهي تصرخ وتشير إلى الجسد المسجى بين ذراعيها:

- أنقذوا ولدي.. أنقذوا ولدي...

لم تكن تعلم أنّ الرّوح قد فارقته منذ دقائق عدّة.



-٧-

أدارت المفتاح في قفل الباب، ثمّ دلفت إلى الشقّة. ألقت حقيبة يدها على الطاولة المنخفضة وارتمت على الأريكة في إعياء. ثمّ ما لبثت أن انتبهت حين تسرّبت إلى أنفها رائحة شهيّة لا تدري مأتاها.

- ياسمين! لقد رجعتِ مبكّرا!

وقفت ياسمين في دهشة حين وصلتها تلك الكلمات، وقد التبس عليها الأمر. لا ليست رنيم! لمحت سكينة، في مريلة المطبخ، وابتسامة مرحّبة على شفتيها. لقد نسيت أمرها!

- سيكون الغداء جاهزا خلال دقائق.

لقد وقّعتا العقد، وسلّمتها نسخة من مفتاح الشقّة. لم تدرك في غمرة انشغالها أنّها ستكون قد انتقلت بالفعل. ابتسمت وقد أخذ تعبها يتلاشى تدريجيّا. لم يكن هناك أفضل من وجبة شهيّة لتنفض عنها وعثاء يومها!

اقتربت في فضول لتسند مرفقيها إلى المائدة وتلقي نظرة على ما أعدّته سكينة. في ذهنها، كانت تسترجع في حنين تفاصيل حياتها السّابقة ورنيم، لكن مع قلب الأدوار! لم تكن رنيم تدخل المطبخ إطلاقا.. وكانت هي تستقبلها بأطباقها البسيطة فتلمح علامات الانبهار في عينيها. الآن جاء دورها لتحدّق مأخوذة في ما أعدّته سكينة.

- ما هذا؟

- كبّة مقليّة!

- وهذا؟

- يبرق!

- وتلك؟

- مسقعة بذنجان!

ضحكت سكينة أمام دهشة ياسمين وقالت:

- أنت لا تعرفين شيئا عن الطبخ السّوري؟

هزّت ياسمين رأسها نفيا.

- قد أعلّمك إذا أردت.

تناولـت ياسـمين قطعـة كبّـة حـارّة وتذوّقتهـا في حـذر، ثـمّ التهمـت مـا تبقّـى في تلـذّذ.

- أريد أن أتعلّم هذه!

أعـدّت سـكينة المائـدة، وجلسـتا تـأكلان وتتحدّثـان في حميميّـة، مثـل صديقتـين قديمتـين. لـم تجـد ياسـمين صعوبـة في تقبّـل شـخصيّة سـكينة، رغـم فـارق السـنّ، بـل لعلّهـا ألفتهـا قريبـة مـن شـخصيّتها.. هادئـة ورصينـة، حانيـة ومرحـة.

- هل لديك أطفال؟

سـألتها في فضـول بينمـا تتنـاول قطعـة الكبّـة الرّابعـة. سـكتت سـكينة، وشـعرت ياسـمين بانقـلاب سـحنتها. غامـت نظراتهـا فجـأة وخفـت بريـق عينيهـا. تنهّـدت بحـرارة ثـم تمتمـت:

- نعم.. ثلاثة أطفال.

كانت المرارة والحسرة جليّتين في صوتها. همست ياسمين:

- لا شكّ أنّ العيش بعيدا عنهم مؤلم!

عنـد تلـك الكلمـة، فقـدت السّـيطرة عـلى انفعالاتهـا. غطّـت سـكينة وجههـا بكفّيهـا وتركـت العنـان لدموعهـا المكتومـة وصـارت تنتحـب بنشـيج متقطّـع. احتضنتهـا ياسـمين مواسـية، وهـي لا تـدرك مـا عليهـا فعلـه. اسـتكانت المـرأة بـين ذراعيهـا، في استسـلام. مضـت دقائـق طويلـة، وسـكينة لا تكـفّ عـن

البكاء. لعلّها كابرت طويلا، دون أن تجد كتفا تبكي عليها. تركتها ياسمين تنفّس عن حزنها، ولم تقاطع عبراتها، حتّى هدّأت أخيرا وانتظمت أنفاسها.

رفعت سكينة رأسها وقد تورّمت عيناها واشتدّ احمرار أنفها.

- أنا آسفة.

- لا تكوني! إذا أردت التحدّث، سأكون في الاستماع.. وإن لم ترغبي، فلن أسألك شيئا.

ابتسمت سكينة في امتنان، وبدا عليها التّفكير. ثمّ قالت في شبه ابتسامة:

- إنّها قصّة طويلة!

بادلتها ياسمين الابتسامة وقالت:

- وغدا إجازة! أمامنا سهرة طويلة.

***

«اسمي سكينة، من مواليد حلب، سنة ١٩٦٦. عشت حياة بسيطة ولا شيء مثيرا فيها مع عائلتي المكوّنة من والديّ وشقيقي سامر وشقيقتي داليا. كان حلمي أن أصبح مدرّسة أطفال، وقد أصبحت. أحببت الأطفال كثيرا واستمتعت بتعليمهم وملاعبتهم وانتظرت بفارغ الصبر أن يأتي أطفالي إلى الدّنيا.

في سنّ الثانية والعشرين تزوّجت. وبعد سنتين، جاء ابني جاسر إلى الدّنيا. بعد سنة ونصف كنت حاملا بطفلي الثاني رامز، حين قرّر زوجي أنّ علينا السّفر إلى فرنسا حيث حصل على فرصة عمل ممتازة. تغيّرت حياتي منذ ذلك الحين.

في مدينة نانت الفرنسيّة، بدأت تعلّم لغة أهل البلاد. زميلاتي في الدّراسة كنّ معارفي الوحيدات. زوجي كان يخجل من تقديمي لأصدقائه الفرنسيّين وزوجاتهم، لأنّني أنطق بشكل معوجّ على حدّ قوله. لكنّني

كنـت راضيـة وقانعـة. كان ولـداي يكـبران وسـعادتي بهمـا تكـبر. كانـا كلّ حيـاتي. لذلـك حـين حصلـت الفاجعـة، فقـدت صـوابي مـرّة واحـدة.

كان رامـز في الثالثـة والنصـف مـن عمـره حـين حصـل الحـادث المشـؤوم. تركـت الولديـن يلعبـان في حـوض الحمّـام وخرجـت لأردّ عـلى اتّصـال مـن شـقيقتي داليـا. في غيـابي، حـاول رامـز الخـروج مـن الحـوض ليجلـب لعبـة سـقطت عـلى الأرض أثنـاء لهـوه مـع أخيـه، لكـنّ قدمـه زلّـت عـلى البـلاط الزلـق المبتـلّ وارتطـم رأسـه بمغسـلة السـيراميك. كانـت الوفـاة آنيـة. جـاسر أصيـب بصدمـة بالغـة.

حـين سـمعت صراخـه هرعـت إلى الحمّـام، حملـت الولديـن وهرولـت إلى المستشـفى. هنـاك أخـبروني بـأنّ رامـز قـد تـوفيّ، ونوّمـوا جـاسر عـلى الفـور للعـلاج مـن الصّدمـة. لـم أره بعـد ذلـك لوقـت طويـل.

بينمـا كنـت منهـارة في غرفـة الانتظـار، وصـل موظّفـان مـن إدارة الإرشـاد الاجتماعـيّ، رجـل وامـرأة. طرحـا عـليّ الكثـير مـن الأسـئلة. رغـم مصـابي تمكّنـت مـن لملمـة فرنسـيّتي المبعـثرة وكوّنـت جمـلا مفهومـة. لـم أدر كـم مـضى مـن الوقـت قبـل أن يصـل زوجـي. كنـت قـد طلبـت مـن اسـتقبال المستشـفى أن يتولّـوا الأمـر، لأنـني لـم أدر بـأيّ وجـه سـألقاه. حـين وصـل، كان وجهـه محتقنـا مـن الغضـب والبـكاء معـا. صرخ فيّ أمـام النّـاس وحمّلـني المسـؤوليّة. ولـم يكـن الوحيـد.

في الغـد، عـاد موظفـا الإرشـاد الاجتماعـي. لـم يكـن قـد سُـمح لي برؤيـة جـاسر بعـد. في هـدوء تـامّ بسـطا كمّـا مـن الأوراق أمامـي. كان مـن المطلـوب منّي أن أتنـازل عـن حضانـة جـاسر لصالـح الدّولـة!

كنـت ألتفـت إلى زوجـي كالمسـتغيث، لأنّـني لـم أكـن أفهـم شـيئا، لكـنّ عينيـه الزّائغتـين عبّرتـا عـن ذعـر يماثـل ذعـري. كان مـا فهمتـه صحيحـا. المرشـدة الاجتماعيّـة قضـت بأنـني أمّ مهملـة. إهمـالي ذهـب بحيـاة ابـني الأوّل، ولمصلحـة الطفـل الثّـاني، سـيتمّ الاحتفـاظ بـه في رعايـة الإرشـاد الاجتماعـيّ، ريثمـا يجـدون لـه عائلـة حاضنـة! أضافـت بـبرود أنـني سـأكون

محظوظة إن لم تقع محاكمتي ومعاقبتي بالسجن!

كنت على مشارف الانهيار.

يا أيّها النّاس! أيّها البشر! لقد فقدت ولدا للتوّ! أنا أمّ ثكلى، ولدها رحل دون أن تقدر على فعل شيء لإنقاذه، فهل تداوون جراحي بأخذ الولد الثّاني منّي؟

تمرّغت في الأرض، ندبت وجهي بأظافري، تمسّكت بثياب المرشدة، ورجوتها، توسّلت إليها أن تترك لي جاسر. رامز رحل، لم يعد باليد حيلة. لكن جاسر؟ لماذا يحرمونني منه بتلك البساطة؟ زوجي كان يجلس جامدا كالصخرة. حين غادرت المرشدة وهي ثابتة على موقفها لا تتزحزح، نظر إليّ في حقد لم أتصوّر أنّه قادر على مثله وقال: أنت السّبب!

وهكذا، بين عشيّة وضحاها فقدت الولدين.

بعد صدور الحكم الرّسمي بسحب حضانة جاسر منّي، وكّلت محاميا ورفعت دعوى لاسترداده. أقول رفعتُ، لأنّ زوجي كان كالمغيّب عن الواقع. صار يغيب كثيرا عن البيت ولا يكاد يكون هناك حديث بيننا. سندي الوحيد وجدته في زميلات الدّراسة. من بينهنّ كانت هناك فتيات جامعيّات ولهنّ علاقات اجتماعيّة ومهنيّة، فأرشدنني إلى محامٍ قبل تمثيلي أمام المحكمة بأجر زهيد. في الأثناء، لم يسمح لي برؤية جاسر مرّة واحدة. كان قد مكث في المستشفى لفترة غير قصيرة للعلاج النّفسيّ من الصّدمة. ثمّ انتقل إلى العيش عند عائلة فرنسيّة لا أطفال لديها.

بعد مرور شهرين، رأيته في المحكمة للمرّة الأولى. كان يبدو بصحّة جيّدة ومُعتنى به. حين رآني، ركض في اتّجاهي وهو ينادي «ماما»، لكنّ أمّه الجديدة منعته، فبكى. رأيت ولدي يبكي، فبكيت.

تعامل زوجي مع المسألة بفلسفة غريبة. كان يمكّنني من المال الكافي كلّما طلبت، لدفع نفقات المحامي والإجراءات القضائية، لكنّه لم يكن يرافقني إلى المحكمة أو يحضر الجلسات. كان سلوكه متباعدا بشكل

مغيـظ، كأنّ الولـد لـم يكـن ولـده!

بعـد أسابيع مـن شبه القطيعـة بيننـا، فاجـأني بالتّعبـير عـن حقيقة شـعوره بعـد أن بـرد الغضـب وخفّـت حدّتـه مـع تعاقـب الليـل والنّهـار. قـال إنّـه يؤمـن بـأنّ مـا يحصـل معنـا هـو عقـاب إلهـي، عـلى أخطـاء ارتكبناهـا وذنـوب اقترفناهـا. وأنّ علينـا التّوبـة والرّجـوع إلى الله حـتّى يعـود لنـا جـاسر!

أدهشـني تأويلـه. في نظـر الجميـع، كنـت أنـا المسـؤولة عـن الحادثـة، وهـذا هـو ذنـبي الجليّ. فمـا ذنبـه هـو في الأمـر حـتّى يتقبّـل المصـاب بـكلّ تلـك السّـكينة؟ شـككت في تلـك الفـترة بأنّـه كان عـلى علاقـة بامـرأة أخـرى خـارج إطـار الـزّواج، وقـد أنّبـه ضمـيره حـتّى أيقـن بأنّـه قـد نـال جـزاءه الـذي يسـتحق.

لـئن لجـأ زوجـي إلى الإيمـان ليصـبّر نفسـه عـلى المأسـاة الـتي حلّـت بنـا، فإنّـني قـد سـخّرت كلّ دقيقـة مـن وقـتي لاسـترجاع ولـدي. ليـس الإيمـان أن تسـلّم وتستسـلم وتقبـع مكتـوف الأيـدي في انتظـار المعجـزة الـتي تعلـن عـن الصّفـح! كان إيمـاني الـذي يحرّكـني حـتّى أنبـش السّـماء والأرض في سـبيل اسـترداد الحـق المغتصـب. ألـم يكـن حرمـاني مـن ولـدي ظلمـا سـافرا لا جـدال فيـه؟

لـم أكـن أضرب أولادي قـطّ أو أؤذيهـم جسـديّا أو معنويّـا بـأيّ شـكل مـن الأشـكال!

كان ما حصل حادثة! حادثة يا عالم!

إذا تعـرّض شـخص مـا إلى حـادث سـيّارة، فمـات أحـد أولاده ونجـا الولـد الآخـر، فهـل يسـحبون منـه الحضانـة لأنّ سـلوكه يمثّـل خطـرًا عـلى الأطفـال؟ أم يعتـبر الجميـع مـا حصـل حادثـة فيعزّونـه في الفقيـد ويهنئونـه بسـلامة الناجـي؟

كنـت أفقـد صـوابي أحيانـا في قاعـة المحكمـة حـين يتمـادى المدّعـي العـام في اتّهامـي بالإهمـال وعـدم المسـؤوليّة. كانـت حادثـة واحـدة، تعلّمـت منهـا

درس عمري، لكنّهم كانوا مصرّين على إعدامي أخلاقيّا وتدميري نفسيّا.

بعد شهور، سمحوا لي برؤية جاسر. كانت مقابلات قصيرة ومرتّبة بمواعيد محدّدة وقصيرة المدى، وتحت مراقبة لصيقة من «والدي» جاسر الحاضنين. في اللقاء الأوّل، كان الأمر صادما. جاسر كان ينادي تلك المرأة «ماما»، ولم يعرف بما يجب عليه أن يناديني!! كنت وجها مألوفا بالنّسبة إليه، لكن يبدو أنّ كلاما كثيرا قيل له في غيابي وجعله يحار بين الذّكريات القديمة التي يسجّلها دماغه عن «أمّه السّابقة» وبين المعطيات الجديدة التي تجعلني شخصا غريبا وغير مرغوب فيه ربّما!

كان عليّ أن أعمل على استرداد ثقته في تلك اللقاءات الموجزة والمتباعدة.. لكنّ إحساسا بداخلي تنامى يوما بعد يوم بأنّني كنت أفقده وإلى الأبد.

العائلة التي عُهد إليها بجاسر كانت مسيحيّة محافظة. جعلني ذلك على الأقلّ أطمئنّ إلى أنّ ابني لن ينشأ ملحدا أو منحرفا بسبب تربية متهاونة أو مائعة. مع أنّني كنت أؤمن أنّها تربية «مؤقتة» إلى حين عودته إليّ. الوالدان كانا دمثين ومتفهّمين، لكنّهما كانا يعملان على الاحتفاظ بجاسر نهائيّا، ووجودي بقربه على الدّوام كان بالنّسبة إليهما عاملا مشتّتا ومثيرا للضّيق. بعد فترة، طلبا منّي أن أتوقّف عن المجيء، لأنّ جاسر كان يعاني من كوابيس بعد كلّ زيارة، فيستيقظ من نومه مرتعبا يصرخ. كانت رؤيتي تعيد إلى ذاكرته تفاصيل الحادثة وما تلاها من صدمة!

كان قلبي يتمزّق وأنا أجدني أضطرّ إلى استراق النّظر إلى ولدي من بعيد وهو يلعب في الحديقة أو يسير في طريقه إلى المدرسة.. كان عقابا شديدا، أن أظلّ بمنأى عن حياته، وأترك له المجال لينساني، وينسى مأساة طفولته معي...

بعد ثلاث سنوات، كانت حياتي -حياتنا الزوجيّة- قد استعادت قدرا من الاستقرار. المأساة وما تبعها أضفيا على علاقتنا نوعا من الرّوحانيّة. طريقة تناول زوجي للأزمة كانت التوجّه إلى التّوبة وطلب الغفران والتأمّل

واللجـوء إلى الله.

كنـت امـرأة مؤمنـة، لكـنّ علاقـتي بـالله كانـت عـلى الفطـرة، بـدون قـوّة أو حـرص. كانـت فرصـة لنراجـع أنفسـنا ونحاسـبها عـلى السّـنوات الضائعـة. في تلـك الفـترة التزمـت بالحجـاب الإسـلاميّ.

بعـد مـرور ثـلاث سـنوات، أنجبـت ابنـتي ميـار. فـترة حمـلي بهـا كانـت تتّصـف بالسّـكينة والطمأنينـة. كنّـا قـد قرّرنـا أن نعـوّض بهـا حرماننـا الـذي طـال وننشّئها تنشئة حسـنة وننسى آلام الماضي. مجيئها المرتقب زاد مـن لحمتنـا وتماسـكنا وأعـاد إلينـا إيمـان أحدنـا بالآخـر، كأنّهـا طفلنـا الأوّل.

كان ذلك قبل أن نستيقظ من أوهامنا الواهية.

بعـد أسـبوعين مـن ولادة ميـار، دخلـت علينـا المرشـدة الاجتماعيّـة لانـتزاع الأمـل الأخـير. كان عليهـا أن تأخـذ ميـار أيضـا وتضعهـا عنـد عائلـة حاضنـة أخـرى! كنـت غبيّـة حـين اعتقـدت أن تهمـة «الأم غـير الصّالحـة» ستسـقط عـنّي بالتّقـادم! لكـن بـدا أنّـه لا مفـرّ مـن أن تتبـع كلّ أولادي تلـك اللعنـة. «لعنـتي». لعنـة سـمّمت حيـاتي وانتهـت بي إلى فقـدان الأمـل.

بعـد أسـبوع مـن أخذهـم لميـار، غـادر زوجـي البيـت دون رجعـة. طلـب الطّـلاق دون مقدّمـات. لـم تعـد هنـاك حيـاة ممكنـة بيننـا. المشـكلة هـي أنّـي كنـت متمسّـكة باسـترجاع جاسر ومـن بعـده ميـار، وهـذا يقـضي ببقـائي في فرنسا حـتّى أطالـب بحقـي فيهمـا أمـام المحاكـم الفرنسـيّة. وطالمـا بقيـت عـلى الأراضي الفرنسيّة فلـن يمكنـني أن أنجـب أطفـالا آخريـن وأستبقيهم، إلا إذا امتنعـت عـن تسـجيلهم في ملفّـات السّـجل المـدني!

كانـت الطريـق مسـدودة. زوجـي تعـب ومـلّ وزهـد فيّ وفي الأولاد. كلّ تلـك الرّوحانيـات والأواصر المتينـة انهـارت في سـاعة. السـاعة الـتي تلـت خـروج ميـار مـن البيـت.

بعـد الطـلاق واختفـاء زوجـي الغامـض، تابعـت رحلـتي وحدي. عرفـت فترة مـن الضيـاع والتـشرّد بعـد أن انقطـع عـنّي مـورد رزقي الوحيـد: مرتّـب زوجـي. لـم تكـن النفقـة الضئيلـة الـتي تفضّـل عـليّ بهـا مـن بـاب الشّـفقة لا أكـثر

-كطليقة بدون أولاد- لتكفي إيجار الشقة الواسعة التي كنا نستأجرها في الماضي. اضطررت إلى تركها بسرعة. بقيت لبضعة أسابيع عند صديقات، كنّ هبة من الله في وقت المحنة تلك. ثمّ بدأت مهمّة البحث عن عمل. كانت الدّعاوى السّابقة لاسترجاع جاسر قد أرهقت ميزانيتنا المتواضعة، وطليقي لم يكن مستعدّا لتشتّت جديد بين المحاكم من أجل ميار. كان قد استسلم قبل المعركة. أمّا أنا فما إن وجدت عملا حتّى اتّصلت بالمحامي من جديد!

تمكّنت من إيجاد وظيفة كمدرّسة في قسم الحضانة التّابع لمدرسة عربيّة في نانت. انتقلت بعدها للعيش في شقة مشتركة مع مدرّستين أخريين. فضلا عن كسب مورد مالي يسمح لي باستئناف القضايا، مكنني العمل من الانغماس في أشياء أخرى تخفّف من حسرتي، وخاصّة الاتّصال اليوميّ بالأطفال. كنت أحتضنهم واحدا واحدا، أمسح على رؤوسهم في حنان وأوزّع عليهم الحلوى، ألاعبهم في شغف وأستمتع برفقتهم التي ملأت فراغي وسدّت ولو جزئيا الثغرة العميقة في فؤاد الأمّ الثكلى في أولادها الثلاثة التي كنتها.

الإجراء الوقائي الذي قمت به آنذاك، كان أن ترجّيت صاحب العمل ألا يسجّلني ضمن الموظّفين الرسميّين لديه. لم أكن آمن أن تدخل عليّ المرشدة في أيّ وقت من الأوقات وتدّعي أنّني خطر على أطفال الآخرين مثلما كنت خطرا على أطفالي! ومع أنّني شرحت أسبابي الحقيقية دون مواربة، فقد وجدت من صاحب العمل تفهّما وتعاونا لا مثيل لهما. أصبحت المدرسة وأهلها عائلة جديدة بالنسبة إليّ. كانوا يعرفون جميعا بمأساتي ويتعاطفون معها، وقد نصحتني إحدى الزّميلات حينها بالتّوجّه إلى جمعيات حقوق الإنسان ومختلف المنظّمات الإنسانيّة، فبدأت رحلة جديدة من المناشدات والمراسلات.. دون جدوى.

في ذلك الوقت، كنت قد أخذت أزور جاسر من جديد. كان قد نسيني تقريبا أو يكاد! لم تعد رؤيتي تثير لديه الكوابيس أو الهواجس.

في الحقيقة لم تعد تثير أية عاطفة كانت. كنت أقدّم إليه كصديقة للعائلة ليس ملزما بالجلوس إليها بصفة خاصّة. كنت أراقبه في معظم الأحيان وهو يلعب أو يحلّ دروسه وأتحدّث إلى حاضنته التي تجيب على أسئلتي في اقتضاب وتململ منتظرة انصرافي بفارغ الصبر.

كان ذلك واضحا.. لم أعد أمّه!

زياراتي باتت تعدّ نوعا من التّطفّل على الحياة العائليّة المستقرّة التي ينعم بها ثلاثتهم. أفهموني ذلك بطرق شتّى، بالتلميحات والنّظرات أوّلا، ثمّ بالقبلات الحانية التي يتبادلونها بينهم دون أن أدعى إلى المشاركة فيها، ثمّ بصريح العبارة أخيرا حين قالت لي السيّدة يوما:

- إنّ الولد يكبر وهو في صحّة جيّدة وكلّ حاجاته ملبّاة، وأنت لم تعودي تعنين شيئا له. فلماذا لا ترحلين؟

بكيت تلك الليلة كثيرا وأنا أكتم شهقاتي عن جارات السّكن. لم تكن قد قالت شيئا جديدا عليّ، كان ذلك واقعا أعيشه، لكنّني رفضت الاعتراف به حتّى ذلك الوقت.

«لم أعد أعني له شيئا».

فكّرت حينها، لو أنّ والده كان أكثر شجاعة وتمسّك به مثلي، ربّما ظلّت صورتنا في ذهنه أكثر تكاملا كزوجين وأبوين، لكنّ وجهي وحده كان مرتبطا بالصّدمة التي يريد نسيانها.. وقد نجح في ذلك.

كانت معركتي الباقية هي ميار. لم تكن مصدومة ولا تحمل عنّي ذكريات سيّئة. لكنّها أيضا لا تحمل عنّي أيّ نوع آخر من الذّكريات! أخذوها من أحضاني في أيامها الأولى. لعلها افتقدت رائحتي التي تشتاق إليها بالغريزة، لكنّها بالتأكيد ستكون قد نسيتها حين طال البعاد.

ميار، كنت حريصة على رؤيتها مرّة في الأسبوع. رغم أنّها تقيم على مسافة ساعة مع عائلتها الجديدة، ورغم ما يكلّفني إياه التّنقل من مصاريف، إلاّ أنّني لم أخلّف موعدا واحدا إلا لظروف طاغية. ورغم أنّه لم يكن يسمح لي بلمسها أو حملها بين ذراعيّ، لأنّني «خطر» عليها

بالطبـع. كنـت أكتفـي بالجلـوس قـرب سريرهـا، أنحـني باتجاههـا بقـدر لا يتجـاوز الحـدّ المسـموح بـه، وأهمـس لهـا بـكلّ الأحاديـث الـتي أريدهـا أن تحفظهـا في ذاكرتهـا، عـني وعـن أبيهـا وأخيهـا، عـن بيتنـا الصغـير الـذي لـم يعـد لـه وجـود، وعـن وطننـا سـوريا الـذي أرجـو أن آخذهـا إليـه يومـا.

حاضنتها كانت واضحة في تعليماتها منذ البداية. قالت:

- لا تطلـبي منهـا أن تناديـك بـ«ماما» حـتّى لا تختلـط الأمـور عليهـا. أنـت صديقـة، تأتـين لملاعبتهـا ثـمّ تعـود كلّ منكمـا إلى حياتهـا. فهمـت؟

وكان يجـب أن أفهـم وأنفّـذ. طـوال سـنوات، كنـت غريبـة متطفّلـة عـلى حيـاة ولـديّ. حاولـت العائلـة أن تجعلـني أرجـع إلى حلـب بعـد أن فقـدت الدّعـوى إثـر الأخـرى، لكنّـني كنـت أرفـض بشـدّة وأبـكي كلّمـا أثـار أحدهـم الموضـوع. إلى أن جـاء سـامر إلى فرنسـا ليقنعـني بالرّجـوع معـه.

أخذته معي في زيارة للولدين. على طريق العودة قلت له:

- هـل هنـاك أمّ في العالـم تتخلّى عـن أطفالهـا بإرادتهـا؟ وهـل تدّخـر جهـدا لاسـترجاعهم مـا دام يـتردّد في صدرهـا نفـس؟

فبكى، وبكيت. ثمّ سافر إلى سوريا بدوني.

اليـأس الجـارف دفعـني إلى الإقـدام عـلى عمـل جنـوني، في صائفـة سـنة ٢٠٠١. كانـت ميـار قـد أتمّـت سـنتها الثالثـة، وكان قلـبي يحـترق مـن أجلهـا كلّ يـوم. كنـت أدرك أنّهـم سـيطلبون مـنّي قريبـا أن أخفّـف الزيـارات، لأنهـا سـتدخل المدرسـة وتختلـط بعالـم آخـر، فـتزداد بعـدا عـنّي. فقـرّرت أنّ الأمـر لـن يكـون كذلـك!

في غفلـة مـن حاضنتهـا الـتي تركتـني لبرهـة مـع ميـار في الشرفـة ودخلـت إلى المطبـخ، أقدمـت عـلى الفعـل الممنـوع.. حملـت ميـار بـين ذراعـيّ دون تفكـير وركضـت باتجـاه البـاب لا ألـوي عـلى شيء. اختطفـت ابنـتي!

لـم أكـن أدري أيـن يمكـن أن أذهـب أو أخفيهـا عـن الأنظـار. ركبـت سـيّارة أجـرة وميـار لا تكـفّ عـن البـكاء والتخبّـط بشـكل يجلـب الانتبـاه، ثـمّ توجّهـت

إلى محطّة القطارات لأشتري تذكرة إلى أيّ مكان.. كنت أفكّر في الابتعاد بها لا غير. لكنّها كانت محاولة يائسة حقّا، لأنّ حاضنة ميار انتبهت إلى غيابها بعد مضي خمس دقائق على مغادرتنا فقط. اتّصلت على الفور بالشرطة وإدارة الإرشاد الاجتماعيّ، فلم يكن من الصّعب عليهم إيقافي على رصيف المحطّة وأنا أهمّ بالرّكوب إلى باريس.

كدت أواجه عقوبة السّجن. لكنّ المحامي أثبت أنّي كنت أمّا مكلومة تعاني من حالة انهيار، فاكتفت المحكمة بالحكم عليّ بالابتعاد الكليّ عن أولادي والتوقّف النهائي عن رؤيتهم وزيارتهم!

لم يعد مسموحا لي بالاقتراب من مكان سكنهم أو دراستهم لمسافة مائة متر! فعرفت انهيارا حقيقيا حينها. كنت على مشارف الجنون، وكدت أغرق في وحل الإدمان بعد أن أصبحت أعيش على الأقراص المنوّمة التي تبقيني هادئة ومسالمة...».

زفرت سكينة في ألم، ولم تكن ياسمين تجد الكلمات المناسبة لتخفّف عنها. لم يكن هناك من كلام قد ينجح في مواساة أمّ حرمت من أطفالها الثلاثة!

- مرّت أربع سنوات مذ حرمت من رؤية ولديّ.. كنت خلالها كالميتة! لكنّني استيقظت من سباتي منذ شهرين.. أتدرين لماذا؟

هزّت ياسمين رأسها في حيرة، فتابعت سكينة وشبح ابتسامة يزيّن ثغرها:

- لقد اكتفيت من البكاء على الأطلال، وصار عليّ أن أنظر إلى المستقبل.. والمستقبل الذي كان بعيدا منذ أربع سنوات، قد غدا قريبا الآن.. خلال شهور، سيبلغ جاسر سنّ الثامنة عشرة! سيصبح راشدًا في نظر القانون، وسيكون بوسعي أن أخاطبه دون أن يمنعني أحد! لقد تقصّيت أخباره، وعلمت أنّه التحق بالجامعة في باريس.. فجئت أجدّ في إثره! سأبحث عنه، وأجده.. وحين يبلغ السنّ القانونية، سأكون في انتظاره!

وفت بوعدها وعادت إلى مصر.

لكن بدا أنّ روحها قد فارقتها هناك، في قاعة الرّحيل بمطار باريس «أورلي». عادت وقد فقدت اهتمامها بكلّ الأشياء وكلّ الأشخاص. انقطعت عن السّهرات والحفلات وأيضا عن نادي الفروسية، وعن شهاب.

عاينت عائلتها في حيرة وضعها الجديد. لقد استماتت في المحاولة حتّى حصلت على فرصة السّفر. لكنّها رجعت وكأنّها لم تربح القضيّة! وكأنّها لم تصنع معجزة! وكأنّها لم تقلب الموازين في المحاكمة الأكثر شهرة في فرنسا ذلك العام وربّما منذ حادثة تولوز سنة ٢٠٠١*. لم يعد لديها هدف تحارب من أجله. لم تعد الحياة تعني لها شيئا.

لكنّ شهاب أدهشها بإصراره. معرفتهما السّطحيّة العابرة لم تعن لها شيئا، لكنّها مثّلت أكثر من ذلك بالنسبة إليه. بعد محاولات واتصالات كثيرة فاشلة، ترك لها رسالة صدمتها.

«أنا أعرف كلّ شيء!».

اتّصلت به على الفور وهي تقول في عداء لا مبرّر له:

- ما الذي تعرفه بالضبط؟

قال ببساطة:

- هناك شخص ما يهمّك أمره في باريس.. لكنّ أمرا ما حصل. قد يكون تركك، وقد تكون عائلتك غير راضية عنه.. لكن كل ذلك لا يهمّ. لقد عدتِ الآن، وحياة أخرى جديدة تنتظرك هنا. وأنا أريد أن أساعدك على النسيان وتجاوز هذه التجربة!

---

*حادث صناعي كان يعتقد بكونه هجوما إرهابيا، قبل أن تثبت التحقيقات غير ذلك.

ألجمتها المفاجأة. لأوّل مرّة كانت تشعر بأنّ دواخلها مكشوفة. بل أكثر من ذلك، كان بإمكانها أن تثق بذلك الشّخص وتصارحه بما يعتمل داخلها.. كصديق قبل كلّ شيء.

- نادي الفروسيّة إذن؟

تنهّدت في ضيق. لقد ملّت كلّ شيء، ولم يعد هناك ما يسترعي انتباهها.

- لم تعد بي رغبة في ارتياد الأماكن الاعتياديّة.. أريد أن أفعل شيئا مجنونا! أريد إثارة غير مسبوقة! هل تفهمني؟

- أفهمك تماما.. ترقّبي اتّصالي!

كانت تشعر بالفضول. ما الذي قد يفاجئها به شهاب؟

اتّصل بها بعد يومين، فرافقته إلى الجيزة. على مقربة من الأهرامات الأسطوريّة، انطلقت بهما طائرة صغيرة خاصّة حتّى حلّقت فوق المنطقة الأثريّة الفرعونيّة. حدّقت رنيم في الفضاء الشّاسع تحتها، عبر بوّابة الطائرة المشرعة، وهتفت ليصله صوتها رغم هدير المحرّك المرتفع:

- هذا جنون!

ضحك شهاب وهو يهتف بدوره:

- أليس هذا ما أردته؟ إليك بعض الإثارة يا عزيزتي!

- لم أكن أفكّر في هذا!

كانت تنزل بالمظلّة للمرّة الأولى في حياتها. لقد كانت مجنونة حقّا لتجاري شهاب! أخذت نفسا عميقا، والهواء الجارف يطيّر شعرها ويهزّ توازنها.

- أنت جاهزة؟ سنقفز!

- لا أستطيع!

- بلى تستطيعين، تمسّكي بي. لن تكوني بمفردك!

رنــت إلى عينيــه الواثقتــين. كان عليهــا أن تســلّمه أمرهــا، رغــم ارتجافهــا. أومــأت في توتّــر، وتركــت كفّهــا بــين أصابعــه تقبــض عليهــا بقــوّة.. ثــمّ، كانــت تحلّــق! كانــت لحظــة ســاحرة. وجههــا إلى الأرض، تبــصر أهرامــات الجــيزة العملاقــة، وقوافــل الســيّاح تتهــادى عــلى ظهــور الجمــال تخــترق الصّحــراء الغامضــة، والقاهــرة ومعمارهــا الكثيــف في الأفــق البعيــد.

نظــرت في اتّجــاه شــهاب، فألفتــه يبتســم مشــجعا. رغــم أنّهــا معلّقــة بــين السّــماء والأرض، وتندفــع نحــو القــاع بسرعــة هائلــة، فإنّهــا كانــت تشــعر بالارتيــاح بشــكل غريــب. كانــت تطمــئنّ إلى شــهاب. أيقنــت بأنّهــا قــد غــدت تثــق بــه. ربّمــا أكــثر مــن أيّ شــخص آخــر في محيطهــا.

- انتبهي، سنهبط!

شــدّ المقبــض المتّصــل بحقيبــة ظهــره، ففعلــت مثلــه، لتنفتــح المظلّتــان فوقهمــا دفعــة واحــدة، ويتباطــأ النّــزول فجــأة. أخــذ جســدها يتأرجــح برفــق وهــي تقــترب مــن المســاحة الرّمليــة القفــرة الــتي اختارهــا للهبــوط، ثــمّ مــا لبثــت قدماهــا أن لامســتا الرّمــال السّــاخنة، وتدحرجــت في فــوضى، حــتّى اســتقرّت ســاكنة وقــد لفّتهــا المظلّــة بشــكل لولــبيّ، وهــي تقهقــه في جنــون. هــرول شــهاب إليهــا مــا إن اســتعاد توازنــه وهتــف في قلــق:

- أنت بخير؟

- أنت مجنون! وأنا أحبّ هذا!

ثمّ استغرقت في الضّحك مجدّدا.

***

بفضل شهاب، استعادت توازنها سريعا.

كانــت قــد علمــت عــن طريــق جــورج برحيــل عمــر إلى المغــرب. أيقنــت حينهــا أنّ عودتهــا إلى باريــس لــن تغــيّر شــيئا. لقــد فقدتــه إلى الأبــد، دون أن تودّعــه حــتّى. عزاؤهــا الوحيــد هــو أنّهــا منحتــه حريّتــه كمــا وعــدت. وهكــذا بــدأت تعــوّد نفســها عــلى فكــرة البدايــة الجديــدة، ورغــم صعوبــة الأمــر

اتخـذت قـرارًا صارمًـا بنسـيان عمـر وكلّ مـا يتّصـل بـه.

امتنعـت عـن الـرّدّ عـن ممثـلي القنـوات الفضائيـة والصّحافـة الدّوليّـة الذيـن طاردوهـا للحصـول عـلى حـوار حـصريّ بخصـوص دورهـا في القضيّـة. ويبـدو أنّ عمـر اعتمـد سياسـة التّعتيـم ذاتهـا، فلـم تظهـر تصريحاتـه في وسـائل الإعـلام. لكنّهـا علمـت عـن طريـق جـورج أنّـه نجـح في الحصـول عـلى تعويـض مـن الدّولـة الفرنسـيّة عمّـا طالـه مـن أذى نفسيّ وجسـديّ. فاطمأنّـت إلى أنّـه لـن يحتـاج إليهـا بعـد ذلـك.

بـدأت مرحلـة جديـدة مـن حياتهـا، بخطـى متعـثّرة. لـم تجـد صعوبـة في الحصـول عـلى وظيفـة في مكتـب محامـاة معـروف في القاهـرة، فسـاعدها العمـل عـلى تجـاوز أزمتهـا النّفسـيّة. وكان شـهاب متواجـدًا ومتفهّمـا بشـكل محـرج، لكـن دون ضغـط أو مضايقـة. كانـت تـدرك أنانيّتهـا في تلـك العلاقـة. كانـت تتلقّـى عنايتـه واهتمامـه، لكنهـا غـير قـادرة عـلى العطـاء بدورهـا!

رنيـم الـتي تعـوّدت أن تكـون الطـرف المضحّـي والمعطـاء، وجـدت نفسـها شـحيحة فجـأة أمـام سـخاء شـهاب! لـم يكـن هنـاك إلا تفسـير واحـد.. لـم تكـن مشـاعرها تجاهـه بالقـوّة الكافيـة.

في ذلـك الوقـت، كانـت العـودة إلى باريـس قـد غـدت طـيّ النسـيان. لـم تكـن تجـرؤ عـلى التفكـير فيهـا حـتّى في خلواتهـا. في الحقيقـة، لـم يعـد هنـاك حافـز. لكـنّ شـهاب اسـتمرّ يفاجئهـا. قـال ذات يـوم، بينمـا كانـا يتمشّـيان عـلى ضفـاف النّيـل، ويقضمـان أكـواز الـذرة:

- هل تشعرين بأنّك مراقبة؟

هتفت في ضيق:

- طـول الوقـت! أتـرى ذلـك الرّجـل الـذي يرتـدي نظـارات سـوداء؟ إنّـه وراءنـا منـذ شـارعين عـلى الأقـل!

همس وهو يطالع الرّجل بنظرة خاطفة:

- أنت جادّة؟

- وأكـثر! أشـعر باسـتمرار بـأنّ هنـاك عينـين خفيّتـين تتابعـان أدنى حركـة أبديهـا.. لـن أفاجـأ إذا عرفـت أنّ أبي وضـع مراقبـا لي!

- وما رأيك في من ينقذك من كلّ هذا؟

ضحكت في مرارة وقالت تجاريه:

- سيكون بطلي بلا شكّ!

تنحنح متظاهرا بالتفكير ثمّ قال:

- هـذا لقـب جديـر بالمحاولة! إذن إليـك الأمـر.. وصلـني منـذ أيّـام عـرض لزمالـة في مستشـفى أوروبيّـة.. وقـد أضطـرّ إلى السّـفر...

قالت في شرود، وعيناها تتعلّقان بصفحة الماء والسّفن السياحيّة:

- آه.. هل ستغيب كثيرا؟

- عشرة أشهر.

- إنّها مدّة طويلة!

- نعم إنّها كذلك.. ما رأيك إذن؟

- لا شكّ أنّها فرصة جيّدة.. لمستقبلك المهنيّ. أليست كذلك؟

- إنّها كذلك بالفعل.. إذن؟

ضحكت في حرج وقالت:

- ماذا الآن؟ هل تطلب إذني للسّفر؟

- ليس تماما.. أسألك إن أردت مرافقتي!

التهبت وجنتاها فجأة وقالت بتلعثم:

- ماذا تعني؟

- ليس بالشّكل الذي فهمته!

ضحك ثمّ أردف في استمتاع:

- لم تسأليني، أين تكون الوظيفة؟

- أين قد تكون؟

- في باريس!

التفتت إليه في تحفّز واهتمام، ثمّ ما لبثت حماستها أن فترت، وردّت في برود:

- لِمَ لا؟!

لم تعد باريس بنفس الجاذبيّة في عينيها. لقد فقدت كلّ رونقها، حين تنازلت عن ماضيها هناك، بكلّ زخمه وآلامه. عقد شهاب حاجبيه في شكّ. هل زهدت رنيم باريس حقّا؟ هل يعني ذلك أنّ ما من شبح علاقة ينتظرها هناك؟ لكنّه كان يدرك في قرارة نفسه أنّها لن تتخلّص من عقدة الماضي إلا بمواجهته.. ولن تستعيد حريّتها حقيقة إلا حين تطلق سراح عقلها من سجن الذّكريات.

- ماذا قلتِ إذن.. هل تأتين؟ نتخلّص من الرّقابة لبعض الوقت؟

- هل تعني...؟

أومأ برأسه علامة الإيجاب، ثمّ أخرج من جيبه علبة مخمليّة حمراء، فهتفت رنيم في ذعر:

- لا، أنت لا تعني هذا! قل لي أن العلبة فارغة.. أو فيها أيّ شيء، عدا ما يفترض به أن يكون!

أشار إليها بهدوء:

- على رسلك.. لا تنسي بأنّك مراقبة! ردّة الفعل العصبيّة هذه لا تناسب الموقف!

ضحكت رغما عنها، بينما واصل شهاب:

- هذا الخاتم ليس قيدا.. إنّه طوق نجاة! نتظاهر بالارتباط، ونسافر إلى باريس.. عشرة أشهر، فترة حرية تستحق التّضحية، أليست كذلك؟

كانت تقلّب الفكرة في رأسها في حيرة. لكنّها لم تجد بدّا من الهتاف:

- أنت مجنون! لا أدري لماذا تفعل هذا؟

فتح شهاب العلبة وابتسامة مغرية تزيّن شفتيه. اتّسعت عينا رنيم ذهولا وإعجابا. كان خاتما ماسيّا ذا حجر كريم بحجم حبّة البازلاء! كان مدهشا وبريقه الأصليّ لا يقاوم. دون أن تشعر، أمسكت بالعلبة وهي تقول:

- شهاب، هذا الخاتم يساوي ثروة!

- إنّه كذلك!

رفعت عينيها إلى وجهه وهي تردف:

- سأقول شيئا، وحاول ألا تأوّله بشكل خاطئ.. أيّ امرأة عاديّة كانت لتشعر بأنّها أميرة إلى جوارك.. محظوظة هي التي ستحظى بودّك!

ابتسم في فتور، ثمّ قال:

- أيّ امرأة.. باستثناء رنيم شاكر، تقصدين؟

- قلت امرأة عاديّة.. وأنا لست عاديّة!

- يا لغرورك يا عزيزتي!

انفجرت ضاحكة، ثم قالت في مرارة:

- لقد فهمتني خطأ.. قصدت أيّ امرأة طبيعيّة، سليمة التّفكير صحيحة العقل.. لكنّني امرأة معقّدة! هذا كلّ ما في الأمر.

- ستشفين.. أعدك بذلك!

تنهّدت، ثمّ حاولت أن تستعيد ابتسامتها:

- دعك منّي الآن، المهم هو أنّ هذا الخاتم آسر حقا! هل يمكنني أن أجربّه؟

ترك العلبة بين يديها بابتسامة جذلى:

- إنّه لك، على أيّة حال!

- يمكنني أن أستعيره لفترة؟

قالـت وهـي تضـع الخاتـم في بنـصر يمناهـا وترفـع كفّهـا ليتألّـق بريقـه تحـت شـعاع الشّـمس.

- هل يعني هذا أنّك قبلت العرض؟

- نعم، قبلت.. أقول نعم!

ثمّ أضافت:

- لن تكون هناك خطبة رسميّة، أليس كذلك؟

- يمكننا أن ندّعي ضيق الوقت، على أن نحتفل بعد فترة البعثة.

- ترتيـب جيّـد. شـهاب صـادق، أهنّئـك! لقـد فكّـرت في كلّ التّفاصيـل بشـكل مدهـش.

سـارت أمامـه وهـي تتأمّـل الخاتـم مأخـوذة، وتفكّـر في رحلتهـا المرتقبـة إلى باريـس.

بينمـا سـيطرت فكـرة واحـدة عـلى عقـل شـهاب. أمامـه عـشرة أشـهر، ليجعلهـا تغـيّر رأيهـا، وتحتفـظ بخاتمـه إلى الأبـد!

-٩-

طرقت الباب بشكل موقّع، وانتظرت وعيناها تتّقدان حماسة. وما إن فتحت دفّة الباب، حتّى قفزت وهي تهتف:

- مفاجأة!

لكنّها تسمّرت مكانها حين لمحت الوجه الغريب الذي استقبلها. قالت في حرج:

- أليست هذه شقّة ياسمين؟

ابتسمت سكينة وهي تقول:

- نعم، إنّها كذلك.. لكنّ ياسمين ليست هنا!

شعرت رنيم بالحرج. لقد رفضت عرض شهاب بمرافقته إلى الفندق، وهرولت من المطار مباشرة إلى الشقّة.. لتقف ذلك الموقف المروّع بحقائبها الثّقيلة أمام سيّدة غريبة تطالعها في فضول.

- تفضّلي، ياسمين لن تتأخر.

- هل يمكنك الاتّصال بها؟ لقد وصلت إلى البلاد للتوّ، وليس بحوزتي خطّ هاتف بعد!

- بالتّأكيد سأفعل.. هل أساعدك في إدخال الحقائب؟

أفسحت لها سكينة المجال لتسحب أغراضها واحدا إثر الآخر وترصفها في مدخل الشقة. رفعت رنيم عينيها لتجوبا في أنحاء الصّالة التي تركتها منذ سنتين. كانت هناك لمسات غريبة في كلّ مكان. ليست لمسات ياسمين بكلّ تأكيد.. إطارات ملوّنة تزيّن الجدران ومفارش «كروشيه» مبسوطة على المناضد ومساند المقاعد.. ونباتات زينة!

عادت لتراقب السيّدة التي تروح وتجيء في المطبخ والهاتف عند

أذنها. هل هي شريكة سكن جديدة؟ يا للهول! أنت تحرجين نفسك يا رنيم! ياسمين تخطّتك، لقد استبدلتك! وأنت تحسبين أنّ رؤيتك ستشكّل فرقا بالنّسبة إليها! جلست على الأريكة وهي تستشعر الضّيق يتنامى في صدرها.

- ياسمين في الطّريق، ستكون هنا خلال دقائق.

أومأت برأسها شاكرة. ربّما عليها أن تنصرف؟

- هل تشربين الشّاي؟

- شكرا.. لا تتعبي نفسك!

- ما من تعب يا عزيزتي.. لقد جهّزته بالفعل، فلم لا تشاركيني هذا القدح؟

عادت وهي تحمل صينيّة عليها أكواب الشاي وقطع كعك. ابتسمت رنيم رغما عنها. لقد وجدت ياسمين القرينة المناسبة لها! استرجعت بحنين جارف لحظاتهما الحميميّة في تلك الشقة. لم تكن أيّ من أمسياتهما تخلو من شاي ياسمين وكعكها.

- رنيم، لا أصدّق! هذه أنت!

دلفت ياسمين عبر الباب، وهرولت إليها تعانقها. بين أحضانها، شعرت رنيم بأنّ غربتها تلاشت، وأنها قد وصلت إلى أرض الوطن! لقد تغيّرت أشياء كثيرة في غيابها، لكن ياسمين هي هي. وأحيانا يُختزل الوطن في حضن دافئ وقلب صادق.

- لماذا لم تخبريني بمجيئك؟

- اسمها مفاجأة يا عزيزتي!

- وهذه مفاجأة رائعة ومدهشة! هل تعودين للاستقرار في باريس؟

- ربّما أفعل.. سأكون هنا لمدّة عام على الأقل.

- هذا مدهش.. لا أستوعب أنّك عدت حقيقة!

عانقتها من جديد، ثمّ جلستا جنبا إلى جنب على الأريكة، بينما غابت سكينة داخل الغرفة. أشارت رنيم برأسها وهمست:

- شريكة سكنك الجديدة؟

- نعم، سكينة تشاركني الشقة منذ سنة ونصف!

أطرقت رنيم في حرج:

- كان غباءً منّي أن أتوقع أن تظلّ الغرفة في انتظاري.

- أنت تعلمين، الإيجار مرهق لميزانيتي.. لست محامية مشهورة، بل مجرّد طالبة دكتوراه!

ثمّ ما لبثت أن شهقت بصوت عالٍ وعيناها تقعان على كفّ رنيم التي يزيّنها خاتم ماسّي مذهل. هتفت غير مصدّقة:

- لقد فعلتها! لا أصدّق، رنيم شاكر.. لقد خُطبت دون علمي! هذه خيانة!

ضحكت رنيم وهي تقول في لا مبالاة:

- ليس بالأمر الجادّ.. إنّه.. مجرّد هديّة!

- هل جننت؟ خاتم مثل هذا؟ أيّ رجل يقدّم لامرأة خاتم «سوليتير» مذهل، إن لم تكن نواياه تجاهها جليّة؟!

هزّت رنيم كتفيها استهانة وقالت:

- ربّما هو كذلك.. لكنّني لا أشعر بشيء بعد.

- ماذا تعنين؟

تنهّدت رنيم وأخذت تشرح:

- ياسمين، أنت تعرفينني جيّدا.. حين أتورّط في علاقة، فإنّني أفعل كلّ شيء.. أقدّم كلّ شيء.. أضحّي بكلّ شيء! لكن مع شهاب، لا أشعر بأنّني قد أفعل هذا. رفقته ممتعة وشخصيّته جذّابة، وهو يفعل الكثير من أجلي. لكن.. في داخلي، لا أجد صدى لمشاعره!

ابتسمت ياسمين وهي تربّت على كفّها:

- ذلـك لأنّـك تعيشـين علاقـة طبيعيّـة، أخـيرا! علاقـة لا تقـوم عـلى التّضحيـات، لا تشـعرين فيهـا بالخطـر باسـتمرار، ليسـت سـلامتك أو سـلامته عـلى المحـكّ، ليسـت هنـاك مسـألة حيـاة أو مـوت! هـل تدريـن؟ هـذه هـي العلاقـة الصحيّـة المثاليّـة! هـذا الرّجـل يعاملـك كأمـيرة.. وعليـك أن تقـدّري ذلـك، وتسـعدي بـه.. لا أن تسـعي وراء إثـارة موهومـة، لأنّ الحيـاة العائليّـة النّاجحـة تحتـاج اسـتقرارا ورتابـة!

حدّقت رنيم فيها بعمق ثم همست:

- هـل هـذا مـا تشـعرين بـه مـع هيثـم؟ هـل يعاملـك كأمـيرة؟ ولذلـك قبلـت الـزّواج بـه؟

ارتبكت ياسمين وتورّدت وجنتاها.

- نوعًـا مـا.. نعـم، إنّـه يهتـمّ لأمـري. لكـن ليـس ذلـك كلّ شيء.. إنّـه رجـل مناسـب مـن كلّ جانـب.. هنـاك تكافـؤٌ بيننـا، وارتيـاح متبـادل...

هتفت رنيم غير مصدّقة:

- ارتيـاح؟ آه يـا عزيـزتي، خـلال ثـلاث سـنوات لـم تتجـاوزا خانـة الارتيـاح؟ أنـت ميـؤوس منـك!

ضحكت ياسمين ثمّ قالت:

- المشاعر تأتي بعد الزّواج يا عزيزتي، فلا داعي لاستعجالها قبل الأوان!

مطّـت رنيـم شـفتيها في غـير اقتنـاع. إنّهـا تحـبّ ياسـمين، لكنّهـا تـدرك مـدى التّباعـد بـين أسـلوبيهما وطـرق تفكيرهمـا!

أردفت ياسمين مغيّرة الموضوع:

- دعـك مـنّي، لقـد تورّطـت وانتهـى الأمـر! الزّفـاف خـلال أشـهر قليلـة. والآن، أخبريـني كلّ شيء عـن شـهاب هـذا.

فوجئـت بسـكينة وقـد خرجـت مـن غرفتهـا وهـي تسـحب حقيبـة صغـيرة.

وقفت على الفور لتسدّ طريقها وهتفت في استغراب:

- إلى أين، في مثل هذا الوقت؟

قالت سكينة بابتسامة حانية:

- لقد فهمت أنّ هذه رنيم، شريكتك السّابقة في السّكن.. لا شكّ أنّ بينكما أحاديث كثيرة وتحتاجان إلى الخصوصيّة. سأترككما على راحتكما إذن، بإمكاني قضاء الليلة عند بعض الأصدقاء.

هتفت ياسمين بلهجة قاطعة:

- لن يحدث هذا.. هذه شقّتك كما هي شقّتي، لن تغادري هكذا. رنيم ستشاركني الغرفة الليلة، ريثما نجد تدبيرا مناسبا.

وقفت رنيم في حرج:

- بإمكاني الذّهاب إلى الفندق، إن كان وجودي يسبّب لكما الضّيق.

نهرتها ياسمين في صرامة:

- لن يغادر أحد.. هل سمعتما؟ سنتدبّر أمرنا في الفترة المقبلة.. يمكن أن نتعايش ثلاثتنا.. ثمّ، بعد أشهر سأكون أنا المغادرة على أيّة حال.. ويمكن لرنيم أن تأخذ غرفتي.

سكتت رنيم في انزعاج. لم يكن ضمن خطّتها أن تشارك شقّتها مع سيّدة غريبة. لكنّها مضطرّة إلى التّنازل الآن. قالت بابتسامة مجاملة:

- يمكنني النّوم على الأريكة.. إنّها مريحة كفاية.

نهرتها ياسمين:

- لن ينام أحد على الأريكة! سأشتري مرتبة أضعها على الأرض في الغرفة.. وستأخذين أنت السّرير. هل اتّفقنا؟

أومأت رنيم في استسلام.

لم تكن تتوقّع أن تكون في علاقة ثلاثيّة من جديد فور عودتها إلى باريس.. وهذه المرّة، تنافسها امرأة على صداقة ياسمين!

-١٠-

أدار عمر المفتاح في القفل ودفع الدّفة ثمّ أفسح لهيثم المجال وابتسامة واسعة تزيّن محيّاه.

- بسم الله.. ما شاء الله!

أجال هيثم نظراته في أنحاء البهو الواسع الذي استقبله حال ولوجه الشقة في استحسان وإعجاب ظاهرين. تقدّم بضع خطوات وهو يمرّر كفّه على الصناديق الكرتونية الكثيرة التي ملأت المساحة متكدّسة بعضها فوق بعض.

- يبدو أنّك لم تضيّع الوقت!

كان الحماس يفيض من قسمات عمر الذي سبقه إلى الدّاخل وهو يشير إلى قطع الأثاث التي لم يتمّ تركيبها بعد والأجهزة الكهربائية التي كانت قد أخرجت من علبها للمعاينة.

- لم أعد أستطيع الانتظار. لقد توقّفت حياتي لوقت طويل، والآن أريد أن أستأنف العمل على الفور! سيأتي العمّال بعد ساعتين لتركيب الأثاث ووضع التّجهيزات في مكانها.. وحالما تصلنا الموادّ الأوليّة وتجهز التّصاريح اللّازمة من الجهات المختصّة سنتمكّن من بدء العمل.

- ممتاز!

بعد سنوات من الرّكود والقعود، كانت عزيمة عمر في أوج تألّقها. في أيّام قليلة، خطّط ورتّب لأكبر مشروع يباشره في حياته. مختبره الخاصّ. بالأمس كان مجرّد فكرة عارية عن الواقعيّة. مرّة أخرى، يلمس بالدّليل الواضح أنّ الإرادة حين تقترن بالموارد الماديّة الكافية، لا يمكن أن تقف أمامها أيّة عقبة.

حانت من هيثم التفاتة إلى الغرفة الدّاخليّة التي كان بابها مواربا. من

خلال الفتحة، لمح مرتبة لشخص واحد وضعت على الأرض ولحافا مكوّما في فوضى فوقها. سأل عمر في فضول:

- هل تركت الفندق؟

ضحك عمر في استمتاع وقد أدرك ما يعنيه وقال:

- لم أعد أستطيع الصبر! أنام في الليل وأنا أحلم بالمختبر وأستيقظ صباحا لألقي نظرة على أدواتي الحبيبة التي أهملتها لوقت طويل. لذلك انتقلت إلى هنا. ما رأيك في شقة العزوبيّة الجديدة؟

- أنت لا تتعلّم الدّرس، أليس كذلك؟

كان القلق باديا على ملامح هيثم وهو يحدج مخاطبه بنظرة جادّة. ابتسم عمر في تفهّم وقال في هدوء:

- تقصد الحادث؟ لا تخف، لن أقيم هنا بصورة دائمة.. فقط في الفترة الأولى حتى أرتّب أموري.

ثم تحرّك ليسبقه إلى الدّاخل. أزاح الستائر وفتح النافذة ليجدّد هواء الغرفة، في حين انحنى هيثم على مجموعة الكتب التي صفّت في عناية قرب ركن النّوم المرتجل في مكتب رئيس المختبر المستقبليّ.

- ماذا تقرأ؟

- كتاب عن التّعافي.. أعيد قراءته للمرّة العشرين ربّما. أشعر بالارتياح كلّما قلّبت صفحاته!

هزّ هيثم رأسه وأخذ يتصفّح الكتاب في اهتمام. فجأة، توقّفت حركته وتسمّرت نظراته على الصّفحة المفتوحة أمامه في شكّ. بهدوء، تناول القصاصة المطويّة التي يستعملها عمر كفاصلة كتاب تحدّد الصّفحة التي توقّفت عندها قراءته. ترك الكتاب جانبا وفتح الورقة حتّى فردها تماما. لم يخطئ حدسه. رفع رأسه باتجاه عمر الذي كان منهمكا في ترتيب بعض الأوراق التي نثرها النسيم المتسلل من النافذة على الأرض، وهتف في ذهول:

- عمر، ماذا يفعل الصّك البنكي الذي سلّمتك إياه منذ سنتين هنا؟

رفع عمر رأسه ليلقي نظرة عابرة على الصّك بين يدي هيثم وقال في خجل:

- أعلم أنكم تكبّدتم عناءً من أجلي، لكنّني.. لم أتعوّد قبول الصّدقة! والحقيقة أنني كنت أفكّر من زمن في كيفيّة إعادة الصكّ إلى أصحابه.

استمع إليه هيثم في صمت ثمّ هزّ رأسه في تفهّم. على كلّ حال لم يعد الآن في حاجة إلى المبلغ، فقد حصل على حقّه في المحكمة. قال دون تفكير:

- هاته إذن.. سأعيده إلى رنيم.

توقّفت يدا عمر عن الحركة والتفت إلى هيثم في استغراب عند ذكر ذلك الاسم غير المتوقّع.

- ما علاقة رنيم بالأمر؟

لم يقدر هيثم على الإنكار بعد أن زلّ لسانه.

- لقد كانت فكرة رنيم.. قبل رحيلها. لم تكن تعلم أنك قد تحصل على تعويض كافٍ، فبادرت إلى جمع التبرّعات. أظنّ أنّها ستعرف كيف تعيد المبالغ إلى أصحابها.

أنصت عمر باهتمام، ثمّ ابتسم وقال:

- بل دعه معي.. سأعيده إليها بنفسي. أظنّني لم أشكرها بشكل لائق عن كلّ ما فعلته من أجلي.

***

حين غادرا الشقة كان الوقت عصرًا. عرّجا على الجامع القريب، للصّلاة. كان عمر قد اختار ضاحية «إفْرِي» الجنوبيّة لإقامة مختبره لبعدها عن زحام العاصمة، بالإضافة إلى موقعها قرب مدرسة للمهندسين، وجامع كبير.

تصافحا عند باب المسجد ثم افترقا. كان عمر يهمّ بالعودة إلى شقّته، حين اقترب منه أحد المصلّين وحيّاه بابتسامة. كان يلمح بعض الوجوه المعتادة، كلّما ارتاد الجامع في الأسابيع الأخيرة. يبادلهم التحيّة ولا يسترسل في الحديث. أومأ برأسه مثل العادة، لكنّ الرّجل كان قد قرّر غير ذلك. وقف يسدّ سبيله وقال بحفاوة:

- لقد عرفتك منذ رأيتك قبل أيّام! لكنّني تردّدت.. أنت الرّجل الذي تعرّض لمحاكمة منذ سنتين، أليس كذلك؟

ابتسم عمر في حرج. صافحه دون حرارة، وهمّ بالانسحاب. لم يكن يشعر بالارتياح لتلك الشّهرة غير المرغوبة التي تزجّ به في مواقف غير متوقّعة مع الغرباء. لكنّ الرّجل تمسّك بكفّه وهو يقول:

- معرفة الرّجال أمثالك شرف عظيم والله! أنت مدعوّ على الشاي عندي، تفضّل معي، أرجوك!

حاول عمر الإفلات، لكنّ الرّجل أقسم بأغلظ الأيمان، وجرّه خلفه جرّا إلى بيته القريب.

دلف عمر في حرج إلى الشقة الواقعة في الطابق الأول. كان البناء محاذيا للجامع، على مبعدة شارعين وحسب. وكان المنزل بسيطا ودافئا، مثل بيوت البلد. شعر عمر بالألفة على الفور، وهو يتّخذ مجلسه على المقاعد الواطئة المرصّفة على السّجّاد الصّوف. اختفى الرّجل لثوانٍ وجيزة، ثم أقبل متهلّل الأسارير، ولسانه لا يفتر عن ترديد عبارات التّرحاب والاحتفاء.

- هل أنت متزوّج يا بنيّ؟

تمتم عمر في حرج:

- لا يا عمّ.

- وهل لديك عائلة هنا؟

- لا والله، لقد انتقلت إلى الحيّ منذ وقت قصير، وأنا أقيم بمفردي.

- كان الله في عونـك يـا ولـدي! اعتبرنـا أهلـك منـذ اليـوم. مهمـا كان مـا تحتاجـه، لا تـتردّد في طـرق هـذا البـاب، فسـتجد أصحابـه تحـت أمـرك!

- جزاكم الله خيرا.

أطرق عمر في تأثّر، بينما تابع الرّجل:

- مخاطبك محمّد الغزيّ.. من فلسطين.

أشرقت ملامح عمر وهو يردّد في سرور:

- ونعم النّاس أهلنا في فلسطين!

تعالـت طرقـات خافتـة عـلى بـاب الغرفـة، ثـمّ دلفـت فتـاة شـابّة تضـع عبـاءة واسـعة وخمـارا. ألقـت التحيّـة بنـبرة خافتـة، ثـمّ وضعـت طبـق الشـاي عـلى المنضـدة القريبـة.

- سلمت يداك يا ابنتي.

لـم ينطـق عمـر بكلمـة حـتّى انصرفـت الفتـاة، ولـم يرفـع عينيـه عـن السّـجاد أمامـه حيـاء.

- ابنتي الوحيدة، آيه.. لديها ماجستير في اللغة الإنجليزية!

- ما شاء الله.. بارك الله لك فيها.

- لقـد ربّيتهـا مثلمـا نـربّي بناتنـا في البلـد، عـلى الحشـمة والرّزانـة.. في بـلاد لا تعـرف الله، إنّهـا لمهمّـة شـاقّة والله!

- أي والله!

- حـتّى لـو أجبرتنـا الظّـروف عـلى تـرك أوطاننـا، فإنّنـا لا نتنـازل عـن مبادئنـا.. البنـت دخلـت الجامعـة، لأنّـني لا أرضى لهـا بالدّونيّـة في زمـن يقـدّس العلـم.. لكنّهـا اختـارت البقـاء في البيـت بعـد ذلـك، فنحـن لا نـرضى لبناتنـا التعـرّض للفـتن والاختـلاط بالأجانـب دون حاجـة...

أومـأ عمـر دون أن يعلّـق، وقـد بـدأ إحسـاس بالضّيـق يسـاوره، بينمـا استمرّ الرّجـل يعـدّد مميّزات ابنتـه ومناقبهـا ومـا بذلـه في تربيتهـا وتعليمهـا.

تمتم عمر معتذرا:

- أستأذن منك يا عمّ محمّد.. وبارك الله فيك على الضّيافة. لكنّني على موعد مع عمّال التّركيب، سيكونون في الشقّة قريبا، ويجب أن أكون في استقبالهم.

- طبعا، بالتّأكيد.

وقف الرّجل ليرافقه حتّى المدخل، ثمّ قال وهو يصافحه:

- في المرّة القادمة، أودّ أن نتحدّث عن مشروعك البحثي.. لقد سمعت الكثير من الصّحافة، لكنّني مهتمّ بالاستماع إلى الفكرة منك مباشرة.

رفع عمر حاجبيه دهشة. لم يكن يتوقّع اهتماما علميّا من الرّجل. ضحك العمّ محمّد أمام نظرته الدّهشة وقال:

- أنا مهندس كهرباء يا ولدي.. لكنّ سنوات العمل في الصّيانة وتركيب التّجهيزات أبعدتني عن الجزء الإبداعيّ في الهندسة.. أشتاق إلى حديث علميّ يجمعنا.

ظهر الاهتمام في عيني عمر وهو يقول بحرارة:

- حتما، يسعدني أن نتحدّث بالأمر في وقت قريب.

***

رغم غيابها الطّويل، استقبلها جورج بحفاوة وترحاب. زارت المكتب ذلك الصّباح، محاولة ألا ترفع سقف توقّعاتها. تظاهرت باللّا مبالاة حين بادرها مستفسرا:

- هل قرّرت بشأن العمل؟

- لقد وصلت منذ أسبوعين، لم أرتّب أموري بعد. أحاول الاستمتاع بباريس دون ضغوطات!

- أنت تعلمين أن مكانك محفوظ بيننا.. إذا شئت العودة، الباب مفتوح لك في كلّ وقت!

لمحت علامات الامتعاض على ملامح شريكته فيفيان. لم تحبّها المرأة أبدا. لكنّها كانت في حاجة إلى العمل الآن. إن واصلت على ذلك النّسق المنفلت، فستبدّد مدّخراتها القليلة في وقت قياسيّ. رسمت على وجهها ابتسامة لبقة وهي تقول:

- أنا ممتنة لك جدّا يا جورج.. متى يمكنني العودة إلى العمل؟

- الآن إذا أردت!

ضحكت ثم أضافت:

- أنت عمليّ جدّا.. هل لديك قضيّة من أجلي؟

- لقد حزرت يا عزيزتي. هناك قضيّة مناسبة لك تماما، تحدّ من النّوع الذي تحبّينه! هل نواصل الحديث في مكتبك؟

ابتسمت وهي تلقي نظرة عابرة على وجهه فيفيان الممتقع، ثمّ حيّتها بإيماءة وهي تتبع جورج إلى مكتبها القديم. سرعان ما انهمكت في مطالعة تفاصيل القضيّة ومعاينة الأدلّة والوثائق، ثمّ اتّصلت بمكتب المدّعي العام لتطلب موعدا للقاء موكّلها. رمقها جورج بنظرة رضا، ثمّ انسحب وقد اطمأنّ إلى استجابتها الفوريّة لمحفّزات العمل.

خلال أسبوع واحد، كانت قد انغمست في نشاطها وكأنّها لم ترحل قطّ. استعادت عاداتها القديمة بلا أدنى صعوبة، كان ذلك مكانها الطبيعيّ الذي تجد فيه راحتها.

كانت تهمّ بمغادرة المكتب ذلك المساء بعد يوم مضنٍ من الأشغال التي لا تتوقّف، حين ارتفع رنين الهاتف. تردّدت للحظات، ثمّ عادت أدراجها ووضعت حقيبة يدها على المقعد وهي ترفع السماعة:

- مرحبا.

- أستاذة رنيم؟ أخيرا تمكنت من الاتّصال بك!

- معذرة، من المتحدّث؟

- ماتيلد دوبري، يا عزيزتي! هل أخبروك باتصالي؟

زوت رنيم ما بين حاجبيها وقد تعرّفت على صوت الشقراء المبحوح. نعم، أخبرها جورج باتّصالاتها الكثيرة والمتكررة التي أمطرت بها المكتب لفترة طويلة. ظنّت الأمر قد انتهى وأصبحت قصّتها ضمن الماضي. لكن يبدو أنّ مقدّمة برامج تلفزيون الواقع لم تكن قد يئست أو نسيت. قالت ماتيلد قاطعة الصمت:

- لديّ عرض رائع لك أستاذة رنيم، سيغيّر خطتك المهنيّة بمائة وثمانين درجة!

قالت رنيم في حزم:

- شكرا لعروضك، لكنني راضية بخطتي الحالية، والتي تقتضي عدم التّواصل مع وسائل الإعلام والحفاظ على سريّة القضايا التي أعمل عليها.

- ربّما تدركين أنني أريد منك لقاءً حصريّا بخصوص القضية الشهيرة التي لم تحظ إلى حدّ الآن بتغطية إعلامية لائقة، بعد مرور سنتين.. لكنّني أعرض عليك وظيفة أيضا، تدرّ الذّهب!

- أرجوك سيدتي، لن يكون هناك لا لقاء ولا وظيفة. والآن اعذريني، فعليّ المغادرة.

لم تنتظر تعليقا من مخاطبتها، بل أنهت المكالمة وهي تطلق زفيرا منهكا. لم يكن عليها أن تردّ. لطالما كانت المكالمات المتأخرة مصدر متاعب.

لقد عادت إلى باريس للتوّ، وهذا الطلب بتقديم حوار صحفي عن قضيّة عمر لم يأت في الوقت المناسب. في الحقيقة، لم يكن هناك وقت مناسب مطلقا لمثل هذا الأمر. تشك بأنّها سترفض ولو بعد عشر سنوات. لقد كان لقاؤها به صدفة منذ يومين في «البيت الصّغير» مربكا كفاية.

فتحت باب الشقة ودلفت إلى الرّدهة وهي تزفر مجدّدا. كانت على

موعـد مـع شـهاب لتنـاول العشـاء. سـتغيّر ثيابهـا وتخـرج مـرّة أخـرى. يعلـم الله كـم تحتـاج حمّامـا سـاخنا وحصّـة تدليـك في تلـك اللحظـة لتسـتعيد اسـترخاءها ومزاجهـا الطيّـب. لكـنّ المفاجـأة الـتي كانـت تنتظرهـا في مطبـخ الشّـقة لـم تكـن تنـبئ بقـرب الفـرج.

- انظروا من جاء!

حدّقـت في الفتـاة الـتي وقفـت خلـف المصطبـة وهـي ترتـدي مريلـة الطبـخ وتضـع قفـازات الفـرن في عـدم تصديـق.

- ألا ترحبين بي؟

نقلـت نظراتهـا بينهـا وبـين ياسـمين وسـكينة المبتسـمتين، ثـمّ هتفـت في صدمـة:

- رانيا؟ كيف وصلت إلى هنا؟ ما الذي جاء بك؟

- أبي أعطاني العنوان! وجئت بسيّارة أجرة، مثلما يفعل النّاس.

- بسيّارة أجرة؟ وأبي، أين هو؟ هل جاء معك؟

- طبعا لا! لم أعد طفلة!

نهرتهـا ياسـمين عـلى الفـور وهـي تجذبهـا مـن ذراعهـا لتجلسـا معـا عـلى الأريكـة:

- كفى يا رنيم، هل ترحبين بشقيقتك هكذا؟

انتبهـت رنيـم في تلـك اللحظـة إلى الحقائـب الكثـيرة الـتي كانـت متراصّـة عنـد البـاب. وقفـت عـلى الفـور وهـي تشـير إليهـا في ذعـر وهتفـت:

- ما كل هذا؟ كم ستبقين هنا؟

- رنيم!

احتجت ياسمين بينما ابتسمت رانيا في زهوّ وهي تقول:

- سـأدرس اللغـة الفرنسـية في جامعـة باريـس ديديـرو لمـدّة سـنة واحـدة.. ثـم أفكـر في الاختصـاص الـذي يناسـبني.

- يا إلهي! سنة كاملة؟

قرصتها ياسمين بقوّة هذه المرّة، فصرخت رنيم من الألم، في حين قالت ياسمين بلهجة ودودة:

- رانيا كانت تساعد سكينة في إعداد العشاء.. أظننا سنتّفق كثيرا ونمضي أوقاتا ممتعة.. نحن الأربعة!

- هل تقولين أنّها ستقيم معنا؟ أين؟ هناك غرفتان فقط في الشقة! أنا وأنت نتشارك غرفة الآن، هل نسيت؟

قفزت رانيا في اتجاهها وهي تهتف:

- يمكنني النّوم على الأريكة، لا تقلقي بشأني!

يا لتلك الأريكة التي ما تنفكّ تجد متطوّعين للنّوم عليها! حدجت رنيم أختها في عدم تصديق. هل ترضى الصغيرة المدلّلة بهذا القدر الضئيل من الرّفاهية؟ قاطعت ياسمين أفكارها وهي تقول:

- يمكنني أن أترك لكما الغرفة وأنام على الأريكة، فأنا سأغادر على أيّة حال خلال شهور قليلة.

- هل حقا تفعلين؟

تدخلت رنيم بسرعة لتبدّد وهم شقيقتها التي لم تفرّط في مبادرة ياسمين السخيّة:

- لا لن تفعل، أيتها الاستغلالية الصّغيرة! إن كنت تريدين البقاء فستنامين على الأريكة!

حدجتها بنظرة غاضبة، ربّما تنجح في تنفيرها منذ البداية فتغادر قبل انقضاء الفترة!

تدخّلت سكينة على الفور:

- هناك ترتيب مناسب، ستأتي ياسمين إلى غرفتي.. وتتشاركين أنت وشقيقتك الغرفة الثانية.. ما رأيكنّ؟

- من قال بأنّني مستعدّة لمشاركة غرفة مع هذه المزعجة!

كانـت تعتـبر شـقيقتها الصّغـرى فتـاة مدلّلـة عديمـة النفـع. السّـنوات التّسـع الـتي تفصـل بـين ولادتيهمـا، كانـت كافيـة لينـسى والداهـا قواعـد التربيـة الحكيمـة -الـتي لـم يمتلكاهـا يومـا بالمناسـبة، نظـرا لاعتمادهمـا عـلى المربيـة منـذ ولادة رنيـم- ويغرقـان الصغـيرة الـتي جاءت في وقـت كادا ييأسـان فيـه مـن إنجـاب طفـل ثـانٍ بـدلال لا مثيـل لـه. وكان فـارق السـنّ بالإضافـة إلى الغـيرة الـتي تمكّنـت مـن رنيـم حـين وجـدت شـقيقتها تنعـم باهتمـام لـم تعرفـه هـي في طفولتهـا، كانـا عاملـين باعـدا كثـيرا بـين البنتـين.

ثـمّ جـاء رحيـل رنيـم للدّراسـة في الخـارج ثـم العمـل ليضعـا قطيعـة شـبه نهائيـة بينهمـا. لـم تكـن هنـاك اهتمامـات مشـتركة ولا حـتى مجامـلات مصطنعـة. في الحقيقـة، كانتـا قـد تبادلتـا قـدرا ضئيـلا مـن الكلمـات العاديّـة الـتي يتبادلهـا حـتى الغربـاء في فـترة الإقامـة الإجباريـة الـتي فرضـت عـلى رنيـم في السّـنتين الماضيتـين، مـن قبيـل «صبـاح الخـير»، «تصبـح عـلى خـير»، «هـل حـضر الغـداء»، «شـكرا».. ربّمـا كان جدالهمـا ذلـك المسـاء يحقّـق رقمـا قياسـيّا مـن حيـث الكلمـات المتبادلـة.

لذلـك فـإنّ زيـارة رانيـا المفاجئـة وقرارهـا بالإقامـة معهـا، كانـا في غايـة الغرابـة والإزعـاج. تسـاءلت رنيـم حينهـا كيـف سـمح والداهـا لصغيرتهمـا المدللـة بالابتعـاد عنهمـا؟ لـئن كانـت تجربتهـا الدّراسـية والمهنيّـة مرضيتـين، فـإنّ سـلوكها العاطفـيّ لـم يكـن مثـالا يحتـذى بالنسـبة إليهمـا، فكيـف يعهـدان إليهـا بمهمـة الاهتمـام بالشـقيقة الصغـرى؟

أم أنّ شهاب هو الضّمان الأوحد، مرّة أخرى؟

آه، لقـد عرفـت! لقـد حسـبت نفسـها فـرّت مـن الرّقابـة، فأرسـلا مراقبـة لمتابعتهـا عـن كثـب!

تذكـرت مـع ذلـك الخاطـر موعدهـا مـع شـهاب. وقفـت عـلى الفـور وهـي تقـول في فتـور:

- عذرًا يا فتيات، تناولن العشاء من دوني.. لديّ موعد.

هتفت رانيا على الفور:

- مع شهاب.. طبعا! بما أنّنا حضّرنا الطّعام، ما رأيك في دعوته للعشاء معنا؟

ضحكت رنيم، وهي تلقي نظرة ساخرة على شقيقتها. رجل؟ في هذه الشّقة؟ يا للصّغيرة السّاذجة. إنّها لا تعرف ياسمين وسكينة بعد! لا تعرف أنّ العالم الذي خطت إليه بمحض إرادتها مختلف عن عالمها الصّغير المثاليّ في القاهرة. قالت في لهجة متشفّية:

- الإقامة هنا ترضخ لقوانين صارمة.. سأترك لياسمين تلقينك إياها. إذا قبلت بعدها بالبقاء، فسنتحدّث!

ثمّ سارت إلى الغرفة متجاهلة علامات الصّدمة الجليّة على ملامحها.

***

- مرحبا شهاب، هل يمكنني أن أراك اليوم؟

جاءها صوت شهاب ملولا باردًا على الطرف الآخر للخط:

- آسف رانيا، لديّ مناوبة ليليّة ابتداءً من السابعة مساء.. ربّما في فرصة أخرى.

- أكيد.

ردّت في فتور ثمّ أنهت الاتّصال. هل هو جادّ في انشغاله بالعمل، أم أنّه سيلتقي رنيم الليلة ولا يريدها أن تفسد عليهما الأمسية؟ ربّما أكثرت من الاتصالات بشكل لافت حتّى بات يتهرّب منها!

منذ صغرها كانت تميل إلى الأكبر سنّا. ربّما لأنّ والديها أنجباها على كبر في حين كان أبناء الأصدقاء والمعارف قد قطعوا سنوات في رحلة العمر مخلفين إيّاها وراءهم، فنشأت في سباق مع الزمن، تجاري الكبار وتقلدهم مستعجلة الوقت الذي تصبح فيه ندّا لهم.

حين بلغت الخامسة عشرة، كانت تصاحب طلاب الجامعة. ولم يكن أحدهم يعتبرها «طفلة» أو «صغيرة». كانت تعرف ماذا تفعل وكيف تتكلّم وتفكّر أيضا. شعرها المجعّد الكستنائيّ القصير ونظاراتها الجادّة الأنيقة، فساتينها الضيّقة والسترات الرسميّة التي تضعها عليها، أحذيتها ذات الكعوب العالية وتبرّجها الخفيف اللافت.. كلّ ذلك كان يضفي على شكلها نضجا غير مبتذل، فتبدو ببساطة في مكانها الطبيعي بين شباب العشرينيات.

في المقابل، كانت تضيق ذرعا بطلاب الثانوية الذين يسعون لمصادقتها وكسب ودّها، فتهشّهم من حولها كالذّباب. لم يكن ذلك تكبّرا منها بقدر ما كان استياءً من الحاجز العمريّ الذي يبقيها سجينة لسنوات طويلة في مدرستها الدّاخليّة مع أطفال في أجساد مراهقين لا يعرفون من الدّنيا أكثر من ألعاب الفيديو ومباريات كرة القدم.

حين انتهت من دراستها الثانوية، أيقنت أنّها فرصتها للانطلاق وفكّ القيود. كان أصدقاؤها «الكبار» قد تجاوزوا مرحلة الجامعة وانتشر معظمهم في أرجاء الأرض، وهي تدرك أنّ عليها أن تقوم بالمثل حتّى لا ينتهي بها المطاف مع نفس السّفهاء الذين يتلكأ النّضج داخلهم مثل سلحفاة بطيئة.

اختارت باريس، لأنّها علمت يقينا أنها الوجهة المضمونة التي لن يمانع والداها بشأنها. ثمّ لأنّها سترى شهاب مجدّدا ومثل العادة. خلال السّنتين الماضيتين، كانت تقحم نفسها في الجلسة حين تصادف زيارته لتناول العشاء أو قضاء السّهرة مع أفراد العائلة عطلتها الأسبوعيّة.

كان نوعا من الأشخاص الناضجين النادرين الذين يحوّلون انتباه الحضور إليهم دون جهد يذكر. كان يكبرها باثنتي عشرة سنة. وهي وقعت في شرك جاذبيته دون مقاومة. ولم تكن الوحيدة، فكلّ العائلة كانت تحت تأثير شخصيّته السّاحرة.

تعترف في داخلها أنّ فكرة الاستحواذ على انتباه خطيب شقيقتها كانت

سيّئة منذ البداية. تعلم أنّها لن تحتلّ مكانة رنيم في حياته ببساطة. فهناك اعتبارات اجتماعيّة ورسميّة تقف حاجزا أمام تحقيق رغبتها، بغضّ النّظر عن التحدّي الكامن في محاولة استمالته عاطفيا في المرتبة الأولى. تعلم أنّها ستكون مجازفة خطيرة لن تضع العلاقات الأسريّة على المحكّ وحسب، بل لعلها قد تقضي على كلّ فرصها في الحصول على حريّتها وإطالة الإقامة في باريس لسنوات أخرى. إنّ كلمة واحدة من شهاب لوالديها عن سلوكها المشين أو غير اللائق سيهوي بها إلى قعر سحيق قد لا تنهض بعده مطلقا. كانت تفكر في صرف النظر عن الموضوع، لكنّها كانت تنتظر تسلية أخرى تملأ فراغها وتحوّل انتباهها. إلى أن تأتي تلك التسلية، ستستمرّ في مضايقة شهاب وتعكير مزاج رنيم.

قفزت من مكانها حين سمعت باب غرفة رنيم يفتح. كانت شقيقتها في كامل زينتها وقد استعدّت للخروج. عاودتها الشكوك السّابقة. هل يخطّطان للقاء بعيدا عن عينيها الفضوليّتين؟

- إلى أين؟

التفتت رنيم في ارتباك حين وجدت رانيا تقف أمامها قاطعة عليها الطريق. قالت في ضيق:

- للتسوّق.. برفقة ياسمين.

- هل يمكنني أن آتي؟

- طبعا.. إذا أردت.

- سأكون جاهزة خلال دقائق!

زمّت رنيم شفتيها في امتعاض. تدرك أنّ عواقب موافقتها تلك ستكون وخيمة.

***

- تخيّلي.. لم يعجبها شيء! كلّ شيء كان باهظا أو مكشوفا أو مبالغا فيه!

انبرت رنيم تشكو ياسمين إلى سكينة على مائدة العشاء. لقد أمضت

ثلاثتهما ساعات يجبن بين محلّات ثياب الزّفاف، وعدن بخفي حنين. بينما لم يحز أيّ التّصاميم على إعجاب ياسمين، فقد وجدت رنيم صعوبات جمّة في إيقاف رانيا عن اقتناء كلّ ما تقع عليه عيناها من فساتين السّهرة.. لتنتهي الجولة بشجار شرس بين الأختين.

وضعت رانيا السّماعات في أذنيها وانسجمت مع التّسجيل المنبعث من هاتفها. كانت تلك طريقتها في الإعلان عن غضبها ومقاطعتها لشقيقتها.

قالت سكينة مقترحة:

- ما رأيك في التّفصيل؟

- تفصيل؟

- نعم، تفصّلين الفستان الذي يناسبك تماما.. أنا أعلم أنّ أغلب الفساتين المعروضة ليست محتشمة، بالإضافة إلى أسعارها المشطّة.. إن استقرّ رأيك على تصميم ما، فيمكنني تفصيله من أجلك.

حدّقت فيها ياسمين غير مصدّقة:

- هل أنت بارعة في ذلك؟

حدجتها سكينة بنظرة متعالية ومستنكرة، كأنّه من الجرم التّشكيك في مهارتها. قالت في ثقة:

- سأفرّجك على بعض تصميماتي، ثمّ يمكنك أن تقرّري.

اختفت سكينة داخل الغرفة لبرهة، ثم عادت وبين كفّيها ألبوم كامل. هتفت ياسمين وهي تشاهد الصور في انبهار:

- أنت مذهلة.. هل يوجد شيء لا تجيدينه؟ سكينة، أنت صندوق مفاجآت!

ابتسمت سكينة في مرارة، ثم قالت:

- كيف حسبتني أعلت نفسي في السّنوات السبع الماضية؟ بعد أن تركت التدريس في «نانت»، فعلت كلّ شيء ممكن، الطّبخ وتوزيع الأكل على

المطاعـم العربيّـة، ثـمّ تعلّمـت التفصيـل والحياكـة.. الأزيـاء الشرقيّـة التّقليديّـة كانـت مطلوبـة وأسـعارها جيّـدة...

ثم أضافت في حماسة:

- أعـرف محـلّ أقمشـة في حـيّ «بَارْبَـاسْ»، صاحبـه مغـربيّ، لديـه أقمشـة «سـواريه» مذهلـة ونمـاذج مدهشـة للـ«قفطـان» الفاخـر، يمكنـك إلقـاء نظرة عليهـا.. هـل فكّـرت فيمـا سـترتدينه في العشـاء الرّسـميّ؟

حدّقـت فيهـا ياسـمين في ذهـول، بينمـا استمرّت سـكينة تـشرح مـا عليهـا فعلـه. قفطـان لعقـد القران وفسـتان أبيـض بسـيط بتطريـز ناعـم للعشـاء.

- سأعتمد عليك إذن!

هتفت رنيم في استياء:

- لا أقصـد الإهانـة عزيـزتي سـكينة.. لكـن ياسـمين، أنـت في باريـس، عاصمـة الموضـة! تتركـين كل التّصاميـم الفريـدة والمميّـزة، وتخيطـين ثـوب زفافـك؟

فترت حماسة سكينة على الفور. قالت معتذرة:

- رنيم على حق.. هذا زفافك، وأنت تستحقين الأفضل.

أخـذت تجمـع صـور التّصاميـم في إحبـاط، فسـارعت ياسـمين لتمسـك بكفّهـا وتقـول:

- أبـدًا.. كلّ هـؤلاء المصمّمـين المحترفـين لا يسـتوعبون حاجـتي وفسـاتينهم الفاخـرة لا تناسـب ذائقـتي.. بالعكـس، أنـت تنقذينـي مـن هـذا المـأزق! أريـد أن أعتمـد عليك في هـذا.

حدّقـت ياسـمين في عينيهـا بقـوّة، فابتسـمت سكينة في امتنـان، بينمـا هـزّت رنيـم كتفيهـا في ضيـق وهمسـت:

- أنت حرّة!

تدخّلت رانيا فجأة لتسأل في فضول:

- هل هذا ما تفعلينه طوال النّهار؟ تصمّمين الملابس؟

ارتبكت سكينة، وقالت في حرج:

- لم أعد أفعل ذلك الآن.. هناك مسألة أخرى تشغلني، لذلك أخذت إجازة من العمل هذه الفترة.

هتفت ياسمين فجأة:

- رنيم! هل يمكن أن أتحدّث إليك؟ بعد إذنك سكينة، كيف لم يخطر لي هذا من قبل.. رنيم محامية فذّة، وقد يكون بمقدورها المساعدة!

تعلّقت النّظرات بوجه سكينة الشّاحب. تمتمت في فتور:

- لقد جرّبت المحامين.. الكثيرين منهم، لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعا.

لكنّ ياسمين تابعت بحماس:

- ليس كلّ المحامين سواسية! أنت لا تعرفين رنيم.. حين تضع هدفا نصب عينيها فإنها تجد السّبل لتحقيقه لا محالة!

تورّدت وجنتا رنيم خجلا من إطراء ياسمين، ثمّ تنحنحت وهي تقول:

- ما المسألة إذن؟

كانت سكينة تصارع التردّد والحرج. لم تعد تريد أن يتعلّق قلبها بالآمال الكاذبة. لقد جرّبت كلّ شيء ممكن، وهذه المحامية الشابّة هل تكون أقوى حجّة من أولئك المتمرّسين الذين سلبوها مدّخرات عمرها دون تحقيق شيء يُذكر؟ هل تلقي بنفسها في دوّامة الأمل والخيبة التي لا تنتهي، مرّة أخرى؟

وقفت رانيا وهي تضع سمّاعات أذنها من جديد، وقالت قبل أن تغيب داخل الغرفة:

- تبدو مسألة قانونية مملّة.. أنا في غنى عن هذا!

أطرقت سكينة مفكّرة، ثم استجمعت شجاعتها وهي تقول بصوت أجشّ:

- إليك القصّة من البداية.

استمعت إليها رنيم في اهتمام بالغ وهي تقصّ تفاصيل الحكاية المؤلمة، حتّى إذا فرغت من اعترافاتها، قالت في جدّيّة:

- لا يمكنني أن أعدك بشيء الآن.. مضى زمن طويل مذ درست قانون الحضانة.. أحتاج إلى مراجعة المراسيم الحديثة بالتّفصيل، والاطّلاع على السّوابق القانونية والقضايا المشابهة.. ما رأيك لو تمرّين عليّ بالمكتب بعد يومين؟ سأكون قد استعلمت أكثر بشأن القضيّة.

أومأت سكينة في قلّة حيلة.

ستجرّب المحاكم مرّة أخرى، طالما لم تفلح رحلة بحثها عن جاسر حتّى ذلك الوقت.

- ديانا!

وقفت رنيم على الفور وهي تلمح الشابة المقعدة تدلف إلى المكتب وهي تدفع عجلات مقعدها المتحرّك. عانقتها بودّ وهي تقول في لهجة معاتبة:

- ما الذي جاء بك؟ قلت أنّني سأتّصل حالما أصل إلى شيء ما.

- لم أستطع الانتظار.

كانت عيناها دامعتين ومحتقنتين.

تعرّفت إلى ديانا منذ ثلاث سنوات، حين كانت شاهدة على زواجها من شابّ جزائريّ وصل إلى فرنسا على متن أحد مراكب الموت. لعلّ وحدة ديانا الفتاة المقعدة، وحاجة نادر إلى أوراق إقامة رسميّة كانتا البندان الأول والثاني لإتمام زواج حسبت رنيم أنّ مصيره الحتميّ هو الفشل. لذلك لم تفاجأ كثيرا حين وردها اتّصال ديانا بالأمس، تنبّئها باختفاء زوجها بعد أن اختطف طفلهما!

- لقد حاولت الاستعلام عن حركات السّفر عن طريق أحد المعارف في المطار.. سأوافيك قريبا بما توصّلت إليه.

- الأستاذة رنيم موجودة؟

تجاوزت ماتيلد دوبري مكتب الاستقبال دون أن تنتظر ردّ السكرتيرة واقتحمت مكتب رنيم وهي تطرق الأرض بكعبها العالي في مشية متغطرسة. وقفت رنيم وراء مكتبها وطالعت الشقراء ذات النظرات الحادّة المليئة بالثقة وقالت في استياء:

- سيّدة دوبري، هل يمكنك الانتظار خارجا ريثما أنهي هذا الحوار مع موكّلتي؟ أرجو منك إظهار بعض الاحترام لهذا المكتب وعملائه.

- يا إلهي.. إنّها ماتيلد دوبري الحقيقية! من برنامج «الحقيقة الكاملة»!

ابتسمت ماتيلد في زهوّ وهي تلحظ علامات الإعجاب واللهفة في ملامح ديانا التي استدارت بكرسيّها المتحرّك لترمق النجمة التلفزية عن كثب. نقلت ديانا نظراتها بين رنيم التي أربكها تدخلها وبين مقدّمة برامج «تلفزيون الواقع» فخطرت ببالها فكرة لم تكن لتراودها حتّى في أحلامها، لكنّ يأس اللحظة وظهور الأمل المفاجئ أسعفاها لتنطق بتلك الكلمات الجريئة دون تفكير كثير:

- ربّما يمكنها أن تساعد في البحث عن خليل! يا إلهي، سيّدة دوبري، يجب أن تساعديني في إيجاد ابني.. أرجوك!

- سيكون ذلك من دواعي سروري، أخبريني عن تفاصيل الأمر!

قالت ماتيلد ذلك وقد التمعت في عينيها نظرة ظافرة ثم اتجهت إلى المقعد الشاغر قبالة ديانا دون انتظار إذن من رنيم التي وقفت مترددة لا تدري بما تستقبل مبادرة ماتيلد المثيرة للشكوك.

- نحن متزوّجان منذ ثلاث سنوات.. ولدي خليل يبلغ من العمر سنتين. أمس اختفى هو ووالده مع حقيبة ملابس. أشكّ بأنّه خطفه وسافر إلى الجزائر، حيث لا يمكنني أن أصل إليه.

- آه سيّدتي، هذا أمر فظيع.. أنا وبرنامجي تحت أمرك. نحن في خدمة مواطنينا في مثل هذه الحالات الحرجة.. ثمّ إنّني جئت اليوم إلى الأستاذة رنيم لأنّني أحتاج وجودها في برنامجي، فإن وافقت على الحضور ستكونين أنت وهي ضيفتين عندنا لنبثّ شكواك على الهواء، حتّى تكون عمليّة البحث أكثر نجاعة!

كانت تمسك بكفّ ديانا التي كاد الأمل المتدفّق إليها عبر كلمات المذيعة يجعلها ترفرف في مكانها.

- كلّ هذا رهن موافقة الأستاذة رنيم على التعاون معنا.

كانت عيونهما تتجه الآن إلى رنيم تنتظر ردّها، ديانا في رجاء المتّهم

الـذي ينتظـر حكمـا بالـبراءة، وماتيلـد بابتسـامة واثقـة جريئـة تمنّـت رنيـم لـو تصفعهـا مـن أجلهـا. كانـت تسـاومها بزجّهـا في موقـف حـرج أمـام موكّلتهـا. بعــد صمــت قصــير، قالــت في شــبه استســلام لــم تعــترف بــه نظراتهــا المتحدّيــة:

- ما المطلوب مني بالضبط؟

انفرجت أسارير ماتيلد التي وقفت من مجلسها في حماس وهي تهتف:

- أن تسمحي لي بتحويلك إلى نجمة تلفزيّة!

- عفوا؟

كانـت ماتيلـد قـد تابعـت عـن كثـب مراحـل قضيّـة عمـر وشـهدت مرافعـات رنيـم الحماسـيّة كلّهـا. وجـدت في تلـك المحاميـة الشـابة ذات الجمـال الـشرقيّ الجـذّاب، شـخصيّة مختلفـة وحضـورا لافتـا. كانـت تسـتحوذ عـلى الانتبـاه حـين يصـدح صوتهـا في قاعـة المحكمـة، وكانـت نظراتهـا المفعمـة بالصّـدق تؤثّـر وتشـدّ وتنـثر شـعاعا مـن الـدفء. مواصفـات نـادرة وموافقـة لمـا يطلبـه الجمهـور! تابعتهـا مـرّة بعـد مـرّة ورغبـة عارمـة في ضمّهـا إلى فريـق برنامجهـا تلـحّ عليهـا. لكـن غيـاب رنيـم وجفاءهـا مـع وسـائل الإعـلام كانـا يؤجّـلان مشروعهـا إلى وقـت غـير معلـوم.

- أحتـاج وجهـا جديـدا في برنامـج «الحقيقـة الكاملـة» وأنـت مناسـبة جـدا لهـذا الـدّور! إن تـمّ الاتّفـاق بيننـا، فسنسـجّل الحلقـة الثانيـة للموسـم الجديـد عـن موضـوع اختطـاف الطفـل.

حانـت منهـا نظـرة إلى ديانـا. لـم تكـن تريـد لأيّ كان أن يؤثّـر عـلى قـرار يخـصّ حياتهـا المهنيّـة، لكـنّ نظـرات ديانـا المسـتعطفة أجهـزت عـلى البقيّـة الباقيـة مـن مقاومتهـا. سـألت فجـأة وقـد أدركـت أنّ في الأمـر خدعـة مـا:

- ماذا عن الحلقة الأولى؟

- لا تكـوني سـاذجة يـا عزيـزتي.. الحلقـة الأولى سـتكون عـن قضيّـة عمـر الرّشـيدي طبعـا! لقـاء حـصريّ وأخبـار مقرمشـة خاصّـة بالبرنامـج!

لـوت رنيـم شـفتيها في امتعـاض. هـذا هـو الفـخ إذن. لـم تيـأس ماتيلـد بعـد، ولعلهـا ستسـتنفد كلّ حيلهـا للحصـول عـلى مبتغاهـا. لـم تكـن قـد نظمـت الـردّ في ذهنهـا بعـد، حـين طرقـت السـكرتيرة البـاب وقالـت:

- الدكتور عمر الرّشيدي هنا.

- دكتور عمر الرشيدي! إنّه يوم سعدي لا محالة! فليتفضل على الفور!

ألقـت ماتيلـد دويـري التّعليمـات إلى موظّفـة الاسـتقبال، كأنّهـا صاحبـة المـكان ثـمّ هبّـت لتسـتقبل عمـر في ترحـاب بالـغ وابتسـامة واسـعة تشـقّ وجههـا. نظـر إليهـا عمـر في دهشـة، ثـمّ التفـت إلى ديانـا ورنيـم في شـكّ. تكلّمـت ديانـا أوّلا وقـد اسـتوعبت هويّتـه عـلى الفـور:

- دكتـور عمـر! وددت لـو التقينـا في ظـروف أفضـل.. نـادر لا ينـسى أبـدا صنيعـك معـه ويتحـدّث عنـك باسـتمرار.

شرحـت رنيـم الموقـف بكلمـات مختـصرة لتبـدّد الالتبـاس. اسـتمع إليهـا عمـر في دهشـة متزايـدة، قبـل أن تقاطعهـا ماتيلـد مـن جديـد:

- دكتور عمر، إنّ لقاءنا اليوم هنا رسالة من القدر، أليس كذلك؟

حدجهـا عمـر بنظـرة مرتابـة كأنّـه يتسـاءل في سرّه «مـن هـذه المجنونـة؟» ثـمّ سـأل ديانـا:

- إذن، هل تمكنتم من الاتّصال بنادر؟

- للأسف، هاتفه مغلق منذ الأمس.

تمتمـت ديانـا بصـوت متهـدّج ملـؤه التأثـر، فأخـذت رنيـم الكلمـة رغـم حرجهـا وقالـت في هـدوء:

- إنّهـا عمليّـة اختطـاف واضحـة. اتّصلنـا بالبنـك، فتبـيّن أنّـه قـد قـام بسـحب كامـل مدّخراتـه منـذ يومـين. طلبـت مـن بعـض معـارفي في شرطـة الحـدود التأكّـد مـن سـفره خـارج البـلاد.. ننتظـر أن يأتينـا الخـبر بـين لحظـة وأخـرى. ديانـا ترفـض التّبليـغ عـن عمليّـة الاختطـاف. لكـنّ بمـا أنّ المختطـف هـو الأب، ولـم يحصـل طـلاق أو خـلاف عـلى الحضانـة، فـإنّ الشّرطـة لـن تأخـذ

البلاغ على محمل الجدّ قبل بعض الوقت...

تنحنحت ماتيلد وقالت وقد اكتسى صوتها مسحة من الجدّيّة:

- اتفقت مع السّيدة ديانا والأستاذة رنيم على تصوير حلقة خاصّة عن عمليّة الاختطاف وتعميم صورة خليل ووالده على القنوات التّلفزية، فربّما يمكننا ذلك من جمع بعض الشهادات من أشخاص رأوهما في مكان ما.

ثمّ أضافت في فخر بفكرتها الجديدة العبقريّة:

- وإذا تبيّن أنّ والده قد أخذه إلى الجزائر بالفعل، فتسافرون جميعا -على نفقة البرنامج- مع فريق تصوير لمتابعة رحلة البحث!

تجاهلها عمر والتفت إلى ديانا ليقول في استهجان:

- هل تريدين أن تظهر حياتك الخاصّة على شاشات تلفزيون الواقع والتشهير بزوجك ووالد ابنك؟ تعلمين أنّها وسيلة فجّة لاقتحام خصوصيّات النّاس وانتهاك حميميّتها!

كان يعلم أكثر من أيّ شخص آخر نتائج تلك الشّهرة غير المرغوبة التي قد تستمرّ سنوات، دون أن يكون بمقدرته فعل شيء لعكس التأثير المشؤوم! اعترضت ماتيلد في حرارة:

- هذا البرنامج سيمكّن الأمّ من كسب تعاطف الرّأي العام وبالتّالي الضغط على السّلطات، سواء الفرنسيّة أو الجزائريّة للتّدخّل من أجل استرجاع ولدها! راجعوا تاريخ برامج تلفزيون الواقع لتدركوا نسبة الجرائم التي أسهمت في حلّها.

التمعت عينا ديانا بعبرات نديّة وهمست في مرارة:

- حين تفقد الأمّ ولدها، فإنّ أية وسيلة تمكّنها من استرجاعه هي وسيلة جيّدة.

أردف عمر في غير اقتناع:

- إن كانت السّيدة تريد المساعدة، فليكن بتوظيف موارد البرنامج

للتقـصّي عــن مــكان نــادر بــأسرع وقــت، ولتبقــى الكامــيرات مطفــأة!

مطّت ماتيلد شفتيها في امتعاض، ثم قالت:

- أنـا مستعدّة لـكلّ مـا تريـد.. لـم أرد إلا المسـاعدة. طالمـا توافق والأسـتاذة رنيـم عـلى تصويـر الحلقة!

- عن أيّ حلقة تتحدّثين؟

هتف عمر في احتجاج، فرمقته ماتيلد بنظرة مستعطفة:

- سـتفعل ذلـك مـن أجـل قضيّـة عادلـة. هـذه الأمّ تحتاجـك لاسـترداد ولدهــا!

ثمّ لوّحـت بكفّهـا ودارت عـلى عقبيهـا لـتترك الغرفـة، وهـي تـدرك تمامـا أنّ ديانـا ورنيـم سـتنهيان مهمّـة إقناعه.

عـمّ الوجـوم لبرهـة بعـد أن غـاب ظـلّ ماتيلـد دوبـري عـن المكتـب. كانـت ديانـا أوّل مـن بـادر بقطـع حبـال الصمـت:

- أنــا آسـفة مــن أجــل الإحــراج الــذي تسـبّبت بــه.. لكنّــني في حاجــة إلى مسـاعدتك الآن! آمـل أن تقـدّر موقفـي، أنـا أمّ فقـدت صغيرهـا، ولـن أفـوّت أيّ فرصـة تسـاعد عــلى اسـتعادته!

أصغــى عمــر في تفكــير. لــم يكــن الانصيــاع إلى رغبــة المذيعــة الفضوليّــة مــن دواعــي سروره. بـل لعــلّ ذاك الطلــب يحطّــم السّــاتر الــذي بنـاه طيلـة غربتــه، كحــدّ فاصــل بــين المجالــين العــام والخــاصّ الــذي يحــرص عليــه.. وقــد ازداد حرصــه بشــكل حــادّ بعــد الحادثــة! لكــنّ الظّــرف الإنســانيّ الــذي يواجهــه يدفعــه دفعــا إلى مراجعــة حســاباته. كان في موقــف عســير، بــين التّضحيــة بخصوصيّــة حياتــه الشّــخصيّة والتنكّــر لأمّ مكلومــة ترجــو منــه الغــوث. حســم أمــره أخــيرا:

- فليكـن. إن كانـت تلـك المقابلـة سـتمكّنك مـن اسـتعادة خليـل، فـلا بـأس.. أنـا أوافـق!

تهلّلت أسارير ديانا وهتفت غير مصدّقة:

- هل حقًّا تفعل؟

- بشرط واحد.. ابقي بعيدا عن استديو التّصوير! بإمكان ماتيلد دوبري أن تساعدك بأشكال كثيرة غير عرض مأساتك العائليّة على الفضائيّات!

أطرقت ديانا في ألم، ثمّ قالت:

- لم أفكّر في ذلك إلا كحلّ نهائيّ إذا سُدّت السّبل.. لكنّك على حقّ. أنا مدينة لك بهذا أيضا.. طالما لم أعرف حقيقة الأمر، فسأمنح نادر فرصة للمصالحة. لن أفسد كلّ شيء بإقحام الإعلام في مشاكلنا.

أومأ عمر في استحسان.

- آمل أن تصلك أخبار مطمئنة قريبا.

تدخّلت رنيم منهية المسألة:

- جيّد.. سأنبئ ماتيلد باتّفاقنا إذن.

حيّتها ديانا بحرارة، ثمّ دفعت بعجلات كرسيّها المتحرّك مغادرة. ساد الصمت من جديد حين خلت الغرفة إلا من رنيم وعمر. عندئذ اقترب عمر من المكتب بهدوء، وقال وهو يضع الصّكّ البنكيّ على سطحه:

- جئت لأعيد إليك هذا.

- آه!

فوجئت رنيم بالصّكّ البنكيّ أمامها، بينما واصل عمر في بساطة:

- أنا ممتنّ جدّا لكلّ من اهتمّ لأمري وساهم في جمع هذا المبلغ.. لكنّني لم أفكّر لحظة واحدة في قبوله، سواء قبل حصولي على التعويض أو بعده.

هزّت رأسها في تفهّم وابتسامة صغيرة تطلّ على شفتيها. كان يجب أن تدرك ذلك. عمر لن يقبل شفقة ولا صدقة من أحد. قالت وهي تتنهّد:

- حسنا إذن.. لك ذلك. سأعيدها إلى أصحابها.

- هناك شيء بعد.

رفعت عينيها إلى وجهه، فالتقت بنظراته المباشرة. كانت قسماته تنضح سكينة وطمأنينة. لم يبق أثر للّهجة العدائيّة التي لمستها في لقائهما السّابق، في «البيت الصّغير».

- لقد أدركت أنّني لم أشكرك بالشّكل اللّائق على كلّ الجهود التي بذلتها.. من أجلي.

قالت على الفور مخفية ارتباكها:

- جورج أخبرني أنّك دفعت الأتعاب، مع أنّه لم يكن ينبغي أن تفعل.

- المال ليس كلّ شيء! نعم، لقد دفعت.. لكن شعرت أنّ من واجبي أن أعبّر عن امتناني بشكل شخصيّ.. ولذلك أنا هنا اليوم. لقد سارت القضيّة على ما يرام، والفضل كلّه يعود إليك.. وقد استعدت حريّتي وقدرا من صحّتي وحصلت على تعويض ماديّ مجزٍ أيضا.. ولا شيء من كلّ هذا يدعو إلى التوتر الذي أشعر به في حضورك.. ألست محقّا؟

رمشت رنيم في اضطراب. لقد كانت كلماته بسيطة وصريحة. ولقد كان على حقّ. لقد تخطّت كلّ ذلك، هكذا عاهدت نفسها، لكنّها تتلكّأ في التّنفيذ. وها هو عمر نفسه يدعوها إلى التّجاوز والتّطبيع!

هل سيكون بوسعها أن تعامله بشكل طبيعي، مثل أيّ موكّل سابق قد تلتقيه صدفة في وقت لاحق؟ إنّها تعلم -وهو يعلم بالتّأكيد- أنّ صداقتهما وياسمين وهيثم ستجعلهم يجتمعون في مناسبات كثيرة مقبلة، فلا شكّ أنّ تصفية الحسابات هو الخيار الأمثل.

قالت وقد تمالكت نفسها:

- نعم، أنت محقّ.

- جميل، سأنصرف إذن وأنا مرتاح البال.

شيّعته بنظراتها حتّى اختفى، ثمّ تهالكت على مقعدها في إنهاك. حدّقت في الصكّ الذي يستقرّ على مكتبها ثمّ ابتسمت وهي تقول في تهكّم:

- ها أنّك قد قبضت خمسين ألف يورو بيسر يا رنيم!

قاطع صوت السكرتيرة استغراقها:

- أستاذة رنيم.. السّيدة سكينة في قاعة الانتظار.

- دعيها تدخل.

خطـت سكينة في ارتباك داخـل المكتـب الفاخـر، وجلسـت علـى المقعـد المقابـل لرنيـم. بـدت المحامية الشـابّة مشوّشـة وقـد غلبهـا السّرحـان.

- هل جئت في وقت غير مناسب؟

نفضـت رنيـم عنها بقايا الاضطـراب، وتناولـت ملـفّ قضيّة سـكينة وهـي تسـتعيد تركيزهـا:

- لا، أبـدا.. لقـد فكّرت مليّا في قضيّتـك. في الحقيقـة، لـم أجـد أيّ ثغـرة قانونيّـة في الملـفّ تمكّـن مـن استئناف الحكـم.

أطرقـت سـكينة في إحبـاط. لـم يكـن عليهـا أن تضـع آمـالا عريضـة علـى محاولـة رنيـم. لقـد سـبق أن طرقـت كلّ الأبـواب.. فمـا الجديـد الـذي بوسـعها أن تأملـه؟!

لمعـت فكـرة جنونيّـة في رأس رنيـم بشـكل مفاجئ، فهتفـت وقـد اشـتعلت جـذوة حماسـها:

- لكـن أمامنـا وسـيلة أخـرى، بعيـدا عـن المحاكـم.. وهـي تتطلـب شـجاعة كبـيرة منـك. فهـل أنـت مسـتعدّة؟

حدّقـت فيهـا سـكينة غـير مصدّقـة. هـل تقـول أنّ هنـاك حـلّا ممكنـا؟ أشرقـت سـحنتها وهـي ترنـو إلى رنيـم في لهفـة، مثـل غريـق يتعلّـق بقشّـة:

- أنا مستعدّة لكلّ شيء!

- إذن أنصتي جيّدا.. سأخبرك بما علينا فعله.

حـين دلفـت رانيـا إلى الشـقّة كانـت السّـاعة قـد اقتربـت مـن الثامنـة مسـاءً. ألفـت ياسـمين بمفردهـا في المطبـخ، بادرتهـا حـال وصولهـا:

- هل تناولت عشاءك؟ أحضّر بعض الشطائر الخفيفة.. تشاركينني؟

أومـأت رانيـا شـاكرة، ووقفـت تراقبهـا وهـي تنهـي ترصيـف الشـطائر مـع السـلطة في الأطبـاق.

- ظننتـني سـأمضي الأمسـية وحيـدة.. جيّـد أنّـك جئـت مبكّـرًا. اجلـسي، سـيبدأ البرنامـج بعـد حـين.

لـوت رانيـا شـفتيها في امتعـاض. البرنامـج! مـا بالهـم جميعـا يترقبونـه بـكلّ هـذه اللّهفـة؟ شـهاب أيضـا اعتـذر عـن الخـروج الليلـة -مـرّة أخـرى- لأنّـه سيشـاهد البرنامـج! ومـا معـنى أن تظهـر رنيـم عـلى التلفـاز؟ ستتحدّث عـن العمـل، وهـذا ليـس مسـليًا. زفـرت وهـي تلقـي بحقيبتهـا وترتمـي عـلى الأريكـة، ثـمّ جـاءت ياسـمين لتسـتقرّ إلى جوارهـا ومعهـا أطبـاق الأكل. بعـد لحظـات، ظهـرت شـارة برنامـج «الحقيقـة الكاملـة»، ثـمّ احتـلّ وجـه ماتيلـد دوبـري الشاشـة.

- مرحبـا بكـم مشـاهدونا الكـرام في هـذا الموسـم الجديـد مـن برنامجكـم «الحقيقـة الكاملـة». كمـا وعدتكـم، سـيظهر هـذا الموسـم بشـكل مميّز مـن خـلال مواضيـع شـيّقة وتقاريـر حصريّـة. وأبـدأ بتقديـم الوجـه الجديـد الـذي سـيرافقنا بتحليـل قانـونيّ محـترف طيلـة حلقـات هـذا الموسـم.. رحّبـوا معـي بالأسـتاذة رنيـم شـاكر.

تحرّكـت عدسـة الكامـيرا لتسـتقرّ عـلى وجـه رنيـم الـتي جلسـت بهـدوء إلى المائـدة المسـتديرة الـتي تجمـع ضيـوف البرنامـج وابتسـامة وديعـة عـلى شـفتيها. كانـت تبـدو أنيقـة مثـل عادتهـا، وقـد أضافـت إليهـا لمسـات

مصفّفة البرنامج تألّقا وجاذبيّة. هزّت رأسها محيّية مضيّفتها، بينما كانت ماتيلد تقدّمها وتتحدّث عن مسيرتها المهنيّة بعبارات رنّانة لا يخفى فيها الإعجاب. بعد دردشة خفيفة بين المرأتين، تحوّلت الكاميرا إلى وجه عمر الذي كان يجلس غير بعيد عنهما إلى نفس الطاولة.

- يشرفنا اليوم بحضوره أيضا، الدّكتور عمر الرشيدي الذي شغلت قضيته الرأي العام الفرنسيّ منذ سنتين، لكنّه ضنّ علينا بأيّ ظهور إعلاميّ.. لذلك نحن ممتنّون له كثيرا لتواجده بيننا اليوم.

وابتسمت ماتيلد محيّية ضيفها وهي تدرك أنّها في تلك اللحظة قد سجلت نقطة فارقة لصالحها ستثير غيظ منافسيها من الإعلاميين الذين سعوا لشهور طويلة إلى هذا اللقاء الصّحفيّ الحصريّ. أخذت تطرح أسئلتها على عمر تباعا، فجاراها بلباقة ودون حماس.. حتّى ظهرت في عينيها تلك النظرة العابثة وهي ترمق ضيفيها بنظرة شاملة وتقول بمرح:

- بالإضافة إلى القضيّة الشّائكة التي لا شكّ تثير الاهتمام، أعلم أن مشاهدينا يتحرّقون شوقا لمعرفة بعض التفاصيل الشخصيّة عن ضيفينا الخاصّين اليوم.. وهذا سؤال وردنا من المشاهِدة ساندرين على الفيسبوك تقول: «هل هناك علاقة عاطفية بين الأستاذة رنيم وموكّلها الدكتور عمر؟».

ضحكت ماتيلد متظاهرة بالمزاح، ثمّ أردفت:

- لم أكن لأتجرّأ على طرح السّؤال ذاته، لكنّ اختفاءكما عن العيون كلّ هذا الوقت ثمّ ظهوركما معا على نفس الركح التلفزيّ يساهم في ترويج هذا النوع من الشائعات.. كما أنّني حين زرت الأستاذة رنيم في مكتبها، كان الدّكتور عمر موجودا هناك، فيا لها من صدفة! إلا إذا لم يكن الأمر مجرد شائعة بالطبع.

التمعت في عيني ماتيلد نظرة دهاء بينما ازدادت عينا عمر قتامة وهو يتحفّز للإجابة. لكنّ رنيم التي بدا أنّها تعوّدت أخذ الكلمة نيابة عنه في قاعة المحكمة، سارعت برسم ابتسامة مهادنة وهي تقول في بساطة:

- من الطبيعي أن تنتشر هذه الشائعات وتروج هذه التساؤلات حين تكون المحامية شابة وموكلها في مقتبل العمر أيضا، وحين يحدث اختفاء يخيّب أمل وسائل الإعلام، تكثر الأقاويل.. لكن دعيني أوضح لك وللمشاهدين أمرا، فاختفائي واختفاء الدكتور عمر كانا لسببين مختلفين وكل منا قضى فترة انسحاب في بلد مختلف، فالدكتور عمر كان في حاجة إلى فترة نقاهة مطولة للعلاج من مخلفات الحادثة الجسديّة والنّفسيّة في المغرب، بينما دعتني أسباب عائليّة إلى الالتحاق بمصر لفترة غير قصيرة، ومن ثمّ التجهيز لزواجي المرتقب...

- آه، هذا رائع! لقد لفت انتباهي خاتمك المميّز، تهانينا القلبيّة أستاذة رنيم على زواجك القريب وكل أمنيات السعادة لك ولشريك حياتك.. فاصل قصير ونعود.

استندت رنيم إلى جدار الممرّ وأخذت ترشف قهوتها المرّة ببطء. لم تكن تتصوّر أن يكون البثّ المباشر مرهقا إلى تلك الدّرجة. كان عليها أن ترسم ابتسامة على الدّوام وتجد الإجابات المناسبة والمقنعة بشكل يحميها ويحمي عمر. دون وعي منها كانت تتصرّف كأنّها محاميته من جديد.. فلتعترف، لم تكن يوما غير ذلك. لذلك، فإنها تتخذ وضعية الدّفاع تلقائيا. وتلك الـ«ماتيلد»، إنّها مزعجة بشكل لا يُحتمل! ما إن لمحتها قادمة من مقصورة استراحتها حتّى هبّت تقطع طريقها.

- عزيزتي رنيم، أرجو أن تكوني مستمتعة بالحلقة! حوار لطيف، أليس كذلك؟

قالت رنيم في ضيق:

- ليس هذا ما اتّفقنا عليه! طلبت حوارا بخصوص القضيّة، لذا التزمي رجاء بموضوع الحلقة.. ليس من حقّك طرح أسئلة شخصيّة!

- هوّني عليك يا عزيزتي.. نحن نقدّم ما يطلبه المشاهدون، والجمهور يهتمّ للتّفاصيل الجانبيّة والحكايات السرّيّة الخاصّة بالضيوف...

- لا يهمّني ما يطلبه المشاهدون. أليس دور الإعلام الارتقاء بالذّوق العامّ وتوجيهه؟

ابتسمت ماتيلد في تملّق وقالت مهدّئة:

- أنت على حقّ، لا مزيد من الأسئلة الشخصيّة.. أعدك!

قالت ذلك وهي تمدّ كفّها مصافحة، علامة الصّلح. زفرت رنيم في ارتياح، ثمّ تبعتها إلى استديو التّصوير. لم يكن عمر قد غادر مقعده، واكتفى بكوب ماء ارتشفه بهدوء ليغالب اضطرابه. ابتسمت وهي تستقرّ على المقعد المجاور وقالت مطمئنة:

- لم يبق الكثير.. سينتهي الحوار خلال دقائق قليلة!

هزّ رأسه في تفهّم ولم يعلّق.

بعد لحظات، كان العرض المباشر يُستأنف. زجرت نفسها مرّات عدّة ذلك المساء بعد كل تدخّل بالغت فيه في حمايته.. ربّما يظنّها تحسبه غير قادر على التعبير عن نفسه، أو تشك في بلاغته وملكته اللغوية؛ لكنه حين أخذ الكلمة وتحدّث بإسهاب عن يوم الحادثة وما تلاها من تأثير نفسي وجسديّ عليه، أبكى الحاضرين والمشاهدين بأسلوبه البسيط وكلماته التلقائية المعبّرة. لم يكن محاميًا مفوّها، لكنّه بدا إنسانيًا إلى أبعد الحدود.

انتهى البثّ المباشر، لكنّ مهمّة ذلك المساء لم تنته. غادرت رنيم مقعدها، وخطت باتّجاه الممرّ. لكنّ ماتيلد بدت منشغلة بإعطاء تعليمات لطاقمها من أجل التسجيل التّالي. وقفت تهزّ ساقها في توتر وترقّب. مرّ بها عمر في طريقه مغادرا استديو التّصوير.

- كنتِ رائعة هذا المساء!

- شكرا.. وأنت كذلك.

- حسنا، لقد انتهينا من هذا.. أرجو أن يكون ما فعلناه مفيدا لقضيّة ديانا.. تمنيّاتي لها بالتوفيق.

- سأبلغها أمنياتك.

هزّ رأسه في تحيّة صامتة، ثمّ استدار ليغادر مبنى المحطّة.

زفرت رنيم في ارتياح. لم يكن ما فعلته هذا المساء يختلف كثيرا عن مرافعتها في المحكمة. لقد كانت ماتيلد بمثابة المدّعي العام، والجمهور مثل هيئة المحلّفين! ولم يكن عمر سوى موكّلها مرّة أخرى. ابتسمت وهي تفكّر بأنّها تشعر بالسّلام داخلها أخيرا. لم يكن من العسير أن تراه وتحادثه كما خالت.. طالما حافظت على الأسلوب ذاته. ستقنع بموقع المحامية، وتبقيه في خانة الموكّل. تلك قسمة عادلة!

نظرت إلى ساعتها. لقد تأخّر الوقت، وهي ما تزال تنتظر فراغ ماتيلد من مكالمة هاتفيّة لتحادثها بشأن ديانا، وبأمر آخر يشغلها. لكن ما بال موكّلتها قد تأخّرت؟

رنّ هاتفها بلحن مميّز، فابتسمت وهي تردّ على اتّصال شهاب:

- كنتِ مذهلة اليوم!

- أحقّا؟

- هل تشكّين؟ أنت نجمة الحلقة دون منازع! لعلّ منتج البرنامج يستغني عن ماتيلد دوبري ويرشّحك مكانها!

أرضت كلماته غرورها وأشبعت كبرياءها، لكنّها هتفت ضاحكة:

- لا تبالغ!

- أنا لا أفعل! إنّه إحساسي الصّادق! ماتيلد عجوز يجب أن تحال إلى التقاعد، وتترك المجال للمواهب الشّابة!

ضحكت ثانية في تسلية، ثمّ ساد الصّمت للحظات قبل أن تقول في لهجة معتذرة:

- شهاب!

قاطعها على الفور:

- لا تقولي شيئا.. لا أحتاج إلى توضيح.

كانت تدرك أنّ تبجّحها بخاتمه على الهواء وهي بعد لم تُجب طلبه يعتبر وقاحة لا مثيل لها! لكنّها كانت في مأزق، وكان عليها أن تبدو مقنعة أمام عيني ماتيلد الطّفيليتين والماكرتين!

- اعتبريني حارسك الشخصي.. كيسك الهوائيّ.. أو حتّى ترسانتك المسلّحة! يمكنني تلقّي الضّربات مكانك متى شئت!

ضحكا معا، ضحكات رغم مرحها الظاهر في طيّاتها كثير من الكآبة. تساءلت رنيم في حيرة، ما الذي يدفع رجلا مثل شهاب إلى الرّضا بصداقة مهينة كتلك التي تبقيه في خانتها؟ إنّه يستحقّ الأفضل.. وإدراكها ذلك يؤنّب ضميرها المتغابي!

- هل تناولت عشاءك؟

- أخذت وجبة خفيفة قبل الحلقة.

- هل تودّين مشاركتي عشاءً متأخّرا؟ لديّ مناوبة ليليّة تبدأ بعد ساعتين.

- ما زلت في المحطّة، أمامي بعض العمل بعد.. شكرا لدعوتك اللّطيفة، لعلّنا نفعلها في فرصة أخرى!

كانت تعتذر عن لقائه معظم الوقت. بعد أن لعبت دور الدّليل السّياحيّ خلال أسابيعه الأولى في باريس، أخذت تنسحب تدريجيّا. صارت تكتفي بالاتّصالات المتفرّقة، من طرفه غالبا. كان ذلك أفضل بالنّسبة إلى مفهوم «الصّداقة» الذي تحاول إرساءه بينها وبينه. كان الأمر مختلفا في القاهرة. لقاءاتهما كانت مهربا لها من جحيم المراقبة العائليّة، ووسيلة إقناع للحصول على حرّيتها! أمّا وقد غدت طليقة، فهي تحافظ على مسافة أمان حتّى لا يعلو سقف توقّعاته تجاهها!

انتبهت في تلك اللحظة إلى جلبة في الممرّ بينما ارتفع صراخ امرأة فجأة. أنهت الاتّصال على وعد لقاء قريب ككلّ مرّة، ثمّ اندفعت في اتّجاه الصّوت في فضول، فألفت سكينة تتخبّط في صراع مع أذرع رجال أمن

المحطّة التلفزيّة الذين يحاولون جرّها خارج المبنى!

هتفت حين لمحتها:

- أستاذة رنيم.. أستاذة رنيم!

هرعت رنيم إليها في جزع، بينما خرجت ماتيلد وقد استرعى الصّراخ انتباهها.

- ما الذي يحدث هنا؟

- هذه موكّلتي، كنت في انتظارها بالدّاخل.. لكنّ أمن الاستديو منع دخولها!

حدّقت ماتيلد في شكل سكينة، ثمّ رجعت بنظراتها إلى رنيم في انزعاج:

- لم نتّفق على المزيد من الحالات الإنسانية!

- لم نفعل.. بعد!

تدخّلت سكينة في لهفة:

- سيدة دوبري.. أرجوك، يجب أن تستمعي إليّ.. أنا أمّ يائسة، وأنت أملي الأخير...

لم تكن أذرع رجال الأمن الصّلبة قد تركتها بعد، ولم يبد على ماتيلد الاهتمام بذلك. قالت في برود مخاطبة رنيم:

- أستاذة رنيم، لقد وافقت على مساعدة السّيدة ديانا، لكنّ برنامجي ليس جمعيّة خيريّة! وهذا الشّكل.. أقصد هذه السّيدة، ليست مناسبة للبثّ المباشر!

ما إن نطقت بتلك الكلمات الجافّة حتّى أخذ رجال الأمن يجرّون سكينة في اتّجاه المخرج.

تدخّلت رنيم في اندفاع:

- اتركوها، أنتم تؤلمونها.. ماتيلد، الأمر هامّ ومستعجل.. وديانا تراجعت عن طلبها بالظهور على الهواء. سكينة في حاجة إلى هذه الفرصة

أكـثر منهـا!

كانـت ريـم تـدرك أنّ تفاعـل ماتيلـد مـع قضيّـة ديانـا لـم يكـن إنسـانيّا بقـدر مـا هـو مهـنيّ واحـترافيّ. كانـت ديانـا وجهـا مثاليـا لتأثيـث البرنامـج.. شـقراء فرنسـيّة عاجـزة، وزوجهـا أجنـبيّ خائـن! أمّـا ملامـح سـكينة العربيّـة وهندامهـا الـذي يـشي بهويّتهـا فـلا يخدمـان قضيّتهـا في شيء!

- حسنا سأستمع إلى قصّتها!

تأففـت ماتيلـد واسـتدارت عـلى الفـور لتعـود إلى مقصورتهـا. هرولـت سـكينة خلفهـا وهـي تسـوّي قبعـة رأسـها الـتي مالـت جانبـا لتكشـف جـزءا مـن شـعرها بعـد صراعهـا لأذرع رجـال الأمـن. قالـت حـين اسـتقرّ المقـام بماتيلـد أمـام طاولـة زينتهـا ومصفّفـة الشـعر تعمـل خلفهـا بدقـة لتغيـير التسريحـة قبـل تسـجيل ومضـة الحلقـة الجديـدة:

- لقد أخذوا منّي ولديّ يا سيّدتي، ومنعوني من رؤيتهما منذ سنوات!

قالت ماتيلد في لا مبالاة:

- من فعل ذلك؟ زوجك؟ عائلتك؟

كانت قد استسلمت لأصابع المصفّفة وأغمضت عينيها في شبه استماع.

- إنّها الدّولة الفرنسيّة.. قالوا إنّني أمّ غير جديرة وسلبوني نور حياتي.

قاطعتها ماتيلد بجفاء دون أن تفتح عينيها:

- ومـا الـذي يمكننـا فعلـه إن كان القضـاء قـد سـحب منـك ولديـك؟ لا شـك أنـك كنـت مهملـة بشـكل كبـير...

- كانت مجرّد حادثة! لكنّ أحدا لم يستمع إليّ طيلة أربع عشرة سنة!

تدخّـلت ريـم لتـسرد تفاصيـل القصّـة بمـا أمكنهـا مـن اختصـار، ثـمّ قالـت برجـاء:

- لقـد اسـتنفدت كلّ السّـبل.. ابنهـا الأكـبر قـد بلـغ سـنّ الرّشـد منـذ سـنة، وهـي تحـاول الوصـول إليـه...

هتفت سكينة مؤيّدة:

- لست أطلب استرجاع حضانة الولدين، بل مجرّد رؤيتهما. لقد انقطعت أخبارهما عني منذ زمن.. لا أعرف أين يقيمان ولا كيف تكون ظروفهما. صحيح أنّهما لم يعودا بحاجتي، لكنني بحاجتهما.. أريد رؤيتهما وسرد الحقيقة على مسامعهما وأطلب الصّفح...

كانت سكينة قد أخذت تبكي بحرقة بينما رسمت ماتيلد تكشيرة متأفّفة. همست رنيم في حدّة:

- لقد وعدت بتخصيص حلقة لخدمة إنسانيّة لقاء الحوار مع الدّكتور عمر! ديانا تراجعت عن تسجيل الحلقة الخاصّة بها، وهذه الأمّ المكلومة أحقّ من أيّ شخص آخر بهذه الفرصة! أقول هذا لكوني شريكة جديدة في إعداد البرنامج.. إلا إذا كنت تودّين الاستغناء عني ونحن لم نبدأ بعد؟

انتبهت ماتيلد إلى التّهديد المبطّن في كلمات رنيم. زفرت في ضيق ثمّ قالت في برود:

- حسن، سنسجّل شهادتها.. لكن إن لم أجدها مقنعة بشكل كافٍ فلن يتمّ بثّها. فهمت؟

انهارت سكينة على الأرض وقد خانتها قدماها من فرط سعادتها، في حين ابتسمت رنيم في رضا.

***

- هدوء.. استعداد.. نبدأ خلال ٣، ٢، ١، تصوير!

ازدردت سكينة ريقها الجافّ ثم أخذت نفسا عميقا. التفتت إلى رنيم تستقي من عينيها شجاعة وطمأنينة، فشحنتها نظرتها الواثقة بالطاقة الكافية لتنطلق تحكي قصّتها. استمرّت في سرد محطّات مأساتها، متحرّيّة الوضوح والدّقّة.. ولم تكن ماتيلد في حاجة إلى حثّها لاستثارة تفاعل المشاهدين، فقد كانت لهجة سكينة، رغم تماسكها، عنوانا للصّدق والشّفافيّة.

- إنّي أعيش منذ أربع عشرة سنة في انتظار هذا اليوم. لقد بلغ ولدي جاسر السّنة الماضية الثامنة عشر، سنّ الرّشد. لقد أصبح ولدي حرّا في قراراته واختيار مسار حياته في نظر القانون الفرنسيّ. منذ أكثر من سنة أحاول الوصول إليه، بلا جدوى.. يمكنني أن أتوجّه اليوم إلى جاسر بالخطاب دون أن يمنعني أحد، لأنّه لم يعد طفلا يُخشى عليه من تأثير «أمّ غير صالحة». جاسر، هذه الرّسالة موجّهة إليك. إن كنت تسمعني يا ولدي، فلتعلم أنّني لم أدّخر جهدا في البحث عنك منذ غيّرت «عائلتك» مكان سكنها. لكنّني قليلة الحيلة، قصيرة الذراع. لم يعد أمامي سوى هذا الحلّ حتّى أصل إليك. جاسر بنيّ، تريد دليلا على أنّني أمّك؟ تعال لأريك ألبومات الصّور التّي جمعتنا في حلب وباتنا قبل عامك الخامس، وأتحدّى من يدّعون أنّهم عائلتك أن يظهروا صورة واحدة لك قبل هذه السنّ! جاسر، أرجوك أن تسمع منّي وتعرف حكايتي وما عشته من عذاب قبل أن تحكم عليّ. فإنّي بعد كلّ هذه السّنوات لم أعد أطلب من الدّنيا سوى أن أحتضنك وأختك وأطلب منكما الغفران.. فقد تشرّدتما بسببي.

***

وقفت رانيا إلى جوار ياسمين أمام المغسلة وراقبتها وهي تنهي جلي صحون العشاء. قالت على حين غرّة:

- رنيم لم تقل الحقيقة!

استدارت ياسمين تجاهها في استغراب:

- ماذا تقصدين؟

- لم تقل الحقيقة، بشأن علاقتها بموكّلها.. الدّكتور عمر!

ازدردت ياسمين ريقها في ارتباك، ثمّ قالت في هدوء وهي تعود إلى صحونها:

- وما أدراك؟

دنت رانيا منها أكثر، كمن يهمّ بالبوح بأسرار خطيرة، ثم قالت بلهجة لا تخفى فيها نبرة الإثارة والاستمتاع:

- لقد أخبرتُ والدتي عنه.. وتسبّبت في أزمة عائليّة حقيقيّة! والدي منعها من العودة إلى باريس لاستكمال المحاكمة، فأضربت عن الطّعام! لقد كانت يائسة.. ومثيرة للشّفقة.

ارتجفت ياسمين رغما عنها، لكنّها قالت ببساطة وهي تجفّف كفّيها:

- لقد كان ذلك في الماضي.. الآن هي مرتبطة بالدّكتور شهاب.

- من يدري!

- ماذا تقصدين؟

هزّت رانيا كتفيها وهي تستطرد:

- لقد عادت إلى باريس الآن.. والتقت حبيبها القديم! ربّما تعود المياه إلى مجاريها.. ألا تظنّين؟

غابت ياسمين للحظات في أفكارها. رنيم لم تحدّثها قطّ عن تلك الفترة من حياتها، إبّان عودتها إلى القاهرة. لم تعرف أبدا عن خلافها مع عائلتها. لقد عادت فجأة وفي بنصر يمناها خاتم خطبة.. وظلّت حيثيّات تحوّلها من حال إلى حال طيّ الكتمان. قد تكون رانيا محقّة. ربّما تعود المياه إلى مجاريها.. فرنيم ليست مقتنعة بشهاب بشكل تامّ، ولقاءاتها المتكرّرة وعمر قد تفتح الأبواب المغلقة. ابتسمت وهي تقول ببساطة:

- ما يمكن أن يحصل ليس من شأني ولا من شأنك. فلنترك رنيم تتدبّر أمر علاقاتها!

هزّت رانيا كتفيها ثمّ انسحبت لترتمي على الأريكة مجدّدا، تقلّب بين المحطات التلفزيّة.. بينما وقفت ياسمين ساهمة لبضع لحظات إضافيّة.

رنيم وعمر.. لقد استحسنت تلك العلاقة في وقت ما، وأهدتها مباركتها. كانت تبدو مثاليّة في ذلك الوقت. لكنّها في هذه اللحظة، تشعر بضيق

مفاجئ. مع إنّه لا يحقّ لها أن تنزعج! ما شأنك يا ياسمين لو أنّ رنيم تركت شهاب وارتبطت بعمر؟ لقد تسلّلت إليها قناعة خفيّة منذ ذلك الوقت، بأنّ علاقتهما مصيرها الفشل.. وأنّ الأمور سارت إلى الأفضل. وهي تنكر على نفسها ضيقها، فيزداد الكدر تراكما على صدرها.

***

دلفت رنيم وسكينة إلى المصعد. ترافقتا إلى الشقّة بعد الانتهاء من تسجيل شهادة سكينة. ضغطت رنيم على رقم الطابق في شرود، في حين كانت سكينة تسألها في توتّر للمرّة المائة:

- هل سيبثّون التّسجيل في الحلقة القادمة؟ هل تظنّين ماتيلد دوبري تفي بوعدها؟

قالت رنيم في ثقة:

- ستفعل. أعدك بذلك! سأفعل كلّ شيء حتّى يتمّ البثّ!

قبل أن يتحرّك المصعد، فوجئتا بسيّدة تهرول باتّجاههما وهي تسحب حقيبتين ثقيلتين. هتفت تستوقفهما:

- هلّا انتظرتما، رجاء!

انضمّت إليهما السيّدة داخل المصعد، وهي تشكرهما بابتسامة ممتنّة. كانت في منتصف العقد الخامس ربّما. تضع نظّارات طبيّة على عينيها، ويغطّي شعرها وشاح حريريّ أنيق. طالعتها رنيم في فضول وتساؤل. لم تر مسلمين كثرًا في المبنى السّكنيّ. سألتها:

- أيّ طابق؟

- الرّابع!

ما لبثت الدّفتان أن أقفلتا وبدأ الصّندوق المعلّق رحلة صعوده.

سألتها سكينة في ألفة:

- هل أنت في زيارة لأحد سكّان الطّابق الرّابع؟

- نعم، ابنتي تقطن هنا.

- آها.

تبادلت سكينة ورنيم نظرة متسائلة. أيّ ساكنات الطّابق تصلح هذه السيّدة والدة لها؟

- هل تقيمان هنا أيضا؟ أنتما عربيّتان، أليس كذلك؟

- نعم، أنا من سوريا.. وهي من مصر.. نحن شريكتا سكن.

- آه، يا إلهي.. أنت سكينة! وأنت رنيم، أليس كذلك؟

حدّقتا فيها في استغراب، في حين واصلت فاطمة بابتسامة منشرحة:

- أنتما شريكتا ياسمين! أنا والدتها.

ثمّ التفتت إلى رنيم وأضافت:

- لقد ظننتك رحلت.. وسكينة حلّت مكانك!

ابتسمت رنيم في حرج:

- لقد عدت منذ وقت قصير.

حين توقّف المصعد في الطّابق الرّابع، سحبت سكينة ورنيم الحقيبتين عن طيب خاطر وسبقتاها إلى باب الشقّة. همست رنيم لسكينة في غفلة من فاطمة:

- يبدو أنّها ستقيم هنا!

هزّت سكينة كتفيها وسبقتها لفتح الباب. استقبلتهما ياسمين بالدّهشة، وهي تلمح الحقائب التي دفعتاها إلى مدخل الشقّة، ثمّ ما لبثت أن هتفت في ذهول:

- أمّي!

- مفاجأة، أليست كذلك؟

عانقتها فاطمة في حنوّ، واستكانت كلّ منهما في حضن الأخرى لبرهة، قبل أن تقول ياسمين في عتاب:

- لماذا لم تخبريني بقدومك، كنت لأستقبلك في المطار!

- لا داعي للعناء يا حبيبتي، أعرف الطّريق بمفردي.

ثمّ انتبهت إلى حضور رانيا الجالسة في الصّالة.

- أرى أنّك التقيت بسكينة ورنيم.. وهذه رانيا شقيقة رنيم!

حيّت فاطمة صديقات ابنتها وتلقّت عبارات التّرحيب، ثمّ انتحت بها جانبا:

- لم أكن أدرك أنّ الشقّة مكتظّة إلى هذه الدّرجة! حسبت سكينة شريكتك الوحيدة في السّكن.. أظنّ حضوري دون استئذان لم يكن بالفكرة السّديدة!

ابتسمت ياسمين مطمئنة إيّاها:

- لا تقولي هذا.. سنتصرّف.. نحن نتصرّف دائما!

- قد يكون من الأمثل أن أستجيب لدعوة زهور.. لقد عرضت استقبالي في منزلها. هيثم وعبد الحميد ينامان في الشّقة الجديدة، بعد تجهيزها.. لكنّني فضّلت أن نكون معا لأطول وقت ممكن.

- حسنا فعلتِ.. سنفعل إن شاء الله. اطمئنّي، سنجد ترتيبا مناسبا.

قادتها إلى غرفتها المشتركة وسكينة، لتستريح من وعثاء السّفر، ثمّ عادت إلى الصّالة حيث ألفت الفتيات يتشاورن. والدتها حضرت من أجل مناقشة رسالة الدّكتوراه وستمتدّ إقامتها حتّى حفل الزّفاف. بادرت سكينة على الفور:

- سأنام على الأريكة، لا بأس بذلك.

أردفت رنيم بسرعة:

- لن تضطرّي لذلك سوى لأيّام قليلة.. سأسافر قريبا.

- تسافرين؟ إلى أين؟

ابتسمت عند سؤال رانيا وقالت:

- مهمّة عمل.. سأغيب لأسبوع أو أكثر.. حسب الظّروف! ستكون ياسمين مسؤولة عنك في غيابي.. هل فهمت؟

- لا تقلقي، رانيا أمانة عندي.

- آسفة لأنّني سأفوّت مناقشة رسالتك.. لكنّني سأكون هنا من أجل الزّفاف.

- لا بأس بذلك.

عانقتها ياسمين في امتنان، ثمّ قالت معتذرة:

- آسفة يا فتيات، سأثقل عليكنّ خلال الشّهر المقبل.. لكنّها ستكون الأيّام الأخيرة على كلّ حال.. اعتبرنها هديّة زواج!

كانت تحاول إضفاء بعض المرح، لكنّ رنيم لكزتها بمرفقها وقالت في ضيق:

- هذا ليس مسليًا.. البقاء في الشقّة بعد رحيلك لن يكون له الطّعم ذاته.. سكينة، لا أقصد الإساءة! لكن تلك هي الحقيقة.

ابتسمت سكينة وهي تحتضن ياسمين بدورها:

- لن أناقضك، لأنّ هذا ما أشعر به أيضا.

***

دفعت رنيم باب الشقة بقدمها ثمّ ثبّتته بكتفها قبل أن تمرّر رزمة الأوراق التي تثقل ذراعيها عبر الفتحة، ثمّ اندفعت إلى الدّاخل لتلقي بحمولتها على طاولة الصّالة المنخفضة.

- أين الجميع؟

بادرت رانيا بالسّؤال وقد ألفتها وحيدة أمام شاشة التّلفاز.

- لقد خرجت ثلاثتهنّ إلى المتجر.. يقتنين لوازم تحضير الأكل الخاصّ بحفل ياسمين!

رفعت رنيم حاجبيها في دهشة. كأنّ أطنان الحلويّات التي أحضرتها

فاطمة معها من تونس لا تكفي! لقد سحبت الحقيبة بنفسها وعاينت ثقلها. تكاد تقسم أنّها دفعت الكثير نظير الوزن الزّائد. على طاولة المطبخ، كانت الصّناديق الملأى مرصفة بعناية. ليس الأمر مجرّد توهّم من طرفها!

- ما هذا؟

سألتها رانيا في فضول وهي تلتقط قرصا مضغوطا كان يعلو كومة الأوراق وتقلبه بين أصابعها للحظات. استوت زينم واقفة وهي تلهث ثمّ قالت في شيء من الغموض:

- عمل.

- تأخذين معك كلّ هذا في رحلتك؟

- ليس كلّه.. عليّ أن أسهر اللّيلة لإتمام بعض الأمور المتعلّقة وأترك مذكّرات مفصّلة لجورج، فيتولى شأنها في غيابي.

- أنت لن تغيبي طويلا، أليس كذلك؟

- لا أدري.

التفتت إليها رانيا في جزع:

- ماذا تقصدين؟ الرّحلة لأسبوع واحد، أليست كذلك؟

- الرّحلة الرّسميّة، نعم.

نظرت إليها رانيا في غضب. إنّها تتعمّد الغموض وتتصرّف كشخصيّة مهمّة وهذا يثير حنقها. لكنّ زينم تجاهلتها ومضت إلى البرّاد لتتناول مشروبا مثلجا. وهي تتساءل في سرّها دهشة.. منذ متى تهتمّ رانيا لحضورها من غيابها؟

لكن سرعان ما انسحبت أفكارها إلى ما يشغلها.. كانت قلقة بشأن سكينة. لم تكن تريد أن تهمل قضيّتها، وماتيلد لا تبدي الحماس المطلوب. لذلك كان عليها أن تعمل منفردة. من ناحية أخرى، تدرك أنّ استرجاع الطفل المخطوف لن يكون بالأمر السّهل. نادر لن يسلّم

بسـهولة ومهلـة الأسـبوع قـد لا تكـون كافيـة.

- ما هذه الصورة؟

انتبهـت حـين رفعـت رانيـا ورقـة بيضـاء عليهـا رسـم بقلـم أسـود لوجـه شـابّ. لـم يكـن الأمـر سرّا، فسكينة تسـعى إلى بـثّ نـداء عـلى قنـاة فضائيّـة. لكنّهـا لرغبـة خفيّـة في إغاظـة شـقيقتها قالـت متعمّـدة الغمـوض:

- شابّ مفقود.

ضحكت رانيا في سخرية:

- هـل تمزحـين؟ وهـل يفقـد الشـباب في هـذه السـنّ؟ إنّهـم يهربـون أو يختفـون.. لكنّهـم بالتأكيـد لا يُفقـدون! لا تضيّعـي وقتـك في البحـث عنـه.

زفرت رنيم في انزعاج ثمّ قالت في تأنّ:

- المسألة أكثر تعقيدا ممّا تظنّين.

رأت الترقّب والاهتمام في عيني شقيقتها فواصلت:

- الولـد فُقـد منـذ أكـثر مـن عـشر سـنوات. وهـذه صـورة تقريبيّـة لشـكله الحـاليّ.

- تقريبيّة؟

- نعـم. طلبـت مـن رسّـام محـترف أن يرسـم تصـوّرا لملامحـه الحاليّـة حـتّى تسـاعدنا في البحـث.

- ولماذا انتظر أهله كلّ هذه المدّة للشروع في البحث عنه؟

أنهـت رنيـم مشروبهـا ووضعـت الكـوب إلى جـوار المغسـلة ثـمّ قالـت في نفـاد صـبر:

- ليـس لـديّ وقـت لأشرح، الكثـير مـن المهـام تنتظـرني. إن كنـت مهتمّـة بمعرفـة التفاصيـل، انتظـري الحلقـة المقبلـة مـن برنامـج «الحقيقـة الكاملـة»!

ثـمّ أزاحـت كومـة الأوراق لتحملهـا مـن جديـد قبـل أن تتـوارى خلـف بـاب غرفتهـا. مطّـت رانيـا شـفتيها في ضيـق ثـمّ تناولـت جهـاز التحكّـم وعـادت لتقلّـب بـين القنـوات التلفزيـة.

- حيّا الله جارنا الدّكتور!

استقبله العمّ محمّد بحفاوة كدأبه في كلّ مرّة تتقاطع سبلهما دخولا إلى المسجد وخروجا.

- لقد وعدّتني بجلسة تتحدّث فيها عن مشروعك، لكنّنا لم نفعل!

- اعذرني يا عمّ محمّد، لقد انشغلت في الأيّام الماضية.. فلم تسنح الفرصة.

- ها أنها قد سنحت إذن. هيّا بنا.. الشاي ينتظرنا.

ساقه من ذراعه فغمر الحرج عمر ولم يملك أن يرفض. دلفا إلى المجلس ذاته، فنادى المضيف ابنته لتحضر إبريق الشّاي. ما هي إلا لحظات حتى ظهرت الفتاة. أطرق عمر غاضا طرفه حتّى وضعت الصّينيّة وهي تلقي التحيّة بصوت رخيم خجول، وانصرفت.

- ها، أخبرني إذن.. كيف هو المحرّك الذي تعمل عليه؟

تلاشى الحرج حين تحوّلت دفّة الحديث إلى العمل. كان عمر يجد في نفسه الانطلاق والارتياح كلّما انبرى يشرح لكلّ مهتمّ تفاصيل مشروعه الطموح.

- ما شاء الله.. وفّقك الله يا بنيّ ويسّر أمرك!

أمّن عمر على دعائه بحرارة. كان يحتاج بشدّة إلى التيسير في حين تبدو كلّ الأبواب موصدة في وجهه.

- بالمناسبة.. لقد رأيتك في حلقة برنامج الحقيقة الكاملة! لست من متابعي البرنامج.. ماتيلد دوبري تلك الحرباء المتلوّنة، لا أرتاح إليها ولا أحتمل النظر إلى وجهها! لكنّني سمعت البقّال يتحدّث عن الحلقة،

فشاهدت الإعادة! والله يا ولدي أنت فخر لنا كعرب ومسلمين.. بيّضت وجوهنا في إعلامهم الأسود، بيّض الله وجهك!

ابتسم عمر وقد تنامى حرجه، بينما تابع الرّجل:

- والطّفلة ابنتي، لقد استمرّت في البكاء حتّى انتهاء الحلقة! إنّها رقيقة وسريعة التأثر.

أطرق عمر في ارتباك ولم يعلّق. نظر إلى ساعته، ثمّ تململ في جلسته، فقال العمّ محمّد:

- لقد اقتربت صلاة العشاء.. هلمّ بنا إلى المسجد.

ترافقا ببطء، وقد انقطع الشّيخ فجأة عن الحديث وكأنّه قد أنهى كلّ ما بجعبته، فاحترم عمر صمته. حين بلغا مدخل الجامع، أمسك محمّد كفّ عمر بين راحتيه وقال بلهجة عميقة:

- لم أرد إحراجك وأنت في بيتي، ورأيت أن أؤجّل الحديث حتّى نوشك على الافتراق.. يقال إنّ خير البرّ عاجله.. ويقال أيضا «اخطب لابنتك قبل أن تخطب لابنك».. وأنا لي ابنة وحيدة، ونحن في هذه الغربة ليس من اليسير أن أجد لها زوجا مناسبا، وإنّني أحببتك وارتحت إليك منذ رأيتك.. وكلّما جلست إليك وسّعت لك مكانا أرحب في قلبي!

تلجلج عمر ولم يدر بما يردّ ذاك العرض المباشر وغير المتوقّع، فتابع محمّد:

- لقد طلبوها منّي كثيرا، منذ بلغت الثامنة عشرة.. لكنّها لم تكن ترضى! ليس لأنّها متطلّبة، فالقليل يكفيها.. لكنّ ذلك القليل المطلوب شحيح عند شباب اليوم! المعدن الأصيل عملة نادرة.. وحيث إنّي أقدّر خصالك.. فإنّي أعرضها عليك، إذا ارتأيت أن تتّخذها زوجة.

همهم عمر في ارتباك:

- ولكن.. يا عمّي...

رفع محمّد كفه مقاطعا:

- أعلم أنّك لا تفكّر في الزّواج الآن.. لكن لا أحد يدري أين يكون النّصيب وكيف يكون. تعال وانظر إليها.. «فإنّه أحرى أن يؤدم بينكما». فإن حصل قبول فبها ونعمت.. وإن لم يحصل، فأنت ولدي اليوم وغدا.. وهذا لن يفسد الودّ الذي بيننا.

أمام صمت عمر، استطرد الرّجل:

- لن أستعجلك.. فكّر في الأمر. فإذا رضيت بجلسة تعارف أهلا بك متى رغبت.

حين انفرد عمر بنفسه، فكّر طويلا. ما الذي يجعل ذاك الرّجل يلاحقه ويعرض عليه ابنته؟

لقد كان ثريّا، ثريّا جدّا، بقدر لا يُدركه هو نفسه. الرّقم الضخم ذو الأرقام الثّمانية الذي يظهر في دفتر حساباته البنكيّة يفوق قدرته على الاستيعاب. لكن لا أحد من حوله يعرف مدى ثرائه.. باستثناء جورج! حتّى الذين عرفوا بحصوله على تعويض، لا يعرفون الرّقم بالتّحديد.

لم يتبدّل شيء في شكله وهندامه ليعكس وضعه الجديد. إنّه ما يزال يركب المواصلات العامّة معظم الوقت، رغم اقتنائه لسيّارة تقبع غالب الوقت في المرآب! لم يكن يصرف إلا بمقدار الحاجة، كما تعوّد أن يفعل.. وحدها الجراحة تقضم قضمات صغيرة كلّ حين وحين من صندوق الكنز العظيم. حتّى مصاريف المختبر، فإنّه يسحبها بحساب، ويدوّنها بحرص، حتّى لا تأخذه الغفلة ويستنزف رأس المال قبل أن يبدأ العمل الفعليّ.

لذلك، لم يجد عرض الرّجل معقولا ولا مقنعا. أنت تبحث لابنتك عن أفضل «الصّفقات» لا أردئها.. وهو يعدّ نفسه قد غدا صفقة «رديئة»! بضاعة معطوبة! لماذا قد ترغب به فتاة غريبة، جميلة ومثقّفة فوق ذلك؟

كانت تلك الأفكار تروح وتجيء في رأسه بلا توقّف. قال أبوها إنّها

بكت تأثرا بقصّته. فهل تكون الشّفقة سببا مقنعا؟ وهل تبني الشّفقة بيتا؟ أيّ غباء هذا؟ تتأرجح انفعالاته بين الغضب والرّيبة والعجب والفضول. ثمّ بعد مغالبة طويلة لهواجس نفسه وتساؤلاتها، قرّر قطع الشكّ باليقين. لم يجد بدّا من قبول الدّعوة. سينظر إليها ويسمع منها. لا عيب في ذلك. لم يكن واثقا ممّا يريده منها، لكنّ الفضول غلب على كلّ الانفعالات الأخرى.

بعد يومين، جلس على المقعد الوثير في حصّة «العلاج النّفسيّ»، وسأل الطبيب:

- هل يصحّ أن أرتبط بإحداهنّ في هذا الوقت؟

ابتسم المعالج وقال مشجعا:

- الدّعم المعنويّ وتلقي الحبّ.. من أبرز أسباب الشّفاء السّريع!

تردّد عمر، ثمّ قال بلهجة مهزومة:

- لكنّني لا أشعر بالثّقة! لا زلت أخشى نظرة الآخرين. لا أحد بلغ منّي من الحميميّة أن أكشف ندوب جسدي أمامه.. باستثناء الأطبّاء!

- ندوب روحك هي التي تحتاج إلى التّعافي في أقرب وقت.. أمّا الجسد فسيأخذ ما يأخذه من الزّمن ليفعل.

عبّر الطريق نفسها برفقة جاره حتّى باب الدّار. ذهب بإرادته الكاملة هذه المرّة. دخل المجلس ذاته، وأطرق مترقّبا، بينما غاب الرّجل في الدّاخل يستدعي ابنته. خرجت هذه المرّة، بدون دلّة الشّاي وطبق المرطّبات. ألقت السّلام بصوت حيّي خفيض، وجلست على بعد مترين منه، ثمّ اختفى والدها ليترك لهما حريّة التّعارف.

لم يغضّ بصره هذه المرّة. رفع عينيه ونظر إليها. كان يُدرك من لمحات سابقة إبّان دخولها على مجلسه ووالدها أنّها ذات جمال. لكنّها بدت أكثر من ذلك هذا المساء.. ليس لأنّها تجمّلت، فقد كانت بشرتها خالية من الأصباغ. ربّما لأنّه يرمقها بعين أخرى، وقد كان يصرف تفكيره

عنهـا في السّـابق.

كانـت ذات ملاحـة وبهـاء. بشرتهـا بيضـاء كالحليب الصّـافي، عيناها عسـليّتان وسـيعتان مكحولتـان، وقوامهـا رشـيق متناسـق. لـم يقـف عـلى عيـب خلقـيّ بـيّن. دون مقدّمـات، رفـع كـمّ قميصـه ليكشـف عـن ذراعـه اليمـنى، وتظهـر آثـار الحـروق عـلى بشرتـه. قـال بهـدوء:

- ثلث جلدي مغطى بندوب كهذه.

فاجأتها حركته الفجّة، فصرفت بصرها عن ذراعه في حرج، ثمّ قالت:

- هل تحاول تنفيري؟

- بل تحذيرك!

- لستُ أجهل قصّتك.

- وماذا تقولين إذن؟

- مـن منّـا ليـس ناقصـا؟ إن كان نقصـك جسـديّا، فغـيرك روحـه ناقصـة، أو عقلـه ناقـص.. وإنّي أفضّـل النقـص المـاديّ عـلى المعنـويّ.

رفـع حاجبيـه في انتبـاه. كانـت فلسـفتها تدهشـه. ورغـم جدّيـة الـكلام، وجـد نفسـه يطـرب للهجتهـا المشرقيّـة العذبـة. تسـاءل في سرّه، هـل يمكـن التّوافـق والتّـلاقي بـين المـشرق والمغـرب؟

بينما واصلت آية:

- حـين رأيتـك في اللّقـاء التّلفـزيّ، لـم تُظهـر أدنى ضعـف. لقـد سـحقتهم بـلا تـردّد.. تفوّقـت عليهـم وألجمتهـم وكانـت لـك الكلمـة الأخـيرة!

قال في مرارة:

- هكـذا نكـون أمـام الأغـراب.. نضـع قناعـا ونحبـس حقيقتنـا في قمقـم، فـلا نريهـم نقـاط ضعفنـا ولا نكشـف دواخلنـا.. لكـن إزاء المـرأة الـتي ستشـاركني حيـاتي، أريـد أن أكـون عـلى سـجيّتي.. شـفافا وطبيعيـا.

- ما الذي تخشاه إذن؟

- شيئان لا ثالث لهما.. الشّفقة والنّفور!

أخذت نفسا وتريّثت، في حين علت ملامح عمر علامات التوتّر.

- أمّا النّفور فلا مكان له، وإلا ما كان بيننا هذا اللّقاء.. وأمّا الشّفقة، فلا أرى لها داعيا.. كلّنا مبتلى، لكنّنا غالبا ما نرى ابتلاءنا أعظم من حجمه الحقيقي، فتهون أمامه ابتلاءات الآخرين.

- ما ابتلاؤك أنت؟

- انتمائي إلى وطن أسير!

عقد ما بين حاجبيه وقال في حيرة:

- لا أراه عيبا!

- ليس عيبا.. بل حمل ثقيل.. وليس كلّ الرّجال بقادرين على مشاركته.

- ألا يقول المنطق أن ترتبطي بفلسطينيّ مثلك.. يدرك حملك ويراه بنفس العين؟

في حركة غير متوقّعة، سحبت آية سلسلة حول عنقها، كانت تخفيها في طيّات ثيابها. في طرف السلسلة يتدلّى شيء يختلف عن الحلية الذهبيّة المعتادة. رفعت كفّها وهي تحتضن بين أناملها مفتاحا معدنيّا صدئا وقالت بلهجة صارمة:

- هل تدري ما هذا؟

أومأ عمر علامة الإيجاب، وهو يحدّق في المفتاح الأثريّ مأخوذا: «مفتاح العودة». لم تكن مجرّد أسطورة، حكاية المفاتيح تلك! لقد كانت حقيقة.. مفاتيح الدّور التي سُلبت حين استوطن الاحتلال الصّهيونيّ قرى فلسطين ومدنها، يحتفظون بها ويتوارثونها جيلا بعد جيل، عسى يكون لهم في العودة نصيب.

- هذا مفتاح بيت جدّي رحمه الله.. لعلّ أحدنا لا يعرف أين يقع البيت بالتّحديد.. لكنّنا نحتفظ بالمفتاح والصّور القديمة.. ونتعهّد الحكاية بالرّعاية، فنسقي الذّكريات بالدّمع والحنين، كي لا ننسى من نكون، وما

هـي قضيّتنـا.

تأمّل في كلماتها في اهتمـام، وقـد بـات مشـدودا إلى حديثهـا. بعـد الوجـه الحسـن، والصّـوت الحسـن، قابلـه حديـث حسـن.. ووجـد نفسـه يسـتزيد منـه. ارتجفـت أصابعـه المتشـابكة في حجـره، بينمـا كانـت آيـة تواصـل:

- ليس كلّ الفلسـطينيّين سواسـية.. مثل كلّ شـعب من شعوب هـذه الأرض، فيهـم الصّالح والطّالح، فيهـم البرّ والفاجر، وفيهـم الصّـادق والخائن.

ابتسم عمر وقال:

- في وجدانـا كلّ فلسـطينيّ شريـف.. وكلّ مـا يـأتي مـن تلـك الأرض المباركـة مقـدّس!

- لكنّ الواقـع غـير ذلـك.. نحـن شـعب قـد تفرّقنـا في أصقـاع الأرض منـذ أكثر مـن نصـف قـرن، وكثـير منّـا للأسـف رضـوا بأوطـان بديلـة وفـترت همّتهـم، ومـا عـاد لهـم مطمـع في أرض أجدادهـم! أنـا لا أريـد أيّـا مـن هـؤلاء.. أتـوق إلى صاحـب الهمّـة العاليـة! وقـد حسـبتك صاحـب همّـة عاليـة.. فهـل أنـت كذلـك؟

أصابـه سـؤالها المبـاشر في مقتـل. هـل أنـت صاحـب همّـة عاليـة يـا عمـر؟ ردّد فـؤاده رجـع الصّـدى، وغـاب في دهاليـز روحـه يفتّـش عـن همّتـه ليقيـس مـدى ارتفاعهـا. حـين ثـاب إلى رشـده، كان أهـدأ بـالا وأهنـأ حـالا. قـال وقـد غشـيته سـكينة عجيبـة:

- عسى أن أكون كذلك!

قالت في هدوء:

- سأهبك فرصة لتثبت نفسك إذن!

شـعر عمـر بـأنّ مقاليـد القـرار قـد تفلّتـت مـن يـده في تلـك اللحظـة، وغـدت بـين راحتيهـا.. كأنّمـا هـي تتماهـى مـع مفتـاح بيـت جدّهـا الصّـدئ.

زيتونـة صغـيرة خـضراء غـير ناضجـة، قطفـت قبـل الأوان وطحنـت في المعـصرة طويـلا -أكـثر ممّـا يجـب أو تتحمّـل- حـتّى استنفد لبّهـا زيتـه كلّـه إلى آخـر قطـرة! هكـذا كانـت تشـعر.

بعـد كلّ سـنوات الدّراسـة الطويلـة الـتي مـرّت بهـا، نضبـت طاقتهـا. لـم يعـد بداخلهـا زيـت تحرقـه لتضيء الـدّرب. لـم يبـق في داخلهـا سـوى الخواء. مـن العجيـب أن تستسـلم للتّعـب ولـم تعـد تفصلهـا سـوى أيـّام معـدودة عـن موعـد مناقشـة رسـالتها!

لقـد مـرّت بالكثـير. بعـد روزلـين كانـت هنـاك سـبع وثلاثـون حالـة درسـتها. لـم يكـن هنـاك المزيـد مـن الأجسـاد المتدليّـة أو السـيقان المتأرجحـة. لـم تَـرَ جثّـة واحـدة إضافيّـة. مقابلاتهـا مـع «الحـالات» الـتي تفوّقـت فيهـا نزعـة الحيـاة عـلى المـوت كانـت بحضـور طـرف آخـر مـن مسـؤولي الرّعايـة النفسـية أو الصحيّـة. أمـا تلـك الـتي قضـت نحبهـا، فلـم تكـن في حاجـة إلى رؤيتهـا. اكتفـت بلقـاء أفـراد العائلـة والأصدقـاء وزمـلاء العمـل المقرّبـين. في رحلتهـا تلـك رأت الكثـير مـن البـؤس واليـأس والتعـب مـن الحيـاة. لكنّهـا بقيـت صامـدة، مبتسـمة ومواسـية. وحمـدت الله في كلّ مـرّة لأنّهـا لـم تُبتـلَ بمثـل تلـك الآلام.

وهـي بصـدد الانتهـاء مـن تلـك الدراسـة/المغامرة، كان تركيزهـا ينسـلّ مـن الحـالات وعلاجهـا إلى ذاتهـا ومشـكلاتها الشـخصيّة الصغـيرة. مـن المثـير للسّـخرية أنّهـا وقـد أوشـكت عـلى تقديـم اقـتراح لحـلّ أزمـة وجوديّـة مسـتعصية تـؤرق كبـار المسـؤولين في الـشركات الكـبرى الفرنسـيّة، تقـف عاجـزة أمـام حـلّ أزمتهـا الصغـيرة الـتي لا تتجـاوز ذاتهـا! ربّمـا هـي ليسـت أزمتهـا وحدهـا، بـل هـي أزمـة كلّ فتـاة مسـلمة تلبـس الحجـاب وتحـاول الحصـول عـلى فرصـة عمـل في ذلـك المجتمـع المتعصّـب لمرجعيّـة الدّولـة

اللّا دينيّة، لكنّها مسؤولة في تلك اللحظة عن نفسها فقط. في انتظار أن تصبح في موقع يسمح لها بحمل عبء مشكلات الأخريات! نعم، كان ذلك ما يطأ على صدرها بحذاء عسكريّ غليظ يكاد يقطع تنفّسها. كانت خائفة ممّا بعد المناقشة.

في الفترة السّابقة، أجرت عديد المقابلات التي كانت كلّها تقريبا تنتهي بنفسة الحركة المناورة، حين يخرج مسؤول التعيين نسخة من «القانون الداخلي» للمؤسسة وقد ظلل عليها الفقرة الخاصّة ب»الإشارات الدينية المستفزّة» أو «الزّي الموحّد»، أو «لائكيّة المؤسّسة».

أكانت تقدّم بطلاقة وثقة أطروحة عن حماية حياة الآخرين وإنقاذهم من اليأس الجارف الذي يودي بالأخضر واليابس.. ليسألوها عن لباسها؟

منذ سنوات طويلة، حين اتّخذت القرار بالالتزام بالحجاب الإسلاميّ، قالت لها ألسنة صديقة مهتمّة لأمرها: لن تجدي عملا! لكنّها كانت تردّ في ثقة: الرّزق بيد الله!

تتمنّى اليوم لو أنّها تمتلك نصف تلك الثّقة. لقد وهنت من المحاولة وتكرار الهزيمة. الثّقة، التوكّل، الصبر.. أصبحت أكثر ضعفا من حمل ثقل تلك الكلمات.

في سنوات دراستها الجامعيّة الأولى، كان عليها أن تراوغ أمن الجامعة الذين يتلقّون تعليمات متباينة في كلّ مرّة. تارة يتساهلون ويتركونها ورفيقاتها يمررن، وأخرى يقفون بالمرصاد ويتحيّنون فرصة الانقضاض على كلّ «قطعة قماش» زائدة عن الحاجة. كانت أيّاما عصيبة، تسلّحت فيها بالأوشحة الإضافية لتعوّض تلك «المصادرة» بعد تجاوز «حواجز التفتيش»، وبمناديل الموضة صغيرة الحجم التي ترضى عنها الإدارة أكثر من غيرها، وبالمناديل الشعبيّة التقليديّة المثيرة للضحك بألوانها الفاقعة وحتّى ب»السفساري» الحريري الذي ينزلق عن الرّأس ويكشف شيئا ممّا يُراد إخفاؤه إذا ما أوقفت لإبراز بطاقتها الجامعيّة أو هويّتها...

كلّ تلك المحن خلّفتها أقوى عزيمة وأشدّ بأسا. ربّما لأنّها لم تكن

وحيدة. كانت العشرات بل المئات في جامعتها وفي المؤسّسات الجامعيّة المجاورة يتعرّضن إلى نفس التّنكيل والتضييق. كنّ يتقابلن كثيرا في قاعات انتظار «غرف الاستجواب» عند مدير الجامعة أو الناظر، فتشدّ بعضهن من أزر بعض ويبتسمن في استهانة، ثمّ يسخرن من سخافة ما قيل خلف جدران الغرف المغلقة.

لم تكن قد وصلت إلى الجنّة المنشودة حين عبرت المتوسّط إلى ضفّة «بلد الحريّات وحقوق الإنسان». تهالكت حتّى عثرت على فرصة الدكتوراه، وعانت خلالها من الملاحظات الجانبيّة المخزية ومن النظرات المستهجنة. لو لم يكن شخص مثل دافيد مسؤولا عن بحثها، ربّما كانت طُردت أو قدّمت اعتذارا منذ زمن طويل. ألم يكن ذلك رزقا من الله؟ إذن لماذا هذا اليأس المفاجئ؟

- انتهيت من التقرير النهائيّ إذن؟

أومأت ياسمين برأسها وهي تشير إلى النّسخة الورقيّة ذات الطّباعة الفاخرة على مكتبها:

- لقد أرسلت نسخا بريديّة إلى أعضاء اللّجنة.

تناولها دافيد باهتمام، ثمّ هتف في حماس:

- تهانينا!

ابتسمت في مزيج من الارتياح والإشفاق. ارتياح ممّا مضى وإشفاق ممّا هو آت!

- المثول أمام اللجنة خلال أيّام!

- ستكونين جاهزة، لا تخشي شيئا.

استوى على المقعد المقابل لمكتبها وسألها بلهجة جادّة:

- هل فكّرت بما بعد المناقشة؟

زفرت في إنهاك. ودّت لو أنّ بإمكانها أن تنفي، أو تنكر رحلة بحثها الطّويلة بلا فائدة.

- أفهم أنّه لا مخططات لديك بعد.. باستثناء الزّواج طبعا!

قال ذلك وهو يطلق ضحكة مرحة، ثم قال:

- لديّ عرض من أجلك.

- عرض؟

- فرصة عمل، في مركز أبحاث.

- حقا!

كانت نبرتها حذرة ومتشكّكة.

- أحد أعضاء اللجنة، صديق قديم لي.. أعلمني بوجود شغور بالمؤسّسة التي يعمل بها.. وهي مؤسّسة عريقة بالمناسبة وشديدة الانتقائيّة.. وهو مهتمّ بلقائك، بعد المناقشة بالطّبع.

- هل يعرف.. أنّني...

قاطعها دافيد على الفور:

- يعرف أنّ رسالتك مميّزة، وأنّك تحظين بدعمي وتوصيتي!

ابتسمت في امتنان، بينما وقف دافيد يهمّ بالمغادرة. استدار حين وصل عند الباب وقال:

- نسيت إخبارك، المؤسّسة تقع في مدينة «لِيلْ».

«لِيلْ»! انتابها الفتور فجأة. «لِيلْ» تبعد عن باريس أكثر من مائتي كيلو متر!

- سأفكّر بالأمر.

قالت ذلك دون حماس. مائتا كيلو متر؟! كيف تجرؤ على مفاتحة هيثم في الموضوع؟ لقد حرصت زهور على جعله يستأجر شقّة قريبة من منزل العائلة، حتّى لا تتغيّر العادات العائليّة بعد زواج الابن الأكبر.

لكنّ تلك الفرصة تعدّ نادرة ولا تفوّت بالنّسبة إليها! هل تقطع المسافة كلّ يوم ذهابا وإيابا بالقطار؟ أيّ نوع من العذاب ستعيشه

لتوفّـق بـين واجباتهـا الزوجيّـة والمهنيّـة؟ إن تحمّلتهـا المهنـة، فهـل يُـرضي ذلـك هيثـم؟

ومـاذا إن رفضـت ورضيـت أن تكـون ربّـة بيـت.. أبعـد كلّ ذلـك التّعـب والعـذاب والمحنـة، بعـد كلّ الصّعوبـات الجمّـة الـتي صارعتهـا حـتّى صرعتهـا بشـقّ الأنفـس، تعلّـق شـهادة عـلى جـدار شـقّتها وتكتفـي بذلـك؟ أيـن الرّضـا في هـذا؟

كانـت ضعيفـة أمـام تلـك الفرصـة الـتي يسـيل لعابهـا رغبـة فيهـا. وكانـت محطّمـة مـن الدّاخـل، لأنّهـا مضطـرّة للرفـض ومواصلـة الانتظـار عـلى الرّصيـف، عـلّ فرصـة خياليّـة أخـرى تطـرق أبوابهـا!

***

وقفـت ياسـمين عـلى المنصّـة. ارتجفـت أوصالهـا وهـي تجيـل بصرهـا بـين الوجـوه المألوفـة الـتي أخـذت تحـدّق بهـا. أخـذت نفسـا وأغمضـت عينيهـا لبرهـة وهـي تتظاهـر بالتّقليـب بـين أوراقهـا، تتمالـك نفسـها قبـل اللحظـة الحاسـمة.

قريبا سينتهي كل شيء.

قريبا ستصبح سنوات البحث الطويلة المضنية وراء ظهرها.

قريبا ستتجاوز تلك المرحلة التي أخذت من طاقتها ووقتها الكثير.

قريبا ستكون الشهادة ملك يدها.

قريبا جدا.

رسـمت الابتسـامة بحرفيّـة وأحاطـت لجنـة التقييـم بنظـرة شـاملة فيهـا الكثـير مـن ثقـة لا تـدري مـن أيـن اسـتمدّتها. سـيطرت عـلى ارتجـاف كفّهـا وهـي تشـبك أصابعهـا وتنحنحـت لتزيـل بحّـة علقـت بصوتهـا مـن أثـر الاضطـراب، قبـل أن ترفعـه في ثبـات مسـتعار ليصـل إلى المسـتمعين في آخـر المدرّجـات المكتظـة.

- مساء الخير جميعا.. وشكرا لحضوركم.

بعد ذلك، استرسلت في تقديم مضمون رسالتها. وفي بضع ثوان، كانت قد حلّقت بعيدا عن القاعة وغاصت في أعماق عالمها الخاصّ، ترى الحاضرين ولا تراهم. تلمح دافيد وهو يوشوش لجاره من لجنة التحكيم وتمنع نفسها من التساؤل فيم يتناقشان. تفاجأ بوجوه ضاحكة لبعض الزّملاء في الصّفوف الأخيرة وتجتهد لتحذف المشهد وتبعد عنه تركيزها.

تقرأ التّعب في سحنة والدتها التي كلفت نفسها عناء تحضير الأطباق المقدّمة في البوفيه، ووالدها الذي ركب القطار مبكّرا ذلك الصّباح من «ليون» لحضور المناسبة، وتتفادى الإذعان لطفرة عاطفية توشك على استدرار دمعها.

كان عليها أن تنهي عرضها بنفس الجدّية والثقة، ولا شيء من حولها يهمّ. ثمّ تتوقّف عند ملامح هيثم الباسمة ونظرته المشجّعة، لتحلّق من جديد وقد ازدادت ثقة وسكينة.

كانت تذكّر نفسها طيلة الوقت بأنّ الرّسالة ليست مهمّة بقدر أهميّة ما تُسفر عنه من استنتاجات وتوصيات قابلة للتّطبيق. ليست الشّهادة مطلبا في ذاتها، بل المعرفة التي حازتها بعد خوضها تلك الرّحلة الشّائكة!

لا تزال ردود الفعل التي تلاقيها في شتّى المناسبات والمنتديات البحثيّة تثير سخريتها.. هل جنّت لتُقبِل على رسالة موضوعها الانتحار؟! لكنّها مضت إلى النّهاية، رغم الآلام الممضّة والكوابيس المقضّة التي تلازمها بعد كلّ «حالة» تابعتها. لقد أثبتت لنفسها قبل الآخرين أنّها قادرة على التّحمّل، وأنّها أصلب ممّا يوحي به مظهرها الرّقيق الهشّ.. وأنّ تلك الفتاة التي أغمي عليها بعد الحادثة الأولى لن تبقى ضعيفة إلى الأبد!

مرّ بذاكرتها شريط سريع للسّنوات الأربع الماضية، بلحظاتها الحلوة والمرّة، بأزماتها وإخفاقاتها وتحدّياتها.. وأحلامها وإنجازاتها وانتصاراتها. تلك الرّسالة لم تكن مجرّد دراسة على الورق.. لقد كانت تجربة متخمة بالمشاعر، غنيّة بالمواقف، وقد استحقّت أن تقف على هذه المنصّة أخيرا.. لتلخّص في كلمات مختصرة ومعبّرة في آن ما عنته لها تلك الرّحلة

الثريّـة.

- يجـب أن نـدرك أنّ مقـرّ العمـل هـو المسـؤول الأوّل دائمـا عـن الصحّـة الجسـديّة والنفسـيّة لموظفيـه.. المؤسسـة التشـغيليّة هـي مـكان للتواصـل الاجتماعـي والحصـول عـلى الدّعـم والشـحن بالطاقـة الإيجابيّـة للأشـخاص الذيـن يعانـون مـن ضيـق وكـرب، بمـا في ذلـك في حياتهـم الخاصّـة! وإذا حصـل العكـس، فيجـب أن يسـائل المسـؤولون أنفسـهم.. مـا الـذي قمنـا بـه بشـكل خاطـئ؟

تنهّدت. لقد انتهى الأمر.

تعـالى التصفيـق في أرجـاء القاعـة في حـين تجمّعـت عـبرات الارتيـاح في عينيهـا. أمسـكتها عـن الهطـول. ليـس بعـد. مـا زالـت هنـاك أسـئلة لجنـة التحكيـم.

***

- كنت رائعة!

- تهانينا.

- بحث موفق!

وزعـت الابتسـامات في جـذل وهـي تتلقـى عبـارات التهنئـة. تحـسّ بخـدر في حواسـها وخمـول في أطرافهـا بعـد انتهـاء جلسـة الاسـتماع الـتي دامـت سـاعة ونصـف السـاعة، تلتهـا نصـف سـاعة إضافيـة في انتظـار قـرار لجنـة التحكيـم. تقدّمـت أفـواج المهنّئـين مـن زمـلاء وأسـاتذة وأصدقـاء وأفـراد عائلـة إلى القاعـة المخصّصـة للاحتفـال وهـي تتوسّـطهم مثـل فراشـة منطلقـة لا يسـع العالـم سـعادتها.

- من هنا أرجوكم.

وقفـت ميسـاء برفقـة سـكينة عـلى رأس المائـدة، تقدّمـان خدمـة البوفيـه، بينمـا انتصبـت فاطمـة وزهـور عنـد مدخـل القاعـة تسـتقبلان المهنّئـين، كأنّمـا همـا تتدرّبـان عـلى سـيناريو حفـل الزّفـاف القريـب!

كانت فاطمة قد أحضرت في حقيبتها أطنانا من الحلويات التونسية وانشغلت برفقة سكينة على امتداد اليومين الماضيين بتحضير أصناف المعجّنات، لإمتاع ذائقة الحضور المخضرمين، من تونسيّين مغتربين تفصلهم سنوات عن آخر وجبة تقليديّة أصليّة، وسائحين قدامى تربطهم بأرض الفينيقيين ذكريات عطلة ما بطعم البقلاوة شديدة الحلاوة وكعك اللوز قليل السّكر.

بدا أنّ المأكولات التي نسقت على طاولة البوفيه بشكل جذّاب لم تترك مساحة كافية في حقيبة سفرها حتى لحاجياتها الشخصية القليلة. وكانت تلك كلّ متعتها، أن تضفي لمسة أمومة على حفل ابنتها الوحيدة.

- الآن وقد انتهى كلّ هذا، سنتفرّغ لحفل الزّفاف.

كانت زهور تغمز ابنها وهي تمسك بكفّ ياسمين من جهة وتحتضن كتف صديقة عمرها فاطمة من جهة أخرى. التّحصيل العلميّ مهمّ، نعم. لكنّه لم يكن يوما على لائحة أولويات زهور ومثيلاتها من الأمّهات العريقات في التقاليد. كان تعليم ياسمين الجامعي كافيا جدّا، فما حاجتها للدّكتوراه؟! أوليس مكان المرأة في نهاية الأمر بيت زوجها ومهمّتها الأسمى تربية الأولاد والعناية بعشّها؟ لم تصدّق أنّ العقبة التي فرضتها ياسمين في سبيل إتمام مشروع الزّواج قد انزاحت أخيرا.

ابتسم هيثم أمام التهاب وجنتي ياسمين، بينما تابعت زهور مخاطبة فاطمة:

- لم أرد مضايقتك وأنا أعلم مدى انشغالك بالتّحضير لأمسية اليوم.. طالما أنّك وياسمين متفرّغتان الآن، سنتحدّث بالتّفاصيل على العشاء.

أومأت فاطمة توافقها، ثمّ انسجمتا في حديث جانبيّ.

- أخيرا تمكّنت من المجيء!

استدار هيثم ليستقبل عمر في حفاوة، ثمّ قال عمر موجّها كلماته إلى ياسمين:

- تهانيّ الحارّة! أعتذر منك جدّا.. لم أستطع التفرّغ قبل هذا الوقت.. ثمّ تهت في ممرّات الجامعة حتّى بلغت الموقع.. أظنني فوّتُّ الأهمّ!

ابتسمت ياسمين مهوّنة، ثمّ أشارت في حركة مازحة إلى البوفيه:

- بالنسبة إلى أمي وخالتي زهور أظنّك وصلت في الوقت المناسب!

رغم الاهتمام الذي حاولت السيّدتان إبداءه، فإنّ مللهما الواضح قد افتضح من خلال وشوشاتهما المطوّلة خلال عرضها. لا يمكنها أن تلومهما. فلطالما كانت المحاضرات والخطابات التي تتجاوز مدّتها ربع السّاعة مصدر ملل لها هي نفسها. أما الاجتماعات المفتوحة حول أكلة خفيفة ودردشة أخف، لم تكن لتثير ملل أحد...

- أنا أيضا وصلت!

- رانيا، يا إلهي! ماذا فعلت بشعرك؟

لفّت رانيا حول نفسها في حركة استعراضية لتهب ياسمين صورة أشمل. كانت قد استغلّت غياب شقيقتها الكبرى لتمنح نفسها شكلا جديدا، جذابا وأنيقا. كان الشعر الكستنائي المجعّد الذي يصل إلى نصف الظهر قد ترك مكانه لخصلات ناعمة شقراء قصيرة لا تكاد تلامس العنق.

- ما رأيك؟ هل يناسبني؟

همست ياسمين في جدّية:

- هذه القصّة أكبر من سنّك. رنيم لن تكون مسرورة أبدا!

لكنّها سرعان ما تغاضت عن تأنيبها واستدارت تقدّمها لهيثم ووالدته:

- هذه رانيا شقيقة رنيم.

انتبهت رانيا إلى الرّجل الواقف جوار هيثم. هتفت غير مصدّقة:

- يا إلهي، أنت الدّكتور عمر الرّشيدي! أنت تماما كما على التلفاز!

حاولت أن تبدو أكثر نضجا وهي تقدّم نفسها هذه المرّة:

- أنا رانيا، شقيقة رنيم.. رأيتكما في البرنامج التلفزي، «الحقيقة الكاملة».

تهانينا لبراءتك.

- أهلا بك.. وشكرا.

- أصبحت مشهورا الآن!

داعبه هيثم بقوله متضاحكا، في حين ابتسم عمر في حرج ولم يعلّق. استطردت رانيا محاولة الاستحواذ على انتباهه:

- رنيم ليست هنا.. لقد سافرت في مهمّة عمل.

هزّ عمر رأسه في صمت. خمّن أنّها قد غادرت برفقة ديانا إلى الجزائر، بينما واصلت رانيا في فضول:

- لم أكن أعلم أنّك على معرفة بياسمين أيضا.. بالمناسبة أنا أشاركهما السّكن الآن.

- آه.. هذا جيّد.

ضايقتها لا مبالاته. لم يكن مهتمّا أو متجاوبا مع حديثها. لكنّها بدت مصرّة على استدراجه.. كانت الخطّة واضحة في رأسها. ستبعد رنيم عن شهاب، وعمر وسيلتها المثالية!

- رنيم تتحدّث عنك كثيرا!

ابتسم في لباقة وقال دون حماس:

- آه.. هل تفعل حقّا؟

- دكتور عمر.. ما الذي تفعله هنا؟

قاطعهما سامي كلود وهو يصافح عمر بحرارة. تراجعت رانيا في ضيق، بينما تساءل هيثم في دهشة:

- أنتما على معرفة سابقة؟

ضحك عمر وقال:

- إنّها قصّة طويلة.. لنقل أنّنا زملاء في مجال الكيمياء! لكنّني لم أتوقّع لقاءه في هذا المكان.. كان آخر عهدي به قاعة المحكمة حين شهد

البروفيســور في قضيّــتي.

تولّى هيثم التقديم:

- البروفيسور سامي، والد ياسمين!

- حقًّا؟ فرصة سعيدة يا سيّدي!

ضحك سامي ثمّ سأله مداعبا:

- وأنت كيف وصلت إلى هنا؟

- هيثم صديق مقرّب.

- آها.

اكتفـى بذلـك القـدر، ورأى مـن الحكمـة ألّا يشـير إلى معرفتـه بياسـمين. تصافـح الرّجـلان مـرّة أخـرى، وقـد علـت ملامـح عمـر الدّهشـة. كانـت مصادفـة لا تُصـدّق. تبـادل ثلاثتهـم بعـض المجامـلات اللّبقـة قبـل أن يهمـس سـامي إلى عمـر:

- هل يمكن أن أتحدّث إليك على انفراد؟

أومـأ عمـر دون تـردّد، وتبـع البروفيسـور إلى الممـرّ خـارج القاعـة، بعيـدا عـن ضوضـاء المدعويّـن.

- هل تواصل العمل على مشروعك؟

- أحـاول أن أفعـل.. لقـد ابتعـدت عـن المختـبر لوقـت طويـل، لكنّـني أنـوي الاستئناف في القريـب.

- تعلـم أنّـني متحمّـس جـدًّا لأبحاثـك، إن احتجـت أيّ مسـاعدة، فأنـا في الخدمـة.. وإن رأيـت أن نتعـاون في أعمـال مشـتركة في المسـتقبل، فسـيكون هـذا مـن دواعـي سروري.

ردّ عمر في لباقة:

- أشـكر كثـيرا اهتمامـك.. لكنّـني أفكّـر في إقامـة مختـبر خـاصّ. أنـت تعلـم، لقـد سـئمت مـن العمـل لـدى الآخريـن.. لا أريـد للمفاجـآت الكريهـة أن

تتكـرّر!

ابتسم في مرارة مسترجعا تجربته القاسية. لكنّ سامي قال في حذر:

- أعلـم أنّـك مفعـم بالحمـاس.. لكـنّ الأمـر ليـس بهـذه السّـهولة. هـل تقدّمـت بطلـب إنشـاء المختـبر؟

- نعم.. منذ شهرين تقريبا.

- هل جاءك ردّ؟

- ليس بعد.

- ولـن يـأتي في القريـب! سـيماطلون.. وحـين تقصـد الـوزارة للاستفسـار، سيطلبون وثائـق إضافيّـة.. والمزيـد مـن الوثائـق في كلّ مـرّة.. سـتكون هنـاك وثيقـة ناقصـة، مهمـا تفانيـت في توفـير مـا يطلبـون!

عبـس عمـر في انزعـاج. لقـد تأخّـر عـن المناقشـة لأنّـه أمـضى السّـاعتين الماضيتـين في شـجار مـع موظّفـي وزارة الصّناعـة، بعـد أن ادّعـى الموظّـف ضيـاع ملفّـه! كان عليـه أن يعيـد اسـتخراج الوثائـق مـن الصّفـر، لأنّ الملـف اختفـى مـن مكتـب الموظّـف فجـأة وبـلا تبريـرات. لقـد حسـب الأمـر حادثـة مـا.. لـم يعتقـد البتّـة أن يكـون مسـتهدفا! حتّى وهـو يسـتمع إلى البروفيسـور سـامي، لـم يشـأ أن يصـدّق. هـل يمكـن أن يصـل بهـم التّآمـر إلى تلـك الدّرجـة؟

بينما واصل سامي:

- هل تقدّمت بطلب الجنسيّة الفرنسيّة؟

- لا، لم أفعل.

- إذن افعل في أقرب فرصة.. وحين تفعل، فكّر في تغيير اسمك بالمرّة.

رفع عمر حاجبيه في ضيق.

- لا تهتـمّ بمـا يقولـه الآخـرون وبأحكامهـم المسـبقة.. فكّـر في نفسـك وفي مختـبرك. حـين تنجـح سـينحنون أمامـك احترامـا.. إنّـه مجـرّد اسـم في هويّتـك

الفرنسيّة، لكنّه سيفتح أمامك الأبواب المغلقة! ستبقى عمر في حياتك العاديّة، بين أصحابك وأفراد عائلتك، وستكون كما يريدون لك أن تكون على الورق، لتحظى بالفرص التي تستحقّها!

ابتسم عمر وهو يكتم سخريته، ثمّ تجرّأ على السّؤال:

- هل هذا ما فعلته أنت.. بروفيسور كلود؟

ابتسم مداريا تشنّجه وقال:

- لست نادما على تغيير اسمي.. لكنّ لو عاد الزّمن بي إلى الوراء لاخترت اسم عائلة آخر، غير اسم زوجتي السّابقة!

ثمّ ضحك في صخب، قبل أن يضيف:

- فكّر جيّدا بما قلته.. لقد أسديت لك النّصيحة بإخلاص، لأنّني أتمنّى لك النّجاح.. ولا تنس، اطرق بابي إذا احتجت أيّ شيء!

صافحه عمر شاكرا، ثمّ شيّعه بنظرات ذاهلة. هل يعقل أن يكون هذا والد ياسمين؟

***

حين عادت ياسمين من جولتها حول البوفيه، كانت فاطمة وزهور قد ابتعدتا وانضمّ والدها إلى دافيد وهيثم في نقاش سياسيّ محتدم. رغم النّضج الظّاهر في علاقة الطّليقين، إلا أنّ كليهما يتجنّب التواجد بجوار الآخر قدر الإمكان. فالجروح القديمة قد تلتئم، لكنّها تترك علامات شائهة يصعب تجاهلها رغم مرور الوقت.

بادرها والدها ما إن لمحها مقبلة:

- والآن ماذا ستفعلين؟

- لست أدري بعد.

- هل يُعقل هذا؟ كان يجب أن تشرعي في البحث منذ شهور!

تمتمت ياسمين في حرج:

- فعلت.. ولكن...

تدخّل دافيد على الفور:

- والآن يا دكتورة، هل حسمت أمرك بشأن العرض؟

- آه، هناك عرض إذن!

غمر الارتياح ملامح سامي، وهو يرنو إلى دافيد في اهتمام، في حين امتقعت ملامح هيثم الذي كان يتابع الحديث ملتزما الصّمت. واصل سامي في حماس:

- كنت متأكدًا من وجود عرض ما.. هذا عهدي بمشرفي البحوث المميّزين، لا يتركون طلابهم يواجهون مصيرهم دون مساندة.

- لا تضغط عليّ أكثر يا بروفيسور.. لقد فعلت ما بوسعي، والرّأي لابنتك في نهاية الأمر.

تدخّلت ياسمين وهي تلمح هيثم بنظرة مرتبكة:

- المشكلة أن الوظيفة في مدينة «ليل».

- وماذا في ذلك؟

- ستكون ظروف العمل متطلّبة والتّنقل بين باريس وليل مرهقا.

- هذا طبيعي يا عزيزتي.. هذا مستقبلك وسيستلزم منك بعض التّضحيات في البداية. كلّ الدّكاترة الجدد يضطرون إلى قبول وظائف بعيدة عن عائلاتهم لسنة أو سنتين حتى يكتسبوا تجربة كافية ويتسنّى لهم المنافسة على الوظائف الأفضل.. لا تكوني قصيرة النظر فتفقدي وظيفة مميّزة.

- أخبرها يا بروفيسور! هذا ما أحاول إقناعها به منذ أسابيع!

ابتسمت ياسمين دون أن تعلّق وقد اجتمع ضدّها والدها ومشرفها. كانت تقدّر رأي كلّ منهما فيما يخصّ المسائل المهنيّة وتدرك أنّهما يملكان معا ما يكفي من التجربة ليفيداها بخلاصة ما ينبغي الإلمام

بـه. وهـا همـا معـا يؤكـدّان أنّ عليهـا القبـول حـتّى لا تتجمّـد مسـيرتها المهنيّـة الـتي لـم تبـدأ بعـد.

- سأفكّر بالأمر.

نطقـت بتلـك الكلمـات ثـمّ رنـت إلى هيثـم، فانقبـض صدرهـا. كانـت ملامحـه جامـدة بشـكل مخيـف. كان عليهـا أن تشـاوره بشـأن العـرض.. لكنّهـا لـن تفعـل أمـام والدهـا. استقلاليّة الـرّأي وخصوصيّـة المشـروع المهـنيّ وبنـاء مسـار شـخصيّ محـترف، كلّهـا مصطلحـات تـدري كـم يقدّسـها. تحفـظ عبارتـه الأثـيرة: «لا تدعـي أحـدا يفسـد عليـك مسـتقبلك. سـينتهي بـك الأمـر إلى الحقـد عليـه». هربـت بنظراتهـا حـتّى لا تواجـه أحدهمـا. لكنّهـا لـم تـدرك فداحـة خطئهـا إلّا حـين انسـحب هيثـم دون أن ينطـق بكلمـة واحـدة تعليقـا عـلى الحـوار الـذي دار أمامـه.

زفـرت في ضيـق.. ثـمّ اعتـذرت مـن والدهـا ومشـرفها لتلحـق بـه. حثّـت الخطـى وهـي تتلفّـت حولهـا مفتّشـة عنـه، لكنّهـا لـم تجـد لـه أثـرا. تسـارعت نبضاتهـا في ذعـر. هـل يكـون قـد انـصرف مغاضبـا؟ لامـت نفسـها. كان يجـب أن تشـاوره في مسـألة عملهـا قبـل ذلـك. لمـاذا انتظـرت اللحظـة الأخـيرة؟

لطالمـا كانـت أولويّاتهـا محـدّدة وواضحـة. العائلـة أوّلا. قناعـة تغذّيهـا بداخلهـا بـكلّ مـا أوتيـت مـن قـوّة، رغـم مرارتهـا الموروثـة وتاريـخ عائلتهـا المناقـض. تحتفـظ بأمـل وليـد بـأن مصيرهـا مـع هيثـم سـيكون مختلفـا. لكـن مـاذا عـن مسـتقبلها المهـنيّ؟ هـل درسـت كلّ هـذه السـنوات لتسـتلم شـهادة تزيّـن بهـا الجـدار وتقبـع في المـنزل؟ كان عليهـا المحاولـة. هيثـم نفسـه لـن يـرضى لهـا الاستسـلام. ألـم يردهـا لشـخصيّتها المقاتلـة؟

لكـنّ ذلـك الموضـوع ظـلّ معلّقـا. لـم يسـألها صراحـة مـا الـذي تنـوي فعلـه بعـد الدّكتـوراه.. وزهـور لـم تتوقّـف مـن التّصريـح والتّلميـح بأنّهـا لـن تضطـرّ إلى العمـل بعـد الانتهـاء مـن الرّسـالة! لقـد أخطـأت، لكنّهـا خشـيت أن يثـير النّقـاش توتّرهـا. حسـبت أنّهـا تجنّـب نفسـها الصّـدام، حـتّى تفـرغ مـن رسـالتها. لكـنّ الوقـت تأخّـر كثـيرا.. والآن بـات الصّـدام وشـيكا!

تنفّست الصّعداء حين لمحته يقف خارج القاعة، إلى جوار عمر. تقدّمت نحوهما في حرج وقالت مستأذنة:

- هل يمكن أن نتحدّث قليلا؟

أشاح هيثم بوجهه وقال في جفاء بيّن:

- اهتمّي بضيوفك الآن.. سنتحدّث لاحقا.

تردّدت لبرهة. لم يكن من الحكمة الإصرار.. خاصّة أمام عمر. أطرقت في ضيق، ثمّ تراجعت إلى داخل القاعة. طالع عمر سحنة هيثم التي علاها الكدر، ثمّ تساءل في اهتمام:

- هل هناك ما يضايقك؟

زفر هيثم في إعياء ولم يردّ، واستمرّت أصابعه تعبث بالمنديل الورقيّ في كفّه في عصبيّة واضحة، فتابع عمر:

- أيّا ما كانت المسألة، فيمكنها الانتظار.. لا تعكّر صفو اللّيلة.. هذا يومها، واحتفالها، فلا تفسد الأمر!

زفر هيثم من جديد، وابتسم رغم ضيقه وهو يقول:

- أنت على حقّ.. يمكنها أن تنتظر.

***

غادر المدعوّون والمهنّئون، ثمّ اجتمعت العائلة في منزل زهور من أجل العشاء. اعتذر سامي عن الانضمام رغم إصرار عبد الحميد، وتنفّست فاطمة الصّعداء حين خلت القاعة من «الغرباء»!

تفانت زهور في إعداد وجبة تليق بالمناسبة، لكنّ الجميع كان متخما بالأصناف التي قدّمت في البوفيه. استمرّت الدّردشة حول المائدة لبرهة، بين زهور وفاطمة غالبا، بينما بدا هيثم وياسمين صامتين بشكل مريب. أخيرا، اعتذرت فاطمة لإعيائها من الحفل وترتيباته طيلة الأيّام السّابقة، وتواعدت وزهور على لقاء قريب للمزيد من التّخطيط.

رافقهما هيثم في سيّارته إلى الشّقة مثل كلّ مرّة. كان يحاول الالتزام بنصيحة عمر، بعدم تعكير صفو اللّيلة، لكنّه لم يقدر على تجاهل الكدر الذي يثقل صدره، فآثر الصّمت.

حالما خطت فاطمة إلى داخل الغرفة، التفتت إلى ياسمين وهتفت بتحفّز:

- والآن، ستخبرينني.. ما الذي حصل بينك وبين هيثم؟ هل تشاجرتما؟

زفرت ياسمين، وهي ترتمي على سريرها وقالت في ضيق:



- ليتنا فعلنا!

هبّت فاطمة في هلع:

- ماذا تقصدين؟

- لقد رفض الحديث إليّ!

- بشأن ماذا؟

سردت ياسمين على مسامعها تفاصيل الحوار الذي دار ذلك المساء بين والدها ومشرفها، فجزّت فاطمة على أسنانها وهي تقول في غيظ:

- آه منك يا كمال، آه! تريد أن تفسد البنيّة على زوجها!

اعترضت ياسمين بحرارة:

- لم يقل عيبا! لقد تغرّبت وأنفقت سنوات حتّى أنهيت الرّسالة، فهل يعقل بعد هذا أن أجلس مكتوفة اليدين، وأضحّي بمستقبلي المهني؟

بهتت فاطمة وانعقد لسانها لبرهة. لم تحسب أنها ستسمع يوما تلك الكلمات على لسان ياسمين، ابنتها المطيعة والهادئة والرّصينة! الحصول على شهادة الدّكتوراه مدعاة للفخر بالتّأكيد، لكنّ هدفها الأوّل من إرسال ياسمين إلى فرنسا كان زواجها وهيثم! أمّا الرّسالة والدّكتوراه فإنجاز جانبيّ وثانويّ في نظرها.

- ألم نتّفق أنّ مصير المرأة أن تقرّ في بيتها؟ ما العيب في حصولك على

الشهادة، بل كلّ شهادات الدّنيا، ثمّ التفرّغ لبيتك وأطفالك؟

- نعم، أقدّر كلّ ذلك.. لكنّني أصبو إلى إحداث تغيير أعمق في المجتمع.. أن أكون فاعلا، لا مفعولا به! لقد عشت يا أمّي تجربة لا تصدّق.. لقد رأيت أشخاصا يلقون بأنفسهم إلى الموت، وقد عملت على بحث قد يغيّر مصيرهم، ينقذهم من براثن اليأس، ويهبهم حياة أفضل! لقد جرّبت أن أكون إنسانا مؤثرا.. وأنا أحبّ هذا، ولست مستعدّة للتخلّي عن هذا المسار!

أطرقت فاطمة في ذهول، ثمّ قالت:

- لكنّ هذا يعني التّضحية باستقرارك العائليّ!

- لقد ضحّيتِ أنت بمستقبلك المهنيّ، فهل أنقذ ذلك استقرارك العائليّ؟

صدمت فاطمة. لم تتوقّع أن تعايرها ابنتها يوما بفشل زواجها! امتقع وجهها وهي تقول في دفاع:

- لقد فعلت ما رأيته مناسبا، ولست أندم! لقد ربّيتك ورعيتك وتفرّغت لك.. حتّى أفرح بك، لا كي أستمع إلى وعظك وتقريعك!

سارعت ياسمين تحتضنها وهي تقول في اعتذار:

- لم أقصد أن أجرحك.. لكنّني لا أريد أن أكون نسخة مكرّرة منك يا أمّي! لا أريد أن أختصر حياتي في الدّوران في فلك الزّوج والأطفال.. فحتّى إذا خلا البيت منهم ألفيت نفسي وحيدة!

ارتجفت فاطمة. لقد كانت تعاني الوحدة بالفعل، مذ أسلمت وحيدتها إلى الغربة.. لكنّها لم تعترف بضعفها أبدا. لم تخل سريرتها مكشوفة لابنتها إلى تلك الدّرجة!

ارتفع رنين هاتف ياسمين فجأة. تطلّعت إلى الشّاشة، ثمّ ردّت على الفور.

- ياسمين.. هل يمكن أن نتحدّث؟

- لحظة واحدة.

غـادرت إلى الشّرفـة، لتحظـى ببعـض الخصوصيّـة. وقفـت في الظّـلام، وأخـذت نفسـا عميقـا، تسـتعدّ للمواجهـة.

- نعم.. أنا أسمعك.

لـم يكـن هيثـم قـد انصرف بعـد أن أوصلهمـا عنـد البنايـة. لبـث في مكانـه، متفكّـرا. غـادر السيّارة، ودار حولهـا مـرّات ومـرّات.. لكنّـه لـم يتمكّـن مـن صرف تفكـيره عـن الأمـر. كان لا بـدّ مـن المواجهـة.. اليـوم!

كان جلّ ما حزّ في نفسه تجاهـل الجميع لوجوده في ذلـك الحوار: ياسمين ووالدهـا ومشرفهـا.. لـم يـدر بخلـد أحدهـم أنّـه طـرف معنيّ بالقـرار! لقـد كان هنـاك، واقفـا بينهـم، لكنّـه بشـكل مـا شـفّاف لا يُـرى! كان يكفيـه أن تلتفـت إليـه وتقـول جملـة واحـدة: هيثـم، مـا رأيـك؟ لكنّهـا لـم تفعـل!

لـم تكـن فكـرة عملهـا تضايقـه بشـكل خـاصّ. يعلـم كـم تحـبّ مهنتهـا، وكـم تفانـت في بحثهـا. كان يُـدرك أنّهـا بالتّأكيـد ستسـعى إلى المضيّ قدمـا.. لكنّهـا لـم تقـل ذلـك صراحـة. وهـو لـم يشـأ أن يوتّرهـا بالحديـث عمّـا بعـد الدّكتـوراه. في الحقيقـة اعتقـد أنّهـا قـد تؤجّـل البحـث عـن عمـل إلى مـا بعـد الزّفـاف!

رفـع عينيـه إلى البنايـة حـين تسـلّل نـور باهـت مـن بـاب مـوارب، فلمـح شـبحها يظهـر في شرفـة الشّـقة في الطابـق الرّابـع. حـاول الحفـاظ عـلى هـدوء صوتـه وهـو يقـول:

- لماذا لم تخبريني؟

جاءه ردّها بسرعة:

- لأنّـني نويـت الرّفـض! لقـد صرفـت النّظـر عـن العـرض تمامـا، ولـم أفكّـر فيـه عـلى الإطـلاق في الفـترة الماضيـة.. قبـل أن يعيـد دافيـد إثـارة الموضـوع اليـوم!

ارتبكـت الحـروف عـلى لسـانه. لـم يكـن ذلـك مسـار الحديـث الـذي توقّعـه. لكنّـه شعر بالارتيـاح. لـم تكـن تنـوي تحدّيـه أو تخطّيـه. تلاشـت كلّ

هواجسه على الفور، ووجد نفسه يسألها باهتمام:

- لماذا؟

- لأنّ الوظيفة في «ليل».. ولا أحسبني سأتحمّل السّفر اليوميّ الطّويل!

وكأنّ كلماتها كانت بلسما لجراح كرامته التي التأمت في التوّ واللّحظة. قال يجسّ نبضها:

- وهل كانت الوظيفة لتهمّك، لو كان موقعها قريبا؟

تنهّدت. لقد كتمت عن الجميع خيباتها المتكرّرة، حتّى عنه.. لكنّ كأسها أترعت وفاضت وقد غدت تواجه شبح البطالة بيدين عاريتين.

- لقد أجريت المقابلات إثر المقابلات.. لكنّ الفرص شحيحة لمن هي في مثل وضعي.

أدرك ما ترمي إليه. تمهّل لحظات، يدرس اقتراحا مفاجئا لم يخطر له ببالٍ قبل:

- وماذا لو انتقلنا للإقامة في «ليل»؟

- ننتقل إلى «ليل»؟ وماذا عن عملك؟

قال ببساطة:

- أسافر أنا إلى باريس كلّ يوم.. أو أعمل عن بعد.. أو أبحث عن وظيفة أخرى في «ليل».. سنجد حلّا!

شعر بالرّجفة في صوتها، تأثّرا وفرحا.

- هل أنت جادّ؟

ابتسم في رضا، وهو يطالع شبحها في الشّرفة المظلمة. تمنّى لو يرى عينيها، وملامحها التي طغى عليها البِشر.

- كلّ الجدّ.

- ماذا عن الشّقة التي استأجرتها؟

- نستأجر غيرها في «ليل».

- خالتي زهور.. لن يسرّها الأمر. ستحسبني أحاول سرقتك منها!

- أولستِ قد فعلت وانتهى الأمر؟!

ابتسم حيال صمتها المحرج، ثمّ أضاف:

- ستتفهّم الأمر.. وحتّى إن لم تفعل، ستقدّر. هذه حياتنا.. أنا وأنت.

استمرّ الصّمت من جهتها. لولا أنّه كان يراها ماثلة أمام عينيه في الشّرفة لحسب مكروها أصابها.

- ياسمين.. هل تسمعينني؟

- نعم.

أدرك مدى حرجها، فقرّر إنهاء الاتّصال.

- لا تخفي عنّي شيئا بعد الآن.. هل اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

- تصبحين على خير إذن.. سنتحدّث في التّفاصيل مرّة أخرى.

- وأنت من أهل الخير.

أنهت الاتّصال وقد توردت وجنتاها ودمعت عيناها. ظلّت واقفة في الشّرفة لبعض الوقت، وطبول صدرها تدقّ بعنف. يلفّها إحساس دافئ بالطمأنينة. هل هذا ما يسمّونه مودّة ورحمة.. أم هو غير ذلك؟

همست لنفسها في سعادة:

- هيثم.. كم أنا محظوظة بك!

وصلـت رانيـا إلى مبـنى جامعـة باريـس ديـدرو قبـل موعـد حصّتهـا الصّباحيّـة بوقـت كافٍ. تسـكّعت لبضـع دقائـق عـبر السّـاحة المبلّطـة، ثـمّ قادتهـا قدماهـا إلى درج لولـيّ يـؤدّي إلى المكتبـة القابعـة في الطابـق الأوّل.

تمشّـت ببطء بـين رفـوف الكتـب وهـي تحـاول فـكّ شـيفرات العناويـن الفرنسـيّة الـتي لـم تكـن مألوفـة لديهـا بعـد. مارسـت تلـك اللعبـة لدقائـق إضافيّـة قبـل أن يصيبهـا الملل. تناولـت قاموسـا إنجليزيـا - فرنسـيا وجلسـت إلى أقـرب طاولـة. زفـرت وهـي تـشرع في تصفّـح المجلـد الضخـم. لا تـدري مـن أن تبـدأ. لـم تكـن جـادّة حـتّى ذلـك الوقـت في تعلّـم الفرنسـيّة، مـع أنّـه هدفهـا الرّئيـسي مـن المكـوث في باريـس. لـم تنتظـم في دروسـها بالشـكل المطلـوب واكتفـت بمتابعـة موقـع الـدّروس الإلكـتروني بشـكل متقطّـع. كان عليهـا أن تحـدّ مـن اللّهـو وتركّـز عـلى التّعلّـم. لكـنّ نزعـة داخليّـة جامحـة كانـت تتغلّـب عـلى كل محاولاتهـا العابثـة وتدفعهـا إلى مزيـد التّسـلية عـلى حسـاب مسـتقبلها.

رفعـت رأسـها عـن الكتـاب وجالـت بنظراتهـا عـبر القاعـة الفسـيحة الـتي تناثـر عـلى طاولاتهـا بعـض الطـلاب المبكّريـن أمثالهـا. سرحـت للحظـات. لـم تكـن تتحمّـل التفكـير الجـادّ لوقـت طويـل، إلا إذا تعلّـق الأمـر بتسـلية مـا.

توقّفـت عيناهـا عنـد الشّـاب الجالـس عـلى بعـد طاولتـين مـن موقعهـا. تأمّلـت ملامحـه المنهمكـة لبرهـة وكأنّ شـيئا غريبـا فيهـا يجذبهـا. هـل كانـت ملامحـه العربيّـة هـي الـتي شـدّتها؟ لـم تكـن واثقـة. لمحتـه يرفـع رأسـه عـن أوراقـه فأشـاحت بوجههـا بسرعـة قبـل أن يضبطهـا تتأمّلـه. عـادت إلى القامـوس وقـرأت فيـه بضـع كلمـات مصحوبـة بترجمتهـا.

فجـأة، رفعـت رأسـها وعـادت لتحـدّق في الشّـاب مـن جديـد. تذكّـرت. لقـد

رأت وجهه قبل ذلك في مكان ما.

الرّسم!

كان الرّسم الذي لمحته بين أوراق رنيم يحاكي وجه الشاب الماثل أمامها، عدا قصّة الشعر والقرط المتدلي من أذنه اليسرى.

لم يدم تفكيرها طويلا قبل أن تخطر ببالها تسلية جديدة. تصفّحت القاموس بسرعة وأخذت تدوّن الكلمات المطلوبة على قصاصة ورق. رفعت الورقة أمامها وقرأت الجملة الفرنسيّة التي خطّتها بصوت منخفض. أعادت قراءتها مرّتين لتحفظها، ثمّ غادرت مكانها. وقفت أمام طاولة الشاب. تنحنحت. ما إن رفع نظراته إليها حتّى قالت في ثقة:

- عائلتك تبحث عنك.

- عفوا؟

كرّرت بنفس اللهجة الثابتة بفرنسيّة شبه مستقيمة:

- عائلتك تبحث عنك.

- عائلتي؟ هنا في الجامعة؟

سكتت للحظات تفكّر. «عائلة» و«جامعة» كانت كلمات مفهومة بالنسبة إليها، لكن ترتيب جملة صحيحة للردّ كانت مسألة أخرى.

- هل أنت موظّفة استقبال؟

غدت المهمّة أصعب مع التّركيب المعقّد لجملته الثانية. أشارت إليه بكفّها أن ينتظر وهرولت إلى طاولتها. فتحت القاموس من جديد وعادت لتبحث عن ترجمة كلمات لردّها. رجعت إليه بعد دقيقتين وبيدها القصاصة. قرأت:

- أمّك تبحث عنك منذ عشر سنوات. أنت ضائع.

رمقها في حذر كمن يواجه مجنونا وقال في سخرية:

- أنا لست ضائعا. أظنك أخطأت الشخص يا آنسة.

زوت ما بين حاجبيها محاولة استيعاب كلماته السّريعة التي تفوق قدرة فهمها المحدودة للغة. ظنت أنها قد استشفت المعنى بشكل تقريبي فهرولت من جديد نحو طاولتها. انتظر في صبر دقيقتين إضافيتين حتّى عادت تحمل ردّا آخر:

- أنت تشبه كثيرا رسما لطفل فُقد منذ عشر سنوات. ظننتك هو.

ثمّ ابتسمت في اعتذار وانسحبت بهدوء وهي لا تكاد تشعر بالحرج، بل بالمتعة التي حملتها تجربة اللغة القصيرة تلك. جمعت أوراقها وأعادت القاموس إلى مكانه على الرّف ثمّ غادرت المكتبة. ألقت نظرة على ساعتها ثمّ حثّت الخطى باتّجاه قاعة درسها.

فكّرت وهي في طريقها في شيء من الحيرة. تعلم أنّ الرّسم الذي بحوزة رنيم مجرّد تصور تقريبيّ لشكل الفتى، لكنّه بدا في غاية الشّبه بشاب المكتبة.

هل يعقل أن يتشابه شخصان إلى هذه الدّرجة؟!

***

ألقى هيثم نظرة حذرة على الوجوه المحيطة بالمائدة والمقبلة على وجبة العشاء بشهيّة، وقد انطلقت الألسن في أحاديث لذيذة. كان الشغل الشاغل للكلّ في هذه الآونة: حفل الزّفاف المرتقب!

- هل تفقّدت الشّقّة اليوم؟ طلبت من حارس العمارة تثبيت السّتائر...

كانت زهور مهتمّة بالشّقّة بشكل خاصّ. تكاد تفرّغ نفسها من أجل ترتيبها وتنظيفها باستمرار. تنحنح في توتّر، ثمّ قال:

- لا داعي لذلك الآن.

- لماذا؟ هل تريد أن يدخل أهل زوجتك شقّتك ليجدوا جدرانها عارية؟!

فاطمة صديقة عمرها وأقرب إليها من الشّقيقة، لكن حين يتعلّق الأمر ب«الأصول» والشكليّات الخاصّة بطقوس التّعامل مع الأنسباء، فإنّ زهور تغدو جادّة للغاية. علاقة الصّداقة والمعرفة القديمة لا تعني على

الإطـلاق الاسـتهانة بالتّقاليـد!

خمّــن هيثــم أنّ عليــه فتــح الموضــوع عاجــلا لا آجــلا. كلّ تأخــير يزيــد الوضــع تعقيــدا.

قال بهدوء:

- لقد قرّرت وياسمين الانتقال إلى «ليل».

خيّم صمت شامل ومفاجئ على المائدة. سألت زهور أوّلا:

- خيرا إن شاء الله؟ ما سبب هذا القرار الغريب؟

- لقــد وجــدت ياســمين وظيفــة في «ليــل».. ولــن يكــون مــن المريــح أو المناســب أن تســافر كلّ يــوم مــن هنــا إلى مقــرّ عملهــا. لذلــك رأينــا أنّ الانتقــال أفضــل. ويمكننــا زيارتكــم في عطلــة نهايــة الأســبوع.

ظهــر الانزعــاج عــلى ملامــح زهــور. لــم يكــن هــذا التّدبــير الــذي تخيّلتــه. لقــد كانــت حريصــة عــلى انتقــاء شــقة قريبــة مــن مــنزل العائلــة. شــارعان وحســب يفصــلان بينهمــا. لــم تكــن تتوقّــع انقطــاع هيثــم عنهــا بعــد زواجــه. تتمثّلــه في خيالهــا يمرّ عليهــا صباحــا قبــل مغادرتــه إلى عملــه، فيرتشــفان قهــوة عربيّــة مــن يديهــا في المطبــخ.. وتــكاد تــراه يدخــل مســاء وياســمين فيتســامرون جميعــا خــلال السّــهرة. أمّــا زيــارة يتيمــة في نهايــة الأســبوع، فهــو مــا لــم تحســب حســابه!

- ماذا عن عملك يا بنيّ؟

- لقــد تفاوضــت مــع الشّركــة عــلى دوام جــزئي في المكتــب يومــي الاثنــين والثلاثــاء.. ودوام عــن بعــد بقيّــة الأســبوع.

تكلّم عبد الحميد بلهجة متفهّمة:

- إن كان ذلك مريحا لكما، فلا أرى مانعا.

أمّا ميساء، فشبكت ذراعيها أمام صدرها وهي تقول بلهجة مسرحيّة:

- أخــي العزيــز.. لــم أتخيّــل أن أقــول هــذا يومــا.. لكنّــك ســتكون زوجــا

صالحـا! ياسـمين محظوظـة بـك!

ابتسم في رضا وهو يقول مناكفا:

- أصلا ياسمين محظوظة بي منذ اليوم الأول.. لكنك لم تنتبهي!

ثـمّ ما لبثت ابتسامته أن تقلّصت أمـام شرود والدتـه وعبوسـها. رنـا إليهـا في قلـق، بينما كانت ميساء تواصـل وهـي ترفـع كفّيهـا في أسـلوب دراميّ:

- رزقـني الله زوجـا متفهّمـا مثلـك، يسـمح لي بالعمـل، ويأخـذني للعيـش في الخليـج!

نهرتها زهور على الفور:

- اجمعي الصّحون وكفى أحلاما وأوهاما!

ثمّ تركت مقعدها دون أن تعلّق.

أطـرق هيثـم في صمـت. سـتتفهّم. سـتفعل ذلـك. مـا هـي إلّا سـحابة صيـف، سـتنجلي قريبـا. حـزّ في نفسـه وجومهـا. سـيترك غيابـه فراغـا في وجدانها، وهـي الـتي وطّنـت نفسـها علـى استمرار عـادات العائلـة ذاتهـا بعـد زواجـه. لكـن تلـك سـنّة الحيـاة.. يكـبر الأولاد ويغـادرون العـشّ. وقـد حـان لـه أن يفتـح جناحيـه ويحلّـق. لحـق بهـا إلى المطبـخ، وقـال مطيّبـا خاطرهـا:

- سأزوركم كثيرا.. أعدك. يمكنني أن أطلّ عليكم في استراحة الغداء...

لوت شفتيها في امتعاض، أخذت تتمتم كأنّها تحادث نفسها:

- سـأشرع غـدا في إعـادة جهـاز العـرس إلى صناديقـه.. الوقـت يداهمنـا والحفـل قريـب، وكأنّ الأشـغال الـتي فـوق رؤوسـنا لا تكفـي!

قال مترفّقا:

- لا داعـي لذلـك.. سـنفعل هـذا بعـد الحفـل. لـن نسـافر عـلى الفـور.. نحتـاج بعـض الوقـت حـتّى نجـد شـقّة في «ليـل» ثـمّ ننتقـل...

واصلت متجاهلة كلماته:

- لقـد سـمعت عـن هـذا كثـيرا، لكنّـني لـم أصـدّق أنّ ولـدي أنـا يفعـل بي

هـذا.. يقولـون أنّ الـزّواج يغيّرهـم! لكنّـك تغـيّرت قبـل الـزّواج حـتّى!

تنهّد في حيرة.

- مـا ضرورة هـذا الـكلام الآن؟ أنـت تعرفـين ياسـمين وسـعيت بنفسـك إلى زواجـي بهـا.. أنـا لـم أتغـيّر وهـي لـم تتغـيّر.. لكـنّ الظـروف تغـيّرت!

قالت في تهكّم:

- هل عمل ياسمين ظروف قاهرة؟

قال في حزم:

- إنّه كذلك!

تركت ما في يدها في عبوس، وغمغمت:

- طالما هو كذلك فلا أقول شيئا بعد الآن!

***

دفعـت رنيـم بـاب الشّـقة بحـذر، وسـحبت حقيبتهـا إلى الدّاخـل. كانـت السّـاعة قـد تجـاوزت الثانيـة صباحـا منـذ دقائـق عـدّة. توقّعـت أن تكـون شريكاتهـا في السّـكن قـد أويـن إلى فرشـهن منـذ أمـد. لذلـك فاجأهـا النّـور الخافـت المنبعـث مـن مصبـاح الصّالـة.

- رنيم هذه أنت؟

مـيّزت شـكل ياسـمين الـتي غلبهـا النّعـاس عـلى الأريكـة. اقتربـت في اسـتغراب، ثـمّ عانقتهـا في اشـتياق.

- عسى كانت سفرتك موفّقة.

تنهّدت وهي تستقرّ إلى جوارها:

- لقـد كانـت كذلـك! جمعـت عائلـة كاد يُكتـب عليهـا الشّـتات، وأعـدت طفـلا إلى حضـن أمّـه!

- كم هذا جميل!

غمرهما ارتياح مخدّر للحظات، قبل أن تتساءل رنيم:

- لماذا تنامين هنا؟ هل تركت سريرك لسكينة؟

توتّرت ملامح ياسمين، وهمست في قلق:

- إنّها رانيا.

- ما بها؟ هل سبّبت مشاكل في غيابي؟

- إنّها.. لم ترجع بعد!

- ماذا تقصدين؟

- ليست في الشّقة!

طالعت رنيم ساعتها مرّة أخرى. لم تكن مخطئة، السّاعة تجاوزت الثانية صباحا. هذا يعني أنّ وسائل النّقل العموميّ توقّفت منذ ساعة أو أكثر! وأنّ رانيا لن تقضي الليلة في سريرها!

همهمت ياسمين في ارتباك:

- لعلّها فوّتت القطار الأخير.

كان صدرها منقبضا وسحنتها شاحبة. لقد استأمنتها رنيم عليها، وهي لم تكن في مستوى ثقتها. تكدّرت عينا رنيم وامتقع وجهها. قالت في تحفّز:

- هل كانت تسهر خارجا طيلة فترة غيابي؟

- فعلت.. بضع مرّات.. لكنّها لم تتأخّر أبدا عن السّاعة العاشرة!

شبكت رنيم كفّيها في توتّر، ثمّ قالت:

- اذهبي أنت للنّوم.. سأنتظرها.

- أنت مرهقة من السّفر. خذي قسطا من الرّاحة.

ثمّ أضافت مهدّئة من روعها:

- لعلّها تطلب سيّارة أجرة وتكون هنا قريبا!

جلستا في صمت، وقد طار النّعاس عن جفونهما. الوقت يمضي، وتعلن عن انسحابه تكّات عقارب ساعة الحائط المسموعة بوضوح في

ظـلّ الصّمـت المخيّـم عـلى الشّـقة.

- لقد طلع الفجر، تعالي لنصلّ وندع الله أن تكون بخير!

استجابت رنيـم لدعـوة ياسـمين في انصيـاع. كان القلـق قـد استبدّ بفؤادها. السّـاعة تقـترب مـن الخامسـة صباحـا. يـا إلهـي، إنّهـا تباشـير الصّبـاح الأولى! لـم تفعلهـا هـي مطلقـا في أيّ وقـت مـضى. لـم تقـض الليـل قـط خـارج الشـقّة، حـتّى في فـترة تمرّدهـا الأولى ومخالطتهـا لميشـال! هـذه البنـت سـتصيبها بنوبـة قلبيّـة!

كانتـا قـد فرغتـا مـن الصّـلاة. بينمـا تجلسـان في سـكون عـلى السـجّاد، همسـت ياسـمين:

- ستكون بخير.. أنا واثقة بأنّها فوّتت القطار.. هذا كلّ ما في الأمر.

زفرت رنيم وقد بلّلت الدّموع رموشها:

- آمل ذلك.

كانـت السّـاعة قـد شـارفت عـلى السّادسـة، حـين دار مفتـاح في قفـل البـاب، وفُتحـت الدّفـة ببـطء.. ثـمّ خطـت رانيـا إلى الدّاخـل في حـذر. كانـت ترجـو أن يكـون أهـل البيـت غارقـين في النّـوم فـلا ينتبـه أحدهـم إلى وصولهـا الصّباحـيّ. تسـمّرت مكانهـا، حـين وقعـت نظراتهـا عـلى وجـه رنيـم الـذي حوّلـه السّـهاد والهـالات السّـوداء إلى قنـاع غضـب مخيـف.

- رنيم.. لقد رجعتِ!

أرادت أن تكسـو صوتهـا حلّـة الفـرح، لكنّـه خـرج مهـتزّا تمـتزج فيـه الخيبـة بالذّعـر.

اتّسـعت عينـا رنيـم، وهـي تطالـع شـكل شـقيقتها الغريـب والمفـزع. كان شـعرها قـد غـدا أشـقر فاقعـا، لكـنّ هـذا ليـس كلّ شيء، بـل تتخلّلـه خصـلات حمـراء وزرقـاء وأرجوانيّـة، مثـل مهـرّج السّـيرك! أمّـا عيناهـا، فقـد تكحّلتـا بقلـم داكـن حـتّى بدتـا عميقتـين وجاحظتـين وتلطّخـت شـفتاها بأحمـر غامـق يهبهمـا حجمـا أكـبر مـن حجمهمـا الحقيقـيّ واكتنـازا اصطناعيّـا.

واكتسـت وجنتاهـا بلطخـات مشـوّهة، كأنّهـا شرعـت في مسـح أصباغهـا عـلى الطّريـق، لكنّهـا لـم تنـه مهمّتهـا عـلى أكمـل وجـه. ابتلعـت رنيـم الصّدمـة عـلى مضـض، ورتّبـت الأولويّـات في ذهنهـا. التأخـير أولا.. الشّـكل لاحقـا.

- لقد رجعتُ.. لكنّك لم تكوني هنا! أين قضيت ليلتك؟

جـاء صـوت رنيـم صارمـا قاسـيا ومرعبـا. انـبرت رانيـا تـشرح بصـوت مبحـوح مـن أثـر السّـهر وباسـتكانة وتوسّـل غريبـين عـن طبعهـا:

- لقـد فاتنـا المـترو الأخـير.. أقسـم لـك، لقـد نويـت العـودة قبـل منتصـف الليـل، لكنّـني لـم أنتبـه إلى مـضيّ الوقـت.. وحـين أردت ركـوب المـترو كانـت المحطّـة مغلقـة!

استمعت إليها في نفاد صبر:

- أين كنـت، وبرفقة من؟

- كنـت برفقـة بعـض الأصدقـاء.. مـن الجامعـة! كنّـا نحتفـل بعيـد ميـلاد كلارا.. أمضينـا بعـض الوقـت في مطعـم، ثـمّ قصدنـا صالـة الألعـاب.. لعبنـا البولينـغ، والبيـار.. ثـمّ...

قاطعتها في صرامة:

- ماذا فعلتم بعد منتصف اللّيل؟

- بقينا في حديقة عامّة.

- تفعلون ماذا؟

- لعبنا الورق.. وتسلّينا قليلا، في انتظار أن تفتح المحطّة صباحا.

زمّت رنيم شفتيها وهي تشير بسبّابتها في ازدراء:

- وما هذا الشّكل؟

- آه، هـذه الألـوان؟ إنّهـا أصبـاغ مؤقتـة، تـزول مـع الغسـيل.. لقـد كانـت لـوسي تحمـل بخاخـات وتسـلّينا بهـا أثنـاء السّـهرة.

- إلى الحمّام فورا!

- حاضر.

هرولت رانيا بخطوات عجلى وهي لا تصدّق أنّ المأزق قد انتهى عند ذلك الحدّ. لكنّ صوت رنيم تبعها بالوعيد:

- ولا خروج من الشّقة لأسبوع كامل!

استدارت في صدمة وهتفت تعترض:

- لكن الجامعة...

دوى صوت رنيم حازما وقاطعا:

- لا يهمّني! قلت لن تخرجي لأسبوع كامل.. هيّا إلى الحمام الآن، ولا تناقشيني!

ضربت رانيا بقدمها الأرض، مثل طفلة متبرّمة بقرارات والدتها، ثمّ صرخت:

- أنت أصلا لا يحقّ لك التحكّم بحياتي! لقد عشتِ حرّيتك سابقا والآن جاء دوري! لم يكن أحد يراقبك حينها.. فلماذا تراقبينني، ها؟ أنت لست وصيّة عليّ!

ابتسمت رنيم ساخرة وقالت في تشفّ:

- صحيح، لست وصيّة عليك.. هل تريدين أن أتّصل بوالدينا الآن، لنرى ما يقوله الأوصياء؟

انسحبت الدّماء من وجه رانيا وأمسكت عن الجدال، ثمّ جرّت قدميها إلى الحمّام في غيظ. فتحت صنبور الماء وعدّلت الحرارة لينساب سيل دافئ على راحتها. طالعت في المرآة زينتها التي أفسدتها عبرتان سوداوان رسمتا خطّين متموّجين حتّى ذقنها.. ثمّ ارتجفت شفتاها والتوتا وهي تبكي في صمت.

لو أنّ رنيم تأخرت يوما واحدا! ما الذي جاء بها اليوم بالذّات؟ كان بوسعها إقناع ياسمين بالتّغطية على خطئها.. تعدها ألا تعيد الكرّة، فيلين قلبها وتمرّ اللّيلة بسلام. لكنّ رنيم لن تسامحها بسهولة. زمجرت

وهي تقف تحت تيّار الماء المتدفّق فوق رأسها، ويمسح في طريقه ألوان شعرها ووجهها. ثمّ التمعت عيناها ببريق لئيم.

لن تخبرها.

لن تقول شيئا بشأن الولد الذي يشبه الصّورة!

***

تثاءبت رنيم، وسحبت قدميها في إعياء في اتّجاه المطبخ. كانت قد نامت حتّى الظّهيرة. تراكم عليها تعب السّفر وانفعالات الليلة الماضية. استقبلتها رائحة القهوة الشهيّة التي جهزت للتوّ، وبادرتها ياسمين وهي ترصف قطع الكعك:

- أخيرا استيقظت؟ الفطور جاهز!

استنشقت عطر الكافيين الممتزج بماء الزّهر ثمّ تحمّست حين لمحت سكينة. هتفت على الفور:

- هل بُثّ التسجيل خلال حلقة الأسبوع الماضي؟

هزّت سكينة رأسها في أسف علامة النّفي، ثمّ قالت بلهجة متفهّمة:

- لقد فعلت ما بوسعك.

هبّت رنيم على الفور:

- سأتّصل بماتيلد حالا! يجب أن تفي بوعدها.. لا تقلقي!

دخلت الغرفة من جديد وأجرت الاتّصال.

- رنيم، عزيزتي.. حمدا لله على سلامتك! أرجو أنّ الرّحلة كانت موفّقة؟

- شكرا لاهتمامك عزيزتي ماتيلد.. نعم لقد كانت كذلك. لكنّني فوجئت حين عرفت أنّك لم تفي بوعدك!

- رويدك عزيزتي.. بما أنّك رجعت الآن فيمكننا الاتّفاق.

- الاتّفاق على ماذا؟

- ألم أخبرك بأنّني لن أبثّ المقطع إن لم يكن بالجودة الكافية؟

- طيب.

- الخبر الجيّد هو أنّ المشاعر كانت عالية.. لكن...

- لكن ماذا؟

- علينا أن نعيد التّسجيل. جودة الصّوت كانت رديئة!

- كيف حصل هذا؟

- لا أدري.. صدقا لقد صدمت حين أخبرني التّقنيون أنّ التّسجيل كان فاشلا.

- ألم يكن بوسعك إخباري قبل الآن؟ لقد مضى أسبوعان.. نحن نضيّع الوقت!

- لا بأس يا عزيزتي.. أخبريها أن تأتي مرّة أخرى إلى الأستديو.. نعيد التّسجيل بعد الحلقة المباشرة. ما رأيك؟

أنهت رنيم الاتّصال وهي تشعر بالضّيق. تعلم أنّ ماتيلد تماطل، لكنّها لن تدع لها مجالا للتّراجع. خرجت وقد رسمت على ثغرها ابتسامة مطمئنة:

- سكينة عزيزتي، أنا آسفة.. لكنّنا سنضطرّ إلى إعادة التّسجيل. للأسف.. لم يكن الصّوت واضحا في المحاولة الأولى!

تنهّدت سكينة وهي تقول في إصرار:

- بالتّأكيد، سنفعل. لن أملّ من المحاولة.

***

رجعت من أستديو التّصوير وهي تشعر بخواء في روحها. كانت كمن يستفرغ أحشاءه، في كلّ مرّة تقف فيها أمام عدسة التّصوير، تصهر لواعج روحها وتصبّها في بوتقة الأمل والرّجاء.

- هذه المحاولة ستكون ناجحة. أنا واثقة!

أرادت أن تستعير شيئا من ثقة رنيم، لكنّ صدرها يضيق، كأنّ ضلوعها

تنطبق على رئتيها وتعتصر منهما الهواء، فتنقطع أنفاسها.

دخلت الغرفة لاهثة. نزعت قبّعتها ووشاحها واستنشقت بعنف تطلب نفسا، ثمّ انهارت على السّرير. تسلّلت العبرات ببطء على وجنتيها. عبرات لوعة وقهر واشتياق.

تلت عن ظهر قلب آيات من سورة القصص، من قوله تعالى: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا».. حتّى قوله «فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ».. ثمّ دعت بصوت مرتجف يقطّع نياط القلب:

- يا ربّ ردّهم إليّ.. يا ربّ!

***

- أنا جاهزة. هل ننطلق؟

كان أسبوع العقاب قد انتهى، وحصلت رانيا على إطلاق سراح مشروط. لم يكن يُسمح لها إلا بحضور دروسها في الجامعة. ما عدا ذلك، لا يمكن لها أن تغادر الشّقة إلا برفقة. كانت فاطمة في ضيافة زهور لبضعة أيّام، وسكينة منهمكة في خياطة ثوب ياسمين. فما إن عرفت بخروج ياسمين ورنيم للتّسوّق، هبّت على الفور.

التفتتا معا لتحدّقا في دهشة إلى رانيا التي ظهرت عند باب غرفة رنيم حيث كانت تستعدّ. مضت برهة من الصّمت قبل أن تهتف رنيم في لهجة ساخرة:

- خيرا إن شاء الله أستاذة رانيا.. هل تجرّبين موضة جديدة؟

تجاهلت رانيا نبرة السّخرية في صوتها وقالت وهي تتأمّل شكلها أمام مرآة الحائط:

- كيف أبدو؟ هل يناسبني؟

كانت خصلاتها الشقراء التي اجتهدت المزيّنة في إبداعها منذ أسابيع قليلة قد اختفت تحت وشاح عريض غطى شعرها بالكامل وأحاط بوجهها في لفّة متقنة. قالت رنيم تستعجلها:

- سنغادر في الحال. ليس الوقت مناسبا للتّجارب.

واجهتها بابتسامة متحدّية:

- أنا جاهزة.

تبادلت ياسمين ورنيم نظرات حائرة، قبل أن تسأل رنيم من جديد:

- أنت واثقة؟ أعني، ستخرجين هكذا؟

- ما الأمر؟ ألا يعجبك حجابي؟ كلّميها ياسمين.. أليس الحجاب أمرا جيّدا؟

تحرّكت ياسمين على الفور لتعانقها في سرور حقيقي. هنّأتها وشدّت على كفّيها في جذل تحت نظرات رنيم المستنكرة. تردّدت قبل أن تردّ في جفاف:

- أكيد.. لم أقل العكس.. لكن، منذ متى.. أقصد، لم أعتقد أنّك قد تفكّرين في الأمر حتّى!

- تعلمين، أنا في طور تكوين الشخصيّة. أتلمّس الطريق، وهذا ما يفعله المراهقون. استيقظت اليوم وأنا أشعر بنوع من الإلهام. ماذا لو كان هذا بالضبط ما يلزمني؟

- تقصدين الالتزام الدّيني، أم قطعة الأكسسوار التي تناسب قميصك القصير وسروالك الضيق؟

- الالتزام الدّيني لا يعني القطع مع الموضة. ياسمين، أخبريها!

همهمت ياسمين محاولة قول شيء ما، لكنّ رنيم لم تمهلها:

- حسن، وغير ذلك؟ هل تعلّمت الصّلاة مثلا؟ هل تقرئين شيئا عن العقيدة؟

جارتها رانيا صراحا بصراخ:

- هذه الأمور تأتي بالتّدريج عزيزتي. أنا في طور التّعلّم. والآن كفى استجوابا، أنت تضيّعين وقت ياسمين.

قالـت ذلـك بلهجـة قويّـة وحاسـمة، كأنّهـا تحـاول إنهـاء الحـوار الجانـبيّ الـذي لـم تكـن تـودّ خوضـه. ألقـت نظـرة أخـيرة عـلى شـكلها ثـمّ تناولـت حقيبـة يدهـا وسـبقتهما إلى الخـارج. تنهّـدت رنيـم وهـي تتنـاول حقيبتهـا بدورهـا وتمـضي عـلى إثرهـا في صمـت.

تبعتهـا ياسـمين بعـد برهـة وهـي تفكّـر. مبـادرة رانيـا فاجأتهـا وأسـعدتها حقّـا. لا يمكنهـا أن تجـزم بمـدى جدّيتهـا، لكنّهـا تعلـم أيضـا أن تحـوّلات كهـذه قـد تـأتي فجـأة ودون سـابق إنـذار. أحاسـيس خفيّـة تتجمّـع في العمـق وتتشـكّل في هـدوء وبـطء حـتّى تتخـذ هيئـة قناعـة تطفـو عـلى السّـطح بشـكل غـير متوقـع. كانـت مسـتعدّة لمسـاندة رانيـا ومدّهـا بـكلّ المصـادر اللازمـة ليكتمـل اقتناعهـا والتزامهـا مـن كلّ النّواحـي.. لكـنّ ردّة فعـل رنيـم العدائيّـة فاجأتهـا. لمـاذا أنكـرت عـلى شـقيقتها توجّههـا الجديـد؟

لقـد تمنّـت منـذ عرفـت رنيـم أن تراهـا أكـثر التزامـا. وقـد حسـبت في وقـت مـا أنّهـا عـلى قيـد خطـوات مـن ذلـك. لكـنّ السّـنوات تمـضي، وهـي لا تـكاد تحـرز تقدّمـا يُذكـر. ورغـم متانـة صداقتهمـا إلّا أنّ كلتيهمـا تحافـظ عـلى مسـاحتها الشـخصيّة. لـم يكـن بوسـعها أن تسـألها صراحـة إن كانـت تنـوي.. أم أنهـا نـوت ثـم صرفـت النّظـر! لكنّهـا تدعـو لهـا بظهـر الغيـب دون فتـور.

قضـين بعـض الوقـت يتجوّلـن بـين المحـلّات. كانـت ياسـمين تقتـني قطعـا أخـيرة مـن أجـل جهازهـا، في حـين تبحـث رنيـم عـن فسـتان مناسـب للحفـل. اسـتغلّت رانيـا لحظـة غابـت خلالهـا رنيـم داخـل غرفـة القيـاس، وهمسـت لياسـمين وهـي تمثّـل الأسـف:

- رنيم لم تسعد بارتدائي الحجاب، أليس كذلك؟

رمقتهـا ياسـمين دون أن تعلّـق. كان بودّهـا أن تعـترض، لكـنّ ذلـك كان مـا لاحظتـه هـي أيضـا:

- لم يكن الأمر متوقّعا بالنّسبة إليها.. لكنّها ستتجاوز ذلك حتما.

هزّت رانيا رأسها متظاهرة بالموافقة، ثمّ أضافت في براءة مصطنعة:

- كنـت أتسـاءل.. هـل يمكـن أن يجعلهـا ذلـك تغـار مـنّي؟ تعلمـين، أنـت صديقتهـا المفضّلـة. وهـذا القاسـم المشـترك الجديـد بيـني وبينـك سـيجعلنا مقرّبتـين.. ألا تظنّـين أنّ ذلـك سيسـوؤها نوعـا مـا!

- أبدا.. على الإطلاق! رنيم ليست سطحيّة هكذا.

- أرجو ذلك.

ابتسمت في وداعة، بينما كانت التّكشيرة تتّسع داخلها.

«سترين يا رنيم، سأجعلك تدفعين الثّمن!».

اجتمـع موظّفـو المختـبر في القاعـة الـتي جُهّـزت لاسـتقبالهم. كان عمـر قـد اسـتقطب زميلـين سـابقين، ومهندسـيْن حديـثي التّخـرّج في كليّـة الهندسـة القريبـة في «إفـري». وضـع إعلانـا ورقيّـا عـلى لوحـة الإعلانـات في مكتـب الاسـتقبال للكليّـة، وتلقّـى في الأسـبوع التّـالي مكالمـات عـدّة. أجـرى المقابـلات ثـمّ انتهـى بـه الأمـر إلى توظيـف شـابّين حماسـيّين وموهوبـين.

قال عمر في لهجة واثقة:

- الافتتـاح الرّسـمي للمختـبر مسـألة وقـت.. لكنّنـا سـنشرع في العمـل تبعـا للرزنامـة الـتي ضبطناهـا وأرسـلتها إليكـم سـابقا. طبعـا لـن يمكنـني أن أسـجّلكم كموظّفـين في الوقـت الحـالي، لكـنّ مرتّباتكـم سـتُصرف بشـكل طبيعـيّ، كمتعاونـين في المرحلـة الأولى.

أومـأ الجميـع في استحسـان. لـم يكـن أحدهـم يرغـب في تأجيـل بـدء المـشروع. رغـم مخاوفـه، كان عمـر يأمـل أن تكـون تحذيـرات سـامي كلّـود مـن قبيـل البارانويـا أو الشـكّ المبالـغ فيـه.

- في الوقـت الحـالي، أتـرك لكـم حريّـة الاختيـار.. بوسـعكم العمـل في المكاتـب أو عـن بعـد. في الحقيقـة، ليـس هنـاك داعٍ لحضوركـم اليومـيّ.. سـأبلغكم حـين تصـل المعـدّات.

كان ذلـك الأمـر يؤرقـه أيضـا. لقـد طلـب معـدّات المختـبر منـذ أكـثر مـن شـهرين، لكنّهـا لـم تصـل بعـد. مـن خـلال موقـع الشّركـة الأمريكيّـة المـزوّدة، يمكنـه الاطّـلاع عـلى مسـار الشـحنة. لقـد سُـلّمت إلى النّاقـل منـذ سـتّة أسـابيع، لكنّـه لـم يتلـقّ بعـد إشـعارا لاسـتلامها مـن خدمـة الجمـارك.

فجـأة، تعـالى رنـين هاتفـه. كان الرّقـم أجنبيّـا غريبـا. أشـار عمـر إلى موظفيه منهيـا الاجتمـاع، فانـصرف كلّ إلى شـأنه، ثـمّ ردّ عـلى الاتّصـال في شـكّ.

- عمر الرّشيدي؟

- نعم، من المتّصل؟

- أنا عزّام، خال آية.. حصلت على رقمك منها. هل يمكننا التّحدّث الآن؟

- آه.. طبعا، بالتّأكيد.

دخل مكتبه لينفرد باتّصاله. لم يكن قد زار جاره محمّد الغزّي مرّة أخرى بعد جلسة التّعارف. حين التقيا في المسجد بعد يومين، وقفا عند ناصية الشّارع، وتحدّثا لبضع دقائق.

كان عمر قد أمعن التّفكير وأعرب عن رغبته في إتمام الخطبة. لا ينكر شعوره بالارتياح إثر الجلوس إلى آية. لقد كانت آية حقًّا، جمالا وخُلقا وحكمة! في تلك المرّة، تبادلا أرقام الهاتف. حيث إنّ العلاقة تسير نحو التوطّد، فلم يكن من المريح أن ينتظر لقاء مصادفة في كلّ مرّة.

يصله صوت خالها ببحّة مميّزة:

- سرّني أنّها قد وافقت على خاطب أخيرا.. فأردت التعرّف إلى سعيد الحظ!

ضحك الرّجل بصوت عالٍ بينما ابتسم عمر في حرج ولم يعلّق.

- المهمّ.. متى يمكننا اللّقاء؟

- متى شئت.

- أنت تعرف، مركزنا في بروكسيل.. هل بوسعك زيارتنا قريبا؟

شعر عمر بالتّشتت. مركز؟ في بروكسيل؟ بدا كلّ شيء ملتبسا، قال في حيرة:

- إن كان ذلك ضروريّا.. بالتّأكيد!

ساد الصّمت للحظات، ثمّ قال الخال:

- يبدو أنّ آية لم تحدّثك بكلّ شيء.. لعلّي تسرّعت بالاتّصال. حسنا.. لا

يمكنـني الـشّرح عـلى الهاتـف.. أنـت تعلـم. حـين تكتمـل الصّـورة اتّصـل بي مجـدّدا.. سـجّل هـذا الرّقـم عنـدك. اتّفقنـا؟

لم يكن عمر يفهم شيئا، لكنّه أنهى المكالمة وسجّل الرّقم.

***

دخـل عمـر المجلـس للمـرّة الأولى بصفـة «الخاطـب». كان اللقـاء الأوّل تعارفـا، وقـد أسـفر عـن ارتيـاح متبـادل. لـم ينتظـر لقـاء العـمّ محمّـد في المسجد كما جـرت العـادة، بـل تجـرّأ على الاتّصال وتحديـد موعـد. كانـت المكالمـة الغريبـة الـتي تلقّاهـا مـن خالهـا عـزّام مدعـاة للقلـق، فخـير أن يسـتمع إلى شرحهـا دون تأخـير.

حين استقرّ بهما المقام في الصّالة الخالية إلا منهما، قال في هدوء:

- لقد اتّصل بي خالك.

أومأت آية، وانتظرت أن يكمل.

- لم أفهم الغرض من الاتّصال. قال أنّك ستشرحين أوّلا.

أخذت نفسا، ثمّ ألقت كلمتها:

- خالي يريد أن يختبرك.

- يختبرني؟

- قلت أنّك تودّ إثبات علوّ همّتك!

- وهل هناك اختبار لهذا الغرض؟

تململت في جلستها وقد لمست التهكّم في لهجته، ثمّ قالت في كبرياء:

- نحـن عائلـة لهـا تاريـخ عريـق في المقاومـة. جـدّي لأبي مـات شـهيدًا برصاص الاحتـلال.. وجـدّي لأمّـي أمـضى خمسـة عـشر عامـا في سـجونهم! وشـبابنا يمـضي عـلى خطاهـم، رغـم تفرّقنـا في أصقـاع الأرض. نحـن نُـربَّى عـلى ثقافـة المقاومـة منـذ نعومـة أظفارنـا، وعـلى مبادئهـا ننشـأ.. وأريـد لأطفـالي أن ينشـؤوا عـلى المبـادئ ذاتهـا.

أومأ عمر في اهتمام، فأردفت:

- لذلك يهمّني أن يكون والدهم حاملا لهمّ المقاومة أيضا.. حتّى لا تفترق سبلنا قبل أن تجتمع!

أصغى في صمت. يذكر حين كان طالبا في الجامعة، لم يكن يُفوّت تظاهرة تخصّ مساندة الحقّ الفلسطينيّ. كلّما اندلعت انتفاضة هناك، تجاوبت معها شوارع ليون ومارسيليا وباريس، وتحرّكت الجاليات العربيّة والمسلمة لتعبّر عن دعمها.

وكلّما تزايد الاعتداء على غزّة والأقصى وضُيّق الخناق على فلسطينيّ الدّاخل، تصاعدت أصوات الغضب في أنحاء أوروبا، وتوشّح الشّباب بالكوفيّة الفلسطينيّة.

لقد كان العلم الفلسطينيّ يزيّن باب غرفته في السّكن الجامعيّ جنبا إلى جنب مع علم المغرب!

وقد كان ورفاقه يتداولون قائمات الشّركات التّجاريّة الدّاعمة للكيان الصّهيونيّ للتّشجيع على مقاطعتها. وقد كان مقاطعا من الدّرجة الأولى. لم يضع قدمه قطّ داخل مقهى «ستار بوكس» أو مطعم «ماكدونالدز»، ولا تجرّأ على زيارة حديقة «ديزني» للألعاب. أمّا منتجات «نيستلي»، فقد وجد صعوبات جمّة في تجنّبها، لكنه فعل لسنوات طويلة. كان يحسب نفسه حاملا لفكر المقاومة بالفعل. لكنّه يدرك أنّ فكره ذاك لم يتعدّ المجاهرة بالمساندة اللّفظيّة، دون أن يدنو من المرتبة الأعلى.

ماذا بعد الكوفيّة والعلم والصّراخ في الشّوارع والمقاطعة؟

لعلّ هذا هو ما تعنيه آية.. وهو لم يكن ليتأخّر عن تتويج مساعيه النظريّة القديمة بعمل حقيقيّ وملموس. قال بتفهّم:

- لا ضير في ذلك. إن كان خالك يودّ اختباري، فلا أمانع.

تهلّل وجهها وأشرقت قسماتها.

- هل يمكنك أن تفرّغ نفسك في نهاية الأسبوع لزيارته في بروكسيل؟

- سأفعل.

وافق دون تردّد، فابتسمت في رضا.

***

أمضى يومين في مصلحة الجمارك. يقصدها منذ ساعات الصّباح الأولى، ويلبث يتردّد على المكاتب واحدا واحدا، بلا فائدة ترجى. لم يكن هناك من يفيده بشأن شحنة المعدّات التي وصلت جوّا من الولايات المتّحدة، ولم يستلم إشعارا لاستلامها أبدا.

تواصل مع الشّركة الأمريكيّة المزوّدة، فأكّدوا له وصول الشّحنة إلى باريس. لكنّ مصيرها بقي مجهولا. يُمضي يومه في ترقّب المسؤولين. هذا يرسله إلى ذاك. يلفظه مكتب ويستقبله آخر.. لكنّه لا يحظى قطّ بردّ يشفي الغليل.

- رقم التّسلسل هذا غير موجود في ملفّاتنا. أنت واثق من وصول الشّحنة؟

- كلّ الثقة. هذه نسخة من بريد شركة الشّحن.

يطالع الموظّف (رقم عشرين) الورقة ثمّ يمطّ شفتيه ويهزّ كتفيه ويقول في حيرة:

- هناك خطأ ما!

يدرك أنّ هناك خطأ مؤكّدا. لكن لا أحد يقف على أصل الخطأ ولا على مصير شحنة معدّاته التي ترقد في مكان ما من مستودعات مصلحة الجمارك.

في مساء اليوم الثّاني، كان قد استنفد طاقته في الجدال، ومرّ على مكاتب المصلحة كلّها بلا استثناء، حين اقترب منه مدير المصلحة بنفسه وقال بلهجة آمرة:

- اتبعني!

هرول عمر خلفه وقد أشرق داخله الأمل. انتظر حتّى استقرّ الرّجل

خلف مكتبه الفاخر، ثمّ عكف على جهازه ينقر لوحة مفاتيحه على مهل.

- هل وجّدتم الشّحنة؟

- لقد وصلت بالفعل.

زفر عمر في ارتياح، حتّى أردف الرّجل:

- لكنّ شرطة الجمارك صادرتها!

- صادرتها؟ لأيّ سبب؟

- يبدو أنّها معدّات لتكنولوجيا متطوّرة.. مكتوب هنا في الملفّ «لا يملك الصّلاحيّة لاستيراد التّكنولوجيا».. هل لديك تصريح بمزاولة أبحاث علميّة؟ ليس متاحا لأيّ كان استيراد ما يشاء.

- ليس بعد.. إنّها مسألة وقت. تقدّمت بالملفّ وهو تحت الدّراسة.

- إذن لا يمكنك الاستيراد!

- إذا أحضرت موافقة من وزارة البحث العلميّ، هل يمكنني حينها استلام الشّحنة؟

- آسف، هذه الشحنة صودرت.. ونقلت من مستودعاتنا الأسبوع الماضي.. سيكون عليك طلب شحنة جديدة!

ضرب عمر بقبضته على المكتب في غيظ. لقد أفنى وقتا ومالا غاليين.. والآن يعود إلى خانة الصّفر. خرج من مصلحة الجمارك خالي الوفاض. يتذكّر كلمات سامي كلود، فينتابه الضّيق. ماذا لو كانت نبوءته صادقة؟ ألن يحصل على الموافقات الإداريّة أبدا؟

دخل الشقّة -التي يتوق إلى اليوم الذي تغدو فيه مختبرا- ليجد موظّفيه مجتمعين في الاستراحة يحتسون القهوة. في غياب المعدّات، جلّ ما يفعلونه هو مطالعة المجلّات العلميّة، ومقارنة الدّراسات والنظريّات.. ثمّ يأخذون استراحات طويلة، يغالبون بها الملل.

بادره أليكس في لهفة:

- هل وصلت المعدّات؟

وقـف قبالتهـم في إحبـاط وانكسـار. لـم يكـن يـودّ أن يتّخـذ ذاك القـرار، لكنّـه محـاصر والسّـبل مسـدودة. قـال بصـوت محطّـم:

- المعدّات لن تأتي أبدا.. والمختبر لن يفتح.

تبادلوا نظرات داهلة، بينما واصل عمر:

- لـم يعـد هنـاك داعٍ لمجيئكـم بعـد الآن. سـتصلكم رواتبكـم، مـع مستحقّات نهايـة الخدمـة.. وأعتـذر منكـم عـن الأمـل الزّائـف الـذي وهبتكـم إيّـاه.

***

استرخت الفتيـات عـلى الأريكـة والمقاعـد الوثـيرة حولهـا. كانـت رانيـا مـن اهتمّ بترتيـب السّـهرة، بعـد أن ألحّـت عـلى ياسـمين طويـلا. لـم يكـن «حفـل انتهـاء العزوبيّـة» تقليـدا يهمّهـا أو يعـني لهـا شـيئا. لكـنّ رانيـا الـتي تطمـع في تلميـع صورتهـا وكسـب صداقتهـا طلبـت فرصـة لإثبـات فائدتهـا وتعلّمهـا الـدّرس. وزّعـت عليهـنّ أقنعـة الوجـه وهـي تـشرح طريقـة الاسـتعمال:

- اسـتلقين وارفعـن رؤوسـكنّ إلى الـوراء، ثـمّ ضعـن القنـاع برفـق دون أن يلامـس العينـين أو الشّـفتين...

ابتسمت فاطمة وهي تقول:

- هذه الأقنعة المعلّبة عمليّة ويسيرة الاستخدام!

بينمـا انصاعـت سـكينة وميسـاء في صمـت، همسـت ياسـمين لرنيـم الـتي تجـاور مقعدهـا:

- فـكّي التّكشـيرة قليـلا.. أعلـم أنّهـا لـن تتغـيّر بـين عشـيّة وضحاهـا، لكنّهـا تحـاول.. مـن أجـل كسـب ثقتـك.. فامنحيهـا فرصـة!

تنهّـدت رنيـم وهـي ترمـق رانيـا المنهمكـة في مهمّتهـا وهمسـت بدورهـا في فتـور:

- سأفعل، من أجل خاطرك!

- والآن، ارفعن أرجلكنّ على المائدة.. وضعن هذا على العيون...

ثمّ لفّت رانيا بطبق الخيار المقطّع على شكل دوائر رقيقة لتأخذ كلّ منهنّ قطعتين تضعهما على جفنيها المغمضين.

- والآن، حان وقت الاسترخاء.

قالت ذلك وهي توزّع كؤوس العصائر المنعشة، ثمّ تتّخذ مجلسا بدورها حول المائدة وتحذو حذوهنّ. غمغمت سكينة:

- هل يمكنني النّوم؟ أشعر بحاجة إلى غفوة قصيرة!

ضحكت ياسمين وقالت:

- الوضع مغرٍ بالنّعاس! كم سنبقى هكذا؟

- نصف ساعة.. ثمّ سيكون هناك نشاط آخر!

همست ميساء برفق وهي تحاول ألّا تحرّك شفتيها فيتجعّد قناعها:

- هل يمكن أن نتحدّث؟

- صوتك غريب!

ضحكت ياسمين مرّة أخرى. لم يكن من اليسير الحفاظ على قطعتي الخيار وهي تتلفّت كلّ حين لتحادث جارتيها. مرّت عشر دقائق قبل أن تقول رنيم في ملل:

- أظنّ هذا كافيا، هل نفعل شيئا آخر؟

تململت الأخريات بدورهنّ، وأخذن يستوين في جلستهنّ ثمّ ينزعن الأقنعة. وقفت رانيا بدورها وقد ساءتها مقاطعة شقيقتها لمخطّط السّهرة. قالت محاولة الحفاظ على مزاجها المرح:

- ما رأيكن في بعض الرّقص؟

تمطّت رنيم وتثاءبت وهي تقول:

- لمَ لا!

هبّت رانيا إلى جهاز التّسجيل وشغّلت موسيقى شبابيّة صاخبة، ثمّ عادت إلى الفور لتسحب الطاولة المنخفضة وسط الصالة وتدفعها في اتّجاه ركن الغرفة، وتوسع مجالا مناسبا لحلبة الرّقص. تبادلت ياسمين وميساء نظرات متواطئة، ثمّ أخرجت ميساء من حقيبتها قرصا مضغوطا:

- لديّ شيء مناسب أكثر!

كانت ياسمين قد طلبت منها تجميع أناشيد أفراحٍ من أجلها، لإضفاء جوّ من المرح. أوقفت الضّوضاء الّتي أحدثتها موسيقى رانيا وشغّلت قرصها. زفرت رانيا من جديد في ضيق. هل يتعمّدن إفساد تدبيرها أم ماذا؟ لكنّ ذلك لم يفتّ من عضدها. بسرعة كانت تتوسّط الحلبة، تربط الوشاح ثمّ تميل خصرها في حرفيّة وخفّة. كانت قادرة على الرّقص على أيّ نغم، حتّى لو كان موّالا شاميّا أو أوركسترا أوبرا!

سرعان ما سرى الحماس في الأجساد وأخذت الخصور والأرداف تهتزّ في حركات متفاوتة المهارة. استمرّ الرّقص والتّصفيق وصدحت الحناجر بالغناء مكرّرة الأناشيد.. ثمّ ارتمين على المقاعد من جديد وهنّ يتضاحكن وقد أرهقهنّ النّشاط البدنيّ.

- الآن، فقرة الأسئلة!

أعلنت رانيا وهي تواجههنّ، فتطلّعن إليها في انتباه:

- السّؤال الأوّل.. ما هو الشيء الجيّد بشأن الزّواج؟

تعالت القهقهات دون مواربة، وعلّقت ريم في سخرية:

- أظنّك أخطأت الجمهور.. أمامك ثلاث عازبات ومطلّقتان، وتسألين عن فوائد الزّواج؟

ضحكن من جديد في صخب، ثمّ تدخّلت سكينة مهدّئة:

- لا تثرن ذعر البنيّة، إنّها مقبلة على القفص الذّهبي، لذلك قليلا من التفاؤل رجاءً.. سأبدأ أنا.. إنّ الشيء الوحيد المفيد الذي أحرزته من الزّواج هو الأطفال!

رمقنها جميعا في تعاطف، وأمّنت فاطمة على قولها:

- ذلـك هـو الفضـل الوحيـد الـذي أسـفرت عنـه تجربـتي.. لكنـني آمـل لـك حظـا أوفـر يـا ابنـتي!

قالت رنيم بنظرة حالمة:

- المؤانسة!

بينما هتفت ميساء:

- الحريّة!

ضحكت رنيم وهي تعلّق:

- أظنّـك فهمـت الأمـر بشـكل عكـسيّ! أنـت تفقديـن حرّيتـك حـين تتزوّجـين.. تصبـح قراراتـك، تحرّكاتـك وخياراتـك كلهـا مرتبطـة بشـخص آخـر!

ردّت ميساء في تهكّم:

- هـذا إذا كنـت حـرّة مـن الأسـاس! لكـنّ الـزّواج بالنّسـبة إليّ فرصـة للتخلّـص مـن قيـود العائلـة، والخـروج مـن حـدود البيـت!

قالت رانيا في تعاطف:

- أفهمك تماما.. ماذا عنك ياسمين؟

- الأمان!

حدّقت فيها فاطمة غير مستوعبة:

- الأمان؟ هل تشعرين بالخطر الآن؟

- الأمـان بمعـنى الاعتمـاد عـلى شـخص آخـر وقـت الحاجـة، مشـاركته همومـك واليقـين بأنّـه لـن يتجاهلهـا أو يفـرّ أمامهـا.. وتقاسـم أعبـاء الحيـاة اليوميّـة معـه، والحصـول عـلى مسـاندة معنويّـة لا مشروطـة!

رنـت إليهـا رنيـم متأمّلـة، واسـترجعت رغمـا عنهـا كلمـات شـهاب ومواقفـه الحاميـة لهـا. بينمـا صفّـرت رانيـا في إعجـاب ثـم هتفـت وهـي ترفـع ذراعهـا في حركـة مسرحيّـة:

- عروسنا تحرز نقاطا عن هذا السّؤال! والآن، السّؤال الثّاني.. ما هو الشيء السّيء بشأن الزّواج؟

قالت رنيم على الفور:

- فقدان الحريّة!

كشّرت ميساء، ثمّ قالت:

- اممم.. أشغال المنزل!

ضحكن كلّهن، ثمّ التفتن إلى فاطمة، فضمّت شفتيها ثمّ ألقت كلمتها مثل بصقة عنيفة:

- الخيانة!

امتقع وجه ياسمين، ولم يعلّق أحد. تابعت سكينة:

- دوري إذن.. فراق الأهل!

- لدينا هنا ميساء، تتوق إلى مفارقة أهلها.. وسكينة، تتمنى العودة إليهم! ما رأي عروسنا؟

تضرّجت وجنتا ياسمين وهي تهزّ كتفيها في خجل:

- هل يجب أن تكون للزواج مساوئ؟

ارتفعت الضّحكات المرحة مرّة أخرى، في حين عانقتها ميساء وهي تهتف:

- يا إلهي.. عروسنا حالمة ومتفائلة، فلا تفسدن مزاجها! بالنّسبة إليك، لا.. ليست للزّواج مساوئ! والعريس مختوم بختم الجودة من طرفي!

ارتفعت موجة ضحك أخرى حتّى دمعت العيون. همست رنيم لسكينة الجالسة جوارها بصوت خافت لم يصل إلى مسامع ياسمين وميساء:

- الحماة يا عزيزتي.. الحماة!

أخفت سكينة ضحكتها وهمست بدورها:

- ياسمين تحلّق فوق السّحاب مذ تصالحت وهيثم!

سألت رنيم في دهشة:

- هل تشاجرا؟

- كان ذلك أثناء غيابك.. في يوم حفل تخرّجها.. اختلفا بشأن عملها، ثمّ صالحها هيثم بسرعة.

- بعدها اتّفقا على الانتقال إلى «ليل» إذن!

- آها.

لوت رنيم شفتيها وهي تفكّر لبرهة ثم عادت لتهمس:

- لكنّ زهور لم تسعد لهذا!

- ما أدراك؟

- لقد سمعت فاطمة تحتدّ وهي تخاطبها على الهاتف.. الحماة، ألم أقل لك؟

سكنت وشوشتهما حين تنحنحت رانيا وهي تعلن السّؤال التّالي:

- السّؤال الثالث.. ما هو الشّرط الأساسيّ للزّواج النّاجح؟

هتفت رنيم على الفور:

- الحبّ!

قهقهت فاطمة في مرارة ثمّ قالت بنبرة متهكمة:

- ادفعي عنك هذه التّفاهات يا ابنتي.. العلاقة بين اثنين لا يمكن أن تتلخّص في العاطفة أو الانجذاب الجسدي.. هناك مواصفات أخلاقية هامّة إن لم تتوفّر فإن حظوظ النّجاح ضئيلة، إن لم تكن منعدمة.. وأوّلها، الصّدق!

هزّت سكينة رأسها مؤيّدة، ثمّ أضافت:

- وأنا أقول.. المسؤوليّة! كثير من الرّجال لا يعتدّ بهم ويحسبون الزّواج لعبة، يمكنهم دخولها والخروج منها متى شاؤوا.. ولا يحسبون للزّوجة والأطفال حقّا عليهم! إن لم يكن الزّوجان على قدر من النّضج والقدرة

علـى تحمّـل مسـؤوليّة إنشـاء عائلـة، فـلا فرصـة للـزّواج!

أمّنت الأخريات على قولها بهزّات من رؤوسهنّ، ثمّ قالت ميساء:

- تقـوى الله! قيـل في الأثـر: «زوّج ابنتـك ممّـن يتقـي الله فيهـا، فـإن أحبّهـا أكرمهـا، وإن أبغضهـا لـم يظلمهـا»!

تابعـت ياسـمين كلماتهـنّ باهتمـام، لكـنّ الابتسـام غلبهـا. كان بوسـعها استعراض قائمـة طويلـة مـن أسرار الـزّواج النّاجـح.. بفضـل الكتـاب الـذي أهداهـا إيّـاه هيثـم! لكـنّ مـا تستحضره في تلـك اللّحظـة كان بعيـدا عمّـا ورد في الكتـاب، بـل إحساسـا مـلأ وجدانهـا منـذ أسـابيع قليلـة وهـي تقـف في الشّرفـة.

- التّقديـر.. أن يقـدّر الطـرف الآخـر مميّزاتـك وصفاتـك، فـلا ينظـر إليـك بفوقيّـة، لأنّـك أنـثى يجـب عليهـا أن تتبـع الرّجـل دون تفكـير.. أن يحـترم خياراتـك ويسـاندك في مشـاريعك الخاصّـة.. ويثـق في رأيـك ويستشـيرك في أمـوره كلّهـا، لأنّـه لا يـراك مجـرّد تحفـة تزيّـن منزلـه، بـل كيانـا مسـتقلّا بذاتـه، يكمّلـه ولا يـذوب فيـه!

صفّقت رانيا في جذل ثمّ أعلنت:

- شكرا لإجاباتكنّ جميعا.. والآن إلى المائدة!

وقفـن في حمـاس، ورحـن يمـلأن أطباقهـنّ مـن الأصنـاف الـتي تشـاركن في إعدادهـا في وقـت سـابق مـن النّهـار. زفـرت رنيـم وهـي تقـول في تهكّـم بينمـا يداهـا منشـغلتان:

- يبـدو أنّـي العاطفيّـة الوحيـدة هنـا! لا أحـد يؤمـن بالحـبّ؟ لقـد أفسـدتنّ كلّ آمـال المسـتقبل!

علّقت ميساء مازحة:

- لا بأس بالحبّ كمدخل.. أو كخاتمة، أيّهما أقرب! لكنّه ليس كلّ شيء!

أضافت فاطمة في جديّة:

- وقد يكون لا شيء.. إذا اصطدم بحجارة الواقع تفتّت وتلاشى!

تنهّدت رنيم في أسى ثمّ قالت:

- لا فائدة! ياسمين، أغلقي أذنيك عنهنّ.. أتمنّى أن تحبّي هيثم، فالحياة بلا حبّ مسخ بلا طعم!

احتقن وجه ياسمين في حرج، بينما حدّقت فيهما ميساء لوهلة في شكّ.. ثمّ انشغلت بطبقها.

***

ركبت ميساء إلى جوار هيثم لينطلق بسيّارته على الفور. قال وهو يتأمّل الطّريق أمامه:

- كيف كانت الأمسية؟ هل استمتعت؟

- جدّا.. لقد تسلّينا كثيرا!

- جميل.

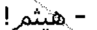
هتفت تناكفه:

- ولقد تحدّثنا عنك كثيرا!

التفت إليها في اهتمام:

- حقّا؟

- آه، لا يحقّ لي أن أنقل إليك شيئا.. أسرار المجالس، أنت تعلم!



حدجها بنظرة مغتاظة ثمّ عاد بتركيزه إلى الطّريق.

- هيثم!

- نعم.

ردّ دون أن يلتفت إليها، فقالت في رجاء:

- ياسمين طفلة بائسة.. فلا تكسرها أبدا.

- ماذا تقصدين؟

غزت ملامحه الدّهشة وهو يطالعها مصدوما، فصرخت ميساء:

- الطّريق يا أخي، انتبه أمامك!

عاد إلى التّحديق في الشّارع، وهو يسألها مجدّدا:

- ما الذي حدث؟ لماذا تقولين هذا؟

تنهّدت ميساء:

- لقد شعرت اليوم كم نحن مختلفتان، ياسمين وأنا.. لقد كبرتُ في عائلة متماسكة ومتحابّة، بينما نشأت هي مع أمّ مطلّقة، وزميلتها في السّكن امرأة مطلّقة. لا يمكن لأحد أن يلومها إن هي فقدت ثقتها في منظومة الزّواج. وفوق ذلك تدرس حالات الانتحار! حياتها محاصرة بالطّاقة السّلبيّة، لكنّها رغم ذلك مليئة بالتّفاؤل.. وتضع عليك آمالا عريضة!

اتّسعت ابتسامته مع كلماته الأخيرة، وسألها متحرّيا الدّقة:

- هل قالت ياسمين هذا؟

- ماذا؟

- أنّها تضع عليّ آمالا عريضة؟

قالت ميساء في تعابٍ:

- هل تظنّ غير ذلك؟ ألم توافق على الزّواج منك؟

- لا، أقصد.. هل قالت ذلك حرفيّا؟

هزّت كتفيها استهانة وقالت تناكفه:

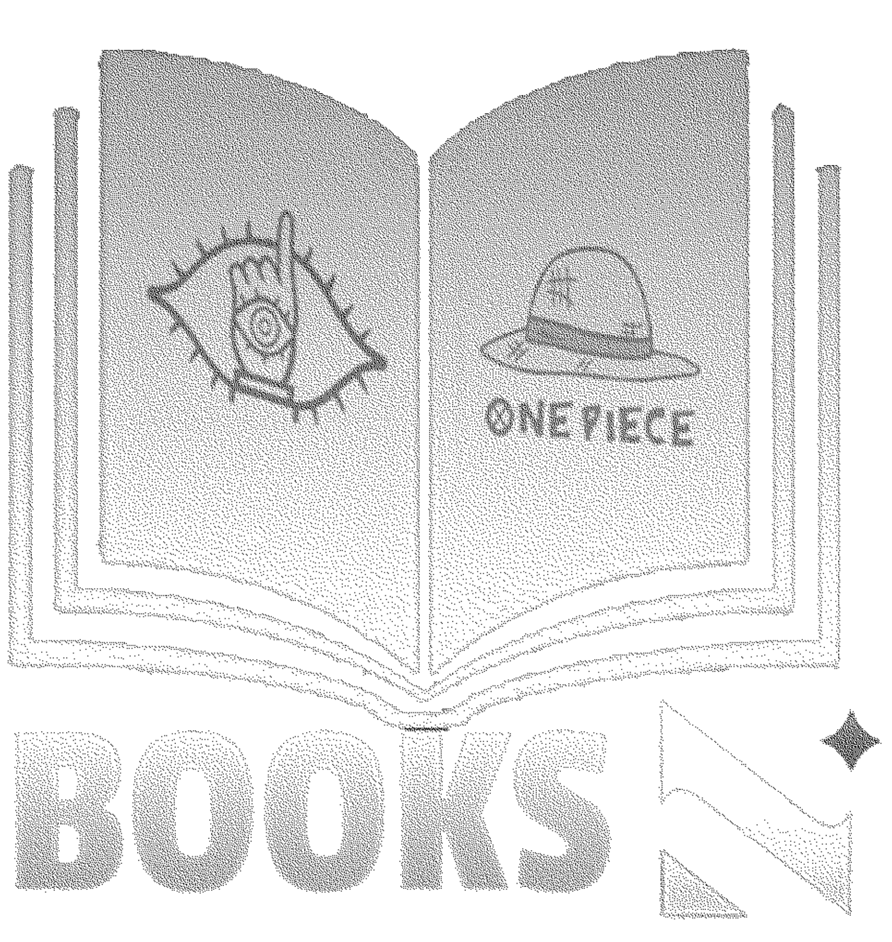
- لا أدري.. لقد شعرت بهذا وحسب!

زمّ شفتيه في غيظ وقد أدرك أنّه لن يحصل منها على حرف واحد زيادة. لكنّ كلماتها لم تفارقه بقيّة الطريق. لم يكن ما قالته غريبا عنه، ولم تكن ظروف ياسمين غائبة عنه البتّة. أولم تمدّد فترة الخطبة متعمّدة، تتحجّج بالرّسالة؟ لقد لمس خوفها، وسعى إلى طمأنتها بكلّ السّبل.. وبعد يومين، حين يجمعهما بيت واحد، سيطمئنها أكثر.

ابتسمت ميساء وهي ترقبه من طرف خفيّ. تعلم كيف هي مشاعر

أخيهـا تجـاه ياسـمين.. لكـنّ ملاحظـة رنيـم ضايقتهـا.

تمنّت أن تحبّ ياسمين هيثم كما يفعل.



-١٧-

أوقف سامي كلود سيّارته المرسيدس السّوداء أمام مبنى الجامع الكبير في ضاحية «سين سان-دوني»، ثمّ استدار ليلقي نظرة خاطفة على جارة مقعده وقال:

- أنت واثقة من رغبتك في الحضور؟ يمكنك الانتظار هنا إلى أن تنتهي المراسم.

ردّت ناتاشا، صديقته الرّوسيّة الصّهباء بلكنتها المميّزة المغناج:

- بالعكس، أودّ كثيرا حضور حفل زفاف تقليديّ!

في المقعد الخلفيّ، كانت فاطمة تمسك لسانها على مضض وهي تكاد تتميّز غيظا. لقد ألحّ على الهاتف، أعلن بلهجة قاطعة أنّ البنت لا يقودها إلى عقد قرانها إلا والدها. وقد راقت لها مبادرته لا ريب. رغم غيابه عن حياة ياسمين، بوسعها أن تثمّن اهتمامه بالمظاهر المشرّفة وحفظ ماء وجه ابنته أمام الأصهار. ثمّ من خير منه لينهض بمهمّة الوليّ؟

لكنّها لم تحسب حساب هذا! جاء من «ليون»، يقود سيّارته، وبرفقته صديقته الأجنبيّة! وها هي محشورة بينهما في سيّارة واحدة منذ الصّباح. ترى بعينها وتموت بقلبها. ألقت نظرة على ياسمين الجالسة جوارها. كانت مطرقة، تقبض بكفّيها على أطراف ثوبها. تبادلتا ابتسامة باهتة. كانتا متوتّرتين.. ولكلّ واحدة أسبابها.

في وقت سابق من صباح ذلك اليوم، قصد عدد محدود من أفراد العائلتين مبنى البلديّة لتسجيل الزّواج المدنيّ. لم يكن يُسمح بإقامة الزّواج الدّيني ما لم توقّع تلك الوثيقة الرّسميّة. لقد ذيّلت الورقة بإمضائها وانتهى الأمر. في حكم القانون، أصبحا زوجين.. والآن يستكملان

المراسـم الشّرعيّـة.

نقـرات خفيفـة عـلى نافذتهـا أخرجـت فاطمـة مـن بوتقـة أفكارهـا التّعسـة. أشـارت إليهـا زهـور. حـان الوقـت. ترجّلـت مـن السـيّارة، في حـين كان هيثـم يفتـح البوابّـة المقابلـة، لتـنزل ياسـمين.

خلفهـم تمامـا توقّفـت سـيّارة رنيـم الحمـراء الجديـدة. كان اسـترجاعها للخمسـين ألـف يـورو هديّـة مـن السّـماء. خمّنـت أنّ أفضـل اسـتثمار في الوقـت الحـالي هـو سـيّارة تحرّرهـا مـن أزمـة وسـائل النّقـل، وتدشّـنها في زفـاف ياسـمين. إلى جوارهـا جلسـت رانيـا وهـي ترتـدي فسـتانا أرجوانيـا طويـلا ووشـاحا في اللّـون الفـضيّ.. بينمـا اكتفـت رنيـم ببدلـة رسـميّة في اللّـون الكريمـي، وألقـت عـلى رأسـها وشـاحا أسـود بإهمـال، احترامـا لـدار العبـادة. رمقـت شـقيقتها بامتعـاض، وهـي تصلـح زينتهـا أمـام مـرآة السـيّارة، وقالـت محاولـة الحفـاظ عـلى هدوئهـا:

- انزلي.. سنتأخّر!

قالت رانيا وهي تطلي شفتيها بسخاء بأحمر شفاه زاهٍ:

- لن يبدأ شيء قبل الصّلاة، اطمئنّي.

قالـت سـكينة الـتي رافقتهمـا في المقعـد الخلفـيّ وهـي تفتـح البوّابـة مـن جهتهـا:

- سأسبقكما إلى الدّاخل.

تنهّـدت رنيـم في ضيـق، بينمـا ابتعـدت سـكينة لتلحـق بياسـمين وأهلهـا. تلـك شـقيقتها، وتلـك مسـؤوليّتها. هـذا أمـر لا فـكاك لهـا منـه.

- يا ربّ ألهمني الصّبر!

خطـت ياسـمين برفـق حـتّى توازنـت عـلى حذائهـا ذي الكعـب العـالي، ثـمّ لبثـت تنتظـر، حـتّى أحاطـت بهـا فاطمـة وميسـاء مـن الجهتـين، وضعـت كفّيهـا بكفّيهمـا فقادتاهـا بخطـى وئيـدة محفوفـة بالزّغاريـد إلى الدّاخـل. كانـت ترتـدي برنسـا حريريّـا أبيـض، تنزلـق قبّعتـه عـلى وجههـا لتُخفـي ملامـح

زينتهـا، وتمنعهـا مـن رؤيـة الطّريـق أمامهـا.

انحرفـت إلى مقصـورة جانبيّـة قبالـة باحـة المسـجد وحديقتـه، في حـين توجّـه الرّجـال مباشرة إلى قاعـة الصّلاة. لـم تكـن فريضـة العـصر قـد أقيمـت بعـد. صافـح عبـد الحميـد الإمـام ثـم هتـف في المصلّـين:

- حيّاكـم الله إخواننـا.. انضمّـوا إلينـا جميعـا بعـد الصّـلاة إلى وليمـة زواج ابـني!

تعالـت عبـارات التّهـاني مـن كلّ حـدب وصـوب، في حـين كانـت زهـور تقـوم بالمثـل في قاعـة النّسـاء. كان الحضـور كثيفـا ذلـك اليـوم، فقـد أُعلـن عـن العـرس قبلهـا بأيّـام، ووُجّهـت دعـوة مفتوحـة للجاليـة المسـلمة المقيمـة في الجهـة، فتناقلتهـا الألسـن، واسـتجاب النّـاس بـلا تـردّد، وكلّهـم اشـتياق إلى علامـات الفـرح المألوفـة في بلادهـم أو فضـول لاكتشـاف عـادات جديـدة.. فقـد كانـت أعـراس المغتربـين فرصـة لمـدّ جسـور التّواصـل وتوسـيع العلاقـات.

كان الأهـل والجـيران يتعاونـون عـلى تفريـغ الصـوّاني المكوّمـة بالكسـكس ومرقـه المطبـوخ بلحـم الضّـأن، والمعجّنـات والسّـلطات والفواكـه والمرطّبات والعصائـر، ويحملونهـا إلى قاعـات الصّـلاة.

مـا هـي لحظـات إلّا وأقيمـت صـلاة العـصر. بعـد ذلـك، تربّـع الشّـيخ قبالـة الحضـور، وأخـذ يتلـو موعظـة موضوعهـا الرّبـاط المقـدّس. ثـمّ دعـا، فأمّـن المسـتمعون، وأصغـت النّسـاء في انتبـاه إلى الخطـاب الـذي يصلهـنّ عـبر مكـبّرات الصّـوت، قبـل أن ينتهـي إلى مراسـم عقـد القـران.

حـين تصافـح هيثم وسـامي متبادلـين التّهـاني، ارتفعـت الزّغاريـد، وتوافدت السـيّدات لتهنئـة ياسـمين. كانـت قـد نزعـت عنهـا البرنـس لتكشـف عـن قفطانهـا التقليـديّ الأبيـض المطـرّز بخيـوط ذهبيّـة، وعـن زينـة وجـه خفيفـة ورقيقـة. كانـت قـد تركـت شـعرها الأسـود الطّويـل مسـدلا عـلى كتفيهـا، ووضعـت عـلى رأسـها تاجـا ذهبيّـا. بعـد ذلـك، فُرشـت قاعـات الصّـلاة ببسـط قطنيـة غطّـت السّـجاد الأحمـر، ومُـدّت سـفرة الطّعـام عـلى الأرض.

كانت زهور تروح وتجيء في همّة ونشاط، تعطي التّعليمات وتهتمّ براحة الضّيوف، وهي ما تفتأ تردّد في سرّها «اليوم عرسنا وغدا عرسهم»! كانت قد أعدّت الوليمة بنفسها، بمساعدة جاراتٍ وصديقات. حرصت على أن يكون الطّعام الدّسم كما ينبغي، لا يختلف في شيء عن أعراس البلد التي ما تزال حيّة في ذاكرتها، رغم الغربة التي تدوم منذ عقدين. لم تنس نثر حبّات الزّبيب والحمّص والحلوى على وجه كلّ قصعة قبل تحويلها إلى السّفرة، ورصفت الفلفل الحارّ المقليّ إلى جوار قطع اللّحم.

ثمّ رُفعت السّفرة، وتجمّعت النّسوة حول العروس. تقدّمت ميساء وهي تحمل سبت الحنّاء المغلّف بقماش أبيض مطرّز، والمليء بعلب الحلوى والمكسّرات المجهّزة من أجل المدعوّين. أوقدت الشّموع على وقع الزّغاريد، ثمّ أخذت زهور تخضّب كفّي كنّتها بعجينة الحنّاء، بينما توزّع ميساء الحلوى. بعد ذلك، تقاسمت الحاضرات ما تبقّى من العجينة، وزيّنّ كفوفهنّ بها، ثمّ حفظنها باللّفافات القطنيّة حتّى تجفّ. كان كلّ شيء بسيطا ودون تكلّف، والفرح غامرا وتلقائيّا.

خرجت ناتاشا وهي تلوّح جذلة بعلبة الحلوى في كفّ وبقرص العجينة في كفّها الأخرى. حدجها سامي في عجب، فقالت مأخوذة وهي تقرّب كفّها من وجهها:

- رائحتها زكيّة!

قال متهكّما:

- هنيئا لك بها!

ثمّ استطال مراقبا البوّابة، يبحث بعينيه عن فاطمة وياسمين حتّى يقلّهما إلى الشّقة.. لكنّ أيّا منهما لم تظهر. أخيرا، خرجت زهور، بعد أن أشرفت على تنظيف قاعات الصّلاة وجمع الأواني وبقايا الطّعام. في المقصورة، كان فريق من الشّباب يعبّؤون وجبات فرديّة لتوزيعها على فقراء الحيّ. اقترب منها سامي مستفسرا، فقالت باقتضاب:

- فاطمة غادرت مع رنيم.. وياسمين سيقلّها زوجها.

زمّ شفتيه وقد استشاط غضبا. لم تكلّف نفسها مشقّة إعلامه. يحلو لها أن يستمرّ في الانتظار بلا فائدة!

***

تسلّلت ياسمين عبر الباب الخلفيّ، حيث كانت سيّارة هيثم تنتظر. ابتسم وهو يلمحها تتعثّر في برنسها وكعبها العالي، ثمّ رآها تتنهّد حين استقرّت على المقعد المجاور. مدّ كفّه ورفع البرنس عن وجهها. رفع حاجبيه فجأة، ولم يعلّق. حدجته بنظرة متطلّعة، ثم لوت شفتيها في توتّر. لم يقل شيئا بشأن زينتها!

أدار هيثم المحرّك لينطلقا، ثمّ قال وعيناه معلّقتان بالطّريق:

- أين نذهب؟

قالت في دهشة:

- إلى الشقّة!

ضحك في تسلية، ثم قال:

- أنت مستعجلة للفكاك منّي؟

أطرقت في خجل وهمست:

- أين بوسعنا الذّهاب وأنا بهذا الشّكل؟

ناولها منديلا ورقيّا وقارورة ماء في صمت. حدّقت فيهما لبرهة ثم أدركت ما يرمي إليه. انبرت تمسح زينة وجهها في وجوم. حين فرغت، تطلّع إليها مبتسما وقال:

- هكذا أفضل!

أشاحت ياسمين بوجهها متجاهلة ملاحظته. لم تدر إن كان ما قصده مدحا لجمالها الطبيعي أم ذما لزينة العرس. لم تكن زينتها مبالغا فيها، بل إنّ كلّ الحاضرات أشدن برقّتها وبساطتها. تمنّت أن تلمح ذاك الوميض

في عينيه وهو يبصرها في أبهى حلّة.. لكنّه قصف كل توقعاتها.

توقّفت السيّارة عند رصيف نهر السّين، قرب جسر الفنون، قبالة محلّ مثلجات معروف. نزل هيثم على الفور، فكشّرت في انزعاج. إنّه حتّى لم يكلّف نفسه أن يسألها عمّا ترغب فيه! هل بدأت القِوامة من الآن؟ يقرّر عنها حتّى ما ستأكل؟

سرحت نظراتها عبر النّافذة. أمامها تماما تظهر الشبكة المعدنيّة على جانبي جسر الفنون، حيث يُعلّق الأحبّة أقفالا رمزيّة، متواعدين على الإخلاص. إنّها في اليوم الأكثر أهميّة في حياتها، وأمام المعلم الأشدّ رومانسيّة في باريس.. لكنّها تعيسة.

كان مزاجها في هبوط متواصل. شعرت بأنّها محبطة وعلى وشك البكاء. هل يعقل أن تستبدّ بها الكآبة عشيّة عقد قرانها؟ أسدلت جفنيها وهي تقاوم العبرات التي تلحّ عليها حتى تنهمر. ابتلعت الغصّة حين رأته يتقدّم باتجاهها.

بهدوء، فرش هيثم مناديل ورقية على حجرها، حتى لا يتّسخ قفطانها، ثم وضع في راحتها كوب مثلجات رشّت فوقه حبيبات توفي وشكولاتة. تأملت ياسمين كوبها، كانت فيه ثلاث كرات، بنكهة الكراميل والزّبدة المملحة، الفستق والقهوة.. نكهاتها المفضّلة!

- أعلم أنك تفضّلين مخروط البسكويت.. لكن الكوب أفضل لظروف اليوم!

ابتسمت رغمًا عنها. وهي تتناول ملاعق المثلجات واحدة إثر الأخرى، خفّت تعاستها تدريجيًا حتى تلاشت تماما مع البرودة التي خدّرت لسانها وحواسّها كلّها.

فكرت ياسمين بأنّه لم يفعل شيئا سيّئا. ربما لا تُعجبه الزّينة في المطلق، وقد أشار إلى ذلك بوضوح، فلا داعي لتعكير الجوّ. ثمّ هو قد تذكّر نكهاتها المفضلة ولم يحتج إلى سؤالها عمّا تريد. وهذا يشفع

لـه تمامـا!

- انظري إلى هنا، سألتقط صورة لنا.

أمالـت رأسـها برفـق وهـي تحـدّق في العدسـة وبسـمة رائقـة تزيّـن شـفتيها، فاقـترب هـو أكـثر حـتّى تلامسـت كتفاهمـا، فاشـتعل وجههـا حرجـا. التقـط الصّـورة بهاتفـه، ثـمّ قـال ضاحـكا:

- يكفي هذا لليوم.. سأعيدك إلى الشّقة!

***

بعـد حـوالي أربـع سـاعات عـلى الطّريـق، وصـل عمـر إلى وسـط مدينـة بروكسـيل. قـاد السـيّارة عـبر شـوارع العاصمـة البلجيكيّـة، ثـمّ تابـع تعليمـات جهـاز الملاحـة حـتّى انتهـى إلى العنـوان المطلـوب بالضّاحيـة الشرقيّـة. توقّـف أمـام جامـع مهيـب حديـث التّشـييد، ذي صومعـة باسـقة وقبّـة ضخمـة. قبالـة البنـاء حديقـة عامّـة مترامية الأطـراف، وعـلى الجانـب الآخـر عمائـر سـكنيّة.

تأمّـل الواجهـة الـتي تظهـر عليهـا لافتـة باللّغتـين العربيّـة والفرنسـيّة: «المركـز الإسـلاميّ والثّقـافي ببلجيـكا - المسـجد الجامـع ببروكسـيل».

إذن هذا هو المركز!

كان قـد انطلـق مبكّـرا في السّادسـة صباحـا، فوصـل زهـاء العـاشرة. اتّصـل برقـم عـزّام، ولبـث ينتظـر. بعـد لحظـات، ظهـر عنـد المدخـل رجـل أربعينيّ ملتـحٍ يرتـدي قميصـا أبيـض ويتدثّـر بكوفيّـة تغطّـي كتفيـه. توجّـه مبـاشرة إلى سيّارة عمـر، وقـد تعـرّف إلى لوحـة أرقامهـا الفرنسـيّة. صافحـه عمـر بحـرارة، وقـد فاجـأه شـباب الرّجـل الـذي كاد يهـمّ بمناداتـه «يـا عـمّ». ربّمـا يكـبره بعقـد مـن الزّمـن، لكـنّ ذلـك لا يبـدو كافيـا ليُنزلـه بمنزلـة العـمّ!

- تعال، سآخذك في جولة حول المركز!

تبعـه عمـر ليطوفـا سـويّا بالبنـاء، قاعـات الصّـلاة الفسـيحة، السّـاحة الواسـعة، المكتبـة وغـرف الاجتماعـات ثـمّ المحـلّات التّجاريّـة الـتي تضمـن

للمركـز اسـتقلاليته الماليّـة، والمبـاني الإداريّـة المتاخمـة لهـا. انتهـت بهمـا الجولـة في مكتـب عـزّام داخـل المبـنى. كان يـصرف سـاعتين مـن وقتـه يوميّـا لإدارة الشّـؤون الماليّـة للمركـز، تطوّعـا. دعـاه إلى كـوب شـاي محـلّى، وجلسـا يتجاذبـان أطـراف الحديـث.

- لا شكّ أنّ الرّحلة من باريس كانت مرهقة.. نضيّفك أوّلا ثمّ نتحدّث.

صلّيـا الظّهر مع روّاد الجامع، ثمّ خرجـا للغـداء. دعـاه عـزّام إلى مطعـم لبنـانيّ قريـب، حيـث تنـاولا وجبـة شرقيّـة دسـمة، ثـمّ عـادا أدراجهمـا إلى المكتـب. كان الرّجـل دمـث الخلـق حسـن المعـشر، مبالغـا في الحفـاوة. ذاب توجّـس عمـر إثـر الاتّصـال المريـب دون تمهيـد وتـرك مكانـه ارتياحـا وقبـولا. اسـتمرّا يتسـامران هنيهـة، حـتّى قـال عـزّام باهتمـام:

- كيـف هـي صحّتـك الآن؟ أعلـم بشـأن حادثتـك المؤسـفة.. هـل جسـدك قـادر عـلى التحمّـل؟

ارتبـك عمـر وقـد باغتـه السّـؤال الغريـب. لقـد عـاد الرّجـل إلى الغمـوض المريـب. قـال في حـيرة:

- تحمّل ماذا؟

ضحك عزّام، ثمّ قال:

- لا تخف.. لن أجري لك اختبارا بدنيّا. إنّما أريد أن أقترح عليك أمرا.

تريّث لبرهة، ثمّ استطرد يقول:

- لا شـكّ أنّ آيـة حدّثتـك عـن طموحاتهـا.. إنّهـا فتـاة ذات بصـيرة، وعـلى قـدر مـن الـذّكاء وعلـوّ الهمّـة. إنّهـا تريـد لذرّيّتهـا أن تنشـأ عـلى مـا نشـأ عليـه شـباب العائلـة منـذ أجيـال.. وليـس لذلـك مـن سـبيل أفضـل مـن تخـيّر أبيهـم!

أطرق عمر في حرج، وهزّ رأسه علامة الإصغاء، فأردف عزّام:

- إنّي ناصح لـك فاسـتمع! هنـاك أشـياء قـد تفعلهـا من أجـل شريكـة حياتك.. قـد تتبـنّى همومهـا وتشـاركها إيّاهـا مـن بـاب المـؤازرة والتّضامـن. لكـن ليـس

هناك ما هو أفضل من أن تكونا على نفس النّهج منذ البداية.. أن تكون قضيّتها قضيّتك أنت أيضا، فلا فضل لأحدكما على الآخر.. وقضيّتنا كما تعلم هي «مقاومة الاحتلال»!

أنصت عمر في انتباه. بدت دواخله مكشوفة تماما أمام الرّجل. لقد حدّث نفسه بذلك منذ جلسة التّعارف. لم يكن يمانع تبنّي هموم زوجته في المستقبل، وأن يصرف جهده وماله فيما يرضيها. إنّه يؤمن بالمقاومة بالتّأكيد، لكنّه دائما ما كان يرى نفسه مساندا، عنصرا خارجيّا لا جزءا صميما. ضحك عزّام ثمّ أضاف:

- أنا لا أقول احمل السّلاح وهلمّ بنا إلى ساحة الوغى في الحال.. لكنّ الله يقول في كتابه العزيز (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم). يجب أن نكون على استعداد دائم، نفسيّ وجسديّ.. ولهذا نحرص كلّ الحرص على أن يعرف ذوونا، خاصّة المهجّرين منهم والمتغرّبين عن دينهم ووطنهم وقضيّتهم، ما هي المقاومة أوّلا. إنّها ثقافة كاملة، نرجو استمرارها وتوارثها، حتّى يحدث ربّك أمرا!

بدا على عمر الاهتمام التامّ بما يقوله عزّام. قال في حزم:

- أنت محقّ.. ما أعرفه عن المقاومة لا يتجاوز متابعة الأخبار والانضمام إلى المظاهرات. أعرف أنّه قد فاتني الكثير.. لكنّني أريد أن أتعلّم. فما المطلوب منّي؟

ابتسم عزّام في استحسان وهتف:

- هذه هي الحالة الذّهنيّة التي توقّعتها! مبارك يا بنيّ، لقد نجحت في الاختبار!

حدّق فيه عمر غير مستوعب أن يكون الاختبار بتلك البساطة. بينما أخذ عزّام يضحك، ثمّ قال وقد استعاد مسحة الجدّ:

- أشعر بالاطمئنان بعد حديثنا.. أمّا ما تبقى، فهو موكول إليك! حين تكون جاهزا لخوض المغامرة، خبّرني.

- المغامرة؟

- هل شاركت من قبل في مخيّم كشفيّ؟

هزّ عمر رأسه علامة النّفي، فأردف عزّام:

- هناك مخيّم تدريب بدنيّ وروحيّ وثقافيّ، يُشرف عليه شقيقي الأكبر بنفسه.. يضمّ تحت جناحه كلّ شباب العائلة. يستقبلهم خلال الإجازات، ويعدّ من أجلهم برنامجا متكاملا. والفكرة تلقى نجاحا متزايدا على مرّ السّنوات.

- أين يكون المخيّم؟

- مخيّم اليرموك.. دمشق!

استولت على عمر الدّهشة. ليس هذا ما توقّعه. لكنّه لم يتعجّل بالرّدّ. استمع إلى مخاطبه وهو يشرح:

- إن أردت رأيي، فأنت في حاجة ماسّة إلى هذا التّدريب.. إنّه برنامج شبيه بالمخيّم الكشفيّ، مع درجة أعلى من التّكوين الرّوحيّ والنّفسيّ. أعرف أنّ حادثة مثل الّتي مرّت بك، وما تلاها من حبس وعلاج طويل، قد كسرت شيئا بداخلك.. وأنت بحاجة إلى ترميمه! كلّنا بشر، ومهما ادّعينا من رباطة جأش وصلابة، فنفوسنا هشّة.. ما لم نقوّمها بالأدوات اللّازمة! سترى، حين ترجع، ستكون قد اكتشفت مواطن قوّة لا تدركها في نفسك.

كانت قسمات عمر تزداد شغفا وافتتانا بحديث عزّام اللّافت عن البرنامج التّدريبيّ. ما كان يبدو مستهجنا في نظره منذ حين، اكتسى جاذبيّة وإغراءً لم يحسبهما ممكنين.

تابع عزّام يقول بصوته العميق المبحوح:

- هذا المخيّم بمثابة الشّرنقة المحكمة الّتي تعتصر الفراشة اليافعة.. فتظلّ تتخبّط وتتلوّى، حتّى تتخلّق أجنحتها، فتمزّق غلافها وتمرق! هكذا تكون حين تأتي على التّدريب حتّى نهايته.. نسخة أفضل من ذاتك!

***

استيقظت فاطمة مبكّرا في الصّباح التالي. بالأمس عرسهم، واليوم عرسنا! هكذا حدّثت نفسها. لم تكن من اختار النّمط الفرنسيّ الحديث للزّفاف، لكنّها تحمل جزءا من عبء خيارات طليقها. وحفل اليوم يجب أن يكون خيرا من حفل الأمس بكلّ المقاييس! كلّ شيء سيكون مختلفا، بدءا من الإطار المكانيّ، وقائمة الطعام، انتهاء بنوعيّة الضّيوف أنفسهم!

كانت قد أعادت وضع عجينة حنّاء من صنعها -جلبتها خصّيصا من تونس- في المساء على كفّي ياسمين، حتّى يقترب اللّون الخمريّ إلى السّواد أكثر، ثمّ حنّت كفّيها بدورها وقدميها وشعرها أيضا. خرجت من الحمّام بعد أن اغتسلت وتخلّصت من الحنّاء الجافّة العالقة بجسدها. كانت الفتيات يتناولن الإفطار في مرح. اقتربت من ياسمين وأشارت إليها:

- دعيني أرى كفّيك!

دقّقت في لون الحنّاء على راحتي ياسمين. ثمّ هزّت رأسها في استحسان. لقد بات اللّون غامقا وذا لمعان جميل.

- افركي كفّيك بزيت الزّيتون لتحافظ النّقوش على لمعانها.

أومأت ياسمين، ثمّ وقفت متّجهة إلى الحمّام.

- إلى أين؟

- آخذ دشّا سريعا.

- ليس اليوم! ستفسد الحنّاء.

- سأكون حذرة.

هرولت ياسمين بسرعة قبل أن تعارضها والدتها. التفتت فاطمة إلى رنيم وسكينة ورانيا وقالت:

- هيّا يا بنات، تجهّزن.. يجب أن نكون في القاعة للتأكّد من التّحضيرات.

تحرّكن على الفور في انصياع. دخلت رنيم غرفتها، واختفت سكينة ورانيا داخل الغرفة الثانية. بعد دقائق، خرجت ثلاثتهنّ يرتدين فساتين

زهريّـة متماثلـة! حدّقـت رنيـم في شـقيقتها وهتفـت في دهشـة:

- ما هذا؟ كيف...؟

ابتسمت رانيا في ظفر:

- لقـد أعجبـني فسـتانك، ورأيـت أن نرتـدي فسـاتين متماثلـة، كوصيفـات العـروس!

ابتسمت سكينة وقالت:

- لقد عدّلت على تصميم الفستان قليلا ليناسبني.. لم تكن فكرة سيّئة.

رفعـت رنيـم عينيهـا إلى السّـقف غـير مصدّقـة. هـذا مـا كان ينقصهـا، أن يبديـن جميعهـنّ نسـخا متطابقـة في حفـل الزّفـاف!

خرجـت ياسـمين مـن الحمّـام فألفتهـنّ واقفـات في الرّدهـة. هتفـت في استحسـان:

- لم أعلم أنكنّ خطّطتنّ لهذا! فكرة جميلة!

- ليس أنت أيضا!

حدجتهـا رنيـم بنظـرة مغتاظـة ودارت عـلى عقبيهـا لتختفـي داخـل الغرفـة مجـدّدا. شرحـت سـكينة الموقـف بسرعـة. رانيـا خطّطـت ورنيـم كانـت تجهـل الأمـر. قالـت رانيـا في لـوْم:

- أصلا كنت واثقة أنّها سترفض الفكرة!

تدخّلت فاطمة تستحثّهنّ:

- علينا الذّهاب الآن. ياسمين، كوني جاهزة خلال ساعتين.

أومـأت مـن جديـد في استسـلام. إنّهـا تتلقّـى الأوامـر منـذ أيّـام، ولا تعـترض. سـتنتهي فـترة العـرس هـذه عـلى خـير. زفـرت، ثـمّ طرقـت بـاب الغرفـة بخفّـة. تسـلّلت إلى الدّاخـل بهـدوء، لتجـد رنيـم تحـدّق في شـكلها أمـام المـرآة بملامـح عابسـة.

- مـاذا أفعـل الآن؟ لقـد جبـت المحـلّات طويـلا حـتّى عـثرت عـلى الفسـتان!

ليس بوسعي استبداله!

اقتربت ياسمين لتقف حذوها، وقالت برفق:

- رنيم، أنت شخصيّة فريدة.. ارتداؤك لفستان مشابه للأخريات لا يعني محو شخصيّتك.. بل أنّهنّ معجبات بذوقك ويردن أن يكنّ مثلك!

رفعت رنيم حاجبين معجبين، ثمّ تمتمت:

- كلام معسول.. ومقنع! أنا الأصل وهنّ التّقليد!

ضحكت ياسمين ثم أضافت:

- لا تعكّري مزاجك لهذا السّبب.. ثمّ أنا واثقة أنّ لديك ما يكفي من الأكسسوارات المميّزة الّتي ستجعل حلّتك مختلفة عن الأخريات!

بحماس، فتحت رنيم درجا في خزانتها، وأخذت تقلّب أغراضها في تفكير. خلال ثوان كانت قد انتقت حزاما ذهبيّا ووشاحا حريريّا ربطته حول عنقها. تنهّدت:

- هذا سيفي بالغرض.. سأوصلهنّ وأعود من أجلك.

***

توقّفت سيّارة هيثم أمام القاعة، ونزلت زهور وميساء. هتف وهو يشيّعهنّ بنظراته:

- إنّ احتجتنّ شيئا اتّصلن بي.. سأكون عند الحلّاق.

في نفس اللّحظة، كانت رنيم تتلقّى التّعليمات الأخيرة من فاطمة بشأن مهامّها المتبقّية. ستمرّ على محلّ الزّهور لتتأكد من وصولها في الموعد، ومحلّ المرطّبات لتفقّد قالب الحلوى، ثمّ ترجع لمرافقة ياسمين في موكب الزّفاف.

التقت النّسوة جميعهنّ عند المدخل فتعانقن في حبور. حدّقت رنيم في ميساء في ذهول:

- حتّى أنت؟!

دارت ميساء حول نفسها مستعرضة فستانها الزّهريّ المطابق لفساتين

الوصيفات، ثمّ قالت في سرور:

- إنّها فكرة رائعة! والتّصميم مثاليّ!

قالت رنيم في فتور:

- طبعا.

ثمّ اعتذرت لتنصرف إلى مهامها.

حين دلفت إلى الشقّة، كانت ياسمين تقف أمام مرآة الحائط في الصّالة تستعرض فستان الزّفاف الأبيض. كان تصميمه بسيطا وأنيقا، أبدعت سكينة في تنفيذ تفاصيله كما اشتهت ياسمين أن تكون. كان جزؤه العلويّ مغطّى بطبقة من الدانتيل الرّقيق وقد تناثرت فوقه حبّات لؤلؤ متباعدة، أكمامه واسعة، وجزؤه السفليّ من الساتان السّميك المتموّج.

تقدّمت رنيم وهي ترمقها في شكّ:

- ارفعي فستانك لأرى!

- ماذا تقصدين؟

- أريني قدميك!

كشفت ياسمين عن حذائها الرّياضيّ الأبيض الذي لا يظهر منه شيء تحت تنّورة الفستان الواسعة الملامسة للأرض.

- ذكّريني.. كم طول عريسك؟

- متر وتسعون!

- وأنت؟

- متر وستّون.

- وتريدين الوقوف إلى جواره بهذا؟

ابتسمت ياسمين في حرج:

- الكعب العالي يعيقني عند المشي.

- إذن اجلسي!

- أريد التّجوال حول القاعة ومحادثة المدعوّين.. ثمّ، هل سأعيش بقية حياتي بالكعب العالي، حتى أناسب طوله؟

- لا فائدة منك!

جلسنا جنبا إلى جنب على الأريكة، رفعت ياسمين قدميها على المائدة المنخفضة، واسترخت.. فحذت رنيم حذوها. كان أمامهما بعض الوقت قبل أن يصل موكب العرس. همست رنيم:

- أنت جاهزة؟

- الحقيبة عند الباب.. سنرحل بعد الحفل مباشرة إلى روما.

زفرت رنيم ثم قالت:

- لا أصدّق أنّها المرّة الأخيرة التي نجلس فيها هكذا.. غدا، ستكون الشّقة مختلفة!

- لا تقلقي.. سأزوركنّ.

- شتّان بين الزّائر والمقيم.

تنهّدتا بصوت واحد، ثمّ سألت ياسمين بابتسامة تعبق حنينا:

- هل تذكرين أوّل جلسة لنا هنا؟

ضحكت رنيم بصوت عالٍ:

- لا تذكّريني! كانت ليلة اعترافات حامية الوطيس! كنت أشكو مأساتي مع ميشال.. وأنت، حدّثتني عن شابّ المترو!

ابتسمت ياسمين وتنهّدت ثانية:

- لقد مضى زمن طويل.. وتغيّرت فينا أشياء كثيرة.

رمقتها رنيم في قلق:

- ألا تشعرين بالخوف؟

- الخوف؟

- من حياتك الجديدة!

- أشعر بالتوتّر.. لكنّ هذا أمر طبيعي. إنّني مقبلة على حقبة مختلفة.. شعور مماثل لما أحسست به حين وصلت إلى باريس أوّل مرّة!

- ليس هذا.. أعني، ألا يراودك الشكّ؟

- الشك.. فيمَ؟

- أن تكوني قد تسرّعت.

- تسرّعت؟ خطبة دامت ثلاث سنوات لا تعدّ تسرّعا!

- أعني.. ألا تخشين أنّك قد تخلّيت إلى الأبد عن فرصة قصّة حبّ حقيقيّة؟

اتّسعت ابتسامة ياسمين وهي تقول:

- أنا مستعدّة لمقايضة «فرصة قصّة الحبّ الحقيقيّة» كما تسمّينها، بما لديّ الآن!

- وماذا لديك؟

- أمان، تقدير، صدق، مسؤوليّة.. هل نسيتِ؟ ثمّ...

عبست رنيم:

- ثم ماذا؟

- ثمّ ما هو الحبّ؟ ألا يمكن أن يكون نتاج كلّ هذا مجتمعا؟ لماذا تحصرين العواطف في قوالب هوليوديّة نمطيّة؟ تلك صورة تجاريّة للحبّ.. كسراب نلاحقه ولا نحظى به أبدا.. كأنّه مأساة أو لا تكون! هل يجب أن تشتمل القصّة على فراق وألم وآهات مُسهدة وعواطف ملتهبة حتّى تكون العلاقة حقيقيّة؟ لماذا لا تكون طمأنينة وسكينة وانسجاما ومودّة؟

مطّت رنيم شفتيها وقالت في تهكّم:

- أطروحتك الجديدة؟ لا بأس بها!

- دعكِ مني.. آمل أن أراك عروسا قريبا.. إلى جوار من يقدّرك حقّ قدرك ويشعرك بالأمان.

رمقتها بنظرة طويلة حانية، مثل أمّ تتوق إلى عرس ابنتها، ثمّ أضافت تردّ سخريتها:

- لا بأس إن لم يكن حبّا من النّظرة الأولى.. أو تضحية وشقاء تحاربين من أجله العالم!

ضحكتا معا بصفاء. كانتا مختلفتين، وكانتا تتقبّلان اختلافهما ولا تعاندان. أمسكت ياسمين بكفّ صديقتها وشبكت أصابعهما ثمّ قالت بلهجة جادّة:

- رانيا.. كوني رفيقة بها.

- لماذا جئت على ذكرها؟ كنت في مزاج جيّد!

- إنّها مراهقة، ومذبذبة.. تحتاج منك الدّعم والاهتمام. فإن لم تفعلي، فإنّها ستبحث عنه من مصدر آخر!

سرحت رنيم للحظات متفكّرة. هل تبحث رانيا عن الاهتمام عند شهاب.. وعند ياسمين؟ تتقرّب من كليهما لأنّها لم تجد منها انتباها كافيا؟ أيعقل؟

قالت تدافع عن نفسها:

- أرى أنّها تحاول أن تكسب كلّ شيء هو لي.. صداقاتي وعلاقاتي، وحتّى ملابسي! أرأيت كيف أفسدت يومي متعمّدة؟

- إنّها ترى العالم من خلالك. رنيم هي الأفضل.. ذوقها هو الأسمى، ونجاحها هو الأبهى، وأصدقاؤها جديرون بالاهتمام! إنّها تحاول أن تكون مثلك، وإذ إنّها لا تفلح، فتسعى إلى شدّ انتباهك إليها. حاولي مصادقتها، لا مراقبتها.. ما لم تحرريه بالقسوة، سيكون طوع يدك باللّين.. أنا واثقة!

ألقت رنيم بنبرة متهكّمة:

- أيّ نصائح أخيرة، دكتورة ياسمين؟

قاطعهما رنين هاتف ياسمين. كان هيثم.

- أنت جاهزة؟ نحن بالأسفل.

- دقيقتان!

هتفت على الفور ثمّ هبّت من مجلسها. لقد سرقهما الحديث ونسيتا نفسيهما. وقفت أمام المرآة، مسدّت بشرة وجهها بطبقة من الكريم المرطّب، ثمّ سوّت حجابها الشّيفون الأبيض بإحكام، ووضعت على رأسها تاجا صغيرا من اللؤلؤ الأبيض. ساعدتها ريم على تثبيت طرحة الزّفاف الرّقيقة وهي تقول في تهكّم:

- لم أر في حياتي عروسا تجهز في دقيقتين! هنيئا لك يا هيثم يا ابن زهور!

***

وصل الموكب عند قاعة الاحتفالات الفخمة. نزلت ياسمين دون مشقّة، علّقت ذراعها بذراع والدها، ثمّ سارت بجواره محفوفة بالأهل والأصدقاء، وقد أسدلت الطّرحة على وجهها. كان هيثم وأهله قد سبقوهم بالدّخول، واحتلّ معظم المدعوّين أماكنهم على الموائد المستديرة.

استقبلتها الوصيفات بفستانيهنّ الزهريّة المميّزة المتطابقة، وهيّأن لها موطنا في صدر القاعة الذي نُسّقت عليه لوحة من البالونات البيضاء والورديّة، وتدلّت فوق رأسها أشرطة من الزّهور الطازجة. مال عليها هيثم وهمس حين وقفت بمحاذاته:

- تبدين أقصر اليوم!

حدجته بنظرة مستاءة، فهمس ثانية:

- ابتسمي.. حتّى لا يُقال عروس مُجبرة!

فأفلتت الضحكة غصبا عنها.

في الخلفيّة، كانت فرقة أوركسترا تعزف مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكيّة الهادئة لشوبان، تتخلّلها نغمات قانون وكمنجة حادّة بين

الفينــة والأخــرى.

تحرّكـت برفقـة هيثـم لتلقـي التحيّـة عـلى شـاغلي بضـع طـاولات.. كان هنـاك الكثـير مـن الغربـاء بالنّسـبة إليهـا. بالإضافـة إلى ضيـوف والدهـا، كان هنـاك زمـلاء هيثـم وأصدقـاء عائلتـه ومعـارف فاطمـة القدامى. كانـت تـرى أخويهـا سـارة وريّـان للمـرّة الأولى منـذ طـلاق والدهـا وإيلـين. حـزّ في نفسـها اعتـذار إيلـين عـن الحضـور، لكنّهـا تفهّمـت رغبتهـا في عـدم التّواجـد بنفـس الفضـاء مـع الرّجـل الـذي تسـبّب في محاولتهـا الانتحـار.

اقـترب والدهـا وبرفقتـه زمـرة مـن أصدقائـه، قدّمهـم إليهـا، البوفيسـور (...) والبروفيسـور (...) وبروفيسـور آخـر. ثـمّ أشـار إلى ابنتـه في فخـر.. الدّكتـورة ياسـمين! فهـزّوا جميعـا رؤوسـهم في استحسـان.

فجـأة، اختفـت الخلفيّـة الموسـيقيّة الكلاسـيكيّة لعـازفي الأوركسـترا، وارتفعـت أصـوات ضرب دفّ وغنـاء عـربيّ! اسـتأذن سـامي مـن ضيوفـه في حـرج، ثـمّ هـرول إلى منصّـة الموسـيقيّين وهـو يستشـيط غضبـا. حـدّق في فرقـة الغنـاء التّقليـديّ بأزيائهـا العربيّـة ذات الألـوان الوطنيّـة التّونسـيّة الحمـراء والبيضـاء، ودفوفهـا الرنّانـة، وقـد ارتفعـت أصواتهـا بالمديـح النّبـويّ، وهتـف في اسـتياء:

- ما هذا؟ من أين جئتم؟ من أنتم؟

اقترب صهره عبد الحميد وربّت على ذراعه مهدّئا:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

- أين ذهب الموسيقيّون؟ ماذا حصل هنا؟

- مفاجـأة، أليسـت كذلـك؟ بعـض معارفنـا لديـه فرقـة «سُلاميّة» تونسـيّة، وقـد رأيـت أن تُحـيي الأمسـية.. إنّهـا أفضـل مـن الموسـيقى الكلاسـيكيّة الكئيبـة!

أمسك سامي رأسه وتأوّه في ألم.

- هل أنت بخير؟

- «سُلاميّة» في باريس؟ تريدون قتلي حتما!

غير بعيد عنه، كانت ناتاشا تصفّق في جذل وهي تهزّ رأسها مع ضربات الدّفّ. التفتت إليه وقالت:

- الموسيقى التونسيّة رائعة! يجب أن نزور تونس قريبا.. تعجبني هذه التفاصيل الفولكلوريّة المدهشة!

ضحكت فاطمة في شماتة، ثمّ قالت وهي تشير إلى نادل الخدمة الذي أخذ يوزّع أطباق العشاء:

- وقت الطّعام!

فتفرّق الجميع للعودة إلى مقاعدهم. هدأت الجلبة لبعض الوقت، وأقبل الضّيوف على الطّعام.

كان العشاء على التّقليد الفرنسيّ الأصيل. كانت القاعدة الكلاسيكيّة أن تشتمل القائمة على ثلاثة أطباق: مقبّلات وطبق رئيسي وحلوى. قُدّمت أوّلا أطباق المحّار والسّلطعون مرفقة بسلطة الخضار المطعّمة باليود، ثمّ جاء الطّبق الرّئيسي.. قطع طريّة من لحم خاصرة البقر، ترافقها صلصة الفلفل الأسود والفطر البريّ المشويّ بالإضافة إلى قطع البطاطس المحمّرة.

بعد العشاء، توافد المدعوّون واحدا إثر الآخر، لتهنئة العروسين. جاءت رنيم، تتأبّط ذراع شهاب. تبادل الثّنائيّان دردشة خفيفة، ثمّ همست ياسمين في أذن رنيم:

- يبدو لي مناسبا جدّا.. لا تدعيه يُفلت!

ابتسمت رنيم في حرج. كانت كلماتها قبل سويعات ما تزال ترنّ في رأسها في إلحاح. رمقت شهاب في صمت وقد اندمج في حديث جانبيّ مع هيثم. لعلّها تكون على حقّ. لعلّها إن هي تخلّت عنه تندم بعد ذلك إلى الأبد.

في تلك اللّحظة، اقترب عمر من الحلقة. كان قد وصل للتوّ. صافح الرّجلين وهنّأ العروسين، ثمّ حيّاها بإيماءة عابرة، قبل أن ينغمس في

حديث تصلها منه نتف متقطّعة.

كان المشهد أمامها غير واقعيّ بشكل مربك. يتقاطع الماضي مع المستقبل في لحظة سرياليّة. تتخيّل نفسها بفستان العُرس. في أحلامها كانت ترى عمر دوما في بدلة سوداء، يقف إلى جوارها. لكنّ ذلك لا يبدو منطقيّا البتّة الآن. تتشوّش الرؤية وتهتزّ الصّورة، ثمّ تثبت من جديد وقد تحدّثت تفاصيلها. ترى نفسها تندفع لا إراديّا، تتعلّق بذراع رجلها الذي يولّيها ظهره.. يستدير، في حركة بطيئة، لتظهر ملامح شهاب، فيتبادلان ابتسامة عذبة. هذا ما يجب أن يكون.

- أين حلّقت؟

ابتسمت وهي تطالع ياسمين بعينين متألّقتين:

- أظنّك محقّة. سأقبل عرض شهاب!

- تفعلين؟ حقّا؟

هزّت رأسها في حماس. تُلقي نظرة أخرى على الرّجلين الواقفين جنبا إلى جنب، فتُدرك أيّ كفّة ترجح.. إنّها تريد أمانا وتقديرا وصدقا ومسؤوليّة! تلك التّوليفة العجيبة التي تصنع «الحبّ» حسب نظريّة ياسمين!

عانقتها ياسمين بحرارة، فدمعت عينا رنيم. بقدر الإثارة التي تغزو وجدانها، يتملّكها توتّر رهيب. الارتباط ليس أمرا يسيرا. لقد لبثت تؤجّل لأنّها تخشى تبعاته الحتميّة. والآن هذا القرار الذي اتّخذته في لحظة تجلٍّ نادرة، يفتح فوق رأسها شلال مشكلات لا حصر لها ولا عدّ!

سارت إلى طاولتها برفقة شهاب، وهي تشعر بالذّعر يستبدّ بها. ما الذي ستفعله بشأن عملها؟ وبرنامج الحقيقة الكاملة؟ قريبا تنتهي بعثة شهاب، وسيضطرّ إلى العودة إلى مصر.. وهي لا تقدر على ترك حياتها لمرافقته.

جلسا في صمت، وبدت على شهاب الكآبة. كان قد عاهد نفسه ألا يضغط عليها، لكنّ الوقت يمضي سريعا. خلال شهرين، تنتهي رحلته الباريسيّة، وهو كان يمنّي نفسه بإحراز تقدّم بشأن علاقتهما. لاحظ

اضطرابها. كان قد لمح منذ حين ذلك الشّابّ، موكّلها القديم الذي ظهر برفقتها في الحوار التّلفزيّ. هل يكون هو مصدر توتّرها؟ كان يُدرك وجود مشاعر ما بينهما، رغم كتمانها أمامه، وإنكارها على الشاشة! لكنّ حدسه يخبره بأنّ القضيّة وحدها لم تكن لتؤثّر بها إلى تلك الصّورة التي عرفها عليها منذ سنتين ونصف.

قال بلهجة حزينة:

- ألا توحي لك الأجواء بشيء؟

تعلّقت نظراتها بالخاتم الماسيّ في بنصرها، وازدردت لعابها في توتّر. إنّ هذا التّسارع المجنون في الأحداث لم يخطر لها قطّ حين استيقظت صباحا. أخذت نفسا عميقا ثمّ قالت:

- لا أريد الرّجوع إلى مصر الآن!

- ماذا تقصدين؟

- حياتي هنا: عملي، والبرنامج التلفزيوني وعلاقاتي وصداقاتي.. لا أريد التخلّي عنها.

ردّ في فتور:

- أفهم ذلك.

- هل تعتقد أنّ ارتباطنا سيكون ممكنا في ظلّ هذه الظروف؟

- لم أعد أفهم!

أخذت نفسا جديدا وقد استهلكت كلّ هواء رئتيها لتقول تلك الكلمات:

- شهاب.. أريد الاحتفاظ بهذا الخاتم.. لكنّني لا أعرف، كيف أوفّق بين هذه الرّغبة وكلّ الأشياء المهمّة الأخرى في حياتي!

كانت ترتجف. أمسك شهاب براحتيها بين كفّيه مطمئنا، ثمّ قال وعيناه تتألّقان بوميض الفرح:

- سنجد حلّا لكلّ شيء.. هوّني عليك!

سحبت كفّها ومسحت عبرات تناثرت على وجنتيها وهي تهمس في

اضطــراب:

- لا أدري ما الذي حلّ بي! هل الزّواج معدٍ؟

ضحك شهاب ثم قال مداعبا:

- لم أسمع عن حمّى الزّواج من قبل.. لكنّني لا أمانع التقاط العدوى!

ظهرت رانيا فجأة أمام وجهها وهي تنادي في حماس:

- هيا بنا.. صورة الوصيفات!

كانــت رانيــا تبــدو منهمكــة منــذ الصّبــاح ومنتشــية بالمســؤوليّات الــتي أســندت إليهــا مــن تزويــق للقاعــة وتنســيق للزّهــور، حــتّى أنّهــا لــم تفكّــر في مضايقــة رنيــم أو التطفّــل عــلى مائدتهــا وشــهاب.

انصاعــت رنيــم دون اعــتراض. وقفــت إلى جــوار ياســمين برفقــة رانيــا، واصطفّــت ميســام وســكينة مــن الجانــب الآخــر. منحــت رانيــا كلّ واحــدة منهــنّ إكليــل زهــور تتوّجــن بــه رؤوســهن، ثــمّ التقــط المصــوّر الصّــورة الجماعيّــة.. أربــع وردات زهريّــة تتوسّــطهنّ خامســة بيضــاء.

همست رنيم في أذن ياسمين:

- لقــد أخبرتــه! أشــعر بــأنّ حــرارتي ارتفعــت، ومعــدتي متقلّبــة.. أودّ الفــرار مــن هنــا. لــن تغضبــي مــنّي، أليــس كذلــك؟

- ما الذي حصل؟ هل تشاجرتما؟

- لم نفعل.. لكنّني خائفة.. مرتعبة!

- هدّئي من روعك.. أمامك الوقت الكافي لترتيب أمورك كلّها.

تنفّست بعمق، ثمّ قالت بهدوء:

- أنــت عــلى حــقّ. لــن نــتزوّج في الغــد.. أمامنــا شــهران حــتّى انتهــاء البعثــة.. يــا إلهــي، شــهران فقــط!

ضحكت ياسمين ثمّ همست:

- أنت مضطربة. اهدئي قليلا.. إنّ غدا لناظره قريب!

غير بعيد عنهما، كان هيثم يطالع عمر في عتاب ويستفسر:

- ما الذي أخّرك؟ لقد فوتّ وجبة العشاء!

ابتسم عمر وقال معتذرا:

- لقد عدت الآن من بروكسيل!

- وماذا كنت تصنع في بروكسيل؟

قال عمر بابتسامة صغيرة:

- أتعرّف إلى عائلة مخطوبتي!

اتّسعت عينا هيثم في عدم تصديق وهتف:

- أحقّا؟

لم تظهر على عمر علامات المزاج. فربّت هيثم على ذراعه مهنّئا.

- مبارك يا أخي! الأمر جدّ إذن.

في تلك اللّحظة، ظهرت ياسمين في مجال بصره، بثوب الزّفاف الأبيض والابتسامة الجذلة تزيّن محيّاها. لم يستطع عمر استيعاب الرّجفة الحادّة التي سرت في جسده حين وقعت عيناه على وجهها. إنّه يرتاح لهيثم، ويأنس لصحبته، لكنّه كثيرا ما يتناسى أنّه خطيب ياسمين، وزوجها الآن، فتاة المترو خاصّته. في تلك اللّحظة، أيقن أنّ حضور حفل الزّفاف لم يكن بالفكرة الجيّدة!

قالت ياسمين وهي تخطو باتّجاههما:

- دكتور عمر، شكرا لحضورك!

تدخّل هيثم ليشرح:

- عمر كان في زيارة لأهل مخطوبته في بروكسيل.. لذلك تأخّر في المجيء.

هتفت ياسمين في فرحة حقيقيّة:

- تهانينا!

تقبّل عمر التّهاني من جديد، ولازمه ذاك الضّيق الغريب المعكّر للمزاج.

في مكان ما من لا وعيه، كانت حقيقة ارتباطها ما زالت ضبابيّة. حسب أنّ حضور زفافها ورؤيتها بالفستان الأبيض، سيجعله يواجه الحقيقة الفجّة ويتقبّلها.. وخال أنّه قد حوّل اهتمامه إلى آية بإخلاص. لكن في جسده مضغة ذات إرادة حرّة، لا تستجيب لزجره مهما شدّ لجامها.

في أعماقه، كانت تترسّب بقايا قصّة قديمة لم ينجح في الخلاص منها بعد. وكانت تلك الأحاسيس الغريبة التي يكتشفها داخله تدهشه وتؤلمه في آن.

لقد كانت فتاة المترو تختزل في لا وعيه تلك المرحلة الوادعة من حياته، والتي اختفت إلى الأبد. كانت رؤيتها في كلّ مرّة تذكّره بخيبته، وبما كان يمكن أن يكون، لكنّه لم يكن. وقد كان من المجحف أن يحمّلها تلك الرّمزيّة التي لا علاقة لها بها!

قال في اندفاع وقد اتّخذ قراره بشكل مفاجئ:

- في الحقيقة، لقد جئت مودّعا!

هتف هيثم باستغراب:

- هل تغادر فرنسا؟

- مؤقتا. لديّ بعض المشاغل.. سأغيب لبضعة أشهر.

قالت ياسمين بلهجة دافئة:

- رحلة موفّقة!

فتسرّبت الكلمات لتربّت على قلبه.

في صمت، أضاف إلى قائمة جراحه التي تحتاج التّعافي جرحا جديدا. لم يكن يدرك حتّى تلك اللحظة أنّ فؤاده المثلوم استمرّ ينزّ دما فاسدا. كان عليه أن يمزّق الشّرنقة بأسرع ما يمكن، ليفتح جناحين ناضجين ويشبّ في الفضاء.

ظهرت ميساء وهتفت:

- حان وقت تقطيع الكعكة!

التفّت الوصيفات والمقرّبون من أفراد العائلتين حول المائدة المركزيّة التي تحمل كعكة ذات طوابق ثلاثة، مغلّفة بعجينة سكر بيضاء، وتعلوها زهرات متفرّقة متوافقة مع طابع الحفل وديكوراته. تحت وقع الزّغاريد والغناء الحماسيّ، قطع ياسمين وهيثم الكعكة.. ثمّ شرعت زهور في توزيعها على المدعوّين.

همس هيثم لياسمين:

- خلال عشر دقائق.. ننصرف!

أومأت في تفهّم. عليهما اللّحاق بالرّحلة. قبل ذلك، يجب أن ترجع إلى الشقّة لتغيّر ثيابها. هتفت رانيا:

- ألن ترمي الباقة؟

نظرت ياسمين إلى باقتها ذات الورود الحمراء القانية. كانت تودّ الاحتفاظ بها، لكنّ التّقاليد السّخيفة تقتضي أن تمرّر «المشعل» إلى العروس التّالية!

تجمّعت الفتيات وتزاحمن في مرح وانفعال. هزّت رنيم كتفيها في ترفّع وانسحبت بعيدا عن التّدافع. راقبتها ياسمين وهي تبتعد، ثمّ ولّتهم ظهرها وعلى شفتيها ابتسامة متشفّية. بعد العدّ التّنازليّ، ألقت الباقة باتّجاه جانبيّ، بعيدا عن الزّحام.

فزعت رنيم، حين سقطت الباقة فوق رأسها مباشرة، وتلقّتها في ذهول.

- فأل حسن.

همست فاطمة في أذنها، في حين هتفت رانيا في انزعاج:

- نحن هنا! لماذا ألقيت الباقة بعيدا؟

ابتسمت ياسمين في اعتذار وقالت:

- أنا سيّئة في التّسديد!

ثمّ غمزت رنيم خفية.

أحبت ياسمين روما.

كان هنـاك شيء سـاحر بشـأنها. كأنّهـا متحـف في الهـواء الطلـق، يعبـق بسـحر قـرون ماضيـة يتضـوّع في كلّ زقـاق وكلّ بنايـة. كان فندقهمـا يقـع في قلـب المدينـة العتيقـة، قـرب «بيـازا فينيزيـا» (سـاحة البندقيـة) وشـارع «آل كورسـو» الـذي يقطـع مركـز رومـا بشـكل طـولي، وتعـجّ واجهاتـه بالمحـلّات والمطاعـم والمبـاني الأثريـة.

خرجـا صباحـا للمشي، يجوبـان الشـوارع بـلا وجهـة محـدّدة.. حتّى توقفـا أمـام نافـورة «تريفـي». اقتربـت ياسـمين مـن الحاجـز الحجـريّ فأبـصرت نقـودا معدنيّـة ذات نقـوش وألـوان مختلفـة مترسّـبة في قـاع النّافـورة.. الكثـير منهـا. همـس هيثـم:

- هل لديك أمنية؟

قالت ياسمين ضاحكة:

- أتمـنّى أن أعـود هنـا ليـلا، بشـبكة صيـد.. وأنتشـل النقـود الـتي ألقاهـا المغفّلـون هنـا. سـأصبح ثريّـة حتمـا.

قال هيثم بأسلوب فلسفيّ:

- ليسوا بالضّرورة مغفّلين. هناك رمزيّة للنافورة.

- ما هي؟

- الأمـل! لا أحـد يلقـي نقـودا لأنّ نافـورة الأمـاني سـتحقّقها. لكـن لأنّـه يريـد الاحتفـاظ بالأمـل.. يومـا مـا قـد يصبـح حقيقـة! والبعـض الآخـر يفعلهـا للتّسـلية.. مـن بـاب احـترام قواعـد اللّعبـة. أنـت عنـد تريفـي، ترمـين عملـة معدنيّـة! أنـت عنـد جـسر الفنـون، تضعـين قفـلا!

ابتسمت ياسمين وقالت مداعبة:

- هل لديك أمنية إذن؟

أغمض هيثم عينيه وتظاهر بالتفكير.

- أتمنّى.. أن ننجب نصف دستة من الأطفال!

- نصف دستة!

- أنا أحبّ العائلة الممتدّة.. تعترضين؟

لوت شفتيها ولم تعلّق.

- ألن تتمنّي شيئا؟

- اممم.. أتمنّى منزلا كبيرا وحديقة واسعة تلهو فيها نصف دستة من الأطفال!

ضحكا، ثمّ استأنفا المسير. صعدا «الدّرج الإسباني» ثم استأجرا درّاجات هوائية ليجوبا أنحاء حديقة «فيلا بورجيزي».. وحين استبدّ بهما الجوع، دخلا محلّ بيتزا، ثم تناولا المثلجات الإيطالية الشهيرة والتيراميسو الأصلي بمذاق القهوة.

في روما اكتشفت ياسمين مشروب «الموكا المثلج». مزيج من القهوة والشكولاتة وقطع الثلج المسحوقة، تعلوها طبقة حلوة من «الشانتي». سيصبح على الفور مشروبها المفضل.. ومهما حاولت فيما بعد أن تستعيد مذاق الموكا إثر عودتها إلى باريس، فإنها لم تفلح. كان كوبها الأول ذا طعم لا يُضاهى وستظلّ تتمثّل حلاوته وطلاوته على لسانها كما تتمثّل السّعادة التي حلقت على جناحها في تلك الأيام.

لمحت عربات مزخرفة تجرّها الخيول، ويتجمّع حولها السيّاح في «ساحة إسبانيا»، فهمست لهيثم:

- أنا متعبة، هل نركب حتّى الفندق؟

بدت فكرة مسلّية، فاقترب هيثم من الحوذيّ ليستفسر عن سعر

الجولـة، فقـال بلكنتـه الإيطاليّـة المميّزة:

- مئتان وخمسون يورو!

شهقت ياسمين، ثمّ سحبت هيثم من ذراعه ليبتعدا، وهتفت:

- أنا بخير.. يمكنني المشي!

ضحك هيثم طويلا، ثمّ قال:

- أعدك، سنعود إلى روما.. حين يصبح لدينا نصف دستة من الأطفال، ونركب عربة الخيول!

في الغد، زارا متاحف الفاتيكان وحديقته الفريدة، ثمّ تمشيا حتى ساحة كاتدرائية القدّيس بطرس. كان المبنى المشيّد بشكل دائريّ يحدّ السّاحة من ثلاث جهات، بينما بوسعهما رؤية روما على الجهة الرّابعة.. بلدان مستقلان تفصل بينهما ساحة مفتوحة.

كان الزّحام شديدا على أبواب الكاتدرائية كما كان على كل المزارات السياحيّة التي وقفا عندها، والسيّاح يصطفّون في طوابير انتظار طويلة وملتوية تمتدّ إلى منتصف السّاحة.

فجأة تناهى إلى مسمعهما صراخ باللغة الفرنسية. عند أحد المداخل، كان زوجان فرنسيّان يسبّان بلبلة ويرفعان عقيرتهما بصياح متشنّج. كان أمن المبنى قد منعهما من الولوج، بعد أكثر من ساعة أمضياها في الطابور. كانت السّيدة ترتدي تنّورة قصيرة وقميصا بلا أكمام، بينما تعلن اللّافتات المبثوثة حول السّاحة أنّ زيارة دور العبادة تقتضي زيّا محتشما.

ابتعدا عن المدخل مضطرّين، وقد بدا عليهما استياء شديد، وحينما كانا يعبران السّاحة، اقتربا من حيث يقف هيثم وياسمين، فرفع الرّجل ذراعه ليزمجر متبرّما:

- يسمحون للإرهابيين بالدّخول ويطردوننا؟ يا لهذا التخلف!

قبل أن تدرك ياسمين ما يحصل، كان هيثم قد خطا أمام الرّجل دون

تـردّد، حـتّى سـدّ طريقـه. قـال بلهجـة صارمـة:

- من تسمّي إرهابيا؟

صعـق الرّجـل. ظـنّ كلماتـه الفرنسـية الـتي أطلقهـا بـلا حـذر عصيّـة عـلى الفهـم في العاصمـة الإيطاليـة، ليجـد هيثـم يخاطبـه بلكنـة باريسـية صرفـة. وقفـا وجهـا لوجـه، وقـد بـدا هيثـم متفوّقـا عـلى خصمـه ببنيتـه الرياضيّـة وعضلاتـه المفتولـة، وكانـت قامتـه الفارعـة الـتي تهيمـن عـلى مخاطبـه قـد زادت الوضـع حرجـا. كـرّر عـلى مسـمعه السـؤال بـإصرار:

- ما الذي كنت تقوله للتوّ؟

اقترب رجل أمـن من حـرس الكاتدرائيـة حـين لمـح المشـاحنة على وشـك الاشـتعال وهتـف:

- ما الذي يحصل هنا؟

كان النّـاس قـد أخـذوا يلتفتـون بفضـول ويلتفّـون حـول المتخاصمـين. تدخلـت سـائحة إيطاليـة في منتصـف الخمسـينيات، كانـت في الجـوار منـذ البدايـة وقالـت:

- نعتهم بالإرهابيين.. لقد سمعته!

التفت رجل الأمن إلى الزّوج الفرنسي وقال بحزم:

- هويّتك سيدي!

أخـرج السّـائح جـواز سـفره عـلى مضـض، في حـين خاطـب رجـل الأمـن هيثـم:

- هل تريد التّقدّم بشكوى من أجل القذف؟

- بالتأكيد أريد.

- إذن تفضلوا معي جميعا إلى مركز الشرطة.

تدخّلت الزّوجة الفرنسيّة لتخاطب رجل الأمن في رجاء:

- لـم يكـن يقصـد ذلـك.. كان غاضبـا لأنّنـا مُنعنـا مـن الدّخـول.. لـم يكـن

ينـوي سـوءا.

- هل يُريد الاعتذار إذن؟

هتف الرّجل بسرعة:

- نعم بالتأكيد.. أعتذر!

لكـنّ الزّوجـين كانـا يخاطبـان رجـل الأمـن طيلـة الوقـت، متجنّبـين النّظـر إلى هيثـم وياسـمين، فالتفـت رجـل الأمـن إلى هيثـم، وقـد بـدا مـصرًا عـلى تعليـم الفرنسـيّين درسـا:

- مـا رأيـك سـيدي.. هـل تقبـل اعتـذاره؟ في حـال لـم تقبـل وسـجّلنا المحـضر، سيُسـجن لمـدة ثمانٍ وأربعـين ساعة ويدفـع ضريبـة عـلى الـكلام البـذيء في مـكان عـام، بالإضافـة إلى القـذف.

عندئـذ أدرك الرّجـل أنّ القـرار قـد غـدا بيـد هيثـم، فاسـتدار ليواجهـه وقـال بنـبرة نـدم:

- أنـا آسـف جـدّا يـا سـيدي.. أقسـم لـك لـم أكـن أقصـد الإسـاءة! نحـن في زيـارة قصيرة لرومـا ونغـادر مسـاء غـد.. لا يمكنـني البقـاء محبوسـا.. أرجـوك اقبـل اعتـذاري!

بدا على هيثم التفكير الجادّ، ثم استدار ليخاطب ياسمين:

- ما رأيك؟ هل يستحقّان العفو؟

- لا يستحقّان.. لكنّ الرّحمة من أخلاقنا.. العفو عند المقدرة.

ابتسم هيثم ثمّ قال:

- مراعـاة لظـروف سـفرك سـنصفح عنـك.. لكـن راقـب لسـانك في المـرّة القادمـة.

- بالتأكيد سأفعل!

أعـاد رجـل الأمـن جـواز السـفر إلى الفرنسـيّين، فهـرولا مبتعديـن وهمـا لا يـكادان يصدّقـان نجاتهمـا.. بينمـا صافـح رجـل الأمـن هيثـم باحـترام وقـال

بابتسـامة صافيـة:

- أهلا بك سيدي.. أتمنى لكما يوما سعيدا.

بينمـا يمضيـان في سـبيلهما، أخـذت ياسـمين تحـدّق في هيثـم بابتسـامة معجبـة. لقـد تابعـت المشـهد كلّـه في ذهـول. كان ردّ فعلـه سريعـا، صارمـا وواثقـا. وحـين اسـتدار ليطلـب رأيهـا، أحسّـت بأنّهـا قـد باتـت في مركـز قـوّة. فكّـرت بأنّهـا لـم تشـعر قـطّ بالأمـان كمـا تشـعر في تلـك اللحظـة، وهـو يقبـض عـلى كفّهـا ويعـبران السّـاحة عائديـن باتّجـاه رومـا. قـال متبرّمـا:

- الفرنسيّون يلاحقوننا بعنصريّتهم! ألا يمكن أن نستمتع بعطلة هادئة؟

التفـت ليجدهـا مـا تـزال تحـدّق فيـه وثغرهـا يفـترّ عـن ابتسـامة واسـعة. ابتسـم بـدوره وقـال مداعبـا:

- هل أعجبك العرض؟

هزت رأسها بقوّة وحماسة، فأردف:

- نفتعل شجارا آخر إذن؟

ضحكت هذه المرّة ثم قالت:

- لـو لـم تكـن معـي، لمـا عرفـت كيـف أتـصرّف.. كنـت لأبتعـد في صمـت، أعـتزل مـا يؤذيـني ولا أردّ الفعـل.. لأظـلّ أجـترّ مـرارة الموقـف بقيّـة اليـوم، أصرّ عـلى أسـناني وأكيـل اللعنـات في داخـلي، فتتراكـم الطاقـة السـلبية! لكنـني سـعيدة اليـوم، لأنـك كنـت موجـودا، وواجهـت الموقـف ولـم يحصـل شيء مـن هـذا.. سـأمضي بقيـة اليـوم أسـترجع الموقـف، فأضحـك في متعـة! هـل تـرى؟! الموقـف ذاتـه.. لكـن النتيجـة متباينـة!

تنهّدت ثم أضافت:

- المسلم القويّ خير من المسلم الضعيف.. أنت خير مني!

ابتسم وهو يشدّ على كفها في حنوّ:

- وفي كلٍّ خير! أما وقد صرنا أنا وأنت واحدا.. فستكونين قويّة منذ الآن!

***

بعـد أسـبوع في رومـا، حلّقـا باتّجـاه البندقيـة. لـم يكـن مـن الـوارد أن يـزورا إيطاليـا ولا يحطّـا في مدينـة العشّـاق! كانـت البندقيّـة مذهلـة في ذاك الوقـت مـن السّـنة. لـم يكـن منسـوب المـاء في الممرّات المائيّـة مرتفعـا حـدّ الفيضـان كمـا يكـون في الشّـتاء، ولا منخفضـا حـدّ الجفـاف كمـا هـو الحـال في ذروة الموسـم الصّيفيّ. شـهر أكتوبـر كان مثاليـا.

ركبـا البـاص المـائيّ الـذي يعـبر «القنـاة الكبـيرة» المتعرّجـة عـبر المدينـة، يـنزلان ليقطعـا مسـافة عـلى الأقـدام عـبر الأزقّـة الضيّقـة صعـودا وهبوطـا، ثـمّ يمتطيـان المركـب مجـدّدا في المحطّـة التاليـة.

أمضيـا بعـض الوقـت في سـاحة «سـان ماركـو» حيـث يسـترخي حمـام كسـول يتجـوّل بـين أقـدام السـيّاح فيهدونـه حبوبـا مجانيّـة بسـخاء، ثـمّ صعـدا إلى قمّـة الـبرج، ليشرفـا عـلى المدينـة مـن الأعـلى. كانـت زرقـة السّـماء تلتقـي بانعكاسـها فـوق سـطح البحـر عنـد الأفـق، وتظهـر أسـقف البنايـات الحمـراء بالقرميـد عـلى مـدّ البـصر. وقفـا هنـاك لبرهـة، في تأمّـل حالـم، وحـين أوشـكت الشّـمس عـلى الغـروب، همـس هيثـم:

- حان الوقت!

نـزل الـدّرج اللّولـبيّ عـلى عجـل، وسـحبها باتّجـاه قنـاة مائيـة جانبيّـة. أخـذ يفتّـش بعينيـه، حـتّى أبـصر ربّـان «جانـدول» منعـزل. أشـار إليـه هيثـم، فتحـرّك الرّجـل بضربـات مـن مجذافـه عـلى سـطح المـاء.

- نريد جولة لنصف ساعة، ونرجع عند الغروب.

- مائة يورو!

سحبته ياسمين من ذراعه وقالت في سخرية:

- هيا بنا.. سنفعل ذلك مع نصف دستة من الأطفال!

ضحك هيثم، ثمّ قال:

- ليس هذا.. هذه جولة لاثنين فقط!

أمسـك بكفّهـا وسـاعدها عـلى القفـز داخـل «الجانـدول». بعـد لحظـات،

كان القارب الضيّق ينساب عبر القنوات المائيّة الخفيّة التي تتخلّل أحياء المدينة القديمة، يمرّ تحت الجسور وينزلق بسلاسة، على وقع غناء الريّان النّاعس بألحان إيطاليّة قديمة.

كانت ألوان الحياة قد أخذت تبهت، تكتسي حمرة الشّفق وتغدو درجاتٍ بين البرتقالي والأسود. بينما يعكس الماء تورّد وجه السّماء، كانت ملامح ياسمين تعكس ألوانا من الأحاسيس. خفتت الأصوات من حولها، ولم يعد يصلها غير الغناء العذب، وضربات المجذاف، ووجيب قلبها.

إلى جوارها، يجلس هيثم، يطالعها بابتسامة رائقة. الهواء المسائيّ يهبّ برفق ليطيّر وشاحها، فيعيده بحرص إلى وضعه الأصليّ. قال بعد سكون طويل:

- هل أنت سعيدة؟

- أشعر كأنني في حلم!

ضحك بخفّة، ثمّ قال:

- أنا آسف.. عليك الاستيقاظ الآن!

لامست حافة القارب رصيف القناة، فنقد هيثم الريّان أجره ثمّ ساعدها على النّزول. قال وهما يسيران بهدوء عبر الزّقاق الخالي:

- أنت مستعدّة؟ غدا نعود إلى الحياة العاديّة.

سرحت لبرهة. حياة عاديّة؟ سيكون كلّ شيء مختلفا. لكنّها ستصبح حياتها العاديّة منذ الآن. تناولا عشاءهما الأخير في مطعم مطلّ على القناة المائيّة، ثمّ وضّبا حقائبهما، واستعدّا للعودة.

سألها هيثم وهما يأخذان مقعديهما على متن الطّائرة المتّجهة إلى باريس:

- ما هي أجمل ذكرى لك من هذه الرّحلة؟

أجابت على الفور دون تردّد:

- الشّجار أمام الكاتدرائيّة!

ضحك هيثم ملء شدقيه، ثمّ قال في عجب:

- حسبتك ستقولين جولة «الجاندول» في البندقيّة! كم هو عجيب أمر النّساء! ما يبذله الرّجل من جهود لنيل رضاهنّ يذهب أدراج الرّياح.. ويجدن كلّ الرّضا في التفاصيل البسيطة!

أومأت مؤيّدة:

- نحن أقلّ تعقيدا ممّا تحسب.. وغير متطلّبات.

قال وهو يكشّر عن أنيابه:

- أمرك بسيط.. سنكثر من الشّجار إذن!

***

دخلت آية تحمل طبق الشّاي كالعادة، وعلى ملامحها غبطة لا تخفيها. بعد رحيل عمر عن بروكسيل، اتّصل خالها عزّام وأشاد بخاطبها أشدّ الإشادة. اكتملت أركان التّوافق بعد الاستخارة والاستشارة. حين وضعت الطّبق على المنضدة، كان والدها يقول مخاطبا عمر:

- هل عزمت على السّفر إذن؟

هزّ عمر رأسه موافقا وقال:

- أنهي بعض الأشغال هنا وأسافر بإذن الله.

أومأ العمّ محمّد في استحسان:

- والله لو كان بي شباب لبادرت بالسّفر معك! حين جئنا إلى باريس، كانت زوجتي -رحمها الله- حاملا في آية، فلم أقدر على تركها وحيدة.. وبعد وفاتها، صارت آية كلّ دنياي، وأنا كلّ عائلتها.. فلم أفارقها أبدا. فات الأوان الآن!

تمتم عمر بدعاء الرّحمة ثمّ انتبه إلى آية التي كانت قد اتّخذت مجلسها قبالته. قام والدها مثل كلّ مرّة، ليسمح لهما بحوارٍ خاصّ. لم

يستمرّ الصّمت سوى لحظات، قبل أن تبادر آية بانشراح:

- قال خالي أنّك اجتزت الاختبار بنجاح!

ابتسم بدوره، ثمّ قال:

- لعلّ الاختبار كان فكرة جيّدة.

كان كلّ شيء يدعوه إلى الرّحيل مؤخّرا. لقد باتت باريس خانقة ومرهقة، وهو كان بحاجة إلى تلك السّفرة بعيدا عن مصادر خيبته. ولعلّه بعد ذلك يقرّر هجرة دائمة عن فرنسا. لعلّ أوان الانتهاء من تلك المرحلة في حياته قد حان. لعلّ بداية جديدة تنتظره، في مكان ما من أرض الله الواسعة. فكّر أنّ بروكسيل خيار ملائم.. حين يرتبط وآية بشكل رسميّ سيحدّثها عمّا يراوده من خواطر.

- ستسافر إذن؟

أومأ برأسه ثمّ سألها:

- هل توصين بشيء من دمشق؟

ابتسمت وهي تطرق في خفر وهمست:

- سلامتك.

لم تكن متحفّزة كعادتها، رافعة درع الحزم في وجهه مسدّدة سهام الحكمة إلى صدره. تبدّت أكثر أنوثة واستكانة، وقد راق له ذلك الجانب منها. تناولت كيسا قماشيّا كانت تخفيه وراء ظهرها، ووضعته على المائدة أمامه.

- هذه ذكرى منّي.. لعلّها ترافقك في رحلتك.

تسلّلت إليه الرّقة النّاعمة في صوتها، فاستعذب تلك اللّحظات الهانئة. مدّ كفّه ليلتقط الهديّة، ففكّ الشّريط برفق وفتح الكيس.. لتملأ رائحة زكيّة أنفه. سحب من داخله علبة مخمليّة حمراء، يستقرّ في جوفها مصحف صغير يتضوّع بعطر الورد الذي تملأ بتلاته المجفّفة الكيس. طالع الهديّة في دهشة وإعجاب. كان اختيارها موفّقا، يجمع في طيّاته

دفء المودّة ورصانة الجدّ الذي تعوّده منها.

أعاد العلبة إلى كيسها، ولم تفارق الابتسامة المعجبة شفتيه. فكّر في خجل بأنّه لم يخطر بباله إحضار ذكرى منه ترافقها في غيابه. ربّما كان أخرق في مجال العلاقات، يخوض للمرّة الأولى غمار الارتباط الجادّ بأنثى، ولم يعلّمه أحد أنّ الهدايا الشّخصيّة بند من بنودها! كان يأتي محمّلا بأكياس الفواكه وعلب الحلويّات، لكنّه لم يأت قطّ بشيء خاصّ من أجلها. قال باهتمام وهو يرنو إليها:

- أيّ الأشياء أحبّ إليك؟

قالت بتلقائيّة:

- الزّهور!

فاجأه ردّها، ولم يرضه. لعلّها تخشى أن تثقل بالطّلب إن هي صارحته بما تحبّ. حاول الالتفاف حول المسألة، فقال:

- أيّ الألوان تفضّلين؟

- الزّهريّ!

ضحك من إصرارها على اللّفظ ذاته، فضحكت بدورها. تملّكه إحساس بالألفة وهو يسمع ضحكتها لأوّل مرّة. شعر بأنّه مستعدّ الآن لعبور الوادي الذي يقفان على ضفافه، كلّ من جهة.

سيوسع لها مجالا في قلبه، وسيحفظ ذكراها كلّما وقعت عيناه على مصحفها.

وقف عمر عند شبّاك التّسجيل في مطار باريس «شارل دو غول». كانت رحلة ليليّة تأخذه إلى إسطنبول على متن طائرة الخطوط الفرنسيّة، ومنها يحلّق ثانية إلى دمشق. لم يحمل من المتاع غير حقيبة ظهر جلديّة حوت عددا قليلا من القمصان وبنطالين من الجينز، بالإضافة إلى أدوات الحمّام الأساسيّة ومجموعة كتب. لم ينس أن يدسّ بعناية مصحفه ذا العلبة المخمليّة الحمراء وكيس الورود المجفّفة!

سلّم الموظّفة جواز سفره وتذكرته، فنقرت على الجهاز أمامها قبل أن تعيد إليه وثائقه بابتسامة:

- رحلة سعيدة!

اتّصل بعزّام منذ أيّام لترتيب وصوله. سيكون هناك شابٌ من معارفه في انتظاره في المطار، ليرافقه إلى مكان إقامته في الفترة المقبلة. لم يكن واثقا من مدّة المكوث المتوقّعة. عزّام اقترح شهرا كحدّ أدنى.. لكنّه لن يتعجّل في الحكم. إن راقته التّجربة فسيطيل البقاء، وإلّا بوسعه الرّجوع على عقبيه وقتما يشاء.

***

صارت الشقة هادئة على غير عادتها. تناقص عدد المتساكنين فجأة. بعد أن تزاحمت الأسرّة في الغرف الضيّقة واختلطت أنفاسهم في ليالي سمر ماتعة، تفرّقت السّبل وتباعدت المسافات.

بعد زفاف ياسمين، انتقلت فاطمة إلى ضيافة زهور. تتسلّيان معا في انتظار عودة العريسين من رحلتهما. وككلّ خميس، كانت رنيم تقصد محطّة البثّ التلفزيّ بعد ساعات عملها في مكتب المحاماة، من أجل الحلقة المباشرة لـ«الحقيقة الكاملة».

جلست سكينة وحيدة أمام الشّاشة، تترّقب في توتّر. كانت رانيا ما تزال ممنوعة من الخروج منذ حادثة تخلّفها عن القطار الأخير، لكنّها آثرت الانزواء في الغرفة، على أذنيها سمّاعاتها وهي غائبة في عالمها الصّاخب.

أثناء الفاصل الإعلانيّ، رنّ هاتف سكينة. كانت رنيم. قالت في حماس:

- كوني جاهزة.. التّسجيل يبثّ بعد حين!

تعلّقت عينا سكينة بالشّاشة وقد بلغ منها القلق مبلغه. ترتجف كفّاها، ويضيق صدرها. صارت آلام الصّدر تفاجئها كلّما استبدّ بها الجزع، مثل نوبات هلع لا تقدر على السّيطرة عليها.

ظهرت شارة البرنامج أخيرا، ثمّ ماتيلد دوبري تعلن عن الفقرة المقبلة. دمعت عينا سكينة حين رأت وجهها على التّلفاز أخيرا! لم يكن التّسجيل كاملا، عمل فيه مقصّ المونتاج عمله ليغدو مختصرًا. لكنّ القصّة ما زالت مؤثّرة ومفهومة. ثمّ ملأت الشاشة الصّورة التّقريبيّة الّتي طلبت رنيم من رسّام محترف إنجازها.

- ذلك الولد.. لقد رأيته في مكتبة الجامعة!

استدارت سكينة بغتة حين وصلها صوت رانيا. كانت تقف في المطبخ، تحضّر لنفسها وجبة خفيفة. لم تكن السّماعات تفارق أذنيها، لكنّها رفعت بصرها لوهلة لتحطّ على الصّورة المعروضة على التّلفاز. قالت تلك الكلمات، ببساطة، ثمّ سحبت قدميها في كسل لتعود إلى الغرفة.. بينما تسمّرت سكينة مكانها غير مستوعبة.

هل قالت رانيا ما ظنّت أنّها قالته؟

لحقت بها وهي تصارع قصر نفسها وتشوّش رؤيتها بفعل الدّمع. وقفت تلهث عند الباب. أشارت إليها حتّى توقف تدفّق الموسيقى إلى أذنيها، ثمّ همهمت:

- سمعتك تقولين شيئا.. عن الصورة التي عرضها البرنامج.

أومأت رانيا، ثمّ قالت في نزق:

- لقد رأيت الصّورة مع رنيم قبل سفرها.. ثمّ ظهر ذلك الشابّ في مكتبة الجامعة.. كان شبيها للغاية بالصّورة، لكن حين تحدّثت إليه أنكر أن يكون معنيّا بالأمر! حسبته مجرّد شبه.. لكن حين رأيت الصّورة مرّة ثانية، بدا لي الشبه أكيدا. أكاد أجزم بأنّه هو...

وضعت سكينة كفّها على صدرها، وانهارت على طرف السّرير، وهي تهمس:

- آه، جاسر.. يا ولدي!

ثمّ تهاطل دمعها بغزارة.

بُهتت رانيا. لم تكن تدرك لاضطراب سكينة سببا. اقتربت لتحتضنها في ارتباك.

- ما الأمر؟ لماذا تبكين الآن؟

ثمّ أضافت في شكّ:

- هل تعرفين الولد؟

- ولدي.. فقدته منذ أربعة عشر عاما!

حين رجعت رنيم من المحطّة التّلفزيّة، ألفت رانيا وسكينة تجلسان في انسجام على الأريكة. كانت سكينة قد قصّت على مسامعها تفاصيل قصّتها المؤلمة، فأنصتت رانيا في انتباه وتأثّر.. ثمّ حدّثتها عن لقائها القصير بالشابّ المتوقّع أنّه جاسر. حاولت تذكّر أدنى التّفاصيل: شكله، ثيابه، طريقة حديثه.. لم تغفل شيئا. وكانت سكينة تشجّعها بأسئلة دقيقة وهزّات مستمرّة من رأسها وتألّق في عينيها. ستبدأ رحلة البحث غدا صباحا. ترافق رانيا إلى الجامعة، وتقتفيان معا أثر الولد المفقود.

استقبلت سكينة رنيم بعناق حارّ. هتفت:

- أظنّنا وجدناه!

اتّسعت عينا رنيم في دهشة. لم تحسب أنّ بثّ التّسجيل قد يؤتي أكله بتلك السّرعة.

- هل اتّصل أحد؟

- لا، لـم يتّصـل أحـد. لكـنّ رانيـا تعرّفـت إليـه. لقـد لمحتـه في مكتبـة جامعتهـا!

انحسـرت البهجـة عـن ملامـح رنيـم. إنهـا تعـرف شـقيقتها، تفعـل أيّ شيء لتكـون محـطّ الاهتمام. لـن تسـتغرب عـلى الإطلاق أن تدّعـي رؤيتها للشـابّ لمجـرّد لعـب دور البطولـة لأيّـام.. ثـمّ لـن يكلّفهـا الأمـر أكـثر مـن اعتـذار عابـر. «لقـد أخطـأت، حسـبته هـو!».. لذلـك لـم تقـدر أن تشـارك سـكينة فرحتهـا. قالـت في تـروّ:

- الرّسـم وحـده لـيس دليـلا كافيـا.. إنّهـا مجـرّد صـورة تقريبيّـة. علينـا التأكّـد مـن تاريـخ التبنّي، و...

قاطعتها رانيا بحدّة:

- سنعثر عليه أوّلا، ثمّ نتأكّد من التّفاصيل.

***

اسـتيقظت رانيـا وسـكينة مبكّرتـين. جهّزتـا نسـخا عـدّة مـن الصّـورة الـتي بحـوزة رنيـم واتّجهتـا إلى الجامعـة. وقفتـا عنـد بوّابـة الدّخـول، وأخذتـا تعرضـان الصّـورة عـلى الطلبـة المارّيـن بهمـا:

- هل تعرف هذا الشابّ؟ هل رأيته في الجامعة؟

يتدفّـق الطـلّاب مـن البوّابـات، يهتـمّ بعضهـم بالصّـورة فيلقـي نظـرة عابـرة ثـمّ يسـتمرّ في طريقـه، ويتجاهلهـا آخـرون ويعرضـون. بعـد سـاعات مـن اللّهفـة والنّشـاط، خلـت السّاحة مـن الـروّاد تقريبـا، انـصرف كلّ منهـم إلى درسـه. تبادلـت رانيـا وسـكينة نظـرة محبطـة، ثـمّ هتفـت رانيـا في تصميـم:

- فلنذهب إلى إدارة الجامعة!

وقفتـا أمـام موظّفـة الإدارة بعـد أن شرحـت سـكينة طلبهـا. حدّقت السـيّدة في الصّـورة لبرهـة ثـمّ قالـت بلهجـة جافّة:

- لا يمكـن التعـرّف عـلى طالـب في الجامعـة مـن خـلال صـورة! يمكـن البحـث

في الملفّات باسم العائلة والاسم الشّخصي...

- جرّبي جاسر الخطيب!

بحثت الموظّفة على جهازها لبضع ثوانٍ ثمّ أعلنت:

- لا يوجد!

فكّرت سكينة لبرهة، ثمّ قالت:

- اسم العائلة التي ترعاه «لاكروا».. جرّبي «جاسر لاكروا».

مرّة أخرى، عكفت المرأة تُسائل ملفّاتها.

- لا يوجد!

- هل هناك أسماء أخرى من عائلة «لاكروا»؟

- هذا اسم دارج، أمامي اثنان وأربعون طالبا اسم عائلتهم «لاكروا»!

- هل يمكننا الحصول على القائمة؟

ردّت بصرامة:

- لا!

غادرتا إدارة الجامعة وهما تشعران بالإحباط. لم يسفر بحثهما عن نتيجة تذكر. هتفت رانيا على حين غرّة:

- المكتبة! ترقّبي هنا.. سألقي نظرة.

صعدت رانيا الدّرج اللّولبيّ حتى قاعة المكتبة الفسيحة. جابت بنظراتها بين الطاولات التي كان معظمها خاليا في ذلك الوقت من النّهار. مرّت بين أروقة الكتب مرّتين، ثمّ عادت أدراجها خائبة. وقفت عند موظّفة الاستقبال وسألتها بالإنجليزية:

- «جاسر لاكروا».. هل جاء اليوم إلى المكتبة؟

تردّدت الموظّفة لحظة، ثمّ ألقت نظرة على ملفّ التّسجيل:

- لم يحضر طالب بهذا الاسم.

زفرت في وجوم، ثمّ التحقت بسكينة في السّاحة. لم تحتج سكينة إلى سؤالها. كانت ملامحها تنطق بخيبتها.

- نعلّق الملصقات على بوّابة الجامعة.. ربّما يراها أحد ويتّصل!

أومأت سكينة في استسلام، ثمّ تعاونتا على تثبيت الرّسوم على الجدار. كان الأمل مساء أمس في أعلى درجاته. نامت وهي تهدهد حلم لقائه قريبا، وسكبت عبرات حرّى وهي تتخيّل مشهد أخذه في حضنها بعد عقد ونصف من الحرمان. لكنّها تصطدم بصخرة الواقع، وهي تتعثّر في خطواتها راجعة إلى الشّقة بخفي حنين.. فيزداد صدرها ضيقا.

***

لم تنبس رنيم بتلك الكلمات «ألم أقل لك؟»، لكنّ قسماتها كانت تنطق بها، وهي تواسي سكينة، وتطمئنها إلى أنّ البثّ التّلفزيّ سيؤتي أكله حتما، وهو أوسع تأثيرا من الوقوف عند بوّابة الجامعة.

حدجتها رانيا بنظرة غاضبة. كانت تدرك أنّ رنيم تستخفّ بها ولا تؤمن بقدرتها على المساعدة. لكنّها قالت في ثقة:

- سيظهر مرّة أخرى.. لن يختفي هكذا! سنحاول مرّة أخرى غدا.

حين استيقظت صباحا، كانت رنيم ما تزال نائمة. تسلّلت إلى غرفة سكينة، بعد أن طرقت الباب بخفّة. كانت ما تزال في سريرها. لامست كتفها برفق وهمست:

- هل تودّين أن نعيد الكرّة اليوم؟

أنّت سكينة ولم تستجب. هزّتها بقوّة أكبر وهي تقول في قلق:

- سكينة.. أنت بخير؟

فتحت سكينة عينيها بعسر. كانت متعرّقة، وتنفّسها مضطرب. هرولت رانيا في قلق إلى غرفة رنيم. سحبتها من سريرها وقد أوحت ملامحها بالفزع.

- سكينة.. لا تبدو بخير!

طار النّعاس عن جفني رنيم، وهبّت برفقتها إلى الغرفة الأخرى. انحنت فوقها تعاينها، ثمّ حرّكتها بلطف. كانت تلهث، وقد التهب وجهها حرارة، وتقطّعت أنفاسها. هرولت رنيم لترتدي ملابسها ثمّ عادت إليهما.

- ساعديني!

تحرّكت الأختان لتضعا عليها ثيابها، ثمّ تعاونتا على حملها حتّى السيّارة.

- رانيا، اذهبي إلى جامعتك.. سآخذها إلى المستشفى.

- سآتي أيضا!

- وجودك لن يغيّر شيئا.. افعلي شيئا مفيدا واذهبي إلى درسك، هيّا!

عبست رانيا وزمّت شفتيها في ضيق، لكنّها أطاعت على مضض. أوصلتها رنيم حتّى محطّة المترو، ثمّ مضت إلى الطّوارئ.

حين وصلت رانيا إلى الجامعة، كان أوّل ما لاحظته غياب الملصقات التي ثبّتتها بالأمس على الجدار. كانت قد نُزعت وألقيت في القمامة! زمجرت في غضب، وأخرجت ملصقات جديدة من حقيبتها. لن تترك اليأس يتسلّل إليها. شمّرت عن ساعديها، وراحت تلصق الرّسوم من جديد.

- ماذا تفعلين هناك؟

فاجأها صوت غليظ سرعان ما أصبح صاحبه قبالتها. مزّق رجل الأمن الورقة التي ثبّتتها للتوّ، وهتف زاجرا:

- ممنوع الإعلان على جدار الجامعة! هيّا أزيليها كلّها!

تملّكها إحساس بالعجز. أخذت تنزع الأوراق في ضيق والعبرات تتساقط على وجنتيها في صمت. التفتت حين شعرت بعينين تراقبانها. حدّقت في الوجه المألوف الذي وقف صاحبه على بعد أمتار قليلة، يتابع حركاتها في فضول.

- أنت!

كان شـكلها مختلفـا بغطـاء الـرّأس المتهـدّل فـوق شـعرها. لكـن حـين واجهتـه، تعرّف إلى ملامح الفتـاة الـتي لقيهـا في المكتبـة منـذ أسـابيع. اسـتدار مبتعـدا فركضـت لتلحـق بـه.

- أنت جاسر؟

قال ببرود:

- اسمي ليس جاسر!

- إذن اسم عائلتك «لاكروا»؟

توقّف فجأة وحدجها بنظرة حادّة، ثمّ استأنف سيره دون أن يردّ.

- إنّه كذلك.. أصبح الأمر أكيدا الآن!

كانـت تحـثّ الخطـى خلفـه وهـو يمـشي أمامهـا مسرعـا، كأنّـه يفـرّ مـن حصارهـا. فقفـزت لتسـدّ الطّريـق أمامـه:

- قف، لنتحدّث!

تكلّمـت بالإنجليزيـة، فهـي أكـثر طلاقـة بهـا عـن الفرنسـيّة، فقـال هـو بالفرنسـيّة متعمّـدا، بلهجـة سـاخرة:

- أخـبرني أحدهـم أنّ فتـاة غريبـة الأطـوار تنـشر صـوري عنـد بوّابـة الجامعـة.. كان يجـب أن أعـرف أنّهـا أنـت!

قالت رانيا في غضب:

- أمّك تبحث عنك!

- أمّي في المنزل.. وهي قطعا لا تبحث عنّي!

- تلك أمّك بالتبنّي. أتحدّث عن أمّك الحقيقيّة!

رأت ملامحه تكفهرّ وحاجبيه يتقاربان.

- ما هذا الهراء!

عاد إلى المشي بسرعة، فعادت لمسابقته.

- شاهد الحلقة الأخيرة من برنامج «الحقيقة الكاملة» وستفهم كلّ شيء!

لـم يـردّ واسـتمرّ في المسـير، حـتّى دخـل محطّـة المـترو. تبعتـه وهـي تـزداد غيظا وحـيرة.

- ألن تتوقّف؟ أنا أكلّمك!

- وأنا لا أريد أن أكلّمك!

- ألـن تشـاهد الحلقـة؟ أمّـك مريضـة.. مريضـة جـدّا. وكلّ أملهـا في الحيـاة أن تـراك مـرّة أخـيرة!

لبـث يحـدّق فيهـا في ارتبـاك. بـدا مهتمّـا للمـرّة الأولى بمـا تقـول. لكنّـه سرعـان مـا أشـاح بوجهـه في إعـراض، وقـد اسـتيقظ نفـوره الـذي خبـا لبرهـة قصـيرة. صفّـر المـترو وهـو يقـترب مـن الرّصيـف. أدركـت أنّـه سـيرحل، وهـي لا تملـك الاسـتمرار في ملاحقتـه إلى مـا لا نهايـة. أخرجـت واحـدا مـن الملصقـات الـتي تمـلأ حقيبتهـا، ووضعتـه بـين يديـه:

- إذا غيّرت رأيك، اتّصل بأحد الأرقام المدوّنة على الإعلان!

نظـر إلى الرّسـم المشـابه لوجهـه متأمّـلا، وبـدا عليـه التّفكـير. لوهلـة حسبته سَيَلين.. لكنّـه مـا لبـث أن كـوّر الورقـة بقسـوة ورماهـا عـلى الأرض، قبـل أن يقفـز ليركـب عـبر بوّابـة المـترو المُشرعـة.

تسمّرت رانيا مكانها في ذهول، ثمّ أخذت تبكي بمرارة.

***

حـين خطـت داخـل الشّـقة، كانـت رنيـم في المطبـخ منهمكـة في إعـداد حسـاء الخـضراوات. سـألتها رانيـا في فتـور:

- أين سكينة؟

- إنّها نائمة.

- هل هي بخير؟

كان اهتمـام رانيـا بأمـر سـكينة مفاجئـا بالنّسـبة لرنيـم. تعـرف شـقيقتها، إنّهـا لا تهتـمّ لـشيء آخـر عـدا ذاتهـا الصّغـيرة! لكنّهـا أردفـت في هـدوء:

- لا ندري بعد.

- ماذا قال الطّبيب؟

- طلب أشعّة للصّدر وتحاليل مخبريّة. حين تظهر النّتائج سنعرف أكثر.

- ماذا عن الحرارة؟

- أخذت مخفّضا.. صارت أفضل الآن.

لم يكن ذاك الإلحاح ليمرّ مرّ الكرام بالنّسبة إلى رنيم. رمقتها بنظرة سابرة، تروم الغوص في أغوار نفسها. لكنّ رانيا فاجأتها وهي تتّجه إلى غرفة سكينة:

- لديّ أخبار سعيدة، ستشعرها بتحسّن!

تركت رنيم ما بين يديها ولحقت بها إلى الدّاخل. اقتربت رانيا من سكينة، وهمست بخفوت:

- سكينة.. هل أصبحت أفضل الآن؟

استقامت سكينة واستوت جالسة في سريرها، وقالت بابتسامة:

- أشعر بتحسّن.. آسفة لأنّني أقلقتكما عليّ!

هتفت رانيا في حماس:

- لديّ بشرى لك! لقد رأيت جاسر اليوم!

- حقّا؟ هل تحدّثت إليه؟

كانت ملامح سكينة تتلوّن بألوان الفرح، وعيناها تشرقان بالأمل. أومأت رانيا وهي تواصل:

- طلبت منه أن يشاهد حلقة «الحقيقة الكاملة» حتّى يفهم القصّة.. تعلمين أنا لست جيّدة في الفرنسيّة.

- لا بأس يا عزيزتي، لا بأس.. هل حصلت على رقم هاتفه أو وسيلة اتّصال به؟

تقلّصت ابتسامتها وهي تقول في اعتذار:

- كان متوجّسا.. لم يرد أن يصدّقني!

ثمّ أضافت مؤكّدة:

- لكن كلّ شيء سيختلف بعد أن يشاهد البثّ المسجّل.. أنا واثقة!

- آمل ذلك!

انسحبت رانيا بعد أن طمأنت سكينة إلى اقتراب الفرج. لم تنطق رنيم بحرف واحد. لبثت تستمع إلى كلمات رانيا والشكّ يتعاظم داخلها. ما إن خرجت حتّى لحقتها إلى غرفتهما المشتركة. قالت بحزم:

- ما الذي تخطّطين له؟

حدّقت فيها رانيا مبهوتة:

- ماذا تقصدين؟

أخذت رنيم نفسا ثمّ قالت بجدّيّة:

- هذا الموضوع حسّاس للغاية بالنّسبة إلى سكينة.. لقد أفنت عمرها في البحث عن ولديها، فلا تعطها أملا كاذبا!

- أنا لا أفعل ذلك! لقد أخبرتها بما جرى دون زيادة أو نقصان!

- هل تريدين إقناعي بأنّك في المرّة الأولى، رأيت جاسر «صدفة» في المكتبة.. ثمّ اليوم رأيته «صدفة» مرّة أخرى، رغم أنّك ويا للعجب قد بحثت عنه بالأمس مع سكينة وذهبتما إلى الإدارة والمكتبة ولم يتعرّف إليه أحد من الطّلاب؟ ثمّ اليوم، حين كانت سكينة متعبة، ظهر فجأة؟!

صرخت رانيا في انفعال:

- تلك هي الحقيقة! إن شئت صدّقت وإلّا فلا تفعلي!

تبادلتا نظرات ناريّة في عِناد، ولم تتنازل إحداهنّ للأخرى. قالت رنيم أخيرا بحدّة:

- يا ويلك منّي إذا دخلت بعد يومين وقلت وأنت تمثّلين الأسف «لقد

حسبته هو، كان يشبهه»!

- لن أفعل!

دارت رنيم على عقبيها ورجعت إلى المطبخ بخطوات غاضبة، بينما لبثت رانيا ساهمة. إنّها تحاول أن تكون نافعة وتفعل الخير لمرّة واحدة في حياتها.. لكنّ شقيقتها لا تصدّقها!

جلست على حافّة السّرير، واسترجعت مشهد الشابّ وهو يسحق ورقة الإعلان بين أصابعه ويلقي بها على الأرض. إن لم يصدّقها ويشاهد البرنامج فستصدق نبوءة رنيم!

عادت إليها الرّغبة الملحّة بالبكاء، فاستلقت على السّرير وتركت العنان لدموعها.

***

وصل هيثم وياسمين إلى شقّتهما في ساعة متأخّرة من اللّيل. بعد عشرة أيّام من السّفر بين المدن الإيطالية، رجعا إلى باريس. كانا مرهقين ومستمتعين رغم ذلك. الرّحلة أهدتهما ذخيرة غنيّة من الذكريات الحلوة يبدآن بها مسار حياتهما معا.

ألقت ياسمين نظرة على غرف الشقة التي تدخلها للمرّة الأولى. لم يكن الأمر ذا أهميّة، فهما سيتركانها قريبا. كانت الأجهزة الكهربائيّة في كراتينها، وحاجيات ياسمين ما زالت محفوظة في حقائبها. أمّا قطع الأثاث فمغلّفة بألحفة قطنيّة تحفظها من الغبار.

في وقت سابق من النّهار، دخلت زهور وفاطمة إلى شقّة العروسين التي لبثت مغلقة حتّى ذلك الحين. فتحت زهور النّوافذ للتّهوية، ثمّ انهمكت المرأتان في تنظيف الشقّة وتوضيبها. ملأتا الثّلاجة بالمشروبات والفواكه وبعض الأطعمة الخفيفة، ثمّ انصرفتا.

استيقظا متأخّرين، على رنين هاتف هيثم. كانت السّاعة تشير إلى العاشرة، والعائلة تنتظر مقدمهما لتناول وجبة الإفطار. ارتدت ياسمين

فستانا ووشاحا متناسقين في اللّون الورديّ ثمّ وقفت تستعرض ثوبها أمام هيثم:

- ما رأيك؟

- جميل.

خلال الأيّام القليلة الماضية، تعرّف أحدهما إلى الآخر عن قرب. لم يكن هيثم مثاليّا من نواحٍ عدّة، لكنّها تحاول التعوّد على طبعه. حسّ المزاح لديه غريب أحيانا، وتعليقاته قد تكون لاذعة.. لذلك تعلّمت أن تطلب رأيه مسبقا، فتتجنّب الإحراج لاحقا.

خرجا مشيا على الأقدام. كانت الشقّة قريبة من منزل أبويه. وهما يمضيان في الشّوارع بخطوات مسترخية، شعرت ياسمين بوخزات الضّمير. لعلّ هيثم كان يَعِد نفسه بفسحة المشي تلك كلّ أحد، ولعلّ عائلته كانت منتشية لبقائه قريبا منهم بعد زواجه.. لكنّ كلّ ذلك تبخّر الآن، بسبب الانتقال إلى «ليل».. بسببها!

توقّفا عند محلّ بيع الورود، واقتنيا سلّة زنبق بدرجات ألوان مختلفة، ثمّ قال هيثم:

- نأخذ واحدة من أجل والدتك أيضا؟

أومأت بابتسامة ممتنّة:

- سيسعدها ذلك!

كانت تأسرها تلك الخصلة فيه، الاهتمام بالتّفاصيل الصّغيرة التي تُدخل على القلب السّرور. وقد كانت هي ساذجة غرّة من تلك النّاحية. كان عليها أن تتعلّم منه أسباب الفرح.

تجمّع حولهما أفراد العائلة حال وصولهما. عانقتها فاطمة وكأنّها قد غابت عنها دهرا، ثمّ سحبتها من ذراعها بعد أن انتهت وصلة التّرحيب والتّحيّات. انتحت بها جانبا لتسألها في قلق:

- كيف هو هيثم معك؟

رغـم إشراقـة سـحنتها الـتي تراهـا بعينيهـا، فـلا غـنى لهـا عـن السّـؤال المبـاشر، إمعانـا في الاطمئنـان. افـترّ ثغـر ياسـمين عـن بسـمة رائقـة:

- إنّه متفهّم وشديد العناية بما يُسعدني.

رغـم وعيهـا بعيوبـه، كان بوسـعها أن تستفيض في مدحـه. إنّـه قـويّ في الحـقّ، لا يخـاف في الله لومـة لائـم. وليـس مـع ذلـك عنيفـا أو انفعاليّـا. ذاك الثّبـات في المواقـف الحرجـة مقترنـا بضبـط النّفـس، لا يمكنهـا أن تفـي إعجابهـا بطبعـه هـذا حقّـه بالكلمـات! لكنّهـا أحجمـت عـن الاسـتطراد، فمـا عـن ذلـك تسـأل والدتهـا.

شدّت فاطمة على كفّها وهمست في ارتياح:

- حمـدا لله.. أرحـت قلـبي، أراح الله قلبـك! الآن بوسـعي العـودة إلى تونـس مطمئنـة البـال!

كانـت آثـار تجربتهـا القديمـة تثقـل صدرهـا بالكـدر. همسـت وهـي تحـاذر أن تصـل كلماتهـا إلى زهـور وأولادهـا:

- هنـاك علامـات لا تخطئهـا العـين ولا القلـب.. الرّجـل لا يتغـيّر! إذا كان حريصـا عـلى رضـاك منـذ اليـوم الأوّل، فسـيبقى كذلـك.. وإن لحظـت منـه سـوء طويّـة، فتلـك علامـة سـيّئة!

ابتسمت ياسمين وهي تضع بين يديها سلّة الزّنبق الخاصّة بها:

- هذه لك.. انتقاها هيثم بنفسه!

لمحـت فرحـة حقيقيّـة في عينيهـا. ذاك الاهتمـام وجـد صـداه عندهـا. ابتسـمت وهـي تقـول في سرّهـا.. هيثـم عـرف مـن أيـن تـؤكل الكتـف، العقـبى لهـا!

اجتمعـت العائلـة حـول سـفرة إفطـار متأخّـر. كان الجـوّ مفعمـا بالحبـور، استـأثرت زهـور بولدهـا وفاطمـة بابنتهـا، وتشـارك الجميـع النّكات والدّعابـات المرحـة. تأمّلـت ياسـمين زوجهـا خلسـة. كان رصينـا في العـادة، لكنّـه يكـون عـلى سـجيّة أخـرى بـين والديـه وأخويـه. بإمكانـه أن يُفلـت مزحـات سـخيفة،

ويجـاري وائـل المراهـق في لعبـة «مـن يضحـك أوّلا»!

لقـد جمعهـم مجلـس عائـليّ كثـيرا فيمـا مـضى، لكنّـه كان منضبطـا في حضورهـا، لا يسترسـل في المـزاح، ولا يطيـل المكـوث لتأخـذ راحتهـا. أمّـا الآن، فـترى لـه وجهـا آخـر تـكاد تجهلـه. وتلـك العنايـة الـتي يوليهـا لوالدتـه لـم تكـن تخفـى عليهـا. كأنّـه يطمئنهـا إلى أنّـه لـم يتغـيّر، وسـيبقى بكرهـا وسـندها رغـم كلّ شيء.

تذكـر حديثـه بعـد أن جمعتهمـا غرفـة نومهمـا ليلـة أمـس، عـلى وسـادتين متجاورتـين. كان يمهّـد لانتهـاء «العسـل» الـذي ارتشـفا مـن عذوبتـه في أيّـام تحليقهمـا عـلى جنـاح الحرّيّـة، ويهـيّئ ذائقتهـا لأصنـاف الأطعمـة الأخـرى الـتي تزخـر بهـا الحيـاة اليوميّـة، تحـت ضغـط العائلـة والعمـل والرّوتـين.

قال بلهجة جادّة لا هزل فيها وهو يرنو إلى عينيها:

- أمّي أنـت تعرفينهـا.. إنّهـا تحسـبك في منزلـة ميسـاء تمامـا، وقـد تفضّلـك عليهـا في نـواحٍ، فأنـت أرجـح منهـا عقـلا وأكـثر نضجـا.. فحافظـي عـلى هـذه المـيزة. لا أريـد أن أقـف يومـا مخـيّرا بينكمـا.. لأنّ خيـاري لـن يـسرّك! أمّـي فـوق كلّ شيء، وقبـل كلّ أحـد.. ضعـي هـذا نصـب عينيـك!

لعلّـه استهلّ بالثّنـاء عـلى رجاحـة عقلهـا حـتّى يلـين جانبهـا وتتقبّـل كلماتـه برويّـة. لكـنّ وضوحـه الصّـارم آذى كبريـاءهـا وأنوثتهـا. كيـف لهـا أن تقبـل رفـع حمايتـه عنهـا إن هـي اختلفـت وزهـور يومـا؟

لكنّهـا تعـرف الإجابـة. إن أرادت الحفـاظ عـلى أمانهـا، فعليهـا ألّا تقـف مـن والدتـه موقـف عـداء قـطّ. وذلـك يبـدو هيّنـا مـن مجلسـها ذاك عـلى سـفرة العائلـة.

عاهدت نفسها في سرّها ألّا تختبر برّه بأمّه أبدا.

***

توقّفـت السـيّارة أمـام البنـاء المألـوف الـذي كانـت تعـبر مدخلـه كلّ يـوم صباحـا ومسـاءً لسـنوات، واليـوم تـزوره ضيفـة عـلى مـن أصبحـن سـاكنات

شقّتها السّابقة. قال هيثم وهو يطالع ساعته:

- سأقوم بجولة قصيرة وأعود إليك. هل تكفيك ساعة زمن؟

- طيّب.

ودّت لو تطلب أكثر، لكنّها لم تلحّ. أمامهما رحلة أخرى صباح غدٍ، فلا داعي لطول مكوث. كان هيثم قد اتّفق مع وكيل عقاريّ في «ليل» ليرتّب لهما زيارة عدّة شقق، يأمل أن يتخيّرا منها عشّهما الجديد.

فتحت رنيم الباب، فاحتضنتها في شوق، ثمّ دلفتا سويًّا إلى الصّالة الّتي شهدت اجتماعهما الأخير قبل زفافها.

- أين البنات؟

أشارت رنيم برأسها إلى غرفة سكينة وقالت بمسحة حزن:

- في الدّاخل.

أمسكت ياسمين بذراعها وقد بلغها كدرها.

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

زفرت رنيم في ضيق. كانت نتائج الأشعّة والتّحاليل المخبريّة قد ظهرت ذلك الصباح.

- سكينة.. إنّها مريضة.

- طهور إن شاء الله! ما بها؟

- في صدرها ورم!

حوقلت ياسمين واسترجعت، وتبلّلت رموشها بالدّمع، بينما تابعت رنيم:

- ستجري خزعة غدا.. حتّى تعرف طبيعة الورم. فلنحتفظ بالأمل.

أومأت ياسمين برأسها مؤيّدة، ثمّ دخلتا معا على سكينة، بعد أن غلّفتا وجهيهما بقناع الانشراح. كانت تلازم السّرير منذ أيّام، لا تكاد تقوى على الحركة. فارقتها الحرارة، لكنّ صدرها ضيّق ونفسها ضعيف..

سرعان ما تشرع في اللّهاث لأدنى جهد بدنيّ. تلك الأعراض التي حسبتها فترة ملازمة لحزنها، تبيّن لها سبب عضويّ غفلت عنه حتّى استفحل.

احتضنتها ياسمين بحنان واحتفظت بكفّها بين راحتيها.

- كيف كانت إيطاليا؟

بادرتها سكينة بصوت ضعيف، فقالت ياسمين مبالغة في المرح:

- رومانسيّة وحالمة! أحضرت لكنّ تذكارات بسيطة.

أخرجت من حقيبتها علّاقات مفاتيح وأكواب قهوة منقوشة بأشكال معالم روما الأثريّة ووزّعتها عليهنّ. أخذن يتأمّلنها في سرور ويتخيّرن هداياهنّ، ثمّ قالت مخاطبة رنيم:

- هل فكّرت وشهاب أين ستقضيان شهر العسل؟

تحوّلت العيون إلى رنيم التي لم يعد خبر ارتباطها القريب سرًّا على أحد. رفعت رأسها في كبرياء وقالت:

- أوروبا كلّها لا تغريني.. لن أرضى بأقلّ من تايلند!

ضحكن كلّهنّ، وجارتهنّ سكينة بصعوبة، ولم تلبث أن اشتدّ سعالها. بادلت ياسمين رنيم نظرات قلقة، ثم قالت:

- لعلّك ترغبين في الرّاحة.. نامي قليلا.

انزلقت سكينة في استسلام لتعود إلى وضع الاستلقاء، بينما قالت رانيا:

- سأظلّ إلى جوارها.

كانت تلازمها منذ أيّام. ما إن ترجع من الجامعة حتّى تجلس عند رأسها، وتثرثر بلا توقّف.

ما إن أغلقتا عليهما الباب حتّى همست ياسمين إلى رنيم في قلق:

- حالتها لا تنبّئ بالخير! قلبي يؤلمني من أجلها! هل من جديد بشأن ابنها؟

- لا شيء بعد.

ردّت رنيم في اقتضاب. لم تكن تعدّ ادّعاءات رانيا «شيئا» يستحقّ الذّكر.

- رانيا تبدو هادئة.. هل سكنت الأجواء بينكما؟

قالت رنيم بلهجة متهكّمة:

- إنّه الهدوء الذي يسبق العاصفة! لا أحد يدري أيّ مصيبة تخفيها.

لم تناقشها ياسمين، فقد كانت مشغولة اللبّ بما أصاب سكينة. طغى الحزن على بقيّة الجلسة، ثمّ تفارقتا من جديد وقد غدت المسافات أبعد.

كلّما اقترب موعد رحيلها إلى «ليل»، تضاعفت الهوّة بينها وبين حياتها السّابقة.. وتفاقم أثر فراقها لشريكات السّكن اللّاتي حسبتهنّ لسنوات «عائلة غربتها». لازمها شعور بالغرابة، وهي تجلس إلى جوار هيثم، في الطّريق إلى شقّتهما. لقد أصبح هذا الرّجل الجالس إلى جوارها هو كلّ عائلتها الآن.



-٢٠-

جلست رانيا إلى طاولتها في قاعة المكتبة الفسيحة، بذهن مشتّت. لم تمسك كتابا منذ أسبوع، ولم تحضر درسا واحدا. لقد أصيبت بهوس جديد. وكان لهوسها اسم.. جاسر لاكروا! تمضي سحابة يومها متجوّلة بين أروقة الجامعة وساحاتها وقاعات درسها، تحدّق في الوجوه وتدقّق، علّها تبصره صدفة كما حصل في كلتا المرّتين السّابقتين.

بالأساس، كان ما يحرّكها تعاطفها مع مأساة سكينة إلى حدّ التوحّد معها.. كأنّها مأساتها الشخصيّة! وهناك أيضا ذاك التّحدّي القائم بينها وبين ريم. لقد شكّكت في صدقها واتّهمتها بالاختلاق.. وهي تدفع أيّ شيء لتثبت أنّ ريم على خطأ.

- اسمي هو «كزافي».

رفعت رأسها مبغوتة عن الكتاب الذي لم تنجح في قراءة جملة واحدة منه، لتجد قبالتها ذات الوجه الذي قلبت الجامعة رأسا على عقب وهي تجدّ في أثره دون جدوى! كان هو من تكلّم من تلقاء نفسه، واسترسل كأنّه في حديث داخليّ بصوت مسموع:

- أنا لا أعرف سوريا.. لكنّها ترد بشكل عجيب في شهادة مولدي! حين سألت عن ذلك منذ زمن طويل، قالت أمّي أنّها وأبي كانا في رحلة عمل لبضع سنوات هناك.. وحصل أن وُلدت في تلك الأرض الغريبة. بعد أن شاهدت البثّ التّلفزيّ، انتابني الشكّ.. اتّصلت بها، سألتها إن هي فكّرت في تحديث جواز سفرها، علّنا نسافر معا الصّيف المقبل.. قالت ضاحكة: لم أملك جواز سفر قطّ!

حدّقت فيه رانيا، محاولة التقاط الكلمات المتدافعة من فيه. لم تكن تستوعب كلّ المعاني التي نطق بها، لكنّها واثقة من شيء واحد.. لقد

صدّقهـا!

سألها فجأة:

- لماذا ترتدين هذا الوشاح على رأسك؟

هزّت كتفيها في استهانة وقالت:

- الطّقس باردا!

لـم تشـأ أن تسـتفيض في سرد قصّـة انعـدام الثّقـة المزمـن بينهـا وبـين شـقيقتها، والتحـدّي الـذي تورّطـت فيـه فانتهـى بهـا الأمـر سـجينة زيّ لا يشـبهها.. فاكتفـت بتلـك الإجابـة السّـاذجة.

- هل هي من عائلتك.. المرأة التي تتحدّث في التّسجيل؟

لاحظت رانيا تجنّبه مناداتها بأمّي.

- لا، إنّها صديقة.

خمّنـت رانيـا أنّـه يتسـاءل عـن قرابـة محتملـة بينهما. هـل حسـبها شـقيقته مثلا ؟

- بـين الحـين والآخـر، أرى كوابيـس مرعبـة، تظهـر فيهـا سـيّدة تضع وشـاحا مثـل هـذا.. فأسـتيقظ مذعـورا. أمّـي قالـت إنّ امـرأة ترتـدي وشـاحا حاولـت اختطـافي حـين كنـت طفـلا في سـنّ الخامسـة!

هتفت رانيا في اندفاع:

- هذا كذب! إنّها أمّك الحقيقيّة!

هزّ رأسه بقوّة وهو يقول:

- لـديّ أمّ واحـدة. وأنـا ولدهـا الوحيـد. لقـد فقدنـا أبي منـذ سـنتين، أنـا وهـي كلّ مـا تبقّـى مـن العائلـة!

- سكينة أيضا فقدت كلّ عائلتها.. أنت عائلتها الوحيدة الآن!

- أنـت لا تفهمـين.. أمّـي هـي الـتي ربّتـني. هـي مـن منحتـني كلّ الذّكريـات والأحـلام، هـي الـتي وهبتـني الأمـان والحنـان.. أمّـا الأخـرى فقـد تكـون

وضعتـني، لكنّهـا ضيّعتـني بعـد ذلـك! لقـد استمعت إلى قصّتهـا.. لقـد تسـبّبت في مقتـل طفلهـا الأوّل، ثـمّ في تـشرّد اثنـين آخريـن!

- لقد كانت حادثة!

- لا فرق!

- لقد فقدت تركيزها لخمس دقائق لا غير، لكنّ حياتها انقلبت رأسا على عقب بسبب تلك الدّقائق الثّمينة! من منّا لا يشرد وينسى؟ كم فرصا غالية تفلت من أيدينا حين نغفل لبرهة؟ هذا قد يحصل مع أيّ كان..

قال بقسوة بالغة:

- حين تنجب أطفالا، يجب أن تكفّ عن الغفلة، وتبقى منتبها على الدّوام! الإنجاب ليس لعبة.. إنّها مسؤوليّة!

ثمّ أشاح بوجهه في إعراض، فأردفت رانيا:

- لا تكن غبيّا. لقد ضيّعتك هي، فلا تفوّت أنت فرصة لقائها.. قد تندم لاحقا، وقت لا ينفع النّدم!

أطرق في صمت كأنّما يصارع أفكاره المتناقضة، ثمّ وقف مغادرا. صرخت بصوت أزعج روّاد المكتبة:

- لماذا جئت تحدّثني إذن؟

قال بلهجة ساخرة:

- كنت أحتاج إلى ترتيب أفكاري عن طريق قولها بصوت عالٍ!

***

زفرت رنيم هواءً حارّا وهي تجتاز البوّابة الزّجاجيّة لمبنى المحطّة التّلفزيّة وتقتحم برودة الشّارع اللاذعة. كانت زخرفات رأس السّنة قد أخذت تزيّن الشّوارع منذ شهر على الأقلّ بشكل استباقيّ. مذ عرفت باريس، أحبّت حلّتها الشّتويّة المتلألئة. منذ منتصف نوفمبر، تتحلّى الطّرقات وتوشّى الأشجار والسّاحات بقلائد من المصابيح المضيئة.

وتستمرّ في زيّها المنير طيلة الشّهر الأوّل من السّنة الجديدة. لذلك تحبّ شتاء باريس، وتنتظر بلهفة تساقط الثّلج الأوّل. رنّ هاتفها وهي تهمّ بتشغيل محرّك سيّارتها. ردّت بنبرة دلع حين وصلها صوت شهاب:

- دكتور شهاب صادق، هل حجزت موعدا؟

- عفوا أستاذة رنيم شاكر.. هل أتّصل في وقت غير مناسب؟

- حيث إنّني تحدّثت لستّ ساعات متواصلة اليوم بين المحكمة والبثّ المباشر، فحبالي الصّوتيّة تحتاج إجازة!

- حقّها! لن نضايقها إذن.. سأتكلّم أنا، وردّي بنعم أم لا. هل حجزت تذكرتك للأسبوع المقبل؟

- نعم!

- جميل.. هل أنهيت حزم أمتعتك؟

- لا!

لم تشتر الفستان الملائم لحفل الخطبة بعد! جدول أعمالها مليء عن آخره، لا تكاد تجد الوقت لتناول وجباتها، فكيف بالتّسوّق؟ لو عاد الأمر إليها، لاكتفت بالفستان الزّهريّ الذي ارتدته في زفاف ياسمين.. لكنّ السّيدة ناريمان لن يروقها ذلك. تحتاج زيّا فريدا من إحدى دُور الأزياء الباريسيّة الكبرى لترضي غرورها!

- هل أساعدك في التّسوّق؟

- لا!

لم يكن ذلك واردا. ليس لأنّها لا تثق في ذوقه، لكنّها لا تعتمد على أحد في اقتناء ما يخصّها.

- عليك تدبّر أمرك إذن.. في أقرب وقت!

- سأفعل، لا تقلق.. سأتركك الآن، أنا أمام عجلة القيادة!

أنهت الاتّصال وانطلقت. مضى شهر ونصف منذ أصبحت علاقتها

وشـهاب «حقيقيّـة». الخاتـم المـاسيّ ذاتـه مـا زال يزيّـن بنصرهـا، لكـنّ كلّ شيء عـدا ذلـك تغـيّر.

إحساسـها بحريّتهـا تُسـلب منهـا، ضيقهـا مـن التّحضـيرات الخانقـة الـتي تنتظرهـا، إدراكهـا أنّهـا سـلّمت مقاليدهـا لحكـم عقلهـا، وقـد اعتـادت أن تـترك لقلبهـا زمـام حياتهـا.. لطالمـا كان إحساسـها دليلهـا. وهـي لـم تفعـل ذلـك أبدا من قبـل. لـو أنّها فعلـت، لربّمـا تلافـت أخطاء شـتّى في المـاضي.. لكنّهـا ليسـت واثقـة أنّ الخطّـة المعاكسـة سـتكون ناجعـة!

لامـت نفسـها في سرّهـا مـرّات عـلى تسرّعهـا. لكنّهـا في كلّ مـرّة تفيـق مـن نوبـة الذّعـر تلك عـلى اتّصال من شـهاب، فتسـتعيد ارتياحها واسـترخاءها. «لقـد أحسـنت الاختيـار يـا رنيـم»! مـن غـيره كان ليتفهّـم متطلّبـات عملهـا المشـطّة ويتجـاوز عـن عصبيّتهـا ويمنحهـا المسـاحة الـتي تحتاجهـا مـن أجـل خصوصيّاتهـا؟ لا أحـد! كانـت تعلـم يقينـا أنّ رجلهـا نـادر الوجـود.. وذاك سـبب كافٍ لتتمسّـك بـه، عـلّ الصّداقـة والتّناغـم الـذي بينهمـا ينقلبـان عاطفـة جيّاشـة.. يومـا مـا!

حـين وصلـت إلى الشّـقّة، ألفـت رانيـا وسـكينة تتسـامران في الصّالـة. تعوّدت عـلى ذلـك المشـهد. أختهـا المنزويـة الـتي كانـت تـرى نفسـها مركـز الكـون، انقلـب حالهـا منـذ أسـبوعين! أصبحـت تـلازم سـكينة كظلّهـا وتثرثـر في أذنيهـا طيلـة الوقـت. بادرتهـا سـكينة بابتسـامة:

- كانت حلقة مميّزة! كيف وجدت حياة الشّهرة؟

قالت تجاري دعابتها:

- لا أدري كيف سأخرج إلى الشّارع غدا.. الباباراتزي يسدّون مدخل السّكن!

ضحكتـا معـا، بينمـا كانـت رانيـا تتعمّـد التّكشـير. رمقتهـا رنيـم بنظـرة جانبيّـة، ثـمّ حوّلـت اهتمامهـا إلى جهـاز رانيـا المحمـول المفتـوح فـوق المائـدة المنخفضـة، وقـد ظهـرت مجموعـة مـن الصّـور أثـارت اهتمامهـا. اقتربـت في فضـول وقالـت:

- ما هذا؟

افترّ ثغر رانيا عن ابتسامة متباهية وقالت:

- نتائج أبحاثي الخاصّة!

- رانيا كانت تشرح لي كلّ ما توصّلت إليه بشأن جاسر...

هتفت رانيا مستأثرة بالكلمة:

- اسمه الآن «كزافيي دو لاكروا». هل تعلمين أن لفظ «دو» في اسم العائلة يعني أنّها كانت تنتمي إلى طبقة النّبلاء في القرون الوسطى؟

ثمّ أردفت بسرعة:

- لكنّهم فقراء الآن!

سألتها رنيم بتحدّ:

- كيف عرفت؟

دون تردّد، راحت رانيا تسرد على مسامعها تفاصيل اكتشافاتها. لقد أخبرها كزافيي باسمه في لقائهما الأخير بالمكتبة. وقد مكّنها ذلك من العثور على صفحته في موقع الجامعة، وأيضا في مواقع التّواصل الاجتماعيّ! توصّلت إلى جدول محاضراته، عنوان إقامته، وأيضا عثرت على صور كثيرة له، منذ كان في المدرسة الابتدائيّة وحتّى ارتياده الجامعة.

حدّقت رنيم غير مصدّقة. لقد كانت الصّور دليلا دامغا لا يدع مجالا للشكّ. إنّه جاسر! ابتلعت الصّدمة بصمت، وهي تطالع ملفّات رانيا المرتّبة بعناية، مثل متحرّ خاصّ محترف. عليها أن تعترف، لقد فشلت كلّ أفكارها فيما يخصّ مساندة سكينة، ونجحت رانيا بصدفة عجيبة! قالت أخيرا وقد غلبت البهجة على صوتها:

- حمدا لله! هذا رائع حقّا!

أومأت سكينة برأسها وقالت بانكسار:

- إنّه كذلك!

تمتمت رانيا:

- لكنّه يرفض لقاءها.

- آه!

تمهّلت رنيم، وهي تنضمّ إليهما في الجلسة.

- لا شكّ أنّ إقناعه لن يكون سهلا.. لقد مرّت سنوات طويلة. لكنّه سيتقبّل الحقيقة في النّهاية.. أنت أمّه!

ابتسمت سكينة في وهن وقالت:

- أخشى أن يقتنع بعد فوات الأوان.

سارعت رانيا تهتف:

- لن يحصل ذلك.. سأفعل أيّ شيء لإقناعه!

هزّت سكينة رأسها بضعف. تحاول الاحتفاظ بالأمل رغم تدهور صحّتها المفاجئ والمستمرّ. الورم في رئتها اليمنى.. كان سرطانيّا. مذ عرفت النّتيجة حُرمت نوم اللّيل. تبيت على سجّادتها تبتهل، أن يُكتب لها الاجتماع بولديها قبل أن يقبضها الله إليه.

حياتها كانت صعبة بشكل كافٍ حتّى ذلك الحين.. لكنّ الله أراد أن يبتليها ويختبر صبرها واحتسابها أكثر. تظلّ تردّد صبحها ومساءها: «لا اعتراض على قضاء الله»! لكنّ الله عوّضها كثيرا، بصحبة تهتمّ لأمرها، حتّى انتهى بها المطاف بين تينك الأختين المتناقضتين والعطوفتين.

انسحبت إلى غرفتها في وقت مبكّر، فتحت ألبوم صور قديم.. تملأ عينيها من الوجوه الغضّة الحبيبة والبعيدة. ذرفت عبرات سخيّة شوقا ولهفة.. ثمّ حمدت الله كثيرا لعثورها على جاسر، وتنعّمها بالرّفقة، ودعت في إلحاح أن يرزقها الشّفاء.. ثمّ جلست على الأرض كعادتها واستغرقت في تلاوة القرآن.

حين دخلت رنيم الغرفة بعد حمّامها المسائيّ، وجدت رانيا قد أوت إلى سريرها. اقتربت من مرقدها بهدوء وألقت نظرة متفقّدة. لم تكن

واثقـة إن كان النّعـاس قـد غلبهـا.. لكـنّ حديثـا هامّـا كان يثقـل صدرهـا. نـادت برفـق:

- رانيا.. أنت نائمة؟

تقلّبت رانيا في ضيق وتمتمت في انزعاج دون أن تفتح عينيها:

- ماذا تريدين؟

أخذت رنيم نفسا وهمست:

- أدين لك باعتذار.

استوت رانيا جالسة على الفور وهي تحدّق في شقيقتها غير مصدّقة:

- أعيدي ما قلت؟

- قلـت أعتـذر.. لقـد كنـتُ قاسية ومتشكّكة دون مبرّر. لقـد قمـتِ بعمـل جيّـد.. أهنّئـك!

انتشـت أسـارير رانيـا والتمعـت عيناهـا، حـتّى حسـبت رنيـم أنّهـا توشـك علـى البـكاء. لكنّهـا لـم تفعـل. بـل هـزّت رأسـها بخفّـة، وقالـت بهـدوء:

- أشكرك.

ثـمّ عـادت إلى الاسـتلقاء تولّيهـا ظهرهـا. بينمـا مضـت رنيـم إلى سريرهـا بدورهـا، كانـت رانيـا تحـت الغطـاء، تتراقـص قسـماتها بضحـكات مكتومـة الصّـوت.

- هل نمتِ؟

نادتها مرّة أخرى. رفعت رانيا عن وجهها الغطاء وقالت بلطف:

- هل من شيء آخر؟

- شـهاب وأنـا حجزنـا تذاكرنـا إلى مـصر.. سنسـافر مسـاء الجمعـة المقبـل. هـل تودّيـن مرافقتنـا؟

كانـت قـد طرحـت عليهـا السّـؤال ذاتـه منـذ أسـبوعين، بأسـلوب آخـر، بينمـا تتراشـقان النّظـرات الشّرسـة.. ورفضـت رانيـا بنـبرة سـاخطة. لكـنّ العـرض

يبدو أكثر لينا الآن، غير أنّه لا يغيّر من حقيقة أنّ شهاب ورنيم يعلنان ارتباطهما الرّسميّ ويريدان منها الحضور.

لم يعد شأن شهاب يعنيها كثيرا في الفترة الأخيرة. اكتشفت في دهشة أنّها لم تحاول الاتّصال به منذ أسابيع.. منذ شغلت نفسها بالتّحرّي عن جاسر! كانت قضيّة خاسرة على كلّ حال. كانت تدرك بوضوح أنّ الرّجل متيّم بشقيقتها. لكنّ اختلاف الملابسات لم يغيّر من جوابها. قالت بهدوء:

- سكينة تجري الجراحة يوم الأربعاء.. أعتقد أنّ على أحدنا المكوث إلى جوارها.

هزّت رنيم رأسها، وقالت في تفهّم:

- أنت محقّة.

سكينة، لقد غدت جزءا من العائلة. ليس عائلة شاكر، بل من عائلة «الشقة ٤٠٤» الّتي تجمع متساكناتها. كأنّ جذورا تمتدّ تحت أرض الشقة، تتشبّث بالتّراب، ليرتفعن كفروع لها.. هنّ الأربعة.

***

يوم الثلاثاء، تركت رانيا محاضراتها مبكّرا، ثمّ قصدت الجزء المقابل من مبنى الجامعة، حيث قسم الرّياضيّات. وقفت أمام قاعة الدّرس وهي تهزّ ساقها في توتّر بالغ.. تطالع السّماء الملبّدة بالسّحب، كتلبّد غيوم الكدر على صدرها، وتزفر في ضجر. ستكون المحاولة الأخيرة.

ما إن فُتح باب المدرّج وتدفّق الطّلاب خارجه، حتّى تحفّزت ملامحها وأخذت تتصفّح وجوههم في انتباه.

- وجدتك!

قفزت أمام كزافي تسدّ طريقه، فبدت عليه الدّهشة لرؤيتها. مضى أسبوعان على حديثهما الأخير في المكتبة. لعلّه حسب إعراضه كافيا ليغدو الموضوع طيّ النّسيان، لكنّها وصلت إليه بطريقة ما.

- ماذا تريدين؟

حدجها في ضيق، ثمّ سار بخطواته الواسعة المعهودة. مضت تسابقه وهي تلهث:

- سكينة تخضع للجراحة غدا، في العاشرة صباحا.. استئصال ورم سرطانيّ في الرّئة.

تراخت سرعته لثانية وكأنّ كلماتها كبحت انطلاقه، ثمّ جدّ في المسير من جديد.

- لعلّك ترغب في لقائها، قبل ذلك.

لم تبد عليه الاستجابة. قفزت لتصل إليه وتدسّ بطاقة دوّنت عليها عنوان المستشفى في جيب سترته، ثمّ هتفت تشيّعه بنظراتها:

- افعل شيئا لا يجعلك تندم للأبد!

سار في لا مبالاة غير عابئ بما تقول، فتنهّدت بقوّة ثمّ همست لنفسها في غيظ:

- هل أنت كائن قُدّ من حجر أم ماذا؟!

وانسحبت بخطوات محبطة.

***

نزلت سكينة من السيّارة، تسندها رانيا، وتقدّمتا سويّا بخطى وئيدة باتّجاه مبنى المستشفى. هتفت ريم من موقعها خلف عجلة القيادة:

- إذا جدّ أيّ شيء، اتّصلي بي!

غمغمت رانيا:

- يمكننا أن نتدبّر أمرنا!

جلستا في قاعة الانتظار، ريثما يحين دور سكينة. كانت على موعد اليوم لإجراء جراحتها. طالعت رانيا ساعتها. لقد حان الوقت. جالت بنظراتها في أرجاء القاعة، تراقب الممرّات المؤدّية إليها علّها تبصره. لقد بلّغته

بالموعد وسلّمته العنوان. قلبها يحدّثها بقدومه. لم يكن لا مباليا مهما تظاهر بذلك. شعرت بارتجاف سكينة فأمسكت بكفّها مهدّئة من روعها.

- سيكون كلّ شيء على ما يرام.

ابتسمت سكينة في استسلام، ثمّ استغرقت في تسبيحها. لم تكن جراحة هيّنة. الورم اجتاح قسما هامّا من رئتها اليمنى.. وصار لزاما استئصال الفصّ السّفليّ كاملا.

نادت الممرّضة اسمها، تستدعيها إلى غرفة مراقبة العلامات الحيويّة. بينما غابت سكينة داخل الغرفة، وقفت رانيا في توتّر. سارت حتّى مدخل المستشفى وهي تجول بعينيها في اضطراب. لم تتحدّثا بشأنه منذ أيّام. لم تشأ أن تخبرها عن لقائها إيّاه حديثا. إن جاء، فستكون مفاجأة رائعة.. وإن لم يفعل، فلن تكبّدها عناء الخيبة.

عادت أدراجها سريعا، وقد أفل حماسها. ظهرت سكينة بعد دقائق على كرسيّ متحرّك. كانت ترتدي بدلة التّنويم وجاهزة لدخول العمليّة. رافقتها بصمت حتّى بوّابة قسم الجراحة الذي يُمنع عبوره على الزّوّار. عانقتها بحرارة ثمّ همست:

- ستكونين بخير!

ربّتت سكينة على ذراعها برفق وهمست وقد اغرورقت عيناها بالدّمع:

- أتمنّى أن تكبر ميار لتصبح فتاة ناضجة، حانية ورقيقة مثلك!

- اعتبريني شقيقة لميار منذ الآن!

تعانقتا مرّة أخرى، ثمّ دفعت الممرّضة الكرسيّ عبر البوّابة التي أغلقت وراءهما. ألقت رانيا نظرة حزينة حولها. كان يجب أن تدرك الحقيقة المحبطة. لم يحضر!

مرّت ستّ ساعات، هي زمن العمليّة الجراحيّة، ظلّت خلالها الأبواب مؤصدة، ورانيا تتململ على المقعد في قلق. لم يكن وجودها مطلوبا، كان بوسعها الانصراف إلى جامعتها. لكنّها لم ترغب أن تستيقظ سكينة ولا

تجد أحدا في انتظارها.

تعود إليها صور قديمة مخزّنة بعناية في ذاكرتها. كانت في الثّانية عشرة، حين أجرت جراحة استئصال اللّوزتين. عندما أفاقت من أثر التّخدير، كانت آلام رهيبة تغزو حلقها. لم تكن تقدر على الكلام أو الابتلاع. بكت في صمت وحدتها وقلّة حيلتها، حتّى جاءت ممرّضة أخيرا لتحقنها بالمسكّن. لم يظهر والداها إلّا بعد ساعات.

هبّت من مجلسها حين لمحت السّرير المتحرّك يغادر غرفة العمليّات، تدفعه ممرّضتان حتّى غرفة العناية.

- هل ستكون بخير؟

طمأنتها الممرّضة بابتسامة:

- انتظري قدوم الطّبيب.. سيخبرك بكلّ شيء.

بعد نصف ساعة، حضر الطّبيب المناوب. راقب علامات سكينة الحيويّة، تفقّد الجرح الطّوليّ عند جانبها الأيمن، عاين أكياس تفريغ السّوائل، ثمّ أعلن بابتسامة راضية:

- تهانينا.. العمليّة ناجحة! كلّ شيء يبدو على أحسن حال. ستستيقظ خلال ساعتين على الأكثر.

تنفّست الصّعداء، واتّصلت على الفور بريم. كانت تشعر بالخدر في أوصالها، من أثر التوتّر والجوع. لم تكن قد فارقت مقعدها منذ الصّباح. توجّهت إلى مقهى المشفى، وطلبت كوبا من القهوة وفطيرة تفّاح. ثمّ سارت على مهل وهي تلتهم قضمات من فطيرتها.

توقّفت فجأة، حين لمحت الشاب الواقف خلف زجاج غرفة العناية، يرقب في فضول المرضى المسجّين في أسرّتهم. لم يكن من اليسير تمييز سكينة بينهم. كانت تستلقي في استسلام، مسدلة الجفون، ذراعها موصولة بالسّائل المغذّي، وأنبوب الأكسجين يساعدها على التنفّس.. وآلات أخرى تراقب نبضاتها ومستوى الأكسجين في الدّم.

- السّرير الأوّل.

اقتربت في هدوء حتّى صارت حذوه، وهمست بكلماتها. انتفض كزافي ذعرا، وحدّق فيها في ضيق. قالت بلهجة انتصار:

- كنت أعلم أنّك ستأتي!

لكنّه لم يمهلها وانطلق في مشيته السّريعة كالعادة. زفرت في حدّة وانطلقت خلفه:

- ليس هذه المرّة!

قفزت بسرعة حتّى تخطّته، ثمّ سحبته من ذراعه ليدخلا المقهى الذي غادرته منذ دقائق. أجلسته إلى مائدة شاغرة وطلبت قهوة أخرى. قال في سخرية:

- ما الذي تحاولين فعله؟

حدجته بنظرة صارمة:

- الحديث.. مثل أيّ شخصين بالغين! لقد سئمت المطاردة الصبيانيّة!

لوى شفتيه في امتعاض ولم ينبس ببنت شفة. جاء الطّلب فهمّت رانيا بالمحاسبة، لكنّه أوقفها بحركة حازمة ودفع ثمن مشروبه. استمرّ الصّمت للحظات، وكلّ منهما يرتشف قهوته ببطء.

- هل تعرفين اسمها؟

رفعت رأسها في دهشة.

- من؟

- شقيقتي.

- ميار.

- أقصد اسمها الحقيقيّ!

كادت تصرخ: هذا هو اسمها الحقيقيّ! لكنّها تدرك ما يرمي إليه. قالت في ضجر:

- لا أعرف!

- اسم عائلتها؟

- لا أعرف!

- أين تعيش؟

- في نانت.. على ما أظنّ!

قال بلهجة قاسية:

- هل هذا كلّ ما لديك؟ لا أعرف، لا أعرف!

صرخت في انفعال بالإنجليزيّة، وتدافعت الكلمات على لسانها:

- كفّ عن هذا رجاءً! لقد سئمت سلوكك الطّفوليّ.. وكأنّ مشاعر الآخرين لا قيمة لها. هل تحسب نفسك مركز الكون؟ هناك سيّدة عانت منذ فتحت عينيها على الدّنيا داخل تلك الغرفة.. وحياتها ما زالت في خطر بعد.. وأنت تتذمّر لأنّك لا تجد إجابات فوريّة!

شحبت ملامحه أمام ثورتها المفاجئة، ولم يردّ. أخذت رانيا نفسا عميقا، ثمّ قالت مستعيدة هدوءها:

- حين تستيقظ سكينة، سأحصل منها على الإجابات.

- حسنا.

تكلّم بهدوء بدوره، ثمّ ساد الصّمت من جديد. سألها في فضول:

- لماذا لا تتكلّمين الفرنسيّة؟

- أنا طالبة جديدة.. جئت إلى باريس منذ شهور قليلة.

هزّ رأسه في تفهّم، ثمّ سأل مرّة أخرى:

- وما هي علاقتك بها؟

كانت قد أجابت عن سؤاله ذاك من قبل. لكنّه يلحّ مجدّدا. ربّما لم تقنعه إجابتها.

- نحن شريكتا سكن.

- تبدين مهتمّة بها كثيرا.. من يراك يحسبك ابنتها، أو فردا من عائلتها.

أومأت مؤيّدة وقد غلبها الدّمع وهي تتذكّر كلمات سكينة قبل دخولها غرفة الجراحة:

- نحن عائلة واحدة.

أضافت في سرّها: «عائلة الشقة ٤٠٤».

رنّ هاتفها. كانت رنيم.

- لقد وصلت.. أين أنت؟

- في المقهى.

حين أنهت الاتّصال، قال كزافيي بسرعة وهو يترك مقعده:

- لن تخبريها بمجيئي اليوم!

قالت في تحدّ:

- بلى، سأفعل.. ما أن تفتح عينيها! أنت لا تعلم مقدار أهميّتك بالنّسبة إليها. معرفتها بقدومك سترفع معنويّاتها بالتّأكيد، وتسرّع شفاءها!

هزّ كتفيه ثمّ قال متظاهرا باللا مبالاة:

- افعلي ما بدا لك.. سأنتظر منك إجابات الأسئلة التي طرحتها.

مشى باتّجاه المخرج ثمّ استدار ليضيف بلهجة متهكّمة:

- تعرفين كيف تجدينني!

***

بينما يبتعد في اتّجاه قاعات الرّحيل، كان شهاب يقف على مبعدة بضع عشرات من الأمتار، يطالع ساعته في توتّر ويراقب بوّابات الدّخول. تهلّلت أساريره أخيرا حين أبصر رنيم مقبلة وهي تلوّح من بعيد. جرّ حقيبته ليختصر المسافة بينهما وهو يهتف:

- لقد تأخّرتِ.. لم يبق الكثير من الوقت!

ثمّ انتبه إلى غياب متاعها.

- أين حقائبك؟

ابتسمت في اعتذار وقالت:

- اذهب أنت.. وسألحق بك حين أتفرّغ.

رمقها في شكّ:

- ماذا تعنين؟ رنيم، هل...؟

هتفت على الفور:

- بالتّأكيد لم أغيّر رأيي بشأن أيّ شيء! لكنّ ماتيلد تجري جراحة ليزر لتقويم بصرها، ويلزمها ألّا تتعرّض لإضاءة قويّة لفترة.. ويجب أن أحلّ محلّها في تقديم البرنامج!

رمقها بنظرة طويلة سابرة، ثمّ قال:

- رنيم.. أريد أن أثق بك حقًا!

ردّت بحرارة:

- يجب أن تفعل. أسبوع واحد كحدّ أقصى.. ثمّ أنضمّ إليك!

حفل الخطبة يقام بعد أسبوع من الآن. ستنتهي من الحلقة يوم الخميس وتسافر يوم الجمعة، ويوم السّبت تقف إلى جواره إزاء عائلتيهما.

زفر في استسلام. لم يكن هناك مجال لمجادلتها. كانت الأبواق المبثوثة عبر قاعات المطار تنقل النّداء الأخير لركّاب رحلة القاهرة. ودّعته ثمّ شيّعته بنظراتها حتّى اختفى في زحام المسافرين. همست لنفسها مطمئنة: «إنّها مجرّد خطبة يا رنيم. لا داعي للهلع».

كان اتّصال ماتيلد بها صباح اليوم بمثابة طوق النّجاة. من أيّ شيء تنجو؟ من حفل خطبتها؟! كانت مذعورة بشكل لا يصدّق مع اقتراب السّفر. كانت حقيبتها جاهزة. اقتنت فستانا برونزيّا ذا ذيل طويل، مغطّى بطبقة من الرّيش النّاعم. كانت قد أنهت تسوّقها، ووضّبت أمتعتها..

لكن حين جاءها اتّصال ماتيلد، لم تردّ على الفور. كان بوسعها الرّفض. سبق أن حجزت تذكرتها، وطلبت إجازة رسميّة لأسبوعين. خطبتها عذر كافٍ جدًّا. لكنّها تلكّأت.

كانت تفرّ من فكرة الارتباط التي باتت تخيفها، وتطارد فرصة مغرية ببزوغ نجمها كمضيّفة رئيسيّة لبرنامج «الحقيقة الكاملة»! لم تخبر شهاب مباشرة. تعرف أنّ بوسعه إقناعها بالاعتذار. لذلك لحقت به إلى المطار وقد خلّفت حقيبتها وجواز سفرها وراءها.

***

استسلمت رنيم ليد المزيّنة، تصفّف شعرها وتظلّل رموشها وتنثر البودرة على وجنتيها. تنفّست بعمق، بعينين مغمضتين، محاولة السّيطرة على توتّرها. لم يكن ظهورها الأوّل في البثّ المباشر.. لكنّ حلقة اليوم مختلفة. كانت تلك فرصتها الذّهبيّة لتثبت كفاءتها، لا كجزء من فريق البرنامج، بل كقائدة! ستكون اليوم المايسترو الذي يكتب النوتة التي سيعزف الجميع ألحانها.

دخلت أستديو التّصوير لتنطلق الأوركسترا الخاصّة بها تضبط الإيقاع قبيل إشارة البدء. وزّعت الابتسامات والتحيّات، ثمّ جلست على مقعد الصّدارة. من حولها يشرع الصّحفيّون والضّيوف في اتّخاذ مقاعدهم، تتحرّك العدسات المعلّقة وتسلّط الأضواء الباهرة على وجهها. الفنّيّون ومهندسو الصّوت وتقنيو الإضاءة يلزمون مواقعهم، ويأتيها صوت المخرج عبر السّمّاعة الدّقيقة المختبئة في جوف أذنها:

- الكاميرا رقم اثنين.. انتباه، نحن على الهواء!

تنطلق شارة البرنامج، ثمّ يملأ وجه رنيم الشّاشة في صورة مقرّبة، تظهر ملامحها المتيقّظة ونظرتها النّاطقة بالكاريزما. تهمس لنفسها:

«رنيم، أنت في موقعك الحقيقيّ. أنت تستحقّين الصّدارة»!

حين قصدتها ماتيلد منذ شهور، وعدتها بأن تجعل منها نجمة تلفزيّة.

في ذلـك الوقـت، لـم يكـن للوعـد بريـق الإغـراء الـذي صـارت تـراه اليـوم. كانـت مكتفيـة بمسرحهـا في قاعـة المحكمـة، حيـث يلمـع نجمهـا في كلّ مرافعة. لكـنّ الحيـاة تحـت الأضـواء باتـت تروقهـا.

ظهـور صورهـا عـلى أغلفـة مجـلّات المشـاهير، انتشـار مقاطعهـا عـلى مواقـع التّواصـل، وإعجـاب النّـاس بمواقفهـا ورفعهـم لكلماتهـا شـعارات.. كلّ ذلـك أصبـح جـزءا مـن كيانهـا!

- عزيـزتي ماتيلـد، نتمـنّى لـك شـفاء عاجـلا.. غيابـك يحزنـا، لكنّنـا نحـرص عـلى اسـتمرار الرّحلـة الـتي منحتهـا شـخصيّتك اللّامعـة معـنى وقيمـة.. ونرجـو أن نكـون في مسـتوى المسـؤوليّة الـتي عـلى عاتقنـا.

حفظـت تلـك الكلمـات عـن ظهـر قلـب، وألقتهـا بلهجـة دراميّـة مؤثّـرة، لكنّهـا لـم تقصـد منهـا حرفـا واحـدا.

«ماتيلـد، سـأجعل مـن غيابـك منصّـة أقفـز عبرهـا إلى المركـز الـذي أسـتحقّه».

راجعـت فقـرات الحلقـة المدوّنـة عـلى القصاصـات المرصوفـة أمامهـا ورتّبـت أفكارهـا، ثـمّ انطلقـت. كان عليهـا تنسـيق المداخـلات بـين الضّيـوف، وتخصيـص بعـض الوقـت لمداخـلات الجمهـور عـلى مواقـع التّواصـل، بالإضافـة إلى التّقاريـر المصـوّرة. تسـتمع إلى همسـات المخـرج في أذنهـا، دون أن يبـدو عليهـا التشـتّت.. ثـمّ أعلنـت الفاصـل الإعـلانيّ الأوّل.

تنفّسـت الصّعـداء، ثـمّ تلقّـت الثّنـاء مـن زمـلاء العمـل، فـردّت المجامـلات بمثلهـا ووزّعـت الابتسـامات المحترفـة. همسـت لنفسـها في سرور: «أنـت تبلين بـلاءً حسـنا يـا رنيـم»!

تفقّـدت هاتفهـا، فألفـت عـددا لا بـأس بـه مـن رسـائل التّشـجيع والتّهنئـة. كان بينهـا رسـالة مـن ماتيلـد: «كلماتـك كانـت مؤثّـرة. شـكرا مـن القلـب».

أفلتت ضحكة ساخرة.

كانـت هنـاك رسـالة مـن شـهاب. صـور لقاعـة احتفـالات فنـدق الشـيراتون

بالقاهـرة ومقترحـات لتواريـخ متاحـة في شـهر يونيـو ٢٠٠٩. هـزّت حاجبيهـا متفكّـرة، ثـمّ فتحـت التّقويـم الإلكـترونيّ في هاتفهـا لتتأكّـد مـن مواعيدهـا المسـجّلة. مـا زال الصّيـف بعيـدا، لكـنّ الحجـوزات تنفـد بسرعـة. معظـم ارتباطاتهـا المهنيّـة الحاليّـة تمتـدّ حـتّى الرّبيـع لا أكـثر. كتبـت رسـالة مقتضبة:

«لا بأس بأيّ منها. خبّرني إذا حدّدت التّاريخ».

ثـمّ سـمعت هتـاف المخـرج باسـتئناف البـثّ المبـاشر. حـين أنهـت الحلقـة، شـعرت بالاسـترخاء يغمرهـا. لقـد تمّت مهمّتهـا بنجـاح. وهـي تغـادر مبـنى المحطّـة تفقّـدت هاتفهـا مـرّة أخـرى. وصلتهـا رسـالة ثانيـة مـن ماتيلـد: «دمـت نجمـة لامعـة عزيـزتي راني».

لـوت شـفتيها في امتعـاض. تمقـت اسـم الدّلـع ذاك الـذي يسـقط متعمّـدا حرفـا مـن اسـمها. رقنـت بسرعـة رسـالة شـكر، ثـمّ فتحـت رسـالة مـن شـهاب: «١٤ يونيـو».

تحدّد التّاريخ إذن. في هذا اليوم ستدخل القفص الذّهبيّ!

توقّفـت فجـأة عـلى رصيـف المبـنى، وحدّقـت في ذهـول في الشّـارع الـذي اكتـسى طبقـة سميكة مـن الثّلـوج! ميّزت سـيّارتها بـين العربـات المصطفّـة في المـرآب الخارجـيّ. كانـت مغطـاة بالطّبقـة البيضـاء الثّلجيّـة ذاتهـا:

- لا تحاولي إخراجها من هنا.. الشّوارع زلقة للغاية. اركبي المترو!

ألقـى إليهـا فـنيّ الإضـاءة وهـو يمـرّ جوارهـا عـلى عجـل. كانـت كلماتـه عـين العقـل. تركـت السـيّارة ومشـيت بصعوبـة، تغـوص قدماهـا في الثّلـج وتتجمّـدان داخـل حذائهـا.. حـتّى وصلـت إلى المحطّـة.

تنفّسـت الصّعـداء وهـي تتجـاوز بـاب المصعـد وتفـضي إلى الشّـقة بعـد رحلـة عسـيرة. حـين أدارت المفتـاح في القفـل، تنامـت إليهـا ضحـكات رائقـة مـن الدّاخـل. خطـت إلى الرّدهـة في دهشـة، لتلفـي ياسـمين وميسـاء تجالسـان سـكينة ورانيـا.

- أنت هنا!

عانقت ياسمين بحرارة، ثمّ جلست بينهنّ.

- عرفت أنّ سكينة غادرت المشفى، فجئت وميساء نعودها.

- كيف جئت أثناء العاصفة الثّلجيّة؟ واليوم خميس! كيف فعلت؟

ضحكت ياسمين ثمّ شرحت:

- لقد عرفنا مسبقا بشأن العاصفة، فطلبت العمل من البيت يوم غدٍ، وجئنا مبكّرين من «ليل» لإمضاء عطلة نهاية أسبوع ممتدّة في باريس.

أضافت ميساء في مرح:

- لكنّنا محاصرتان الآن هنا، بعد أن تعطّلت حركة الطّرقات! هل تقبلننا اللّيلة؟

كان هيثم قد اتّصل منذ دقائق. الشّوارع مغلقة بالثّلوج، والجرّافات لن تشرع في إزاحتها ونثر الملح على الجليد قبل فجر الغد. كانت القيادة مستحيلة في تلك الظّروف. لم يكن بوسعه القدوم لاصطحابهما. هتفت رانيا في جذل:

- لقد عادت الشّقّة مليئة بالحياة، مثل الأيّام الخوالي! أقترح أن نسهر اللّيلة حتّى الفجر!

ضحكن جميعا، بينما انغمست رنيم في مطالعة رسالة واردة على هاتفها، ثمّ قالت في صدمة:

- ألغيت كلّ الرّحلات الجويّة ليوم غد، بسبب العاصفة! عليّ أن أعلم شهاب!

وقفت لتدخل الغرفة وتجري اتّصالها، بينما تبادلت الفتيات نظرات قلقة. ستفوّت رنيم حفل خطبتها! استمع شهاب إلى شرحها في وجوم.

- هذه ظروف خارجة عن نطاقي.. من كان يعتقد أنّ هذا قد يحصل!

حافظ شهاب على صمته، كأنّما لا يجد الكلمات المناسبة للردّ، فأردفت رنيم:

- ما المهمّ في هذا الحفل في نهاية الأمر؟ الخاتم؟ إنّه معي! أهلي وأهلك؟ يعرف بعضهم البعض ويعرفوننا! اجتمعوا مثل ما خطّطتم.. اتّفقوا على ما تريدون، فتلك الشّكليّات لن تغيّر شيئا بالنّسبة إليّ!

قال بلهجة يشوبها الحزن:

- لماذا أشعر بأنّ إلغاء الرّحلة يسرّك؟

جاء دورها لتغرق في صمت عميق. لو أنكرت، فلن تكون مقنعة.. ولو اعترفت فستؤلمه. قالت في مراوغة:

- هل حجزت قاعة الفندق من أجل الزّفاف؟

- فعلت.

- أعدك أنّي لن أفوّت هذا الموعد.. ولو اضطررت إلى قطع البحر المتوسّط سباحة!

لم يضحك كما توقّعت. زفر بهدوء ثمّ قال في تسليم:

- هل يمكنك الاتّصال بوالدتي والاعتذار؟

- سأفعل. هل يمكنك أن تبتسم؟

- سأحاول.

تنفّست الصّعداء وهي تنهي الاتّصال. أطلّت ياسمين عند الباب وهمست:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

- أنا مذعورة!

اقتربت ياسمين في قلق، فهتفت رنيم:

- أغلقي الباب وتعالي.. فلنتحدّث بعيدا عن ميساء ورانيا.

جلستا على طرف السّرير، فأردفت رنيم وهي تطالعها بابتسامة متشنّجة:

- كيف هو الزّواج معك.. بعد شهرين ونصف من التّجربة؟

ابتسمت ياسمين وقالت في استرخاء:

- ليس سيّئا.

- ألا تتشاجران مثلا؟

- لا نتشاجر.. لكنّنا نختلف في وجهات النّظر أحيانا.

أطلقت رنيم ضحكة ساخرة ثمّ قالت:

- هل هذا هو الاسم العلميّ للشجار؛ «الاختلاف في وجهات النّظر»؟

- إن كنت تقصدين بالشّجار أن يرفع أحدنا صوته على الآخر، أن نتبادل الكلمات الجارحة أو اللّجوء إلى العنف.. فنحن لا نتشاجر! لكنّنا لا نتّفق في كلّ شيء.. ويحصل بيننا تباعد وبرود من حين إلى آخر.. وهذا هو الاختلاف في وجهات النّظر!

سألت رنيم وهي تضيّق عينيها في اهتمام:

- وكيف تعبّران عن هذا الاختلاف؟ إذن؟

- قد نتجاهل بعضنا البعض ليوم أو بعض يوم، نتعامل بجفاف.. لكنّ كلّا منّا يستمرّ في تأدية واجباته تجاه الآخر دائما.. ونجلس سويّا إلى مائدة الطّعام، حتّى لو لم نتبادل كلمة واحدة!

قالت رنيم في فضول:

- هل لهيثم واجبات منزليّة؟

اتّسعت ابتسامة ياسمين وهي تقول:

- هيثم يستيقظ أوّلا، ويحضّر الإفطار كلّ صباح!

- مستحيل!

ضحكت ياسمين في استمتاع، ثمّ أضافت وهي تعدّد على أصابع يدها:

- ينشر الغسيل، يشفط الغبار بالمكنسة الكهربائيّة، يسقي النّباتات.. في الحقيقة، المناوبة النّهارية من نصيبه -حين يكون عمله عن بعد- وأستلم واجباتي حين أرجع من العمل مساءً.. لكنّ الوضع يختلف حين

يسـافر إلى باريـس...

- هل تعلم زهور أنّ ابنها يفعل هذا في منزل زوجته؟

أشـارت إليهـا ياسـمين بالصّمـت وهـي تضـع سـبّابتها أمـام شـفتيها وتوشـوش:

- اششش.. احتفظي بالسرّ!

ثمّ أضافت في تأمّل:

- هـل تعلمـين.. هنـاك أبعـاد في العلاقـة لا يمكـن تفسـيرها بالكلمـات.. أسـمّيها الإحسـاس بالانتمـاء!

- الانتماء؟

- حـين يغضـب أحدنـا مـن الآخـر.. لا تـراودني ولـو للحظـة واحـدة رغبـة في الابتعـاد عنـه أو مغادرة البيـت، أو الشّـكوى لأحـد! كأنّ ارتبـاط أحدنـا بالآخـر أمـر مفـروغ منـه.. وخلافاتنـا نحلّهـا بقليـل مـن الصّـبر وكثـير مـن الحـوار. هكـذا.. ينتمـي أحدنـا إلى الآخـر!

حدّقت رنيم فيها بعينين متّسعتين، فواصلت ياسمين:

- ليـس أيّ منّـا مثاليّـا.. ولسـنا متشـابهين كثـيرا.. لكنّنـا نتعلّـم كيـف تكـون الحيـاة المشـتركة. هيثـم عمـليّ يـرى العالـم كمعـادلات واضحـة.. وأنـا حسّاسـة نوعـا مـا، وأميـل إلى التّأويـل والتّحليـل! هيثـم ميزتـه أنّـه شـفّاف.. صريـح في مواقفـه، ولا يعـرف كيـف يزيّـن الكلمـات. قـد يراهـا الكثـيرون عيبـا، لكـن إذا فهمـت كيـف تتصرّفـين معهـا، تغـدو الحيـاة أسـهل.

تنهّدت ثمّ قالت وهي تربّت على كفّها:

- في النّهايـة، إنّـه مجهـود مشـترك. يجـب أن يكون الزّوجـان متفهّمـين وراغبين في نجـاح العلاقـة.. بعـد كلّ خـلاف، نجلـس ونـشرح مشـاعرنا، ونتّفـق عـلى الخطـوط الحمـراء الـتي لا يقبـل كلّ منّـا المسـاس بهـا.. ومسـاحات التّفـاوض الـتي يمكـن مناقشـتها، فيتكيّـف كلّ منّـا للاقـتراب أكـثر مـن مسـاحات الآخـر.

ابتسمت رنيم وهمست:

- يبدو هذا جميلا.. الانتماء! هل تعتقدين أنّني أنتمي إلى شهاب؟

- أنـا واثقـة بـأنّ شـهاب متفهّـم ومتعـاون.. لكنّـك يـا عزيـزتي تفتقريـن إلى المرونـة!

شهقت رنيم في دهشة:

- أنا؟!

- لا تسـحبي مـن رصيـدك لديـه أكـثر ممّـا ينبغـي.. لـكلّ رجـل قـدرة تحمّـل محـدودة، إذا تجاوزتهـا انكـسرت العلاقـة بـدون رجعـة!

في تلك اللّحظة، أطلّت رانيا من الباب وهتفت:

- رنيم، غيّري ثيابك.. سنحتفل بخطبتك!

عقدت رنيم حاجبيها في استنكار:

- ماذا تقصدين؟

- الثّوب البرونزيّ! نريد أن نراه.. هيّا!

حثّتها ياسمين بابتسامة مؤيّدة، فرضخت دون مقاومة طويلة.

خرجـت بعـد حـين وهـي ترتـدي الثّـوب الـذي اقتنتـه مـن أجـل الحفـل وقد رفعـت شـعرها ووضعـت لمسـات مـن الزّينـة الرّقيقـة، فاسـتقبلتها الفتيـات بالهتـاف والتّصفيـق. كان الفسـتان ضيّقـا مـن الأعـلى، يبـدي نحافـة خصرهـا، ثـمّ يتّسـع تدريجيّـا. ذيلـه الطّويـل المغطّـى بالرّيـش ينزلـق خلفهـا وهـي تتهـادى في مشـية مختالـة، مثـل طـاووس برونـزيّ اللّـون! جلسـت وسـطهنّ وهـي تعايـن قطـع الكعـك المرتجلـة الـتي أعدتهـا ببسـكويت الزّبـدة المغطّـى بطبقـة مـن الكريمـة والشّـكولاتة.

همست رانيا في اعتذار:

- هذا كلّ ما وجدت في المطبخ!

ضحكـن في مـرح وشرعـن في تنـاول البسـكويت مـع الشّـاي الـدّافئ. تركـت رانيـا مقعدهـا فجـأة. غابـت داخـل الغرفـة لثـوانٍ ثـمّ عـادت وبحوزتهـا دفـتر

ملاحظات وقلم.

- خطرت ببالي فكرة.. فلنكتب «ميثاق عائلة الشّقّة ٤٠٤»!

حدّقن فيها في دهشة، بينما انبرت تدوّن في دفترها:

«أن نهتمّ كلّ منّا لأفراد العائلة.. وتكون مخلصة لهن، وأن نتشارك اللّحظات المهمّة، في الأفراح والأتراح.. وأن نبقى عائلة متحابّة حتّى لو فرّقتنا المسافات...».

رفعت رأسها وسألت:

- أيّ بنود أخرى؟

ابتسمت ياسمين وقالت:

- يبدو هذا مثاليًا!

هتفت سكينة وقد ملأت عينيها العبرات:

- أنا أوقّع أوّلا!

ناولتها رانيا القلم، فوقّعت.. ثمّ مرّرت القلم إلى الياسمين لتوقّع بدورها. غمغمت رنيم في ضيق وهي ترمقهنّ بنظرة جانبيّة:

- ما هذه الفكرة السّخيفة!

فصاحت ميساء على الفور:

- هل يمكنكنّ قبولي في العائلة مكان رنيم؟ صحيح أنّني لم أكن من ساكنات الشقة ٤٠٤.. لكنّني صديقة للعائلة!

أجابت رانيا في حماس:

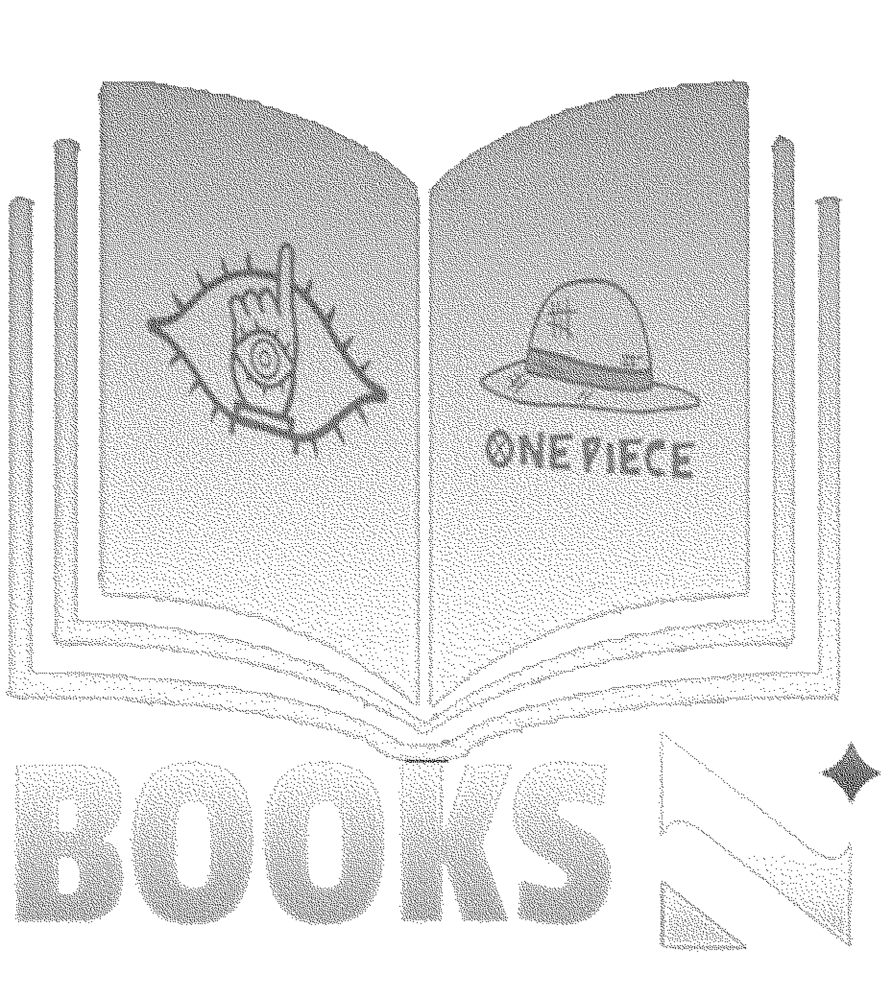
- طبعا، يمكنك التّوقيع! أساسا كلّنا كنّا وصيفات ياسمين.. وهذا كافٍ.

وقّعت ميساء في جذل، ثمّ تعلّقت العيون برنيم. فتنهّدت في استسلام ووقّعت بدورها. أردفت رانيا بعد أن أضافت توقيعها إلى جوار تواقيعهنّ:

- سأصنع نسخة لكلّ منكن تحتفظ بها كذكرى!

غمغمت رنيم في تهكّم:

- لنعلّقها في غرف نومنا.. وثيقة «الدّستور» الخاصّة بنا!



لـو أنّ أحدهـم تنبّأ لـه منـذ شـهور بأنّـه سـيحبّ الإقامـة في تلـك الدّيـار الضيّقـة المكتظّـة بالسّـكان، لمـا صـدّق كلمـة واحـدة! كان يهـوى الوحـدة، موسـومًا بغرابـة الأطـوار منـذ سـنوات دراسـته، معتـادًا عـلى العزلـة والخلـوة. لكـنّ الإقامـة في مخيّـم اليرمـوك راقـت لـه وطابـت.

منـذ الأيّـام الأولى، شـعر عمـر بمزيـج غريـب مـن الألفـة والسّـكينة. تلـك الوجـوه الـتي تبتسـم في وجهـه كلّ حـين، كانـت تغمـره بالارتيـاح بحفاوتهـا التلقائيّـة وألفتهـا الفطريّـة، فيستشـعر بعـد دقائـق قليلـة أنّـه قـد خالـط بعضهـم منـذ شـهور وسـنوات. وكان الـكلام حلـوًا عـلى ألسـنتهم بشـكل لـم يعهـده، مبالغًـا في الـودّ، وهـو الـذي جـاء مـن أقـصى الغـرب العـربيّ، والبـون شاسـع بـين شرق البـلاد العربيّـة وغربهـا مـن حيـث طـلاوة اللّسـان ويـسر المعـشر.

اسـتقبله أبـو الحسـن، شـقيق عـزّام الأكـبر وخـال آيـة. كانـت تلـك كنيتـه، نسـبة إلى والـده - الشـيخ حسـن - لا إلى ولـده. كان قـد أعـدّ في الطّابـق الأوّل مـن البنايـة المخصّصـة لقاعـة الألعـاب الرّياضيّـة الـتي يديرهـا غـرف ضيافـة، تسـتقبل في أوقـات مختلفـة مـن العـام شـبابًا - فلسـطيني الهويّـة في الغالـب - لفـترة تقـصر أو تطـول. كان قـد عـرف بخدماتـه الجزيلـة لعابـري السّـبيل والمسـافرين، وطلبـة الجامعـات المغتربـين عـن أهاليهـم، بالإضافـة إلى المخيّـم الكشـفيّ الـذي يرتّـب أنشـطته صيفًـا وشـتاءً. لـم يكـن قـد رزق الذريّـة، فنـذر وقتـه ومالـه لتوجيـه الشّـباب اليافـع.

حين جمعته بمضيّفه جلسة دافئة في داره قال عمر مبتسمًا:

- حـين سـمعت عـن المخيّـم.. أوّل مـا خطـر ببـالي، كانـت الخيـام! وفوجئـت حـين وجـدت مدينة!

ضحك أبو الحسن، أمام كلمات عمر المحرجة وقال:

- لقد غدت مدينة اليوم، لكنّها لم تكن على نفس الشّكل على الدّوام. حين دخلها أهلي منذ عقود، لم يكن هناك غير العشب والأشواك.. أرض بور. لكنّهم عمروها.

مع مرور السّنوات، لم تعد أحياء مخيّم اليرموك تختلف كثيرًا عن الأحياء السوريّة المتاخمة لها. تدريجيًا تطوّرت المساكن المؤقّتة المشيّدة بالإسمنت والخشب إلى عمائر شاهقة ومتينة، وتحسّن مستوى الخدمات مع ازدياد مَواطن التّرفيه، ليصبح مخيّم اليرموك أكبر تجمّع فلسطينيّ خارج تراب الوطن.. لكنّه مع ذلك مازال يحتفظ بمسمّى «المخيّم»، مع أنّه لم يعرف قطّ مرحلة «الخيام».

كان مخيّم اليرموك بالنّسبة إلى أبي الحسن وأهله بمثابة وطن مؤقّت. كانت فلسطين حاضرة في أرجاء المخيّم لا بمواطنيها وحسب، بل بمدنها ومعالمها وكلّ تفاصيلها. هذه الجليل والقدس وغزّة ويافا والمنصورة وحيفا واللدّ وصفّوريّة ودير ياسين.. كلّها من حولهم في أسماء الشّوارع والأزقّة والمدارس والدّكاكين! وهي أيضا تلازم أعناق الفتيات، بسلاسل ذهبيّة تتدلّى منها خارطة فلسطين الذهبيّة أو مفتاح العودة.. مفاتيح لامعة مرصّعة بالجواهر، لا معدنيّة صدئة مثل حلية آية الأصليّة. وهي هناك أيضا، في الأناشيد والحكايات، وصور الشّهداء التي تزيّن واجهات المباني والمحلّات. لكن حين كان عمر يمشي في الشّوارع، كانت تطرق أذنيه لهجات مختلفة، تختلط باللّهجة الفلسطينيّة.. اللهجة الشّاميّة ولهجات مدن سوريّة أخرى، وحتّى اللّهجة العراقيّة.

إبّان وصوله، كانت غرفة الضّيافة تجمع شابّين يصغرانه سنّا، وليد طالب في جامعة دمشق، وياسين الذي يساعد أبا الحسن في تدريب فرق الأطفال بقاعة الرياضات القتالية. لم يكن عمر يميل إلى الثرثرة، لكنّه لا يأنف الاستماع. وكان الشّابان يتحدّثان كثيرًا إليه في المساءات الشتويّة الطّويلة.

- أهلي من طبريا، لكنّ أصلنا جزائري، مغاربة يعني!

يبتسم وليد في تواطؤ تجاه عمر وهما يرتشفان الشّاي السّاخن ويتدفآن قرب موقد الغاز، مثمّنا انتماءهما المشترك إلى المغرب العربيّ.

- كانوا ممن تفاهم الفرنسيون مع عبد القادر الجزائريّ. كان جدّي من الذين غادروا في اتّجاه فلسطين.. سكنوا بمنطقة المعذر بطبريا.. وما زالت إلى حدّ الآن تسمّى «حي المغاربة»، مثل حيّ المغاربة بالقدس.. وحتى هنا في المخيم، يوجد حيّ اسمه حيّ المغاربة. سآخذك إلى زيارته إذا شئت...

يمضي وليد معظم ساعات يومه في الجامعة، في حين يستيقظ ياسين متأخرا، يفطر عند العاشرة، ثمّ ينصرف إلى قاعة الرّياضة. يستغرق ساعات ينظّف الأرضيّة ويلمّع المرايا، يشطف الحمّامات ويمسح الغبار والعرق عن أدوات التّدريب، قبل أن تبدأ الحصص المسائيّة غالبا. كان أوّلهما جادّا، أقرب إلى عمر في طبعه، يبدو عليه الوقار والرّزانة رغم سنواته التي لم تتجاوز الثلاثة والعشرين. أمّا ياسين فهو أكثر مرحًا وانطلاقا، وفي لهوه خشونة تأثّرًا بنشاطه الرّياضيّ الكثيف. يبدو طفلا كبيرًا وهو الذي تجاوز الخامسة والعشرين منذ وقت قريب.

أمّا عمر، فقد كان جدول يومه مضبوطا حسب تعليمات مضيّفه أبي الحسن، بين تريّض البدن والعقل، بناء على اتّفاق مسبق مع شقيقه عزّام الذي أنبأه بسرّ زيارة عمر.

حين غادر باريس، لم يكن يُضمر الغياب أكثر من أسبوعين، زمن المخيّم الشّتويّ. لكنّ وصوله مبكّرًا مكّنه من وقت خاصّ مع مضيّفه، وقد قرّر أن يستفيد من تلك الصّحبة أقصى إفادة. وقد كان أوّل ما عهد به إليه مكتبته الزّاخرة بشتّى العناوين المغرية. كان يقضي ساعات في القراءة، وأخرى في مناقشة أبي الحسن فيما قرأ. تتنوّع المطالعات بين الفقه والحديث والتّاريخ والسّياسة، وكلّما ناقشه، ألفاه ملمّا مطّلعًا، لا يكتفي بمجرّد العلم بالشّيء، بل يبني رؤيته الشّخصيّة تجاهه.

كان عمر يحسب نفسه مثقّفا فيما مضى، لكنّ الرّجل كان «موسوعة متنقّلة». لكنّ أجمل أوقات يومه كانت حين يجمعهما حديث حميم، «من القلب إلى القلب»، فيفضي إليه الرّجل بذكرياته وتاريخ عائلته، كما عاشه أو سمع عنه من الآباء والأجداد والمقرّبين. يحدّثه عن فلسطين ما قبل النّكبة، عن عادات أهلها، وأسلوب حياتهم، عن فلسطين التي لا يعرفها أحد! يتحدّث في تأثّر عن البطولات التي وصلته في روايات، مثل أساطير ترويها الجدّات لأحفادهنّ قبل النّوم.

- فلسطين ليست غزّة والضفّة! فلسطين التي أخذها الاحتلال الإسرائيليّ، لا تشبه ما نراه على شاشة التلفاز. فلسطين الحقيقيّة تعيش فقط في الذاكرة الشعبيّة، مثل حلم خياليّ بعيد المنال!

يومئ عمر متفهّما. ليس الخبر كالمعاينة.. وليست المعاينة كالتّجربة الذّاتيّة. ومن أجل ذلك جاء إلى مخيّم اليرموك. إنّ الكتب لم تكن لتحدّثه عن فلسطين بنفس الدّقة والأمانة التي يقرؤها في وجوه المحيطين به.

ثم يسترسل أبو الحسن يحدّثه عن قريته:

- أنتمي إلى قرية «لوبية» وهي تقع في الشّمال الفلسطينيّ. لم يهاجر جدّي قطّ، ولبث في بيته وأراضيه. لكنّ والديّ اختارا الهجرة أيّام النكسة.. كنت في الرّابعة من عمري حين تركنا القرية. عزّام لم يكن يتجاوز الثّانية. أمّي كانت مؤرخة بالنّسبة إليّ، أشعر حين أسترجع كلماتها أنّني أرى بلدتنا رؤية العين.. لديّ صورة واضحة عنها.. من حكاياتها، فيهيّأ إليّ أحيانا أنّها ذكريات حقيقيّة...

يصف له بدقّة القرية وتفاصيلها، الجامع والمدرسة، البئر والحمار والمواشي. كانت البيوت كلّها صفّا واحدًا، بلا طوابق، وفي المدخل قوس مرتفع، وبداخل الغرف موقد للخبز. حتّى الأغنام كانت تشارك أهل الدّار معيشتهم داخل البيت. وكان اليهود موجودين في ذلك الوقت في الأراضي القريبة - قبل أن يبدأ النزوح الكبير لليهود إلى فلسطين - لكنّهم مسالمون، لا يختلفون في شيء عن المسيحيّين، بينهم تعايش وتعاون

في المواسم الفلاحيّة.. وكانت العائلات الموسرة ترسل أبناءها للدّراسة بالقدس وحيفا.

ثمّ يصل إلى يوم النّكسة. يروي له قصّة رهط من الجنود، رفضوا الانسحاب فلبثوا هائمين في البراري لأسابيع، يقاومون بما أوتوا من جهد وعزيمة، حتّى سقطوا شهداء قرب «لوبية»، فدفنهم أهل القرية.

إن كان للصّمود شكل في ذاكرته الغضّة، فهو شكل كومة التّراب النديّ الّتي دفن تحتها الجنود البواسل ونمت حولها شتلات طفيليّة يانعة.

***

بعد أسبوعين، وصلت نحو دستة من الشّبان من أجل المخيّم الشتويّ، وامتلأت بهم دار الضّيافة. كانت أعمارهم تتراوح بين الثامنة عشر والسّابعة والعشرين. فلسطينيّون، بعضهم من المخيم والبعض الآخر يعيش في المهجر، يغتنمون فرصة إجازة منتصف السّنة، لربط عرى المودّة مع تاريخهم وقضيّتهم.. فامتلأت الدّار بهم حياة.

لكنّ مجيئهم تزامن مع العدوان على غزّة الذي اندلع ذات سبت في أواخر شهر ديسمبر ٢٠٠٨. ألقت الطّائرات الإسرائيليّة أكثر من مائة طنّ من القنابل على تلك البقعة الضّئيلة من الشريط السّاحليّ المطلّ على البحر المتوسّط، فردّت المقاومة بما في حوزتها من صواريخ بدائيّة. استمرّ القصف لثلاثة أسابيع طويلة، وكانت شوارع المخيّم تغلي ليلا ونهارًا في أحاديث متّقدة عن الحرب ومآلها. بين أخبار تساقط الشّهداء، وبيانات التّنديد على ألسنة محترفي السّياسة وتحليلات المختصّين في المنصّات التّلفزيّة، لم يكن عمر يجد ملاذًا من الألم والغضب إلا في برنامج المخيّم المزدحم.

بين التّدريبات البدنيّة، والحوارات الدّينيّة والتّاريخيّة، وتدارس القرآن الكريم، كانت تمضي سحابة يومه مع شباب المخيّم. على الفور، أبهره مستوى التزام الشّباب وإقبالهم على الفنون القتاليّة منذ سنّ يافعة ودرجات إتقانهم لها. لكنّ أشدّ ما أثار غيرته هو تسابقهم في حفظ

القـرآن الكريـم. كان حفظـه متقطّعـا حـتّى ذلـك الوقـت. ينـسى كلّ مـرّة ويعيـد مـن البداية. قـد حفـظ الكثير في فـترة سـجنه، لكـنّ حالـه النّفسيّة لـم تكـن تساعده عـلى التّركـيز المسـتمرّ. لذلـك اتّخـذ قـرارًا صارمًـا بأنّـه لـن ينقطـع هـذه المـرّة حـتّى يفـرغ مـن الحفـظ تمامًـا.

كانَ الانقسـام الفلسـطينيّ إلى فصائـل متناحـرة في الدّاخـل، ينعكـس بوضـوح في مواقـف الموالين في الخـارج. وقد كان الشّـباب ينتمون إلى مشـارب متباينـة، رغـم إيمانهـم جميعًـا بفلسـطين حـرّة وأبيّـة. فـإذا انزلقـت الحـوارات في مسـارات السّياسـة، ارتفعـت الأصـوات وبحّـت الحناجـر، دفاعًـا عـن هـذا الفصيـل أو ذاك.. فـكان أبـو الحسـن يقـف موقفًـا حازمـا بين المتخاصمين، يـصرخ فيهـم بقـول رسـول الله صـلّى الله عليـه وسـلّم: دعوهـا فإنّهـا منتنـة!

كان البرنامج كثيفًـا وصارمًـا، لكنّـه لا يخلـو مـن فسـحات المـرح والدّعابـة، رغـم وطـأة الحـرب القريبـة البعيـدة. ولا شـكّ أنّ الجلسـة الأمتـع كانـت مـا يسـمّى «نـار المخيّـم»، حـين يجتمعـون حـول نـار موقـد الحطـب في الفنـاء المكشـوف خلـف الـدّار، يتسـامرون، يلقـون النّـكات، ينشـدون ويتنافسـون في مسـابقات ثقافيّـة، يتناسـون خلافاتهـم الدّاخليّـة، بعـد نقاشـات حاميـة الوطيـس.

ثـمّ ينهـض أحدهـم لينشـد في حمـاس النّشـيد الوطنيّ الفلسـطينيّ، فـيردّد الآخـرون خلفـه بنسـق حـارّ ملتهـب، ينسـجمون مـن جديـد وترتفـع الأكـفّ في الهـواء:

فدائي فدائي فدائي

يا أرضي يا أرض الجدود

بعصف الرّياح ونار السّلاح

وإصرار شعبي لخوض الكفاح

فلسطين داري فلسطين ناري

فلسطين ثاري وأرض الصمود

وكان عمـر يجتهـد لالتقـاط كلمـات الأناشـيد الـتي تتكـرّر عـلى مسـامعه في مناسـبات مختلفـة، ومـا لبـث أن صـار يردّدهـا معهـم بنفـس الحماسـة والنّفـس الثـوريّ المتّقـد. لـم تكـن مجـرّد أناشـيد بالنّسـبة إلى أيّ منهـم، بـل تجديـد عهـد مـع الوطـن السّـليب وحفظـا لذكـرى الشّـهداء الذيـن دفعـوا حيواتهـم في سـبيل الحرّيـة.

وحـين حانـت سـاعة الرّحيـل، صافحهـم أبـو الحسـن واحـدًا واحـدًا بقـوّة وشـجن، وتعاهـدوا عـلى لقـاء قريـب في المخيّـم الصّيفـيّ. كانـت العيـون دامعـة، تلتحـم الأجسـاد ثـمّ تتباعـد لتترسّـب حـرارة الأحضـان تـدقّ القلـوب الـتي يحزّ فيهـا الفـراق. ثـمّ خلـت الـدّار مـن الضّيـوف العابريـن، ولـم يتبـقّ إلّا سـكّانها الأصليّـون، بالإضافـة إلى عمـر.

- عسى أن يعودوا في الصّيف!

بـدت الحسـرة في عيـني أبي الحسـن، وعكسـت الوحشـة الـتي سـكنت قلبـه بعـد انفضـاض الجمـع. أفـضى إلى عمـر، في خلـوة:

- عددهـم يتناقـص كلّ سـنة. أخـوان كانـا يحـضران كلّ عـام معًـا، جـاء أحدهمـا وغـاب الآخـر. أخـبرني شـقيقه في خجـل أنّـه لـم يعـد يهتـمّ.. إنّهـم يعيشـون في بريطانيـا. الأخ الأكـبر، يخاصـم عائلتـه منـذ شـهور.. يـودّ الارتبـاط بزميلـة بريطانيّـة لـه في الجامعـة! إنّهـم يتغرّبـون تدريجيّـا عـن هويّتهـم وتاريخهـم، يصبـح بعضهـم مسـخًا لا يـدرك لنفسـه غايـة ولا قضيّـة.. ونحـن نحـاول أن نبقيهـم في حضـن جماعتنـا، مرتبطـين بأصولهـم واعـين بمسـؤوليّتهم التّاريخيّـة!

***

في ذلـك المسـاء، جمعـت الجلسـة أبـا الحسـن بضيوفـه الدّائمـين، الشـيخ حـازم، مـؤدّب الكتّـاب، ومحمّـد خبّـاز الحـيّ، بالإضافـة إلى الشّـباب الثلاثـة، عمـر ووليـد وياسـين. قـال أبـو الحسـن وقـد هيّـج فـراق شـباب المخيّـم حنينـه إلى الذّكريـات:

- أهلنا الذين ظلّوا في مخيّمات الدّاخل، لم نرهم منذ الرّحيل.. لكنّ عزّام التقى جدّي سنة ٨٩، كان لقاءً تاريخيّا، في مكّة! ذهب إلى الحجّ ذاك العام، وهناك بحث عن وفد الحجّاج الفلسطينيّين الذين كان جدّي من بينهم. أنت تعرف، الفلسطينيّون يمنحون جوازات سفر أردنيّة -مرّة واحدة- من أجل الحجّ والعمرة.

سأل عمر في دهشة:

- وهل هناك مخيّمات في الدّاخل؟

ضحك أبو الحسن في مرارة:

- نعم! حين هُجّر النّاس من مدنهم وقراهم، بعضهم ربض في الخلاء ورفض ترك البلاد.. فقامت المخيّمات خارجها. النكبة والنكسة قسّمتا فلسطين.. ما يعرف اليوم بالضفة الغربية متمثلاً بقضاء نابلس وطولكرم وجنين ورام الله وبيت لحم والخليل -وسنترك القدس جانبًا- هم الفلسطينيون الذين يعرفهم العالم! ولكن هناك فلسطينيون في الدّاخل.. في تلك الأرض التي سقطت في ١٩٤٨ ويحملون الجنسية الإسرائيلية طوعًا أو كرهًا! ولربما التقيت بأحدهم في فرنسا.. وقد تجد بعضهم إسرائيليًا صرفًا.. بينما ما زال بعضهم مسلمًا صادقًا.. يمزقه التاريخ والهوية! ولكنّه يعلم أنّه فلسطيني!

تكلّم الشيخ حازم بنبرة مرّة وقاسية. كان عمر يشعر بخيبته وغضبه:

- أنا عشت في لبنان، من ٧٧ إلى ٨٦.. هذه الإصابة، وهذه، وهذه.. كلها تشهد!

أخذ يشير إلى مواضع الجراح في جسده تحت النظرات الفضوليّة المتطلعة.

- معي شهادة جريح حرب، ومعي ميداليات من الحرب وأخرى من جيش التحرير الفلسطيني.. لكنّني لم أكن قطّ راضيا عن هذه الحرب! كانت نفسيتي وقتها متعبة لأننا لم نكن نعرف من عدوّنا! من عدوّنا؟

نحـن جئنـا لحمايـة المخيمـات، فقيـل لنـا اتّجهـوا إلى منطقـة معينـة.. قالـوا هــذا خــط تمــاس وهــذا عــدوّك، أيــن عــدوّي؟ كل هــذا النّضــال وهــذه العلامـات الشّـائهة عـلى جسـمي بـلا جـدوى!

ثمّ أضاف بلهجة حاسمة:

- عـدوي الوحيـد هـو إسرائيـل! هـذا عـدوي! أهـل البـلاد الواحـدة، يتشـابكون، يتقاتلـون، هـذا عـربي مسـلم وهـذا عـربي مسـلم. كيـف أرفـع سـلاحي عـلى أخـي هـذا، وبعـد أسـبوع أو أسـبوعين، تتصالـح الحكومـات ونمـشي بنفـس الشـارع! إذن هـذا ليـس عـدوي، هـذه فتنـة! فتنـة داخليـة، لشـق وشرذمـة الوطـن العـربي كلـه، لشـق لبنـان، لشـق فلسـطين، لشـق سـوريا، فتنـة مـن الداخـل.. لكنّهـا تمـوّل مـن الخـارج، هـذا شـأن معـروف! لقـد خـاب أمـلي بالأنظمـة العربيـة كلهـا.

سكت برهة، ثمّ واصل في تحامل:

- في سـنة ٨٢، كان أملنـا كبـيرًا، أن تتحـرّر لبنـان ونعـود إلى أراضينـا، لكـنّ الخونـة لـم يدعـوا لنـا مجـالا! أنـا أتحمـل مسـؤولية كلامـي هـذا وأعنيـه تمامًـا.. منـذ الــ ٤٨ إلى اليـوم والـكلّ يتآمـر عـلى الشـعب الفلسـطيني! أقولهـا بـكلّ شـفافيّة، أريـد الرّجـوع إلى بلـدتي «عـين غـزال».. لـو سـمحوا لي بخيمـة بعـين غـزال، فلـن أتـردّد في الذّهـاب!

يؤمّنـون عـلى قولـه بهـزّات مـن رؤوسـهم. حلـم الوطـن في داخـل كلّ منهـم يتغـذّى عـلى تلـك الأحاديـث الرثائيّـة بـين بـكاء عـلى الأطـلال وسرد للوقائـع التّاريخيّة. تظهـر نظـرة شـجن وحنـين في عيـني الشـيخ حـازم وهـو يرنـو إلى البعيـد ويقـول:

- بلدنــا جميــل، ومناخــه بديــع، وطبيعتــه ســاحرة! ومصــير كلّ مســافر أن يعــود إلى وطنــه.. والاحتــلال إلى زوال!

قــال عبارتــه الأخــيرة بيقــين بالــغ، شــعر عمــر في قــرارة نفســه أنّ تلــك الحقيقـة لا بـدّ أن تحـدث يومًـا. يرفـع الشـيخ أصابعـه مفتوحـة كأنّ بيـده كـرة

وهميّـة، ثـمّ يـردف في فخـر:

- التفّاحـة في أرضنـا بهـذا الحجـم! التفـاح هنـا أقـرب إلى الخـوخ.. أم لعـلّ التفـاح الفلسـطيني أكـبر بكثـير! والبرتقـال، هـل رأيـت البرتقـال الذيـن يبيعونـه في السّوق؟ إنّهـم لا يعرفـون أنّ هـذا البرتقـال كنّـا نطعمـه للـدّوابّ! برتقالنـا أكـبر وأشـهى...

تكلّم محمّد بعد ذلك:

- ليسـت هنـاك عائلـة فلسـطينيّة إلا وقـد فقـدت شـهيدين أو ثلاثـة.. وقد كان كلّ طموحـي حـين كنـت شـابًا أن ألبـس حزامًـا ناسـفًا وأفجّـر نفسـي وسـطهم! لكنّـي الآن صرفـت النظـر، وأصبحـت أؤمـن بالتكتيـك السياسي...

قاطعه الشيخ حازم باستنكار:

- مـا الـذي أفضـت إليـه المفاوضـات؟ إنّهـم يتفاوضـون منـذ عقـود، وكلّمـا تفاوضـوا تنازلـوا أكـثر.. وازداد موقـف الاحتـلال قـوّة!

تابع محمّد، كأنّ كلمات الشيخ لا تعنيه:

- العمليّـات الاستشـهاديّة لا تكفـي.. حلمـي أن أتسـلّل إلى عقولهـم، بطريقـة مـا.. وأخرّبهـا مـن الدّاخـل.. أريـد أن أرى مجتمعهـم مدمّـرا، مشـتّتا، بـلا ثقـة ولا وجهـة! الحـرب لـن تمكنّنـا مـن نتيجـة، إذا مضينـا في طريـق المقاومـة المسـلّحة، فنحـن خـاسرون لسـببين.. نحـن لا نمتلـك سـلاحًا بقـوّة سـلاحهم، وقياديونـا لا يمتلكـون دهـاء قيادييهـم! هـذا عـدوّ غـادر، لا قـدرة لنـا عـلى مجابهتـه في سـاحة المعركـة.. لذلـك وجـب أن تكـون المعركـة بـين العقـول. أن نسـتنبط طرقًـا أخـرى للمقاومـة!

أضاف في مرارة:

- إذا قاتلنـا، شـعبنا بالدّاخـل سـيدفع الثّمـن.. سـيجوع، وتقصـف بيوتـه، تنقطـع عنـه الكهربـاء.. لذلـك يجـب أن نفـاوض.. وبنفـس الوقـت أنـا واعٍ، يعـني حـين أسـلم العـدوّ أسـيرًا واحـدًا، آخـذ ألـف سـجين مـن مجاهدينـا داخـل سـجون الاحتـلال.. هـذا هـو الدّهـاء، وهكـذا تكـون الحـرب الخديعـة!

أطلق ضحكة ساخرة ثمّ قال:

- لا أدري لماذا يفاوضون على رفات الشّهداء؟ دعوهم يدفنون في وطنهم! لقد حرمنا منه أحياء، فلينعموا بترابه ميّتين على الأقل! لماذا نسترجع شهداءنا عظاما، ونتركهم يتوسّعون أكثر وأكثر في أراضينا؟ سياسيّونا أغبياء، ألم أقل لك؟

تنهّد أبو الحسن ثمّ أردف بلهجة حزينة:

- لقد تحوّل المشروع الفلسطينيّ من مشروع تحرير وعودة إلى الوطن، إلى مشروع دولة فلسطينيّة على جزء من الأرض. لقد صار اللاّجئون خارج فلسطين نسيًا منسيًا.. لم يعد هناك من يهتمّ لقضيّتهم، أو يضع لها اعتبارًا.. أصبح الهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بعيدًا عن التصوّر المثاليّ الذي غذّيناه داخلنا لسنوات، باستعادة بيوتنا وحقولنا وتعمير مدننا من جديد. إنّهم ينكرون علينا حتّى الحلم!

ترتفع الأصوات ويحتدم الجدال. يدافع محمّد عن حقوق المواطنة والوحدة الوطنيّة والجنسيّة، بينما يرفع الشيخ حازم كفّه بحركة حاسمة معلنًا ألّا سبيل غير الجهاد المسلّح. بينهما، يحافظ أبو الحسن على هدوئه، ويتفهّم هذا وذاك. كان يراهن على الشّباب، فيقول مبتسمًا وهو يشير باتّجاه وليد وياسين:

- لقد ولّى زماننا، والحلّ بيد الشّباب.. والمستقبل سيكون لهم! ما بقي علينا الآن هو أن نضمن وعيهم بالقضيّة، ومعرفتهم بالتّاريخ الحقيقيّ.. تلك مهمّتنا.

يلمح عمر الحرج على سحنتي الشّابّين، ويستشعر ثقل المسؤوليّة على عاتقيهما. هناك مساحة هائلة يصعب اجتيازها على أيّ شابّ فلسطينيّ، يريد أن يحيا حياة عاديّة وطبيعيّة، حتّى يكون في مستوى الآمال المعقودة عليه. من المشروع له أن يدخل الجامعة، يتخرّج ويجد عملا، يتزوّج وينجب أطفالا. لكنّ تلك الطّموحات العالية بالمقاومة والتّحرير لم تكن نابعة بالضّرورة من داخله الصّميم. لقد ولد كلاهما في هذا المخيّم أو

غيره، ولم يعرف «النّكبة» أو «النّكسة» إلّا من حكايات «الختيارة»، كبار العائلة. وما يجتهد أبو الحسن من أجله ويستميت، هو ألّا تبقى تلك الحكايات مجرّد قصص تُروى. ذلك التّاريخ، وتلك المأساة، كان يجب أن تكون جزءًا أصيلا من وجدان كلّ فلسطينيّ، وإلا.. ضاعت فلسطين إلى الأبد.

- إذا أردنا أن نحرّر فلسطين، فيجب أن نحبّ بعضنا بعضًا أوّلا!

يشير الشيخ حازم بسخريته المعهودة إلى الشّقاق القديم المتجدّد بين الفصائل الفلسطينيّة.

- العدو الإسرائيليّ إذا أطلق قنبلة، فلن يوجّهها إلى فصيل دون آخر.. القنبلة لا تميّز، وسيموت الكلّ! هل تعلم ما هو أملي بالحياة؟ أن أعيش حتّى أرى الشعب الفلسطيني موحّدا تحت راية واحدة!

حين انفرد الشباب في الغرفة ذلك المساء، قال وليد معترفًا:

- أنا أدرس القانون الدّولي لهدف واحد.. أن أدافع عن القضيّة الفلسطينيّة بالمحافل الدّوليّة! أنا كطالب فلسطينيّ، أدرس لخدمة قضيّتي.. ومن المعروف أنّ تحصيل الطلبة الفلسطينيّين أعلى من تحصيل الطّلبة السوريّين! لذلك نهتمّ بإقامة حفلات في المخيّم لتكريم الطالب المتفوّق، لأنّه يناضل على ساحته، وبطريقته.. لا اختلاف بينه وبين من يناضل بالسّلاح...

لم يكن وليد مختلفًا عن معظم فلسطينيّي المهجر. تشكل وعيه طفلا من قصص تروى عن وعد بلفور والنكبة وجيوش الإنقاذ والنكسة والثورة، فيلازمه دون وعي منه هاجس اللجوء والبحث عن الوطن والحرية، ويمضي عمره في العمل والبحث عن الطريق إلى فلسطين.

- منذ صغرنا، كانت لعبتنا المفضّلة: عرب ويهود! نلعب بعصا خشبيّة تمثّل البنادق، ونرسم خارطة فلسطين على سواعدنا وكفوف أيدينا.. يمثّل أحدنا دور الفدائيّ، ويكون الآخرون اليهود. يقول: موتوا! فننبطح

على الأرض فورًا! تبدو المعركة سهلة في لعبنا الطّفولي...

لمح عمر نظرة غائمة في عيني ياسين الذي يتابع الحديث في صمت على غير عادته. كان قد ترك مقاعد الدّراسة في وقت مبكّر، واختار مسار الرّياضة. قال أخيرًا في شيء من الضّيق:

- أنا أعيش حياتي في سوريا بشكل جيّد.. لكنّ المشكلة عندي بالسّفر. أريد أن أكتشف العالم، أن أذهب إلى العمرة.. والمشكلة الثانية بحقّ الانتخاب! أتمنّى أن أمسك بين يديّ جواز سفر، وبطاقة انتخاب. لعلّ مفهوم المواطنة يختلف من شخص إلى آخر، لكنّ مواطنتي مجروحة.. هكذا أشعر. وهذا ينغّص حياتي.. أنّني لا أستطيع التّعبير عن رأيي بشكل واضح وصريح.. أنّني لاجئ وأسير. هناك من لا يهمّه الأمر، أولويّاته مختلفة. لكنّ هذا يجعلني لا أنسى، ويبقيني مرتبطًا بالقضيّة رغمًا عنّي!

يشير إلى كتاب عمر على الطاولة المنخفضة ويتابع:

- إذا أخذت منك كتابك هذا غصبًا وعدوانًا، فإنّك ستظلّ تفكّر طيلة الوقت بطريقة لاسترجاعه.. قد تحاول بالقوّة، وقد تفعل بالعقل. لكن ماذا إن كنت عاجزًا، لا بوسعك حلّ سلميّ ولا بيدك قوّة؟ ستنزل دموعك لا إراديًا، لا خوفًا.. بل عجزًا وقهرًا! هذا هو الأمر بالنّسبة إليّ.. إنّها مجرّد وثائق. لكنّني محروم منها!

كانت العبرات تنهمر على وجهه في ألم. وكان عمر يتماهى كليّا مع مشاعره الشفّافة.

لقد عرف كيف يكون العجز، وقد قرّر ألّا يعرفه بعد ذلك أبدًا.

تمنّى بإخلاص أن يجد ياسين طريقًا خارج الشّرنقة، فإحساس الحبس داخلها شاقّ وبغيض.

***

كانت فترة إقامته في المخيّم فرصة مواتية ليتأمّل ويتدبّر. تلك الشّهادات الحيّة التي جمعها من المحيطين به كانت تدفع به دفعًا

نحـو الخطـوة التّاليـة.

كانت عليه زيارة فلسطين!

لـن تكتمـل الصّـورة في ذهنـه إلّا بـوطء تـراب الأرض المغتصبـة، وملامسـة أكـفّ أهلهـا الصّامديـن. كان يقـترب تدريجيّـا مـن الالتحـام بتلك القضيّـة التي أصبحـت تسـكنه وتشـغل عقلـه ووجدانـه، ولـم تـزده حكايـات أبي الحسـن والشّـيخ حـازم إلّا شـوقًا.

حتّى جـاء ذلـك اليـوم. دخـل عـلى أبي الحسـن في مكتبـه بقاعـة الألعـاب، وقـال بلهجـة حازمـة:

- أريد زيارة فلسطين. هل يمكنك مساعدتي؟

لـم تبـد الدّهشـة ولا الاسـتغراب عـلى ملامـح الرّجـل. قـال بعـد صمـت قصـير:

- أمهلني بعض الوقت. سأتدبّر الأمر.

لكـنّ «بعـض الوقـت» اسـتمرّ شـهورًا طويلـة. كان عمـر يـدرك صعوبـة الدّخـول إلى الأراضي المحتلّـة والمحـاصرة، وأبـو الحسـن لـم يبخـل عليـه بالـشّرح. لقـد اختلـف الوضـع بعـد الانتفاضـة الثانيـة، وازداد سـوءًا بعـد حصـار غـزّة.

لكنّه تشبّث بالأمل.

لـم يعـد الأمـر مجـرّد مجـاراة لآيـة وخالهـا. إنّ الفـترة الـتي أمضاهـا في المخيّـم كانـت أكـثر مـن ملهمـة. كان قريبًـا مـن إيجـاد «الهـدف» الـذي سـأل اللّه أن يرزقـه إيّـاه بعـد الحادثـة. رويـدًا رويـدًا، كانـت الفكـرة تتبلـور في رأسـه وتتّضـح. كانـت يبيـت لياليـه يتخيّـل ويرسـم تفاصيـل المرحلـة المقبلـة. حـين ينتهـي مـن تلـك الرّحلـة، سـتكون الصـورة قـد اكتملـت.

وكان أبـو الحسـن عنـد وعـده. تدبّـر الأمـر. كان الزّمـن صيفًـا، حـين دخـل متهلّـل الأسـارير، وبكفّـه وثائـق مـا. قـال بابتسـامة دهـاء:

- بطاقتك المهنيّة الجديدة.. صحفيّ!

كانت قافلة إغاثة دوليّة تدخل غزّة خلال أسبوعين، مرورًا بمصر. وكان عليه الالتحاق بها كصحفيّ مغربيّ، دون أن يزوّر هويّته. قال أبو الحسن موضّحا:

- الإسرائيليّون يطلبون قائمة اسميّة بكلّ أعضاء القافلة بشكل مسبق. دون وظيفة واضحة، لن يمكنك العبور. لكن لا تخش شيئا.. إنّهم لا يختمون جوازات السّفر العربيّة عند معبر رفح.

لم يفته ذلك قطّ. كان يعلم أنّ دخول غزّة يعني المرور عبر النّقاط الحدوديّة التي تشرف عليها السلطة الإسرائيليّة. الدّخول جوًّا عبر المطارات الدّوليّة يعني ختم جوازه من قبل اليهود.. وصمة العار تلك قد تتسبّب في رفض دخوله إلى عدد من الدّول العربيّة والمسلمة فيما بعد. لذلك كان الولوج من المعابر المخصّصة للفلسطينيّين آمن.

خلال أيّام، كان قد استجمع شتاته المبعثر في أركان المخيّم واستعدّ لإقلاع وشيك نحو القاهرة. هنا امتصّت روحه عبق الحريّة وتخلّصت من أدران العجز التي كانت تكبّلها. مثلما انتصرت غزّة الأبيّة في حرب غير متكافئة مع العدو المحتلّ، انتصر عمر على مخاوفه القديمة.

قبل رحيله، صافح عمر أبا الحسن بقوّة، يشكره على التّجربة الفريدة التي وهبته إيّاها رحلة المخيّم، ثمّ أخرج من حقيبته ظرفًا مكتنزًا. طالع صاحبه الظرف وفي عينيه نظرة تساؤل وحيرة، فقال عمر في غموض:

- أعرض عليك كفالة نشاط المخيّم!

- كفالة؟

- في الغرب، يعتمدون كثيرًا على «الرّعاة». غالبًا ما ترعى الشّركات الكبرى الأنشطة التطوّعيّة والمبادرات الشّابة. وأنا أودّ أن أكفل هذا المخيّم الفريد، حتّى ينالني شيء من الأجر والثّواب...

كان قد لاحظ تساقط طلاء قاعة الرّياضة، واهتراء معدّاتها التي تركت عليها السّنون أثرها. يدرك أنّ أبا الحسن يصرف من جيبه حرصًا على

قضيّتـه الـتي يؤمـن بهـا.. وهـو لـم يكـن يرجـو إلّا أن يقاسـمه ذاك الحـرص.

عانـق وليـدًا وياسـين بحـرارة مودّعـا، فجـاءت أمّ محمّـد الخبّـاز مهرولـة وفي عينيهـا تلتمـع عـبرات نديّـة تـأبى الهطـول. قالـت في تأثّـر:

- هل أنت ذاهب إلى فلسطين يا ولدي؟

أومأ مبتسمًا، فهتفت على الفور في لهفة:

- هلّا حملت إليّ قبضة من تراب قريتنا في رام الله، في زيارتك المقبلة؟

كانت أمّ محمّـد قـد غـادرت بلـدة «صوريـف» إبّـان النّكبـة الأولى، وعمرهـا لا يزيـد عـلى السّـنوات العـشر. وصفـت لـه البيـت بدقّـة، كمـا تحفـظ تضاريـس المـكان في ذاكرتهـا. ربّمـا تتلـوّن الذاكـرة وتخونهـا، فتكمـل الصّـورة الذهنيّـة بمعالـم رأتهـا عـلى التلفـاز، لقـرى أخـرى مهجّـرة.. فتتماهـى الصّـور في مخيّلتهـا حـتّى تحسـبها واحـدة. تقـول في ثقـة:

- البيـت في أعـلى التلّـة، إلى جـوار بيـت أبـو صالـح.. اسـأل أيّـا كان عنـه، الجميـع يعرفـه. أمـام البيـت زيتونـة كبـيرة. لا تنـسَ، في المـرّة القادمـة.. أحـضر معـك الـتّراب!

ابتسـم عمـر في مـرارة وأطـرق في حـرج، ثـمّ تطلّـع إلى الصّـورة الـتي بـين يـدي السـيّدة السـبعينيّة. صـورة قديمـة مهترئـة هـي كلّ مـا تبقّـى مـن البيـت الـذي تعتقـد أنّـه مـا زال يقـف هنـاك شـامخًا فـوق التلّـة يترقّـب عودتهـا. تتحـدّث بإسـهاب عـن «الوطـن»، وعـن رائحـة ترابـه المميّـزة. وإذ إنّ أملهـا في العـودة بعـد تلـك العقـود الطويلـة قـد غـدا مسـتحيلا، تبتكـر أمّ محمّـد طريقـة مدهشـة للعـودة.. فتـوصي أبناءهـا بنـثر الـتّراب الـذي سـيحضره عمـر مـن القريـة عـلى قبرهـا!

عاهدهـا عـلى العـودة، وبحوزتـه الـتّراب العزيـز. لـم يـدر كيـف يمكنـه الوصـول إلى البلـدة بعينهـا، لكنّـه سـيفعل بشـكل مـا.

مـرّت أشـهر الرّبيـع بسرعـة خاطفـة، مثـل سـحب عابـرة نفخـت فيهـا ريـح عاصـف بشدّتهـا، لتـبزغ الشّـمس الدّافئـة. استقبلت رنيـم حلـول شـهر يونيـو بمـزاج أكـثر استرخاءً. عملـت بنصيحـة ياسـمين ووضعـت النّقـاط عـلى الحـروف في علاقتهـا بشـهاب.

حـدّدت الخطـوط الحمـراء: لا يمكنهـا الاسـتغناء عـن عملهـا في شركـة المحامـاة الباريسـيّة وبرنامـج الحقيقـة الكاملـة! لـم تكـن تقـول جديـدًا، منـذ عرفهـا، يـدرك شـهاب مـدى تعلّقهـا بمسـيرتها المهنيّـة الواعـدة. لكنّ العـودة إلى باريـس لـم تعـد متاحـة بالنّسـبة إليـه. لـم يكـن مـن اليسـير الحصـول عـلى وظيفـة دائمـة.. وعليـه أن يترقّـب فرصـة زيـارة خارجيّـة قـد تحـين وقـد لا تحـين!

اتّفقـا عـلى قضـاء أسـبوع معـا كلّ شـهر. تسـافر هـي إلى القاهـرة، أو يأتيهـا هـو إلى باريـس. ينسّـقان ويوزّعـان إجازاتهمـا السّـنويّة، بالإضافـة إلى ترتيـب العمـل عـن بعـد حـين يكـون ممكنًـا، أو الإجـازات بـدون راتـب إن تطلّـب الأمـر. كان ذلـك الخـطّ الأحمـر الخـاصّ بشـهاب. ووافقـت رنيـم دون تـردّد. سـتّة أسـابيع في السّـنة عليهـا، وسـتّة عليـه. بوسـعها تدبّـر أمـر ذلـك!

كانـت الشـقة في حـال مـن الفـوضى في تلـك الأيّـام. أنهـت رانيـا اختبـارات نهايـة السّـنة، وانهمكتـا في التّحضـير للزّفـاف المرتقـب. الفسـاتين و«لأكسسـوارات» والأحذيـة، بالإضافـة إلى الهدايـا لأفـراد العائلـة كانـت تمـلأ الحقائـب وتفيـض منهـا عـلى الأرض.

كانـت صحّـة سـكينة في تحسّـن مسـتمرّ. دأبـت تحـضر حصـص إعـادة التّأهيـل لاسـترداد طاقـة رئتيهـا، حـتّى غـدا تنفّسـها منتظمًـا. مضـت فـترة طويلـة مـذ فاجأتهـا نوبـة ضيـق تنفّـس تقطـع عنهـا الهـواء.

لـم يحـضر جـاسر للقائهـا أبـدًا. منـذ زيارتـه الغريبـة قبـل اسـتفاقتها مـن التّخديـر، لـم يحـاول أحدهمـا الدنـوّ مـن مسـاحة الآخـر. كانـت تهـوّن عـلى نفسـها وتقـول.. سـيأتي. حـين يكـون مسـتعدّا سيأتي حتمًـا. كان مهتمّـا بتقـصّي أخبـار شـقيقته. حملـت إليـه رانيـا الإجابـات الـتي لديهـا، وهـي لـم تكـن بالـشّيء الكثـير. اسـم عائلتهـا الحاضنـة: «دينيـس»، وعنوانهـا القديـم الـذي منعـت مـن الاقـتراب منـه بعـد محاولـة الاختطـاف الفاشـلة! كان ذلـك كلّ مـا لديهـا.

وكانـت تعـرف كلّ شيء عنـه. تقـدّم لهـا رانيـا تقريـرًا يوميًـا عـن نشـاطاته واختباراتـه وعاداتـه وأصدقائـه.. تتابعـه عـن بعـد، دون أن تقتحـم مجالـه الشّـخصيّ. بعـد سـفر الأختـين، سـتفتقد الصّحبـة المؤنسـة ونـشرة الأخبـار اليوميّـة!

- الغداء جاهز.. تعاليا!

خرجت رانيا أوّلا. جلست قبالة سكينة وملأت طبقها. قالت في تذمّر:

- أنت واثقة أنّك لا ترغبين في المجيء؟

ابتسمت سكينة وقالت برفق:

- أشعر أنّ حضوري لن يكون مناسبًا.

قالت رنيم وهي تنضمّ إليهما:

- إذا غـيّرت رأيـك، فاعلمـي أنّ كلّ شيء سـيكون جاهـزًا مـن أجلـك.. تذكـرة السّـفر والإقامـة في الفنـدق الـذي يقـام فيـه الحفـل.

رنّ هاتف رنيم ليقاطع الوجبة. كانت ياسمين.

- أشرفت على الوصول!

- ننتظرك إذن للغداء.

حفـل انتهـاء عزوبيّـة آخـر، وافـتراق مرتقـب لفـترة الإجـازة. لـم تسـتطع ياسـمين إقنـاع هيثـم بالسّـفر إلى القاهـرة لحضـور حفـل زفـاف رنيـم. منـذ البدايـة، كان هنـاك عـدم ارتيـاح متبـادل بـين هيثـم ورنيـم.. منـذ حادثـة

رذاذ الفلفل! تعلم أنّ تحفّظاته على رنيم كثيرة. لكنّه لم يحاول يومًا إبعادها عنها. راوغ حين قال بلهجة قاطعة:

- ظروفنا الماديّة لا تسمح بتحمّل نفقات السّفر!

كانت رنيم قد عرضت - كما فعلت مع سكينة - أن تتحمّل نفقات استضافتهم جميعًا. لكنّ ذلك كان غير واردٍ بتاتًا بالنّسبة إلى هيثم.

قالت رانيا وهي تفارق مقعدها على مائدة الغداء:

- يجب أن أعيد الكتب التي استعرتها من المكتبة. سأكون هنا قبل الخامسة!

جمعت الكتب المستعارة، وحشرتها في حقيبة ظهرها، وخرجت. حين ركبت المصعد، دفعت الوشاح المرتخي بإهمال حول وجهها إلى الوراء لتبرز خصلة شقراء داكنة تحته. كانت قد أعادت صبغ شعرها وقصّه تلك القصّة القصيرة التي تليق بها. حين وصلت إلى المحطّة، كانت الحرارة قد غدت خانقة. بحركة قاطعة، سحبت الوشاح وخبّأته في حقيبتها، ثمّ أعادت ترتيب خصلاتها أمام زجاج النّافذة. لقد تحمّلته طويلا بلا داعٍ حقيقيّ. لم تؤمن بحاجتها إليه إطلاقًا.. لكنّها تورّطت وتحمّلت تبعات ورطتها أكثر من ستّة أشهر.

دخلت مكتبة الجامعة، ووضعت الكتب على مكتب الاستقبال، ثمّ تجوّلت بين الرّفوف في تراخٍ كأنّها تودّع المكان. ستمضي شهور الصّيف برفقة عائلتها، غالبًا في الإسكندريّة كما جرت العادة. لن ترجع إلى باريس قبل الخريف.

- أنت هنا!

ظهر وجه كزافيي من خلف الرّفّ الخشبيّ بشكل مفاجئ. لم تعد إلى مطاردته منذ زمن، ومع ذلك فهي تعرف كلّ أخباره وتنقلها بحرص إلى سكينة. تجاهلته وجلست إلى مقعد شاغر متظاهرة بتصفّح رواية فرنسيّة.

- أنت تقرئين الفرنسيّة الآن!

كانت قد أحرزت تقدّما لا بأس به في الشّهور الماضية. بإمكانها إجراء محادثة سليمة دون تردّد أو تلعثم.. لكنّها تردّ له الصّاع صاعين عامدة متعمّدة. أشار إلى شعرها المكشوف وقال مازحًا:

- هكذا تعلنين دخول فصل الصّيف؟

وضعت الكتاب جانبًا وقالت بلهجة جافّة:

- ما الذي تريده؟

- لقد وجدت سيلين!

أحرزت كلماته نتيجة فوريّة. حدّقت فيه رانيا بانتباه وردّدت:

- سيلين؟ هذا هو اسمها؟

أومأ بابتسامة ثمّ أضاف:

- لم يكن هناك غيرك لأشاركه الخبر...

تنهّدت ثم قالت:

- بلى، هناك من يهمّه الأمر أكثر منّي.. لكنّك عنيد ومتحجّر القلب! على كلّ حال، سأسافر خلال يومين إلى مصر. لن أكون هنا خلال الإجازة الصّيفيّة.

عمّ الصّمت لبرهة، وقرأت الخيبة على قسماته، فأضافت على الفور:

- هذا بريدي الالكترونيّ. إذا شئت مشاركتي ما توصّلت إليه بشأن سيلين.

دوّنت العنوان على قصاصة ورق، وتركتها بين يديه. لوّحت بكفّها وهي تغادر قاعة المكتبة، ثمّ اتّسعت ابتسامتها وهي تهرول في اتّجاه محطّة المترو.

سكينة ستكون مسرورة بالخبر!

***

في الساعة السّادسة، اكتمل العقد بحضور ميساء.. وكانت رانيا واسطة العقد كالعادة. كانت قد اكتسبت تجربة في تنظيم حفلات

توديع العزوبيّة! لم تسأل مرّة أخرى عن فوائد الزّواج ومساوئه. كانت تعرف الكثير الآن بسبب هلع رنيم وعصبيّتها الزّائدة في الأيّام الأخيرة! جهّزت مسابقات في الثقافة العامّة، وألعابًا حركيّة.. نفخ بالونات ثمّ ثقبها بقبّعات حادّة القمم، نقل كرات صغيرة بين طرفي الغرفة على ملاعق يمسكنها بأسنانهنّ، القفز بالحبل وسباق التّوائم المتلاصقة. ثمّ تساقطن على المقاعد في إعياء ليلتهمن المقبّلات الشّهيّة.

هتفت رانيا فجأة:

- سترمين الباقة، أليس كذلك؟

- أيّة باقة؟

حدجتها بنظرة ماكرة وقالت:

- أعلم أنّك جفّفت باقة ياسمين وتحتفظين بها في خزانتك! طالما نحن مجتمعات الآن، يجب أن ترميها!

وقفت رانيا وميساء تتدافعان في مرح طفوليّ، في حين حدّقت رنيم في باقة الورد الأحمر الجافّ في إشفاق:

- إن رميتها ستتحوّل إلى أشلاء. وردة واحدة تكفي!

سحبت وردة برفق، قد استحال لونها إلى الأحمر الدّاكن، ثمّ تنهّدت بأسف وهي تلقي بها خلف ظهرها، لتستقرّ بين كفّي ميساء.

- أنا التّالية!

تباهت ميساء في جذل وهي تحتضن الوردة التي حطّت بين كفّيها، بينما عبست رانيا وهي تقول في تشفّ:

- لا عليك.. سألتقط الباقة الحقيقيّة في حفل الزّفاف!

***

تلقّت عبارات المجاملة والمديح وهي تتقدّم على السجّاد الأحمر بفستانها الأبيض ذي التّصميم الفريد -وباهض الثمن- وتتأبّط ذراع

شهاب. لقد كان حفل زفافها ليلة من ليالي الأحلام. الفستان، الزّينة، الموسيقى، المأدبة، الرّقيّ واللّمسات النّاعمة، الدّيكورات الفاخرة.. كلّ ذلك كان كما أملت وأكثر. لكنّها محاطة بالغرباء. توزّع ابتسامات متملّقة وتتلقّى تهاني جوفاء.

عبرت القاعة الملأى بالمدعوّين، أفراد عائلتها الموسّعة الذين لم تخالطهم منذ سنوات، حتّى بليت العلاقات.. ومعارف والديها من الطّبقة المخمليّة، وأصدقاء شهاب وأقاربه. كانت تشعر بالغربة، كأنّ الحفل لا يخصّها.. كأنّها فضائيٌّ حطّ من كوكب غريب، فوجد نفسه محاصرًا بأزواج عيون كثيرة فضوليّة، ينكرها ولا يملك الفرار منها.

أيقنت أنّ باريس غدت عالمها كلّه، وأنّها لا يمكن أن ترجع إلى الاستقرار في ذلك المحيط المجهول كلّيًا بالنّسبة إليها.

لوّحت لها رانيا وهتفت:

- ابتسمي.. سألتقط صورًا أرسلها للفتيات!

فافترّ ثغرها عن ابتسامة حقيقيّة، وتألّقت عيناها بوميض الفرح. ثمّ وقفتا متجاورتين وأخذتا صورًا لهما، متعانقتين، ثمّ وهما تسندان ظهريهما إلى بعضهما، ثمّ تعدّدت الوضعيّات المرحة. تأمّلتهما ناريمان في رضا. لم تكن تتوقّع حين أرسلت رانيا لتقيم مع رنيم أنّ العلاقة بينهما قد تتطوّر بذلك الشكل المبهج. وقفت بينهما في عناق ثلاثيّ وهمست:

- رؤيتكما منسجمتين أجمل ما في الحفل!

تبادلت الأختان نظرة طويلة، ثمّ انفجرتا ضاحكتين. لم يكن ذاك هو الوضع بينهما على الدّوام، لكنّهما تخطّتا ذلك بمعجزة ما.

كانت البداية يوم وجدت رنيم الشجاعة لتعتذر من شقيقتها. لم تكن تحتاج أكثر من كلمات صغيرة ليّنة لترويض الفتاة الشّرسة! ثمّ جاء «ميثاق الشقة ٤٠٤» ليضع أسس علاقة جميلة ودافئة. لم يعد يضايق رنيم أن تشارك صديقاتها مع شقيقتها التي تصغرها بتسع سنوات! كان

ذلك يثير حنقها في السّابق، لكنّ رانيا كسبت المكانة التي حازتها لديهنّ عن جدارة.

لقد رتّبت حفلات نهاية عزوبيّة، وحقّقت إنجازًا باهرًا في وصل سكينة بولدها المفقود، وكتبت الميثاق الذي وقّعت عليه الصّديقات. لقد استحقّت أن تكون وصيفتها المميّزة، بعد أن رافقتها لشهور في رحلة التّحضير للزّفاف.

ها هما الآن، صديقتان! هذا لا يعني أنّ رانيا لم تعد تثير غيظها بصبيانيّتها وتهوّرها ونزقها. لكنّها خطت خطوات عملاقة نحو النّضج، منذ رحلت لتقيم معها في الشّقة الباريسيّة.

***

حلّقت بهما الطّائرة في رحلة طويلة من القاهرة حتّى دبي، ومنها إلى بانكوك، العاصمة التّايلنديّة. حقّقت ريم حلمها، حين استجاب شهاب إلى رغبتها في شهر عسل مداريّ بطعم الأناناس والبابايا وفاكهة التّنين.

أمضيا بضعة أيّام في العاصمة، يتفرّجان على القصور والمعابد البوذيّة القديمة، ويتوهان في زحام الأسواق، بألوانها الفاقعة وروائحها المربكة وأطعمتها الغريبة.. ثمّ حلّقا في اتّجاه الجنوب، إلى منطقة «كرابي»، حيث الجزر الآسرة والشّواطئ الخلابة. ركبا على ظهور الفيلة الآسيويّة الضّخمة، وغاصا في المياه الفيروزيّة، ليسبحا إلى جوار كائنات الأعماق الملوّنة وفوق الشّعب المرجانيّة الهشّة. ثمّ التقطا صورًا تذكاريّة بالقرب من الكتل الصّخريّة النّاتئة في عرض البحر، التي صارت تعرف بجزيرة «جيمس بوند»، منذ صُوّر الشّريط الأمريكيّ «الرّجل ذو المسدّس الذّهبيّ» في الجهة، متّخذا القمم الحجريّة الفاتنة خلفيّة لأحداثه. ثمّ استسلما أخيرًا لنداء الاسترخاء على الشواطئ الرّمليّة البيضاء لجزيرة «بي بي» الخالية من العربات والتي لا تصلها إلا القوارب وزوارق الصيد.

كانت ريم تحلّق على أجنحة السعادة. إنها تستمتع بكلّ لحظة تمضيها برفقة شهاب. كادت تنسى في خضم تردّدها أنّ علاقتهما نشأت عن صداقة

مريحة ولا مشروطة. إنّه يعرف كيف يكون طفلا، يلهو بلا توقّف.. ويميّز أوقات الجدّ التي لا هزل فيها.

لم يتغيّر شيء عن رحلتهما منذ ثلاث سنوات إلى أهرامات الجيزة.. لكنّها تركت العنان لنفسها أخيرا، لتستقبل مشاعره بامتنان، وتبادله إيّاها دون حسابات معقّدة وتخوّف من المستقبل. حتّى حين لبثا سجيني فندقهما ليومين متتابعين بسبب الأمطار المداريّة المستمرّة، أمضيا ساعات شيّقة لم يتخلّلها الملل. كان أحدهما يستمتع بصحبة الآخر.

كانا يطلّان على شاطئ الفندق الخالي من الرّوّاد، من شرفة الفيلا الخاصّة بهما المشيّدة من الألواح الخشبيّة، بسقف من القرميد الأحمر، والمعلّقة أعلى التلّة فوق منصّة صخريّة مرتفعة، حين سألت رنيم بنبرة مرحة، وهي تغطّي ذراعها - التي باتت تميل إلى لون برونزيّ ساحر - بطبقة من واقي الشّمس:

- إن كنت شجرة، فماذا تريد أن تكون؟

رفع شهاب حاجبيه ثمّ نقل بصره متفكّرا إلى البعيد. بالأسفل، تظهر أمامهما غابات من أشجار الموز وجوز الهند والمانجا والبابايا، تحدّها مزارع أناناس وحقول أرزّ منبسطة في الجهة البعيدة عن الشّاطئ.

- شجرة مانجا.. لأنّها شجرة معطاءة وثمارها حلوة. ولأنّني أحب المانجا!

ضحكا، ثمّ قالت رنيم:

- أفضّل أن أكون شجرة جوز هند.. لأنّها باسقة الطّول، تراها عن بعد، قبل أيّ شجرة أخرى. إنّها مميّزة!

ابتسم شهاب وأضاف:

- إنّها النّجمة بين الأشجار!

- تحديدًا!

ضحكت رنيم، بينما رمقها شهاب بنظرة طويلة قبل أن يقول:

- دوري لأسأل.. اممم، ما هو أسوأ مخاوفك؟

تمطّت رنيم في كسل ثمّ قالت بغنج وعيناها تهيمان في المشهد الطّبيعيّ الأخّاذ الذي تكسوه خيوط المزن مسحة دراميّة:

- أن تنتهي هذه الرّحلة!

- لكنّها ستنتهي قريبًا.

- وهذا يحزنني.. سأعيش على ذكرياتها حتّى شهر العسل القادم!

كانت قد عزمت أن يكون كلّ لقاء لهما «شهر عسل» متجدّدًا. تنهّدت ثمّ قالت:

- ماذا عنك؟

- أن أكون خيارك الثاني دائمًا!

التفتت إليه فجأة وفي عينيها دهشة وتساؤل.

- ماذا تقصد؟

قال بلهجة تشوبها مسحة كآبة:

- أخشى أن يأتي يوم أحتاجك فيه ولا أجدك إلى جواري.. لأنّ عملك هو صاحب الأولويّة المطلقة.

عبست وهي تشبك ذراعيها أمام صدرها، ثمّ قالت في وجوم:

- حسبت أنّنا تحدّثنا في هذا...

زفر شهاب ونظراته تسرح إلى الأفق وتمتم:

- نعم، فعلنا.

ثمّ ما لبث أن استعاد مزاجه الطيّب واسترسل في حكايات مختلفة.

غير أنّ كلماته لازمتها ولم تفارق ذهنها باقي النّهار.

فكّرت أنّ أسوأ مخاوفها هو يوم يقف شهاب ليخيّرها.. بينه وبين عملها!

***

«مرحبا، رنوش.. هل هذا هو اسمك؟»

حدّقت رانيا باستغراب في الرّسائل الواردة إلى صندوق بريدها الإلكترونيّ. كانت هناك ثلاث رسائل من المرسل ذاته، المدعوّ «بطل حرب النّجوم». تساءلت في حيرة من ذا المجهول الذي يجرؤ على إسقاط الكلفة ومناداتها باسم الدّلع الخاصّ بالمقرّبين؟

لم تكن قد فتحت بريدها الإلكترونيّ خلال الأسبوعين الماضيين. كانت حريصة على تفقّد رسائلها يوميًا في بداية العطلة، لكنّ شهرين مرّا دون أن تصلها أيّ أخبار ذات أهميّة. لذلك انتهت إلى مجافاة صندوق الرّسائل. حين فتحته ذلك الصّباح بعد غياب، ألفت تلك الرّسائل الغريبة تنتظرها. يعود تاريخ الإرسال إلى الأسبوع الماضي.

بعد زفاف رنيم وسفرها في شهر العسل، ارتحلت وعائلتها للاصطياف في الإسكندريّة. تلك عادتهم التي لا يتخلّون عنها منذ سنوات. لازمها إحساس بالغرابة منذ وصولها. كان يمكنها في وقت مضى أن تستمتع بوحدتها، يكفي أن تكون بحوزتها سمّاعاتها وأجهزتها الإلكترونيّة المفضّلة. تضعها على أذنيها، وتشغّل موسيقاها الصّاخبة، لتغيب في عالمها المجنون والخياليّ.

لكنّ هذا الصّيف يبدو مختلفا. كلّ شيء يصيبها بالملل. لم يكن هناك ما يجعلها تسلو حياة باريس ورفقة الشّقة ٤٠٤.

كانت رنيم قد سبقتها إلى باريس بعد رحلة شهر العسل، ثمّ لحق بها شهاب ليمضيا أسبوعا واحدًا معًا في نهاية يوليو. افترقا على أمل اللّقاء بعد شهر آخر. هذه المرّة ستحضر رنيم إلى القاهرة، ثمّ ترحل هي برفقتها.

كلّما فكّرت في ذلك التّدبير الغريب شعرت بالامتعاض. شقيقتها العزيزة لا تقدّر الحظّ الذي حظيت بها بزواجها من رجل مثل شهاب. تنهّدت. تلك حياتهما، وهي لا تملك التدّخل بأيّ حال. واصلت القراءة في حيرة:

«تريدين أن أخبرك بشأن سيلين...»

هتفت في ذهول: كزافي!

كانت تنتظر رسالة منه منذ دوّنت بريدها في آخر لقاء لهما على قصاصة تركتها بين يديه. لكنّ مضيّ شهور الصّيف دون اتّصال منه جعلها تعتقد أنّه كوّر الورقة ورمى بها مثلما فعل مع الإعلان. حزّ في نفسها ألّا تكون بحوزتها أيّ مستجدّات تبشّر بها سكينة، بعد أن أهدتها أملا قبل رحيلها.

أدركت على الفور أنّها لم تخبره باسمها قطّ. اسم بريدها هو «رنوش ١٩٩٠».. اسم الدّلع مع سنة ميلادها. لقد كان الخطأ خطأها. عادت إلى الرّسالة في اهتمام:

«أنا في «نانت» منذ أسبوع. بحثت حتّى وجدت عنوانها، فإذا به دير للرّاهبات الكاثوليك...».

عقدت حاجبيها في شكّ. ما الذي أخذها إلى الدّير؟ هل ترهبنت حقّا؟ يجب أن تكون الآن في الثانية أو الثالثة عشرة.. فكيف تنقطع عن دراستها وتدخل الدّير؟

«زرت الدّير وسألت رئيسة الرّاهبات عن «سيلين دينيس» التي أحسبها شقيقتي الضائعة، فعرفت أنّها فقدت عائلتها منذ سنتين في حادث طريق أليم. لقد أصبحت يتيمة مرّة أخرى. لم أجد في نفسي الشّجاعة للقائها».

على الفور، حوّلت رانيا الرّسالة إلى ريم مع ملاحظة مقتضبة:

«كزافي وجد سيلين في دير راهبات في نانت!»

ثمّ فتحت الرّسالة الثّانية، وأخذت تلتهم السّطور في لهفة:

«عرفت أنّ سيلين تنقّلت بين عدّة عائلات حاضنة منذ الحادثة. لكنّها لم تستقرّ طويلا عند إحداها. كانت تهرب من المنزل.. أو تسبّب المشكلات، فينتهي بها الأمر إلى الانتقال مرّة أخرى. وصلت عند الدّير منذ ستّة أشهر.

لقد حاولت الحديث إليها. لكنّها صامتة ولامبالية. قالوا أنّها تتصرّف بنفور منذ وصولها. لا أدري، ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلها...».

سارعت إلى الرّسالة الأخيرة:

«رجعت إلى باريس بالأمس. لقد حاولت. لكنّ الموضوع يبدو لي بلا فائدة».

كانت قصيرة ومختصرة. توحي كلماتها بالخيبة. شرعت في كتابة ردّ على الفور:

«مرحبا كزافي. اسمي هو رانيا».

عليها أن تصحّح ذلك الخطأ بداية.

«يسعدني أنّك وصلت إلى سيلين. ويؤسفني ما آلت إليه حالها. ماذا تفعل في الدّير؟ إنّها ما تزال يافعة على الرّهبنة! آمل ألا تفقد الأمل بشأنها. إنّها بحاجة إلى عائلتها الحقيقيّة».

تأمّلت ما كتبت، ثم مسحت الكلمة الأخيرة. «إنّها بحاجة إلى عائلتها». ليسا متّفقين على معنى «الحقيقيّة». الحقيقيّ بالنّسبة إليه هو ما ألفه وعاشه منذ عقد ونصف. والحقيقيّ بالنّسبة إليها هو أصل الأشياء ومصدرها.

أضافت:

«أنت عائلتها الوحيدة الآن».

مازالت سكينة ممنوعة من الاقتراب من سيلين (أو ميار).. فهي لم تبلغ سنّ الرّشد بعد. لكنّ وفاة العائلة الحاضنة قد يغيّر أشياء كثيرة. ضغطت على زرّ الإرسال، ثمّ حوّلت الرّسائل التّالية إلى رنيم قبل أن تتّصل بها:

- وصلتك رسالتي؟

- لم أفتح الرّسائل بعد.. أنا في المحكمة!

- افعلي في أقرب وقت.. هناك جديد يخصّ سكينة!

- حاضر.. سأفعل.

تركت مقعدها أمام الحاسب الآليّ، وخرجت إلى الشّرفة المطلّة على كورنيش الإسكندريّة ليلفحها وهج الشّمس ونسيم البحر المحمّل برائحة اليود. تمطّت في كسل، وهي ترنو إلى أمواج البحر الزمرّديّة، والشاطئ الذي تتزاحم على مساحته الرّمليّة شمسيّات المصطافين حتّى تكاد تحجبها.

لم تكن ترغب بالتّواجد هناك في تلك اللّحظة! كم تشتاق إلى سكينة وأجواء الشّقة ٤٠٤! كانت تشعر بالإثارة تغزوها بفضل رسائل كرافيي، وتهفو إلى ممارسة مهمّة التحرّي التي تجيدها. لكنّها حبيسة الإجازة التي تأبى أن تنتهي.

كم أنّ رنيم محظوظة لعودتها السّريعة إلى هناك!

***

في الاستراحة الفاصلة بين المرافعات والاستماع إلى الحكم، فتحت رنيم صندوق بريدها الوارد. طالعت بسرعة رسائل رانيا التي بدا أنّها عاجلة، فاتّسعت عيناها دهشة. عادت لتقرأها من جديد بتروٍّ، وفكرة مذهلة تتكوّن في رأسها.

حين خطت داخل الشّقة مساءً، كانت الخطّة قد تبلورت في رأسها وغدت واضحة الملامح. جلست إلى جوار سكينة بابتسامة متألّقة، وقالت في حذر:

- سكينة.. لا أريد أن أستبق الأحداث، لكن أمامنا فرصة ذهبيّة لاسترداد ميار!

استمعت إليها سكينة حابسة أنفاسها، وقد تشبّثت راحتاها بأطراف حشيّة المقعد تحتها.

- بوفاة والديها الحاضنين، وتسليمها للدّير.. تصبح بين أيدينا أسباب كافية لطلب استعادة الحضانة!

أخذت نفسا عميقا ثمّ أضافت:

- لا أقول أنّ هذا مضمون.. لكنّ المحاولة واجبة!

- ماذا لو وضعوها عند عائلة أخرى؟

- لقد حاولوا مرارًا لكنّ العائلات جميعها فشلت في استيعابها. عامل السّنّ يجعل من الصّعب العثور على عائلة مناسبة لها.. جلّ الحاضنين يفضّلون الأطفال في سنّ صغيرة، حيث يتأقلمون بسرعة.. أمّا ميار فهي تقريبا مراهقة.

تلألأت العبرات الحبيسة في عيني سكينة. ميار، صغيرتها التي تركتها وعندها سنتان وحسب، قد غدت فتاة يافعة، متمرّدة ومعقّدة! قالت وهي تبتلع غصّتها:

- ماذا عنّي؟ أعني ما الحجّة التي تدفع المحكمة إلى رفع التّهم بالإهمال عنّي؟

- لا تقلقي.. سنعدّ ملفًا كاملا.. عن تشبّثك بالبقاء والبحث عن أولادك رغم الحجر ورغم رحيل زوجك إلى سوريا، التّسجيل الذي بثّه برنامج الحقيقة الكاملة، شريكاتك في السّكن، نأتي بكلّ من بوسعه الشّهادة لصالحك.. ولعلّنا نقنع جاسر بلقائك والشّهادة أيضا...

اغرورقت عيناها بالدّمع وسالت على وجنتيها في صمت. تختلط دموع الفرح بآهات الحزن. لم تكن تحسب أنّ أبواب الأمل قد تفتح مرّة أخرى. تريد أن تصدّق، أنّ المعجزة مازالت ممكنة. لكنّها تخشى أن يتوقّف نبضها من اللّهفة قبل أن تدرك مرادها!

- ثمّ وضع ميار حسّاس أكثر من أيّ وقت مضى. مشاكلها كثيرة، وعقدها النّفسية متراكمة، لذلك لا تستقرّ في مكان واحد طويلا.. شخص واحد يمكنه تحمّلها بصبر!

حدّقت رنيم في عينيها مشجّعة وأضافت:

- هذا الشّخص هو أنت!

أدار عمر المفتاح في قفل باب الشّقة، ثمّ دفع الدفّة برفق فأحدثت صريرًا مزعجًا. هذا الباب لم يفتح منذ ما يزيد على الشّهور التّسعة. مرّت ثلاثة أرباع السّنة على رحيله، أجيز خلالها في القرآن الكريم.. أمضى أسبوعين في غزّة، ثمّ سافر إلى العمرة! لو لم يعد برحلته إلا بذاك الإنجاز، لكان يكفيه. لكنّ ما أحرزه يزيد على ذلك كثيرًا.

سحب حقيبتين ثقيلتين حتّى الرّدهة، ثمّ أنزل الحقيبة الجلديّة عن ظهره. حين مغادرته، كانت تحوي كلّ متاعه. اليوم يعود محمّلا بأثقال ألوانها درجات الزّهريّ، وكيس تراب من أرض غزّة! لم يتمكّن من العبور إلى الدّاخل الفلسطينيّ المحتلّ كما وعد أمّ محمّد، فاكتفى على مضض بما طالته يداه. أوليس تراب الوطن واحدًا؟ حين تسنح الفرصة، سيحمله إليها في مخيّم اليرموك.

تنهّد وهو يسند قامته ويرمي بصره إلى الأفق عبر نافذته.

إنّه يعود إلى فرنسا، أين أهين وسحقت كرامته، وأين تعرّض مشروعه للعراقيل والمعوّقات. لكنّه يرجع إلى تلك الأرض رغم كلّ شيء، مع أنّ أرض الله واسعة. لقد تساءل كثيرًا، ما سرّ تمسّكه بالبقاء هناك؟ لم يكن مدينًا لأحد ولا مرتبطا بوطن. بوسعه الاستقرار في المغرب، أو في أيّ مكان آخر. آية ستلحق به، لا يحسبها تمانع إن هو أبدى رغبته في هجرة أخرى. كلاهما مغترب، وأهلها موزّعون على قارّات العالم الخمس.

لكنّ هاجسًا داخله كان يدعوه إلى إثبات نفسه على الأرض ذاتها. هل يهمّه أن يثأر لإهانته؟ لعلّه يفعل. هل اعتاد المجتمع الفرنسيّ وألف بيئته حتّى صار الانتقال ثقيلًا عليه؟ ربّما. مهما كان السّبب، فإنّه قد رجع. وقد كان يشتعل حماسة لبداية جديدة.

لقد اشتهر اسمه في وقت مضى دون أن يكون قد فعل ما يستحقّ.

أصبح رمزًا في أذهان الكثيرين، وهو كان قد دُفع دفعًا في مجرى الأحداث. لم يصنع أمرًا جديرًا بالثّناء، غير أنّه كان مسلمًا في مجتمع يكره الالتزام الدّيني.

الآن حان الوقت حتّى يثبت جدارته.

***

جلس إلى مائدة منعزلة في الشّرفة الخارجيّة المسقوفة لمطعم «البيت الصّغير». طلب كوبين من عصير البرتقال، ولبث يتأمّل تساقط الأمطار الخريفيّة في السّاحة على مهل وفي عينيه نظرة حالمة. كان يشتاق تلك الأجواء الغائمة الّتي تشعره بالانتعاش، بعد صيف طويل وحارّ، وتلك الحميميّة للمطعم الشّعبيّ العربيّ، بالقرب من ناطحات سحاب عملاقة.

- عمر! لا أصدّق أنّك رجعت!

وقف ليعانق هيثم بشوق، ثمّ جلسا متقابلين. كان يوم الثّلاثاء، وهيثم يداوم في الشركة. اغتنم فترة الغداء ليحظيا بجلسة قصيرة في ركنهما المعتاد. دفع عمر كوب برتقال في اتّجاه صاحبه وقال:

- طلبت هذا من أجلك.

ضحك هيثم وقال:

- ما من أحد غيرك يطلب عصيرًا باردًا ويجلس في الخارج في يوم ماطر! سأطلب قهوة ساخنة.

عاد بعد دقائق قليلة، جلس بعد أن رفع ياقة معطفه واحتضن كوب القهوة الدّافئ بين كفّيه وقال مبتسمًا:

- هكذا أفضل! متى عدت إذن؟

- منذ يومين.

- يا إلهي، لقد اختفيت طويلًا.. أين كنت كلّ هذا الوقت؟

قال عمر في غموض:

- كنت أحتاج وقتًا مستقطعًا، لأرتّب أفكاري.

- وكيف تشعر الآن؟

علت شفتي عمر ابتسامة مسترخية:

- أشعر أنّي ولدت ولادة جديدة!

- ياه، إلى هذه الدّرجة!

- وربّما أكثر...

- حدّثني إذن. كلّي آذان صاغية!

ارتشف عمر من مشروبه ثمّ قال:

- وددت ألّا أفارق المخيّم أبدًا، وألّا أعود إلى الحياة العاديّة قطّ. ذلك المكان، على بساطته وشظف العيش فيه.. إلّا أنّ فيه راحة عجيبة. تلك الوجوه النّيّرة والقلوب الصّافية.. إنّها الصّحبة التي يسعد بها القلب.. «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»!

ابتسم هيثم في رضا. يسرّه تغيّر حال عمر إلى الأفضل. لقد عانى كثيرًا في السّابق، ويستحقّ أن يعرف السّعادة وراحة البال.

تابع عمر في حماس:

- لقد أمضيت شهورًا أتأمّل، حتّى وضعت الخطّة المناسبة.. لكنّني أحتاج مساعدتك.

- قل!



- أنت مواطن فرنسيّ، أليس كذلك؟

أومأ هيثم علامة الإيجاب، فأضاف عمر:

- ما رأيك أن تشاركني في مشروعي؟

رفع هيثم حاجبيه في دهشة، فشرح عمر:

- لقد رفضت في السّابق كلّ مطالبي الإداريّة، وصودرت المعدّات المستوردة.. ولقد فهمت أنّ ملفّي أسود عند الإدارة الفرنسيّة، رغم البراءة والتّعويضات!

- إذن تحتاج واجهة.

- ليس تمامًا. كان بوسعي أن أسجّل المختبر باسم أحد الموظّفين.. أيّ واحد منهم يفي بالغرض. لكنّني مهما فكّرت لم أكن أجد شريكًا مناسبًا أكثر منك!

ضحك هيثم ثم قال في حيرة متزايدة:

- ما زلت لا أفهم شيئا!

- أريد شراكة حقيقيّة. أن تكون معي يدًا بيد، لا بشكل صوريّ. أحتاج مهارتك في البرمجة. سأشرح لك فكرة المشروع، فإذا أقنعتك.. خضت معي المغامرة!

أخذ عمر يتحدّث عن فكرة مشروعه الجديد. تحدّث طويلا، وأصغى هيثم في صمت.

***

طالعت ياسمين ساعة الحائط المعلّقة في الممرّ، ثمّ عادت إلى المطبخ لتجلب باقي أطباق العشاء. تأخّر هيثم. السّاعة تشير إلى الثّامنة.. عادة ما يجلسان إلى المائدة في ذلك الوقت.

في الأيّام التي يداوم خلالها هيثم في الشّركة، يغادر البيت في السّادسة صباحا، ليصل مع بداية الدّوام، نحو الثّامنة والنّصف.. ثمّ يغادر باريس في الخامسة مساءً حتّى يبلغ «ليل» نحو السّابعة والنّصف. يوم شاقّ وسفر كثير.. لكنّه لا يتأخّر عن مواعيده أبدًا.

كانت تهمّ بالاتّصال به، حين تنامى إليها صوت مفتاحه في قفل الباب. عجّلت تستقبله في الرّدهة بابتسامة دافئة يشوبها القلق. أخذت عنه معطفه، بينما انشغل بنزع حذائه.

قال هيثم وهو يتطلّع إلى المائدة:

- رائحة شهيّة!

- أعددت اللازانيا التي تحبّها.

بادرها بعد أن استقرّ كلّ منهما على مقعده:

- قابلت عمر اليوم.

- آه.. هل عاد من السّفر؟

- منذ يومين...

خمّنت أنّ ذلك سبب تأخيره. سكت هيثم لحظات بينما كانت ياسمين تسكب الطّعام في الأطباق، ثمّ أردف:

- لقد اقترح عليّ أن نعمل على مشروع مشترك.

- جميل.. أيّ مشروع هذا؟

- صناعة ألعاب متطوّرة للأطفال.

رفعت عينيها إليه في استغراب:

- ألعاب؟ وما هو دورك أنت في المشروع؟

- البرمجة!

- ألعاب فيديو إذن؟

- سأشرح لك...

بينما يتناولان عشاءهما، أخذ يحدّثها بما دار بينه وبين عمر، مستعيدًا حوارهما ظهر ذلك اليوم.

***

قال عمر وهو يتّخذ وضعا جادّا:

- هل تسمع عن الاندماج البارد؟

فكّر هيثم برهة ثمّ قال في شكّ:

- هل لهذا علاقة بمشروعك السّابق؟ أظنّ الكلمات طرقت سمعي أثناء المحاكمة...

أومأ عمر علامة الإيجاب:

- هو ذاك! بكلمات بسيطة.. إنّه تفاعل كيميائيّ، مشابه لم يحصل داخل المفاعلات النوويّة.. لكنّه لا يحتاج طاقة هائلة مثل المفاعلات، ولا حرارة

شـديدة، بـل يمكـن حدوثـه في ظـروف وحـرارة طبيعيّين!

رمقه هيثم في ريبة:

- وما الذي تصنعه بهذا الاندماج البارد؟

ابتسم عمر وقال ضاحكًا:

- لا متفجّرات.. إن كان هذا ما يقلقك!

ابتسـم هيثـم وقـد أدرك إشـارته إلى انفجـار المختـبر منـذ سـنوات، وقـال في حـرج:

- لم أقصد هذا.. لكن ما علاقة الاندماج البارد بصناعة الألعاب؟

- طاقـة الاندمـاج البـارد، يمكـن تخزينهـا في عبـوات صغـيرة.. مثـل البطّاريّـات، لكـنّ الطاقـة المتولّـدة عنهـا أعـلى بكثـير، وتـدوم لفـترة أطـول أيضـا.. بمعـنى أنّ بوسـعها تشـغيل مختلـف أنـواع المحـرّكات، بكفـاءة ودون حاجـة إلى إعـادة شـحن!

- إن كان هـذا صحيحًـا.. فسـتكون ثـورة في عالـم التّكنولوجيـا! لـن تحتـاج إلى شـحن الجـوّال أو الحاسـب الآلي.. ولا حـتّى توصيـل الأجهـزة الكهربائيّـة بالقابـس!

هتف عمر في حماس:

- بالفعـل! لكـنّ هـذا سـيأتي في مرحلـة متقدّمـة مـن المـشروع.. أنـت تعلـم، هنـاك لوبيـات متحكّمـة في الطاقـة، وظهـور بروتوكـول مـن هـذا النّـوع لا تتبنّـاه مختـبرات ذات وزن.. يعـني التّعـرّض للتّضييـق حـتّى يختنـق المـشروع قبـل البـدء الفعـليّ!

- ما الذي تفكّر فيه إذن؟

- هنـاك مجـال مفتـوح نوعـا مـا.. ويهمّـني بشـكل خـاصّ، وهـو مجـال ألعاب الأطفال!

- ألعاب الأطفال؟

- الألعـاب المتاحـة في معظمهـا تعتمـد عـلى البطاريّـات ذات الاسـتعمال

الواحـد.. وقليـل منهـا عـلى البطاريّـات الـتي يُعـاد شـحنها. حسـنا، لـن نكشـف أوراقنـا دفعـة واحـدة.. نطـرح أوّلا جيـلا جديـدًا مـن البطاريّـات.. تـدوم أطـول قليـلا. مـع أنّ الاندمـاج البـارد قـد يغـني عـن إعـادة الشّـحن لشـهور وربّمـا لسـنوات.

- حسنا. وبعد ذلك؟

تردّد عمر، ثمّ قال بشيء من التهرّب:

- سنترك الخطوة التّالية لوقت لاحق...

سكت لثانيتين ثمّ عاد يقول:

- سنسـتورد ألعابًـا رخيصـة مـن الصّـين: سـيّارات، قـوارب، رجـالا آليـين وطائـرات...

- هل تفكّر في الطّائرات بدون طيّار؟

تحفّزت ملامح عمر وهو يستأنف شرحه:

- معظـم الطائـرات بـدون طيّـار نتحكّـم بهـا عـن طريـق جهـاز تحكّـم.. وهـي صالحـة لمسـافة محـدودة، إذا تجاوزناهـا ينقطـع التّواصـل مـع جهـاز التحكّـم. مـا أفكّـر فيـه هـو أن تكـون الطائـرات أو القـوارب أو السـيّارات مسـتقلّة بذاتهـا.. البطاريّـة المطـوّرة تسـمح لهـا بالسّـفر لمسـافة طويلـة ولا تلتقطهـا الـرّادارات.. وتكـون مبرمجـة لتـؤدّي مهمّـة بعينهـا: توصيـل طـرد، جمـع معلومـات، زرع عدسـة تصويـر أو لاقطـات حراريّـة.. وهنـا يـأتي دورك.

- البرمجة!

تبـادلا نظـرة طويلـة. يشـعر هيثـم بشـكل غريـب أنّ عمـر لا يخـبره بـكلّ شيء. لقـد تعـوّد منـه السّريّـة والغمـوض. لعلّـه لا يكشـف أوراقـه كلّهـا دفعـة واحـدة أمامـه. يفضّـل الاحتفـاظ بأفـكاره لنفسـه أطـول وقـت ممكـن. لكـن في تلـك اللّحظـة، لـم يكـن هنـاك مـا يدعـوه إلى الرّيبـة. إنّ مـا يتحـدّث بـه عمـر أقـرب مـا يكـون إلى التجسّـس. لكنّـه يطـرد تلـك الفكـرة السّـخيفة مـن رأسـه، إنّـه يثـق بصاحبـه.

- وما هي استعمالات هذه الألعاب المتطوّرة؟

أخذ عمر رشفة طويلة من كوبه، ثمّ قال على عجل:

- التطبيقات كثيرة. سنجد زبائن، لا تقلق. سنتحدّث في ذلك في حينه.. في الوقت الحالي، سنعمل على الألعاب وحسب. ها ماذا قلت؟

سكت هيثم لبرهة ثمّ قال:

- أصلّي الاستخارة أوّلا.

***

خطا عمر داخل الشّقة حيث اجتمع فريق العمل من جديد. ابتسم وهو يشير إلى هيثم الذي تقدّم على أثره:

- شكرا لكم يا شباب على قدومكم بهذه السّرعة.. أردت أن أقدّم إليكم صاحب الشّركة.. المهندس هيثم.

صافح هيثم المهندسين الثّلاثة ثمّ عرّف كلّ منهم بنفسه.. «أليكس» زميل قديم لعمر، أمّا «أدريان» و«داميان»، فحديثا التخرّج في كليّة الهندسة ب»إفري».. يتخصّص الأوّل والثّاني في الهندسة الكهربائيّة، بينما يهتمّ الثالث بمجال الطّاقة. كان عمر يحمل على عاتقه مسؤوليّة تطوير البطّاريات، وهيثم يمسك بزمام البرمجة، بينما يهتمّ فريق المهندسين المستقطبين بالمحرّكات والدّارات.

أردف عمر بعد ذلك:

- هذه المرّة سيكون كلّ شيء قانونيّا. لم أتّصل بكم إلّا بعد أن وردتنا الموافقة الرّسميّة على إنشاء الشّركة المصنّعة، وجرى قبل ذلك طلب المعدّات التي من المتوقّع أن تصلنا خلال أيّام..

أضاف هيثم بلهجة آمرة:

- هيّا الآن، كلّ إلى مهامّه.. أمامنا وقت قصير لدراسة بروتوكول التّصنيع قبل أن تصل المعدّات.

كانت الشّقة قد هُيّئت لاستقبال الموظّفين. في الصّالة الواسعة رتّبت أربعة مكاتب متجاورة في الفضاء المفتوح، أحدها لعمر. في حين خصّصت الغرفة الكبيرة للمختبر التّجريبيّ حيث ستكون المعدّات المنتظرة.

في المطبخ الصّغير، أُعدّت غرفة استراحة فيها كلّ ما يحتاجه الطّاقم لتحضير الشّاي والقهوة والوجبات الخفيفة.

قاد عمر هيثم نحو الغرفة الثّانية التي كان بابها مغلقا. أدار المفتاح في القفل، ثمّ أوسع له مجالا ليدلف.

- مكتب المدير!

صفّر هيثم بإعجاب وهو يطالع المكتب الفاخر والمقعدين الوثيرين قبالته، والمكتبة التي تراصّت فيها كتب علميّة وأخرى أدبيّة. قال مداعبًا:

- هل سيكون هذا مكتبي حقّا؟

- يفترض به أن يكون.. بعد أن أنقل متاعي من هنا!

ضحكا معا، ثمّ تقدّم هيثم ليجلس على المقعد الدّوّار. اتّخذ عمر مجلسًا أمامه ثمّ قال بلهجة جادّة:

- المشروع الموازي سيظلّ سرّا بيني وبينك. لن يعرف أحد غيرنا عن تفاصيل تركيب البطّاريّة المعزّزة، ولا عن برنامج التحكّم بها!

أومأ هيثم موافقا.

انبرى عمر يجمع كتبه في صناديق كرتونيّة، ثمّ حمل أحدها وأشار إلى هيثم كي يحمل الآخر. مشى هيثم في اتّجاه المخرج:

- إذن أين ستنقل كلّ هذه الكتب؟

سبقه عمر وهو يقول متضاحكا:

- ليس بعيدًا.. اتبعني!

سارا معًا حتّى باب الشّقة، ثمّ نزلا الدّرج المؤدّي إلى الأسفل وهبطا طابقا واحدًا. أشار عمر إلى باب الشّقة التي تقع تحت مقرّ الشّركة تماما:

- هنا!

وضع الصّندوق على الأرض، ثمّ فتح الباب ليدلفا معا، بينما هتف هيثم ضاحكا:

- أنت لا تُصدَّق! هل هذا أفضل ما لديك؟ حين تقول بأنّك لن تنام

في المختبر بعد الآن، تسكن في الطّابق أسفله!

هزّ عمر كتفيه في استهانة وقال:

- لا أحبّ ركوب وسائل النّقل كثيرًا!

تجوّلا في الشّقة المجهّزة بشكل كامل، ثمّ قال هيثم باسمًا:

- تبدو على أهبة الاستعداد لاستقبال العروس!

ابتسم عمر ثمّ قال في غموض:

- بعد خروج المنتج إلى النّور، سأفكّر في تلك الخطوة.

ثمّ أردف على الفور:

- حسنا أيّها المدير، هل فكّرت في اسم مناسب للشّركة؟

اتّسعت الابتسامة على شفتي هيثم وهو يقول ضاحكا:

- لقد فكّرت في هذا منذ حدّثتني بأمر الشّراكة! أصغ جيّدا إلى هذا.. «ياسمين الأندلس».. ها، ما رأيك؟

رفع عمر حاجبيه في دهشة، فأضاف هيثم بلهجة متردّدة:

- هل يبدو لك مفرطًا في الشاعريّة؟ لعلّه لا يناسب شركة نشاطها في مجال التّكنولوجيا؟

- بالعكس، إنّه.. اسم مدهش!

استرسل هيثم في حماس:

- حقّا؟ إنّه اسم ذو دلالتين.. الدّلالة الأولى وهي التي يُدركها الجمهور، فيها نوع من الحنين إلى ماضي الأندلس العامر، وزهر الياسمين الذي يميّز حدائقها.. والدّلالة الثّانية...

قاطعه عمر بابتسامة وهو يقول بهدوء:

- الدّلالة واضحة.. لا تحتاج إلى شرح!

دفعت رانيا باب الشّقة، ثمّ هرولت إلى الدّاخل في شوق وهي تصرخ:

- لقد جئت!

استقبلتها سكينة بالأحضان. عانقتها بحرارة مثل أمّ افتقدت طفلتها، وها أنّها قد رجعت من السّفر. بينما سحبت رنيم حقيبتها وهي تدلف على أثرها وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة. إنّها لا تقدر على الإحاطة بسرّ العلاقة التي تجمع شقيقتها بشريكة سكنها!

جلسن ثلاثتهنّ على الأريكة تفضفض كلّ منهما للأخريات عمّا جرى في غيابهنّ.

كانت زيارة رنيم الأولى للقاهرة بعد زواجها. الشّهر الماضي حلّ شهاب ضيفا على باريس. استأجرا غرفة فندقيّة، وتخلّصت رنيم من معظم أشغالها ليمضيا أكثر ما يمكن من الوقت معا. خرجا يتجوّلان في شوارع باريس.. بين الحيّ اللاّتينيّ ومتحف اللوفر وشارع الشانزيليزيه.. عاشا شهر عسل جديدًا.

- سيكون لنا في كلّ مرّة شهر عسل! لتكون حياتنا كلّها عسلا في عسل!

تقول رنيم وهي تتأبّط ذراعه ويخطوان بخفّة على رصيف نهر السّين. تلك هي النّسخة الممتعة والمسلّية من الزّواج. لا روتين يوميّا ولا شجار فيها. لكنّ رحلة القاهرة كانت مختلفة. لم يتمكّن شهاب من تأجيل مواعيد الجراحة المتراكمة بسبب إجازاته السّابقة، فكان يغيب عنها سحابة اليوم، ثمّ يمضيان السّهرات في ضيافات لا تنتهي ودعوات من قبل أفراد العائلة الموسّعة والأصدقاء. خاب ظنّها في شهر عسل آخر!

قالت بعد أن فرغت رانيا من إفراغ جرابها من الحكايات في أذني سكينة:

- اتّفقت مع جورج على تفويض المرافعات التي في عهدتي.. سأسافر

نهايـة الأسـبوع إلى نانـت، للقـاء ميـار.

تحـاول سـكينة أن تبـدو متماسـكة لذلـك الخاطـر.. أنّ شـخصًا قريبًـا منهـا سـيرى صغيرتهـا بعيـني رأسـه، ثـمّ يـأتي ليصفهـا لهـا. هكـذا هـي طريقتهـا المتاحـة لـ«رؤيـة» أبنـاء بطنهـا الغربـاء عنهـا منـذ عقـد مـن الزّمـن. رأت جاسر بعيـني رانيـا، والآن سـترى ميـار بعيـني رنيـم.

همست في رجاء منكسر:

- هل يمكنك أن تلتقطي لها صورة؟

***

عـبرت رنيـم مدخـل ديـر «القدّيسـة كلـير» وسـارت في صمـت عـلى أثـر الرّاهبـة الكهلـة في رواق طويـل يغمـره السّـكون. كانـت رانيـا قـد كتبـت لكزافـيي حـتّى يمدّهـا بعنـوان الدّيـر، ففعـل. والآن تحـاول رنيـم أن تُكمـل عنـه رحلـة اسـترجاع ميـار.

تمـشي مصغيـة إلى وقـع خطواتهـا عـلى البـلاط القديـم الـذي يتجـاوز عمـره القـرن مـن الزّمـن، وعيناهـا تلاحقـان اهـتزاز غطـاء رأس الرّاهبـة الـتي تهـرول أمامهـا، بردائهـا الرّمـاديّ الباهـت والسّـابغ عـلى كامـل بدنهـا. عـلى يمـين الـرّواق المسـقوف ذي الأقـواس العاليـة، تظهـر حديقـة معتـنى بهـا، شـجيراتها اليانعـة مقلّمـة بدقّـة، وممشـاها مرصـوف بحـصى ناعـم ونظيـف.

بعـد هنيهـة، أشرفـت رنيـم والرّاهبـة عـلى قاعـة فسـيحة تملؤهـا طـاولات ممتـدّة ومقاعـد متلاصقـة. كانـت الرّاهبـات منهمـكات في أعمالهـنّ، في صمـت شـبه جنائـزيّ، لا تشـوبه سـوى همهمـات خافتـة لا تـكاد تُسـمع. أشـارت الرّاهبـة المرافقـة إلى طاولـة منزويـة، جلسـت إليهـا سـيّدات في منتصـف العمـر، بينهـنّ فتـاة لـم تجـاوز العـاشرة إلّا منـذ وقـت قريـب، لا تخطـئ العـين غربتهـا عـن المـكان. ميـار!

ألقـت نظـرة عـلى عمـل الصّغـيرة. كانـت منشـغلة بتطريـز غطـاء سـفرة أبيـض، توشّـيه بزهـرات سوسـن ذات خيـوط أرجوانيّـة.

- سيلين.. لديك زائرة!

رفعت الطّفلة رأسها عن عملها، فالتقت نظرات رنيم بعينين سوداوين عميقتين، ذكّرتاها بعيني سكينة. لم يكن لديها شكّ في الشّبه بينهما. حدّقت فيها البنت لبرهة، مأخوذة بحُسنها، ثمّ ما لبثت أن عادت إلى خيوطها وإبرها. جلست رنيم إلى جوارها وقالت بلطف:

- كيف حالك يا سيلين؟ أنت لا تعرفينني.. لكنّني أعرفك، ويهمّني أمرك. هل تودّين مرافقتي إلى مكان جميل؟

رمقتها بنظرة مسحورة وهمست:

- الآن؟

- نعم.. الآن!

تبادلت رنيم نظرة مع الرّاهبة المسؤولة، فأومأت لها بالموافقة. كانت رنيم قد قدّمت نفسها على أنّها ممثّلة عائلة ترغب في حضانة سيلين، وتركت بحوزتها بطاقتها المهنيّة كضمان.

أمسكت رنيم بكفّها وعبرتا الطّريق حتّى ساحة الألعاب القريبة. جلستا على مقعد مزدوج في الحديقة ثمّ دار بينهما حديث أشبه بالاستجواب، وكانت ردود سيلين مختصرة وفاترة.

وقفت رنيم واشترت كوبي مثلّجات من شاحنة متجوّلة رابضة عند مدخل السّاحة، ثمّ راقبتها خلسة وهي تتذوّق الكرات الحلوة على طرف لسانها، برقّة وتروّ، مثل طفلة تعلّمت قبل أوانها أن تتمهّل في معانقة لحظات السّعادة، فهي ذاهبة إلى زوال.

أخرجت رنيم هاتفها، والتقطت لها صورة، كما وعدت سكينة.

قالت سيلين في تردّد:

- هل ستأخذينني للعيش معك؟

بوغتت رنيم، ثمّ قالت بابتسامة رقيقة:

- ليـس معـي أنـا.. هنـاك سـيّدة جميلـة تشـبهك تـودّ أن تكـوني جـزءًا مـن عائلتهـا.

بـدت الخيبـة عـلى ملامـح الفتـاة، كأنّهـا تـدرك بفطـرة مـن اعتـاد الخـذلان أنّ البالغـين يحترفـون الكـذب والخـداع، وهـذه السـيّدة لا تختلـف عنهـم. خطـر ببـال رنيـم خاطـر مفاجـئ، فتحـت اتّصـالا مرئيّـا مـع سـكينة وقالـت بهـدوء:

- سترين ميار الآن.. حافظي على اتّزانك!

عـبر الشّاشـة، حدّقـت كلّ واحـدة منهمـا في الأخـرى.. بعينـين فضوليّتـين متّسـعتين مـن جهـة الطّفلـة، وبمقلتـين باكيتـين متهيّجتـين مـن جهـة الأم. سـألت سيلين ببسـاطة:

- متى تأخذينني؟

- قريبا يا حبيبتي.. قريبا!

ثـمّ فقـدت سـكينة السّـيطرة عـلى عواطفهـا، فسـارعت رنيـم تنهـي الاتّصـال. قالـت مطمئنـة سـيلين:

- سـتمكثين بعـض الوقـت مـع الرّاهبـات، ثـمّ سـآتي لأخـذك مـرّة أخـرى. هـل يناسـبك هـذا؟

هـزّت رأسـها في استسـلام، ثـمّ عبرتـا الشّـارع مـرّة أخـرى في اتّجـاه الدّيـر. انتظـرت حـتّى تـوارت سـيلين بالدّاخـل، ثـمّ قصـدت مكتـب الرّاهبـة الرّئيسـة. قالـت بلهجـة جـادّة:

- سـيلين لـن تذهـب مـع أيّ عائلـة حاضنـة أخـرى. أمّهـا البيولوجيّـة تريـد اسـتعادتها.. لكـنّ الوضـع معقّـد وقـد يتطلّـب بعـض الوقـت. هـل تعدينـني بالاحتفـاظ بهـا حـتّى ذلـك الوقـت؟

***

سـار كلّ شيء كمـا خُطّـط لـه، بسلاسـة ويـسر. وصلـت المعـدّات في موعدهـا، بالإضافـة إلى كمّيـة أوليّـة مـن الألعـاب الصّينيّـة الـتي انـبرى الفريـق

في إجراء التّعديلات عليها. خلال ثلاثة أشهر، كان النّموذج الأوليّ قد غدا متماسكا وجاهزا للتّجربة. اجتمع فريق العمل في المختبر، بقلوب واجفة وعيون متعلّقة بنموذج الطّائرة بين يدي عمر. قال هيثم معطيا إشارة البدء:

- هل أنت جاهز؟

أومأ عمر وهو يضع الطّائرة على المنضدة. ثمّ ضغط على زرّ التّشغيل، فدار المحرّك محدثا طنينا خفيفا. من جهته، رقن هيثم تعليمات التّحكّم على لوحة مفاتيحه وقال:

- فلنجرّب هذا السيناريو.. طيران عموديّ، ثمّ أفقي.. دوران، شقلبة.. ثمّ هبوط.

كان قد تأكّد من ثبات الطّائرة في كلّ حركة على حدة، والآن جاء دور الخطوات المعقّدة. ضغط على زرّ الانطلاق، فتحرّكت الطائرة. تابعها الجميع بنظرات زائغة وتركيز عالٍ.

ارتفعت الطّائرة البلاستيك مترًا واحدًا في اتّجاه سقف الغرفة، ابتعدت نحو النّافذة حتّى كادت تبلغها، ثمّ انبرت تدور في دائرة قطرها متران بشكل أفقيّ. ما إن أنهت الدّورة الكاملة عند نقطة البداية، حتّى أحدثت شقلبة في الهواء قبل أن تنزل بهدوء لتستقرّ على الأرضيّة.

ارتفعت هتافات الفرح والتّصفيق الحماسيّ مع ملامستها للأرض برفق ووداعة. تصافح عمر وهيثم بحرارة.

- تهانينا! تجربة ناجحة!

أعلن عمر مخاطبا الجميع:

- يمكنكم المغادرة مبكّرين اليوم.. احتفالا بالإنجاز! سنبدأ في الغد في إعداد خطّة تجارب الجودة المكثّفة ومن ثمّ ننطلق في التّصنيع بكميّات تسويقيّة!

حين خلت الشّركة إلا منهما، التفت عمر إلى هيثم وقال بابتسامة

جذلـة:

- تعال.. عندي لك مفاجأة.

ركبـا السـيّارة معًـا وتـولّى عمـر القيـادة. سـارا في شـوارع المنطقـة الصّناعيّـة بالضّاحيـة الجنوبيّـة، حـتّى أشرفـا عـلى بنـاء قديـم، لا تشـفّ واجهتـه عمّـا يخفيـه. كانـت بوّابـة معدنيّـة ضخمـة صدئـة تسـدّ المدخـل. دفـع عمـر بـاب المسـتودع محدثـا ضجيجًـا صاخبًـا، ليظهـر الفضـاء القفـر داخلـه مغـبرًّا ومتّسـخًا. خطـا الرّجـلان إلى الدّاخـل، وامتـدّت كـفّ هيثـم إلى زرّ الإنـارة لتنبعـث إضـاءة ضئيلـة مـن مصبـاح قديـم أصفـر.

- ما رأيك في المكان؟

مطّ هيثم شفتيه متفكّرا ثمّ قال:

- أظنّه سيفي بالغرض.

كانـت شـحنة الألعـاب القادمـة مـن الصّـين قـد أوشـكت عـلى الوصـول.. كمّيّـة هائلـة منهـا للـشّروع في التّوزيـع عـلى نطـاق واسـع. حـين يفـرغ فريـق المهندسـين مـن اختبـارات الجـودة، سـيكون المنتـج جاهـزا ليُطـرح في السّـوق بشـكل رسـميّ. وعـلى خـطّ التّصنيـع أن يفـي بحاجـة الموزّعـين.

- عشرة عمّال.. هل سيكون ذلك كافيا؟

وقف عمر وسط المستودع وأشار بكفّيه إلى عمق المساحة:

- هنـا سـتخزّن الألعـاب في نسـختها الخـام، ثـمّ يـأتي مركـز التّجميـع.. وبعده مبـاشرة مركـز الجـودة.. وفي النّهايـة مركـز التّعليب.

أومأ هيثم وهو يقدّر في رأسه المساحات اللاّزمة لكلّ منها.

- يبدو هذا مناسبا.

وقفـا متأمّلـين لبرهـة، يرسـم كلّ منهمـا في رأسـه صـورة متكاملـة لوحـدات التّصنيـع المسـتقبليّة، قبـل أن يسـأل هيثـم بلهجـة محايـدة:

- كيف كانت رحلتك؟

- جيّدة.

انفرجت شفتا عمر بسرعة لتلفظا تلك الكلمة المقتضبة وانطبقتا من جديد. لم يدل بتفاصيل أكثر. منذ انطلاق المشروع، كان يسافر كثيرًا، مرّة كلّ شهرين تقريبًا. إلى الصّين، والهند وإندونيسيا، وتركيا.. يقابل زبائن محتملين أو مزوّدين أسعارهم زهيدة، أو يحضر مؤتمرًا علميًا ما. كان لديه الكثير ليفعله، وهيثم لم يكن يسائل تنقّلاته، طالما كانت على حسابه الشّخصيّ. لكنّه كان مختلفًا بعد عودته تلك المرّة. شيء ما في عينيه الغامضتين المعتمتين كان يثير قلق هيثم.

قاطعهما رنين هاتف هيثم. كانت ياسمين. لم يكن من عادتها أن تتّصل في أوقات العمل، لذلك قدّر أنّ الأمر جلل. أتاه صوتها هامسا ما إن فتح الخطّ:

- عندي لك مفاجأة!

استمع إلى كلماتها الغامضة في اهتمام ثمّ قال في شكّ:

- خيرًا إن شاء الله؟

لكنّها قالت في عناد:

- لن تكون مفاجأة إن أفصحت!

أضافت قبل أن تنهي المكالمة:

- هلّا أحضرت حلوى الفراولة في طريق عودتك؟

ودّع عمر وانطلق في سيّارته. شغله أمر المفاجأة طوال طريق العودة بين باريس وليل. ماذا يمكن أن تكون المفاجأة؟

هناك أنواع كثيرة من المفاجآت. مفاجأة «عاديّة» مثل قصّة شعر أو تغيير لونه، جهاز كهربائيّ جديد للبيت! ومفاجأة أعلى درجة، لكنّها ليست على قمّة سلّم الإدهاش.. مثل هاتف بتكنولوجيا حديثة - وهي تعلم كم يعشق الآلات المتطوّرة ويتابع آخر صيحاتها - أو إجازة خاصّة يقضيانها معا.

ثـمّ هنـاك المفاجـأة الأغـلى الـتي يتمنّاهـا قلبـه، ولا يجـرؤ عـلى التّفكـير فيهـا حـتّى لا تهـوي آمالـه مـن شـاهق!

دخـل المخـبز ليقتـني قطـع الحلـوى الـتي طلبتهـا. بينمـا يعـود إلى سـيّارته وبـين كفّيـه علبـة الحلـوى المفضّلـة لديهـا، فكّـر أنّ المفاجـأة قـد تكـون قـدوم ضيـف مـا! حـدّق في العلبـة بـين يديـه.. هـل تكـون الكمّيـة كافيـة للضيـوف، إن كان عددهـم أكـثر مـن اثنـين؟ لكنّهـا لـم تحـدّد!

عـاد إلى المحـلّ واشـترى قطعتـين إضافيّتـين، لعـلّ وعـسى! لـم يتوقّـف عقلـه عـن التّحليـق في ماهيّـة المفاجـأة.

***

وقفـت ياسـمين عنـد نافـذة المطبـخ، تطالـع الشّـارع في ترقّـب وشـوق. كاد صبرهـا ينفـد، وهـي تتقصّى وصـول هيثـم.

ذلـك الصّبـاح، دخلـت الصّيدليّـة الـتي تمـرّ أمامهـا كلّ يـوم وهـي تمـضي إلى مكتبهـا. وصفـت للصّيدلانيّـة أعراضهـا. رغبـة شـديدة في النّـوم تجعلهـا تسـتيقظ بصعوبـة صباحـا، كسـل وخمـول، وإحسـاس سريـع بالتّعـب. قالـت السّـيدة الأنيقـة ذات المـئزر الأبيـض:

- لعلّـه نقـص في الفيتامـين «د».. تحتاجـين التعـرّض إلى الشّـمس لوقـت كافٍ، وسـأكتب لـك مكمّـلات غذائيّـة.

لـم يبـد عـلى ياسـمين الاقتنـاع. إنّهـا تمـشي كلّ يـوم عشريـن دقيقـة ذهابًـا ومثلهـا إيابًـا، وتتعـرّض إلى شـمس «ليـل» المتواريـة غالبـا خلـف السّـحب، لكنّهـا شـمس عـلى كلّ حـال.

سألتها المرأة بشكل عابر وهي ترقن الفاتورة على جهازها:

- هل أنت حامل؟

- لا.

استلمت الـدّواء، وانصرفـت بخطـوات بطيئـة. لكـنّ السّـؤال ظـلّ يعتمـل في رأسـها. هـل أنـت حامـل؟ عـدّت الأيّـام منـذ دورتهـا السّـابقة، مـرارًا وتكـرارًا..

لـم تكـن واثقـة مـن التّواريـخ بشـكل دقيـق. قطعـت بضـع خطـوات عـلى الرّصيـف، ثـمّ عـادت أدراجهـا إلى الصّيدليّـة. قالـت في حـرج:

- ماذا لو كنت حاملا؟

اتّسعت ابتسامة الصّيدلانيّة وقالت:

- إذن تجرين هذا الاختبار أوّلا، قبل أن تستهلكي أيّ دواء.

الآن، تقـف عنـد النّافـذة وهـي تقبـض بكفهـا عـلى اختبـار الحمـل الـذي أجرتـه منـذ سـاعتين.

لمحـت السـيّارة أخـيرا. ركنهـا هيثـم أمـام المبـنى، ثـمّ اتّجـه نحـو المدخـل وبـين كفّيـه علبـة حلـوى الفراولـة الـتي طلبتهـا. هرعـت تسـتقبله عنـد البـاب وعيناهـا تتألّقـان بوميـض لا يخفـى. سـألها في شـكّ وعينـاه تتطلّعـان إلى الدّاخـل:

- هل عندنا ضيوف؟

حبست ابتسامتها وهي تقول في غموض:

- ربّما!

اسـتلمت علبـة الحلـوى وحفظتهـا في الثّلّاجـة، ثـمّ اسـتدارت لتلـوّح أمـام عينيـه باختبـار الحمـل. سـأل في حـيرة:

- ما هذا؟

- الضّيوف!

كان يقـرأ الإجابـة في عينيهـا، لكنّـه يـأبى أن يبالـغ في الوهـم.. وهـي تبالـغ في الغمـوض والتكتّـم. قالـت أخـيرا بصـوت ملـؤه البهجـة:

- اختبار حمل!

اتّسـعت عينـاه سرورا. سـارع يحيـط كتفيهـا بذراعـه اليسـرى، يدنيهـا منـه ويقبّـل قمّـة رأسـها في ابتهـاج، بينمـا احتفـظ بالاختبـار في يمنـاه. تحقّقـت الأمنيـة الـتي داعبـت خيالـه طيلـة طريـق العـودة!

تأمّل الشّريط الذي تظهر على وجهه علامتان حمراوان متوازيتان، وقال مداعبا:

- هل تمثّل العلامتان طفلين؟

ضحكت ياسمين حتّى دمعت عيناها وهمست:

- لن نعرف حتّى موعد صورة الموجات فوق الصّوتيّة!

جلسا إلى مائدة العشاء، وهما يتبادلان النّظرات الحالمة والأمنيات الهائمة. ثمّ تذكّر هيثم أمرا، فسألها:

- ماذا بشأن الحلوى؟

هزّت كتفيها وقالت ببساطة:

- لقد اشتهيتها!

-٢٥-

خلال الأسابيع المنصرمة، كان النّشاط على أشدّه بين المختبر والمستودع. خطّ الإنتاج كان يعمل بطاقته القصوى لتزويد السّوق بالكميّات المطلوبة في الآجال المحدّدة.

كان هيثم منشغلا بالتّسويق، يتجوّل طيلة النّهار بين محلّات الألعاب وفي صندوق سيّارته نماذج من منتجات الشّركة، يتلقّى الطلبيّات ويُبرم الصّفقات، ثمّ يهاتف مسؤول الإنتاج لتبليغه بالكميّات ومواعيدها. أمّا عمر، فيلازم المختبر، يستلم كلّ يوم عيّنة من الألعاب الجاهزة يجري عليها تجارب جودة مكثّفة إمعانا في الحرص، يردّد طول اليوم على مسمع من العمّال والمهندسين:

- سمعة الشّركة تُبنى في أيّامها الأولى.. فإمّا أن تشغل المكانة التي تستحقّها، أو تفنى في غضون أيّام وتختفي إلى الأبد!

كان أليكس متطوّعا ليكون واجهة الشّركة. في ساحة «الدّيفونس» التّجاريّة العامرة بالمارّة في كلّ ساعات اللّيل والنّهار، يمضي ساعات طويلة، على منصّة عرض مفتوح، يقدّم الألعاب ويسمح للأطفال بتجربتها.. يلمسونها، يحرّكونها، ثمّ يبرمجونها بواسطة شاشة التحكّم للقيام بحركات استعراضيّة مذهلة. وكان عرضه يلقى الإعجاب والإقبال. يوزّع في النّهار الواحد مئات البطاقات على زبائن محتملين. ثمّ يجتمع ثلاثتهم في نهاية النّهار في مكتب هيثم لتقديم تقرير مفصّل عن نشاط الشّركة.

ارتفع رنين جرس الباب فجأة، فتطوّع هيثم لفتحه. ألفى أمامه سيّدة شقراء في مقتبل العمر، تضع نظارات طبيّة وبيدها دفتر وجهاز تسجيل.

- السّيد هيثم الأندلسي؟

- نعم؟

- أنا إيزابيل دوماس.. الصحفيّة التي اتّصلت بك، من أجل اللّقاء!

- آه، نعم.. تفضّلي أرجوك.

سبقها هيثم إلى الصّالة المفتوحة حيث المكاتب. قدّمها للموظّفين، ثمّ تركها بين يدي أليكس:

- بوسعك التجوّل في المختبر وطرح الأسئلة على المهندسين.. سأكون في انتظارك في مكتبي...

أومأت بابتسامة ممتنة. عاد هيثم أدراجه إلى مكتبه، فلحقه عمر على الفور.

- من تكون هذه؟

- إنّها صحفيّة من جريدة «لوبوان» (Le Point)! تقوم بتحقيق عن الشركات الناشئة. اتّصلت بي.. فلم أر مانعًا من اغتنام الفرصة. إنّها دعاية مجانيّة. هل أخطأت؟

سكت عمر متفكّرًا، ثمّ قال محذّرًا:

- أنت تعلم ما ينبغي قوله وما لا يجوز كشفه!

حدجه هيثم بنظرة عتاب وقال:

- لست غرّا.

ثمّ جلس إلى مكتبه. بادر بإغلاق البرنامج الحصريّ الذي يعمل عليه وأخفى نموذج الطائرة المعدّل. مازال يعتقد أنّ عمر يبالغ في التكتّم بشأن الخطّة الجديدة، لكنّه يتفهّم قلقه. لقد عانى في السّابق من تبعات سرقة ملكيّته الفكريّة.

- سيسير كلّ شيء كما نريد.. لا تقلق!

تعالت طرقات على باب المكتب، ثمّ دلفت الصّحفيّة بابتسامة متملّقة.

- أستاذ هيثم.. هل يمكن أن تحدّثني عن بداية المشروع، كيف جاءت الفكرة؟

أشـار عمـر خفيـة إلى هيثـم بأنّـه سـيكون في مكتبـه، ثـمّ تسـلّل خارجـا في هـدوء.

استمرّت الصّحفيّـة تطـرح الأسـئلة وتسـجّل الإجابـات، ثـمّ توقّفـت فجـأة لتهتـف:

- ألم يكن ذلك الدّكتور عمر الرّشيدي؟

ابتسم هيثم وقال:

- نعم، هو نفسه!

- لقـد حسـبتني توهّمـت.. شـكله بـدا مألوفـا لوهلـة، لكنّني لم أتيقـن مـن هويّتـه إلّا الآن! هـل يمكـن أن أجـري معـه لقـاءً أيضـا؟

- بالتّأكيد.

سبقها إلى مكتب عمر وقال:

- دكتـور عمـر.. الآنسـة تريـد أن تطـرح عليـك بعـض الأسـئلة، إن كنـت لا تمانـع.

حدجه عمر بنظرة متذمّرة، ثمّ قال في فتور:

- طبعا.. لا بأس بذلك.

جلست الصّحفيّة قبالته وقالت بحرارة:

- دكتور عمر، أنا من متابعيك الأوفياء والمتحمّسين لقضيّتك جدّا.

تمتم في ضيق:

- شكرا لاهتمامك.

- هـل تتابـع الصّفحـة الـتي تحمـل اسـمك عـلى موقـع التّواصـل الاجتماعيّ؟ هنـاك آلاف المعجبـين الذيـن يهتمّـون لأمـرك.. وسـيكون رائعـا لـو تـردّ عـلى رسـائلهم.

زوى مـا بـين حاجبيـه في اسـتغراب. أيّ صفحـة هـذه؟ هـل ينتحـل أحدهـم شخصيّته ؟

- لا علم لي بشأن الحساب.. إنّه مزيّف بالتّأكيد.

فغرت فاها في دهشة، ثمّ تمتمت:

- يا للعجب!

همس هيثم في رفق:

- هلّا ركّزت في أسئلتك على المشروع؟

- نعم، بالتأكيد.. أعتذر على التشتّت.

ثمّ استغرقت عشرين دقيقة أخرى في «استجواب» عمر.

***

تسارعت وتيرة العمل في الأيّام الماضية حتى وصلت أوجها. توزيع الطّلبات يمضي بالشّكل المطلوب، والضّغط مستمرّ على خطّ الإنتاج المزدحم به مستودع الألعاب. كان عمر وهيثم يمضيان النّهار في التردّد بين المختبر والمستودع، ويراقبان عن كثب نشاط فريق العمل الذي سرت إليه حماسة الرّجلين.

استقرّ عمر على المقعد المجاور لهيثم بعد نهار مضنٍ، وسأله:

- هل نُشر التّحقيق؟

كان هيثم يجلس أمام عجلة القيادة ويقلّب صفحات عدد الأسبوع من مجلّة «لوبوان».

- لا أجد له أثرًا.. متى قالت الصّحفيّة بأنّه سينشر؟

- لم تقل شيئا!

- لعلّه العدد القادم.

غمغم عمر في شكّ:

- لقد مضى شهران!

- لا نعرف شيئا عن خطّة النشر الخاصّة بالمجلّة.

عاد عمر ليهمس في ضيق:

- لم تعجبني أسئلتها.. لقد بالغت في التّدقيق.

- هذا ما يفعله المحقّقون!

- والجواسيس!

التفت إليه هيثم في دهشة.

- لماذا تقول هذا؟ لماذا قد تكون جاسوسة؟

تريّث عمر قبل أن يقول بصوت خفيض:

- أشعر بأنّني مراقب!

- ولماذا قد تكون مراقبًا؟ من الذي سيراقبك؟

تجاهل عمر سؤاله، وهو يشير من النّافذة:

- انظر.. تلك الشّاحنة السّوداء ذات النّوافذ المعتمة.. إنّها متوقّفة في رأس الشّارع منذ أسبوع على الأقلّ!

ألقى هيثم نظرة إلى حيث أشار عمر، ثمّ فتح بوّابة السيّارة مغادرًا. هتف عمر يستوقفه:

- إلى أين؟

- انتظرني لحظة!

سار بخطى واسعة حتّى السيّارة السّوداء. دار حولها متفحّصا، لكنّها كانت معتمة تمامًا. دخل دكّان البقالة المواجه وسأل البائع عنها.

- إنّها لمستأجر جديد.. في البناية الثانية!

خرج هيثم مجدّدا، ثمّ توقّف في مستوى نافذة السّائق وطرق على زجاجها. مرّت ثوانٍ دون أن يحصل على ردّ، فكرّر الطّرقات.. عندئذ نزل الزّجاج ببطء ليظهر رجل وامرأة يجلسان في المقاعد الأماميّة.

- آسف على الإزعاج.. سيّارتك تسدّ مدخل البقالة، هل يمكنك ركنها في الشّارع المتعامد؟

حدجه الرّجل بنظرة متضايقة ولم يبد عليه الاكتراث. قال بصفاقة:

- أتوقّف حيث أشاء.. هذا ليس من شأنك!

- لا نريـد إثـارة المشـاكل. هـل أنـت مـن سـكّان الشـارع؟ الوقـوف هنـا ممنوع لغير المتسـاكنين.

- نعم.. أنا أقيم في هذا المبنى!

- أعتذر إذن على سوء الفهم.

أشار هيثم بكفّه متأسّفا، ثمّ عاد إلى السيّارة. قال مطمئنًا عمر:

- إنّها لأحد الجيران.. لا داعي للهلوسة!

تنهّـد عمـر، بينمـا تنطلـق بهمـا السـيّارة إلى المسـتودع. كان يـودّه لـو يصدّقـه ويبعـد عنـه الهواجـس. لكـنّ إحساسًـا غريبـا بالرّيبـة ظـلّ يلازمـه.

***

جنون الارتياب.. هل هذا ما أصابه في الآونة الأخيرة؟

إحساسـه الغريـب بأنّـه مراقـب لـم يـأت مـن فـراغ. لعـلّ عيـون العـدوّ قـد باتـت تتبّـع حركاتـه، منـذ رحلتـه الأولى إلى غـزّة. هـل يدركـون مـن يقابـل في رحلاتـه الدّوريّـة، ومـا الـذي ينطـوي عليـه نشـاطه؟ لقـد تكتّـم مـا أمكنـه، وبالـغ في السّرّيّـة. لـم يكـن يصـل إلى وجهتـه النّهائيـة مبـاشرة، بـل يتنقّـل عـبر حـدود جويّـة وبريّـة مختلفـة. لكنّـه يستشـعر الخطـر أكـثر مـن أيّ وقـت مـضى.

كان قـد عكـف وهيثـم عـلى البطّاريّـة المعـزّزة، بعـد أن لاقـت الألعـاب الـتي طرحـت حديثـا في الأسـواق نجاحًـا منقطـع النّظـير. بعـد الاطمئنـان إلى حسـن سـير الإنتـاج، وردود الفعـل المبهجـة للحرفـاء، صـار بإمكانهمـا تفويـض النّشـاط الأسـاسيّ للشّركـة إلى بـاقي الفريـق، والاهتمـام بالخطّـة المتّفـق عليهـا آنفًـا.

بادره هيثم وهما ينهيان تثبيت البطّاريّة في هيكل الطّائرة:

- ألا تفكّر في حمايتها بتسجيل براءة اختراع؟

- سنفعل.. لكن ليس الآن!

- مـاذا لـو سـبقنا شـخص آخـر إلى ذلـك، وضاعـت الفرصـة؟ لا شـكّ أنّ طـرح المنتـوج في السّـوق سـيؤدّي إلى الاهتمـام بالبطّاريّـة الجديـدة، وقـد تسـعى شركات كـبرى إلى محاكاتهـا.. لا تـدع المأسـاة ذاتهـا تتكـرّر، إذا مـا سُرق النّمـوذج وتـمّ اسـتغلاله بطـرق قـذرة!

بدا على عمر التّفكير، ثمّ قال:

- دعني أفكّر بالأمر.

كان هيثـم قـد وافـق عـلى الشّراكـة بعـد أن قلّـب الفكـرة على كلّ وجوههـا. لـم يكـن هنـاك مـا يدعـوه إلى الرّفـض. لـم يطلـب منـه عمـر مشـاركة ماديّـة، مـا عليـه إلّا اسـتثمار مهارتـه في البرمجـة لإنتـاج بطاريـة معـزّزة تُطـرح في الأسـواق في مرحلـة متقدّمـة مـن المـشروع. لكـنّ عـزوف عمـر عـن حمايـة المنتـج بـبراءة اخـتراع كان يدهشـه. لا يلـدغ مؤمـن مـن جحـر مرّتـين!

كان يشـعر بالنّشـوة، منـذ أخـذ يسـتثمر مهارتـه في البرمجـة للتّحكّـم بالطّائـرة. في بدايـة المـشروع، اقتـصر نشـاطه عـلى الإشراف والتّسـيير الإداريّ. وهـا هـو أخـيرًا يعـود إلى مجـال اختصاصـه. كانـت تلـك الأيّـام متعـة صافيـة، رغـم مـا رافقهـا مـن إرهـاق وإنهـاك. لكـنّ قلقـه بشـأن عمـر لـم يهـدأ. كلّمـا دخـل عليـه المختـبر، فوجـئ في عينيـه بتلـك النّظـرة الغريبـة. يقـرأ فيهمـا ذعـرًا غـير مفهـوم. يقـول متضاحـكًا:

- هل رأيت شبحًا؟

فلا يردّ صاحبه.

كانـت السّـاعة قـد شـارفت عـلى الخامسـة مسـاءً، حـين تـرك عمـر المختـبر. طـرق بـاب مكتـب هيثـم ثـمّ جلـس قبالتـه في صمـت. لقـد لبـث يفكّـر طويلا ذلـك اليـوم. لـم يسـتطع العمـل. تـرك البطّاريّـة جانبًـا وغـرق في هواجسـه. إن كان الخطـر حقيقيّـا، فعليـه أن يتـصرّف. لـن يتسـبّب بـالأذى لمـن حولـه. لـم يكـن اتّخـاذ ذلـك القـرار سـهلا، بعـد كلّ العنـاء الـذي تكبّـده. لكنّـه كان مسـتعدّا للتّضحيـة بالمـشروع برمّتـه، والبـدء مـن جديـد إذا مـا اسـتدعى الأمـر.

لـم يفـت هيثـم شـحوب سـحنته وصرامـة ملامحـه. ولقـد اعتـاد عمـر منـه تلـك النّظـرة المتسـائلة والمعاتبـة في آن. بفطرتـه، يـدرك هيثـم أنّ صاحبـه يخفـي عنـه الكثـير. وعمـر لا يكلّـف نفسـه التّوضيـح أو الطمأنـة. فـات أوان المهادنة. ألقى عمـر القنبلـة دفعـة واحـدة:

- سأنسحب من المشروع. سامحني!

حدّق فيه هيثم غير مستوعب.

- تنسحب؟ من مشروعك؟ وهل للشركة والمشروع وجود بدونك؟

تنهّد عمر بعمق ثمّ قال:

- لقد جدّت ظروف. لم يعد بإمكاني المواصلة. سوف أرحل.

- إلى أين؟

هزّ عمر كتفيه ثمّ قال في غموض:

- أرض الله واسعة...

لم يكن هيثم يصدّق أذنيه. لكنّ عمر واصل في إصرار:

- سوف أتنـازل عـن حصّـتي لـك. لسـت مضطـرًا إلى دفـع قيمتهـا الآن.. حـين ترتفـع المبيعـات وتسـدّد المصاريف...

قاطعه هيثم بحدّة:

- عمـر، اصدقـني القـول! مـا الـذي تخفيـه؟ أنـت لا تقـول كلّ شيء! لـم تكـن عـلى طبيعتـك في الأيّـام الماضيـة.. بعـد رجوعـك مـن رحلتـك الأخيرة. أظـنّ أنّ مـن حقّـي عليـك أن تخبرني بمـا يحصـل معـك.. بحـقّ شراكتنـا وأخوّتنا!

توقّـف عمـر في تـردّد. لقـد كان عـلى حـقّ. كان يشـعر بالذّنـب، والوحـدة، والخـوف كلّ يـوم، منـذ عودتـه مـن المخيّـم. يرغـب مـلء فـؤاده أن يشـارك أحـدًا مـا يثقلـه مـن همـوم. ولـم يكـن هنـاك مـن شـخص مؤهّـل للاسـتماع أكـثر مـن الرّجـل الماثـل قبالتـه. يعلـم أنّ بوسـعه الثّقـة في هيثـم، حـتّى إن شـكّ في الجميـع. لكنّـه لا يسـتطيع.

- اسـمع، خـذ إجـازة. سـافر. زر أهلـك في المغـرب. أنـت في حاجـة إلى

استراحة بعد ضغط الفترة الأخيرة. هذا مفهوم ومتوقّع.. لكن لا تتسرّع في الانسحاب!

هزّ عمر رأسه في صمت، ثمّ استدار على عقبيه مغادرًا.

لعلّه يبالغ. لعلّه في حاجة إلى تلك الرّاحة حقّا.

لكنّ القلق في داخله يجتاحه ويسيطر عليه.

***

حين رجع هيثم إلى الشّقة ذلك المساء، بدا ساهمًا ومشغول اللّب. بادرته ياسمين في اهتمام على مائدة العشاء:

- هل من متاعب في العمل؟

رسم على شفتيه ابتسامة واهنة وقال مطمئنا:

- بل كلّ خير.. لا تشغلي بالك!

هزّت رأسها دون كثير اقتناع، بينما غرق هيثم مجدّدا في تأمّلاته. كان حديث عمر يتردّد في رأسه دون توقّف طيلة رحلته من باريس إلى ليل، ومازال تحت تأثير الصّدمة. كان يدرك أنّ صاحبه يخفي أمرًا عظيمًا. إنّه لا يفهم عمر.. ينشئ شركة ثمّ يتركها فجأة وبلا مبرّر!

انتبه حين وضعت ياسمين أمامه طبق الفاكهة، ثمّ قالت في حنو:

- هل تودّ أن تفضفض؟ ربّما أمكنني المساعدة...

تنهّد بقوّة، ثمّ قال في استسلام:

- إنّه عمر!

- ما شأنه؟

- لا أدري! تصرّفاته غريبة.. كتوم وغامض، أشعر أنّه يخفي أمرًا ما.

شردت نظراتها قليلا، ثمّ قالت بجديّة:

- امنحه دعمك كاملًا، ولا تضغط عليه.. لا شكّ أنّ من مرّ بتجربته لن يستطيع الثقة في الآخرين بسهولة. لكنّه يثق بك.. عاجلا أم آجلا

سيفضي لك بما يشغله.

نظر إليها في توجّس. لم يفكّر منذ زواجهما بالتّاريخ القديم الذي يربطها بعمر، حتّى أنّ فضاءً واحدًا لم يجمعهما أبدًا منذ حفل الزّفاف. يأمل بداخله أن تكون الباحثة الاجتماعيّة هي من نطق بتلك الكلمات، وليست «فتاة المترو». تنهّد بقوّة ثمّ قال طاردًا عنه رداء الغيرة:

- سأفعل. آمل أن تكوني محقّة!

***

كانت كلمات ياسمين تتردّد في ذهنه وهو يدخل المكتب في الصّباح التّالي. سيقدّم دعمه الكامل واللّامشروط لعمر. سيفعل أيّ شيء ليجعله يتراجع عن قرار الانسحاب الغريب والمفاجئ.

حين دلف إلى مكتبه، فوجئ بعمر جالسًا على مقعده، وأمامه أوراق كثيرة. حدّق هيثم في التّصاميم الشّائكة التي خطّت على الورق الأصفر في انتباه ثمّ سأل:

- هل هذا تصميم الطّائرة؟

أومأ عمر برأسه موافقا، وقد التمعت في عينيه نظرة متوثّبة. لقد فكّر طوال اللّيل منذ حديثهما ظهر الأمس، وقد استقرّ على إعطاء المشروع فرصة بعد. لعلّه يبالغ في ارتيابه. لعلّ مخاوفه بلا أساس. ولعلّه يجد في هيثم عونًا لبلوغ مراده.

- هذه تصاميم سابقة، أنجزها المهندس «نضال فرحات» في ٢٠٠٣، لكنّ مشروعه لم ير النّور.

توقّف هيثم عند الاسم في شكّ. «نضال فرحات»؟

- ما الذي حصل؟

همس عمر في مرارة:

- اغتاله جيش الاحتلال الإسرائيلي.. زرعوا عبوة ناسفة في وحدة التّطوير والتّصنيع في غزّة، أودت بحياته مع خمسة من رفاقه، بينما كانوا يحاولون

تجهيز الطّائرة.

- يا للهول!

توقّف الزّمن، وهما يتبادلان تلك النّظرة الطويلة السّابرة. يحاول عمر أن يستشفّ من ردّة فعل صاحبه موقفًا ما، بينما يتمالك هيثم نفسه، حتّى لا تغلبه الصّدمة، بينما يرتجف قلبه في صدره، وهو يحاول منع نفسه عن الاستنتاجات المتسرّعة. لعلّ شكوكه لم تكن من فراغ في نهاية الأمر.

قال عمر فجأة:

- هل تعرف ما معنى «الرّباط»؟

- هل تقصد عاصمة المغرب؟

ضحك عمر واستطرد قائلًا:

- ليس ذاك.. بل الآخر. اكتشفت خلال الرّحلة إلى مخيّم اليرموك، أنّ هناك من يعيش حياته مرابطا في سبيل الله، محتسبًا كلّ نفس وكلّ حركة! هل تعرف كيف يكون ذلك؟

هزّ هيثم كتفيه في حيرة.

- أن يكون كلّ عمل تُقدم عليه في سبيل الغاية الكبرى!

- الغاية الكبرى؟

- هات قل.. ما هي غايتك الكبرى من الحياة؟

- أن يدخلني ربّي الجنّة!

- جميل.. وكيف يتجسّد ذلك؟

- العبادات، الصّدقات، الأخلاق...

- كلّ هذا رائع.. لكنّه ذاتيّ ومحدود.

- ماذا تعني؟

- الله استخلفنا في الأرض، ووهبنا العقل والإرادة الحرّة.. لو اكتفينا بحياتنا

الخاصّة ونجاحاتنا الصّغيرة الذّاتيّة، فهل نكون قد حقّقنا معنى الخلافة كما ينبغي؟ هناك مظالم ينبغي رفعها عن المستضعفين وقضايا عادلة تحتاج مساندة، ومقدّسات تدنّس ولا مدافع عنها...

أصغى هيثم في اهتمام دون أن يقاطعه، فأردف عمر:

- نحن نتغنّى منذ صغرنا بالقدس وبتحرير الأقصى.. فما رأيك بمن يعيش قولا وفعلا من أجل تلك الغاية الكبرى؟

- كيف؟

- أنت تعلم أنّنا نعمل على نوعين من الألعاب.. ألعاب ذات كفاءة محدودة، هي التي سنطرحها في السّوق.. وألعاب ذات كفاءة عالية، لكنّها ليست للتّسويق.

- ماذا تعني؟

- لم أنوِ قطّ ترويجها.. إنّما سنرسلها إلى أصدقائنا في غزّة!

بشكل ما، كان يتوقّع ذلك في داخله. تصرّفات عمر غير المتّسقة، وريبته اللامفهومة كانت تقوده إلى ذلك الاستنتاج الرّهيب. صاحبه يخفي نشاطاً سريّا. قال في هدوء وقد أدرك أخيرًا أنّ شكوكه كانت في محلّها:

- إذن هي ليست مجرّد ألعاب!

تألّقت نظرات عمر وهو يردف:

- بالتّأكيد ليست كذلك.. الألعاب الحصريّة التي نصنعها تمثّل وسائل تواصل وتجسّس متطوّرة، وعسيرة الاكتشاف.

تنهّد هيثم، ثمّ سأل باتّزان عجيب:

- لماذا أخفيت عنّي الأمر.. وما الذي جعلك تفصح الآن؟

- أخفيت، لأنّ الحرص واجب. لم أكن أريد توريط أحد. وأفصحت لأنّني على مشارف الجنون. أن تكون وحيدًا، تفكّر وتخطّط وتعمل بمفردك، ترهب العيون المتطفّلة وتغلق أبواب صدرك على سرّك، وترقب الآخرين بعين الشكّ.. فإنّك تنتهي إلى الهلاوس وجنون الارتياب! لذلك

قال نبيّ الله موسى: (وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي).. فهل تكون لي وزيرًا، كما كان هارون لموسى عليه السّلام؟

استمرّ هيثم يحدّق في التّصميم بينما تضرب طبول صاخبة في صدره. كان يعلم أنّ ما ينوي عمر القيام به يتحدّى إرادة قوّة عسكريّة متنفّذة لا تتردّد في القضاء على كلّ من يقف في سبيل تحقيق أهدافها. لكنّ الاقتراب من عشّ الدّبابير يزيد من إثارته ومن آلام المغص في بطنه. قال مداريا العاصفة التي تمور داخله:

- كيف حصلت على التّصاميم؟

- من أصدقائنا في غزّة.. بالإضافة إلى هذا...

لوّح عمر في فخر بقرص تخزين بحجم عقلة الإصبع، ثمّ أضاف:

- ملفّ «الطّائرة العراقيّة».. رسالة الدّكتوراه الخاصّة بضابط عراقيّ متخرّج في جامعة بغداد.. وهبها لأصدقائنا في المقاومة، خدمة منه للقضيّة الفلسطينيّة.

همس هيثم بخفوت:

- هل وقع اغتياله هو الآخر؟

حدجه عمر بنظرة سابرة، وقال بهدوء:

- أعلم أنّني أطلب منك الكثير.. وبشكل مفاجئ...

قاطعه هيثم على الفور:

- الجوّ خانق بعض الشيء.. هل نتمشّى قليلا؟

سارا جنبًا إلى جنب على امتداد الشّارع الذي يصل المسجد بمنتزه عامّ. أخذ هيثم نفسا عميقا، وزفر بقوّة. كرّر ذلك مرّات، قبل أن يقول باضطراب:

- أعلم أنّك أمضيت تسعة أشهر تخطّط وتدرس المشروع.. والمخيم كان الفضاء المناسب للتهيئة النّفسيّة.. لكنّني حديث عهد بكلّ هذا..

أحتـاج بعـض الوقـت لاسـتيعاب الأمـر. هـل تفهمـني؟

هزّ عمر رأسه بابتسامة متعاطفة:

- أنت محقّ. لن أستعجلك. خذ الوقت الكافي لاتّخاذ قرارك!

***

- هل تحدّثت وعمر؟

هـزّ هيثـم رأسـه في صمـت وهـو يحـرّك ملعقـة الحسـاء دون أن يتنـاول منـه شيئا. لـم يكن مزاجـه أفضـل ممّـا كان عليـه في الأمـس. ليـس يـدري مـا الأشـدّ إربـاكًا، أن يجهـل مـا يخفيـه عمـر أم أن يكـون جـزءًا منـه!

- ماذا قال؟

التفـت إليهـا في إشـفاق. لـم يكـن بوسـعه أن يشـاركها ذلـك الحديـث بالـذّات. لقـد صـار الآن جـزءًا مـن الـسّرّ ومسـؤولا عـن حفظـه. مهمـا كان قـراره، فهـو لـن يخـون الأمانـة. ياسـمين زوجتـه وأقـرب النّـاس إليـه، لكنّـه لا يقـدر أن يشـاركها هـذا. لقـد وعـد عمـر بالكتمـان، وسـيفعل. كمـا أنّـه يـرأف بهـا مـن ثقـل المهمّـة عـلى كاهلهـا، يخـشى أن تعـرف تلـك الحـيرة والخـوف والتقلّـب عـلى جمـر القلـق. قـال مغـيّرا الموضـوع:

- سيأخذ إجازة ويسافر لتغيير الجوّ.. ماذا عن زيارتك إلى الطّبيبة؟

كان ذلـك عامـل الإلهـاء المناسـب ليـصرف اهتمامهـا عـن عمـر وقصّتـه. اسـتمع إليهـا دون تركـيز وهـي تـسرد في إسـهاب كلمـات الطّبيبـة وتفاصيـل حصّـة التّصويـر بالموجـات فـوق الصّوتيـة الـتي خضعـت لهـا ذلـك الصّبـاح.

بينما ترد كلماتها إلى ذهنه بشكل متقطّع، غرق من جديد في أفكاره.

ما سبب تردّده؟ هل يكون عمر أشجع منه وأقدر على نصرة الحقّ؟

إنّـه يؤمـن بالقضيّـة ولا يشـكّك في الهـدف. هـذا مـا تبـذل فيـه النّفـوس والأمـوال، ومـا ترجـح بـه كفّـة المؤمـن يـوم يقـف بـين يـدي ربّـه! لقـد سـيقت إليـه فرصـة لا تقـدّر بثمـن. إنّـه يدعـى إلى نـداء ربّـه، أفـلا يجيـب؟

لقـد اعتـاد أن ينـصر الحـقّ بقلبـه في صمـت، فـإذا تجـاسر فبلسـانه.. في

المظاهـرات والملتقيـات الثّقافيّـة، يتماهـى مـع الحشـود ويـذوب فيهـا. لكنّـه نـادرًا مـا يفعـل بيديـه. وأن يجـد الفرصـة والفكـرة ليفعـل فإنّـه أمـر مدهـش!

انشرحـت أسـاريره تدريجيّـا، وتألّقـت في عينيـه نظـرة بـشر. حدّقـت ياسـمين في ملامحـه وقـد سرت إليهـا عـدوى الـسّرور:

- أدام الله هذه البسمة!

***

ما الذي تغيّر منذ إعلان هيثم موافقته؟

لقد اختلف كلّ شيء.. كلّ شيء!

كان هنـاك نـوع مـن الاطمئنـان في النّظـرات المتواطئـة الـتي يتبادلانهـا خفيـة مـن زمـلاء العمـل، وكثـير مـن التّناسـق والحمـاس في السّـويعات الـتي يمضيانهـا في الشّركـة بعـد هبـوط الظّـلام، وخلـوّ المبـنى إلّا منهمـا. تلـك الرّيبـة الـتي سكنت فـؤاده طويـلًا، حلّـت محلّهـا سـكينة عجيبـة، أنسًـا بصاحبـه وبهجـة برفقتـه.

لقـد كان رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلّم «ثـاني اثنـين» في الغـار (إِذْ يَقُـولُ لِصَاحِبِـهِ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّـهَ مَعَنَـا فَأَنـزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْـهِ). يتـذوّق حـلاوة الآيـة عـلى طـرف لسـانه، وهمـا يمضيـان مسـاءاتهما في نقـاش أو انهمـاك، ويستشـعر وقعهـا سـكينة صافيـة في قـرار فـؤاده حـين يرفـع أحدهمـا رأسـه ليسـتزيد عزيمـة مـن نظـرة صاحبـه.

بعـد شـهرين، دنـا قطـف الثّمـرة الـتي تعهّداهـا بالرّعايـة. في المختـبر، طفـق عمـر يثبّـت وحـدة الطّاقـة المعـزّزة، عـلى نمـوذج الطّائـرة. حـين فـرغ مـن ذلـك، انضـمّ إلى هيثـم في المكتـب. راقبـه وهـو يتابـع البرمجـة عـلى جهـازه في تركـيز، فهمـس هيثـم:

- أكاد أنتهي.

بعـد دقائـق قليلـة، كان هيثـم يحمّـل البرنامـج إلى قـرص الطّائـرة، ثـمّ ارتقـى الاثنـان الـدّرج بخطـوات واسـعة حـتّى سـطح المبـنى. وقفـا عنـد الحاجـز الحجـريّ. وضـع عمـر الطّائـرة عـلى حافّتـه، في حـين فتـح هيثـم

جهــازه المحمــول.

- سأشغّلها الآن.

أشـار إليـه هيثـم بالتريّـث، ثـمّ أخـذ يثبّـت علبـة ورقيّـة بـين عجـلات الطائـرة وعـلى شـفتيه ابتسـامة ماكـرة. حـال فراغـه هتـف بـه:

- الآن، انطلقي!

أدار عمـر المحـرّك، ثـمّ شـغّل هيثـم برنامـج المتابعـة عـلى شاشـته، فارتفعـت الطّائـرة في الهـواء فـوق رأسـيهما، ثـمّ انطلقـت في الجـوّ لتبتعـد نحـو الغابـة القريبـة.

عـلى الشّاشـة، ظهـرت نقطـة حمـراء تتحـرّك بسرعـة فـوق خريطـة باريـس. قـال هيثـم:

- خـطّ السّـير يطابـق خـطّ السّـكة الحديديّـة. ستحلّق الطّائـرة في ارتفـاع منخفـض فـوق القطـارات.. حتى لا تجـذب الانتبـاه، بسرعـة ثابتـة تقـدّر بمائة كيلومـتر في السّـاعة.. ثـمّ تنفصـل عنهـا داخـل المـدن، فتـلازم الحدائـق والمناطـق الخـضراء، وتنخفـض السّرعـة إلى النّصـف.

- كم يلزمها من الوقت حتّى تصل إلى الوجهة؟

نظر هيثم إلى ساعته. كانت تشير إلى الثّالثة ظهرًا.

- ساعة ونصف تقريبا.. تعال، فلنطلب الغداء وننتظر!

حـين أنهـى عمـر اتّصالـه بالمطعـم القريـب، بادلـه هيثـم ابتسـامة ذات مغـزى، ثـمّ سـأل:

- هل تشعر بالإثارة؟

- بل أشعر بالرّضا.

- أنت ترضى بسهولة! مازالت الطلبيّة لم تُشحن بعد!

هزّ عمر كتفيه وهو يقول:

- الرّضـا لا يرتبـط بتحقيـق الغايـة.. إنّمـا يلازمـني مـا دمـت كنـت أمـضي بخطـى جـادّة في سـبيلها!

كان يسترجع باستمرار قول سميّه، عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: (فإنّ الخير كلّه في الرّضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر). لقد صبر طويلا، حتّى عرف الرّضا حقّ المعرفة. أردف بنظرات سارحة:

- لقد تعلّمت كيف أكون راضيا في كلّ لحظة.. لقد كان ذلك عسيرا في البداية، أشهد بذلك. لكن كلّما توغّلت في مجال الطمأنينة، استشعرت نفحات الارتياح تهبّ على فؤادي!

أصغى هيثم في تأثّر، ثمّ قال:

- أنا مدين لك.. لأنّك جررتني لأشاركك هذه التّجربة. لعلّي لست راضيًا بعد، لكنّني منفعل وداخلي يغلي حماسًا.. هل يُحسب هذا لي؟

تشاركا ضحكة رائقة، ثمّ استطرد هيثم بلهجة جادّة:

- أشعر أن حياتي بعد هذا المشروع لن تكون قطّ على نفس الشاكلة. شيء في داخلي تحرّك عن موضعه، ثار وأحدث انقلابا. ولا أحسبه يعود إلى الرّكون مجددا.. إنه الوعي بقيمة ما بأيدينا من علم، ومسارات استغلاله المدهشة. هل كنت لأتخيل يوما أنني قد أكتب برنامجا لتسيير طائرة تجسّس، يستعملها المقاومون في غزة.. فتحلق فوق ثكنات جنود الاحتلال، تجتاز حواجزهم وتتقصّى أسرارهم العسكرية! أو تنقل طرودا إلى المخيمات المعزولة وتجتاز المساحة المشغولة بالمستوطنات بين غزة والضفة؟ هل يمكن لحياتي أن ترجع سخيفة تافهة كما كانت بعد هذا؟ لا أستطيع أن أفعل.. هذا طريق سالكه لا يبغي عنه رجوعا. من هنا بدأنا.. لكنّنا لا ندري إلى أي مدى قد نصل.

بادله عمر نظرة باسمة. لم يكن بوسعه أن يضيف شيئا على قوله. لقد نطق بما يعتمل في وجدانه وشرح إحساسه بدقّة.

- والآن ما هي الخطوة التّالية؟

سأل هيثم وهما يتناولان شرائح البيتزا.

- ستظلّ الألعاب عندي في الشّقة حتّى موعد الشّحن.

- ألا يساورك القلق؟

كلّما مضى قدمًا في اتّجاه الهدف، نمت شجرة القلق في داخله. الدّخول إلى غزّة لم يكن يومًا يسيرًا، وإدخال الشّحنة الخاصّة يبقى محفوفًا بالمخاطر.

- ما هو أسوأ شيء قد يحصل؟

قال عمر على الفور:

- أن تصادر حكومة الاحتلال شحنات الألعاب! في جميع الأحوال، الألعاب تُرسل على حدة في صيغتها الأساسيّة، ووحدات رفع الكفاءة تشحن بشكل منفصل. إذا صودر أحدها أو كلّها، تبقى خسارة محدودة ومقبولة.

- نكون قد حاولنا على الأقل.. ماذا أيضا؟

- أن تقع الآلات بعد تركيبها في يد جيش الاحتلال. طبعا، يمكنهم الوصول إلى شركتنا بطريقة أو بأخرى.. أو إلى الموزّع الصّيني. لكنّنا حتما سننكر علاقتنا بالأمر. نحن نصنّع الألعاب المتطوّرة ولسنا مسؤولين عن استخداماتها من قبل العملاء!

أومأ هيثم ببطء، ثم قال:

- المسافة بعيدة بين غزّة وفرنسا.. هل يقع الرّبط بهذه البساطة بين كلّ الأجهزة المصنّعة في أرجاء العالم وكيفيّة استغلالها من قبل المقاومة الفلسطينيّة؟ هذا لا يبدو منطقيّا.

تبادلا نظرة طويلة.

«نحن في أمان». يحاول أحدهما إقناع الآخر.. ونفسه.

لم يعد بالإمكان التّراجع الآن. بقيت خطوة واحدة بعد.

***

دلفت ياسمين إلى الشّقة بعد السّاعة الرّابعة بدقائق قليلة. علّقت معطفها وحقيبة يدها عند المدخل، تخفّفت من ملابس العمل، ثمّ دخلت المطبخ. حضّرت لنفسها شطيرة تتناولها بسرعة لتُسكت جوعها، ثمّ تشرع في إعداد وجبة العشاء. عبرت الصّالة نحو ركن الطّعام،

وجلست قرب النّافذة المشرفة على الحديقة الخلفيّة. أخذت تقضم شطيرتها وتلوكها ببطء وقد سرحت نظراتها إلى الخارج.

صار هيثم شديد الانشغال في الفترة الأخيرة. المشروع يأخذ من وقته الكثير، حتّى أنّه أخذ إجازة بدون راتب لشهرين ليتفرّغ لمشروعه وعمر. مازال يعمل عن بعد معظم الوقت، لكنّه يتأخّر في العودة كلّما سافر إلى باريس.. ويغيب لساعات طويلة في عطلة نهاية الأسبوع حين يزوران أهله. تنهّدت وهي تسرح بنظراتها عبر زجاج النّافذة. تأمّلت شجيرات الورد التي لم تقلّم منذ زمن. ستذكّره بفعل ذلك قريبا.

انتبهت على صوت طنين غريب يزداد اقترابا وقوّة. رفعت عينيها إلى السّماء، فلمحت طائرة صغيرة تبدو مثل ألعاب الأطفال، تنزل بشكل عموديّ مستقيم لتحطّ على العشب في حديقتها الخلفيّة!

تركت مقعدها، فتحت باب الشّرفة وسارت حتّى موقع الطّائرة التي انطفأ محرّكها وتوقّفت عن الطّنين. انحنت لتلتقط اللّعبة في فضول. لم تكن قد رأت النّموذج سابقا، لكن يمكنها الجزم بأنّها واحدة من الطّائرات التي يعمل هيثم على برمجتها.

انتبهت إلى علبة الكرتون الصّغيرة التي تلتصق بخطّاف أسفل الطّائرة. سحبتها برفق، لتقرأ الاسم الذي كُتب عليها:

«إلى ياسمين»!

رفعت حاجبيها في استغراب، ثمّ فتحت العلبة وقد تملّكها الفضول، لتجد بداخلها وردة حمراء، وبطاقة. قرأت الرّسالة المدوّنة في دهشة متزايدة:

«دمت كلّ يوم الوردة التي تعبق بأريجها حياتي.. زوجك المحبّ»!

همست في شكّ:

- هيثم؟

لم يكن اليوم عيد زواجهما، ولا عيد ميلادها.. ولا ذكرى لقائهما الأوّل! حاولت أن تجد سببا مقنعا لتلك الرّومانسيّة المفاجئة، لكنّها لم تفلح.

تناولـت هاتفهـا واتّصلـت بـه عـلى الفـور:

- هل وصلت؟

- ليس بعد!

تفقّـدت سـاعتها، إنّهـا الرّابعـة النّصـف وحسـب. لا يمكـن أن يكـون قـد رجـع مبكّـرا إلى تلـك الدّرجـة. لكـن تلـك الطّائـرة في حديقتهـا الخلفيـة.

- وصلك الطّرد؟

كانت في صوته نبرة استمتاع. قالت متسائلة:

- هل تقصد الطّائرة؟ نعم إنّها عندي.

- وصلت إذن! ممتاز.. هذا رائع! هل هبطت في الحديقة؟

- نعم.. على العشب.

سمعته يهتف لعمر:

- جهاز الملاحة دقيق بشكل مدهش!

سألت في شكّ:

- أنت في باريس؟

- نعم.. سأنطلق قريبا. هل توصين بشيء؟

- سلامتك.

أنهـت الاتّصـال وهـي في حـيرة. أيمكـن أن تصـل الطّائـرة إليهـا مـن باريـس؟ لعـلّ شركـة توصيـل قامـت بشـحنها ثـمّ أطلقتهـا عنـد البـاب؟

سرعـان مـا نسـيت أمـر الطّائـرة، لكنّهـا لـم تنـس كلمـات الغـزل الـتي جلبتهـا الطّائـرة. فكّـرت أن تضـع لمسـات رقيقـة عـلى العشـاء. قطفـت بضـع وردات مـن الحديقـة ورصّفتهـا في مزهريّـة، أضـاءت شـمعات ذات رائحـة زكيّـة ووضعتهـا عـلى المائـدة.. ثـم عـادت إلى المطبـخ لتـشرع في إعـداد وجبـة عشـاء فاخـرة!

-٢٦-

سارت رانيا في ممرّات الجامعة وعيناها تحومان في كلّ اتّجاه، بحثًا عن «بطل حرب النّجوم» الذي باتت تراسله عبر البريد الالكتروني.

كانت البداية، بسبب عثوره على سيلين. ثمّ استمرّت بينهما الرّسائل بشكل يوميّ تقريبا.. مثل فضفضة بين صديقين. بشكل غريب، وجدته أكثر لطفا في رسائله منه في التّواصل المباشر! لم يكن يتعمّد إغاظتها ولا تعكير مزاجها.

تحدّثا عن أشياء كثيرة، يتحدّث فيها المراهقون عادة. الفرقة الموسيقيّة المفضّلة، وفريق كرة القدم، لاعب التّنس المفضّل، مسلسل الرّعب الأكثر حماسا، البلد الذي يتمنّى كلّ منهما زيارته.. ووجبته المفضّلة!

بعد فترة، أصبحت تغربل الأخبار التي تنقلها إلى سكينة، وتحتفظ ببعض التّفاصيل لنفسها. داهمها إحساس بأنّها تتجسّس على شابّ وتنقل أخباره إلى والدته خلسة. ولم يكن ذلك يروقها. إنّها تحبّ سكينة، لكنّها لا تقبل على نفسها لقب «الجاسوسة»!

- ها أنتِ! ما الأمر الهامّ الذي لا يُكتب في رسالة؟

أزعجتها لهجته المتهكّمة. كان يعود ليكون كزافي الذي تعرفه.. وهو يختلف عن الولد الظّريف الذي تبادله الرّسائل! كان ذلك مربكا وكريهًا في آن. قالت بلهجة جادّة:

- سكينة ستحاول استعادة حضانة سيلين. ستمثل أمام المحكمة.. لعلّها تكون فرصتها الأخيرة. لذلك...

قاطعها بجفاف:

- هل هذا ما أردت رؤيتي من أجله؟

حدّقت فيه غير مصدّقة:

- وهل هناك أهمّ من هذا؟

وضع كفّيه في جيوبه في حركة لامبالية وقال بلهجة هجوميّة:

- ما المطلوب منّي؟

- سكينة تحتاج مساندتك.. هل بوسعك الشّهادة أمام المحكمة؟

رمقها بنظرة طويلة وبدا منهمكا في تفكير عميق، ثمّ أضاءت قسماته وهو يهتف:

- عندي فكرة أفضل! قد أقنع والدتي الحقيقيّة باحتضانها!

فغرت فاها في صدمة، وحدّقت فيه مبهوتة. كانت فكرته تنمّ عن قسوة شديدة وكراهية لا حدّ لها. تمتمت في انزعاج وهي تبتعد بخطوات سريعة:

- انس أنّني طلبت منك أمرًا!

دلفت إلى الشّقّة وشعور الغيظ لمّا يخفت داخلها. ذلك الفتى البغيض، أين تعلّم أن يكون جلفا فظّا بلا رحمة؟ فوجئت بياسمين تتوسّط ريم وسكينة وقد غشيهنّ انطلاق وسرور. هتفت وهي تنضمّ إليهنّ:

- أرى أخبارًا سارّة في الأفق.. بشّرن!

هتفت سكينة وعيناها تتلألآن سعادة كأنّ الخبر يخصّها:

- ياسمين حامل!

- ولد أم بنت؟

همست ياسمين ببهجة لا تخفيها:

- لا أدري بعد.. كلاهما عندي سواء!

جلست رانيا إلى جوارها وقالت في حماس:

- لو كانت بنتا، ماذا تسمّينها؟

- أحبّ اسم جويرية، وهيثم يفضّل آمنة!

حملقت فيها رانيا في استغراب ثمّ هتفت:

- جويرية وآمنة؟ وأمّها ياسمين؟

ارتفعت ضحكات الفتيات، ثمّ قالت رنيم:

- وماذا لو كان ولدًا؟

- نتّفق أنا وهيثم على اسم واحد.

قاطعتها رانيا في عجل:

- لا تقولي بصوت عالٍ، اهمسي في أذني!

ثمّ أدنت رأسها من شفتيها، فهمست ياسمين. رفعت رانيا ذراعيها وهتفت:

- جميل.. دوركما لتحزرا الاسم!

أخذت رنيم وسكينة تطرحان الأسئلة ورانيا تجيب:

- قديم أم حديث؟

- عابر للعصور!

- اسم مركّب أم لفظ واحد؟

- مركّب!

- هل له سميّ في التّاريخ؟

- نعم!

- المعاصر أم الغابر؟

- الاثنان! الآن احزرا!

***

وصلت فاطمة إلى مطار باريس «أورلي» مساء يوم السّبت. كانت في استقبالها ياسمين وهيثم، ترافقهما زهور. تداولوا على عناقها مرحّبين، قبل أن يستقرّ بهم المقام في سيّارة هيثم.

- كيف أنت؟ وكيف هو الجنين؟

ابتسمت ياسمين في ضعف، وقالت مهوّنة:

- سنكون بخير.

بـدأ الأمـر بنزيـف خفيـف، تبعتـه آلام بطـن حـادّة. بعـد زيـارة الأسـبوع المـاضي لطبيبـة النّسـاء، ألزمتهـا بالرّاحـة التّامّـة. أخـذت إجـازة مرضيّـة مـن عملهـا، وبقيـت في البيـت، حـتّى جـاءت والدتهـا لترعاهـا إلى أن يحـين موعـد ولادتهـا.

تمتمت زهور في استياء:

- هـؤلاء هـنّ بنـات اليـوم.. يرهقـن أجسـادهنّ ويتكبّـدن مشـقّة فـوق طاقتهـنّ مـن أجـل الخـروج للعمـل.. ثـمّ ينتهـين طريحـات الفـراش! مـا كان عليـك يـا حبيبـتي لـو نأيـت بنفسـك عـن هـذا منـذ البدايـة، وحفظـت نفسـك وولـدك!

تمعّر وجه ياسمين ولم تردّ، فقال هيثم مترفّقا:

- ياسـمين تعمـل في مكتـب مريـح، ومـكان عملهـا قريـب مـن البيـت.. لا تركـب وسـائل نقـل ولا تجهـد نفسـها.. لكـنّ هـذا قضـاء اللـه. بعـض الحمـل يكـون أكـثر مشـقّة مـن غيره.. عـسى أن يكتمـل عـلى خـير!

لوت زهور شفتيها في عدم اقتناع، وأمّن جميعا على دعائه.

كانـت قـد أنهـت شـهورًا سـتّة، وقطعـت أيّامـا قليلـة في الشّـهر السّـابع. عليهـا أن تحافـظ عـلى جنينهـا في مكمنـه شـهرين بعـد، حـتّى تكـون الـولادة طبيعيّـة.

توقّفـت السـيّارة عنـد منـزل زهـور الـتي أصرّت أن يكـون العشـاء عندهـا، بينمـا كان هيثـم يسـتعجل المـضيّ قبـل هبـوط الظّـلام. يُـدرك أنّ والدتـه تتحايـل عليهـم ليمضـوا اللّيلـة عندهـا. ولـولا تعـب ياسـمين لمـا اسـتجاب. لكنّهـا لا تتحمّـل السّـفر الطّويـل بالسـيّارة. ولعـلّ فاطمـة أيضـا ترجـو تلـك الجلسـة الرّائقـة مـع صديقـة عمرهـا قبـل أن ترتـدي عبـاءة الأمّ وتـشرع في رعايـة صغيرتهـا الوحيـدة.

انتبهت ياسمين على رنين هاتفها بينما يُنزل هيثم حقائب والدتها المثقلة كما العادة بأطايب الوطن وخيراته. ردّت على اتّصال رنيم بحفاوة:

- قلقت عليك.. ماذا قالت الدّكتورة؟

- عنق الرّحم مفتوح بشكل مبكّر.. يجب أن أحظى بالرّاحة التّامّة...

ضحكت رنيم لتسرّي عنها:

- الزمي السّرير إذن، وتصرّفي كالملكة!

ابتسمت ياسمين وهي تتحسّس بطنها المتحجّر بعد ساعة أمضتها جالسة منذ المطار، بينما أضافت رنيم:

- كنت لأطلب منك الحضور للشّهادة في قضيّة سكينة.. لكنّ وضعك لا يسمح بذلك الآن. لا عليك.. لدينا عدد كافٍ من الشّهود.

تمتمت ياسمين في اعتذار:

- متى تتوقّعين أن تكون الجلسة؟

تنهّدت رنيم:

- لا أدري بعد.. إنّهم يماطلون بشكل مزعج!

هذا ما يفعلونه تحديدًا. لقد جمعت الوثائق وقدّمت ملفًّا متكاملا منذ شهور، حتّى تحظى سكينة بإعادة نظر في حكم الإبعاد عن طفلتها. لكنّ المحكمة تتعلّل بكثرة القضايا المدرجة في جدولها، وترفض تحديد موعد الجلسة بعد!

- عسى أن أكون أفضل حالا حين يأتي الموعد.

***

مضت الأسابيع سريعة، تتدافع أيّامها محمّلة بدفقات من الأمل والخشية. أصبحت الألعاب متاحة في السّوق، تتصدّر واجهات المحلّات المختصّة، وتلقى القبول والاستحسان. كان نجاحًا تجاريًّا حقيقيًّا..

بالإضافة إلى الرّضا الذي يجلبه النّشاط الخفيّ الموازي.

جاء صوت عائشة عبر الأثير محمّلا بموجات الفرح:

- جاءتنا تأشيرات الدّخول إلى فرنسا اليوم! لقد انتظرت طويلا حتّى تقرّ عيني بك عريسًا.. عسى أن أسعد قريبا برؤيتك وعروسك سعيدين مباركين!

أصغى عمر إلى كلماتها في ارتياح ثمّ قال:

- كوني جاهزة خلال أسبوع.. سأحجز تذاكر السّفر لتحضري والأولاد قبل الزّفاف بفترة كافية. أريد أن آخذكم في سياحة بين المعالم الباريسيّة!

اتّفقا على المواعيد، ثمّ أنهى عمر الاتّصال وقد ملأه صوت شقيقته المرتعش فرحًا وحبّا ودعواتها الحارّة بالفلاح والصّلاح انتعاشًا وبشرًا.

كان قد زار آية ووالدها منذ أسبوعين. نجاح المشروع الذي شغله في الشهور الماضية كان يجب أن يُتوّج بفرح عارم وعائليّ.. ولم يكن هناك أفضل من عقد قران وزفاف متتابعين، ليجتمع أفراد العائلتين والأحباب والأصحاب، يشاركونه سعادته بالاستقرار والاطمئنان.

انتبه حين أخذ هاتفه يومض معلنًا اتّصالًا صباحيّا من شريكه.

- أنا قادم على الفور!

فكّر عمر وهو ينزل الدّرجات قفزا، حتّى ينضمّ إلى هيثم أمام المبنى، أنّ السّنة الماضية كانت إعادة تأهيل لروحه وقلبه، وتلك السّنة كانت تحقيقا لطموحاته وتتويجًا لجهوده المتراكمة منذ تخرّج في الجامعة. كان يشعر بأنّه يسترجع ذاته القديمة، بل يعزّزها لتكون نسخة أفضل.

داعبه هيثم وهما يتصافحان:

- تبدو منتشيًا اليوم على غير العادة. هل تحوّل الرّضا إلى شيء آخر؟

- تهانينا.. لقد وصلت الشّحنة إلى وجهتها.

حملق فيه هيثم غير مصدّق، ثمّ تمتم في تأثّر:

- حمدًا لله!

كان عمر قد تلقّى اتّصالا مساء الأمس من أبي الحسن. عبرت الألعاب إلى غزّة، في حين سبقتها الأجهزة التكميليّة في الوصول منذ يومين. أمّا تعليمات التّجميع والتّشغيل فأرسلت بشكل منفصل في حقيبة سفر أحد التّجار المنتظمين عبر معبر رفح.

ابتسم عمر في غموض وقال وهما يمشيان في اتّجاه السيّارة:

- سيّدي المدير، أحتاج إجازة مطوّلة.. ثلاثة أسابيع على الأقل.

رفع هيثم حاجبيه في دهشة، ثمّ ما لبث أن استوعب، فهتف في فرح:

- أخيرًا ستدخل القفص الذّهبيّ يا أخي! مبارك! هل حدّدت الموعد؟

- بعد أسبوعين.. أهلي قادمون من المغرب خلال أسبوع إن شاء الله، وأحتاج التفرّغ للاهتمام بضيافتهم..

لم يفاجئه الموعد القريب، فقد كانت العروس جاهزة منذ أمد، والحفل العائليّ المضيّق لا يتطلّب تحضيرات كثيرة. لقد أجّل عمر زفافه منتظرًا استقرار المشروع بشكل كامل، والآن لم يعد هناك ما يمنعه من الاحتفال. أومأ هيثم موافقا:

- حقّك! لا بأس بذلك.. على الأقلّ نأخذ إجازاتنا في أوقات متباعدة، لضمان استمراريّة العمل في الشّركة.

جلس هيثم وراء عجلة القيادة وركب عمر إلى جواره، ثمّ التفت إليه في اهتمام:

- هل اقترب موعد الوضع؟

- الحمل في الشّهر الثّامن بعد.. آمل أن يظلّ مستقرّا حتّى التّاسع.

- خيرا إن شاء الله.. ماذا قرّرت أن تسمّيه؟

شغّل هيثم المحرّك فتقدّمت السيّارة عبر الشّارع الهادئ على مهل. قال في فخر:

- عزّ الدّين!

- ما شاء الله! عسى أن يكون له نصيب من اسمه!

ضغط هيثم على الفرامل في حدّة لتتوقّف السيّارة بشكل مفاجئ. هتف عمر في قلق:

- ما الأمر؟ ما لك توقّفت؟

- تلك الشّاحنة!

رفع عمر عينيه ليبصر الشّاحنة السّوداء التي خرجت فجأة من الطّريق المتعامد دون احترام لقواعد المرور. حدّق في زجاجها المظلم الذي يخبّئ ملامح السّائق، ثمّ توجّه بصره ناحية السيّارة الثّانية التي فرملت بدورها بصوت مزعج، وهي تدخل الشّارع من الاتّجاه المعاكس. توقّفت على بعد خمسة أمتار من موقع سيّارة هيثم، ونزل زجاج نوافذها الأماميّ والخلفيّ من النّاحية التي يراها هيثم وعمر بوضوح.

كان كلّ شيء سريعًا ومباغتًا.

شلّت الصّدمة حركات عمر وهيثم وأخرست لسانيهما وغشيهما خدر شامل. لبثا يتابعان المجريات في شبه غياب، وكأنّما قد انفصلا عن المشهد الغريب الذي يسري إزاءهما.

خلف زجاج النّوافذ، ظهر وجهان متواريان وراء نظارات شمسيّة عريضة تخفي قسماتهما الأوروبيّة. ثمّ، وبشكل غير متوقّع، ارتفعت فوّهات مسدّسات مزوّدة بكاتم للصّوت، لينطلق وابل من الرّصاص في اتّجاه مباشر وعن سابق إصرار وترصّد.

انهمرت الرّصاصات القاتلة مثل المطر. أنّ عمر في ألم حين أصابته الرّصاصة الأولى، ثمّ انكفأ على وجهه ليرتطم رأسه بلوحة قيادة السيّارة. أحصى عشرين رصاصة، ارتدّ بعضها بعد اصطدامه بهيكل السيّارة، في حين شقّ آخر زجاجها وعبره في اتّجاه الهدف.

قبل أن يغيب عن العالم، كان آخر ما وقعت عليه عيناه، صاحبه المضرّج بدمائه.

ارتفع رنين الهاتف بصوت مزعج شقّ فضاء أحلامها. تمطّت رنيم في كسلٍ وهي تمدّ ذراعها لتلتقط هاتفها الذي يومض بإلحاح ويهتزّ على المنضدة القريبة عند رأسها. ألقت نظرة على السّاعة قبل أن تردّ على الاتّصال الوارد. التّاسعة والنّصف صباحًا.

- مرحبا!

غمغمت بصوت ملؤه النّعاس.

- رنيم، هل أنت نائمة؟

- نعم، لقد أويت إلى السّرير في وقت متأخّر.. ألم نتّفق على أن آخذ اليوم إجازة؟

هتف جورج في اعتذار:

- أعلم.. لم أنس ذلك. لكنّ المسألة عاجلة. وصلني اتّصال من المركز الصحيّ بالضّاحية الجنوبيّة. نُقل إليهم أحد عملائنا، مصابًا بطلق ناريّ. وجدوا بطاقتي بين متعلّقاته الشّخصيّة، ولم يتمكّنوا من الوصول إلى عائلته.. وأنا في طريقي إلى المحكمة. لن يمكنني أن أتفرّغ لمعاينة الوضع.

تمتمت رنيم وهي تستقيم جالسة:

- بالتّأكيد.. سأذهب. ما اسم العميل؟

- عمر الرّشيدي.

كانت تمسك قلمًا وتهمّ بتدوين الاسم على قصاصة ورق. لوهلة، التبس الأمر عليها. شعرت أنّها تختبر كابوسًا قديمًا، تهبّ نفحاته بقسوة مرّة أخرى.

- هل سمعتني؟

- نعم. بالتّأكيد.. سأتقصّى الأمر.

أنهت الاتّصال ثمّ زفرت بقوّة. طلق ناريّ؟ في أيّ مصيبة جديدة أقحمت نفسك يا عمر؟ ثمّ انقبض صدرها. لم يقل جورج أيّ درجة من السّوء كان عليها الوضع.

تململ شهاب على السّرير إلى جوارها، ثمّ فتح عينيه. بادلته بسمة ناعسة، ثمّ عادت إلى وضع الاستلقاء مجبرة أساريرها على استرخاء لا تشعر به.

كان قد وصل مساء الأمس إلى باريس، فتركت شقّتها مثل كلّ مرّة ليمضيا فترة زيارته في فندق يقع في الدّائرة التّاسعة، حيث الحياة اللّيليّة تتميّز بالحيويّة، والفرص كثيرة لقضاء مساءات ممتعة، بعد أن تكون قد صرفت معظم أشغالها. تحاول في كلّ مرّة تفريغ يومين أو ثلاثة بالكامل ليغتنما أكثر ما يمكن من الوقت معًا. لكنّ إجازة اليوم تبدأ بشكل سيّء.

همست في دلال وهي تداعب أطراف خصلاته بأناملها:

- عد إلى النوم، سأغيب ساعتين على الأكثر وأرجع حتّى نتناول الإفطار معا.

رفع حاجبيه في دهشة. لم يكن هذا ما أعلنته بالأمس، حال وصوله.

- ألست في إجازة؟

تنهّدت ثمّ قالت في أسف:

- إنّها حالة عاجلة. لن أتأخّر!

طبعت على وجنته قبلة سريعة، ثمّ انسلّت من السّرير. ارتدت ثيابها على عجل وسرّحت شعرها المتموّج وهي تطالع وجهها في المرآة بنظرات يسكنها القلق.

استقبلتها خارج مبنى المستشفى أفواج من الصّحفيّين الذين ينتظرون تصريحات طازجة بشأن حادث إطلاق النّار. شقّت طريقها إلى الدّاخل، يطاردها صوت مراسل إحدى القنوات التّلفزيّة ينقل المستجدّات في بثّ

مباشر:

- وصل المصابان منذ ساعة إلى مستشفى الضاحية الجنوبيّة، ولازلنا ننتظر توضيحات أكثر من الجهات الأمنيّة عن حقيقة المنفّذين ودوافعهم...

تجاوزت الزّحام وهرولت عبر ممرّات المستشفى حتّى وصلت عند قسم الطّوارئ. هتفت لاهثة:

- عمر الرّشيدي.. كيف حاله؟

- هل أنت من عائلته؟

- محاميته.. لقد وصلنا اتّصال من طرفكم.

- انتظري رجاءً.

غابت الممرّضة لدقيقتين، ثمّ رجعت وبرفقتها أحد الأطبّاء. سألها في اهتمام من جديد:

- هل أنت من عائلة المصاب؟

أظهرت ببطاقتها المهنيّة وهي تقول:

- أنا محامية.

كانت تدرك ضرورة التكتّم الذي يلتزم به الطّاقم الطبيّ أمام الاهتمام الإعلاميّ الكثيف بالحادثة.

- لن أخفي عنك.. الحال سيّئة. لقد وصل مصابان بطلقات ناريّة عديدة لكلّ منهما.. أدخلنا الأوّل إلى الجراحة فورًا نظرًا لإصاباته الخطيرة.. السيّد عمر تحت الملاحظة، لكنّه فاقد للوعي. لم نستطع إدخاله إلى الجراحة على الفور.. لأنّ طاقمنا غير مكتمل اليوم. ننتظر قدوم الجرّاح في وقت قريب.

قاطعته في لهفة:

- كيف هي الإصابة؟

- لحسن الحظّ، الرّصاصات لم تصب الأعضاء الحيويّة.. رصاصتان على مستوى الكتف، ثالثة على الذراع.. وأخرى أصابت عظم الترقوّة.. لكنّه فقد دمًا كثيرًا.

- هل يمكن نقله إلى مستشفى آخر؟

- أخشى أنّ نقله سيزيد من تأزّم الحالة. من الأفضل أن ننتظر وصول الجرّاح.

أومأت في استسلام، ثمّ خطت في وهن نحو مقاعد الانتظار. شعرت بركبتيها تخونانها. ألقت بجسدها على الكرسيّ الأقرب إليها، ثمّ زفرت لتخفّف تشنّج أعصابها.

أيّ مصيبة هذه؟ أربع رصاصات؟ هذا يبدو مثل حرب عصابات! لم تستطع أن تفكّر في أيّ شيء آخر. كلّ ما خطر ببالها حين اتّصل جورج هو احتمال إصابته برصاصة طائشة، لا يمكنها توقّع ظروف وصولها إليه، لكنّه احتمال أقلّ تشاؤما. كيف يمكن لشخص سويّ وطبيعيّ، دكتور محترم ومسالم أن يتلقّى ذاك العدد من الطّلقات دون أن يكون مستهدفا بشكل شخصيّ؟

مرّت الدّقائق طويلة وثقيلة. بعد نصف ساعة، عادت إلى مكتب التّمريض. سألت في توتّر:

- هل وصل الجرّاح؟

- للأسف، لديه جراحة مجدولة بشكل مسبق في مشفى آخر.. إنّنا نحاول إيجاد بديل.

- بسرعة أرجوك!

هزّت الممرّضة رأسها في تفهّم، ثمّ انبرت تجري اتّصالات شتّى بحثًا عن الجرّاح المنشود.

عادت إليها رنيم بعد أن انقضت ساعة كاملة على ترقّبها في صالة الانتظار. فهزّت الممرّضة رأسها في أسف وقالت:

- إن كان محظوظا، فستنتهي الجراحة الأولى في وقت قريب...

في تلك اللّحظة، لمعت في رأسها فكرة مجنونة. قالت رنيم في حزم:

- هل إذا جئتكم بجرّاح، تسمحون له بإجراء الجراحة؟

أجرت الممرّضة اتّصالا سريعا، ثمّ قالت:

- نظرًا للحالة الحرجة، وافقت إدارة المستشفى!

على الفور، تناولت رنيم هاتفها. قالت حين وصلها صوت مخاطبها:

- شهاب.. أحتاج منك معروفًا. هل يمكنك القيام بجراحة عاجلة الآن؟

***

هرولت لتلتقيه عند مدخل المستشفى. لم تكن تفعل شيئا منذ الصّباح غير المراوحة بين قاعة الانتظار والرّكض في الممرّات. في الخارج، لم يبرح الصّحفيّون مواقعهم رغم غياب أيّ جديد. هتفت وهي تشدّ ذراع زوجها في امتنان:

- شكرا لمجيئك بهذه السّرعة.

- ما الذي يجري هنا؟

- سأشرح لك لاحقا.. ليس أمامنا وقت نضيّعه.

كانت قد أرسلت إليه العنوان منذ نصف ساعة، فارتدى ثيابه على الفور وطلب سيّارة أجرة. كانت تلك الوسيلة الأسرع. لبّى طلبها دون تردّد ولم يسأل عن التّفاصيل. لقد بدت منهارة على الهاتف وعلى وشك البكاء. الآن، وهو يسير برفقتها في ممرّ المستشفى، يراوده فضول غريب تجاه هويّة المصاب الذي تتأثّر بسببه إلى تلك الدّرجة. لم يكن عميلا عاديّا.. هذا مؤكّد.

استقبله مدير المستشفى في مكتبه. تأكّد من وثائق هويّته وبطاقته المهنيّة، وسأله عن خبراته السّابقة، ثمّ جعله يمضي على تعهّد بتحمّل مسؤوليّة ما يجري في قاعة الجراحة كاملا دون محاسبة إدارة المستشفى.

وقّع شهاب على مضض، لكنّه مضطرّ لاتّباع الإجراءات القانونيّة.

بعدئذٍ، توجّه إلى غرفة التّعقيم. وقفت بجواره ممرّضة، حيّته بإشارة من رأسها، ثمّ ساعدته على ارتداء سترة الجراحة المعقّمة وأدوات الحماية، ثمّ دلف إلى غرفة الجراحة. كان طبيب التّخدير بالدّاخل، والمصاب مسجّى على طاولة العمليّات.

- دكتور، كلّ شيء جاهز.. هل نبدأ؟

أومأ موافقا، ثمّ خطى باتّجاه ساحة معركته. تطلّع إلى وجه المريض الذي يختفي تحت قناع التّخدير، ثمّ عادت نظراته إلى جسده الذي كُشف جزؤه العلويّ، حيث علقت الرّصاصات. لو أنّه أخطأ ملامحه، فلا يمكنه أن يخطئ أمارات الحروق الباهتة التي خلّفتها عمليّات تجميل متكرّرة. تنهّد، ثمّ شرع في إعطاء أوامره إلى طاقم الجراحة المرافق له.

***

عادت إلى غرفة الانتظار مكرهة. ما حسبته زيارة سريعة وخفيفة قد غدا مشوارًا طويلا ومرهقًا. غاب شهاب بالدّاخل منذ ساعتين، اتّصل خلالها جورج ليطمئنّ إلى المستجدّات. ثمّ جاء رجلا شرطة ومحقّق. تحدّث المحقّق إلى الطّاقم الطبيّ، ثمّ جلس ينتظر هو الآخر.

اقتربت رنيم في هدوء وسألت:

- هل أنت هنا من أجل حادثة إطلاق النّار؟

- أنت تعرفين المصابين؟

- أنا محامية أحدهما.. الدكتور عمر الرّشيدي. هل عرفتم من الفاعل؟

هزّ رأسه علامة النّفي، ثمّ أردف:

- لقد أخذنا مواصفاتهم من شهود عيان، ونحن نسعى في إثرهم. هل تعلمين إن كان للضّحيّة عداوة معروفة؟

هزّت كتفيها وهي تقول:

- لا أظنّ أنّ لديه عداوات بتلك القوّة! أقصد، في مجال البحث العلميّ، قد تحصل مناوشات وتنافس على المشاريع.. لكنّ الأمر لا يصل إلى إطلاق النّار!

- ماذا عن المصاب الثّاني؟ لقد كانا يركبان سيّارته أثناء الحادثة.. هل تعرفين طبيعة علاقته به، هيثم الأندلسي؟

- من؟

فغرت ريم فاها غير مصدّقة. هيثم؟ تأتأت في ذهول وقد رحلت أفكارها إلى ياسمين:

- إنّهما.. صديقان.. أنت متأكد؟ هذا اسم المصاب؟ يا إلهي.. عن إذنك!

غادرت المقعد على عجل. أمسكت هاتفها تحدّق في شاشته بكفّ متحجّرة. إنّها تجلس هنا منذ ساعات، ولم يخطر ببالها أن تسأل عن هويّة مرافق عمر. الآن، عليها أن تبلّغ ياسمين بالحادثة.. وهي لا تعرف كيف تفعل!

على الشّاشة العملاقة التي تتوسّط بهو المستشفى، كانت نشرة الأخبار تنقل مشاهد من موقع الحادثة. ظهرت سيّارة هيثم التي تهشّم زجاجها الأماميّ والأيسر من جهة السّائق كليّا، وعلقت رصاصات كثيرة بهيكلها. كان المراسل يحادث المارّة، لعلّهم يصفون تفاصيل الأحداث التي شهدوها. لكنّها لا تسمع شيئا فالصّوت مكتوم. تقرأ عنوان الخبر العاجل:

«إطلاق نار إرهابيّ في حيّ سكنيّ جنوب العاصمة».

كان عليها أن تعجّل بإخبار ياسمين، قبل أن يصلها النّبأ بطرق أخرى أشدّ قسوة!

***

لم تر هيثم ذلك الصّباح. خرج مبكّرا كعادته، بينما نامت حتّى وقت متأخّر كعادتها منذ بداية الحمل. تذكر بشكل مشوّش وجهه القريب

وكلمات همس بها إليها قبل مغادرته. لم تكن واثقة، ربّما كون المشهد الضّبابيّ جزءًا من حلمها.

تركت سريرها، وخطت برفق باتّجاه المطبخ، وهي تدفع بطنها المنتفخ أمامها. أحسّت بوخزات مفاجئة وبتصلّب عضلاته. تأوّهت وهي تقترب من الأريكة وتلقي بجسدها عليها.

السّاعة قد تجاوزت العاشرة. تسمع ضوضاء قادمة من المطبخ. إنّها لا شكّ فاطمة، تحضّر وجبة الغداء. ابتسمت وهي تتمالك نفسها لتقف من جديد. أصبحت متواكلة جدّا منذ وصولها. سارت ببطء حتّى أشرفت على باب المطبخ. همست برفق:

- أنت مبكّرة كعادتك!

التفتت إليها أمّها وهتفت في دهشة:

- لماذا غادرت السّرير؟ الإفطار جاهز.. سأحضره إلى هناك.

- لقد أردت التحرّك قليلا.. أشعر بالخمول. هلّا جلسنا في الشّرفة؟ الطقس جميل اليوم...

هزّت فاطمة رأسها في استسلام. جفّفت كفّيها، ثمّ تناولت طبق الإفطار ولحقت بها إلى الشّرفة. جلستا متقابلتين، تحتسيان القهوة على مهل، وتقضمان من قطع التوست المدهون بالمربّى والزّبدة.

لم تكن الشّقة كبيرة، لكنّ فاطمة تحبّ أن تشعر بفائدتها، فتنشغل لساعات في أعمال البيت، ترتّب الغرف وتفتح نوافذها للتّهوية، تبسط الشّراشف في الشّمس وتنفض السّجاد، تكنس ثمّ تمسح الأرضيّة، تزيل الغبار، ثمّ تنشر الغسيل، ترتّب الملابس وتقضي معظم وقتها في المطبخ، بين طهو وغسيل أوانٍ وتجفيف وترتيب لها. كأنّها خلقت لتفعل ذلك طيلة اليوم بلا كلل أو ملل.

في الأثناء، تستلقي ياسمين على الأريكة، مجبرة على الرّاحة رغما عنها، بين كفّيها كتاب تتصفّح فيه قليلا، ثمّ تسرح طويلا عبر زجاج الشّرفة،

ترقب الحمام وهو ينقر الحبّ الذي تنثره كلّ صباح من أجله. ومن حين إلى آخر، تداهمها آلام متقطّعة، فتحبس أنفاسها حتّى تنقضي.

قبيل الثّانية ظهرا، ارتفع رنين هاتفها. ابتسمت حين لمحت اسم رنيم على الشّاشة. ردّت وهي تنهج محاولة السّيطرة على ألمها:

- رنيم.. كيف حالك؟

فزعت رنيم حين وصلها صوتها ضعيفًا واهنًا. هتفت في شكّ:

- ياسمين.. هل وصلك الخبر؟

لعلّها حسبت أنّ أحدهم -أيّ أحد- قد كفاها مؤونة زفّ الخبر الأليم إليها، فلا تكون أوّل من يقذف الحزن في صدرها.

- أيّ خبر؟

تردّدت رنيم. لم يكن الأمر كما حسبت. صاحبتها في غفلة عن المصاب الذي حلّ بعائلتها. بحثت في عقلها عن الكلمات المناسبة لنقل الفاجعة. مهما حاولت الاستعداد، فإنّ فصاحتها ولباقتها لم تسعفاها أمام فداحة الموقف. همست بصوت مختنق:

- هيثم.. إنّه في المستشفى.

شعرت بصدمة ياسمين التي تاهت الحروف عن لسانها وتأتأت في اضطراب:

- هيثم؟ كيف..؟ ما الأمر؟

- هل بوسعك المجيء؟ سأمليك عنوان المستشفى...

دوّنت ياسمين العنوان بأنامل مرتجفة، ثمّ هتفت في قلق:

- ما الذي حصل؟ هل هو بخير؟

خمّنت رنيم أنّها كلّما عرفت أقلّ في الوقت الحالي، كان أفضل. قالت متمالكة نفسها:

- إنّه في الجراحة الآن. سنعرف أكثر حين يفرغون منها.

دوّت الكلمة في أذنيها كالصّاعقة. جراحة!

اقتربت فاطمة في اهتمام وهي ترمق سحنة ابنتها شديدة الشّحوب. همست وهي تعاينها:

- هل أنت بخير؟

كانت ياسمين تستمع إلى رنين مستمرّ في أذنها وتكرّر الاتّصال بهيثم رغم يقينها بانعدام الإجابة. انتفضت من استغراقها المظلم، وهبّت واقفة مغالبة وجعها:

- يجب أن نذهب إلى باريس الآن.. سنركب القطار!

كيف لمن هي في وضعها أن تخرج الآن وتركب القطار؟ لكنها كانت مصمّمة وعاقدة العزم. دخلت غرفتها، تضع عليها جلبابا ووشاحا بما وسعها من سرعة. لملمت دمعها قبل أن تتصل بميساء. قالت في اقتضاب:

- هيثم في المستشفى.. سأرسل إليك العنوان. طمئنيني عنه حال وصولك!

في تلك اللّحظة، وهي تطالع وجهها المكفهرّ في مرآتها قبل الخروج، رنّت كلمات هيثم ذلك الصّباح في أذنها:

«يا أجمل ملاكين في حياتي، حفظكما الله».

***

لم تطمئنها ميساء. ظلّت طيلة رحلة القطار معلّقة البصر بشاشة الهاتف. لكنّه لم يرنّ. حاولت الاتّصال بهيثم مرارًا، لكنّ هاتفه مغلق. طبعا، إنّه في الجراحة! لم تقل رنيم أيّ نوع من الجراحات هي. لكنّها لم تكن مطمئنّة. خلال ساعة ونصف السّاعة، لم تتّصل ميساء ولا رنيم ولا هيثم.. ولم يردها أيّ خبر. مالت فاطمة نحوها وهمست بصوت ملؤه الجزع:

- ادعي له، فأنت على سفر.

تمتمت بخفوت، وكفّها على بطنها:

- يا ربّ، فليكن خيرًا.. يا ربّ!

ركبت سيّارة أجرة قبل القطار وبعده، وبعد ساعتين ونصف كانت تسير بساقين مرتعشتين عبر ممرّ المستشفى، تسندها فاطمة، حتّى أشرفت على قاعة الانتظار. طالعتها وجوه واجمة: والدي هيثم وشقيقيه، بالإضافة إلى رنيم. همست في جزع:

- كيف حاله؟

أجابتها العبرات المسترسلة على وجنتي زهور، والبحّة المتحشرجة في صوتها وهي تقول في أسى:

- الدّعاء الدّعاء يا بنيّتي!

تهالكت على مقعد قريب وقد استبدّت بها الرّجفة. اقتربت رنيم واحتضنتها بقوّة، تقاسمها لوعتها وحرقة فؤادها. بعد هنيهة، أفلتتها حين شعرت بتشنّجها. رنت إليها في قلق وهي تقول:

- ياسمين.. أنت بخير؟

لقد راودها ذاك الإحساس حين وصلها صوتها على الهاتف منذ ثلاث ساعات. لم تكن بخير. كان جبينها ينزّ عرقًا باردًا، وكانت شفتاها مزرقّتين ومرتجفتين.

هبّت رنيم لتنادي إحدى الممرّضات، وحين عادت، تسمّرت نظراتها على جسد ياسمين المستسلم على المقعد، كأنّها على وشك الإغماء. لكنّ ذلك لم يكن كلّ شيء. كان هناك خيط دقيق من الدّم الأسود يسترسل تحت مقعدها ويرسم بقعة يتّسع قطرها باستمرار. هتفت في هلع:

- إنّها تنزف!

- هل بقي شيء من حلوى الفراولة؟

فتح هيثم الثّلاجة بحثا عن العلبة التي أحضرها بالأمس. كانت قد اختفت. نظر في شكّ إلى وجه ياسمين المتورّد حرجًا وذنبًا.

- هل التهمتها كلّها؟ القطع الستّ؟

عضّت على شفتيها ثمّ رسمت ابتسامة معتذرة قبل أن تتمتم:

- طار عن جفنيّ النّوم ليلًا، وشعرت بالجّوع!

- فازدردت ستّ قطع من الكعك؟

حدّق فيها غير مستوعب، ثمّ وجّه بصره إلى بطنها وهمس:

- بدأ الوحم، سترك يا رب! بنيّ، هنيئًا مريئًا لك!

ضحكت في استمتاع، ثمّ قالت:

- تناول توست زبدة الفول السّودانيّ.. أنت تحبّها!

قال متذمّرا:

- أحبّها طبعًا.. حين لا يكون هناك حلوى فراولة في الثلاجة!

جلست إلى جواره ترقبه وهو يقضم شطيرته ويرتشف القهوة من حين إلى آخر، متظاهرا بالعبوس. قالت بعد لحظات:

- هل أخبرت خالتي زهور؟

ابتسم على الفور وقد ذهب انزعاجه:

- أريد أن أخبرها وجها لوجه، في استراحة الغداء!

أومأت في رضا، فأردف:

- هل تشعرين بالغثيان؟

ضحكت وقالت:

- ليس بعد!

- تشتهين شيئا إذن؟

ابتسمت ثمّ قالت في حرج:

- حلوى الفراولة، مرّة أخرى؟

***

فتحت ياسمين عينيها مفزوعة. يغمرها إحساس بالوهن. كانت تستلقي في استسلام على سرير المستشفى، تعلوها بطانيّة حراريّة ثقيلة. عند رأسها كانت فاطمة تقف بعينين دامعتين، وهي ترتدي مريلة المستشفى الزّرقاء وكمامة طبيّة.

- حمدًا لله على سلامتك يا ابنتي!

كانت آخر ذكرى لها قبل أن تهوي في غيبوبة عميقة، الممرّضات وهنّ يهرولن ساحبات سريرها ذي العجلات، وهي مستسلمة لا حول لها ولا قوّة، ثمّ صوت طبيب التّخدير وهو يعلن في أذنها: «مضطرّون لجراحة عاجلة، ستنامين الآن».. قبل أن يطبق قناع التّخدير على وجهها.

همست بخفوت:

- عزّ الدّين؟

- إنّه بخير.. أخذوه إلى المحضنة الصّناعيّة. سترينه قريبا.

أومأت بضعف، والعبرات تتسرّب من مدامعها بلا إرادة منها. اقتربت الممرّضة لتطمئنّ إلى مؤشّراتها الحيويّة، ثمّ قالت:

- لقد انخفضت حرارتك أثناء الولادة القيصريّة، لكنّها آخذة في الصّعود الآن. استرخي قليلا بعد، ثمّ ننقلك إلى غرفتك.

- كيف هو الطّفل؟

- حصل على سبع علامات من عشرة في اختبار «أبغار» (Apgar) لحديثي

الـولادة.. وهـذا يعتـبر مرتفعـا بالنّسـبة إلى مولـود سـابق لأوانـه! أهنّئـك.. إنّـه طفـل بهـيّ الطّلعـة، وبصحّـة جيّـدة!

شكرتها ياسمين في تأثّر، ثمّ همست لفاطمة بصوت مرتعش:

- هيثم؟

هـزّت فاطمـة رأسـها في أسـف. لا شيء جديـد.. قبـل أن تنسـحب ياسـمين تدريجيّا إلى سـبات عميـق بفعـل المخـدّر الـذي مازالـت تحـت تأثـيره.

***

خـرج شـهاب مـن قاعـة العمليّـات بوجـه شـاحب وملامـح مرهقـة. هرولـت إليـه رنيـم، فهـزّ رأسـه بابتسـامة مطمئنـة:

- ذهـب الخطـر.. فلننتظر استيقاظه الآن.

بعــد دقائـق، خــرج الجــرّاح الآخــر الــذي أنهــى عمليّتــه المعقّــدة بــدوره. لكــنّ ملامحــه بــدت أقــلّ ارتياحًــا. قــال بصــوت متعــب:

- لقـد أخرجنـا الرّصاصـات كلّهـا.. وحاولنـا إصـلاح مـا أفسـدته مـن أنسـجة وأعصـاب. لكنّنـا لـن نعلـم يقينـا مـدى تأثيرهـا في وظائـف الجسـم الحيويّـة حـتّى يسـتيقظ!

لـم يسـتفض الجـرّاح في شرحـه. كانـت جراحـة طويلـة وشـاقّة. اسـتخرج خلالهـا رصاصتـين مـن الصّـدر ثقبـت إحداهمـا الرّئـة اليـسرى ومـرّت الثّانيـة حــذاء العمــود الفقــريّ، واثنتــين مــن البطــن مزّقتــا أحشــاءه، وخامســة في الكتـف فتّتـت العظـم، وسادسـة في الـذّراع ثقبـت المفصـل. كان مـن العسـير بعـد ذلـك أن يُـدلي بتصريـح دقيـق دون أن يبـثّ في القلـوب المرتجفـة مزيـدًا مـن الرّعـب.

كان مسـتوى تفـاؤل الجرّاحـين متباينـا، لكـنّ العامـل الأسـاسيّ في المسـألة واحـد.. أن يفيـق المريـض مـن تأثـير التّخديـر.

***

ساد الصّمت بينهما طويلا في غرفة الفندق. كان عقل رنيم غائبا في دهاليز أفكار متداخلة. لا يمكنها أن تجد تفسيرًا معقولا للحادثة التي تورّط فيها هيثم وعمر معًا.. بينما كان شهاب مهموما بخاطر يؤرقه مذ وقع بصره على وجه مريضه على طاولة العمليّات.

طلبا عشاءهما في الغرفة، وجلسا متقابلين، تعبث الملاعق في الصّحون بلا شهيّة. قال شهاب أخيرًا:

- هل تفكّرين في الحادثة؟

رفعت رنيم عينين قلقتين وحاولت أن تبتسم:

- أنا آسفة حقّا.. لم أتوقّع أن أفسد الإجازة بهذا الشّكل. لقد كان يومًا مرهقًا بالنّسبة إليك أيضا!

ثمّ أضافت متصنّعة المرح:

- أنا وأنت ثنائيّ متكامل، كلانا ينقذ الأرواح.. أنت في قاعة العمليّات وأنا في المحكمة!

استمرّ في صمته لحظات ثمّ قال في ضيق:

- أفهم إذن أنّ قضيّة ما تلوح في الأفق؟

قالت في استياء:

- تبدو مسألة معقّدة للغاية.. لو رأيت كيف كانت سيّارة هيثم! إنّها محاولة اغتيال صريحة.. ومن طرفٍ لا يعرف الخوف ولا يخشى العدالة!

لم ير شهاب السيّارة، لكنّه رأى حال المصابين. يعرف يقينا أنّ الحقائق لم تكشف بعد. وأنّ ما خفي كان أعظم. قال أخيرًا في رجاء:

- هل يمكن أن أطلب منك شيئا؟

رنت إليه في اهتمام، فأضاف:

- لا ترافعي في هذه القضيّة!

حدّقت فيه دهشة واستغرابًا. أيّ طلب غريب هذا؟ كيف يمكن للمحامي أن يتنصّل من مسؤوليّاته؟ لكنّها لم ترغب في الجدال. قالت في

لامبالاة وهي تعود إلى الأكل:

- لماذا تستبق الأحداث؟ لا أحد يعلم إن كانت هناك قضيّة...

ثمّ أردفت مغيّرة الموضوع:

- هل رأيت هيثم؟ كيف بدا وضعه؟

أدرك شهاب تهرّبها، لكنّه لم يلحّ.

- إصاباته كانت مباشرة.. لقد نجا من موت محقّق بأعجوبة، غير أنّه من العسير التنبّؤ بالنّتائج.. أخشى أنّه سيعاني من خسائر جسيمة.. إذا استفاق!

قالت في قلق:

- إذا استفاق؟ هل تشكّ في حصول ذلك؟

- أخشى أنّ غيبوبته قد تطول.. وكلّما طالت، تقلّصت فرص النّجاة. وإذا حدث ونجا، سيعاني من قصور في الوظائف التنفّسيّة، وربّما من شلل نصفيّ...

- يا إلهي! هيثم مريض ربو أساسًا!

- سيكون ذلك أسوأ. لن يقدر على القيام بأيّ مجهود بدنيّ ذي بال.. وستكون الحركة عسيرة. ربّما يقضي بقيّة حياته على كرسيّ متحرّك.

***

عبرت رنيم الممرّ المؤدّي إلى غرفة العناية المركّزة، ثمّ توقّفت عند مكتب الاستقبال. كانت رانيا وسكينة قد سبقتاها إلى غرفة ياسمين، بينما أخذت على عاتقها تفقّد أحوال المرضى.

- عمر الرّشيدي.. هل استيقظ؟

هزّت الممرضة رأسها نافية.

- هيثم الأندلسي؟

تكرّرت الحركة نفسها. زفرت رنيم في ضيق وقالت وهي تخرج بطاقتها

المهنيّة:

- اتّصلي بي رجاءً ما أن يستيقظ أحدهما.

ثمّ سارت حتّى غرفة الحضانة. وقفت تراقب الرضّع المعزولين في أسرّة زجاجيّة لبرهة، ثمّ سألت:

- طفل ياسمين عبد القادر؟

لم يكن أحد قد اهتمّ بتسجيل الطّفل بعد، لذلك يحمل اسم والدته. أشارت الممرّضة إلى سرير بعينه، فتطاولت رنيم لتحدّق في الرّضيع الضئيل الذي يستغرق في نوم عميق، وقد امتدّ إلى أنفه أنبوب التنفّس وإلى حلقه آخر للتّغذية. ابتسمت في عطف وهي ترقب أنامله الرّقيقة وأطرافه المنكمشة، ثمّ تنهّدت:

- لقد جئت إلى العالم في وقت حرج أيّها الصّغير!

ثمّ ابتعدت تحثّ الخطى إلى غرفة ياسمين.

كانت البنات مجتمعات هناك، يسرّين عنها ويخفّفن عن أنفسهنّ الأجواء الخانقة. هربت زهور وفاطمة إلى البيت، تدفنان مخاوفهما في المطبخ وتشغلان قلبيهما قبل أيديهما. بل لعلّ فاطمة كانت تعمل وتتحدّث، وزهور ترافقها رغم غرقها في الصّمت الحزين. تقول فاطمة وهي تحرّك القدر على النّار:

- سيكون جائعا حين يفيق.. سيحتاج أن يقتات جيّدا ليشدّ أوده. إنّه رصاص يا أختي، رصاص! يشقّ العظم واللّحم وينفذ منهما. لكنّ الطبّ الحديث يصنع المعجزات.. لم يقل الجرّاح ما يستدعي القلق.

لكنّ زهور ساهمة لا تكاد تصغي، قلبها يتمزّق جزعا على بكرها الذي قُصف عمره برصاص غادر. وهل كان ما يحصل ليخطر على بالها مهما استبدّت بها مخاوف الأمومة آنفًا؟ إنّ أقصى همومها كان حادثًا على الطّريق! تستمرّ تذكّره وتوصيه كلّما زارها في موعد غدائه أيّام الاثنين والثّلاثاء من كلّ أسبوع:

- سر على مهل وانتبه إلى الطّريق!

لكنّ الخوف لا يُجدي حين تضرب صاعقة مجنونة لا يمكن التّنبؤ أين ستنزل!

في الأثناء، تحاول رانيا أن تُضفي قليلا من المرح على الجلسة في غرفة ياسمين. هتفت في حماس:

- عزّ الدّين رقيق جدّا وظريف! متى يُخرجونه من المحضنة؟

همست ياسمين بصوت مبحوح:

- ربّما يمضي أسبوعين في المحضنة.. ريثما تنضج رئتاه.

هزّت رانيا رأسها في أسف، فقالت سكينة:

- أحضرت لك الكبّة التي تحبّينها.

شكرتها ياسمين بما قدرت من حرارة، ثمّ سيطر الصّمت من جديد. كانت تتمنّى أن تنفرد بحزنها، لكنّهنّ يأبين أن يتركنها لأنياب الكآبة تفتك بروحها.

زوجها وابنها، كلّ واحد منهما في غرفة من المشفى، وهي بثالثة. آلام الجراحة لا تسعفها لتلازم سرير أحدهما أو كليهما، تنتظر أن تتطلّع عيناه في عينيها أو يزيّن ثغره بسمة موجّهة إليها. مضطرّة إلى الرّقاد، حتّى انتهاء ساعات النّهار الأوّل بعد القيصريّة. بعد ذلك، سيكون بوسعها ترك السّرير وزيارة الأحبّة.

دخلت عليهنّ زهور وفاطمة محمّلتين بما لذّ وطاب، بينما توجّه عبد الحميد ووائل لتسجيل عزّ الدّين في دائرة الأحوال المدنيّة.

كانت فاطمة تخرج ما في قفّتها من مأكولات مغذّية للأمّ الجديدة وترصفها على المنضدة، حين ارتفع رنين هاتف رنيم. اعتذرت لتتلقّى المكالمة خارج الغرفة.

جاءها صوت الممرّضة التي غادرتها منذ نصف ساعة يقول:

- لقد استيقظ المريض!

***

ركضت رنيم في الممرّات، من قسم الولادة حتّى قسم العناية المركّزة. حين وصلت، كان الطّاقم الطبيّ يدفع سريرًا إلى الخارج. قالت الممرّضة تطمئنها:

- لقد عاينه الطّبيب منذ حين وسمح بنقله إلى غرفته!

مشت رنيم على أثرهم، وتحرّك برفقتها المحقّق الذي لقيته بالأمس. سألته وهما يسيران جنبًا إلى جنب:

- هل من جديد سيّدي المحقّق؟

- هناك نتائج أوّليّة.. سيعلن عنها رئيس شرطة «إفري» في ندوة صحفيّة بعد قليل...

- آه!

وقفا يترقّبان خارج الغرفة، ريثما تُهيّئ الممرّضات الغرفة للمريض، وقد بدا التوتّر على رنيم. حين خرجن، استأذنت لتدلف أوّلا.

كان عمر يستلقي على السّرير مغمض العينين. اقتربت لتهمس باسمه برفق، فاستجاب لندائها ورفع جفنيه المثقلين. تنهّدت في ارتياح:

- حمدًا لله على سلامتك!

قرأت الدّهشة في مقلتيه. لم يكن وجهها ضمن الوجوه التي قد يرجّح وجودها حوله حال استيقاظه. شرحت باختصار اتّصال المشفى بجورج وتفويضه المسؤوليّة إليها. جاءها صوته متحشرجا وهو يسأل في لهفة:

- هيثم؟

هزّت رأسها في ضيق:

- لم يستيقظ بعد.

عاد إلى إغماض عينيه برهة، كانت تسمع خلالها تنفّسه المضطرب. ثمّ التفت إليها فجأة وهتف كمن تذكّر شيئا:

- ياسمين؟

- لقد عرفت.. ووضعت مولودها. كلاهما بخير.

- حمدًا لله.

قدّمت نشرة موجزة بآخر الأنباء. لكنّها تحتاج منه إجابات أيضا. توضيحات بشأن الحادثة. غير أنّها تريّث. لم يكن يبدو في كامل لياقته. قالت بعد هنيهة:

- المحقّق بالخارج، يودّ استجوابك بشأن الحادثة. هل هناك ما تودّ إخباري به قبل ذلك؟

- هاتفي!

- إنّه مع الشّرطة.

- إذن.. هل يمكنك زيارة هذا العنوان (...). تسكن هناك فتاة اسمها آية، ووالدها محمّد الغزّي.. أعلميهما رجاءً بما حصل.

أومأت في تفهّم، ثمّ خرجت لتستدعي المحقّق. وقف الرّجل الخمسينيّ قبالة السّرير، وتناول دفتره ليسجّل الإجابات بشكل قديم الطّراز. قال بلهجة ودودة:

- حمدًا لله على سلامتك دكتور عمر.. أخبرني ما الذي تذكره بشأن الحادثة؟

سرد عمر على مسمعه أحداث يوم أمس الدّامية، بجمل متقطّعة، يلتقط خلالها أنفاسه من حين إلى آخر.

- هل تشكّ في أحد؟

- لا.

- هل هناك في نشاط شركة «ياسمين الأندلس» ما يستدعي عداوة جهات بعينها ؟

- لا.

- أحتاج قائمة كاملة بموظّفي الشّركة.

- هناك ثلاثة في المقرّ الرّئيسي.. غيري أنا وهيثم. المهندسون أليكس وأدريان ودامیان.. بالإضافة إلى عشرة عمّال في المستودع.. لا أحفظ

أسـماءهم!

- هل يمكن أن أحصل على قائمة بالأسماء قبل المساء؟

- بالتّأكيد.. إذا اتّصلت بالمهندس أليكس.. يمكنه أن يوفّرها.

هزّ المحقّق رأسه، ثمّ أردف وهو يبرز مجموعة من الصّور:

- هل يمكنك التعرّف على الأشخاص في هذه الصّور؟

رفعها واحدة إثر الأخرى أمام ناظري عمر. حدّق فيها بما أمكنه من تركيز واهتمام، لكنّ الملامح التي تمرّ أمامه لم تكن تعني له شيئًا. توقّف فجأة أمام صورة امرأة شقراء. هتف:

- أذكرها.. إنّها الصّحفيّة التي أجرت لقاءً معنا بشأن منتجات الشّركة!

هزّ المحقّق رأسه في اهتمام، فعاجلته رنيم:

- هل تشكّون في طرف ما؟

- نشكّ في وجود صلة بين مجموعة من الأجانب، دخلوا الاتّحاد الأوروبيّ من منافذ جويّة مختلفة.. وكان لهم حضور في الضّاحية الجنوبيّة خلال الشّهور الماضية.

رافقت رنيم المحقّق خارج الغرفة. كانت رقعة الشّكوك داخلها تزداد اتّساعًا، لكنّ المحقّق بدا متكتّمًا. قال بابتسامة وهو يشير إلى الشّاشة العملاقة في بهو المستشفى:

- النّدوة الصّحفيّة تبدأ الآن!

انتحت رنيم ركنا هادئا، وشغّلت البثّ المباشر على هاتفها. أصغت في اهتمام إلى كلمات رئيس شرطة باريس:

- المعلومات التي بين أيدينا تشير بوضوح إلى تدخّل مسلّح من المخابرات الإسرائيليّة على التّراب الفرنسيّ.. حيث استهدفت فرقة محترفة بالأمس اثنين من المدنيّين.. الفرنسيّ هيثم الأندلسي والمغربي عمر الرّشيدي. ونحن لن نقف مكتوفي الأيدي تجاه الاعتداء السّافر على السّيادة الفرنسيّة! لقد توجّهنا صباح اليوم بطلب توضيح رسميّ..

وسنفعل اللّازم بناءً على المعطيات التي ستردنا.

شحبت ملامح رنيم فجأة. غادرت مقعدها على الفور، وركضت باتّجاه غرفة ياسمين. توقّفت وهي تلهث حين أبصرت ميساء تغادر الغرفة قاصدة غرفة التّمريض. جذبتها من ذراعها وانتحت بها جانبا. قالت في لهجة حازمة:

- هيثم في حاجة إلى محامٍ.. ستكون هناك محاكمة.. لا أعلم ماذا حصل بالضّبط، لكنّهم لن ينتظروا استيقاظه.. اتّصلي بجورج، إنّه محامٍ بارع!

قالت ذلك وهي تدسّ البطاقة المهنيّة لجورج في كفّها. همهمت ميساء في فزع:

- ألا يمكنك أن تفعلي؟

- سأمثّل عمر. يحتاجان إلى دفاع منفصل لكلّ منهما.

- أنت تثيرين ذعري.. ما الذي يجري؟

- سنعلم قريبا.. حين يُعلنون لائحة الاتّهام!

أضافت محذّرة:

- لا تخبري ياسمين بعد.. حتّى تتّضح الرؤية. اجعلي والدك يتّصل بجورج.. سيكون هذا أفضل.

تركتها في حيرتها ورجعت إلى غرفة عمر. فتحت الباب في انفعال، ووقفت أمام سريره والحمم تتطاير من عينيها:

- المخابرات الإسرائيليّة! ماذا يعني هذا؟ ما الذي تورطّتما فيه؟

انفرجت شفتا عمر وهمّ بقول شيء ما، فقاطعته بإشارة من كفّها وهتفت بحزم:

- لا أريد أن أعرف!

استمرّت تذرع الغرفة جيئة وذهابا في عصبيّة، ثمّ قالت:

- ستتواصل الشّرطة الفرنسيّة مع الموساد، وسيتحصّلون على الأدلّة التي أدّت بهم إلى ترتيب عمليّة الاغتيال.. وهي أدلّة دامغة بالتّأكيد!

ثمّ ستوجّه إليكما لائحة اتّهام مرعبة.. معاداة السّاميّة أو تهديد الأمن القوميّ، أو أيّ شيء رهيب آخر.. من يدري! لكنّ المصيبة هي أنّني أشعر أنّك لن تكون بريئا هذه المرّة!

حدّقت في ملامحه الشّاحبة ونظراته الزّائغة. لم يحاول الإنكار أو الدّفاع عن نفسه.. كأنّه يقرّ في استسلام بصدق حدسها.

أخفت وجهها بين كفّيها تخنق ذعرها وجزعها. كيف تخبر ياسمين، أنّ زوجها إن هو نجا من الموت، فإنّه سيواجه حكما بالسّجن لربع قرن أو أكثر! كيف تحمل إليها فاجعة الانفصال المحتّم للولد الرّضيع عن أبيه، سواء غيّبه الموت أو السّجن؟

فرّت من المستشفى. اختارت تأجيل المواجهة مع هواجسها. كانت تعبر بهو الفندق حين رنّ هاتفها معلنا اتّصالا من جورج.

- جاءني اتّصال من شخص ادّعى أنّه من طرفك.

- عبد الحميد الأندلسي؟

- نعم، هو بعينه.. ما حكايته؟ لم تكن كلماته واضحة.

- ابنه كان برفقة عمر الرّشيدي حين تعرّضا إلى إطلاق نار.. من طرف عملاء المخابرات الإسرائيليّة.

- يا إلهي!

- نعم، أعرف.. ستكون قضيّة ضخمة ومرعبة. هل أنت مستعدّ لمواجهة كابوس أسود مرّة أخرى؟

أطلق جورج ضحكة استمتاع وهو يقول:

- تعلمين أنّ هذه القضايا تثيرني، ولا تخيفني أبدًا.

- شكرا لك جورج. هيثم الأندلسيّ، إنّه زوج صديقة عزيزة عليّ.

- فهمت. سنفعل ما بوسعنا.

أنهت الاتّصال ثمّ ركبت المصعد. دلفت إلى الغرفة وهي تهتف محاولة إضفاء المرح على صوتها:

- عزيزي.. لقد عدت!

فوجئت بشهاب، يجلس في الصّالة وقد ارتدى ثيابه كاملة، وإلى جواره حقيبة سفره. حدّقت فيه غير مستوعبة:

- ما هذا؟ ما الذي تفعله؟

نظر إليها في حزن، وقال:

- لقد تابعت الأخبار منذ الصّباح. ستكون هناك قضيّة أليس كذلك؟

رفعت رأسها إلى السّقف، ثمّ أطلقت تنهيدة حارّة، وتقدّمت لتجلس إلى جواره. قالت في رفق:

- نعم بالفعل. أتوقّع لائحة اتّهام مفجعة. لن تكون قضيّة هيّنة!

- وأنت ستمثّلين عمر الرّشيدي؟

انتبهت إلى الحدّة في صوته. لقد حرصت على ألّا تأتي على ذكره أبدًا في حضوره. لكنّها تدرك بنظرة واحدة أنّه «يعرف كلّ شيء» كما أعلن منذ سنوات على الهاتف، حين أقنعها بالخروج من عزلتها. لا تدري كيف أسند اسمًا لصاحب القصّة الغامضة التي لم تخبر بها صراحة. ربّما بعد اللّقاء التّلفزيّ؟ كلّ ذلك لم يعد مهمًّا. إنّه يعرف، ويعبّر عن غيرته بصراحة. قالت بهدوء:

- أنت جرّاح، وتعرف أنّ شرف المهنة يقتضي ألّا تفرّ من ساحة المعركة أبدًا.. خاصّة حين يكون المريض في حاجتك! وهذا ينطبق على مهنة المحاماة أيضًا. لا يمكنني التخلّي عن موكّل يحتاجني!

- فليمسك جورج القضيّة! ألم يفعل من قبل في غيابك؟

- جورج سيمثّل هيثم.. من المحتمل أن يكون هناك تضارب مصالح. لذلك يحتاجان دفاعًا منفصلًا.

قال في جفاف:

- إذن لن تتراجعي عن الدّفاع عنه؟ ألا يمكنكما تبادل المواقع أنت وجورج؟

هتفت في رجاء:

- شهاب.. أرجوك. لا أعلم لماذا تحاول إملاء رغباتك في ما يخصّ عملي! هل أتحكّم أنا في قائمة مرضاك؟ من يستحقّ أن تجري جراحة عليه أم لا؟

قال في سخرية:

- أنت تفعلين ذلك بالفعل.. تجعلينني أجري الجراحة على من تريدين!

امتقع وجهها وتصلّبت ملامحها. قالت في أسى:

- لقد أنقذتَ روحًا، قمتَ بعمل إنسانيّ.. هل أخطأتُ في استدعائك وطلب معونتك؟ هل كان علينا أنا وأنت أن نتركه يموت؟

أطرق شهاب وزفر في إعياء:

- لم أكن أقصد ذلك. لقد تجاوزتُ الحدّ.. أعتذر.

ثمّ أردف بلهجة حاسمة:

- لكنّ هذا لن يغيّر موقفي. ليست مسألة حياة أو موت الآن. إن أصررت على تمثيل عمر الرّشيدي مرّة أخرى.. فلن تريني مجدّدا!

وضع كفّيه في جيوبه في حركة صارمة، وأشاح بوجهه عنها. ترقّب ردّها لثوانٍ، ريثما قالت رنيم بصوت منكسر:

- كم أنت قاسٍ.. صدّقني الأمر لا يستحقّ!

- إنّه يستحقّ، في نظري.

ثمّ سار في اتّجاه الباب، ساحبًا حقيبة سفره بخطوات مصمّمة، وتوارى خلف الباب المغلق.

انهارت رنيم على الأريكة، وهي لا تكاد تستوعب.. أنّ أسوأ مخاوفها، قد غدا واقعًا.

«لا أخبار، إذن أخبار جيّدة».

في كلّ مرّة اتّصلت بها ياسمين بوالدها، تسأل عن أخباره وأخويها، كان يكرّر المثل الفرنسيّ بتلك اللّامبالاة المعهودة لديه.

لم تكن العلاقة التي تجمع بينهما حميميّة إلى درجة كبيرة، ولا تشبه العلاقات الكلاسيكيّة التي تصل الآباء بأبنائهم. لم يكن له دور يُذكر في نشأتها، لكنّها ما تفتأ تذكّره بواجبه تجاهها.. هكذا يرى برّها.

غالبا ما تكون الاتّصالات من طرفها، ولم تكن تتجاوز الدّقيقتين في أحسن الأحوال. سؤال روتينيّ عن الصّحة والعمل والأخبار.. لكنّه يعترف أنّ اتّصالاتها -ولو كانت من قبيل الواجب- فإنّها تسرّه، بل تشعره بالأهمّيّة.. فقد رُزق من بعدها بشابّين، مازال يطاردهما باتّصالاته حتّى لا يُسقطاه من حياتهما!

يقول بنبرته الفلسفيّة العميقة:

«الخبر السيّء يسافر بسرعة. إذا لم يصلك عنّا نبأ، فهذا يعني أنّنا جميعا على خير حال».

خلال يومين، كان خبر الحادثة قد انتشر في الآفاق، حتّى وصل إلى كلّ المعارف والأقارب. في الصّباح، تسارعت خطوات الزّائرين في ممرّات المستشفى. وصل سامي كلود من ليون، بعد أن اتّصل به عبد الحميد لينبّئه بولادة ابنته وإصابة زوجها.

قبل ذلك، كان ريّان قد اتّصل في صدمة، يعلمه أنّ خبرًا غريبا يُعرض في نشرة المساء.

«رجل يحمل اسم زوج ياسمين.. أصيب بطلق ناريّ على يد المخابرات!».

بـدا ذلـك أشـبه بمزحـة ثقيلـة وسـخيفة. تسـاءل في سـخرية، لمـاذا يفكّـر ريّـان في تدبـير مقلـب لـه مـن هـذا النّـوع؟ إنّ ذلـك ليـس مسـليّا حـتّى! ومـع ذلـك، فقـد كلّـف نفسـه مشـقّة التّقليـب في القنـوات التّلفزيّـة، ليقـف عـلى حقيقـة الأمـر. لـم يسـتمرّ بحثـه طويـلا، فقـد كان الخـبر العاجـل يلقـى تغطيـة كثيفـة مـن مختلـف المحطّـات. جلسـت ناتاشـا إلى جـواره وهتفـت:

- ما هذا؟

أجابها بشرود:

- حادثة إطلاق نار على مدنيّين في باريس.

- إطلاق نـار مـن طـرف واحـد؟ هـذا ممـلّ.. يجـب أن تشـاهد أفـلام المافيـا الرّوسـيّة.. إطـلاق النّـار يكـون مـن كلّ اتّجـاه هكـذا...

ثمّ أخذت تقلّد صوت الطّلقات وتشير بيديها مثل الأطفال وتضحك.

كان يكـرّر في كلّ مناسـبة، أنّ مـا يشـدّه إليهـا هـي روح الدّعابـة وخفّـة الظـلّ لديهـا الـتي تُحسّـن مزاجـه، لذلـك تحـرص عـلى أن تكـون نكتتهـا جاهـزة في كلّ موقـف، حـتّى لا يملّهـا. وكانـت قـادرة عـلى جعلـه يضحـك بـلا توقّـف دون جهـد، حـتّى حـين تتكلّـم بتلقائيّـة بلكنتهـا الرّوسـيّة المعوجّـة.

لكـنّ سـامي لـم يبـد متجاوبًـا ولا مهتمًّـا بمزحتهـا ذلـك اليـوم. رمقتـه في اسـتغراب حـين تركهـا ووقـف مسـتأذنا ليـردّ عـلى اتّصـال صهـره، وقـد غلـب عـلى مزاجـه العبـوس.

قـاد سـيّارته وحيـدًا هـذه المـرّة، فلـم يكـن الوضـع يحتمـل سـخافات ناتاشـا وملاحظاتهـا الخرقـاء. هكـذا، انقلبـت دعاباتهـا المسـليّة عـادة إلى عـبء لا يسـعه احتمالـه في ذلـك الظّـرف. جـاء محمّـلا بباقـة ورود ضخمـة للمصـاب -فهـو لا ينـسى الواجـب حـتّى في أحلـك الظّـروف- وطقـم ثيـابٍ للوليـد، وعلبـة حلويّـات فاخـرة لـلأمّ.

عـرّج عـلى غرفـة العنايـة المركّـزة أوّلا، ليلقـي نظـرة عـلى هيثـم الـذي لا يُبـدي حـراكا بعـد. حـدّق فيـه في أسـف، ثـمّ أخـذ يـواسي عبـد الحميـد:

- الواحد منّا يظنّ أنّه قد حقّق كلّ ما يتمنّى، حين يكبر أولاده، يتزوّجون ويجدون وظائف مناسبة.. لكنّ الحياة دائما تخفي ما لا يخطر على قلب أحد منّا! من كان يعتقد أن هيثم الشابّ الرّصين العاقل، قد يتورّط في حادثة من هذا النّوع؟

أصغى إليه عبد الحميد في صمت وعجز. لم يكن يستوعب بعد حقيقة الأمر. لقد تحدّث بالأمس إلى المحامي، فأفزعته الاحتمالات المرعبة. هكذا.. فجأة، يتحوّل ولده البارّ والمثاليّ إلى مطلوب للعدالة!

وصلا عند غرفة ياسمين، فطرق سامي الباب، ثمّ دلف وقد علت ملامحه الكآبة. كانت الهدايا كلّها من نصيبها في نهاية الأمر، فلا هيثم ولا عزّ الذّين يستقبلان الزّوّار!

وقف الرّجلان في صمت، بينما تتحرّك زهور وفاطمة حول سرير النّفساء، تحضّران طعامها وتساعدانها على الأكل، ثم ينزوي كلّ واحدٍ من أربعتهم في ركنه على أحد المقاعد، تعلو ملامحه علامات وجوم وسهوم.

يقطع سامي الصّمت من حين إلى آخر، لينطق بحكمة عميقة جادت بها قريحته الفلسفيّة الفذّة:

- لا تستلمي للكآبة.. هل تعلمين أنّ الرّضيع يشعر بوالدته ويتسرّب إليه حزنها ؟

مطّت فاطمة شفتيها وهي تقول في تهكّم :

- كيف عرفت؟ أم تراك قد جرّبت في وقت ما الاهتمام برضيع؟

تبادلا نظرات ناريّة محمّلة برسائل اللّوم من الجانبين. ثمّ قال سامي في غيظ:

- لقد قرأت ذلك في مجلّة...

أزاحت ياسمين الغطاء عنها ونهضت مغادرة السّرير. قالت وقد أثقل الجوّ الخانق على صدرها:

- سأذهب إلى عزّ الدّين.

لـم تنعـم بفرصـة إرضاعـه طبيعيّـا، نظـرًا لضعـف بنيتـه وعـدم قدرتـه عـلى التقـام الثّـدي. لكنّهـا تحـرص عـلى اسـتخدام مضخّـة كهربائيّـة لاسـتخراج حليبهـا، كلّ سـاعتين، فيتغـذّى عليـه رضيعهـا بمحقنـة تصـبّ في معدتـه مباشرة. كانـت مهمّـة شـاقّة، تضيـف إلى حملهـا النّفسـيّ والجسـديّ عنـاءً مـن نـوع آخـر. ومـع ذلـك، فإنّهـا تبـدو متماسـكة أكـثر منهـم جميعًـا.

سـارت بهـدوء عـبر ممرّات المستشـفى، حتّى الحضانـة، ومشى عـلى إثرهـا الكهـول الأربعـة، مثـل حاشـية كئيبـة. كانـت تتمنّـى أن تصرفهـم بـأيّ طريقـة، حـتّى تنفـرد بطفلهـا.. وتخلـو بنفسـها، فتـترك العنـان لدموعهـا. لكنّهـا مجـبرة عـلى الجلَـد في حضورهـم، مرغمـة عـلى ابتـلاع غصّتهـا ووضـع قنـاع الثّبـات.

حـين وصلـت إلى الحضانـة وأبـصرت صغيرهـا، انفرجـت أسـاريرها عـلى الفـور. كان هنـاك شيء آسر في ذلـك الكيـان الضّئيـل والهزيـل، يجعـل روحهـا تشـعّ محبّـة وهيامًـا. ذلـك الكائـن ينتمـي إليهـا، وهـي تنتمـي إليـه. لقـد كان جـزءًا منهـا حـتّى وقـت قريـب، ولعلّـه كان ليسـتمرّ في جوفهـا أسـابيع بعـد، لـولا الفاجعـة. لذلـك ينفطـر فؤادهـا لـذاك الانفصـال القـسريّ الـذي لـم تتحـضّر لـه كمـا ينبغـي.

دخلـت بمفردهـا إلى غرفـة الحضانـة، بينمـا تابعتهـا أزواج عيـون أربـع مـن وراء الزّجـاج. اسـتقبلتها الممرّضـة بابتسـامة، وسـاعدتها عـلى رفـع عـزّ الدّيـن بـين ذراعيهـا. كانـت تحمـل زجاجـة حليبهـا في وعـاء حافـظ، اسـتلمتها منهـا الممرّضـة ودوّنـت عليهـا اسـم الرّضيـع، تاريـخ اليـوم والتّوقيـت، ثـمّ ضمّتهـا إلى رفيقاتهـا في الثّلاجـة.

جلسـت ياسـمين عـلى المقعـد المهيّـأ لاسـتقبال الأمّهـات الزّائـرات. فتحـت أزرار قميصهـا بعيـدًا عـن الأعـين، ثـمّ تركـت الطّفـل ينزلـق عـلى جلدهـا، يتكـوّر عـلى نفسـه في وضـع الجنـين ويلتصـق بهـا ويسـتكين.. تشـعر بدفئـه وهـو يلامـس بشرتهـا ويُلصـق وجنتـه الملسـاء الغضّـة بهـا، وأناملـه الرّقيقـة تتسـلل لتخمشـها فيمـا يشـبه الدّغدغـة.

كان بوسعها أن تنسى العالم وكآبته، وكلّ ما يترصّدها من آلام خلف الباب المغلق، وتستغرق في لحظات وداعة هشّة وثمينة، تدفع أيّ ثمن لتستمرّ إلى الأبد.

***

وقفت رنيم أمام باب الشّقّة الواقعة في الطّابق الأرضيّ وقرعت الجرس. مرّت لحظات طويلة قبل أن تُشرع الدّفّة وتظهر شابّة في منتصف العشرينيّات، ترتدي جلبابا بنيّا وحجابا عريضا. كانت جميلة، بيضاء البشرة وعيناها خضراوان. تأمّلتها رنيم في اهتمام، وفي ذهنها راحت تعقد مقارنات ومفاضلات معقّدة وبلا فائدة.

- آنسة آية؟ أنا رنيم شاكر.

بدت في عيني آية لمعة مفاجئة، كأنّها تعرّفت إليها. هتفت على الفور:

- أهلا بك، أستاذة رنيم.

أوسعت لها مدخلا وهي تضيف:

- تفضّلي أرجوك. فلنتحدث بالدّاخل.

أدركت رنيم أنّها تعرّفت إليها من خلال حلقات برنامج «الحقيقة الكاملة». بات عليها أن تتعايش مع واقع شهرتها، وكونها وجها مألوفا يعرفه القاصي والدّاني. تبعت مضيّفتها على مضض إلى مجلس داخليّ. كانت تستعجل إيصال الرّسالة والرّحيل، فلا وقت لديها تضيّعه. لكنّها استجابت إلى الدّعوة وقد تحرّك داخلها فضول تجاه فتاة عمر الجديدة.

حين جلستا متجاورتين على الأرائك المنخفضة، أنشأت آية تقول في قلق وهي تفرك طرف ثوبها:

- هل من جديد عن عمر؟ لقد تابعت نشرات الأخبار.. ما حصل لا يُصدّق. أنت تعرفين كيف هو الآن؟

أومأت رنيم بابتسامة مطمئنة، ثمّ قالت:

- لقد كانت الجراحة ناجحة.. وحالته مستقرّة الآن.

رفعت آية كفّيها إلى وجهها وهتفت في تأثر وهي تغالب دموعها:

- حمدًا لله! كم أنت كريم يا ربّ!

حبست رنيم ضحكة ساخرة أوشكت أن تفارق حلقها، وهي ترقبها بنظرة امتعاض. لم تكن لتصدّق أنّ صنف عمر المفضّل سيكون ليّنا ورقيقا إلى درجة تثير الغثيان. ما الذي جذبه في كتلة النّعومة تلك؟ قالت وهي تحاول الابتسام:

- هذا رقم عنوان المستشفى ورقم غرفته.. إن رغبت في زيارته.

أخذت آية منها القصاصة في امتنان. ثمّ همست في اعتذار:

- لقد كلّفت نفسك عناءً كبيرًا.. لا شكّ أنّك مشغولة!

- لا بأس.. لقد طلب منّي الدّكتور عمر إسداء معروف له، وهذا أقلّ ما نفعله في هذه الظّروف الصّعبة.

- هل تشربين الشّاي؟

اعتذرت رنيم بلباقة، ثمّ انصرفت. وهي تمشي في اتّجاه سيّارتها التي ركنتها عند المفترق، لازمها إحساس غريب بالضيق. فاقت آية توقّعاتها، من حيث درجة الجمال والرّقّة، وأثارت حفيظتها بتعبيرها السّافر عن مشاعرها.

طردت ترسّبات الكدر التي رانت على قلبها، وضغطت بعنف على مزوّد السّرعة لتنطلق عبر الشّوارع. إنّها لا تغار! لا يمكنها ذلك. لعلّه ميلها الفطريّ لتقييم معدن البشر الذين تقابلهم، وهي لا تشعر بالارتياح تجاه الفتاة.

قصدت الفندق أوّلا. لم تترك الغرفة بعد مغادرة شهاب. حسبت أنّه قد يغيّر رأيه ويرجع. حاولت الاتّصال بهاتفه، لكنّه تجاهلها، وظلّت محاولاتها بلا ردّ. انتظرت حتّى مساء اليوم التّالي. لكنّه لم يظهر.

انهمكت في جمع حاجياتها وقد تملّكها الاستياء. هل يكون غيّر موعد رحلته وسافر بالفعل؟ لم تكن على موعد مع «شهر عسل» جديد هذه

المرّة. تحوّلت الإجازة إلى كابوس حقيقيّ. كان بوسعها التّنازل والاستجابة لطلبه لتحفظ الودّ بينهما، لكنّ العناد طبع متأصّل فيها. كان في كلماته شبح اتّهام حزّ في خاطرها.. فتصرّفت باندفاع! هل تثبت تلاشي تعلّقها السّابق بعمر هكذا أم تزيد الطّين بلّة؟ لم تشأ أن تكون في موضع دفاع، فتمسّكت بحقّها في استلام القضايا التي تراها مناسبة. تدرك الآن مدى غباء خطّتها، لكنّ وقت التّراجع قد مضى. لا يمكنها أن تستسلم لرغبة شهاب الآن، فتثبت صحّة ظنونه ضمنيّا!

دخلت الشقة وهي تسحب حقيبة سفرها. رمقتها رانيا وسكينة في دهشة لا تخفيانها.

- ما الذي جاء بك؟

بادرتها شقيقتها التي يروقها استئثارها بالغرفة في غيابها. لوت شفتها السّفلى في امتعاض، وسارت حتّى باب الغرفة. قالت مغالبة ضيقها:

- رحل شهاب.

- هل تشاجرتما؟

تجاهلت أسئلة رانيا الفضوليّة واللّجوجة، ودخلت لتغلق عليها الباب. لحقتها رانيا. وقفت على مقربة من سريرها وهمست:

- بسبب عمر؟

رفعت رنيم رأسها مبهوتة. هل كانت حياتها كتابًا مفتوحًا إلى تلك الدّرجة بالنّسبة إلى شقيقتها؟ أم أنّ أمرها مفضوح للجميع، منذ البداية؟ قالت متمالكة نفسها:

- لماذا تقولين هذا؟

هزّت رانيا كتفيها ثمّ قالت:

- لقد جعلته يجري جراحته، ثمّ انشغلت في المستشفى طوال الوقت.. ألا ترين أنّك قد أهملته؟

كانت الحقيقة صفعة قاسية خاصّة وهي تتلقّاها من شفتي رانيا.

زفـرت في إعيـاء وقالـت:

- أحتاج إلى بعض الوحدة، رجاءً.

حـين غـادرت رانيـا، حاولـت الاتّصـال بـه مـرّة أخـرى. لكـنّ هاتفـه كان مغلقـا. لبثـت تتأمّـل الشّاشـة المطفـأة في شرود. هـل تكـون قـد دقّـت المسـامير في نعـش زواجهـا بنفسـها، دون أن تـدري؟

***

سـارت رنيـم برفقـة جـورج في ممـرّ المستشـفى في سـكون. كانـت شـاردة منذ غـادرا المكتـب، تـردّ بعبـارات مختـصرة، وتلـتزم الصّمـت معظـم الوقـت. سـألها جـورج وقـد أهمّـه أمرهـا:

- هل أنت متعبة؟ تبدين شاحبة اليوم!

ابتسمت لتبدّد شكوكه وقالت بثقة:

- لا تخف عليّ.. أنا بخير.

طـوال الطّريـق، كانـت كلمـات شـهاب تـرنّ في أذنيهـا في إلحـاح. فتتعـالى بداخلهـا أصـوات متداخلـة.. تـارة يعلـو صـوت كرامتهـا، يقنعهـا بأنّهـا تفعـل الصّـواب. كان عليهـا أن تفصـل حياتهـا الشّـخصيّة عـن المهنيّـة، وزوجهـا لا يحـقّ لـه نقـاش مـن تنـوب وعمّـن تدافـع! ثـمّ تهـدأ ثائرتهـا حـين يتسـلّل همـس العقـل.. عليهـا ألّا تتسـرّع فتخسـر زوجهـا، مـن أجـل قضيّـة مثـل كلّ القضايـا!

لكنّهـا تنتبـه عـلى صـوت الحقيقـة السّـاطعة: إنّهـا ليسـت قضيّـة مثـل كلّ القضايـا!

دلفـا إلى الغرفـة وجلسـا عـلى مقعديـن متجاوريـن، قبالـة عمـر، ثـمّ أعلنـت رنيـم بدايـة الجلسـة:

- فلنحـاول أن نربـح بعـض الوقـت.. قريبـا سـتصبح الاتّهامـات واقعًـا.. لذلـك نريـد أن نسـبقهم بخطـوة، ونحـضّر خطّتنـا الدّفاعيّـة.

أومأ جورج وهو يقول:

- سـيكون دفاعنـا مشـتركًا مـا أمكـن ذلـك، لكنّـني أخـشى أن نضطـرّ إلى الانفصـال في حـال فرّقـوا صفوفنـا، بتقديمهـم لمتّهـم رئيـسيّ وآخـر ثانـويّ.

أمّنت رنيم على قوله، وهي تستطرد:

- حـتّى الآن لا نعـرف فحـوى الملـفّ الـذي بحوزتهـم.. برأيـك، مـا الـذي يعرفونـه وقـد يسـتخدمونه ضدّكمـا؟

تمهّل عمر قليلا، ثمّ أنشأ يقول:

- لقـد زارتنـا تلـك السـيّدة الشّـقراء في مكتـب الشّركـة.. وأجـرت حـوارات صحفيّـة مـع الجميـع.. هيثـم وأنـا، والمهندسـين.

صمت لبرهة، ثمّ أضاف:

- لا شـكّ أنّ تحـرّكاتي الجويّة والبرّيـة معلومـة لديهـم، فالأختـام الـتي عـلى جـواز السّـفر واضحـة.. أمضيـت تسـعة أشـهر في سـوريا، وأسـبوعين في غـزّة.

تغيّرت ملامح رنيم وهي تسأله:

- هل لهذا علاقة بنشاط الشّركة؟

- كان ذلـك قبـل بـدء الشّراكـة بيـني وبـين هيثـم.. لكنّهـا البدايـة لفكـرة المـشروع، حيـث حصلـت عـلى تصميمـات طائـرة التجسّـس مـن المقاومـة الفلسـطينيّة، ثـمّ عملـت عـلى تعديلهـا وتطويرهـا.

وقفت رنيم فجأة وقالت:

- جـورج، هـل يمكنـك مغـادرة الغرفـة قليـلا.. أحتـاج إلى الحديـث مـع مـوكّلي بشـكل خـاصّ!

بُهـت الاثنـان، لكـنّ أحدهمـا لـم يعـترض. أغلقـت البـاب ثـمّ رجعـت في اتّجـاه عمـر. همسـت في قلـق:

- لقـد حسـبت هيثـم المتّهـم الرئيـسي.. كونـه مديـر الشّركـة، وإصاباتـه توحـي بأنّـه المسـتهدف! لكـنّ مـا ذكرتـه منـذ حـين يـضرب بتوقّعـاتي عـرض الحائـط!

قال عمر ببساطة:

- أنت لم تسألي.. وأنا لم أنكر. أنا المسؤول الأوّل عن المشروع. هيثم تعاون معي، أنشأ الشّركة باسمه.. لأنّه فرنسيّ الجنسيّة. في حين أنّني واجهت صعوبات جمّة مع الإدارة الفرنسيّة في وقت سابق. ثمّ عمل على البرمجة الخاصّة بتوجيه الطّائرة بدون طيّار.. لكنّني كنت الواجهة بالنّسبة إلى التّواصل مع المقاومة الفلسطينيّة.. وهو لم يكن يعرف أحدًا منهم!

زفرت رنيم في ضيق. هذا يقلب الوضع رأسًا على عقب. تعلم أنّ عمر لن يُحاول تزييف الحقائق إذا وُوجه بها في المحكمة، وسيفعل ما بوسعه لتحمّل المسؤوليّة كاملة ورفع العبء عن صاحبه. قالت في تحذير:

- لا تعترف بكلّ شيء هكذا أمام المدّعي العام والمحقّقين! دع لي مجالا لأضع خطّة دفاع مناسبة! أنت لا تريد أن تُمضي بقيّة حياتك خلف القضبان، هل تريد؟

قال في مرارة:

- لا أريد أن يدفع شخص آخر ثمن ما اقترفته يداي.. هذا كلّ ما في الأمر! يكفي ما طاله من أذى جسديّ حتّى الآن...

قاطعته رنيم في حدّة:

- في الوقت الحالي، الزم الإنكار.. أنت لا تعرف شيئا! إن سألوك عن نشاط الشّركة، يمكنك الرّدّ.. إن تحدّثوا عن تنقّلاتك إلى سوريا وغزّة، جد أعذارًا أخرى.. التّجارة مثلا! التّسويق لمنتجات الشّركة! لا تضع على عاتقك أيّ مسؤوليّة. وإذا ألحوا، الزم الصّمت!

- لكنّني أكون قد رميت المسؤوليّة على هيثم!

- لا تقلق على هيثم.. لديه محامٍ بارع يدافع عنه!

قالت ذلك، ثم دعت جورج إلى الدّاخل.

- هل انتهيتما؟

- انتهينا هنا.. لكنّني أحتاج منك خدمة. أرجو أن تنسى ما قيل قبل حين عن تصاميم الطّائرات الموجّهة، والتّواصل مع المقاومة!

حدّق فيها جورج لبرهة، ثمّ هزّ رأسه وهمس:

- فهمت. لم أسمع شيئا بهذا الصّدد.

- ممتاز. يمكننا أن نستأنف المقابلة إذن.

قاطعها عمر بشكل مفاجئ وهو يقول:

- قبل أن نخطو أبعد.. جورج، أريد منك أن تمثّلني في هذه القضيّة!

تسمّرت رنيم مكانها في دهشة وارتباك، بينما لم تكن مفاجأة جورج تقلّ عنها وهو يقول في انصياع:

- إن كانت هذه رغبتك.. فلا مانع لديّ.

ثمّ حوّل بصره إلى رنيم التي بدت مصدومة رغم ثباتها الظّاهريّ. قالت بصوت مهتزّ:

- طبعا.. هذا خيارك في نهاية الأمر. لكن.. هل لي أن أعرف السّبب؟

ابتسم عمر وهو يقول:

- سأشعر بالارتياح إن دافعت عن هيثم بالشّراسة التي عهدتها فيك!

تعالى لغط خارج الغرفة على حين غرّة، وتدافعت خطوات ثقيلة في الممرّ، قبل أن يقتحم المدّعي العامّ الجلسة وبرفقته عدد من رجال الأمن. تطلّع إلى رنيم وجورج بابتسامة وقال بلهجة ساخرة:

- أستاذة رنيم شاكر، سعدت برؤيتك.. المحامية «النجمة» لا تفوّت القضايا المميّزة.. هذا مؤكّد!

ثمّ تحوّلت نظراته إلى عمر وهو يردف بنبرة صارمة:

- دكتور عمر الرّشيدي، أنت رهن الاعتقال، بتهمة التّعاون مع جماعة إرهابيّة.. من حقّك الاحتفاظ بالصّمت، لأنّ كلّ كلمة تقولها قد تستخدم ضدّك في المحكمة.. من حقّك الحصول على دفاع، ويبدو لي أنّ لديك

محاميـين اثنـين هنـا.. أيّكمـا يمثّـل المتّهـم؟

تصدّى جورج على الفور:

- أنا.

- جيّــد.. ســنحدّد موعــدًا لاســتجواب المتّهــم قريبـًا. ونظــرًا للظّــروف الصحيّـة، سـنضع حراسـة عـلى الغرفـة.. حـتّى يسـمح الطّبيـب بتسريحـه. في الأثنــاء، يمكــن للمتّهــم تلقّــي الزّيــارات المعتــادة.

حيّاهمـا بحركـة مـن رأسـه ثـمّ اسـتدار عـلى عقبيـه. أشـار إلى رجلـين بالبقـاء عنـد البـاب، بينمـا ابتعـد برفقـة بقيّـة أتباعـه.

همس جورج إلى زنيم:

- اذهبي.. إنّهم يتّجهون إلى غرفة هيثم!

***

رغـم عـدم ارتياحهـا إلى مـا آلـت إليـه الأمـور، فإنّهـا شـعرت بالاسـترخاء وهـي تركـب سـيّارتها نهايـة النّهـار. لقـد كانـت أعصابهـا مشـدودة طيلـة الوقـت. قـدوم المدّعـي العـامّ أدّى إلى تسـارع الأحـداث.. وهـي قـد وجـدت نفسـها تمثّـل هيثـم في نهايـة المطـاف! لـم تكـن تلـك رغبتهـا الصّميمـة، لكـنّ النّتيجـة مناسـبة مـن أكـثر مـن زاويـة.

زارت ياسـمين في غرفتهـا في قسـم الـولادة، ثـمّ -أثنـاء فحـص الطّبيبـة لياسـمين- شرحـت الوضـع أمـام والـدي هيثـم باختصـار. سـتكون هنـاك محاكمـة، وهـي سـتدافع عـن هيثـم. ثـمّ حاولـت الاتّصـال بشـهاب مـرّة أخـرى، وحـين لـم يصلهـا ردّ كالعـادة، كتبـت إليـه رسـالة.

«لن أدافع عن عمر في هذه القضيّة».

حسـبت أنّ ذاك القـرار -وإن لـم يكـن قرارهـا- سـيؤدّي إلى عـودة الميـاه إلى مجاريهـا. فـذاك كان مطلبـه الوحيـد، وسـبب رحيلـه!

في مخيّلتهـا، كانـت حياتهـا جـزءًا لا يتجـزّأ مـن «قصـص الجنيّـات» الـتي تُـروى عـلى مسـامع الأطفـال، حيـث كلّ شيء مبالـغ فيـه، مميّـز وسـاحر.

كانت ترفض العلاقات البسيطة والأحداث الرّتيبة، وتبحث عن الإثارة بلا هوادة. وقد عاشت تلك المشاعر المتأجّجة، في وقت ما، تجاه ميشال، فأهدته قطعة من جسدها، لينتهي عند قدميها وبين كفّيه باقة حمراء، بحجم فترة فراقها. ثمّ حسبت قصّة «المتّهم والمحامية» مصيرها المحتوم، فعاشت الدّور بانغماس تامّ، حتّى تبدّد السّراب فجأة. ثمّ كان لقاؤها وشهاب تجسيدًا لمتلازمة «فارس الأحلام» التي تسكن لا وعيها. وإن فشلت في إبداء مشاعر حبّ حقيقيّة رغم محاولاتها، فإنّها قد حظيت بكلّ ما ترنو إليه بطلات الحكايات: خاتم ماسيّ فاتن، حفل زفاف فاخر، شهر عسل مذهل، وأمير وسيم يقع في حبّها من أوّل نظرة، ويمضي حياته متيّمًا متفانيًا في إرضائها. لذلك فإنّها لم تشكّ قطّ في استمرار عاطفته تجاهها، مهما ندّ عنها من تصرّفات غير مسؤولة.

كانت في قرارة نفسها تضمن بقاء شهاب إلى جوارها.. إلى الأبد!

بعد دقيقتين، رنّ هاتفها. ابتسمت وهي تطالع رقم شهاب. كانت محقّة. هتفت في لهفة:

- أين أنت؟

لكنّ شهاب فاجأها بصوته البارد:

- ما الذي جعلك تغيّرين رأيك؟

- ما المهمّ في هذا؟ لقد غيّرت رأيي وانتهى الأمر.

- هل كانت تلك رغبتك؟ أم أنّك أجبرت على ترك القضيّة؟

ساد الصّمت لثوانٍ قبل أن يقول شهاب بلهجة ساخرة:

- هذا ما ظننته!

حافظت رنيم على ثباتها وهي تردّ:

- لقد سارت الأمور وفق هواك.. وهذا يفترض به أن يحلّ المشكلة.. أليس كذلك؟

- لا يا حبيبتي.. هذا لا يحلّ المشكلة! هذا يجبرني على أخذ موقف أكثر

صرامة.. لأنّ الخيبة تغمرني! أنت لم تفعلي شيئا لإرضائي.. وتتوقّعين منّي الرّضا؟ بهذه البساطة؟

زفرت بقوّة، وتردّد نفس عميق في صدرها. بعد لحظات، كانت رنيم تقول في لين، محاولة تخفيف حدّته التي باتت تخشاها:

- ما الذي يرضيك إذن؟

- أن تتركي العمل في باريس.. أن نستقرّ معًا في القاهرة، مثل أيّ زوجين طبيعيّين، يتقاسمان تفاصيل الحياة الحقيقيّة لا قشورها!

سيطر عليها الذّهول. لقد أطلق العنان لعفريت القمقم. أصبحت مخاوفها تقف إزاءها، ترهبها وتملؤها رعبًا.

- لم يكن هذا اتّفاقنا...

- لم يكن.. صحيح. كنت أحاول طيلة سنة ونصف أن أكسبك إلى صفّي.. أن أجعلك تقتنعين تلقائيًا وتدريجيًا بمعنى الحياة كاثنين، لا كفرد منطلق وحرّ. لكنّني أقف اليوم لأعلن استسلامي.. لقد أخطأت في تقديري. هذه الحياة ليست ممكنة. هذا الاتّفاق كان خطأ منذ البداية. وهذه فرصتنا للتّصحيح...

تنزل كلماته واحدة إثر الأخرى مثل الصّاعقة. التّصحيح؟ ما الذي قصده تحديدًا؟ الفراق؟ الانفصال؟

تابع بلهجة أكثر لينًا:

- رنيم بربّك.. ألا تريدين عائلة حقيقيّة؟ أنا أريد! أريد طفلة تشبهك.. أريد أولادًا يملؤون حياتنا بهجة. فكيف نحقّق أحلامنا بالذرّيّة ونحن غريبان يلتقيان في فندق كلّ حين وآخر؟

قالت في اعتراض:

- هذا ليس حلمي. ليس الآن! مازالت أمامي طموحات كثيرة.. والأطفال سيعطّلونها لا محالة!

زفر في إعياء، ثمّ قال بفتور:

- أظنّنا وصلنا إلى طريقٍ مسدودٍ إذن...

في الخلفيّـة، سمعت صوت إعـلان عـبر مكـبّر صـوت مـا، يدعـو ركّاب رحلـة القاهـرة الدّوليّـة للالتحـاق بقاعـة الرّحيـل. ازدردت لعابهـا في توتّـر وهمهمـت:

- هل سترحل؟

- أنا ذاهب. ولا داعي لمجيئك الشّهر القادم.

تواصل الصّمت الثّقيل لحظات بعد، قبل أن يتابع شهاب في جفاء:

- الوداع.

تركت هاتفها في صدمة.

لقد حذّرتها ياسمين. لكنّها لم ترد أن تتنازل قطّ عن دور بطلة الحكاية.

-٣٠-

طرقـت آيـة بـاب الغرفـة بهـدوء، بعـد أن تأكّـد رجـل الأمـن بالخـارج مـن هويّتهـا ومهـرت دفـتر الزّيـارات بتوقيعهـا. ترقّبـت لحظـات، وحـين لـم يصلهـا ردّ، دفعـت الدّفّـة وخطـت إلى داخـل الغرفـة. كان عمـر يرقـد عـلى سريـره وحيـدًا، وقـد سـكن الجـوّ إلّا مـن صفـير الآلات الطبيّـة.

تملّكتهـا رغبـة مسـتبدّة بالبـكاء، وهـي تطالـع الضّمـادات الـتي تلـفّ كتفـه وذراعـه والجـزء الأعـلى مـن صـدره. فتـح عمـر عينيـه عـلى صـوت نهنهتهـا الخافتـة. كانـت عيناهـا محمرّتـين والعـبرات تسـيل عـلى وجنتيهـا دون توقّـف. اقتربـت حـين انتبهـت إلى نظراتـه نحوهـا، وحاولـت أن تبتسـم:

- كيف أصبحت؟

تمتم بصوت ضعيف:

- الحمد لله.

جلسـت عـلى أحـد المقعديـن المنفرديـن بالغرفـة، واسـتمرّت تنشـج. كلّمـا حاولـت السّـيطرة عـلى ارتجافهـا وتجفيـف دمعهـا، بـدأت نوبـة جديـدة مـن البـكاء عـلى أثرهـا. كانـت قـد تأخّـرت في القـدوم لزيارتـه، ولـم يكـن يجـد لذلـك تفسـيرًا. بلّغتـه رنيـم بتنفيذهـا للمهمّـة الـتي عهـد بهـا إليهـا.. فتوقّـع ظهورهـا في أيّ لحظـة. لكـنّ الـكلّ أتى، مـا عداهـا. فكّـر كثـيرًا بـأنّ ذلـك أفضـل. لـم يكـن يـودّ توريطهـا، لكنّـه لـم يسـتطع الامتنـاع عـن التّسـاؤل في حـيرة حينـا وفي قلـق طـورًا عـن أسـباب تأخّرهـا. أمّـا وهـو يـرى بعينـه مبلـغ تأثّرهـا، فـإنّ كلّ العتـاب يتـلاشى مـن قاموسـه، ولا يجـد في قلبـه إلّا الـسّرور. قـال مهوّنـا عليهـا:

- أنا بخير.. كفكفي دمعك. ليس ما أصابني بالخطير.

ثمّ أضاف يمازحها:

- ظننتك أقوى من هذا.. تربّيت في بيت مقاومة وشهادة!

لكنّ العبارة التي رام بها شدّ أزرها زادت الطّين بلّة! بعد دقائق، بدا أنّها قد نجحت في إيقاف السّيل المتدفّق من مقلتيها أخيرًا. تنحنحت ليجلو صوتها، ثمّ قالت بهمس:

- ظننتُني تعوّدت المصائب فما عادت تؤثّر بي مثل السّابق.. لكنّني مخطئة. الابتلاءات درجات.

ساد الصّمت لبرهة، قبل أن تقول بصوت متهدّج يقطر حزنًا:

- لقد تردّدت في المجيء.

أصاخ السّمع في توجّس، فواصلت:

- لم أعرف، إن كانت زيارتي ستكون في صالحك أم عبئًا عليك. لعلّها تثبت علاقتك بالفلسطينيّين، وتورّطك أكثر! لعلّك في غنى عن هذا.

ملأه الارتياح وهي تلفظ تلك الكلمات. لقد أراد ابتعادها، خوفًا عليها. وتأخّرت في المجيء خوفًا عليه. قاطعها في حزم:

- علاقتي بالفلسطينيّين شرف لي، ولم يخطر ببالي قطّ أن أنكر!

تنهّدت بعمق، ترتّب أفكارها. لعلّها توقّعت موقفه ذاك. وهذا يجعلها تمرّ إلى الخطوة العمليّة التي جاءت من أجلها. قالت وقد استعادت رباطة جأشها:

- خالي عزّام يُقرئك السّلام.

تنبّهت حواسّه وقد أدرك أنّ ما بجعبتها يحتاج تركيزه، فأردفت:

- قال أنّهم سيستجوبونك قريبًا.. وأنت تحتاج توضيحًا لتحرّكاتك في سوريا وغزّة. إنّهم يعرفون علاقتك بالمقاومة.. لن يمكنك أن تنكر. لكن يخفّف عنك العقوبة أن تُمدّهم ببعض المعلومات.

هتف بصوت متحشرج:

- ماذا تقصدين؟

- ليست أكثر من بضع كنى معروفة لديهم.. لكنّها ستثبت صدقك وشفافيّتك. إذا ادّعيت أنّك مخدوع، وتمّ استدراجك، وكشفت تلك القائمة من المطلوبين.. تضمن حكمًا مخفّفًا. اسمع واحفظ!

أصغى إليها في انتباه، وهي تكرّر أسماء المجاهدين المعروفين الذين لا يخفون على الاستخبارات الدّوليّة. بعضهم سبق له لقاؤه وآخر غريب عنه. حين فرغت، كرّر القائمة على مسامعها، فأومأت موافقة. زفرت من جديد، وقد انتهت من مهمّتها، فاسترخت ملامحها. قالت أخيرًا بصوت مهتزّ:

- لقد كنت أسمع عن شدّة الغزّاويّات ورباطة جأشهنّ، تحمّلهنّ للصّعاب وهنّ يتردّدن على السّجون، ويترقّبن عودة زوج أو خاطب أو شقيق.. لكنّني لم أتهيّأ لاقتحام التّجربة بهذا الشّكل.. لم أتوقّع أن تهبط الصّاعقة علينا في هذا الوقت، قبل أسبوعين من الزّفاف!

ران الصّمت طويلا عليهما، ثمّ قال عمر بفتور:

- أنت ما زلت حرّة، لست مجبرة...

قاطعته على الفور بلهجة قاطعة وهي ترنو إليه بقوّة:

- ليس هذا ما قصدته! سأنتظر.. مهما طال الأمد سأنتظر! لكنّني محرجة من ضعفي وقلّة حيلتي. لست أملك كلمات شافية، تخفّف عنك أو تواسيك.

ابتسم بوهن وقال:

- هوّني عليك. ما أصابني لم يكن ليخطئني.. وأنا راضٍ، رغم كلّ شيء. ولا أريدك أن تفكّري لحظة واحدة بأنّك مسؤولة عمّا آلت إليه الأمور!

ابتسمت بدورها وهي تقول:

- أرأيت؟ أنت تواسيني الآن! أنا حقًّا بلا فائدة!

ضحك عمر، رغم المرارة التي تترع فؤاده، ثمّ قال:

- أقدّر لك مجيئك اليوم.. وأقدّر لخالك عزّام اهتمامه وتكبّده عناء

استنباط مخرج لي. لكنّني لا أريد لأيّ منكم أن يطاله أذى بسببي.

- أنت لا تريد الاعتراف بهذا، لكنّها قضيّتنا قبل أن تكون قضيّتك!

قال بصوت جادّ:

- آية، أرجوك.. هلّا سافرت ووالدك لقضاء بعض الوقت في بروكسيل؟

سيطر عليها الذّهول لبرهة. لقد اقترح خالها الأمر ذاته منذ عُرف الخبر. قال أنّه سيرتّب لها ولأبيها مقرّ إقامة مناسبًا بالقرب منه. لم يكن بقاؤها في باريس مفيدًا بأيّ شكل. وها هو عمر يكرّر عليها الطّلب، كأنّما قد اتّفقا عليها. قالت في إباء:

- سأنتظرك!

- مدّة المحاكمة وحسب.. أرجوك! لا أريد أن تُستدعي للشّهادة، ولا أن تتعرضي للمضايقة. هل تفهمين؟

أومأت في إذعان، ثمّ هتفت وقد اغرورقت عيناها دمعًا من جديد:

- لكنّني سأنتظر!

***

في المساء، دخل المحقّق برفقة أحد أعوانه، وجلسا قبالة عمر، بينما لبث جورج واقفًا في ركن الحجرة. أعلن عن انطلاق الاستجواب موجّها سؤاله الأوّل إلى عمر:

- دكتور عمر الرّشيدي.. أين كنت في الفترة الفاصلة بين ديسمبر ٢٠٠٨ وسبتمبر ٢٠٠٩؟

- في سوريا.

- ماذا كنت تفعل هناك؟

- سياحة!

- من قابلت هناك؟

- أشخاصًا كثرًا، مثل أيّ سائح.. لا أستحضر قائمة بالأسماء.

- هل تدرّبت على حمل السّلاح في فترة إقامتك هناك؟

- لا!

- هل التقيت بأعضاء إحدى المنظّمات الإرهابية؟

- لا!

- في الفترة الفاصلة بين أوّل سبتمبر ومنتصف الشّهر ذاته، أين كنت؟

- كنت في فلسطين المحتلّة.

- ماذا فعلت في تلك الفترة؟

- ذهبت في زيارة لأهل الفتاة التي أفكّر بالزّواج بها.

- ما اسم الفتاة؟

- آية الغزّي.

- مقرّ إقامتها؟

- بروكسيل.

- هـل حصلـت عـلى مخطّطـات لصناعـة طائـرات بـدون طيّـار مـن أعضـاء المقاومـة؟

- لا!

انتهـى الاسـتجواب خـلال نصـف سـاعة، سـدّد خلالهـا المحقّـق أسـئلة غايـة في الدّقّـة والخصوصيّـة، وأدرك عمـر أنّ مـا بحوزتهـم مـن معلومـات يعيـد رسـم تاريخـه كامـلا.. لكنّـه أنكـر إنـكارًا تامّـا كمـا أشـارت رنيـم. حـين فـرغ المحقّـق، أغلـق ملفّاتـه في حركـة مسـتاءة وقـال:

- لـن تسـتطيع الإنـكار طويـلا.. لدينـا سـبلنا لاسـتخراج المعلومـات مهمـا طـال الأمـد.

ألقى عمر نظرة قلقة على جورج، فأشار إليه أن أحسنت صنعا.

زفـر بقـوّة حـين خلـت الغرفـة مـن الـزوّار أخـيرًا. ربّمـا سـيأتي وقـت يضطـرّ فيـه أن يعـترف. لكنّـه سـيحاول كسـب الوقـت كمـا طلبـت منـه هيئـة الدّفـاع،

لعلّهم يتمكنّون من إيجاد مخرج ما.

***

استمرّت الجلسة حتّى السّاعة الثّامنة مساءً، لليوم الثالث على التّوالي. انكبّ جورج ورنيم على مراجعة ملفّات القضيّة بتأنّ وتركيز. ينظران في الأدلّة بتروّ ويمحّصان التّهم بأناة. لكنّ أيّا من مسارات الدحض التي ناقشاها لم تسفر عن بصيص نور.

قالت رنيم وهي ترتشف كوب قهوتها الثّالثة لذلك المساء:

- تلحّ عليّ فكرة لا أتمكّن من طردها.. أنّ علينا التّضحية بأحدهما حتّى ننقذ الآخر! إنّ دخول قضيّة خاسرة بهذا الشّكل، يعني ضمان العقوبة القصوى لكليهما! ليس بيدنا أيّ خطّة دفاع محتملة. لكنّ وضع اللّوم على واحد فقط، قد يمكّن الثّاني من النّجاة. أحدهما يتحمّل اللّوم عن صاحبه.. فيكون هو الذي خطّط لكلّ شيء.. والثّاني كان شريكا في المشروع دون دراية بأبعاده كافّة!

هزّ جورج رأسه في تفهّم وهو يقول:

- عمر الرّشيدي هو صاحب الفكرة، وهو منسّق التّواصل مع الجهات الفلسطينيّة.. وهو مصمّم الطّائرة ومخترع البطّاريّة.. وقد دخل غزّة سابقا وتدرّب على أيدي رجال المقاومة في سوريا!

أومأت رنيم وهي تستطرد:

- العاطفة تقول أنّ هيثم يستحقّ النّجاة، لأنّه شريك بنسبة أقلّ أوّلا، وبسبب زوجته وطفله ثانيًا..

هزّ جورج رأسه موافقا، فأردفت:

- والعقل يقول أنّ عمر هو الذي يجب أن ينجو! حظوظ هيثم في استرجاع صحّته ضئيلة. تخيّل.. أنّنا نجعل عمر يتحمّل اللّوم كاملا - وهو لن يمانع- وأنقذنا هيثم.. ثمّ يموت هيثم! ألن نكون قد خسرنا خسارة مضاعفة؟

ضحك جورج في مرارة ثمّ قال:

- لا تنسي أنّك تمثّلين هيثم يا عزيزتي! هل هذا أقصى ما لديك؟

زفرت في ضيق وقالت:

- يؤلمني أن أقول هذا.. أحيانا أفكّر أنّ موت هيثم سيكون حلّا للمشكلة! إن كان لا بُدّ أن يموت، فأرجو أن يموت في الوقت المناسب.. لا بعد فوات الأوان!

لم ينبس جورج ببنت شفة، فأردفت رنيم بلهجة متهكّمة:

- هل فقدتُ أخلاقيّات المهنة برأيك؟

أخذ جورج يلهو بالقلم بين أصابعه في سرحان، ثمّ قال:

- أنت يائسة.. هذا كلّ ما في الأمر! والتّفكير اليائس يدفع نحو الحلول المتطرّفة والمجنونة.

- أنا لا أقول أنّني قد أتسلّل ليلا وأوقف جهاز تنفّسه.. لكنّني...

- لكنّك تتمنّين أن يموت تلقائيّا، قبل بدء المحاكمة.

- أنا فقط أدعو الله.. إن كان هيثم سيموت في كلّ الأحوال، فليكن ذلك الآن!

ابتسم جورج ثمّ تمتم:

- آمين!

***

وقفت ياسمين إزاء الحارس الذي ينتصب عند مدخل قاعة العناية المركّزة. سلّمته هويّتها ووقّعت دفتر الزّيارات، ثمّ دلفت إلى الغرفة ومن خلفها ممرّضة تدفع المحضنة الاصطناعيّة وبداخلها طفلها. همست شاكرة وهي تشير إليها بتقريب المحضنة من سرير هيثم. كانت قد حصلت على إذن استثنائيّ من قسم الولادة حتّى تأخذ ولدها لرؤية أبيه. استماتت في المحاولة، وداومت على طرق أبواب الأطباء والمسؤولين،

حـتى حظيـت بالموافقـة أخـيرا. كان عـلى الرضيـع أن يـزور والـده المحتـضر ولـو مـرّة وحيـدة!

- لديك خمس دقائق.

أومـأت ياسـمين في استسـلام مـع إعـلان الممرّضـة الصّـارم. خمـس دقائـق ثمينـة هـي كل مـا لديهـا مـن أجـل الاجتمـاع العائـليّ الأوّل. جلسـت عـلى المقعـد، وقالـت تخاطـب هيثـم كما تفعـل منـذ أيّـام:

- لم أحضر بمفردي اليوم.. جئت بعزّ الدّين! تأخّر لقاؤكما حتّى الآن!

كانـت تخـزّن في أمنياتهـا صـورة مختلفـة للـولادة المثاليّـة. أن يرافقهـا زوجهـا إلى غرفـة الوضـع، فيمسـك بكفّهـا ويخفّـف شـدّتها بهمسـات ونظـرات.. ثـمّ يحمـل وليـده بـين ذراعيـه، فيـؤذّن في أذن ويقيـم في الأخـرى. بعـد ذلـك يـأتي بـه إليهـا، فتضعـه عـلى صدرهـا، تشـعر بدفئـه وملمسـه النّاعـم، ويتبـادل ثلاثتهـم نظـرات حـبّ وحنـان.

لقـد حُرمـت كلّ ذلـك. لكنّهـا سـتصنع ذكريـات أخـرى، حـتّى لـو حالـت الصّعوبـات دون اجتماعهـم في حضـن عائـليّ مشـترك، فستسـعى إلى تقريـب المسـافات. الآن، تمسـك بيُمناهـا كـفّ هيثـم المسـجّى عـلى السّريـر بـلا حـراك، وتـدسّ يُسراهـا داخـل المحضنـة لتلامـس برفـق كـفّ عـزّ الدّيـن الهشّـة القرمزيّـة. تغمـض عينيهـا وتهمـس:

- نحن عائلة.. سنتمسّك بأيدي بعضنا بعضا، وستنقضي هذه المحنة.

تتـلألأ العـبرات في عينيهـا. تـدرك أنّ حالـة عـزّ الدّيـن مسـتقرّة، لكـنّ وضـع هيثـم ليـس كذلـك. لـم يقـل الطّبيـب المتابع أيّ شيء مطمـئن. لـم يتغيّر شيء منـذ العمليّـة. لا شيء يدعـو إلى التّفـاؤل، لكنّهـا تكثّـف الدّعـاء لـه في كلّ سـاعة. إنّهـا تترقّـب معجـزة.. وتعلـم أنّ معجزتهـا الأولى تحتـاج ثانيـة تليهـا ليكتمـل هناؤهـا.

يعتقـدون أنّهـا في غفلـة عمّـا يـدور حولهـا. يتجنّبـون الحديـث عـن حقيقـة الحادثـة، مَـن وراءهـا ومـا هـي دوافعهـا، والنّتائـج المترتّبـة عنهـا. لكنّهـا

تلتقط الكلمات الخافتة وتجمع العبارات المتناثرة، على ألسنة الممرّضات المتهامزات، والهمسات المتبادلة عند رأسها أيضا، حين يعتقدون خلودها إلى النّوم.

حين يستيقظ هيثم، سيكون عليه أن يواجه اتّهامات قاسية. تتقاذفها مشاعر شتّى، بين فخرها به واعتزازها بانتمائه إلى المقاومة الفلسطينيّة بشكل أو بآخر، وإشفاقها ممّا ينتظرهم جميعًا من مصير مجهول المسالك. لم يكن بوسعها أن تلومه، لأنّه لم يفكّر فيها وفي وليدهما. ليست تدرك على وجه الدّقّة ما كانت طبيعة نشاطه، لكنّها تعرف أنّه وطأ موطئا يغيظ الكفّار، ونال من العدوّ نيلا، حتّى جدّوا في أثره حتّى باريس.. فكيف بالله تلومه؟

استسلمت لأفكارها المتناقضة التي تمزّقها من الدّاخل وتدمي قلبها، حتّى شعرت بضغطة أصابع هيّنة على راحتها. انتفضت، والتبس عليها الأمر بداية. تنقل نظرها بين رجليها، الكبير والصّغير، ويتوه منها الإدراك. من منهما ضغط على كفّها بأنامله؟ الرّضيع الذي لا تحتمل لمسته أكثر من الدّغدغة، أو الرّجل الرّاقد في غيبوبة؟

مرّة أخرى، ضغطت الأصابع المستقرّة في يمناها، فحدّقت في وجه هيثم غير مصدّقة. تركت كفّ وليدها واستأثر والده بانتباهها. لمحت رموشه تتحرّك، تهتزّ برفق دون أن يفتح عينيه واسعتين، ثمّ أتاها همسه بصوت خفيض متحشرج:

- ياسمين!

اقتربت أكثر، وقلبها ينتفض بين ضلوعها. أصغت غير مصدّقة إلى همسه، تخال نفسها تحلم.. أو ربّما من فرط تعبها يُهيّأ إليها أن الأماني تتحقّق والمعجزات تصير واقعًا.

- كيف أنت؟

- أنا بخير.. حمدًا لله على سلامتك!

تشبّثت بذراعه، ترنو إلى عينيه نصف المغلقتين، وتفيض العبرات على وجنتيها بسخاء، بينما تتمتم شفتاها دون توقّف:

- اللّهم لك الحمد.. اللّهم لك الحمد!

جاءها صوته من جديد، مكدودًا، يكاد يخنقه الأنين:

- عمر؟

- عمر بخير.. جراحه ليست خطرة.

أسبل جفنيه، فقرأت علامات الألم على وجهه واضحة. تركت كفّه وهمّت باستدعاء الممرضّة، فقبض على معصمها فجأة. همس بصوت لا يكاد يُسمع:

- ابقي قليلا.

أومأت، رغم الخوف الذي يعتصر فؤادها. قالت وهي تشير إلى المحضنة:

- هل رأيت عزّ الدّين؟

- عزّ الدّين؟

في صوته رنّة لهفة ودهشة، وعيناه تبحثان في مجال رؤيته المحدود.

- أين هو؟

برفق، سحبت المحضنة حتّى التصقت بالسّرير. فتحت الغطاء، ورفعت صغيرها بحنان لتضعه على صدر أبيه. التقت العينان لبرهة، ففاضت الدّموع من عيني هيثم، وأصدر الولد صوتًا رقيقا معربًا عن ارتياحه في تلك الوضعيّة.

ابتسمت ياسمين وهي ترمقهما بحبّ. وتمنّت أن يتوقّف الزّمن طويلا عند تلك اللّحظة، لتملأ عينيها من مشهدٍ رائق رغم الإطار المحزن. تمنّت أن يختفي رجلا الأمن من أمام الباب، وتتلاشى الأنابيب الطبيّة والآلات المحيطة بهم، وأن تخزّن في ذاكرتها حلاوة المشهد وحدها، دون

أوجاعـه وأحزانـه.

ارتفـع بـكاء الطّفـل فجـأة، بصوتـه الخافـت الـذي يكشـف ضعفـه وقلّـة حيلتـه. همسـت:

- لعلّه يشعر بالبرد.. المحضنة تبقيه دافئا.

رفعتـه عـن صـدر أبيـه وأعادتـه إلى المحضنـة، فاسـتكان سريعًـا واستسـلم للنّـوم. ثـمّ سرعـان مـا دخلـت الممرّضـة لتصطحـب الطّفـل إلى الحضانـة. رجعـت ياسـمين ببصرهـا إلى هيثـم بعـد أن ودّعـت وليدهـا، ففاجـأت للمـرّة الثّانيـة أمـارات وجـع شـديد عـلى ملامحـه. هتفـت في قلـق:

- هل تتألّم؟

استدار إليها وقال:

- الغرفة باردة، هلّا خفضت التكييف؟

سارعت لرفع درجة حرارة الغرفة، ثمّ عادت إلى جواره، وهمست:

- والآن؟ هل تشعر بتحسّن؟

تعلّقت عيناه بوجهها وقال:

- تبدين أنحف.. لكنك أجمل.. من كان يظنّ أنّ الأمومة تليق بك!

أطلقـت ضحكـة قصيرة. تعلـم مـدى البشـاعة الـتي تبـدو عليهـا، بهالاتهـا السّـوداء العميقـة والعينـين المحمّرتـين المتورّمتـين مـن أثـر البـكاء، والعظـام البـارزة والبـشرة الشّـاحبة لقلّـة شـهيّتها. عـن أيّ جمـال يتحـدّث؟ أضـاف أمـام اسـتطالة صمتهـا:

- لا تحزني.. ستأتي أيّام جميلة، ولو بعد حين...

عضّـت عـلى شـفتيها، تغالـب رغبـة ملحّـة في النّحيـب، وهـزّت رأسـها بقـوّة، تؤيّـد كلماته.

- سأنادي الممرّضة.. يجب أن يراك الطّبيب.

همس بخفوت:

- أشعر بالنّعاس.. ابقي حتّى يغلبني النّوم.

جلست قربه، وقد احتفظ بكفّها في كفّه. أخذت أنفاسه تنتظم، فتنهّدت. كانت تشعر بالارتياح لاستيقاظه، لكنّها بعيدة عن الطمأنينة والاسترخاء. ما إن أغلق جفنيه حتّى سرحت أفكارها بعيدًا. لكن لا شيء يهمّ، ما دام هيثم إلى جوارها، ستكون قادرة على مواجهة بشاعة العالم بجسارة. يكفي أن يكون حيًّا يتنفّس ويبتسم ويبثّها الدّفء والسّكينة.

حين تراخت أصابعه، أفلتت كفّه وهرولت إلى الممرّ. على الفور، اتّصلت بالجميع، زهور، ميساء، سكينة، رنيم. كانت تريد أن يشاركها البشرى أكبر عدد ممكن من الأحباب.

***

ارتفع رنين هاتف رنيم وهي منهمكة في مطالعة ملفّ القضيّة للمرّة العاشرة. طالعت الشّاشة لتقرأ اسم ياسمين. رفعت حاجبيها دهشة، وشعرت بوخزة في صدرها، كأنّها مذنبة أُخذت بالجّرم المشهود! جاءها صوت ياسمين تملؤه الفرحة:

- لقد استيقظ يا رنيم! هيثم استيقظ!

- يا إلهي! هذا مذهل.. تهانينا!

كانت تزفّ إليها النّبأ وهي تلهج بالحمد والشّكر، لأنّ المعجزة التي تمنّتها وترقّبتها تحقّقت. قالت رنيم وقد تداخلت في عقلها مشاعر الصّديقة وواجبات المحامية:

- أنا قادمة حالًا.

زفرت بحرارة بعد أن أنهت الاتّصال. تشعر بالارتياح الآن. لقد تخلّصت من عبء أمنيتها الخفيّة القبيحة التي تثقل ضميرها. لكن بات عليها أن تواجه الكابوس الثّقيل بكفّها العارية!

حثّت خطاها في ممرّ المستشفى. كان عليها أن تصل إلى هيثم قبل أن يطير خبر استيقاظه إلى المدّعي العامّ. يجب أن تُعدّه للاستجواب

علـى انفـراد، كمـا فعلـت مـع عمـر. لكنّهـا تشـعر بثقـل في ركبتيهـا وخـدر في ساقيها. لقـد غـدت المهمّـة شـائكة أكـثر بهـذا الشّـفاء المعجـز!

تعـالى رنـين هاتفهـا قبـل أن تخطـو عـبر مدخـل قسـم العنايـة. رجعـت أدراجهـا في توجّـس وهـي تطالـع الرّقـم المألـوف المسـجّل عندهـا.. مكتـب المدّعـي العـامّ!

- أستاذة رنيم.. بلغني أنّ موكّلك قد استيقظ. تهانينا!

ابتسمت في تهكّم وهي تردّ:

- سيّدي المدّعي العام، أرى أنّ الخبر لم يتأخّر في الوصول.

- المهـمّ.. أودّ أن أهديـك هـذا العـرض الاسـتثنائيّ، قبـل أن نلتقـي وجهـا لوجـه.

- عرض؟

زوت ما بين حاجبيها في تركيز واهتمام.

- أنـا وأنـت نعـرف المنظومـة القانونيّـة جيّـدًا.. إذا بـدأت المحاكمـة، فستسـتمرّ لسـنوات ربّمـا. سـتكون هنـاك ضغوطـات دوليّـة وتدخّـلات خارجيّـة، في حـين أنّ الملـفّ بسـيط.. بإمكاننـا الانتهـاء مـن كلّ هـذا بسهولة.

- هات ما عندك!

قال بلهجة حاسمة وواضحة:

- خمـس سـنوات نافـذة. يعـترف موكّلـك عـلى صاحبـه، يُقـدّم كلّ مـا بحوزتـه مـن أدلّـة.. ويُحاكـم عمـر الرّشـيدي كمتّهـم رئيـسيّ.. مـاذا قلـت؟

هوى قلبها بين قدميها. غمغمت بصوت مرتجف:

- سأبلّغ موكّلي بعرضك.

- سـأكون في الانتظـار أسـتاذة رنيـم.. العـرض سـارٍ لثمـانٍ وأربعـين سـاعة فقـط. بعدهـا، سـيكون لقاؤنـا في المحكمـة!

ترنّحـت خطـوات رنيـم في الممـرّ. لا تـدري إن كان عليهـا اجتيـاز المدخـل

في ذلك الوقت أم تأجيل اللّقاء. لقد كان عرض المدّعي العام مغريا ومزلزلًا في آن. كمحامية تمثّل هيثم، وتدرك حجم القضيّة والعقوبة المتوقّعة، كان عليها أن تشجّع هيثم على الاعتراف. لكنّها تدرك أيضا أنّ اعتراف هيثم سيؤدّي إلى غياب عمر وراء الشّمس!

غير أنّها تحسب هيثم لن يفعل ذلك بصاحبه.. مثلما لم يكن عمر ليقبل بعرض مشابه.

توقّفت فجأة وقد راودها خاطر ما. تناولت هاتفها من جديد. اتّصلت بجورج، فألفت الخطّ مشغولا. تزايدت نبضاتها في عنف. هذا ما كانت تخشاه. ترقّبت بضع ثوانٍ ثمّ كرّرت المحاولة. ما إن وصلها صوت جورج حتّى هتفت:

- هل اتّصل بك مكتب المدّعي العام؟

تريّث جورج قبل أن يسأل في حذر:

- هل اتّصلوا بك أيضا؟

زفرت بحدّة. هذا ما يسعون إليه إذن. زرع الشّقاق بين طرفي الدّفاع.

- ماذا كان العرض؟

- عشر سنوات نافذة.. مع الاعتراف على هيثم.

فغرت فاها دهشة. لماذا الاختلاف في المدّة؟ عرض هيثم أكثر من مغرٍ! خمس سنوات فقط؟ كأنّهم يسحبون عمر سحبًا نحو الكرسيّ الكهربائيّ! لكنّ هيثم لن يفعل.. تثق بأنّه لن يعترف! غير أنّ التّفويت في فرصة المساومة مع مكتب الادّعاء يعتبر غباءً.. خاصّة حين تكون فرص النّجاة معدومة!

تشعر برأسها يكاد ينفجر من التّفكير، وبالأرض تميد تحت قدميها. تنفّست بعمق، واستندت بذراعها إلى جدار الممرّ. قالت أخيرا بلهجة تبدو واثقة:

- لن نسمح للمدّعي العام بتفريق صفوفنا الآن.. هيئة الدّفاع ستظلّ

متماسكة.

- بالتّأكيد. لم أخبر عمر بعد بشأن العرض، لكنّ أنت تعرفين كيف هو.. لا أظنّه سيهتمّ حتّى...

زفرت ثمّ قالت في انزعاج:

- أعرف. لكنّ مهمّة المحامي هي إقناع الموكّل بصالحه.. وأنا وأنت ندرك أنّ عرض الادّعاء يستحقّ التفكير.

سكت جورج لبرهة ثمّ أردف:

- هذه القضيّة.. لست متفائلا بشأنها.

ابتسمت في سخرية، ثمّ قالت بانرة الحوار:

- أتركك الآن. لقد وصلت عند هيثم.

أنهت الاتّصال وهي تشعر بالعجز. لو كان المتّهم أيّ شخص آخر، لكانت الآن تستميت في إقناع هيثم وياسمين بالموافقة على العرض. لكنّها ليست قضيّة عاديّة.. إنّها متورّطة أكثر ممّا ينبغي!

حين أفضت إلى قاعة الانتظار، ألفت ياسمين تقف خلف النّافذة الزّجاجيّة، وقد تجمّع الطّاقم الطّبيّ حول سرير هيثم داخل غرفة العناية.

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

استدارت ياسمين لتواجهها بابتسامة متعبة ووجه مكدود. قالت في وجل:

- لقد استسلم للنّوم منذ نصف ساعة...

- إذن دعيه يستريح، تعالي.. سأوصلك إلى غرفتك.

مشت برفقتها باتّجاه قسم الولادة. قالت رنيم وهما تسيران بتؤدة، لصعوبة المشي على ياسمين:

- كنت أودّ الحديث إلى هيثم.. عن القضيّة. أنت تعرفين؟

أومأت ياسمين في صمت.

- لم نرد الإثقال عليك بهذا الشّأن، لذلك كنت أخاطب والديه بهذا الصّدد.. لكن الآن، سيحصل استجواب وربّما محاكمة قريبة، وكنت ستعرفين الخبر عاجلا أم آجلا...

زفرت ياسمين في أسى وهمست:

- ما كدت آنس بعودته، حتّى فتحت في وجوهنا أبواب الجحيم! أيّ مصير ينتظرنا؟

لم تحاول رنيم طمأنتها، لم تكن بحوزتها الكلمات اللّازمة. في القديم، كانت ياسمين تعرف كيف تواسيها وتطيّب خاطرها.. لكنّها تخفق دومًا في دور الصّديقة. لم تملك إلّا أن تعانقها بقوّة، تمتصّ ألم روحها وتبثّها تعاطفًا وتضامنًا ودفئًا.

***

تركت ياسمين بعد أن بكت طويلا على كتفها. عادت أدراجها إلى قسم الجراحة. طرقت باب عمر ودلفت. وقفت قبالته، وهي تشعر بالحرج. لم يكن لحضورها أيّ صبغة رسميّة منذ أعلن رغبته في استلام جورج مهمّة تمثيله في القضيّة. لكنّها رغمًا عنها، تسحبها خطواتها إلى مجاله، مثل قوّة جذب مغناطيسيّة مجهولة المصدر. كان سريره معدّلا في وضعيّة الجلوس، وبين كفيه كتاب ما. قالت محاولة أن تبدو مسترخية رغم توتّرها:

- أحضر لك جورج كتابًا؟

- طلبت من إدارة المستشفى.

- آه.

استعادت في صمت تاريخًا بعيدًا، حين كانت تحضر إليه كتبًا في غرفة مشفى آخر. قالت فجأة بنبرة اعتذار:

- تلك الكتب.. كانت من اختيار ياسمين.

عقد حاجبيه دهشة واستغرابًا. عن أيّ كتب تتحدّث؟ ثمّ استوعب أنّها تشير إلى الكتب التي أحضرتها إليه منذ ستّ سنوات. لماذا تعترف بهذا الآن؟ بدت كأنما تتخلّص من حمل يثقل صدرها. كانت مشوّشة وهي تنتقل من موضوع إلى آخر بلا تناسق:

- أين خطيبتك؟ اسمها آية.. أليس كذلك؟ لم أرها قطّ في الجوار.. ألا تزورك؟

شعرت بضيقه لبرهة، ثمّ قال في اقتضاب:

- لديها أشغالها...

لم يرضها ردّه. ما عدا ذلك، فإنّها قد لمست في سلوك الفتاة وانفعالاتها تعلّقا واضحًا بعمر، لذلك يبدو غيابها غير مبرّر أو متوقّع.

- لقد بدت لكنتها كأنّها.. فلسطينيّة. هل هي كذلك؟

- نعم.

- وهل لها علاقة ما بالمشروع؟

- لا.

ثمّ أضاف في ضيق:

- لماذا أشعر بأنّني في استجواب؟

رفعت كتفيها في براءة وقالت:

- نحن نتحدّث وحسب.

مرّت لحظات من الصّمت، قبل أن تردف بابتسامة:

- هل تذكر، كنّا نتحدّث كثيرًا، هكذا.. في السّابق.

عبس عمر وقد عادت إليه ذكريات يشقيه استرجاعها. قاطعها فجأة بصوت هادئ:

- أستاذة رنيم.. لماذا أنت هنا؟

شعرت بصفعة لا مرئيّة تهوي على صدغها فيرتجّ لها دماغها. حملقت

في الأرض بعينين نديّتين. هي نفسها لا تعي ما الذي تفعله هنا في غرفته! ما الذي تريده منه بالضبط؟

لم تلتق موكّلها بعد، ولا رتّبت ملفّات قضيّة سكينة التي تبدأ في الغد، ولا صالحت زوجها الذي غادر مغاضبًا.. لكنّها تقف في غرفة رجل غريب وتستدعي ذكريات عاطفة قديمة.. من طرف واحد! ودّت لو تنشقّ الأرض وتبتلعها. لو تختفي من أمامه كأنّها لم تدخل قطّ.. لكنّ كبرياءها استمرّت تذود عن ذاتها في إباء:

- هل فعلت هذا من أجلها؟

- فعلته من أجل إيماني بالقضية!

قالت في عناد:

- لكنها ليست قضيتك! ما الذي يربطك بتلك الأرض البعيدة وناسها؟ كل شعب دافع على مرّ التاريخ عن أرضه، وردّ المحتلين.. مصر فعلت ضدّ الإنجليز.. والمغرب ضد الفرنسيّين. وستفعل فلسطين أيضا. فما علاقتك أنت؟ انظر.. الاحتلال مرحلة.. ثم يأتي الاستقلال. فلسطين تأخّر احتلالها عن باقي الدّول العربية.. في الوقت الذي كنا فيه نتحرّر، جاء دورهم ليذوقوا من كأس الاحتلال.. تلك سنّة الحياة!

ابتسم في مرارة:

- تفكير عجيب! كأنّ الاحتلال سنّة الحياة وقانونها الذي يتغيّر؟ كأنّ الاحتلال يجيء ويذهب تلقائيّا، فلا نحتاج أن نواجهه ونردّه!

هزّت كتفيها وهي تقول في بساطة:

- أهل البلاد يفعلون!

- لكنّ هذه البلاد مختلفة. إنّها مقدّسة في وجدان كلّ عربي ومسلم!

شعرت بنبرة الاتّهام في صوته. كأنّها لا تنتمي إلى تلك الفئة التي يتحدّث عنها. قالت باندفاع:

- كلّنا نعرف أنّ الفلسطينيّين باعوا أراضيهم لليهود. تنازلوا عنها عن

طيب خاطر وقبضوا الثّمن.. فلماذا التّباكي الآن على الأرض المفقودة؟

تنهّد عمر، ثمّ قال:

- قد يكون ذلك حصل، في وقت ما من الماضي البعيد.. قبل النّكبة والنّكسة.. قبل وعد بلفور والمستوطنات. قبل التّهجير القسريّ والمخيّمات! لكنّ البعض يظلّ يؤاخذ الكثرة المضطهَدة، بفعل القلّة المستفيدة! إن كان البعض قد باع، فإنّ الأغلبيّة طردت من مساكنها وأرسلت إلى مصير مجهول! وهذا يا سيّدتي جرم، احتلال.. والاحتلال أنواع.

أصغت إليه في استسلام، كطالب بليد يلقّنه أستاذ التّاريخ درسًا:

- الحماية الفرنسية للمغرب الأقصى، كانت نوعًا من الوصاية الحضارية.. كأنما يقولون نحن سبقناكم بأشواط على طريق المدنية الحديثة، دعونا نعلمكم شيئا من مآثرنا العظيمة، أو هذا على الأقلّ ما يدّعونه. وهناك نوع ثانٍ. انظري إلى أراضي فرنسا التي تقع وراء البحار، تلك الجزر البعيدة والمنعزلة.. المارتينيك والموريشيوس والريبونيون، وغيرها.. ذاك احتلال يعتمد على طمس الهويّة واستبدال أخرى بها.. تغيير الدّين واللغة والانتماء. رغم عودة الفرنسيين إلى ديارهم، فقد هؤلاء استقلالهم وغدوا ولايات فرنسية لا تتّصل جغرافيا بالأرض الأم! غير أنّ ما يحدث في فلسطين هو نوع ثالث، الاحتلال الأكثر وحشية وقذارة.. وله سوابق في التاريخ... أرأيت حين دخل الإنجليز أمريكا وأستراليا؟ أبيد السّكان الأصليون واستوطن الأرض المحتلون حتى لم يعد للثقافة الأولى وجود! بعد قرون من «اكتشاف» الأراضي المجهولة، أصبحت هويتها ممسوخة.. هذا ما يحصل حين يرتكز الاحتلال على الإبادة والتهجير، استئصال هوية وزرع أخرى واستبدال شعب أصلي بآخر وافد، تهجير المناهضين وتدجين القابلين بالبقاء. وهو ما حصل في الأندلس أيضا.. مع الوقت، لا تعود هناك فلسطين كما لم تعد الأندلس.. تتحوّل المساجد إلى معابد، كما حُوّلت إلى كنائس في إسبانيا.. غير أن المساجد لا تتساوى -وإن

كانت كلها بيوت الله التي يجب الذّود عنها- لكن حين يتعلق الأمر بأولى القبلتين وثالث الحرمين الشّريفين ومسرى نبيّنا، فالأمر يتجاوز مجرّد الدّفاع عن أرض تخصّ مجموعة من البشر.. تتحوّل إلى قضية عظيمة تهمّ كل مسلم!

تنهّدت ثم قالت بنبرة متهكمة:

- عجيب أنّك تعلّمني درسًا في كل قضية!

ابتسم وقال بلهجة غامضة:

- ولكنّك لا تتعلمين الدّرس أبدًا.. أم أنّ اختلاف الرؤية بيننا شاسع إلى درجة لا يمكن معها التقاطع؟

توقفت عن التنفس فجأة وغاص قلبها بعيدًا في صدرها. لم يكن التّقاطع ممكنًا.. وهي لم تغفل عن ذلك يومًا. ما حسبته ثانويًا يمكن تجاوزه، يبدو في نظره أوّليًا لا تستقيم الحياة بدونه. اعتذرت بكلمات مقتضبة وفرّت من الغرفة لا تلوي على شيء.

حين صارت في الممرّ بمفردها، تناولت هاتفها واتّصلت بمساعدتها دينا. قالت بلهجة حازمة:

- آية ووالدها محمّد الغزيّ، أريد كل معلومة ممكنة عنهما.. خلال أربع وعشرين ساعة!



ظهـر أمامهـا فجـأة كما تعـوّد أن يفعـل في الآونـة الأخـيرة. لـم تعـد تحادثه أو تلهـث خلفـه مثـل السّـابق. تعـرف مواعيـد محاضراتـه وتفاصيـل حياتـه الـتي يسـكبها في مواقـع التّواصـل، لكنّهـا لا تبـدي اهتمامـا. كانـت تشـعر بفتـور وملـل مـن سـلوكه البـارد. وقـد كان عليهـا أن تذيقـه مـن الـكأس الـتي لطالمـا سـقاها منهـا.

- أنت هنا اليوم أيضا.

تنهّـدت رانيـا، وقلبـت صفحـة كتابهـا، وهـي تتجاهـل حضـوره قبالتهـا. مـا دام لـم يكـن لطيفـا تجـاه سـكينة، فهـو غـير جديـر باهتمامهـا. جلـس عـلى المقعـد وأطـال تأمّلـه لكتابهـا.

- ماذا تدرسين؟

رفعت رأسها لتحدجه بنظرة صارمة ثمّ تهمس في استياء:

- ماذا تريد الآن؟ هيّا.. تكلّم!

شحبت ملامحه واكتست بعلامات الانزعاج. قال في عبوس:

- أشـعر أنّـك الشّـخص الوحيـد في العالـم الـذي يعـرف عـنّي أكـثر ممّـا أعـرف عـن نفسـي.. وأنّ الـسرّ الكئيـب الـذي يسـكن مـاضيّ مكشـوف أمـام عينيـك.. لذلـك أجـدني أبحـث عنـك كلّ يـوم، وتقـودني خطـواتي إلى المكتبـة حيـث أتوقّـع أن أجـدك...

توقّف تدفّق الكلمات على شفتيه. زفر، ثمّ أضاف بنبرة متهكّمة:

- أحتـاج مـن حـين إلى آخـر أن أتحـدّث مـع شـخص يفهـم مـا أمـرّ بـه.. ولا أجـد أحـدًا غـيرك تنطبـق عليـه الـشّروط!

رقّ قلبها لحاله، فلانت ملامحها. قالت بهدوء:

- أنا مستاءة، لأنّ صديقاتي يمررن بأوقات عصيبة. وسكينة.. لديها جلسة استماع في الغد. لا أستطيع حتّى أن أركّز على الدّراسة.. سأرافقها غدًا إلى «نانت»...

رفعت بصرها إليه وقالت في رجاء:

- لن ألحّ عليك.. لكنّ حضورك سيشكّل فرقًا. أعلم أنّ بداخلك رغبة في لقائها، لكنّك تقاومها.. كما فعلت يوم جراحتها. فهل ستقاوم أيضا هذه المرّة؟

حدّق فيها في شرود، ثمّ قال بطريقته المستفزّة التي تعوّدتها:

- ألم تيأس صديقتك بعد؟ ليس هناك ما يدعوني إلى رؤيتها. أنا لا أعترف بها أمّا.. لكنّني أودّ أن أعرف مصير سيلين.. هذا كلّ ما في الأمر!

زمجرت في غيظ:

- ستندم!

لوى شفتيه في سخرية وقال:

- أودّ أن أرى كيف سيحصل ذلك!

مرّة أخرى، تركت مقعدها وهي تقول في حدّة:

- لا فائدة.. الجلسة ستكون ظهر الغد، في محكمة الأسرة بـ«نانت»...

ابتسمت وهي تسير إلى خارج المكتبة. تعرف الآن أنّ الفكرة ستسكن عقله، ولعلّه يستسلم لفضوله ويحضر الجلسة.. وذلك كلّ ما ترجو.

***

كنّ يتناولن وجبة الإفطار معًا، مجتمعات حول المائدة، وقد سرحت الأفكار في اتّجاهات شتّى. كان ذهن رنيم مشطورًا بين قضيّة هيثم الشائكة، وقضية سكينة المتباعدة جلساتها. كان يجدر بها أن تحرز تقدّما ملموسًا في جلسة اليوم لتختصر المسافات، ولا تضطرّ إلى تكرار الرّحلات إلى نانت. أمّا سكينة، فقد انصبّت خيالاتها كلّها على صغيرتها التي تتوقّع

أن تلقاهـا وجهًـا لوجـه بعـد سـنواتٍ مـن التّباعـد القـسريّ، في حـين كانـت رانيـا تتسـاءل إن كان جـاسر سـيفعلها ويحـضر الجلسـة!

فجـأة، وقفـت رنيـم وركضـت إلى الحمّـام وعـلى وجهها علامـات الغثيـان. أفرغـت مـا في جوفهـا، ثـمّ عـادت شـاحبة والعـرق يتصبّـب منهـا. قالـت سـكينة في قلـق:

- هل أنت بخير؟

هـزّت رأسـها تطمئنهـا، رغـم ارتجافهـا ولهاثهـا. قالـت وهـي تتمالـك أنفاسـها:

- لعلّها نزلة معويّة.

تدخّلت رانيا تقول:

- هل يمكنك تحمّل السّفر حتّى نانت وأنت بهذه الحال؟

- والمرافعة بعد ذلك؟

أشارت إليهما في ثقة:

- لا تخشيا شيئا.. سأكون بخير!

تبادلتا نظرة متوجّسة، لكنّ إحداهما لم تحاول ردعها.

لقـد ترقّبـت سـكينة بنفـاد صـبر وقلّـة حيلـة أن تحـدّد المحكمـة تاريـخ جلسـة الاسـتماع. لا يمكنهـا بعـد ذلـك أن تفـوّت الجلسـة مهمـا حصـل. ثـمّ رنيـم شـابّة بالغـة، ويمكنهـا الاهتمـام بنفسـها. فكّـرت أنّ تفويـت الجلسـة ليـس خيـارًا متاحًـا لكلتيهمـا. لذلـك لـم تعلّـق.

خرجـن إثـر ذلك وركبن السـيّارة حـتّى محطّـة القطـار. حملـت سـكينة سـلّة ملأتهـا بالفواكـه والمقبّـلات الخفيفـة، ليتسـلّين بهـا خـلال رحلـة الذّهـاب والإيـاب الـتي تـدوم سـاعتين ونصـف في كلّ اتّجـاه. لكـنّ رنيـم الـتي اسـتمرّت انقباضـات معدتهـا، امتنعـت عـن الأكل بعـد ذلـك.

دخلـن قاعـة المحكمـة، ولزمـن مقاعدهـنّ في وجـل، بينمـا أخـذ الحاجـب

ينـادي أصحـاب القضايـا واحـدًا تلـو الآخـر للمثـول أمـام القاضيـة. تتالـت المرافعـات بـين طـلاق ونفقـة وحضانـة.. بينمـا كانـت سـكينة تسـترق النّظـر إلى الطّفلـة الجالسـة في طـرف القاعـة، إلى جـوار راهبـة عجـوز.

كانـت سـيلين تقضـم أظافرهـا في توتّـر، بينمـا تـتردّد نظراتهـا بـين الحاضرات، بحثًا عـن وجـه مألـوف. ثمّ توقّفـت عنـد سـكينة ورنيـم. بـدت عيناهـا مشـتّتين زائغتـين، لا تـكاد تسـتقرّ عـلى ملامحهمـا حـتّى يفـرّ بصرهـا إلى البعيـد.. كأنّهـا تخـشى أن يضبطهـا أحدهـم وهـي تتطلّـع إلى الغريبتـين.

أمّـا رانيـا، فكانـت تلتفـت إلى مدخـل القاعـة كلّ فينـة وأخـرى. مثلمـا حدّثهـا حدسـها بمجيئـه يـوم الجراحـة، تـكاد تجـزم بأنّـه سـيكون هنـا اليـوم. بـدأت رحلـة التّفتيـش عنـه عـلى رصيـف محطّـة القطـار في باريـس. إن كان سـيحضر، فهـو سـيركب القطـار بالتّأكيـد. غـير أنّـه لـم يسـتقلّ الرّحلـة ذاتهـا. أو عـلى الأقـلّ، لـم تلمحـه في مجـال بصرهـا. إنّ لـم يكـن قـد اسـتقلّ قطـار التّاسـعة والنّصـف، فسـيكون في القطـار التّـالي، بعـد سـاعة واحـدة.

- سيلين دينيس.. قضيّة حضانة!

همست رنيم وهي تسبق سكينة نحو منصّة القضاء:

- هيّا، جاء دورنا.

وقفتـا عـلى يمـين المنصّـة، بينمـا تقدّمـت الرّاهبـة العجـوز وهـي تمسـك بكـفّ سـيلين ولا تفلتهـا إلى الجهـة اليـسرى. في الأثنـاء، انغمسـت القاضيـة في مطالعـة ملـفّ القضيّـة عـلى عجـل. رفعـت عينيهـا أخـيرًا ورمقـت سـكينة في نـبرة متعاليـة:

- أنت الأم؟

- نعم!

- وقد أخذت منك حضانة البنت؟

- نعم، منذ عشر سنوات.

- ما الذي تغيّر منذ ذلك الحين؟

- لقـد تعلّمـت درس عمـري يـا سـيّدتي القاضيـة، لـن أكـون مهملـة بعـد اليـوم.. إطلاقـا! لـن أنـام اللّيـل، وسـأبيت أحرسـها كلّ سـاعة. سـأكون إلى جوارهـا في كلّ لحظـة، لـن أتركهـا أبـدًا!

تدخّلت رنيم وهي تضع على المنضدة ورقة كانت بحوزتها:

- هـذه قائمـة بالأشـخاص الذيـن بوسـعهم الشّـهادة بحسـن سـيرة سـكينة واسـتقامة حياتهـا.. بينهـم زميـلات عمـل وحرفـاء وشريـكات سـكن.

تناولـت القاضيـة الورقـة الممتلئـة عـن آخرهـا بأسـماء كثـيرة وضمّتهـا إلى أوراقهـا، ثـمّ رفعـت بصرهـا مـرّة أخـرى:

- أين زوجك؟

- انفصلنا.

- من يعيلك؟

- لقـد عملـت في السّـنوات الماضيـة، وادّخـرت كلّ مـا جنيتـه تقريبـا.. لـم أكـن أصرف الكثـير عـلى معيشـتي، حـتّى أحتفـظ بمبلـغ مناسـب لمسـتقبل أطفـالي.

- أين تسكنين؟

- أعيـش في شـقّة مشـتركة مـع بعـض الصّديقـات. محاميـتي، وشـقيقتها طالبـة بالجامعـة. نحـن عائلـة.

ألقت نظرة على رنيم ورانيا، ثمّ استدارت ناحية الرّاهبة:

- كيف هو حال الطّفلة؟

- إنّهـا مكتئبـة ومنعزلـة. منـذ جـاءت عندنـا قبـل سـنة ونصـف، لا تحـادث أحـدًا تقريبـا.. تهتـمّ بالأنشـطة اليدويّـة، وتنفـر مـن الدّراسـة. بـرأيي، إنّهـا تحتـاج محيطـا أسريّـا مسـتقرّا حـتى تتحسّـن حالتهـا النّفسـيّة.

هزّت القاضية رأسها ثمّ خاطبت سيلين:

- صغيرتي، هل تحبّين حياتك في الدّير؟

ببطء، وبحركة قاطعة، هزّت سيلين رأسها في علامة نفي حازمة. تدخّلت الرّاهبة:

- الرّاهبات مشغولات بأعمالهنّ طيلة الوقت.. أصغر الرّاهبات عندنا في العشرينيّات، ومهما حاولت التقرّب من الصّغيرة فإنّها لا تنفتح بسهولة. إنّها لا تتكلّم تقريبا.

ألقت القاضية نظرة حانية على الفتاة وقالت بابتسامة متعاطفة:

- هل تحبّين أن تنتقلي للعيش مع هؤلاء الفتيات؟

تلألأت في عينيها عبرة حبيسة وومضتا بتعبير غريب وهي تومئ بعلامة الإيجاب. نقلت القاضية بصرها بين الأمّ التي تبدو على مشارف الانهيار، والصّغيرة الهشّة التي تكاد تنكسر، ثمّ قالت:

- الاستماع إلى الشّهود والنّطق بالحكم خلال أسبوعين.

قاطعتها سكينة في رجاء:

- هل يمكنني أن أعانقها على الأقلّ؟

شرحت رنيم:

- سكينة ممنوعة من الاقتراب من طفلتها أكثر من مائة متر بحكم قضائيّ عمره عشر سنوات. وجودهما في نفس الغرفة يعتبر معجزة بالنّسبة إليها.

أشارت القاضية في تفهّم:

- تفضّلي.

نزلت سكينة على ركبتيها وفتحت ذراعيها، فخطت الطّفلة نحوها في وجل أوّلا، ثمّ بخطوات ثابتة ومتيقّنة، حتّى استكانت على صدرها. أخذت سكينة تمسح على شعرها وتذرف عبرات حرّى، وتهمس في أذنيها بصوت يقطّع نياط القلوب:

- يا صغيرتي.. يا حلوتي.. لقد كبرت. صرت عروسا جميلة.. يا حمامتي

الوديعـة.. هـل تعلمـين كـم أحبّـك.. هـل تعلمـين كـم اشـتقت إليـك؟

لبضـع دقائـق، انحبسـت أنفـاس كلّ مـن في القاعـة، وهـم يتابعـون مشـهد لقـاء الأمّ بابنتهـا بعـد غيـاب دام عقـدًا كامـلا، شـابت خلالـه الأمّ الشـابّة، وغـدت فيـه الرّضيعـة فتـاة يافعـة عـلى أبـواب المراهقـة. تمتمـت البنـت في تـردّد وحـذر، كأنّهـا تتـذوّق الكلمـة عـلى لسـانها:

- أمّي؟

- نعم يا روحي.. أنا أمّك!

ردّدت من جديد، في يقين هذه المرّة:

- أمّي!

- يا حياة أمّك، يا كلّ دنيا أمّك!

هتفت رنيم منتهزة لحظة التأثّر العامّة:

- سـيّدتي الرّئيسـة.. نظـرًا لظـروف الفتـاة العصيبـة وحالتهـا النّفسـيّة المتردّيـة، فإنّـي أقـترح عـلى جنابكـم التّعجيـل بالنّطـق بالحكـم.. وذلـك لمصلحـة الصّغـيرة. إسـناد حضانتهـا إلى شـخص يهتـمّ لأمرهـا مـن صميـم الفـؤاد، وخاصّـة أنّهـا مـن لحمهـا ودمهـا، مـن أهـداف محكمـة الأسرة الأولى.. ولا أرى داعيًـا لإطالـة الانتظـار الـذي لا معـنى ولا فائـدة منـه!

تنهّـدت القاضيـة وبـدا عليهـا التّفكـير لبرهـة، نقلـت بصرهـا بـين الرّاهبـة المتعبـة، الفتـاة الذابلـة والأمّ الدّامعـة، ثـمّ تحرّكـت ذراعهـا في حركـة بطيئـة.. توقّفـت لثـوانٍ تـزن قرارهـا بعـين العقـل ثـمّ تصغـي لصـوت العاطفـة، لتـضرب أخـيرًا بمطرقتهـا عـلى الطّاولـة معلنـة الحكـم:

- أسندت الحضانة إلى الأم، سكينة البيطار!

تعـالى صراخ رانيـا في جـذل غـير مصدّقـة، وقفـزت مـن مقعدهـا لتحتضـن سـكينة وسـيلين اللّتـين لـم ينفصـل عناقهمـا بعـد، بينمـا هتفـت رنيـم الـتي لـم تعتقـد أنّ محاولتهـا اليائسـة قـد تجـد تجاوبًـا عنـد القاضيـة بتلـك البسـاطة:

- شكرًا لك سيّدتي الرّئيسة! ليس في الكلمات ما يكفي لشكرك على جمعك الأمّ بابنتها بعد انتظار دام عشر سنوات!

ثمّ سارعت تنضمّ إليهنّ في عناق جماعيّ اختلطت فيه الضحكات بالعبرات.

غادرن قاعة المحكمة، وسيلين لا تفارق حضن والدتها، في حين تمسك رانيا بكفّها الأخرى مثل شقيقة كبرى. تأخّرت عنهنّ رنيم بضع خطوات حتّى تخاطب الرّاهبة. قالت في امتنان:

- شكرًا لتعاونك، ولاهتمامكنّ بسيلين في الفترة الماضية. فتاة وحيدة وفاقدة للسّند العائليّ مثلها، كان يمكن أن تضيع عن الجادّة بسهولة.

تنهّدت الرّاهبة وقالت:

- لقد رأيت مدى تأثّرها بعد زيارتك السّابقة. وأدركت أنّها تريد هذه العائلة. لذلك فعلت ما بوسعي حتّى أحتفظ بها في انتظار جلسة اليوم.

- إذن، سأمرّ بعد قليل إلى الدّير لتجمع سيلين حاجياتها...

ضحكت الرّاهبة وقالت:

- لقد جمعت سيلين حاجياتها كلّها في حقيبة وأحضرتها. لقد خفت عليها هذا الصّباح من حماسها.. أخبرتها بأنّ الأمر غير مضمون بعد، وأنّها لن تغادر الدّير اليوم.. لكنّها أصرّت! من ألطاف الله أنّ أمنيتها لم تخب!

ابتسمت رنيم في سرور.. ثمّ تابعت بعينيها رانيا وهي تنفصل عن سكينة وابنتها فجأة وتركض في ممرّ المحكمة. بحثت في توتّر في مجال رؤيتها عمّا تتبعه رانيا.. حتّى حطّت نظراتها على شابّ يحثّ الخطى مبتعدًا، ويتلفّت في حذر.

كزافي!

وقفت رانيا أمامه وهي تلهث، وقالت بظفر:

- لقد عرفت أنّك ستأتي! هل فوّت الجلسة؟

نظر إليها في انزعاج، وقد كشف أمره. قال في ضيق:

- لقد رأيت كلّ شيء.. أنا سعيد من أجل سيلين. لم أكن أتمنّى لها أن تكبر في الدّير...

قالت في رجاء:

- بما أنّك هنا.. لماذا لا تتحدّث إلى سكينة؟

اقتربت رنيم على عجل، وقالت في اهتمام:

- أنت كزافي، أليس كذلك؟

اكتست ملامحه مسحة عدائيّة وهو يحدّق فيها وقال في نفور:

- من تكونين أنت؟

- أنا شقيقة رانيا.. وصديقة سكينة.

- آه، أنت المحامية.. لقد رأيتك بالدّاخل.

- لماذا لا نجلس جميعا ونتناول الغداء؟

غمغم في ضيق:

- يجب أن ألحق القطار...

- هناك رحلة على رأس كلّ ساعة، إذا فوّتّ رحلة، تلحق بالتّالية. ما دمنا جميعا هنا.. أراها فرصة سانحة.

ودون أن تنتظر، التفتت وراءها ونادت:

- سيلين تعالي.. تريدين لقاء شقيقك؟

تسمّرت سكينة في صدمة، وهي ترمق كزافي بنظرات مهتزّة. كان حضور الصّغيرة بين ذراعيها قد استغرقها حتّى أنّها لم تلتفت إلى غياب الأختين. استفاقت حين تركت سيلين حضنها وتقدّمت إلى نصف الدّائرة التي وقف على حدودها كلّ من رانيا ورنيم وكزافي. قالت البنت فجأة:

- لقد رأيتك. أنت تجيء للدّير كثيرًا.

امتقع وجهه وقد أحيط به من كلّ جانب. فشرحت رنيم:

- أنتما أخوان شقيقان.. لكنّ كزافي يعيش مع عائلة أخرى الآن.

رفع كزافي بصره ليواجه نظرات سكينة المتضرّعة، وقال بقسوة:

- لديّ أمّ واحدة!

قالت سكينة في انكسار:

- لا بأس يا صغيري، لا بأس.

- لستُ صغيرك!

- أنت محقّ، أنا آسفة. من حقّك أن ترفضني.. لكن كم شقيقة لديك؟

أطبق شفتيه ولم يحر جوابًا. لم يعرف معنى الأخوّة. لقد نشأ وحيدًا بلا أشقّاء. وحتّى لو أنكر وجود تلك الأمّ الغريبة ولفظها، فإنّه يشعر بتعلّق لا إراديّ بتلك الصّغيرة البائسة اليتيمة! لعلّ اشتراكهما في المصير ووحدة مأساتهما تقرّبهما بشكل غريزيّ.

على حين غفلة منه، اقتربت سيلين وأمسكت كفّه وأخذت تشدّه وراءها. قالت بصوتها اللّطيف السّاحر:

- هيّا بنا.

لم تكن تتكلّم كثيرًا. لكنّ حروفها القليلة غالبًا ما تكون حاسمة وحازمة. وقد آتت أكلها سريعًا، إذ استسلم لذراعها تقوده، بل تقودهم جميعا وهي تسبق خطواتهم خارج بناء المحكمة. استلمت ريم الحقيبة من الرّاهبة، ثمّ انضمّت إلى جمعهم حول مائدة مطعم صغير يقع قبالة المبنى الإداريّ. أشارت رانيا إلى النّادل، وطلبت طبقي بيتزا عائليّة للمشاركة.

هتفت سكينة وهي تخترق الصّمت المخيّم على الجلسة بنبرة متحمّسة :

- عندي مفاجأة لكما!

أخرجت ألبوم صور قديمًا لطالما ناجت أطياف ساكنيه في وحدتها في

جوف اللّيل. لكنّ مشاركة ذكرياتها مع تلك الوجوه الحبيبة كانت أمنية بعيدة المنال، والآن هي ترضية أبهى ممّا يتّسع له صدرها. وضعت الألبوم على المائدة في انتظار وصول البيتزا، وأخذت تتصفّح الصّور على مهلٍ وتشير إلى المشاهد التي تحفظها عن ظهر قلب وتتحدّث:

- هذا أنت يا جاسر، حين كنت في سنّ الثالثة.. هذه الدّرّاجة الحمراء التي كنت تركبها في فناء البيت.. وهذه أنت يا ميار، بعد يومين من ولادتك. اشترى لك والدك هذا السّوار الذّهبيّ، فرحًا بمجيئك إلى الدّنيا...

سألت سيلين في دهشة:

- ميار؟

- اسمك هو ميار يا حبيبتي.. معناه بالعربيّة هو «جالبة الخير»، وبالفارسيّة «ضوء القمر».. وبالتّركيّة «وردة الجنّة»!

فغرت الطّفلة فاها بإعجاب، فاستطردت سكينة تقول:

- أمّا جاسر، فهو الرّجل الشّجاع!

كان جاسر يتابع كلماتها متظاهرًا بعدم الاهتمام. يجلس باسترخاء على مقعده، متّكئا إلى الخلف، عاقدًا ذراعيه أمام صدره، ويلقي من حين إلى آخر نظرة ممتعضة على الصّور التي تشرح سكينة تفاصيلها.. حتّى قالت وقال مال صوتها إلى البكاء:

- وهذا رامز.. شقيقكما.. أسأل الله أن يغفر لي، ويجمعنا به في الجنّة!

ران صمت عميق على المجموعة، واعتلى الضّيق ملامح كرافيي، بينما كانت سيلين تحدّق في ملامحه باهتمام، ثمّ هتفت:

- إنّه يشبهني!

ابتسمت سكينة وهي تشدّ على كتفها بيسراها وأومأت موافقة:

- أنت ورامز تشبهاني.. وجاسر يشبه والدكما. انظري...

فتحت صفحة ألبوم تحوي صورة لطليقها وجاسر يجلس بينهما. فتطلّع كزافي بحذر لينظر إلى وجه الرّجل الذي تدّعي أنّه شبيهه. توقّفت عيناه طويلا على الشّابّ الثلاثينيّ الذي كانه والده زمن التقاط الصّورة. حدّق في الوجنتين البارزتين والأنف الطّويل الذي يحاكي أنفه، وإلى الشّارب الخفيف الذي يعلو شفتين غليظتين. انتبه إلى سكينة الّتي كانت ترمقه خفية وابتسامة حانية تزيّن مبسمها، فلملم نظراته وأشاح بعيدًا.

جاء النّادل حاملا البيتزا، فأشارت إليه رانيا وهي تناوله هاتفها:

- هلّا التقطت لنا صورة جماعيّة؟

استدار الجميع إلى العدسة بوجوه مشرقة، بينما حافظ كزافي على جموده. شعر بضربة شديدةٍ تصيب ساقه تحت الطّاولة، فتأوّه بخفوت، وهو يبحث عن الفاعل بنظرات زائغة. اصطدمت عيناه بنظرة رانيا النّاريّة. كانت تتوعّده في صمت. حدجها في استياء، فأشارت إليه أن يبتسم! هزّ كتفيه استهانة وعاد إلى عزلته.

- عائلة مميّزة!

قال النّادل وهو يعيد إلى رانيا هاتفها، فابتسمت شاكرة، ثمّ قالت لسكينة:

- سأطبعها حين نصل إلى باريس.. هكذا يكتمل ألبوم صورك!

بادلتها سكينة نظرة امتنان، وتمنّت في سرّها أن يلين جاسر ويعود ليكون واحدًا من أفراد عائلتها حقًّا.

***

تركتهنّ عند مدخل المبنى وقالت:

- أحتاج المرور إلى الصّيدليّة.. سآتي حالا.

ثمّ هرولت إلى رأس الشّارع. كانت معدتها قد هدأت، لكنّ هواجسها لم تخفت. غابت في الدّاخل لخمس دقائق، ثم رجعت إلى الشقّة.

في المطبـخ، كانـت سـكينة تنشـط في همّـة، وإلى جوارهـا الطّاهيتـان المتدرّبتـان، رانيـا وميـار. ابتسـمت وهـي ترمـق ثلاثتهـنّ بنظـرة راضيـة. كـنّ يبـدون مثـل عائلـة حقيقيّـة. تركـت حقيبتهـا، ودلفـت عـلى الفـور إلى الحمّـام.

- أين رنيم؟

هتفت سكينة، حين تأخّر ظهورها.

- العشاء جاهز!

كانـت قـد غابـت في الحمّـام منـذ نصـف سـاعة أو تزيـد. تقـف أمـام المـرآة وتحـدّق في ملامحهـا المجهـدة بنظـرات زائغـة.. ثـمّ تعـود عيناهـا في صدمـة، إلى اختبـار الحمـل السّـاكن قـرب المغسـلة. كان ينبغـي للإشـارة أن تختفـي بعـد بضـع دقائـق، لتعلـن فشـل الاختبـار. لكنّهـا باقيـة، واضحـة وصريحـة بمـا لا يـدع مجـالًا للشّـكّ!

- رنيم، أنت حامل! تهانينا!

قالـت لنفسـها بسـخرية لاذعـة. يبـدو هـذا مثـل كابـوس لعـين. لـم تصـدّق أنّ هـذا ممكـن أصـلا، فهـي لـم تهمـل حبـوب منـع الحمـل قـطّ. لقـد كانـت مطمئنّـة لاتّخاذهـا الاحتياطـات اللّازمـة، ولـم يخطـر ببالهـا أنّ الانـزلاق إلى الهاويـة محتمـل. رمـت الاختبـار في سـلّة المهمـلات، ثـمّ انهمكـت تفـرك كفّيهـا ووجههـا، كأنّمـا تريـد الانتبـاه مـن الحلـم المزعـج.

لـم تكـن قصـص الجنيّـات تتطـرّق إلى حيـاة الأمـيرة بعـد الـزّواج. لا أحـد يتحـدّث عـن خلافاتهـا مـع الأمـير، رفضهـا للإنجـاب، أو تقلّباتهـا المزاجيّـة. تبـدأ الحيـاة الحقيقيّـة مـن حيـث تنتهـي قصّـة الأمـيرة في الحكايـة!

لـم تقصـد المكتـب في الصّبـاح التّـالي. لـم يكحّـل النّـوم جفنيهـا حـتّى الفجـر، وكانـت آلام الـرّأس رفيقتهـا حـين صحـت نحـو التّاسـعة. ارتـدت ثيابهـا عـلى عجـل وخرجـت إلى المشـفى دون أن تحـادث أحـدًا. جلسـت في قاعـة الانتظـار مـن قسـم العيـادات الخارجيّـة الخاصّـة بالنّسـاء والـولادة. ترمـق بنظـرات مرتعبـة البطـون المنتفخـة الـتي تحيـط بهـا، وتسـير صاحباتهـا مثـل السّرطانـات العرجـاء!

حـين جـاء دورهـا، تثاقلـت في الوقـوف، وكأنّ بطنهـا يسـحبها إلى الأرض بعـبء خيـاليّ. ثـمّ استسـلمت لمصيرهـا، ودخلـت العيـادة. اسـتقبلتها طبيبـة ذات اسـم آسـيويّ، بعينـين ضيّقتـين ووجـه مجعّـد. ابتسـمت وهـي تفحـص بطنهـا، ثـمّ أخـذت تسـتمع إلى نبضـات الجنـين. كانـت ملامحهـا تكتسـي جدّيّـة بالغـة وهـي تدقّـق حـتّى كاد حاجباهـا الرّقيقـان يلتقيـان.

سألت رنيم في توجّس:

- ما الأمر؟

- كلّ الخـير يـا عزيـزتي.. كلّ الخـير. لكنّـي أريـد التأكّـد قبـل ذلـك.. تفضّـلي إلى غرفـة التّصويـر بالموجـات فـوق الصّوتيـة!

عـلى الشّاشـة، ظهـرت صـورة تكشـف عـن دواخـل رحمهـا. لـم تكـن تسـتوعب شـيئا ممّـا تـراه، لكنّهـا تابعـت حـركات الطّبيبـة في اهتمـام. شـعرت بجهـاز الرّصـد البـارد يضغـط بقـوّة عـلى بطنهـا، بينمـا سـمعت صـوت الطّبيبـة تقـول:

- هذا الرّأس...

حدّقت في الشّكل الكرويّ الذي يحيط به سواد كثيف وخيوط متداخلة.

- وهذا الرّأس الثاني!

نقلت عينيها من الشّاشة نحو وجه الطّبيبة في صدمة. يا للهول!

- تهانينا عزيزتي.. أنت حامل بتوأم. مدّة الحمل التقريبيّة، سبعة أسابيع!

غادرت العيادة، وهي تكاد تفقد توازنها. لقد دخلت بنيّة واحدة. أن تستفسر عن سبل آمنة للتخلّص من الجنين. لكنّ الصّدمة ألجمتها وأخرست لسانها. توأم! إنّ قتل جنين واحد كان حملًا يرزح تحته ضميرها فيسحقه، فكيف باثنين؟

عبرت المسار الفاصل بين العيادات الخارجيّة وقسم التّنويم. قادتها خطواتها نحو غرفة ياسمين، لكنّها لم تكن هناك. خمّنت على الفور أنّها ستكون إلى جوار طفلها.

لوّحت لها من وراء الحاجز الزّجاجيّ لغرفة الحضانة. كانت تحمل عزّ الدّين برفق وتهدهده، بعد أن تناول وجبته الصّباحيّة. ترقّبت حتّى انتهت من إشباع غريزة أمومتها وحاجته إلى الحنان، ثمّ جلستا معًا في قاعة الانتظار. قالت رنيم وهي تخفي توتّرها:

- العناية بالأطفال أمر صعب!

تنهّدت ياسمين ثمّ ابتسمت:

- لكنّه تعب حلو! كلّ ثانية أمضيها إلى جواره لها طعم الشّهد.. كأنّها لحظات سُرقت من الجنّة!

حدّقت فيها رنيم في شكّ. إنّها تبدو منهكة ومستنزفة القوى. مازال جرح القيصريّة يجعلها تنثني ألمًا، لكنّها تبتسم وتشعّ قسماتها بشرًا، كلّما ورد ذكر وليدها على لسانها.

لكنّها لا تشعر بالأمر ذاته تجاه الكائن الذي بات يستوطن جوفها.

بـل الكائنـين الاثنـين! لا يمكنهـا أن تضمـر غـير الخـوف والسّـخط والغيـظ! لـم يكـن الوقـت مناسـبًا لتصبـح أمّـا. لقـد تشـاجرت وشـهاب لهـذا السّـبب بالـذّات. وهـي لا تـرى انقـلاب الموازيـن واردًا أو ممكنًـا. لـم تتغـيّر ظروفهـا قـطّ. مازالـت العقبـات ذاتهـا قائمـة، لذلـك.. لذلـك لا تسـتطيع أن تحـبّ الجنينـين اللذيـن شرعـا يتكوّنـان في رحمهـا. سـألت في حـذر:

- هل أحببته منذ اليوم الأوّل؟ حين عرفت أنّك تحملينه في بطنك؟

ابتسمت ياسمين في شغف:

- لقـد كانـت لحظـة سـاحرة.. لحظـة أيقنـت أنّنـا سـنصبح «عائلـة»! أنـا وهيثـم، كنّـا سـعيدين قبـل ذلـك.. لكـنّ طعـم الحيـاة اختلـف، بوجـود جنين نصفـه منّي والنّصف الآخـر مـن أبيـه. بشـكل مـا، هـذا الصّغـير هـو نتـاج انصهـار أحدنـا في الآخـر..

ابتسـمت ريـم في حـيرة. ياسـمين العقلانيّـة حـين يتعلّـق الأمـر بالـزّواج، تحوّلـت إلى حالمـة رومانسـيّة في مـا يخـصّ الأطفـال!

سرحـت لبرهـة، تتمثّـل حياتهـا في وجـود طفـل مـن شـهاب. انتفـاخ البطـن، وآلام الـولادة، ثـمّ ترهّـل جسـمها نتيجـة الحمـل والرّضاعـة والهـالات السّـوداء مـن أثـر السّـهر، ورائحـة الحفّـاظ! انتابهـا إحسـاس بالـدّوار. إنّهـا لا تسـتطيع الوصـول إلى بقعـة الضّـوء الـتي يفـترض بهـا أن تظهـر في نهايـة النّفق المظلـم. إنّهـا لا تـرى سـوى عتمـة النّفـق!

تنهّدت ياسمين، فسألت ريم في قلق:

- ما الأمر؟

- أحمـل هـمّ الأيّـام المقبلـة.. غـدًا يجـب أن أتـرك غرفـتي في قسـم الـولادة. لكـن أمـام عـزّ الدّيـن أسـبوع بعـد.. وهيثـم...

- آه!

لـم يكـن وضـع هيثـم مسـتقرّا بعـد. كلّمـا سـألت عنـه، قيـل لهـا أنّـه نائـم! تلـك النّومـة الـتي تسـتمرّ منـذ يومـين توحـي بـشيء آخـر. لكنّهـا لا ترغـب في

بعثرة اطمئنان ياسمين الهشّ. لا تريد أن تكون سببًا في تعكير صفوها. إن كان قد استيقظ أوّل أمس، فقد يستيقظ في أيّ وقت آخر.. عليها الانتظار بعد.

كان منزل زهور واقعًا في الضّاحية الشّمالية، والمشفى في الضّاحية الجنوبيّة. لا شكّ أنّ الرّحلة اليوميّة لعيادة ولدها وزوجها ستستغرق منها ساعة أو تزيد. وهي لا تستطيع بعد أن تتنقّل بمفردها، تحتاج إلى الرّفقة. إنّ في الأمر مشقّة لا محالة.

- لماذا لا تبقين في شقّة الشّركة؟ إنّها قريبة من هنا.

- الشّركة؟

- هل لديك نسخة من مفاتيح هيثم؟ سأهتمّ بترتيب المكان من أجلك.

- خالتي زهور معها بالتّأكيد.. هيثم يحتفظ بنسخة في منزل والديه، حتّى إذا أضاع مفاتيحه أو نسيها.. كان لديه بديل.

- جميل.. سأتّصل بميساء.

تعالى رنين هاتفها في تلك اللّحظة، فاعتذرت من ياسمين لتردّ. كانت مساعدتها. أصغت إلى تقريرها الذي طلبته بخصوص آية وعائلتها، ثمّ قالت على عجل:

- لديّ عمل الآن.. سأراك لاحقًا.

***

اقتحمت غرفة عمر وهي تلهث، مثل عاصفة هوجاء. هتفت دون مقدّمات:

- لقد اختفت!

حدّق فيها في عدم فهم.

- آية ووالدها.. اختفيا! لا أثر لهما في باريس، بل في فرنسا كلّها. البيت خاوٍ على عروشه.. ولا أحد من الجيران يعرف إلى أين مضيا. حتّى أنّ

والدها ترك وظيفته بلا مبرّر.

أصغى عمر في صمت، ولم يعقّب. فأردفت رنيم في شكّ:

- لا تبدو متفاجئا!

قال بهدوء:

- لماذا تنبشين وراءهما؟

- لأنّني لا أشعر بالارتياح.. ما الذي يجعلهما يختفيان بعد الحادثة تمامًا؟

- لكلّ أسبابه!

تمهّلت لبرهة ثمّ قالت بحزم:

- هذا يثبت علاقتهما بالقضيّة!

عاجلها عمر بلهجة صارمة:

- لا أريد منك إقحامهما في الأمر! لا تأتي على ذكرهما أبدًا.. هل سمعتِ؟

لكنّها ألقت في تحدّ:

- أنت لا تفهم. السّبل كلّها مسدودة. إن كان لإثارة الشكّ تجاههما نفع في القضيّة فلن أتردّد في توجيه اللّوم إليهما! أيّ مجال للشكّ في طرف ثالث يعدّ فرصة لا تفوّت!

زفر في ضيق، ثمّ تريّث قبل أن يقول في حذر:

- ماذا لو كان هناك مجال لإلقاء اللّوم على طرف ثالث، دون أن يوجّه الاتّهام إليهما؟

- ماذا تعني؟

- آية، في زيارتها الأخيرة، قبل رحيلها.. ذكرت بضعة أسماء. قالت أنّ بوسعي -إذا ما اضطررت إلى الاعتراف- أن أنحّي جزءًا من اللّوم عن نفسي.

- أيّ أسماء؟

تنهّد، ثمّ قال:

- عائلة آية، ذات صلات عريقة بالمقاومة.. لكنّ والدها هاجر حين كانت في سنّ صغيرة. لقد أراد لها حياة طبيعيّة ومستقرّة.. وهذا ما يأمله كلّ من يرزقه الله بالذرّية. يرجو لهم حياة أفضل من التي عاشها. لكنّها نشأت على حبّ فلسطين وتعلّق بتاريخها، وتطلّع للعودة إليها.

أعلنت رنيم في ظفر:

- إذن هي السّبب في كلّ ما حصل! لم أكن مخطئة!

- بل أنت مخطئة تمامًا. لقد نما وعيي بالقضيّة الفلسطينيّة بفضلها، هذا صحيح. ولقد سافرت إلى سوريا بتوصية من خالها، وهذا أيضا صحيح. لكنّي لا أتّهم بهذا.. بل بسبب نشاط الشّركة! المشروع الذي أثار حفيظة الصّهاينة، لم يشر به عليّ أحد! لقد فكرت وخطّطت، ثمّ شاركت هيثم أفكاري.. وتعاونّا على الإنجاز في معزل عن آية وعائلتها. لم يكن لأيّ منهم معرفة مباشرة أو غير مباشرة بنشاط الشّركة! لقد سافرت إلى غزّة، وهناك أنشأت علاقات تخصّني.. تواصلت بشكل مباشر مع مهندسي المقاومة، وهي لم تكن تعلم بما فعلت هناك ومن قابلت وما أسفرت عنه الزّيارة!

صمت لبرهة، ثمّ واصل أمام وجوم رنيم:

- لكنّها -رغم ذلك- كانت تشعر بالمسؤوليّة تجاهي.. لأنّها فكّرت مثلك. أنّني لم أكن لأتورّط لولا معرفتي بها.. لكنّها لا تدرك أنّني كنت سأبقى بلا بهدف، لولا ظهورها في حياتي! أنا لا أندم على شيء ممّا فعلت.. ولا أحسب هيثم يفعل، لولا أنّ مصاب عائلته به عظيم.

أخذ نفسًا وكتم عبرة ثم استطرد:

- لقد جاءت آية تمدّ يد المساعدة، وهي غير مجبرة. لكنّها لا تملك من أمرها شيئا. خشيت أن يلحقها أذى، وهي فتاة شابّة، لا يليق بها ارتياد المعتقلات ودخول التّحقيقات، وهي بريئة أساسًا. لذلك طلبت منها

الرّحيـل. لكنّهـا اتّصلـت بخالهـا، وطلبـت دعمـه.. وهـو لـم يقـصّر. كلاهمـا قـام بواجبـه وأكـثر.

ثمّ رفع كفّه كأنّما يؤدّي القسم وقال بلهجة ساخرة:

- لقـد فعلـت مـا فعلـت عـن وعـي وقناعـة تامّـين.. وأنـا في كامـل قـواي العقليّـة!

ران الصّمت على الغرفة حين فرغ من شرحه. سألت رنيم بعد دقيقتين استوعبت خلالهما مراده:

- هذه الأسماء، ما نفعها؟

- إذا اضطررت إلى الاعتراف.. أقول أنّه قد غرّر بي، وأنّني التقيت بتلك الشّخصيّات، فعرضوا عليّ العمل معهم وتزويدهم بمعدّات التجسّس.

- وهل ستفعل؟

ابتسم في تهكّم وقال:

- هل جاء أوان الاعتراف؟

ازدردت لعابها في توتّر. لو أنّ هيثم يعترف بأنّ عمر هو المسؤول الأوّل في المشروع، سيحصل على صفقة مع المدّعي العام. خمس سنوات نافذة. لكنّ عمر سيُحشر في الزّاوية. حتّى لو اعترف بتلك القائمة الاسميّة، فلن يسفر الأمر إلّا عن تخفيف طفيف للحكم. عشرون عامًا، بدل المؤبّد ربّما!

والآن تشعر أنّ الوقت ينفد منها، تتناثر حبّات الرّمل في ساعتها، والحلول تتناقص باستمرار.

***

سحبت رنيم قدميها عبر ممرّات المشفى بلا حماس. باتت تتقن الفرار أكثر من المواجهة. وقفت تراجع أفكارها عند مدخل قسم العناية دون أن تجرؤ على الولوج. هناك الكثير لتفكّر به.. حتّى لا تعود إلى سرّها الصّغير الذي تخفيه عن الجميع حتّى اللّحظة.

كانـت قـد عـادت إلى المشـفى بعـد أن تأكّـدت مـن جاهزيّـة الشـقّة لاسـتقبال ياسـمين ووالدتهـا. أمضـت سـاعات طويلـة في التبضّـع والتّزويـق منـذ الصّبـاح. تنفـق وقتهـا في نشـاط يشـغلها عـن الأزمـات العصبيـة الـتي لا تجـد لهـا مصرفًـا. لـم تكـن ياسـمين في غرفتهـا حـين وصولهـا، فمضـت تقتفـي أثرهـا. توقّفـت عنـد غرفـة العنايـة، لكنّهـا لـم تدخـل عـلى الفـور.

عـلى امتـداد الطّريـق مـن الشـقّة، كانـت تحـادث نفسـها بأنّهـا بحاجـة إلى الفضفضـة. فكّـرت بأنّهـا إن ألفـت ياسـمين بمفردهـا، فسـتفضي إليهـا بمكنونـات صدرهـا. تخيّلـت جلسـتهما عـلى مقاعـد الانتظـار، تتسـامران مثـل الأيّـام الخـوالي، مـع اختـلاف الإطـار المـكاني!

لمحت طبيبًا يغادر غرفة هيثم، فاستوقفته للسّؤال:

- كيف أصبح هيثم الأندلسي اليوم؟

هزّ الطّبيب رأسه بابتسامة وقال:

- سيكون بخير.. لقد نام للتّوّ. لا يريد إزعاجًا. عن إذنك الآن.

طالعـت سـاعتها في ارتبـاك. تفصلهـا سـاعتان عـن انتهـاء مهلـة المدّعـي العـام. اسـتدارت عـلى عقبيهـا فـورًا وهرولـت في اتّجـاه غرفـة عمـر. غابـت في الدّاخـل لدقيقتـين ثـمّ خرجـت مفزوعـة. تناولـت هاتفهـا واتّصلـت بجـورج. قالـت في انفعـال:

- اتّصل بمكتب النّيابة واقبل عرضهم!

- ماذا تقولين؟

بدا جورج مشوّشا وغير مستوعب. فأضافت في استماتة:

- يجـب أن تسـاوم عـلى خمـس سـنوات فقـط، مثـل العـرض الـذي جـاء لهيثـم. أقنعهـم أنّ عمـر سـيدلي بمعلومـات وافـرة عـن جهـات الاتّصـال بالمنظّمـة الإرهابيّـة!

هتف جورج في دهشة:

- هل أنت واثقة؟ هل تعلمين أنّك تخاطرين بمصير موكّلك؟

- لا تقلق.. إنّها مخاطرة محسوبة.

زفر في توتّر ثمّ قال:

- ماذا عن عمر؟ هل وافق على هذا؟

قالت على عجل:

- ليس بعد.. لكنّه سيفعل.

أضافت أمام تردّده:

- لم يبق الكثير من الوقت. سأشرح لك لاحقًا. إذا أنهيت المساومة، اتّصل بي على الفور!

قال في استسلام:

- حسنا.

أخذت رنيم نفسًا عميقًا، ثمّ خطت إلى قسم العناية المركّزة.

-٣٣-

حين رجعت ميساء من رحلتها إلى «ليل»، حكت تفاصيل ما رأت في الشقّة المتروكة منذ أسبوع، وأناملها ترتجف. كانت قد سافرت في وقت مبكّر رفقة والدها إلى شقّة ياسمين وهيثم لإحضار ملابسهما، وحاجيات عزّ الدّين، مع اقتراب مغادرة ياسمين للمشفى.

لم يكن باب الشّقّة محكم الإغلاق. في البداية حسبت ياسمين قد غفلت عن ذلك إبّان رحيلها المستعجل.. لكنّها أدركت ما حصل ما إن خطت إلى الدّاخل وأضاءت الأنوار. كان متاع الشقة مبعثرًا في الأرجاء، وأثاثها منقلبًا رأسًا على عقب. بدا أنّ يدًا عابثة قد مرّت من هناك، وتركت المكان ركامًا لا يميّز بعضه من بعض.

حدّقت فاغرة فاها، وقد شلّتها الصّدمة. ثمّ أخذت تجمع ما تصل إليه يدها من ثياب وهي تنتحب بلا توقّف. عبّأت ما حسبته ضروريًا من المتاع في حقيبتي سفر، ثمّ جذبت الدفّة وغادرت لا تلوي على شيء.

أسرّت في تردّد إلى ياسمين بما شهدته بأمّ عينيها، فلحظت شحوبها المفاجئ. سارت بمحاذاتها في صمت باتّجاه قسم الحضانة، وقد شغلتهما الأفكار والهواجس. كان عزّ الدّين قد غدا في صحّة أوفر، لكنّهم يحتفظون به تحت الملاحظة ما دام لم يشرع وزنه في الزّيادة.

وهما تعبران باتّجاه غرفة هيثم، أبصرتا رنيم تقف في شرود في الممرّ. بدت ساهمة وغائبة في بوتقة أفكارها هي الأخرى. بادرتها ميساء على الفور:

- هل من جديد؟

زوت رنيم ما بين حاجبيها وهي مازالت تحاول استيعاب كلمات الطّبيب الغريبة:

- ما يزال نائما...

إنّه ينام منذ يومين. الكلّ يتحدّث عن غيبوبة جديدة ممكنة، لكنّ الطّبيب يبدو مطمئنًا أكثر ممّا ينبغي. سألت بدورها:

- هل عزّ الدّين بخير؟

- إنّه يتحسّن باستمرار.

أومأت ياسمين مطمئنة، فأردفت ميساء:

- لكن هناك شيئا آخر...

ثمّ سردت على مسامعها تفاصيل ما رأته في الشقّة. أصغت رنيم في اهتمام وقلق متزايد، بينما تراءى الذّهول مسيطرًا على ملامح ياسمين، وقد زاغت عيناها محدّقة في الفراغ. لقد ظنّت أسوأ مخاوفها يقف إزاءها، فإذا بها تقف على عظيم جهلها بحقيقة الأمر.

بينما تقف ثلاثتهنّ في الممرّ، يتبادلن نظرات القلق والتوتّر، استرعى انتباه رنيم مشهد ممرّضة تركض في اتّجاه غرفة العناية وقد بدا عليها الارتباك. ما إن انفرجت دفّتا الباب حتّى سمعت رنيم الرّنين الآليّ الذي تصدره الآلات المتّصلة بهيثم.

هرولن في ذعر في اتّجاه الغرفة. تذكّرت رنيم كلمات الطّبيب المريبة منذ حين، بينما بلغ نداء الممرّضة للطاقم الطّبيّ لتدخّل عاجل. وقفت في تردّد، تنقل بصرها بين الغرفة ووجه ياسمين الشّاحب، وبين الممرّ الذي اختفى منه الطّبيب الذي تحدّثت إليه. انتابها هلع مفاجئ ودوّت صافرات الإنذار في رأسها، فتركت صاحبتيها وانطلقت تركض إثر الطّبيب.

حين صارت في الممرّ الخالي، أدركت أنّها فقدت أثره، لكنّ حدسها أنبأها بوجهته. حثّت الخطى وهي تدعو أن تصل قبل فوات الأوان. لم تكن قد أشرفت على قسم الجراحة بعد، حين لمحت الطّبيب ذاته وهو يهرول مبتعدًا عن غرفة عمر. هتفت برجل الأمن عند الباب:

- اقبض عليه! ذلك الطّبيب.. إنّه مدّع!

حدجها رجل الأمن في استغراب ونقل بصره بينها والمنعطف الذي اختفى منه الطّبيب في حيرة، ولم يبرح موقعه. خلال ثوانٍ أدركت أنّ الرّجل قد لاذ بالفرار لا محالة. قالت بسرعة وهي تخرج بطاقتها:

- أحتاج إلى رؤية المتّهم في الحال.

حين ولجت إلى الغرفة، لم تر عمر على السّرير. تسمّرت مكانها.. لم يكن عمر قد ترك سريره قطّ حتّى تلك اللّحظة. تساءلت في وجل.. أين يمكن أن يكون؟ همّت بالطّرق على باب دورة المياه، لكنّ أنينًا خافتًا جعلها تخطو لتلقي نظرة على الجانب الآخر من السّرير. فوجئت بعمر ملقى على الأرض، وإلى جواره حقنة محطّمة.

هتف ما إن رآها بصوت متحشرج:

- هيثم!

- سأنادي الممرّضة على الفور!

كرّر في إلحاح:

- هيثم.. إنّه في خطر!

هزّت رأسها في أسى:

- أخشى أنّه قد فات الأوان...

***

مضت ساعات النّهار بطيئة ورتيبة. لم يكن يقطعها سوى زيارة الطّاقم الطبيّ تارة ودخول رنيم العاصف طورًا، ليرجع عمر بعد ذلك إلى مناجاة السّكون ومعاقرة الملل.

ترك كتابه ذلك العصر، وقرّر فتح التّلفاز. لم يكن يهوى التّقليب بين الفضائيّات الفرنسيّة غالبًا، وقد بات الأمر أسوأ بعد أن غدت قضيّته الشّغل الشّاغل للمنصّات الحواريّة والنشرات الإخباريّة.

كانت الشّمس قد مالت إلى الغروب، حين دخل عليه الطّبيب. لم

يكـن موعـد الزّيـارة المسـائيّة المعتـادة قـد حـان. لكـنّ الرّجـل كان يبتسـم وهـو يسـأله بأريحيّـة:

- كيف أنت اليوم ؟

- أفضل.. شكرا لك.

بـدا وجـه الطّبيـب مألوفـًا، غـير أنّ الاسـم المـدوّن عـلى صـدر مـئزره الأبيـض كان مجهـولًا لديـه. الطّاقـم الطـبيّ يتغـيّر بضـع مـرّات في اليـوم، ومـن الطّبيعـيّ ألّا يحفـظ الأسـماء كلّهـا.. لكـنّ شـيئا مـا بـدا مريبًا بشـأن ذاك الطّبيـب. سـأله باهتمـام:

- دكتـور، عنقـي يؤلمنـي.. حـين أحـاول الالتفـات إلى اليمـين. هـل لهـذا علاقـة بكـسر الترقـوة؟

- بالتأكيد.. سأحقنك بمسكّن يساعدك على النّوم، ويشعرك بتحسّن.

بـدا ذلـك مفاجئـا لعمـر. لـم يكـن ذلـك هـو البروتوكـول الطـبيّ المعتـاد. لـم يكـن الطّبيـب يـزوره منفـردًا قـطّ، بـل يكـون برفقتـه ممرّضـة أو اثنتـان، وفـرد آخـر مـن الطّاقـم الطـبيّ. كانـوا يأتـون في مجموعـة في كلّ مـرّة. ولـم يكن الطّبيـب يفعـل أكـثر مـن الفحـص وتفقّـد الإصابـات.. بينمـا يعهـد بتغيـير الضّمـادات وتعليـق المحاليـل وتجهـيز الحقـن إلى الممرّضـات حصريًّـا.

تلـك الزّيـارة في موعـد غـير متوقّـع، لطبيـب منفـرد ومجهـول، وبحوزتـه حقنـة جاهـزة.. كانـت مثـيرة للشّـكوك!

كان الطّبيـب يهمّ بتفريـغ محتـوى الحقنـة في المحلـول المعلّـق عنـد رأسـه والسّـاري في عروقـه، حـين قاطعـه عمـر:

- أشعر بتحسّن الآن.. لقد كان ألمًا عابرًا. لا داعي للمسكّن.

لكنّ الطّبيب ألحّ:

- لا بأس، المسكّن لن يضرّ على أيّ حال.

- شكرا لك.. لكنّني لا أحتاجه الآن. هلّا تركته لوقت لاحق؟

بدا على الطّبيب الانزعاج، وتابع:

- بما أنّي هنا، سأضع لك العقار.

وضع عمر كفّه على ذراعه ليوقفه، فنظر الطّبيب في عينيه بحدّة. في تلك اللّحظة، تذكّر عمر أين رأى وجه الطّبيب في السّابق. كان على إحدى الصّور التي عرضها المحقّق!

اتّسعت عيناه في ذهول وقد أدرك مدى الخطر الذي يحيق به، وبدا أنّ الطّبيب أيقن بدوره أنّ قناعه قد سقط. أزاح ذراع عمر بعنف، ودفع بإبرته لتنغرس في أنبوب المحلول. بحركة قويّة، اقتلع عمر الأنبوب من ذراعه ليتخلّص من تدفّق السّوائل إلى جسده.

بادله الرّجل نظرة شرسة، ثمّ انتزع الحقنة التي لم تفرغ من محتوياتها، وهوى بها على ذراع عمر مباشرة. لكنّ عمر كان أسرع. أمسك بمعصم خصمه وتشابكت الأيدي في التحام ساخن، كان من الواضح أنّ الغلبة فيه لن تكون للمصاب الذي يلازم سريره منذ أيّام.

هوى عمر على الأرض، لكنّ سقطته دفعت الطّبيب إلى الوراء، فأفلت الحقنة التي تهشّمت على البلاط وسالت محتوياتها. حدّق فيه في غيظ، وقد أجهضت مهمّته. مال على عمر يهمّ بخنقه بيديه العاريتين، فركل عمر ساقه وهو ممدّد على الأرض بكلّ ما تبقّى في جسده من قوّة، ثمّ التقط الإبرة المنفصلة عن حطام الحقنة التي استقرّت غير بعيد عنه، وغرسها في قدمه. تأوّه الرّجل وانقبضت ملامحه. ألقى على عمر نظرة متوعّدة، ثمّ انسحب من الغرفة مخفيا عرجه.

***

طالعت رنيم ساعتها في ارتباك. تفصلها ساعتان عن انتهاء مهلة المدّعي العام. تناولت هاتفها واتّصلت بجورج. قالت في انفعال:

- اتّصل بمكتب النّيابة واقبل عرضهم!

- ماذا تقولين؟

بدا جورج مشوّشا وغير مستوعب. فأضافت في استماتة:

- يجب أن تساوم على خمس سنوات فقط، مثل العرض الذي جاء لهيثم. أقنعهم أنّ عمر سيدلي بمعلومات وافرة عن جهات الاتّصال بالمنظّمة الإرهابيّة!

هتف جورج في دهشة:

- هل أنت واثقة؟ هل تعلمين أنّك تخاطرين بمصير موكّلك؟

- لا تقلق.. إنّها مخاطرة محسوبة.

زفر في توتّر ثمّ قال:

- ماذا عن عمر؟ هل وافق على هذا؟

قالت على عجل:

- ليس بعد.. لكنّه سيفعل.

أضافت أمام تردّده:

- لم يبق الكثير من الوقت. سأشرح لك لاحقًا. إذا أنهيت المساومة، اتّصل بي على الفور!

قال في استسلام:

- حسنا.

أخذت رنيم نفسًا عميقًا، ثمّ خطت إلى قسم العناية المركّزة. كانت تدرك سلفًا أيّ نوع من المشاهد سيقابلها. كانت ياسمين منهارة، تحتضنها ميساء وتتقاسمان اللّوعة. في الدّاخل، لم تتوقّف محاولات إنعاش قلب هيثم الذي توقّف منذ دقائق، بمفعول عقار مجهول سمّم جسمه وأوقف نبضاته.

توقّفت إلى جوار رجل الأمن الذي يتابع المشهد ويتهيّأ للاتّصال بمكتب الادّعاء في حال تغيّرت المعطيات الحياتيّة للمتّهم. قالت بهدوء وهي تمرّ حذاءه:

- إنّها مجرّد نوبة.. ستمرّ على خير كما مرّت سابقاتها.

ابتسمت وهي ترنو إليه بثبات، وأملت أن تخدعه ثقتها فلا يتسرّع في الاتّصال قبل أن تُحسم الصّفقة التي يساوم عليها جورج في الوقت ذاته. إنّها في سباق مع الزّمن.

تعالى رنين هاتفها، فتراجعت خطوتين وردّت على الاتّصال من مكتب النّيابة العموميّة:

- أستاذة رنيم، هل تعرفين أنّ زميلك قد اتّصل بي للتوّ لإبرام صفقة لموكّله؟

قالت بنبرة ساخرة:

- حقًّا؟ لا أصدّق كلمة من هذا.. أعرف أنّ جورج لن يخونني!

- صدّقي أو لا تصدّقي.. لقد وافق عمر الرّشيدي على خيانة صاحبه والاعتراف عليه.. وهذا يجعل موكّلك في وضع لا يُحسد عليه!

قالت متظاهرة باللامبالاة:

- أعرف ما تحاول فعله.. أنت تزرع الشكّ بيننا حتّى يقنع كلّ منّا موكّله بالاعتراف.. ولصالح من هذا؟ لصالح الادّعاء بالتّأكيد! وفّر أساليبك الملتوية، هيثم الأندلسي لن يعترف!

جاءها صوت المدّعي العام مشبعًا بالحنق:

- هذا غباء غير مسبوق أستاذة رنيم.. أنت تفوّتين فرصة ذهبيّة على موكّلك! لقد انطلق المحقّق لأخذ أقوال عمر الرّشيدي منذ حين.. إذا شئت، يمكنك لقاؤه في المشفى قبل أخذ شهادة المتّهم، وتكون الصّفقة من نصيبك...

قاطعته بلهجة حاسمة:

- يبدو أنّك لم تسمع جيّدا ما قلته. لا صفقة بالنّسبة إلينا. شكرًا لاقتراحك!

صرخ في غيظ:

- إذن قولي وداعًا لموكّلك.. سيسكن طويلا، طويلا جدًّا خلف القضبان!

أنهت الاتّصال وهي ترتجف. اقتربت من رجل الأمن الذي كانت المكالمة تحت سمعه وبصره، وقالت بلهجة متهكّمة:

- هل هو هكذا دائما؟ يحاول فرض رأيه على الجميع؟

ابتسم رجل الأمن لملاحظتها، ولم يعلّق. فأضافت بلهجة واثقة:

- هيثم الأندلسي لن يعترف.

ثمّ سارت حتّى غرفة الانتظار. وقفت ترقّب ظهور أحد أفراد الطّاقم الطبيّ من الدّاخل، وهي تتلفّت في توتّر. إن حصل شيء لهيثم، فلا يجب أن يصل الخبر إلى المدّعي العامّ الآن. عليها أن تؤخّر انتشار الخبر بقدر ما يمكنها.

خرجت ممرّضة مرتبكة بعد حين، فاستوقفتها رنيم. قالت على عجل:

- نحن نفعل ما بوسعنا...

- هل سينجو؟

هزّت الممرّضة كتفيها في قلّة حيلة. أومأت رنيم في تفهّم، ثمّ عادت إلى حيث تجلس ياسمين. وقفت تفرك أصابعها في عصبيّة. تشعر بثقل الثّواني التي تمرّ على كتفيها. كلّ لحظة تمرّ تقرّبها من النّهاية المحتومة. وحدها تعلم أنّ أمر هيثم قد حُسم.

ارتفع رنين هاتفها من جديد. ردّت في لهفة:

- جورج، ما الجديد؟

- سأصل خلال دقائق.. المحقّق في الطّريق. أنت واثقة من اعتراف عمر؟

- سأحرص على ذلك.

تركت موقفها عند قسم العناية المركّزة وعادت إلى غرفة عمر. بادرها فور دخولها:

- هيثم؟

قالت بلهجة حاسمة:

- لقد نجح في حقنه.. انتهى أمره!

- هل.. مات؟

كانـت تعلـم أنّ أيّ أمـل في نجـاة هيثـم سـيجعل عمـر يتقاعـس عـن الاعـتراف. لـن يمتلـك الشّـجاعة للمـضيّ في الصّفقـة إذا سـاوره أيّ شـكّ في ظلـم صاحبـه.

هـزّت رأسـها بحركـة بطيئـة موجبـة. لقـد مـات. أخفـى وجهـه بـين كفّيـه، وأجهـش بالبـكاء. لـم تـره يبـكي قـطّ. لقـد كان متماسـكًا إلى درجـة مدهشـة، طيلـة فـترة محاكمتـه الأولى. لـم يثبّطـه الألـم ولا قـصر الأمـل. لكنّـه اليـوم يبـكي صاحبـه، فتنهمـر العـبرات عـلى وجهـه دون مواربـة.

طالعـت سـاعتها في ضيـق. الوقـت ينفـد. سـيكون المحقّـق عنـده خـلال دقائـق قليلـة. قالـت في رجـاء:

- يجـب أن تعـترف! المـكان الوحيـد الآمـن لـك في الوقـت الحـالي هـو خلـف القضبـان!

كان يجـب أن تُـدرك ذلـك في وقـت أبكـر. الموسـاد لا يـترك مهمّـة غـير منتهيـة! كيـف للاغتيـال أن يفشـل بتلـك البسـاطة؟ سـيظلّون خلفـه، حـتّى ينتهـي أمـره. في تلـك اللّحظـة، تبخّـر مـن رأسـها حلـم الـبراءة الخيـاليّ والمرجـوّ. لـم يعـد مغريًـا أبـدًا. الـبراءة تتسـاوى والإعـدام. كان يجـب أن يبقـى في السّـجن، حـتّى تهـدأ الأوضـاع وتصبـح القضيّـة طـيّ النّسـيان. أضافـت في اندفـاع:

- لقد تحدّثت إلى ياسمين. لا بأس بوضع اللّوم على هيثم...

نظر إليها في صدمة:

- تحدّثت إليها.. في مثل هذا الظّرف العصيب؟

ازدردت لعابهـا في توتّـر، تـداري كذبتهـا. سيتفهّم الأمـر لاحقًـا حـين يـدرك

دوافعها. ياسمين أيضا ستتفهّم. قالت بحزم:

- الحيّ أولى من الميّت!

الحيّ والميّت! من الحيّ ومن الميّت؟ كلّ ما يعرفه هو أنّ هيثم حيّ.. إنه أكثر حياة من أي وقت مضى، شهيد عند ربه.. (بل أحياء عند ربّهم ولكن لا تشعرون)! غامت عيناه بدموع حسرة ولوعة، واكتست قسماته فرقًا وشوقًا. فرقًا لفراق صاحبه.. وشوقًا لشهادة حازها دونه. أردفت تستعجله:

- المحقّق يصل خلال عشر دقائق. عليك أن تعترف وتوقّع.. قبل أن يستشري خبر وفاة هيثم. حينها يصبح الاعتراف بلا قيمة! هل فهمتني؟ حين يصل المحقق إلى هنا وتوقّع الصفقة، يمكنك أن تعلن الحداد على صديقك.. أما الآن فعليك أن تتمالك نفسك!

لم يردّ عمر. بدا منفصلًا في عالمه، نظراته غائبة وقد اختفت الدّماء من وجهه. استدارت رنيم لتغادر الغرفة في صمت. ستمنحه بضع دقائق ليستوعب الوضع. قالت قبل أن تغلق الباب خلفها:

- لا تدع تضحية هيثم تذهب هباءً.. يكفي أن يدفع أحدكما الثّمن.

وقفت في الممرّ، تذرع المسافة جيئة وذهابًا، حتّى أبصرت جورج مقبلا.

- هل أقنعته؟

- آمل ذلك.

التفت الاثنان حين رنّت خطوات المحقّق خلفهما. تبادلا نظرة قلقة، ثمّ تقدّم جورج ليسبقه نحو غرفة عمر.

- هل المتّهم جاهز للاعتراف؟

- نعم سيّدي المحقّق.

ثمّ غاب الاثنان وراء الباب المغلق.

***

- ساعة الوفاة.. السّادسة مساءً واثنتان وعشرون دقيقة.

أعلنها الطّبيب وهو يسحب قناع التنفّس عن وجه هيثم، ويطفئ أجهزة الإنعاش واحدًا إثر الآخر. لقد انتهى صراعه مع الموت بهزيمة ساحقة. ذاك كان قدره.

هرولت رنيم في الممرّات، وقفت على مبعدة، تطالع الوجوه الكالحة في ذعر. لقد انتهى الأمر. على المقعد قبالة الغرفة، انهارت ياسمين في استسلام، بين أحضان ميساء.. تبكي إحداهما زوجها والأخرى شقيقها. شعرت بغصّة في حلقها. تأمل أن يكون عمر قد أصغى إلى صوت العقل واعترف. حين يخرج المحقّق من الغرفة، سيعرف بوفاة هيثم. ما لم يكن عمر قد وقّع الصّفقة بالدّاخل، سيكون كلّ شيء قد ضاع.

خلال دقائق، وصلت زهور وفاطمة وعبد الحميد، واندلعت مناحة جماعيّة في قاعة الانتظار. لم تتمالك رنيم نفسها، فتركت العنان لعبراتها هي الأخرى وانضمّت إلى جموع النّائحين. كان الثّقل الذي يرزح تحته صدرها قد فاض بها. لقد فعلت ما بوسعها لتحافظ على رباطة جأشها، وحرصت على بقاء صفاء ذهنها حتّى تخرج من الأزمة بأخفّ الأضرار.

لكنّ كأسها قد فاضت الآن. أخذت تنشج في استسلام، من أجل هيثم وياسمين وعزّ الدّين، ومن أجل المخاوف التي كبتتها داخلها.. فقدان شهاب، والتوأم الذي يسكن أحشاءها.. ومن أجل عمر الذي لا تعلم يقينًا إن كان سيترك مجهوداتها تذهب هباءً بعناده المعهود!

كانت طاقتها قد نفدت، كأنّ إعلان وفاة هيثم يسدل السّتار على فصل المعاناة الذي عاشته خلال الأسبوع الماضي. والآن سيكون عليها معاينة الخسائر.

تركت قاعة الانتظار التي تغرقها الدّموع وعادت أدراجها إلى قسم الجراحة. وقفت في توتّر تطالع الباب المغلق. إنّها تتمنّى أن تكون بالدّاخل الآن، تستمع إلى ما يقال. لكنّها لا تملك إلّا أن تدعو.

اقتربت من رجل الأمن الذي لم يبرح موقعه وسألت في اهتمام:

- هل ما زال المحقّق هنا؟

هزّ رأسه بعلامة الإيجاب، فتنهّدت في ارتياح. امتداد الجلسة يدعو إلى التّفاؤل. لو أنّ عمر رفض الاعتراف، لكان قد غادر على الفور. استدارت على عقبيها، وسارت في اتّجاه مكتب مدير المشفى.

استقبلها الرّجل باحترام واهتمام. لقد بات يعرفها الآن، بعد أن أحضرت شهاب من أجل جراحة عمر. قالت بلهجة جادّة:

- هذه القضيّة، إنّها حسّاسة للغاية. أنت تدرك ذلك.

هزّ المدير رأسه في انتباه، فواصلت:

- هل يمكنك تأخير الإعلان الرّسميّ لوفاة هيثم الأندلسي حتّى صباح الغد؟

- عفوًا؟ ما السّبب؟

- لقد كانت هناك محاولة اغتيال ثانية -ناجحة هذه المرّة- داخل المستشفى! لقد تسلّل شخص ما، منتحلًا صفة طبيب، وحقن المريض بشيء ما. قبل أن تعلن سبب الوفاة، أرجو منكم التّعاون معنا في هذا الصّدد...

حدّق فيها في ارتباك:

- ما المطلوب منّي؟

- صور كاميرات المراقبات في الممرّات المؤدّية إلى قسم العناية المركّزة وقسم الجراحة.. بالإضافة إلى المداخل الرّئيسيّة للمباني. لا شكّ أنّها ستظهر مرتكب العمليّة.

- بالتّأكيد.. لديك إذن للاطّلاع عليها.

صافحته رنيم في امتنان، ثمّ غادرت وبحوزتها إذن مختوم من المدير.

حال عودتها بعد عشر دقائق، أبصرت جورج برفقة المحقّق، يقفان في

الممرّ. تصافحا بحرارة ورضا، ثمّ ابتعد المحقّق مستعجلا. هرعت رنيم إلى جورج، فابتسم مطمئنا إيّاها:

- سار كلّ شيء على ما يرام.

- هل اعترف؟

- لقد فعل.

زفرت في ارتياح واسترخت قسماتها. على الأقلّ، لم يضع كلّ شيء. قبل أن يسألها جورج، همست بنبرة حزينة:

- مات هيثم.

- يا إلهي! لهذا كنت مستعجلة.. لو أنّنا تأخّرنا دقائق قليلة...

استند جورج إلى الجدار، وقد اتّسعت عيناه في دهشة وعدم تصديق. لقد كان ذلك وشيكًا. لكنّ رنيم حظيت بسرعة البديهة الكافية لقلب الموازين قبل اللّحظة الحاسمة.

همست رنيم ثانية في توتّر:

- هل تعتقد أنّ المدّعي العامّ قد يتراجع عن العرض.. حين يصله خبر هيثم؟

- يمكننا الطّعن أمام المحكمة.. لقد وقّع المتّهم على الصّفقة واعترف. أيّ محاولة للالتفاف على الاتّفاق ستوقع مكتب النّيابة العمومية في مأزق أخلاقي.

زفرت بحرارة. لم تكن تستطيع أن تستسلم للاطمئنان بعد. ليس قبل النّطق بالحكم النّهائيّ. لكنّها قطعت شوطاً لا بأس به حتّى الآن. أضاف جورج:

- لقد اتّفقنا على نقله صباح الغد إلى السّجن المدنيّ.

- سيكون ذلك أفضل.

قالت وهي تضع إذن الاطّلاع على صور المراقبة بالمبنى بين يدي

جـورج:

- ستحتاج هذا.

ثمّ أضافت وهي تشير إلى نهاية الممرّ:

- عليّ الانصراف الآن.

***

رحل هيثم.

كانـت تدفـع عـن قلبهـا إحساسًـا مريعًـا، مؤلمًـا وملحّـا بأنّهـا قـد فقدتـه، منـذ يومـين.

تلـك الجلسـة العائليّـة غـير المأمولـة الـتي جمعـت ثلاثتهـم، بـدت مثـل لحظـات وداع. لكنّهـا لـم تستشـفّ ذلـك عـلى الفـور. احتاجـت ليلتـين مـن الترقّـب، ودفقًـا غزيـرًا مـن دمـع العـين، لتـدرك أنّـه اسـتيقظ ليلقـي نظـرة عـلى ولـده، ويزوّدهـا بدقائـق قليلـة مـن صحبتـه، قبـل أن يعـود إلى غياهـب الظّلمـات الـتي ابتلعتـه.

تستلقي عـلى محفّـة الطّـوارئ الـتي جـيء بهـا مـن أجلهـا، بعـد أن انخفـض ضغطهـا وفقـدت وعيهـا. تهمـس فاطمـة في أذنهـا من بين نشـيجها وشـهقاتها:

- إنّهـا الشّـهادة يـا صغـيرتي.. الشّـهادة. لقـد نـال مـا يُدفـع العمـر في سـبيله ومـا يبـذل الرّجـال فيـه الغـالي والنّفيـس. لقـد أبدلـه الله دارًا خـير مـن داره، مـع النبيّـين والصّدّيقـين والصّالحـين. لا تحـزني عليـه، فقـد غـدا إلى نعيـم...

كانــت تُصغــي إلى صوتهــا الــدّافئ النــديّ، بنصــف وعــي، وقــد اســتولى الضّبــاب عــلى عقلهــا ووهــن جســدها. اســتكانت عــلى السّريــر، لا تحــرّك ســاكنًا، إلّا مــن عــبرات اســتمرّت في الهطــول بــلا إرادة منهــا.

ثمّ غفت. وفي غفوتها، رأته.

كان وجهــه أبيــض مضيئــا، وفي عينيــه إشراقــة نابضــة بالحيــاة. كانــت مــا تــزال ممــدّدة بــلا حــراك عــلى سريرهــا، فاقــترب منهــا هيثــم حــتّى جثــا عــلى ركبتيــه بالقــرب منهــا. شــعرت بملمــس راحتــه وهــو يتحسّــس جبينهــا، ثــمّ

يهمـس مواسـيًا:

- كوني قويّة.. من أجل عزّ الدّين.

يتنامـى الألـم المـبرح في صدرهـا، فيشـقّه. تتصاعـد الآهـة قادمـة مـن أعماقهـا، حـتّى إذا لفظتهـا شـفتاها، خرجـت طويلـة وخافتـة مثـل أنـين المحتـضر.

- لست قويّة.. لقد كنت قويّة بك، فمن أين تأتيني القوّة الآن؟

رنت إلى عينيه في ضعف، فبثّها في نظرته ثقة وشجاعة:

- من الأمومة. أنت أمّ.. إذن أنت قويّة!

فتحـت عينيهـا فجـأة، فتبـدّدت الرؤيـا وتـلاشى خيالـه مـن بـين عينيهـا. تلفّتـت حولهـا في شـبه هذيـان، ثـمّ همسـت في ضيـاع:

- عزّ الدّين.. أين عزّ الدّين؟

- في الحضانة يا حبيبتي.. هل نذهب إليه؟

أومـأت في إصرار، فرافقتهـا فاطمـة إلى غرفتـه. وقفـت تراقبهـا خلـف النافـذة الزّجاجيـة، كمـا فعلـت دائمًـا. رأتهـا تجلـس عـلى المقعـد الوثـير المهيّـأ للأمّهـات، ثـمّ تتلقّـف وليدهـا الـذي أحضرتـه الممرّضـة مـن الحاضـن الخاصّ بـه. ألصقتـه بصدرهـا وألقمتـه ثديهـا، للمـرّة الأولى. تابعتهـا في دهشـة. مـا الـذي تحـاول فعلـه؟

شـدّت ياسـمين عـلى كـفّ رضيعهـا في عنفـوان، واحتضنتـه بقـوّة، وهـي تهمـس في أسى:

- لقد بتنا وحدنا الآن.. أنا وأنت. سنكون أقوياء. يجب أن نفعل.

تسـاقطت عبراتهـا لتبلّـل وجـه الطّفـل، وتنسـاب عـلى وجنتـه، كأنّهـا عبراتـه.. بينمـا يلتصـق وجهـه بصدرهـا، وتتحـرّك غريـزة الامتصـاص داخلـه، فيأخـذ فجـأة في اسـتدرار اللّـبن. حدّقـت الممرّضـة مأخـوذة وهتفـت:

- هذا مذهل.. لقد غدا قادرًا على الرّضاعة بنفسه! هذا مدهش!

ابتسمت ياسمين، ثمّ ابتلعت الشّهقات فرحتها. تمتمت والألم يسحق صدرها، فيزداد ضغطها على جسد الطّفل كأنّما تروم أن تعيده إلى أحشائها:

- لقد أضحيت رجلًا، يوم رحل أبوك. هكذا يولد الأبطال.

***

حدّقت رنيم في عدسة التّصوير بنظرات زائغة. كانت تجد صعوبة في إبقاء ذهنها متيقظا والمحافظة على تركيزها طيلة البثّ المباشر.

- فاصل قصير ونعود!

أعلنت ماتيلد دوبري بابتسامتها المعتادة، وجمدت ملامحها، حتّى أعطى المخرج إشارة انقطاع البثّ. زفرت وهي تستدير إلى رنيم في قلق:

- تبدين مشوّشة اليوم.. هل كلّ شيء على ما يرام؟

- آه، كان أسبوعًا مرهقًا في المكتب.. هذا كلّ ما في الأمر.

- بالتّأكيد.. ستحدّثيننا عن ذلك في وقت لاحق.

ابتسمت رنيم في حرج ولم تعلّق. كان من المربك أن تضطرّ إلى ترك ياسمين وعائلة هيثم في المستشفى وتسارع إلى المحطّة التّلفزيّة من أجل حلقة «الحقيقة الكاملة». ودّت لو امتلكت رفاهية الاعتذار والانسحاب.

بل لعلّها لم تمتلك الشّجاعة.

ليست الشّجاعة في مواجهة ماتيلد، بل في البقاء إلى جوار ياسمين.

استنشاق الألم الذي تعبق به الأجواء من حولها. ابتلاع الحزن على معدة خاوية، واجترار الوجع والدّموع. لم تكن قادرة على ممارسة طقوس المواساة. لم تعرف قطّ كيف تكون سندًا. إنّها لا تحتمل كمّ البؤس الذي يستجلبه موت المقرّبين.. لذلك اتّصلت برانيا وسكينة لتقوما بواجب العزاء، وفرّت متحصّنة بالتزاماتها المهنيّة!

- عدنا أعزّائي المشاهدين.. مرحبا بكم مرّة أخرى.

انتبهت من شرودها على صوت ماتيلد يصدح من جديد معلنًا استئناف الحلقة.

- تابعنا جميعًا خلال هذا الأسبوع، ببالغ الدّهشة والأسف، حيثيّات حادثة إطلاق النّار على مدنيّين بالضاحية الجنوبيّة.. ورأينا كيف انقلبت الضحيّتان إلى موقع الاتّهام! لو تذكرون، برنامج «الحقيقة الكاملة» كانت له الأسبقيّة في لقاء الدّكتور عمر الرّشيدي منذ سنتين، بعد إخلاء سبيله.. إثر قضيّة التّفجير في مختبر الكيميائيّات..

نقلت الشّاشة صورًا من الحوار السّابق الذي جمع عمر ورنيم بفريق البرنامج.

- يبدو أنّ الدّكتور عمر لا يخرج من مأزق إلّا ليتورّط في غيره! من حسن الحظّ، معنا الأستاذة رنيم شاكر، التي تعتبر مطّلعة أكثر من غيرها على ملابسات القضيّة.. أستاذة رنيم، هل يمكنك مشاركتنا معلومات حصريّة عن المستجدّات؟

كانت رنيم ترقبها في صدمة، ولم يبد عليها استيعاب أنّ الحديث موجّه إليها.

- أستاذة رنيم!

- عفوًا؟

قالت ماتيلد متضاحكة:

- يبدو أنّ طلبي منافٍ لمبدأ السرّيّة المهنيّة بين المحامي وموكّله.. أعتذر منك على الإحراج أستاذة رنيم، لكنّنا نطمع في تلميحات حصريّة للبرنامج، إن أمكن!

مرّة أخرى، لم تتجاوب رنيم بشكل سريع. سكتت طويلا، كأنّما فقدت سرعة البديهة التي تميّزها، ثمّ قالت أخيرًا بصوت مختنق:

- لقد كان.. أسبوعًا مليئًا.. بالمفاجآت!

شجّعتها ماتيلد بنظرة وهزّة رأس. التفتت رنيم إلى الكاميرا، ازدردت

ريقها، ثمّ داهمها خاطر مفاجئ. كان بوسعها تحويل المأزق إلى فرصة. قالت مستعيدة ثباتها الانفعاليّ:

- في الحقيقة، كانت هناك محاولتا اغتيال.. لا محاولة واحدة!

- يا إلهي! هذا سبق صحفيّ حقيقيّ!

- المحاولة الثّانية، كانت مساء اليوم...

- معقول؟!

- أثناء احتجازهما على ذمّة العدالة، تعرّض المتّهمان إلى الاعتداء من قبل نفس المجموعة الأجنبيّة.. ولذلك قرّر عمر الرّشيدي الاعتراف وقبول عرض المدّعي العام، خوفًا على حياته!

هرولـت الأقـدام في الممرّ متعجّلـة لاهثـة. وصـل جـورج وبرفقتـه سيّدة في منتصـف الأربعينيـات، تسـحب حقيبـة سـفرها وتلهـث خلفـه. قـال حـين أصبحـا عنـد قسـم الجراحـة:

- لقد وصلنا.. لم تأت عربة التّرحيل بعد.

تنفّسـت عائشـة بصعوبـة. لـم يكـن هـذا مـا خطّطـت لـه. لقـد كان في البرنامـج جولـة سـياحيّة بـين معالـم العاصمـة الفرنسـيّة، ثـمّ زفـاف خـلال أسـبوع واحـد. لكـنّ اتّصـال المحامـي كان غـير متوقّـع. قـال باقتضـاب:

- عمـر يمرّ بظـرف طـارئ، طلـب منّي أن أبلّغـك بإلغـاء الرّحلـة. لـن يكـون بوسـعه اسـتقبالكم الآن. شـكرا لتفهمكـم.

كانـت في معـزل عـن الأنبـاء الفرنسـيّة، تنـأى بنفسـها عـن القيـل والقـال ولا تتابـع مـن نـشرات الأخبـار إلّا النّزر اليسـير ممّـا يسـلّيها، ولا تهتـمّ بالعبـارات الرنّانـة الـتي تفـوق إدراكهـا. لـم تتوقّـع قـطّ أن تجـد فيهـا مـا يعنيهـا. لكنّهـا ألحّـت حـتّى يخبرهـا الحقيقـة، قلبهـا أخبرهـا أنّ خطبًـا مـا قـد وقـع. أعلنـت أنّهـا لـن تلغـي الرّحلـة مهمـا حصـل.. «حـتّى لـو كانـت سـتعود بجثّـة أخيهـا»، فهـي سـتأتي لا محالـة! أثّـرت بـه لوعتهـا وبكاؤهـا الشّـديد. كانـت تعلـم، بحدسـها أنّ مصيبـة مـا قـد حلّـت بعمـر.. مـرّة أخـرى. أرادت أن تكـون إلى جـواره هـذه المـرّة.

ألغــت تذاكــر طفليهــا، وســافرت بمفردهــا. والآن، تقــف عنــد الغرفــة، تسـتظهر وثائـق هويّتهـا إلى رجـل الأمـن، بكـفّ مرتجـف، ثـمّ تلـج إلى الدّاخـل.

حــدّق عمــر بهــا غــير مصــدّق. كانــت الممرّضــة تســاعده عــلى الانتقــال إلى الكـرسيّ المتحـرّك، اسـتعدادًا لمغادرتـه المستشـفى. صرخـت عائشـة في ارتيـاع:

- هل قدماك بخير؟ ألا تستطيع المشي؟

احتواها عمر بين ذراعيه في حنان، فاستمرّت تنتحب في حضنه. أخذ يربّت على ظهرها مهوّنا ثمّ أبعدها عنه قليلا ليقول:

- يمكنني الوقوف.. انظري!

استند إلى جانبي المقعد ليستقيم واقفًا، ثمّ خطا ببطء حول الغرفة، ليهبها برهانًا لا مجال لدحضه على سلامة أطرافه.. ثمّ عاد ليلقي بنفسه على المقعد في إعياء. قال مغالبا ألمه:

- أنا بخير.. أرأيت؟

تمتمت في حسرة:

- أيّ خير أنت فيه يا أخي! لا تخرج من مصيبة إلّا لتقع في أخرى!

تنهّد في حرارة. لا يمكنه أن ينكر أيّ شيء، وقد اعترف بالأمس أمام المحقّق. لقد بات كلّ شيء محسومًا الآن. خمس سنوات نافذة، سيضطرّ خلالها إلى الغياب. قال معتذرًا:

- لم أشأ أن أشغلك بأمري.. هذه حياتي، وقد تعوّدت على زلازلها وأعاصيرها.. وقد كان يهوّن عليّ الأمر ألّا أخلّف ورائي وجوها دامعة. لم أرد أن تريني بهذا الشّكل...

قالت في حزن:

- كم الحكم هذه المرّة؟

- خمس سنوات.

زفرت بقوّة، ثمّ قالت بلهجة صارمة تداخلها الدّموع:

- ستعود بعدها إلى المغرب، هل سمعت؟ وستبقى إلى جواري حتّى آخر أيّامي.. لا غربة بعد الآن!

جاراها ليطمئن فؤادها المكلوم. لقد كانت أمّا له على الدّوام، لا أختًا وحسب:

- لا غربة بعد الآن...

في تلك اللحظة، تعالت طرقات على باب الغرفة. أطلّ جورج ليعلن بصوت حزين:

- لقد حان الوقت!

على الفور، دخل رجلا شرطة. تولّى أحدهما تقييد معصمي عمر، ثمّ دفع الثّاني كرسيّه المتحرّك عبر ممرّات المستشفى. هتفت عائشة وهي تلهث خلفه:

- سوف آتي لزيارتك!

فاستدار ليلقي عليها نظرة آسفة، متجاهلًا تحديق النّاس في موكبه غير الاعتياديّ. حانت منه التفاتة حين لمح لافتة تشير إلى قسم العناية المركّزة. تمنّى لو كان بوسعه إلقاء نظرة أخيرة على هيثم، توديعه، وتقديم العزاء لأهله، والاعتذار منهم. تمنّى أن يحدّثهم عن هيثم الذي يعرفه ويجهلونه. عن إخلاصه وقوّة عزيمته.. عن حبّه للخير، ومبادراته في الحقّ.. عن ثباته وشجاعته، عن كفالته للأيتام ودعمه للطّلّاب المغتربين...

تمنّى أن يعرف الكلّ ما كان عليه من بطولة وشهامة.. لكنّ الموكب تقدّم بثبات حتّى عربة التّرحيل الرّابضة عند مدخل المستشفى.

***

يرحل الرّاحلون، والحياة تستمرّ.

هكذا هي الدّنيا.

بعد العزاء، انتقلت ياسمين وفاطمة إلى شقّة الشّركة. إن كان هيثم قد تركها، فلديها عزّ الدّين، وهو بحاجتها. بل لعلّها بحاجته أكثر ممّا هو بحاجتها.

إنّ وجوده في حياتها يبقيها صامدة، ويحفظ عقلها من الجنون، وفؤادها من الانشطار. لولا تلك السّاعات الّتي تمضيها برفقته، تهدهده وترضعه،

تـرثي أبـاه في مسـمع منـه، لأذهـب الحـزن لبّهـا. كانـت في غايـة الامتنـان، لأنّ الله رزقهـا طفـلًا يبـدّد وحشـتها ويحفـظ ذكـرى زوجهـا في وجدانهـا. قطعـة منهـا ومنـه.. مزيـج مـن كيانـين كُتـب لهمـا الافـتراق، لكـنّ أثـر اجتماعهمـا بـاقٍ في ذاك الكيـان الثّالـث.

جـاءت الفتيـات لزيارتهـا، في المسـاء. وقـد فعلـن كلّ يـوم تقريبًـا. كانـت تجلـس بينهـنّ في سـكون، تسـتمع إلى مواسـاتهنّ وتهـزّ رأسـها في استسـلام وثبـات. تمـتنّ لـدفء جلسـتهنّ وتغلـق عـلى الحـزن أبـواب صدرهـا، فـلا تسـكبه إلّا في خلواتهـا بربّهـا.

غـير أنّهـا اسـتقبلت حضـور ميـار في فرحـة حقيقيّـة. لقـد بـات أكـثر مـا يحرّكهـا عاطفـة الأمومـة، وقـد دبّ في شرايينهـا الحمـاس مـن أجـل سـعادة سـكينة بطفلتهـا، احتضنتهـا بقـوّة، كمـا تحتضـن عـزّ الدّيـن تلـك الأيّـام، حـتّى تـكاد تمـتزج ضلوعهمـا، ثـمّ رنـت إلى سـكينة في دعـم:

- هنيئا لكما اجتماع شملكما أخيرًا.

وفي تلك الأمسية، انتحت بها رنيم جانبًا وهمست في اعتذار:

- كان يجـب أن أخـبرك بهـذا منـذ أيّـام.. لكـنّ الوضـع لـم يكـن مناسـبًا، والوقـت ضيّـق.. فاضطـررت إلى التـصرّف مـن تلقـاء نفـسي.

حدّقـت فيهـا ياسـمين في تسـاؤل، فشرحـت رنيـم في خجـل فعلتهـا. ثـمّ أكملـت بنـبرة آسـفة:

- لم يكن عمر ليقبل بالاعتراف، لولا موافقتك.

ابتسمت ياسمين وقالت مهوّنة:

- لقد أحسنت التصرّف.. كان ذلك ما يجب فعله.

ثمّ اغرورقت عيناها وهي تضيف:

- هيثم لم يكن ليرفض.

مـا تـزال تتحـدّث عنـه كأنّـه شـخص غائـب بشـكل مؤقّـت، أو حـاضر رغـم تـواري جسـده. لـم تكـن تشـير إليـه بالرّاحـل أو الفقيـد أو المرحـوم أو حـتّى

الشّـهيد. لقـد كان حيّـا، في فؤادهـا. تسـتمرّ تـردّد في صبحهـا ومسـائها: هـذا يعجـب هيثـم، وذاك لـم يكـن ليرضيـه.. سـيفرح بكـذا، أو يعجـب بكـذا، لـو أنّـه يـراه.

إن كانـت ريـم قـد شـكّت يومًـا في حـبّ ياسـمين لزوجهـا، واضطرارهـا إلى ارتبـاط يحكمـه العقـل وليـس للعاطفـة منـه نصيـب، فـإنّ تلـك الشّـكوك كلّهـا قـد تبخّـرت منـذ أمـد.. وقـد ازدادت يقينًـا بعـد الفاجعـة. لعلّهـا تمنّـت في سرّهـا ألّا تكـون ياسـمين قـد تعلّقـت بـه إلى تلـك الدّرجـة، حـتّى يكـون رحيلـه أخـفّ وقعًـا عليهـا! لكـنّ المشـاعر لـم تكـن قـطّ طـوع بنـان صاحبهـا - فضـلا عـن أصحابـه- تتشـكّل لتوافـق متطلّبـات المرحلـة، فتـارة تعلـو وأخـرى تخفـت.

وفي تلـك الأمسـية أيضـا، استجمعت ريـم شـجاعتها لتقـف أمـام جمعهـنّ، لتتنحنـح فيجلـو صوتهـا، ثـمّ تعلـن أخـيرًا في شـكل مسرحيّ:

- أنا حامل.. في توأم!

تعالـت الهتافـات الحماسـيّة غـير مصدّقـة، ثـمّ التّهـاني والأمـاني. لـم تكـن ريـم قـد تقبّلـت الوضـع بعـد، لكـنّ الإعـلان كان جـزءًا مـن طقـوس القبـول. هـل تحرّكـت غريـزة الأمومـة داخلهـا وهـي ترقـب ياسـمين تهتـمّ بعـزّ الدّيـن وتـشرق قسـماتها مـا إن تقـع عليـه نظراتهـا أو تـأتي عـلى ذكـره؟ أم أنّ عـودة ميـار إلى سـكينة ومـا أضفتـه مـن حيويّـة عـلى أجـواء الشـقّة جعلهـا تتـوق إلى حيـاة العائلـة الـتي لـم تعرفهـا قـطّ؟ تركـت جانبًـا تجربتهـا الشـخصيّة مـع عائلـة مفكّكـة الأواصر، لترنـو في أمـل إلى حيـاة عائليّـة دافئـة ممكنـة. لكنّهـا لـم تخـبر شـهاب بعـد، ولـم تكـن تنـوي إخبـاره في القريـب. همسـت لرانيـا محـذّرة:

- احتفظي بالخبر لنفسك. لا أريد أن يعرف شهاب الآن.

حدّقت فيها رانيا في دهشة وسألت:

- لماذا؟

أخذت رنيم نفسًا عميقًا ثمّ قالت:

- لا أريد أن يستغلّ فرصة الحمل كورقة ضغط. لم يتغيّر شيء بشأن خططي المستقبليّة. لن أرجع إلى مصر.. هذا أمر مفروغ منه.

تعالت طرقات محتشمة على باب الشقة، فوقفت رنيم على الفور. قالت في حماس:

- لا شكّ أنّها عائشة.. لقد دعوتها لمسامرتنا.

فتحت الباب ورحّبت بشقيقة عمر في حفاوة، ثمّ قدّمتها للحاضرات. دخلت عائشة في وجل، ووضعت طبق «بسطيلة» بالدّجاج والفواكه الجافّة منزليّ التحضير على المائدة، ثمّ جلست بينهنّ. كانت قد استقرّت في شقّة عمر الواقعة في الطّابق الأسفل بعد أن تمكّن جورج من الحصول على نسخة من مفاتيح عمر من أجلها.

لقيتها رنيم ذلك اليوم في المستشفى، حين أحضرها جورج من المطار لتوديع عمر قبل زجّه في الزنزانة. كانت تجرّ حقيبتها ويبدو عليها التّوهان والتشتّت. أن تصل إلى بلاد غريبة لا تكاد تعرف فيها أحدًا، لتجد نفسها بعد لحظات وحيدة وبلا سند، لم يكن بالشّيء الهيّن. تطوّعت رنيم لمرافقتها إلى الشقة، ثمّ طمأنتها إلى إقامة ياسمين في الشقة فوقها. قالت بنبرة أسى:

- كلّنا شركاء في المصاب.. لذلك، يجب أن يدعم بعضنا بعضا.

لم تفهم عائشة لماذا ضمّت رنيم نفسها إلى جمع المصابين، لكنّها تقبّلت تضامنها بامتنان. وهي تجلس بينهنّ في تلك الأمسية، عرفت بحدسها أنّهنّ «عائلة واحدة» رغم اختلاف الأصول والانتماءات الجغرافيّة.

كانت قد زارت ياسمين مرّة واحدة، منذ يومين، لتقدّم عزاءها. لم يستمرّ اللّقاء سوى دقائق معدودة، اعتذرت بعدها على تطفّلها ومضت. ذهبت بعدها لزيارة عمر في سجنه، كما تفعل بشكل يوميّ، في حين

غـادرت ياسـمين إلى المشـفى، حيـث تمـضي سـحابة يومهـا برفقـة رضيعهـا الـذي تـزداد بنيتـه قـوّة يومًـا بعـد يـوم.

همست رنيم قبيل نهاية السّهرة:

- غـدا سـتكون الجلسـة.. لعلّهـا تكـون الفرصـة الأخـيرة لرؤيتـه وجهًـا إلى وجـه.

أومـأت عائشـة موافقـة. غـدًا سيكون النّطـق الرّسـميّ بالحكم. بعـد ذلـك، يبـدأ العـدّ التّنـازليّ لعودتها إلى الدّيـار. لقـد خلّفـت زوجًـا وولديـن، لـم يكـن بوسعها إطالـة الغيـاب عنهـم. كان بودّهـا أن تسـفر رحلتهـا عـن زفّ شـقيقها الأصغـر إلى بيـت الزّوجيّـة. لكـنّ سـفرتها الأولى إلى أوروبـا كانـت لتشـهد سـقوطه المـدوّي والمتكـرّر بشكل مفجـع.

***

تزاحـم الخلـق داخـل قاعـة المحكمـة وخارجهـا، صحفيّـون ومصـوّرون بالأسـاس، بالإضافـة إلى الفضوليّـين والمتعاطفـين. دخـل عمـر يمـشي عـلى قدميـه. بـدا أنّ إصاباتـه قـد تماثلـت للشّـفاء خـلال الأسـبوع المنـصرم. أم لعلّهـا ظـروف الحبـس، تجـبر الجسـد عـلى التأقّلـم، فيخشوشـن وتـزداد صلابتـه.

وقفـت عائشـة، ولوّحـت لـه في شـوق ولهفـة، فابتسـم قبـل أن يتّخـذ مجلسـه عنـد منصّـة الدّفـاع. لـم يكـن جـورج قـد وصـل بعـد. لقـد طمأنـه بالأمـس. الجلسـة لـن تكـون إلّا إجـراءً شكليّا. سيسـقط المدّعـي العـام التّهـم بنـاءً عـلى الاعترافـات المدوّنـة، فتعلـن المحكمـة الصّفقـة مُلزمـة، وينتهـي الأمـر.

في الخـارج، وقـف جـورج يترقّـب قـدوم المدّعـي العـام. كان يشـعر بمراوغتـه، وقـد تسـلّح بخطـّة «ب» رسـمت رنيم تفاصيلهـا ببراعة. لمـح الرّجل يقـترب محفوفًـا برجـال الإعـلام والمصوّريـن. تصافحـا أمـام العدسـات، ثـمّ قـال جـورج بصـوت خافـت:

- اتّفاقنا سارٍ، أليس كذلك؟

ضحك المدّعي العام وهو يقول بنبرة ساخرة:

- هـل تظـنّ مسـاعدتك المتحذلقـة أنّ التّصريـح بالصّفقـة في البرنامـج خاصّتها سيلوي ذراعـي؟ مـا الـذي يجعلـني أتهـاون مـع عمـر الرّشـيدي الآن وقـد فقـدت المتّهـم الرّئيـسي؟

- أخلاقيّات المهنة؟ احترام المواثيق والعهود؟

تعالت قهقهات الرّجل من جديد، ثمّ قال:

- هل هذا كلّ ما لديك؟

- بالتّأكيد لا...

ابتسم جورج، ثمّ لوّح بملفّ مكتنز في قبضته:

- هـذه دعـوى قضائيّـة نعـتزم رفعهـا عـلى الفـور إذا لـم تـتـمّ الصّفقـة في الدّاخـل حسـب الاتّفـاق.. شـبهات حـول تعـاون مؤسّسـة النّيابـة العموميّـة مـع مأجوريـن أجانـب، لتيسـير اغتيـال مـوكّلي وصاحبـه.. مـرّة أخـرى!

- ماذا تعني؟

- الحراسـة الكرتونيّـة عنـد غـرف المشـفى لـم تكـن كافيـة لحمايـة هيثـم الأندلـسي مـن القتـل المتعمّـد.. لدينـا هنـا تقريـر الطـبّ الشّرعـي، شـهادات أفـراد الطّاقـم الطـبّي، وصـور كامـيرات المراقبـة في أقسـام الجراحـة والعنايـة المركّـزة...

منحـه جـورج دقيقتـين ليتفقّـد محتويـات الملـفّ ويتيقّـن صـدق التّهديـد، ثـمّ أضـاف بنـبرة متشـفّية:

- أنـت تعلـم أنّ قضايـا كبـيرة قـد تنهـار تمامًـا بسـبب «عيـب إجـرائي».. لذلـك لا تحـاول التّلاعـب الآن، فقـد تدفـع ثمنًـا لا تقـدر عـلى تحمّلـه!

اكتسـت ملامـح الرّجـل قناعًـا مـن الجمـود، ثـمّ سـبقه إلى داخـل القاعـة بخطـوات واسـعة. تنهّـد جـورج وهـو يلملـم أوراقـه. يعلـم أنّ التّهديـد

الـذي بـين يديـه قـد يتحـوّل هبـاءً منثـورًا، بعـد سـنوات مـن المرافعـات والمراوغـات. والمدّعـي العـام يعـرف ذلـك أيضـا. كلاهمـا يقـف أمـام «عصفـور في اليـد»، ويراقـب «العـشرة الـتي تلـوح فـوق الشّـجرة». سـجن عمـر الآن لخمـس سـنوات يعتـبر عصفـورًا واحـدًا، في حـين أنّ المـضيّ في القضيّـة قـد يُكسـب الادّعـاء حكمًـا طويـلا جدّا.. لكنّ الدّعـوى الثّانيـة قـد تـضرب شـموخ مؤسّسـة النّيابـة العموميّـة في مقتـل.

غـير أنّهـا مخاطـرة أيضـا بالنّسـبة إلى الدّفـاع، فنتائجهـا غـير مضمونـة.. لكنّهـا إن أفلحـت، فقـد يكسـب عمـر براءتـه لعيـب في الإجـراءات! إلّا أنّ جـورج لا ينـوي إفـلات العصفـور الـذي بـين يديـه. خمـس سـنوات، خـير مـن المؤبّـد الـذي يلـوح شـبحه في الأفـق.

ضرب القـاضي بمطرقتـه معلنًـا بـدء الجلسـة، ثـمّ أشـار إلى منصّـة الادّعـاء لتـلاوة لائحـة الاتّهـام. وقـف المدّعـي العـام، ناقـلا نظراتـه بـين جـورج وموكّلـه، ثـمّ اسـتدار إلى القـاضي وألقـى بأسـلوب مسرحـيّ:

- نظـرًا لتعـاون المتّهـم وإقدامـه عـلى الاعـتراف، وإدلائـه بمعلومـات قيّمـة تخـصّ الجماعـة الإرهابيّـة.. فـإنّ الادّعـاء يرجـو مـن سـيادة القـاضي إسـناد حكـم مخفّـف، وإغـلاق ملـفّ القضيّـة.

- هل من حكم مقترح؟

- خمس سنوات، سيّدي الرّئيس.

- خمس سنوات إذن!

ثمّ ضرب القاضي مرّة أخرى معلنًا تثبيت الحكم.

***

تعالـت طرقـات ملحّـة عـلى بـاب الشّـقة ذلـك الصّبـاح. لـم تكـن تشـبه طرقـات عائشـة المحتشـمة، ولا نغمـات رنيـم الموقّعـة. كانـت ضربـات صارمـة وحازمـة، تتضمّـن تهديـدًا خفيًّـا، تدركـه بقلبهـا.

تطلّعـت ياسـمين مـن العـين السـحريّة قبـل أن تفتـح، فتسـمّرت مكانهـا

وهـي تحـدّق في الـبزّات الرّسـميّة للشّرطـة الفرنسـيّة. أفرجـت دفّـة البـاب في توجّـس، فبادرهـا الضابـط بنـبرة آليـة:

- سيّدة ياسمين عبد القادر؟

أومأت علامة الإيجاب، فأضاف على الفور:

- تفضّلي معنا رجاءً.

التفتـت إلى فاطمـة الـتي أطلّـت مـن الغرفـة الدّاخليّـة فزعـة، وقالـت تطمئنهـا:

- سأرافق الضابط لبعض الوقت، وأعود سريعًا.

لـم تكـن واثقـة ممّا تقـول، لكنّهـا حاولـت أن يبـثّ صوتهـا المهـتزّ طمأنينـة تفتقدهـا إلى والدتهـا. لـم تكـن تعلـم أنّ مرحلـة مـن المحـن الجديـدة تبـدأ في التّـوّ واللّحظـة.

وصلـت إلى مركـز الشّرطـة في عربـة التّرحيـلات، مثـل سـجين أو متّهـم، فاقتادهـا الضّابـط إلى غرفـة التّحقيـق. هنـاك، لبثـت ثـلاث سـاعات لـم يخاطبهـا خلالهـا بـشر. تركوهـا فريسـة لهواجـس ومخـاوف لا حـصر لهـا ولا عـدّ، ثـمّ دخـل ضابـط ثـانٍ، ليسـتمرّ الاسـتجواب سـاعتين أخريـين.

انهالـت عليهـا الأسـئلة، سـطحيّة بسيطة أوّلا، ثـمّ شـائكة متربّصـة بدقائـق حياتهـا ثانيًـا.

- منذ متى تلبسين الحجاب الإسلاميّ؟

- عشر سنوات.

- هل أجبرك زوجك على ارتدائه؟

- لم أكن أعرفه حتّى آنذاك!

- والدك إذن؟

- لقـد عشـت برفقـة والـدتي، وهـي مطلّقـة.. في حـين تـزوّج والـدي بفرنسـيّة، وعـاش الثلاثـين سـنة الماضيـة كلّهـا في فرنسـا.. وقـد كان مواطنـا صالحًـا جـدّا،

حسـب المعايير الفرنسـيّة!

- ما الذي دفعك إلى ذلك إذن؟

- قناعة شخصيّة!

ثمّ يغيّر الموضوع فجأة:

- هل كنت تعرفين عن نشاط زوجك الإرهابيّ؟

تمالكت نفسـها، حتّى لا تنفجـر في وجهـه، وتـشرح لـه بلغتـه الفجّـة ماهيـة الإرهـاب الحقيقيّ! أخـذت نفسـا، وحبسـت عبراتهـا لتقـول بصرامـة:

- لا!

- هل سبق له السّفر إلى الشّرق الأوسط؟

قالت في سخرية:

- أنتم تعرفون أكثر منّي، أين ذهب ومن أين أتى!

- أجيبي على قدر السّؤال.

- لا!

- هل كان يتحدّث عن المشروع أمامك؟

- نحن عائلة تقليديّة جدّا.. النساء لا يتحدّثن في مسائل العمل!

حدجها بنظرة مستاءة، ثمّ واصل:

- ما هو رأيك في نشاط حركة المقاومة الفلسطينيّة؟

- لا رأي لي.. لا أهتمّ بالسّياسة!

- اسم ولدك، عزّ الدّين.. أليس كذلك؟

- نعم.

ارتفع وجيب قلبها عند ذكره.

- من اختار اسمه؟

- والده.

- هل تعرفين من هو عزّ الدّين القسّام؟

- لا أعرف!

- هل تعتقدين أنّ زوجك قد اختار الاسم تيمّنا به؟

- لا أعرف!

عادت إلى الشّقة مساءً وهي ترتعد. غيّرت ثيابها، تتخلّص من رائحة الخوف والظّلم التي تلتصق بها، وسارت إلى المستشفى على الفور. احتضنت ولدها الذي لم تتأخّر عنه قطّ منذ ولادته، وأخذت تبكي بحرقة. لأوّل مرّة، منذ رحيل هيثم، كانت تشعر بأنّ ولدها في خطر. لا تدري ما وجه التّهديد الذي يحيق بهما، لكنّه تستشعره بكلّ مسامّ جلدها، مثل رادار أمومة يعمل بالتقاط أشعّة غير مرئيّة.

ولم تكن واهمة.

تكرّر استدعاؤها في الأيّام التّالية. ما إن يتعالى الطّرق العنيف على بابها، حتّى يسقط قلبها بين قدميها. تسير إلى حتفها مستسلمة، تحتمل ساعات الانتظار الفارغة مثل كلّ كرّة، ثمّ تردّ على الأسئلة ذاتها بسماجتها ووقاحتها المعهودة.

قال الضابط ذات مرّة، وهو يستمتع بارتجاف أطرافها أمام نظراته الماكرة:

- أنت فرنسيّة؟

- نعم.

- منذ متى؟

- منذ ولادتي.. كان والدي قد تجنّس، فأصبحت فرنسيّة أيضا.

- لكنّك لم تعيشي طويلا في فرنسا.

- لقد غادرتها في سنّ صغيرة.. ثمّ رجعت لأتابع دراستي الجامعيّة.

- زوجك فرنسيّ أيضا.

- نعم.

- هـل تعلمـين أنّ الجنسـيّة الفرنسـيّة مثلمـا توهـب لمـن يسـتوفي معايـير المواطنـة، فإنّهـا قـد تسـحب ممّـن لا يسـتحقّها!

هـزّت كتفيهـا في لامبـالاة. كان الأمـر بالنّسـبة إليهـا سـيان. لـم تسـعَ إلى اكتسـاب المواطنـة الفرنسـيّة، ولـن يضرّهـا أن تُسـحب منهـا.

- الدّولـة تمنحـك فرصـة إثبـات ولائـك واسـتحقاقك للمواطنـة.. تغيّريـن اسـم ولـدك، بإمكانـك نسـبه إلى نفسـك.. ثـمّ تتبرّئـين مـن هيثـم الأندلسي، تسـجّلين اعترافًـا تقولـين فيـه أنّـك لا تعرفـين شـيئا عـن نشـاطه، ولا تشـاركينه قناعاتـه...

عقـدت الصّدمـة لسـانها. جـفّ حلقهـا، واجتمعـت العـبرات في مقلتيهـا. همهمـت في ارتبـاك:

- وهل يكفي هذا؟ لن يتمّ استدعائي بعد ذلك؟

هزّ الضّابط كتفيه في استهانة، ثمّ قال:

- ربّما. لو كنت مقتنعة!

تـزدرد ريقهـا بصعوبـة، إنّهـا تفكّـر في ولدهـا. مـن لـه إذا حصـل لهـا شيء.. أيّ شيء؟ لكنّهـا تثـوب إلى رشـدها. لقـد كان هيثـم قويّـا في الحـقّ، وعلّمهـا ألّا تنحـني أمـام الإهانـة، وألّا تهـب خدّهـا الثّـاني لمـن يصفـع خدّهـا الأوّل. قالـت في ثبـات:

- نحـن شرقيّـون جـدّا سـيّدي الضابـط.. إذا تـبرّأت مـن زوجـي، فلـن تغفـر لي عائلـتي أبـدًا.. سـأصبح منبـوذة بينهـم، ويكـبر ولـدي بـلا نسـب ولا أهـل!

افترّ ثغره عن ابتسامة صفراء ثمّ قال:

- أرى أنّك لم تسأمي زياراتنا بعد! أراك في المرّة القادمة!

وفي كلّ مـرّة تمـضي فيهـا سـاعات المهانـة في مركـز الشّرطـة، كانـت تلازمهـا الكوابيـس. تـرى نفسـها في غرفـة التّحقيـق المظلمـة، وقـد شـدّ حجابهـا عـن رأسـها، ومـزّق ثوبهـا. تـرى أهـوالا سـمعت عنهـا في سـجون أخـرى، لمناضـلات

تحمّلـن الويـلات، وثبـتن في وجـه جلّاديهـنّ.. فانتهـين منتهـكات الكرامـة أو الجسـد.

تبيـت ترتعـد، يتفصّـد جبينهـا عرقًـا، وقـد يجافيهـا النّعـاس حـتّى سـاعة متأخّـرة، فيطلـع عليهـا النّهـار وهـي لـم تـذق مـن النّـوم إلّا النّزر اليسـير، وتجرّعـت الكثـير مـن مـرارة الكوابيـس وانتفاضـات الذّعـر المتكـرّرة.

كان عليهـا أن تحتمـل، حـتّى يشـتدّ عـود عزّ الدّيـن، ويسـمح لـه بمغـادرة الحضانـة. لقـد ترقّبـت ذلـك اليـوم بفـارغ الصّـبر، ظنّـا منهـا -عبثًـا- أنّ مأسـاتها سـتنتهي حـين تـترك الشـقة.

كان يـوم جمعـة، احتفلـت فيـه بعودتهـا وصغيرهـا إلى منـزل جـدّه. استقبلتها زهـور بالأحضـان، وأخـذت عنهـا عزّ الدّيـن الـذي كان في نظـر الجميـع عـوض الله عـن فقـدان هيثـم. تحتضنـه زهـور وتطبـع قبلتـين سخيّتين عـلى وجنتيـه، وتبـكي. ثـمّ يحتضنـه عبـد الحميـد، يشـتمّ رائحـة الفقيـد فيـه، ويبـكي. كان قـد أتـمّ شـهره الأوّل منـذ أيّـام قليلـة، واقـترب وزنـه مـن الكيلوغرامـات الثلاثـة. اكتمـل نمـوّ رئتيـه، وغادرتـه علامـات اليرقـان وبـرودة الأطـراف. كان مولـودًا كامـل النمـوّ، بهـيّ الطّلعـة، وقـد أخـذ يتجـاوب بقـدر طفيـف مـع مداعبـات المحيطـين بـه، فيسـتجلب البسـمات والآهـات.

كانـوا يجتمعـون عـلى وجبـة غـداء عائليّـة، يغالبـون الألـم والحـزن الرّابـض عـلى قلوبهـم، ويأملـون خـيرًا قـد يحـطّ عـلى أوجاعهـم فتطيـب.

عـلى الشّاشـة، كانـت النّشرة تنقـل أخبـارًا عـن «ثـورة الياسـمين» الـتي اندلعـت منـذ أيّـام في الولايـات التّونسيّة واستشرت في الشّـوارع والسّـاحات. انـبرى الجميـع يناقشـون ويحلّلـون حيثيّـات الانتفاضـة الشّـعبيّة الـتي أوقـد شرارتهـا بائـع متجـوّل أضرم النّـار في جسـده، احتجاجًـا عـلى ظـروف العيـش المزريـة.

لكـنّ ياسـمين كانـت ترقـب البـاب في وجـوم، وتترقـب زوّار الصّبـح الذيـن لـم تتوقّـع انقطاعهـم عنهـا بتلـك السّـهولة. تمتـدّ يـد فاطمـة، لتربّـت عـلى كتفهـا وتبتسـم مطمئنـة:

- لن يأتوا إلى هنا.

كانت تريد أن تصدّقها. تأمل أن تنتهي فقرة الاستجوابات وتنتهي إلى أيّام رتيبة لا رعب فيها ولا إثارة. ذلك كلّ ما ترجوه.

باتت ليلتها الأولى في غرفة هيثم القديمة، تصارع الأرق الذي مازال يهزمها، فإذا هزمته أخيرًا، صرعتها الكوابيس. تفتح عينيها فجأة في جوف اللّيل، تستقيم جالسة وهي تلهث، تحدّق في الفراغ والظّلمة، ثمّ تضمّ طفلها إلى صدرها وتأخذ في البكاء.

يوقظ نحيبها المتقطّع في الدّهماء سكّان الدّار، فتتجدّد أوجاعهم، ويستسلمون واحدًا إثر الآخر إلى الألم ينخر صدورهم. ينشجون في صمت، كلّ في سريره، مخفين العبرات عن جيران الغرفة.

تهمس فاطمة إلى زهور وهما تقفان جنبًا إلى جنب إزاء أواني الطّبخ التي تغلي في جوفها وجبة الغداء:

- أنا خائفة على ياسمين!

تتنهّد زهور وهي تقول مؤمّنة:

- لقد تحمّلت الكثير.. قيصريّة وافتراق عن زوجها ورضيعها وتردّد على المستشفى كلّ يوم، ثمّ الزّيارات المفاجئة للشرطة والاستجوابات التي لا تنتهي، والكوابيس التي توقظها كلّ ليلة...

- لعلّه اكتئاب ما بعد الولادة؟

هزّت زهور رأسها:

- لا أشكّ في هذا.

- هل تراها تقبل الذّهاب إلى طبيب نفسيّ؟

- لن نخيّرها. سأتّصل وأحصل لها على موعد. هناك عيادة قريبة في شارع المحطّة...

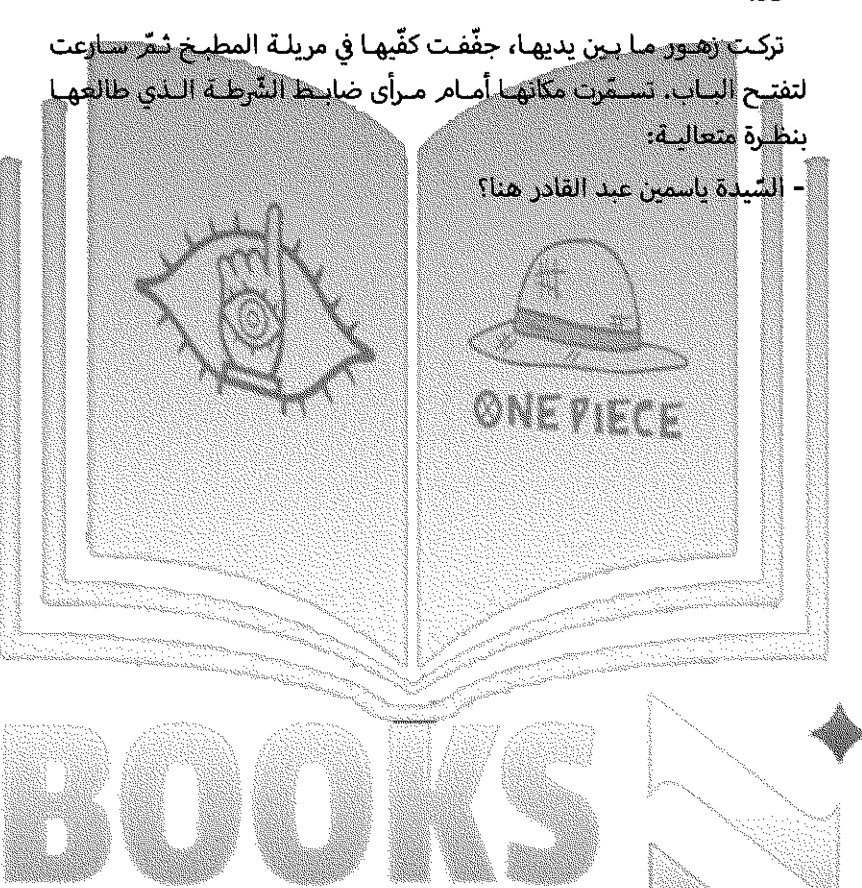
تعالى رنين جرس المنزل فجأة، فتبادلت السّيدتان نظرات متوجّسة.

- هل تنتظرين زوّارًا؟

- كلّا.

تركت زهور ما بين يديها، جفّفت كفّيها في مريلة المطبخ ثمّ سارعت لتفتح الباب. تسمّرت مكانها أمام مرأى ضابط الشّرطة الذي طالعها بنظرة متعالية:

- السّيدة ياسمين عبد القادر هنا؟



-٣٥-

مساء الخامس عشر من يناير ٢٠١١، كان أفراد العائلة جميعًا غائبين عن المنزل، باستثناء ياسمين وطفلها. كانوا قد انضمّوا إلى المظاهرات التي نظّمتها الجالية التّونسيّة لمساندة الثّورة الشّعبيّة، لتتحوّل الحركة الاحتجاجيّة إلى مسيرة فرح عارمة بعد الرّحيل المفاجئ للرّئيس التّونسيّ وتخلّيه عن السّلطة.

انطلقت المظاهرات الحاشدة بحضور نحو ثمانية آلاف من التّونسيّين المقيمين بباريس وضواحيها من ساحة «الجمهوريّة» انتهاءً إلى ساحة «شاتليه».

سارت زهور وفاطمة وميساء وعبد الحميد، بالإضافة إلى الصّغير وائل، رافعين الأعلام التّونسيّة، منتشين بتحقيق حلم بعيد المنال. لم تكن زهور وعائلتها قد زاروا موطنهم منذ عشرين عامًا، بعد أن أصبح عبد الحميد مطلوبًا لدى النّظام السّابق، إثر انتخابات ١٩٩١.. والآن، فتحت أبواب الوطن على حين غرّة.

همست زهور إلى فاطمة باكية، وهي تلوّح بالرّاية الحمراء الموشّاة بالنجمة والهلال فوق رأسيهما:

- هل كان يجب أن أفقد ولدًا لأستعيد وطنًا؟ كأنّ السّعادة الكاملة لا تجتمع للمرء أبدًا!

ربّتت فاطمة على ظهرها مواسية وقالت:

- لقد فقدت ولدًا وكسبت آخر.. «الولد سرّ أبيه»!

تنجح تلك الحيلة كلّ مرّة في تحويل وجهة أفكارها. تستحضر عيني عزّ الدّين المتألقتين وراحتيه المنكمشتين على سبّابتها، فتلين ملامحها وتبتسم رغمًا عنها.

***

كانـت تـزور ياسـمين لأوّل مـرّة منـذ انتقالهـا إلى مـنزل والـدي هيثـم. مـضى أسـبوعان الآن. لكنّهـا لـم تمتلـك الشّـجاعة لمواجهـة الحـزن العائـليّ المتوقّـع. لعلّهـا اسـتغلّت فرصـة غيابهـم لتنفـرد بهـا أخـيرًا.

جلسـت رنيـم إلى جـوار ياسـمين عـلى الأريكـة. يتغـيّر المـكان، لكـنّ الجلسـة تحتفـظ بروحهـا الدّافئة.

- لماذا لم تخبريني.. بشأن الاستجواب؟

رفعت ياسمين كتفيها، وقالت رغم ألمها:

- ظننت أنّ الأمر سينتهي.. إذا كنت متعاونة...

- في المـرّة القادمـة، اتّصـلي بي عـلى الفـور! حالمـا يطرقـون البـاب، سأسـبقك إلى مركـز الشّرطـة.. أيّ منطقـة؟

حرّكت ياسمين رأسها يمينا وشمالا.

- لا أعرف!

- لا بأس.. في أيّ وقت يأتون؟

- العاشرة صباحًا.. غالبًا. ليس بشكل يوميّ.

- سأرابط عند الباب، العاشرة صباحًا.. كلّ يوم.

همست ياسمين في أسف:

- لست مضطرّة لذلك!

- بـلى.. هـذا سـلوك غـير دسـتوريّ ولا يمكـن السّـكوت عليـه! لسـت مجـبرة عـلى مخاطبتهـم، وحضـور المحامـي مـن حقّـك في صـورة الاسـتجواب!

تنهّدت ياسمين في إنهاك وتمتمت:

- أريد فقط أن ينتهي هذا الكابوس...

مسحت رنيم على رأسها في تعاطف وسألت:

- هل ذهبت إلى الطّبيب النّفسيّ؟

أومأت ياسمين ثمّ قالت:

- لم يأت بجديد.. اكتئاب حادّ!

هتفت رنيم بحماس:

- يجب أن تغادري المنزل.. تغيّرين الجوّ، تتمشّين تحت أشعة الشّمس!

- لا يمكنني ترك عزّ الدّين!

كان ذلك هاجسها الأوحد. أن يصاب ولدها بسوء. في كلّ مرّة تأتي عربة الشّرطة لتأخذها، يلازمها ذلك الهاجس الممضّ، أن تغفل عنه جدّتاه، أو يخطفه غرباء...

- خذيه معك!

- أخاف عليه من البرد.

تأفّفت رنيم من مماطلتها، فغيّرت ياسمين الموضوع على الفور:

- خبّرني.. ما الجديد عندكنّ؟

تنهّدت رنيم وقد أدركت ما ترمي إليه.

- سكينة تحلّق على أجنحة السّعادة. لقد أنهت وثائق حضانة ميار.. نقلتها إلى مدرسة قريبة، ترافقها كلّ صباح إلى دروسها، ثمّ ترجع لاصطحابها.. حتّى أنّها تداهمها في فترة الاستراحة، لتشاركها وجبة خفيفة. إنّها تلازمها كظلّها!

ابتسمت ياسمين في رضا. لقد عانت سكينة طويلا، وقد منّ الله عليها أخيرًا بالاجتماع بصغيرتها. من حقّها أن تقدّس كلّ لحظة تمضيها إلى جوارها الآن. قالت بلهجة ذات مغزى:

- الأمومة.. إنّه شعور مدهش!

تحسّست رنيم بطنها بشكل غريزيّ، وشردت نظراتها لبرهة، ثمّ استطردت:

- إنّهما تتابعان معًا حصص علاج أسريّ.. البنت تعاني من تشتّت رهيب، نستيقظ على صراخها كلّ ليلة. تنتابها نوبات غضب، تتهم سكينة بأنّها

ستتخلّى عنها.. كما فعل الآخرون. إنّها فاقدة للثقة في مؤسّسة «العائلة».

ابتسمت ياسمين في مرارة وقالت:

- كلّنا فقدنا الثّقة بشكل أو بآخر.. أتمنّى لو كنت حضرت هذا النّوع من الجلسات في صغري!

رنت إليها رنيم في استغراب. لم تكن تتحدّث كثيرًا عن طفولتها، وافتقادها لحضور أبيها في حياتها. إنّها تفصح الآن، لأنّها تخشى على ولدها المصير ذاته. ثمّ تسلّلت خواطرها إلى عائلتها.. والديها ورانيا.. شهاب وهي. كلّهم بحاجة إلى إعادة تأهيل. همست:

- صدقتِ!

***

حين رجع جموع المتظاهرين إلى المنزل، كان هناك شيء غريب في الأجواء، وفي النّظرات التي يتبادلونها. شيء آخر، غير الفرح الذي حطّ بين جنبات القلوب منذ نهار الأمس الأسطوريّ، لرحيل زعيم عربيّ بعد خروج شعبه يحتجّ في الشّوارع في سابقة فريدة من نوعها! شيء غير الحزن، الذي عشّش في الصّدور واستوطن، منذ رحيل الابن والأخ الغالي، فبهت طعم كلّ شيء.. حتّى جاء الفرح منقوصًا، كأنّما هو جرعة ماء خفّفت طعم ليمون لاذع، دون أن يقضي على الحموضة تمامًا.

شيء يشبه خيوط حكاية، أخذت تنسجها أصابع خفيّة، لكنّ بساطها لم يكتمل بعد. وحتّى يستوي النّسيج، انعزل عبد الحميد مع زهور وفاطمة في الشّرفة الخلفيّة وأوصدوا الباب على مجلسهم.

همست ميساء إلى ياسمين وهي ترنو إلى الباب المغلق:

- قرار مصيريّ يتخمّر.. أشتمّ رائحته!

حين خرجوا بعد ساعتين، اجتمعت العائلة في الصّالة. كانت زهور من تكلّم أوّلا:

- لقد منّ الله علينا برفع الظّلم عن بلادنا.. ونظنّ -أنا ووالدكم- أنّ

الأوان قد حان، لنكون جزءًا من قصّة الوطن، مرّة أخرى!

تبادلت ميساء ووائل نظرات مرتبكة، فأردفت زهور:

- لقد حرمنا من دخول تونس طيلة هذه السّنين.. اليوم، تفتح الأبواب على مصراعيها، فهل نولّيها ظهرنا؟ وماذا كسبنا في حياة الغربة المديدة هذه، غير وجع القلب وفقد الولد؟

تأتأت ميساء:

- تقصدين.. العودة نهائيّا؟

أومأت زهور موافقة، ثمّ أخذت فاطمة الكلمة:

- آن الأوان ليجتمع شملنا في وطننا. لقد كنت أتمنّى أن ينشأ حفيدي بالقرب منّي.. وأن تؤنس ضحكاته شيخوختي ووحدتي. ولم أكن أتخيّل أن ترفع الحواجز التي فرّقتنا في القديم بين يوم وليلة.. لكنّه عوض الله الكريم!

رنت إلى ياسمين وهي تضيف:

- ثمّ يا ابنتي، لم يعد يجدر بك البقاء في هذه البلاد. لن تشفي إلّا إذا ابتعدت عن هذه الأرض المشؤومة وناسها الملاعين!

قال عبد الحميد:

- أرضنا ودارنا في «طبرقة» موجودة.. تشرف على جبال وسهول وبحر وخضرة.. جنّة على الأرض! سيعجبكم المكان هناك.

تمتمت زهور وهي تغالب دمعها:

- لم أعد أحتمل هذه البلاد التي تعتبر ولدي إرهابيّا! أريد أن أكون أمّ الشّهيد، وأفتخر به على رؤوس الملأ!

كأنّ عبراتها استدعت بكاءهنّ، ولعلّ عبراتهنّ مهيّأة للهطول في كلّ آن، فقد انهمرت على الفور بضغطة زرّ. تنحنح عبد الحميد مقاطعًا وصلة النّشيج الجماعيّة:

- على بركة الله.. ياسمين وفاطمة وعزّ الدّين، اسبقونا بالسّفر في أقرب وقت.

- وأنا أيضا!

هتفت ميساء في حماس، فهزّت زهور رأسها أن لا بأس. واصل عبد الحميد:

- قد نحتاج شهرين أو ثلاثة، لتصفية كلّ أمورنا هنا.. ثمّ نلحق بكم.

-٣٦-

بعد أربع سنوات (مارس ٢٠١٥).

خرجت رنيم من المبنى على عجلٍ وهي تقود طفليها أمامها في اتّجاه السيّارة. لقد استغرق منها تغيير ثيابهما وتسريح شعريهما ثمّ تجهيز الإفطار وحزم وجبات خفيفة من أجل النّهار الطويل، وقتًا ثمينًا لا تمتلكه. أجلست كليهما في المقاعد الخاصّة في القسم الخلفيّ، وربطت حزامي الأمان، ثمّ سارعت إلى عجلة القيادة. السّاعة تقترب من العاشرة، وهي متأخّرة عن دوامها في مكتب المحاماة.

ارتفع رنين يعلن تلقّيها اتّصالًا مرئيًا، فشبكت هاتفها على جهاز العرض الخاصّ بالسيّارة، ليظهر وجه ياسمين على الشّاشة.

- صباح الخير!

كانت تبدو في مزاج جيّد، في ثياب بيتيّة مريحة، وبين كفّيها فنجان قهوة يتصاعد بخارها.

- أنت تقودين؟

تذمّرت رنيم وعيناها تركّزان على الطّريق أمامها:

- يوم سيّء! لقد تأخّرت على موعد هامّ.. ولا أحد في الشقّة لمراقبة الطّفلين!

لوّحت ياسمين للتّوأمين في تودّد، فألقيا التحيّة بصوت عالٍ.

- عزّ الدّين.. تعال. تريد التحدّث إلى صديقيك؟

ملأ وجه الطفّل ذي السّنوات الأربع ونيف الشّاشة، وهو يقرّب أنفه من العدسة ويهتف:

- كيف الحال؟

شدّت ياسمين الجهاز من بين يديه، وأجلسته في حجرها، ليظهر وجهاهما متجاورين. همست:

- تكلّم بهدوء.. إنّهما يسمعانك.

- هل تذهبان إلى المدرسة اليوم؟

أجابت رنيم:

- اليوم هو الأربعاء يا حبيبي.. لا مدرسة!

تلك العطلة الأسبوعيّة الخاصّة بالمدارس الفرنسيّة كانت مصدر إرباك لنظام عملها.

رفع عزّ الدّين رأسه إلى والدته وقال في احتجاج:

- لا مدرسة لي أيضا ماما!

ضحكت ياسمين وقالت:

- حسنا.. سننظر في ذلك.

ثمّ أضافت وهي ترقب وجه رنيم العابس:

- ماذا فعلت بشأن السّكن؟ هل وجدت شقّة الأحلام؟

- ليس بعد.. لكنّنا نحاول!

بدت نظرة مشبعة بالحنين في عيني ياسمين وهي تهمس في حسرة:

- هل تتركن الشقة (٤٠٤) حقّا؟ لا أتخيّل باريس بدونها!

ضحكت رنيم وهي تقول بسخرية:

- لقد صارت مثل علبة سردين الآن! أتوق إلى اليوم الذي يصبح فيه لكلّ منّا فضاؤه الخاصّ.

عرّجت إلى طريق فرعيّ مبتعدة عن زحام الشّوارع الباريسيّة، ثمّ هتفت وقد تذكّرت شيئا:

- كيف حال عروسنا؟

- إنّها على وشك الجنون! وستجنّني معها!

ضحكتا معا، ثمّ قالت ياسمين:

- قودي على مهل.. اتّصلي بي لاحقا، حين تأخذين استراحة.

- بالتّأكيد.. أراك لاحقا.

وصلت رنيم إلى المكتب في وقت متأخّر. إنّه واحد من تلك الأيّام التي تضطرّ فيها إلى لخبطة نظام يومها، والعناية بالطّفلين بنفسها. منذ ولادتهما، عهدت إلى سكينة بمهمّة رعايتهما، لتستأنف عملها بشكل طبيعيّ بعد إجازة وضع قصيرة.

كان ذلك مناسبًا للجميع. سكينة كانت تحتاج مصدر دخل ثابتا لا يتطلّب كثرة خروج وتنقّلات، فقبلت عرض رنيم بسرور بالغ. لم تعد ترافق ميار ذهابًا وإيابًا إلى المدرسة، بعد أن تطوّعت رانيا للنهوض بتلك المهمّة. كان ترتيبًا عائليّا مثاليّا، حيث بعضهنّ يهتمّ ببعض.

كنّ يبدون مثل عائلة ذات ثلاثة أجيال متعايشة في شقّة واحدة. تبدو سكينة مثل جدّة يافعة، لمّا تخطّ التّجاعيد بشرتها. رنيم ورانيا وميار بناتها، رغم فروقات السنّ، والتّوأمان حفيداها.

يرتاد الطّفلان المدرسة التمهيديّة الآن. في فرنسا، المدرسة إجباريّة منذ سنّ الثالثة. غير أنّ اليوم هو الأربعاء -يوم إجازة أسبوعيّة لطلّاب المرحلة الابتدائيّة- وسكينة غائبة.

- سيّد برنار، آسفة على التّأخير.. تفضّل أرجوك إلى المكتب، سأتبعك في الحال.

أجلست رنيم الطّفلين عند مقاعد غرفة الانتظار وتلفّتت حولها. لم تكن مساعدتها في مكتبها. انحنت لتكون في مستوى رأسيهما وهمست:

- كونا عاقلين.. ستأتي لوسي خلال دقائق. ماما ستكون بالدّاخل.. لديّ عمل. لن تحدثا الفوضى، أليس كذلك؟

قالت الفتاة بلهجة تفوق حجمها وسنّها:

- لا تخافي يا ماما.. سنكون بخير.

جلست الطّفلة ذات السّنوات الثلاث والنّصف، وساعدت أخاها على اعتلاء مقعده، ثمّ أخرجت من حقيبتها الصّغيرة قطعة كعك وجلست تقضمها بهدوء.

ابتسمت رنيم في رضا، ثمّ غابت داخل المكتب.

بعد دقائق، وصل رجل في منتصف الثلاثينيات إلى غرفة الانتظار. لم تكن لوسي قد عادت إلى موقعها. من خلف الباب المغلق، كانت أصوات حديث مكتوم تتسرّب من المكتب إلى الخارج. تلفّت حوله، ثمّ اتّخذ مجلسًا إلى جوار الطّفلين.

بادرته الطّفلة بلهجة واثقة:

- أنت هنا من أجل ماما؟ لديها عمل...

رفع حاجبيه في دهشة ثمّ قال في اهتمام:

- ماما بالدّاخل؟

هزّت الطّفلة رأسها علامة الإيجاب. كان يجب أن يدرك أنّها نسخة مصغّرة من رنيم. شعرها الكستنائيّ القصير، وعيناها العسليّتان الواسعتان.. وتلك الأناقة الفطريّة التي تليق بها، وتبديها أكبر من سنّها.

- ما اسمك يا حلوة؟

- أنا سمر.. وهذا أخي.. عمر!

تبدّت الصّدمة في عينيه، ثمّ قال في دهشة:

- أنتما توأمان؟

- أنا أكبر منه.. بعشر دقائق.

بينما اهتمّت سمر بمحادثة الرّجل الغريب، كان عمر الصّغير منشغلا بأزرار معطفه. يفكّها ثمّ يفشل في إغلاقها. بعد محاولات مضنية،

استرسـل في بـكاء طفـوليّ متذمّـر.

- لا تغضب يا صديقي.. سأزرّره من أجلك.

هبـط الرّجـل عـلى ركبتيـه أمـام الولـد، وأحكـم تزريـر المعطـف بالكامـل. توقّـف الطّفـل عـن البـكاء ليراقـب الغريـب في انتبـاه، وتتحـوّل تكشـيرته تدريجيّـا إلى ابتسـامة واسـعة.

- انتهينا!

فتـح بـاب المكتـب فجـأة، وظهـرت رنيـم وهـي تصافـح موكّلهـا مودّعـة. خطـى السّـيد برنـار مغـادرًا، بينمـا تسـمّرت رنيـم مكانهـا في صدمـة. حدّقـت في الرّجـل الـذي استوى واقفًـا قبالتهـا في تشـوّش، ثـمّ هتفـت غـير مصدّقـة:

- عمر!

أجاب الولد على الفور:

- نعم ماما!

ارتبكـت الكلمـات عـلى لسـانها، ولـم ينقذهـا إلّا دخـول لـوسي. قالـت عـلى عجل :

- تعـال يـا حبيبي.. اجلـس أنـت وأختـك بجانـب لـوسي حـتّى أنتهـي مـن العمـل.. اتّفقنـا!

ثمّ التفتت إلى عمر وقالت بنفس مقطوع:

- تفضّل!

سـبقته إلى داخـل المكتـب وهـي تحـاول أن تتذكّـر تاريـخ اليـوم، وتقـارن بفـترة الحكـم الـتي عوقـب بهـا. لكـنّ حسـاباتها لـم تفلـح. قالـت في ارتبـاك:

- متى خرجت؟

- اليوم...

أضاف بنبرة متهكّمة:

- لقد أطلق سراحي مبكّرا، لحسن السّيرة والسلوك!

- آه!

لذلك لم تكن الحسابات صحيحة.

- تفضل.. أرجوك!

جلس قبالتها في استرخاء، ثمّ قال:

- لم أجد جورج في مكتبه.

- تريد أن تترك له رسالة؟

بدا عليه التردّد، ثمّ قال أخيرا:

- ربّما يمكنك المساعدة؟

- بالتّأكيد.

- هل تعرفين مكان ياسمين؟

- ياسمين؟ لقد سافرت إلى تونس منذ أربع سنوات.. لكنّنا على اتّصال.

- جميل.

همّت تقول بأنّها حادثتها للتوّ. لكنّها عدلت. ستجيب على قدر السّؤال. راقبته وهو يخرج ظرفا من جيب سترته، ثم يضع على المكتب أمامها صكّا بنكيّا ويضيف:

- هل يمكنك توصيل هذا إليها؟

تناولت رنيم الصكّ بين يديها في شكّ:

- ما هذا؟

- فلنقل.. أنّها أرباح الشّركة، للسّنوات الماضية.

غمغمت مبهوتة:

- أرباح الشّركة؟ أيّ شركة؟ الشّركة التي صودرت منتجاتها وأتلفت؟ أيّ أرباح قد تكون لها؟

ابتسم عمر وقال:

- لا داعي لتعرف ياسمين شيئا عن هذا.

حدّقت رنيم في الرّقم المدوّن على الصكّ، فازدادت عيناها اتّساعًا. هتفت غير مصدّقة:

- هذا مبلغ ضخم! هذه قيمة التّعويض الذي حصلت عليه، في قضيّة الانفجار.. أليس كذلك؟

لم يكن ما صرفه على المشروع يتجاوز نصف المبلغ. مازال حسابه مكتنزًا، والرّقم الذي يظهر على الصكّ يشهد بذلك. أيّ شخص لا يعرف الرّقم الحقيقيّ -مثل رنيم- سيتوقّع أنّه لم يلمس التّعويض قطّ. وذلك يثقل كاهله بشكل لا يوصف.

زفر في ضيق وقال:

- لقد حصلت على تعويض سخيّ، لكنّ زوجة هيثم وابنه لم يحصلا على شيء على الإطلاق! لم يعوّض خسارتهما أحد.. وإن كنت قد خسرت صحّتي، فقد خسر هو حياته!

هتفت رنيم في حرارة:

- أنت تحاول التّكفير عن ذنب وهميّ! ما حصل لهيثم لم يكن ذنبك! أنت ضحيّة.. مثله تمامًا!

ابتسم في مرارة، وقال:

- ليس هناك من كلام قد يغيّر ما أشعر به.. وما رافقني طيلة سنوات الحبس. وفّري جهدك!

أطرقت رنيم في تفكير ثمّ قالت:

- حسنا. لا يمكن لأحد إيداع مبلغ كهذا.. لن يقبل أيّ بنك صرف صكّ بهذا الحجم، ما لم يكن مصدره جهة معروفة! ستتعرّض ياسمين للتّحقيق، وتتّهم بتبييض الأموال...

حملق في الفراغ وقد انتابه الضّيق. لقد كان كلّ همّه أن يتخلّص من العبء الذي ران على صدره، ولم يفكّر في الحيثيّات. قال ببساطة:

- أنت محامية.. ستجدين طريقة ما!

أطرقت رنيم برهة لتفكّر، ثمّ قالت:

- أقترح أن تفتح حسابًا باسم عزّ الدّين وتودع فيه مبلغًا معقولا.. سأخبرها أنّ هيثم أنشأ حسابًا للتّوفير بنفسه منذ بداية المشروع.. وأنّ أرباح الشّركة كانت تحوّل إلى ذلك الحساب في السّنوات السّابقة!

رفع حاجبيه في دهشة، ثمّ أومأ في استحسان:

- ممتاز!

- يمكن أن أخبرها أنّنا وجدنا الوثيقة البنكيّة في ملفّات القضيّة حين كنّا نتلف الأوراق القديمة.. حتّى أبرّر معرفتي بالأمر، وأفسّر أيضا ظهور الحساب المفاجئ بعد كلّ هذه السّنوات.

- لا بأس.. هذا يبدو معقولا.

- لا تنس.. يجب أن يكون مبلغًا مقبولا! قدّر أرباح الشّركة الطّبيعيّة الممكنة في السّنة الواحدة، ثمّ أودع القيمة المناسبة...

فكّر لبرهة، ثمّ قال:

- دعي الأمر لي! سأرسل إليك بيانات الحساب حين أنتهي من المهمّة.

وقف فجأة، وقد كست ملامحه علامات الارتياح. سألت في دهشة:

- هل يعلم أحد بإطلاق سراحك؟

- لا.. باستثناء إدارة السّجن طبعا.

قالت في توجّس:

- أنت تعلم.. فرنسا ليست آمنة بالنّسبة إليك.

زفر وهو يخفي كفّيه داخل جيبي بنطاله:

- أعلم. لن أبقى طويلا.

- أين نويت الذّهاب؟

هزّ كتفيه في استهانة وقال:

- أرض الله واسعة!

ابتعد في اتّجاه المخرج، ثمّ استدار فجأة ليقول:

- أنا مدين لك مرّة أخرى.. لم تواتِ الفرصة لأشكرك على إنقاذ حياتي مرّة ثانية! لولا حسن تصرّفك وسرعة بديهتك.. كنت لأدفع فاتورة مشطّة، من سنوات عمري!

ابتسمت وقد التهبت وجنتاها فجأة، وقالت في سرور:

- هذا ما يفعله المحامي!

شعرت بتردّده برهة، كأنّ على لسانه حديثًا يكتمه. ثمّ ألقى وهو يمضي في سبيله:

- بلّغي سلامي إلى الدّكتور شهاب.

***

تصفّحت رانيا الصّور الجديدة مرّة أخرى، وهي تبتسم في رضا، ثمّ أرفقتها إلى الرّسالة الإلكترونية وضغطت على زرّ الإرسال. تنهّدت وهي تغلق جهازها وتلتفت إلى ميار المستلقية إلى جوارها على السّرير. قالت بلهجة آمرة:

- أحضري كتبك، لنبدأ مراجعة درس الإنجليزيّة!

تأفّفت ميار وهي تلقي جهازها اللّوحي الذي تنشغل عليه غالب أوقات فراغها، ثمّ تناولت دفاترها ووضعتها على المنضدة. كانتا قد رجعتا إلى الشّقة منذ دقائق قليلة. تنهي رانيا مقرّراتها المسائيّة في الجامعة، ثمّ تمرّ لاصطحابها من المدرسة.

تفقّدت رانيا رسائلها مرّة أخرى، ثمّ عادت لتركّز مع ميار في دروسها. كانت قد شارفت على إتمام رسالة الماجستير الخاصّة بها في تخصّص الحضارة الفرنسيّة، وتعمل بدوام جزئيّ كـ «وسيط اجتماعيّ»! كانت تطلق ذلك اللّقب في سخرية على مهمّاتها الجانبيّة التي أصبحت جزءًا لا يتجزّأ من نشاطها اليوميّ.

مع انفصال رنيم وشهاب بشكل رسميّ، كانت حلقة الوصل الوحيدة بين شهاب وطفليه أثناء وجودهما في باريس. توصّل أخبارهما باستمرار، وتخضعهما لحصص تصوير احترافيّة كلّ أسبوع، حتّى لا يفوته شيء بخصوص نموّ ولديه وتفاصيل حياتهما. كانت رنيم تصرف الكثير لاقتناء أزيائهما المميّزة، وتحرص على نزهتهما الأسبوعيّة في واحد من الفضاءات المفتوحة في العاصمة الفرنسيّة، ولم يكن على رانيا إلّا أن ترافقهما وتلتقط الصّور.

- هل سيأتي كزافي غدًا؟

- لا أعلم.. دعينا ننتهي من هذا أوّلا.

عبست ميار وهي تضغط على القلم في ضيق لتخربش على الدّفتر. الواجبات أوّلا. لكنّها تتوق إلى أمسية الغد. مساء الجمعة يحضر كزافي ليقضي بعض الوقت برفقتها. كانت تشتاق إلى زياراته التي تباعدت في السّنة الأخيرة، منذ التحق بالعمل مدرّس رياضيّات في مدينة «رُوون»(Rouen) بمقاطعة «النورماندي» (Normandie).

في السّابق، كان يأتي لرؤيتها كلّ يوم تقريبًا. يجلسان بعد ساعات مدرستها في مقهى يقع قبالة محطّة المترو، تحت إشراف رانيا. كانت تسمح له بعشرين دقيقة فقط، وقد تمدّدها إلى نصف ساعة، إذا ما استعطفتها ميار بعينين بريئتين مثل عيون القطط اللّامعة والمرقّقة للقلب، وتخفي ذلك بحرص عن سكينة.

لكنّها لم تكن تعلم أنّ رانيا في صفّ سكينة قبل أن تكون في صفّ أيّ أحد آخر! لم يكن بوسعها تبرير التّأخير اليوميّ عن مواعيد المدرسة أمام سكينة.. خاصّة وهي الحريصة على فتاتها أشدّ الحرص، فكيف يفوتها تغيّر المواعيد بمجرّد أن وضعت رنيم طفليها، وتولّت رانيا مهمّة التّوصيل؟ لم تكن رانيا تنوي خداعها منذ البداية. وسكينة لم تكن لتمانع أصلًا. لكنّهما منحتا الصّغيرة امتياز الإحساس بالإثارة، وهي تلتقي أخاها سرًّا!

- تأخّرت سكينة!

تململت ميار في مقعدها. فطمأنتها رانيا:

- لعلّها على الطّريق الآن.

أخفت قلقها، وانكبّت تشرح الدّرس رغم تشتّت ذهن الفتاة وسرحانها المتكرّر.

كان هناك وجه آخر لنشاطها كوسيط اجتماعيّ! مثلما تقف على مسافة متساوية من رنيم وشهاب، كانت تسعى خفية إلى تقريب وجهات النّظر بين جاسر وسكينة. لم يتغيّر موقف جاسر -أو كزافي- من والدته. لقد أدركت منذ وقت طويل أنّ إعراضه عنها مبدئيّ، وليس ظرفيًا. وكان على سكينة أن تتقبّل فشلها في استمالته، وتكتفي بكونها جسرًا بينه وبين شقيقته.

فتح باب الشّقة فجأة وتسارعت الخطوات الصّغيرة في الصّالة. تركت ميار مقعدها وهرولت لاستقبال رنيم والتّوأمين.

- هل رجعت سكينة؟

هزّت ميار رأسها نافية:

- ليس بعد.

- حسنًا.. إلى المائدة جميعًا. أحضرت وجبة جاهزة.

وضعت الأطباق المعلّبة في المطبخ، ودخلت غرفتها لتتخلّص من معطفها ولباسها الرّسميّ. خطت فوق الألعاب التي تملأ الأرضيّة وصارت تتكدّس في كلّ ركن بشكل لا يطاق. تأفّفت وهي تزيحها لتشقّ طريقها نحو خزانة ثيابها.

منذ مجيء التوأمين، تنام رانيا على أريكة الصّالة. لقد أخذت الشقة تضيق بهنّ إلى درجة عالية. إنّها تحاول منذ أكثر من ثلاث سنوات البحث عن شقّة أكبر، تليق بعائلة ممتدّة، يزداد عدد أفرادها باستمرار. قرّرت أنّها تودّ الشّراء الآن، وترك شقة الإيجار (٤٠٤)، رغم مكانتها المعنويّة في

نفوسهنّ جميعًا.

لكنّها لا تجد الوقت الكافي للتردّد على الوكالات العقاريّة والتفرّج على الشّقق. وسوق العقارات في باريس ضيّق للغاية. عروض المساكن العائليّة قليلة، والطّلب عليها غزير.

خلال ثلاث سنوات، لم تنل شقّة واحدة رضاها. إنّها متطلّبة، هذا أكيد. بحثها ينحصر في محيط محدّد: عدد قليل من الأحياء الباريسيّة الباهظة، أربع غرف على الأقل -واحدة لها، ثانية لسكينة، ثالثة لرانيا وميار، ورابعة للتّوأمين- بالإضافة إلى شرفة خارجيّة، غرفة معيشة واسعة بمطبخ مفتوح، مسكن عصريّ ومجدّد بالكامل!

لعلّها لا تريد الانتقال. لعلّها تستتر خلف التّعلّات، لتبقي على الحميميّة الدّافئة التي تجمعهنّ في تلك الشّقة الضّيّقة. لو انفردت كلّ منهنّ في غرفتها، ربّما تفتر حرارة العلاقات..

لقد تحدّثت سكينة عن الرّحيل، منذ سنوات، بعد أن استعادت ميار. كان من الطّبيعيّ أن ترغب في الاستقلال بحياتها وطفلتها، في شقّة خاصّة بهما. وفي وقت آخر، كانت تفكّر في ترك فرنسا كلّها والعودة إلى وطنها سوريا. لكنّ الظّروف تغيّرت فجأة. وما كان ممكنا غدا مستحيلا مع استمرار الحرب الأهليّة السّوريّة منذ ٢٠١١، وتشرّد أهل البلد في أصقاع الأرض.

أقنعتها رنيم بالبقاء. كانت بحاجتها، لرعاية الطّفلين. وقد استجابت سكينة. لكنّ الطّفلين يكبران، وأصبحا يرتادان المدرسة الآن. خمّنت أنّ سكينة قد تعود إلى موضوع الانتقال من جديد. لكنّ ظروفها الصحيّة حالت دون اتّخاذ خطوة جادّة بذلك الشّأن.

انفتح الباب مرّة أخرى، وظهرت سكينة. تركت كلّ منهنّ ما بيدها وتحلّقن حولها. كانت تبدو منهكة ومفرغة من الطاقة. تهاوت على الأريكة، فسارعت رانيا تحضر كوب ماء من أجلها، في حين تأبّطت ميار ذراعها وأسندت رأسها إلى صدرها. سألت رنيم في قلق:

- أنت بخير؟

أومـأت بابتسـامة واهنـة، وربّتـت عـلى رأس صغيرتهـا المرتعبـة. قالـت بصـوت مبحـوح:

- أنا هنا يا حبيبتي.. لقد جئت!

كانـت تعـود على تلك الحـال من الضّعف، بعـد كلّ جلسـة عـلاج كيميـائيّ. لقـد كانـت الجراحـة مجديـة إلى حـدّ كبير، وقـد مرّت سـنوات هادئـة وهانئـة حسـبت خلالهـا أنّهـا قـد عـادت تنعـم بالصّحـة الوافـرة. لكـنّ الوضـع عـاد ليتعكّـر في الآونـة الأخـيرة. والآن، تضطـرّ إلى تلقّـي حصـص العـلاج الطّويلـة، مـرّة كلّ ثلاثـة أسـابيع.

وقفت فجأة بعد أن أخذت نفسًا:

- لعلّكنّ لم تأكلن؟ سأعدّ العشاء!

- مكانك يا سكينة.. هذا اليوم لا مطبخ بالنّسبة إليك.

همست ميار في حماس:

- زنيم أحضرت عشاءً من المطعم!

تحلّقـن حـول المائـدة، تزيّـن وجوههـنّ البسـمات. يخفـين قلقهـنّ بشـأن مسـتقبل موحـش لا يرغـبن في التفكّـير فيـه.



وقف عمر على مبعدة من المبنى المرتفع، يتأمّل المئذنة الباسقة والقبّة الضخمة. تفصله عن زيارته الأخيرة للمركز الإسلامي ببروكسيل ستّ سنوات ونيف، ومخيّم ومشروع وقنص وحبس! لكنّه يرنو إلى المنشأة المألوفة، وكأنّه كان هنا بالأمس.

لم تعد للزّمن القيمة ذاتها، بالنّسبة إلى الغرباء أمثاله، الماضين في اتّجاه يعاكس عقارب السّاعة.. على هامش الحياة والواقع.

اجتاز المدخل وقد اقتربت السّاعة من موعد أذان العصر. توجّه مباشرة إلى قاعة الصّلاة الفسيحة. جلس وقد غشيته السّكينة، يترقّب إقامة الصّلاة. صلّى مع الجماعة الأولى، ثمّ نهض. سار بين الأروقة، يبحث في الوجوه عن ملامح مألوفة. لكنّها لم تكن هناك.

طرق باب المكتب الذي تناول ذات ظهيرة كوب شاي مع صاحبه، ثمّ دخل. قابلته وجوه بشوشة، أصحابها غرباء. سأل في لهفة المشتاق إلى أهله:

- أبحث عن عزّام.. رجل في الخمسين، فلسطينيّ.

- آسف.. أنا حديث عهد بالعمل هنا. لا أعرف عمّن تتحدّث.

وقف الشّاب وهو يشير إلى عمر بالجلوس:

- تفضّل انتظر هنا.. سأستفسر عن طلبك، لعلّ أحد الإخوة يمكنه الإفادة.

غاب لدقائق قليلة، ثمّ عاد وبرفقته رجل أربعينيّ، يلتحف بالكوفيّة الفلسطينيّة. صافح عمر بحرارة، ثمّ سأله في استغراب:

- أنت تعرف عزّام؟ لقد رحل منذ سنتين، وترك مظروفا مغلقا. قال أنّ أحدًا سيأتي للسّؤال عنه.. وقد مضى وقت طويل حتّى نسيت الأمر، لم أحسب أن يأتي أحدهم حقّا!

- هل الظّرف في حوزتك؟

- إنّه محفوظ في مكتبي. ثواني، سآتي لك به.

غاب الرّجل برهة ثمّ عاد وقد تهللت أساريره:

- هاك الأمانة!

شكره عمر بابتسامة ممتنّة، ثمّ احتضنت كفّاه الرّسالة المغلقة. ترقّب حتّى بات وحيدًا ليفضّ المغلّف ويقرأ الكلمات القليلة التي حوتها الصّفحة البيضاء. تنهّد في ارتياح، ثمّ مضى.

سار في طرقات بروكسيل طويلا بلا وجهة. لم يكن يبحث عن آية وخالها، فقد عرف العنوان والبريد الإلكتروني. عنوان في مدينة «بون» الألمانية. لا شكّ أنّ الكثير قد فاته. أخذ يرصف كلمات الرّسالة التي سيرقنها حال عودته إلى غرفة الفندق في ذهنه. سيعرف كيف انتهى بهم المطاف في ألمانيا حين يصله ردّها. يتخيّل لحظات اللّقاء المرتقب ويبتسم.

في الأثناء، يستمرّ يبحث عن نفسه.. عن ذاته القديمة التي تتّقد حماسة وتعرف هدفها. لقد لفظه السّجن، مثل طفل تائه تركته أمّه على قارعة الطّريق ورحلت. كان يطوف بالبقاع القديمة التي تبعثر وجدانه بينها، يحاول لملمة شتات نفسه والاستواء رجلا شامخًا من جديد. لكنّه لا يفلح بعد. سيحتاج زمنًا، لا يسعه تقديره، حتّى يخلّص دواخلها ممّا خالطها من أدران.

من هنا بدأ.. ومن هنا يستأنف الرّحلة.

***

فتحت ياسمين نافذة غرفتها المطلّة على باحة المنزل، ورفعت السّتائر، ثمّ عبرت الرّواق المسقوف في اتّجاه المطبخ. كانت الغرف كلّها تفتح على السّاحة المبلّطة، على الطّراز التقليديّ لدور القرية. لكنّ عبد الحميد قام بتجديد المسكن القديم ليلائم العائلة، وزوّد كلّ غرفة بحمّامها الخاصّ، لتوفير قدر مناسب من الرّاحة.

في مسقط رأس هيثم، قرب مدينة «طبرقة»، شمال البلاد التّونسيّة، انتهى بها المطاف. قرية صغيرة، مناخها جبليّ منعش، تحدّها غابات البلّوط والفلّين، ومرتفعات مثلجة، وشواطئ البحر المتوسّط الصخريّة.

كانت زهور قد سبقتها إلى المطبخ، وقد جلس عزّ الدّين إلى المائدة، يرتشف حليبه الدّافئ مثل قطّة وديعة وناعمة. ربّتت على رأسه وهمست:

- لم تنتظرني هذا الصّباح!

كان ولدها يشاركها الغرفة ذاتها. لكنّه ينسلّ من السّرير خلسة ما إن ينتبه إلى استيقاظ جدّته. ابتسم في اعتذار وقال:

- كنت جائعًا.

منذ عودتها إلى تونس، برفقة عائلتها، كانت تشعر بمزيج من الارتياح والحنين. لقد كانت حياة القرية المسترخية تلائمها.. كأنّما هي الخطوة المنطقيّة التالية. بعد انتقالها من العاصمة الفرنسيّة الصّاخبة، إلى مدينة «ليل» الهادئة، كان التطوّر الحتميّ هو القرية! لم تكن تحبّ زحام وقت الذّروة ولا عجلة السيّارات المسرعة. كانت تستمتع بقضاء حاجاتها سيرًا على الأقدام. في القرية، يعرف كلّ النّاس بعضهم بعضا، والمحلّات التي تقصدها تجتمع في شارع واحدٍ مركزيّ، لا تملك خيارات غيره، ولم يكن ذلك يضايقها.

لكنّ نوبات الحنين تعكّر صفاء قلبها.

تماثلت للشّفاء سريعًا بعد تركها فرنسا. لقد كانت تلك الخطوة

ضروريّة، لهم جميعًا. تعافت أرواحهم التي زادت الغربة من وطأة الحزن عليها.

- صباح الخير!

انضمّت إليهم ميساء على مائدة الإفطار. بدت عيناها متورّمتين وشعرها منكوشًا. رنت ياسمين إلى ملامحها العابسة وهمست:

- أنت بخير؟

تنهّدت وهي تقول في وجوم:

- لم أنم جيّدا!

- تشاجرتما؟

كانت ميساء قد خطبت لابن عمّها منذ سنتين. بدا لقاؤهما مثل «حبّ من النظرة الأولى». لم يكن أحدهما يعرف شيئا عن الآخر تقريبًا، بحكم نشأتها في الغربة منذ نعومة أظفارها. وقد استحسن الأخوان ارتباط الأبناء وتوثيق عرى المودّة الأسريّة.

كان الشابّ يكبرها بثلاث سنوات، مهندس زراعيّ، اهتمّ باستصلاح أرض جدّه، وأنشأ مزرعة حديثة استثمر فيها كلّ أعمامه مدّخراتهم، ووضعوا عليها آمالا كبيرة.

- إنّه مصرّ على السّكن مع أهله!

قالت بتكشيرة من شفتيها وتقطيبة تغزو جبينها. ابتسمت ياسمين في إشفاق. لم يكن يخطر ببالها، حين تزوّجت هيثم، أنّها سترضى بالسّكن مع عائلته. لقد كانت استقلاليتّها أمرًا مفروغًا منه. لكنّ الظروف التي لم تخطر على قلب أحدهم أدّت إلى تلك المساكنة.

لم يدر بخلدها قطّ أن تحرم زهور وعبد الحميد من صحبة حفيدهما. كانت تدرك يقينًا أنّهما بحاجته، مثلما هو بحاجتهما. في غياب والده، كان

جـدّه يكمّـل النّقـص الـذي يلقـي بظلالـه عـلى وجـدان الطّفـل. لقـد كـبرت هـي دون أب، وتعـرف كيـف يكـون الأمـر. ولـم تكـن لتسـدّ بمفردهـا فراغـه. كان عبـد الحميـد يأخـذه إلى السّـوق، يعلّمـه الصّيـد وتسـلّق الأشـجار، ركـوب الـدّوابّ وصنـع الفخـاخ.. يشـاركه الأنشـطة الرّجاليّـة، ويمنحـه جرعـة مـن حنـان مـن نـوع آخـر، يختلـف عـن حنـان الأمّ.

لقـد كانـت اللّحمـة الـتي تولّـدت بينهـم، بعـد الفاجعـة، تلقائيّـة. كان مصابهـم واحـدًا، وتكاتفهـم حتميّـا. كانـت تستشـعر ذلـك الفـراغ في روحهـا، وكانـت رؤيـة أحبّـاء هيثـم، كلّ يـوم، تملؤهـا ارتياحًـا، كأنّ عبـير ذكـراه معلّـق دائمًـا في الجـوّ، لأنّ سـيرته لا تنقطـع عـلى ألسـنتهم، وصـوره تزيّـن جـدران غرفهـم، والحنـين إلى أوقاتهـم معـه يجمعهـم.

لقد كان ذلك مكانها الطّبيعيّ.

تكلّمت زهور وهي تملأ فناجين القهوة:

- لسـت مضطـرّة لإتمـام الزّيجـة.. إذا لـم تجـدي الارتيـاح، سـيتحدّث والـدك إلى شـقيقه وينهـي هـذه المسـألة!

خبطت ميساء بكفّها على الطّاولة في استياء:

- لقـد عرفـت ذلـك! أنـت لا تريديـن لي أن أتـزوّج، أليـس كذلـك؟ كلّ خـلاف بالنّسـبة إليـك مسـوّغ كافٍ لإلغـاء الزّفـاف! لقـد صرت في الثلاثـين، هـل تدركـين؟ أم تـراك تفضّلـين الاحتفـاظ بي.. مثـل عـروس الخـزف في ركـن الموقـد؟

مطّت زهور شفتيها وهي ترشف من فنجانها:

- لست أنا صاحبة الشّكوى! كنت أحاول المساعدة وحسب.

- طبعا.. المساعدة!

تمتمـت ميسـاء في اسـتياء قبـل أن تـترك مقعدهـا، لتضيـف ملعقـتي سـكّر إلى فنجانهـا، ثـمّ أضافـت:

- سيأتي هذا المساء.

- ما الدّاعي؟

- يجب أن نفضّ هذا الخلاف.. هل يمكن لأبي أن يشترط مسكنًا منفصلًا؟

- بالتّأكيد.. سأتحدّث إليه.

كانت العلاقة معقّدة بينها وبين نساء العائلة. في نظرهنّ، كانت الفتاة الفرنسيّة المدلّلة. لا تفهم التقاليد ولا تُراعي العادات. وقد جلدنها بألسنتهنّ السّليطة الحادّة حين حاولت أن تأخذ بزمام الأمور في تلك العلاقة. ثمّ كان عليها الانصياع وترك التصرّف بيد والدها.

- لا يمكنه الرّضا لابنته الوحيدة بالمهانة.. أليس كذلك؟

- بالمناسبة، حين تزوّجنا والدك، سكنت في منزل العائلة سنتين.. ثمّ جاءت ظروف السّفر إلى فرنسا.

عبست ميساء وقالت في توتّر:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنّ هذا التّدبير قد يكون مؤقّتا.. حتّى يشيّد زوجك منزلًا خاصًّا. لقد تزوّجت في غرفة ياسمين! والآن قد خلا منزل العائلة من سكّانه وهجره أهله.

إنّها تطمئن نفسها بأنّ ذلك التّدبير مؤقت. إنّها تحنّ إلى حياتها المستقلّة الرّائقة. لقد تركت عملها، ولم تطمع في إيجاد فرصة مناسبة في فضاء القرية، حيث لا جامعات ولا مراكز بحثيّة ولا مؤسّسات ثقافيّة. بوسعها التّقديم على وظيفة مدرّسة. لكنّها تترقّب الوقت المناسب، حتّى يكبر عزّ الدّين ويرتاد المدرسة بدوره.

لم يكن العمل هدفًا في ذاته. إنّها تحبّ ما تفعل، وتستمتع بالتّجارب الاجتماعيّة التي تخوضها. لكنّ ما يعوزها الآن هو الاستقلال الماديّ. لقد

أنفـق عبـد الحميـد جـزءًا مـن مدّخراتـه لاسـتصلاح مـنزل العائلـة القديـم، وقسّـم مـا تبقّـى مـن ثمـن بيـع البيـت الفرنسـيّ بـين ميسـاء ووائـل وعـزّ الدّيـن، بعـد أن احتفـظ بمـا يكفيـه وزوجـه في أيّـام شـيخوختهما. في الأثنـاء، يسـتعيد أيّـام مجـده السّـابق في مضمـار الفلاحـة، ويشـارك إخوتـه مـشروع المزرعـة العصريّـة الواعـد! لكنّهـا لا تجـرؤ عـلى لمـس ذاك المبلـغ أبـدًا.

قالت وهي تشير إليه أن يمسح رغوة الحليب عن شفتيه:

- سأنتظرك في الغرفة، من أجل الدّرس الصّباحيّ.

كانـا يمضيـان سـاعات الصّبـاح في أنشـطة تعليميّـة مختلفـة. تقـرأ لـه قصصًا وتعلّمـه الحسـاب والعـدّ بـأدوات مقتبسـة عـن أسـلوب «مونتيسـوري»، بمـا يتوفّـر لهـا مـن أغـراض منزليّـة الصّـنع. كانـا يتسـلّيان كثـيرًا. ثـمّ تـترك لـه العنـان ليلهـو في الحـوش المشـمس، أو يرافـق جـدّه لقضـاء بعـض الحاجات، بينمـا تنهمـك في أعمـال المـنزل الـتي لا تنتهـي.

رنّ هاتفهـا معلنًـا عـن اتّصـال صـوتيّ مـن رنيـم. ابتسـمت وهـي تـردّ في اسـتغراب:

- استراحة مبكّرة؟

- ليـس تمامًـا.. مـا زلـت في المكتـب، لكنّـي لـم أسـتطع الانتظـار. عنـدي لـك مفاجـأة!

- مفاجأة؟ تصالحت وشهاب؟

عبست رنيم وقالت في ضيق:

- مفاجأة تخصّك يا عزيزتي!

- تخصّني أنا؟ كيف؟

- اسـمعي.. كان جـورج يرتّـب ملفّـات القضايـا القديمـة، فوجـد وثائـق تخـصّ هيثـم، رحمـه الله.

- آه!

أعلنت رنيم بشكل مسرحيّ:

- احزري ماذا؟ لقد اكتشفنا وجود حساب توفير فتحه هيثم، باسم عزّ الدّين!

- حساب توفير؟ لم يخبرني هيثم عن هذا قطّ!

- لعلّها كانت مفاجأة.. أبقاها حتّى يحين موعد الولادة؟

تمتمت في عدم اقتناع:

- ربّما...

واصلت رنيم في حماس:

- المهمّ.. لقد كنت في البنك منذ حين، وتحقّقت من الحساب. أصغي إلى هذا.. هناك مبلغ أكثر من ممتاز في رصيد عزّ الدّين!

- غريب.. من أين أتى؟

- يبدو -من حركة الإيداعات المتكرّرة- أنّ أرباح مشروع الألعاب كانت تنقل بشكل مباشر على الحساب!

هتفت ياسمين في دهشة:

- أنت واثقة؟ هذا لا يصدّق!

- هنيئا لك عزيزتي! لا شكّ أنّ هيثم كان ذا نظرة استشرافيّة ثاقبة، حتّى يفكّر بمستقبل عزّ الدّين بهذا الشّكل الحكيم!

دمعت عينا ياسمين في تأثّر. بينما عضّت رنيم على شفتها السّفلى في توتّر. لم ترد أن تفتح محادثة مرئيّة، حتّى لا تفضح ملامحها كذبتها. لكنّها تفعل هذا من أجلها.

- هل تودّين أن أحوّل المبلغ إلى حسابك الشّخصيّ؟

- لا أدري.. إن كان هيثم يريد توفير مبلغ لدراسة عزّ الدّين لاحقا..

أليس من الأفضل أن أبقيها هناك؟

قالت رنيم في حرارة:

- لقد خصّص جدّه ميراث والده من أجل هذا الغرض. من رأيي، استفيدي من المبلغ لإنشاء مشروعك الخاصّ. أنت في حاجة إلى مدخول لك ولولدك.. استثمري المال الآن، حتّى تنمو قيمته في المستقبل. حتّى لو اشتريت عقارًا وأجّرته، سيكون ذلك أفضل من إبقاء المبلغ جامدًا...

سرى حماسها إلى ياسمين.

- أنت محقّة. لقد كنت أفكّر منذ جئت إلى القرية في مشروع محدّد.. لكنّني لم أكن أملك رأس المال الكافي.. هذا الخبر، إنّه يحلّ المشكلات جميعها. لست أدري كيف أشكرك!

أنهت رنيم الاتّصال. تنهّدت، ثمّ أخذت ترقن رسالة نصيّة: «تمّت المهمّة بنجاح». ثمّ ضغطت على زرّ الإرسال.

***

وقف عمر أعلى التلة. ألقى نظرة شاملة على المشهد تحت قدميه. كانت الدّور ذات السّقوف القرميديّة الحمراء تظهر متراصّة حينًا ومتباعدة حينًا آخر، تفصلها مساحات خضراء وحقول أشجار مثمرة. وفي البعيد، تتلألأ مياه جدول ضيّق تحت أشعّة الشّمس، يلتفّ مجراه حول التجمّع السكنيّ ويواصل تدفّقه نحو الجنوب.

اقترب الوكيل العقاريّ وقال:

- ماذا قلت سيّدي.. هل قرّرت الشّراء؟

ابتسم عمر وقد التمعت في عينيه نظرة رضا:

- أودّ تقديم عرض.

- جميل.. اتبعني أرجوك.

كان المنزل التقليديّ الواقع أعلى التلّة، مطلًّا على ضاحية سكنيّة تبعد مسافة ساعة واحدة عن مركز «لوزان»، على أبواب الرّيف السويسريّ، قد استحوذ على لبّه.

تجوّل في أنحاء البناء القديم الذي يعود إنشاؤه إلى مطلع القرن الثّامن عشر. سحره الطّراز العتيق المشبع بالتّاريخ: الأعمدة الخشبيّة المكشوفة، الأرضيّة الباركيه الأصليّة، وموقد الحطب الذي يتربّع في صدر فضاء الاستقبال الواسع. كان المنزل المجدّد بالكامل، مع الحفاظ على الطّابع الأصيل، يفي بحاجته ويزيد، بغرفه الثلاث المشرفة على حقل ممتدّ من الجهة الخلفيّة.

جلس الرّجلان في الفناء، وأخذ عمر يخطّ عرض الشّراء. لقد تنقّل كثيرًا في الشّهور الماضية، بين مدن أوروبيّة عدّة. منذ غادر باريس، كانت بروكسيل محطّته الأولى، ثمّ زار آية وعائلتها في بون الألمانية، ثمّ فرانكفورت وميونيخ، لكنّه لم يعد يجد الرّاحة في المدن الكبيرة الخانقة. تجربة السّجن جعلت صدره يضيق، وفؤاده يتكدّر في الفضاءات المغلقة والمكتظّة. استمرّ يبحث عن ضالّته، حتّى قاده المسير إلى تلك التلّة.

وقّع العرض، وسرحت نظراته نحو الأفق. قريبًا تكون تلك الأرض له، وسيكون بوسعه إرسال بصره نحو البعيد، فلا يحدّه عمران ولا يردّه جدار. تلك هي الحرّيّة!

وصل سويسرا منذ أسبوعين. كانت وجهة مثالية على الورق. واحدة ضمن عدد محدود من «الملاذات الضريبيّة» في قلب أوروبا. لم يكن يحتاج تهريب ثروة أو تبييض أموال، ولم يكن يفرّ من سطوة الجباية.. لكنّه يقدّر مدى تكتّم البنوك السّويسريّة وحمياتها لمعطيات عملائها الشّخصيّة.

طلب موعدًا مع مدير فرع البنك الفيدرالي السّويسريّ في أحد أحياء

«لوزان»، فتلقى إجابة بالقبول خلال أسبوع واحد. استقبله الرّجل بحفاوة وهو يقول مصافحًا:

- أعرف من تكون.. أنت مشهور هنا!

رفع عمر حاجبيه في دهشة، ثمّ سأل متهكّما:

- هل هي شهرة إيجابيّة أم سلبيّة؟

مطّ الرّجل شفتيه ثمّ قال ضاحكا:

- ما دامت لديك أموال للاستثمار، فهي إيجابيّة!

شاركه عمر الضّحك، ثمّ جلسا متقابلين. أنشأ عمر يقول بلهجة جادّة:

- لقد تركت فرنسا، خوفًا على حياتي.. وبحثًا عن ملجأ آمن، لتطوير مشاريع علميّة وبحثيّة.. دون مضايقات أو أعطال متعمّدة.

- أنت في المكان المناسب يا سيّدي. نحن نحترم مشروعك الخاصّ، ويسعدنا أن نكون طرفًا في تيسير عملك. اطمئنّ، سويسرا لا تنتمي إلى الاتّحاد الأوروبيّ.. والقرارات السياسيّة النّابعة عنه غير ملزمة لها.. وليس هناك ما نبغضه أكثر من الاعتداء على الحريّات الشخصيّة، والمساس بالسّيادة الوطنيّة على أرضنا! ما حصل في فرنسا، من المستحيل أن يتكرّر هنا!

كان الرّجل مطّلعًا على حيثيّات قضيّته بشكل وافر. أخذ البنك الوقت الكافي للتقصّي والتحرّي قبل أن يرسل إليه بالموافقة على الموعد. زفر عمر في ارتياح، ثمّ أضاف:

- ليس هذا كلّ شيء.. لا أريد أن يرد اسمي مطلقًا على لائحة عملائكم.

- اطمئنّ يا سيّدي.. هويّات عملائنا أصحاب الحسابات «المرقّمة» لا تكشف لأيّ كان. هذا مبدأنا قبل كلّ شيء. علاقة البنك السّويسري بالعميل، لا تختلف عن السرّ المهنيّ بين المريض والطّبيب، أو بين

المـوكّل والمحامـي. لا شيء يغـادر هـذه الجـدران.. وحـتّى وجـود الحسـاب مـن الأسـاس، لـن يعلـم بـه أحـد.. باسـتثنائي أنـا شـخصيّا، والموظّـف المتـصرّف في الحسـاب.. كـن مطمئنّـا.

***

تحرّكـت الفتيـات الأربـع خلـف الوكيـل العقـاريّ، يتفرّجـن عـلى أرجـاء الشّـقّة، بينمـا جلـس الطفـلان بهـدوء عـلى الأريكـة كمـا أمـرت والدتهمـا.

كانـت غرفـة المعيشـة مميّزة، بشرفتهـا ذات الإطلالـة المباشرة عـلى سـاحة المبـنى الدّاخليّـة المشـجّرة، ومطبخهـا العـصريّ والمجهّـز. أمّـا الغـرف، فكلّهـا ذات مسـاحات مناسـبة، مـزوّدة بالتّدفئـة الفرديّـة ونوافذهـا واسـعة توفّـر إنـارة نهاريّـة طبيعيّـة. قـال الوكيـل العقـاريّ منهيًـا الجولـة:

- الشـقّة مطلوبـة جـدًّا.. لـديّ أربـع زيـارات مجدولـة صبـاح الغـد، بالإضافـة إلى زيارتـين هـذا المسـاء. إن كنـتنّ تردنهـا، فعليكـنّ بالعجلـة!

سألت رنيم رفيقاتها في اهتمام:

- ها.. ما رأيكن؟

تدخلت رانيا في حرج:

- قبل أن نناقش بشأن الشقة، هناك ما عليّ إخباركنّ به.

قالت سكينة على الفور:

- وأنا أيضا!

حدجتهما رنيم في استغراب:

- مـا خطبكمـا؟ نحـن نحـاول معاينـة الشّـقة الآن. ألا يمكـن التأجيـل حـتى نرجـع إلى البيـت؟

قالت رانيا بتردّد:

- أفضّل إخباركن الآن. حتى تكنّ على بيّنة.

- ما الأمر؟ قولي!

- لقد وجدت فرصة عمل.

- هذا رائع! تهانينا! أين؟

- مؤسسة ترجمة.. في الإسكندرية.

- آه!

- سأبدأ العمل خلال شهرين. لذلك لا حاجة لاعتباري بخصوص الشقة الجديدة.

حاولت رنيم تخفيف وطأة الخيبة وهي تقول بابتسامة مخاطبة ميار:

- هنيئًا لك يا حلوة.. أصبحت لديك غرفة خاصة!

تنحنحت سكينة وهي تقول:

- يجب أن أفضي لك بشيء بدوري.

التفتت إلى ابنتها وقالت:

- ميار هلا أخذت مقاييس الغرف رجاء؟

تناولت الفتاة المتر المعدنيّ وانصرفت إلى مهمّتها دون نقاش، فتابعت سكينة بصوت خافت:

- لا أريد لها أن تسمع هذا.. لكنّني أعلم أن أيامي قد باتت معدودة.

قاطعتها رانيا في ضيق:

- لا تقولي هذا!

أشارت سكينة بكفها تستوقفها:

- دعيني أواصل حتى النهاية. لقد أردت أن آخذها إلى سوريا لتلتقي عائلتها.. لكنّنا فقدنا كل شيء هناك. شقيقي ووالدتي استقرّا منذ بضعة أشهر في اسطنبول.. سأنتظر انتهاء العلاج، حتى تكون حالتي الصّحية

أفضل قليلا، ثم آخذها لننضم إليهما. إذا حصل لي أيّ شيء، لا أريد أن تبقى ميار وحيدة.. لذلك يجب أن تلتقي بأهلها.

سكتت الأختان، وكأنّ على رأسيهما الطير. لقد أحبّت كل منهن تلك العائلة الجديدة المختلفة، مثل لوحة فسيفساء. لكن تلك سنّة الحياة. شريكات السّكن لا يدمن إلى الأبد. إن كانت العائلات الحقيقية تتفرّق سبلها وينفرط عقد أفرادها للدّراسة والعمل والزواج، فما بالك بالعائلات المركّبة التي تجمعها ظروف الغربة؟

همست رانيا إلى شقيقتها بابتسامة متعاطفة:

- أظن أن عليك الاحتفاظ بالشقة (٤٠٤).. إنها كافية لك وللطفلين. لعلّ المالك يفكر في البيع؟

حين خلت رنيم بنفسها، بعد أن خلد الولدان إلى النّوم إلى جوارها على السّرير المزدوج العريض، تنهّدت في حسرة. لقد حسبت أنّ الحفاظ على الوضع الرّاهن ممكن. ومشروع الشّراء العقاريّ المشترك ذاك كان في نظرها تتويجًا لمسيرة سنوات من الصّعاب التي اجتزنها معًا وتمجيدًا لعلاقة شريكات سكن استثنائيّات.

تدحرجت العبرات على وجنتيها في صمت. لقد كان الحلم في مخيّلتها وحدها. لقد غفلت عن رغباتهنّ ومشاريعهنّ الشخصيّة. والآن تكتشف أنّها كانت واهمة، واهمة جدّا.

ارتفع رنين هاتفها فجأة. السّاعة تشير إلى الثامنة والثلث مساءً. طالعت الشّاشة ثمّ ردّت بسرعة، حتّى لا يزعج الصّوت نوم الطّفلين.

- شهاب، كيف حالك؟

كانا من ذاك النّوع من الأزواج المنفصلين. ظلّت علاقتهما وديّة وناضجة، رغم الخلافات التي فرّقت بينهما. كان بوسعهما الحديث بشكل مسترخ الآن، مثل صديقين قديمين. لقد احتاجا وقتا طويلا، لتسوية حساباتهما،

ووضع أساسات تلك العلاقة العصريّة والمنفتحة. لكنّهما بخير الآن. ما بينهما لم يكن من الممكن مسحه أو تجاهله.. بينهما طفلان رائعان ومذهلان، يمثّلان أجمل شيء في الزّواج. لا تخلّد علاقة إلّا حين يكون هناك أطفال في الوسط.

- هل تبكين؟

- لا.. لا، إنّه.. البصل!

ضحك شهاب وقال بلهجة غير مصدّقة:

- بصل؟ في هذا الوقت؟ رنيم شاكر.. متى كانت آخر زيارة لك إلى المطبخ؟

تنحنحت وهي تطرد العبرات وقالت:

- ربّما.. ذرّات الغبار.

- أين أنت؟

- في غرفتي...

- ذرّات غبار إذن؟ رنيم.. أنت تبكين. ما الأمر؟ مشكلة في العمل؟

ابتسمت، تعلم أنّه لن يمانع الإصغاء إلى شكواها إن هي استرسلت في الحديث، لكنّها لم تعد تريد استغلال طيبته أكثر. قالت مغيّرة الموضوع:

- أنت في باريس؟

- نعم.. وصلت منذ ساعة واحدة.

- آه، تريد رؤية الطّفلين؟

- سيكون ذلك رائعًا.. اشتقت إليهما أكثر من أيّ شيء في العالم! أنا متفرّغ السّبت والأحد، ثمّ سأنشغل في بداية الأسبوع في المؤتمر العلميّ.

- يمكنك اصطحابهما للنّزهة بعد المدرسة أيضا.

- سيكون ذلك مناسبًا جدّا.. شكرا لك.

- على الرّحب.

استمرّ الصّمت لبرهة. فكّرت لوهلة أن تستفسر عن الشّائعات التي نقلتها إليها ناريمان بلهجة شماتة لم تخف عليها. «شهاب سيتزوّج! ابقي أنت وحيدة كالبومة!»

لقد تركت شهاب. كانت هي البادئة، والآن لا يمكنها أن تلومه أو تُسائله إذا ما أبدى اهتمامًا بامرأة أخرى. لكنّ الفضول يقتلها. من هي؟ كيف شكلها؟ ما هي مميّزاتها؟

كان هو من قطع الصّمت أخيرًا:

- أين وصلت في مشروع العقار الباريسيّ؟

قالت بنبرة تهكّم:

- ألم تنقل إليك رانيا المستجدّات؟ لقد صرفت النّظر عن الخطّة كلّها.

- لا شيء ينال رضاك؟

- بل لم يعد هناك شركاء محتملون.. الجميع يفكّر في بدء مرحلة جديدة، بعيدًا عن هنا.

- لعلّها الخطوة المناسبة.. لك أيضا.

- تقصد أن أترك باريس؟

- أعني الاستقلال عن شريكات السّكن، والاستقرار في مسكن عائليّ منفصل.

تنهّدت. تجد صعوبة في تقبّل الوحدة التي عليها مواجهتها قريبًا. صوت في داخلها يصرخ: أحتاجك إلى جواري.. لكنّ إرادتها تخرسه وتبقيه ساكنًا في الأعماق. يمكنها تدبّر أمرها بمفردها. لقد فعلت في السّابق، وستفعل في المستقبل.

- بعد غدٍ.. العاشرة صباحًا؟

- نعم. سيكونان جاهزين.

أغلقت الخطّ، ثمّ انهارت على وسادتها، تنشج بصوت متقطّع. تبكي فشلها على الأطلال المهجورة لعلاقة كانت تمتلك كلّ مقوّمات النّجاح، والفراغ الهائل الذي يلتهم جوفها. لقد ضيّعت شهاب بعنادها، ولا شيء ممّا أحرزته في غيابه يخفّف عنها عبء تلك الخسارة.

نزلت ريم إلى الطّابق الأرضيّ للبناية، وقادت الطّفلين أمامها باتّجاه بهو الاستقبال. لمح+ت شهاب يقف في انتظارهم في الخارج. فتحت الباب وأرسلت الولدين. قالت وهي تلوّح لهما من بعيد:

- استمتعا!

راقبته وهو يساعدهما على الرّكوب في المقاعد الخلفيّة للسيّارة المستأجرة، يربط أحزمتهما، ثمّ يعود إليها. نظرت إليه في حرج. لم يلتقيا وجهًا لوجه منذ سنتين ربّما. كان ذلك بعد شجار عنيف فجّرا خلاله كلّ الألغام المتبقيّة على أرض معركتهما، ونفّس كلاهما عن غضبه بالقدر الكافي. ثمّ هدأت الأجواء بينهما ومالت إلى المسالمة.

كان يبدو مختلفًا اليوم. ربّما تلك الشّعيرات البيضاء التي أخذت تزحف على فوديه، لم يسبق لها ملاحظتها. وتلك النّظارات الشّمسيّة، إنّها علامة تجاريّة جديدة، وشكلها البيضاويّ الذي يتّسع نحو الأعلى يناسب ملامحه ويزيده وسامة. بادرها فجأة:

- هل تودّين المجيء؟

ارتبكت. لم يجمعهما فضاء واحد، منذ الطّلاق الرّسميّ. كانا قادرين على تسوية خلافاتهما عن بعد، وتنسيق أوقات العناية بالطّفلين على الهاتف. مكالمات قصيرة، عمليّة وهادئة. لم يلتقيا، حتّى خلال زياراتها لمصر في الإجازات الصّيفيّة. كانا يتعاملان بوسائط. رانيا أو والدتها ناريمان، توصل التّوأمين إلى بيته، أو تستقبله حين يأتي لتوصيلهما. لكنّ الدّعوة كانت مغرية. قالت في تردّد:

- أنت واثق؟

- بالتّأكيد.. إن لم تكن لديك أشغال.

نظـرت إلى بنطالهـا البيـتيّ الأسـود وبلوزتهـا الواسـعة، ثـمّ قالـت بلهجـة معتـذرة:

- خمس دقائق.. حتّى أغيّر ثيابي!

عـادت بعـد عـشر دقائـق. ارتـدت فسـتانا طويـلا بطبقـات مـن الشـيفون وسترة مـن الجينـز، وانتعلـت حـذاءً رياضيّا. وقفـت دقيقتـين تختـار أقراطهـا، ثـمّ انتقـت قطعتـين على شـكل قطـرة مـاء لامعـة، تتـدلّى منهـا خيـوط رقيقـة مثـل شـلال ذهـبيّ ناعـم. رفعـت شـعرها، وتركـت خصلاتهـا المتموّجـة تنهمـر بشـكل جـذّاب. لقـد أسرعـت، بقـدر طاقتهـا. لكـنّ كلّ أنـثى تحتـاج وقتًـا لتكتمـل أركان جمالهـا. هرولـت في الممـرّ، وهـي تتخيّـل ملامحـه المنزعجـة لتأخيرهـا. لكنّـه فاجأهـا بابتسـامة صافيـة، كادت تنـسى تأثيرهـا عليهـا.

جلسـت إلى جـواره، ثـمّ اسـتدارت تتفقّـد الطفلـين، وهـي تغالـب إحساسًـا آسرًا بالإثـارة. كانـت تلـك المـرّة الأولى الـتي يجتمعـون فيهـا كـ«عائلـة». في العـادة، هنـاك «وقـت مامـا» و«وقـت بابـا». مامـا وبابـا لا يلتقيـان في جملـة واحـدة، فمـا بالـك في سـيّارة واحـدة!

توقّـف شـهاب عنـد رصيـف السّـين، حيـث تنطلـق الرّحـلات البحريّـة. غـاب لدقائـق قليلـة، ثـمّ عـاد بالتّذاكـر. هتفـت رنيـم في جـذل، مـا إن وطئـت قدماهـا سـطح السّـفينة:

- المطعم العائم!

اسـتقرّ أربعتهـم عـلى المائـدة المخصّصـة لهـم في الفضـاء المكشـوف. كان النّسـيم منعشًـا والسّـماء شـديدة الزّرقـة فوقهـم ، وأشـعّة الشّـمس تدفئهـم بسـخاء. عنـد السّـاعة الحاديـة عـشرة، أبحـرت السّـفينة، مـن أجـل الغـداء المبكّـر.

كان شـهاب يجلـس قبالتهـا، إلى جـواره سـمر، بينمـا كان عمـر الصّغـير

يشـغل المقعـد المجـاور لهـا. تنـاولا الغـداء دون أن يتبـادلا حديثًـا كثـيرًا، فقـد شـغل الطّفـلان اهتمامهمـا.. يجرّبـان أنـواع الطّعـام الغريبـة ثـمّ يلفظانهـا، يتقاذفـان قطـع البطاطـس أو يتشـاجران مـن أجـل حبّـات الفراولة، ثـمّ يبـكي أحدهمـا أو كلاهمـا. كان غـداءً صاخبًـا ومليئًـا بالشّـغب، لكنّهمـا ضحـكا كثـيرًا.

بعـد سـاعة ونصـف، كانـت السّـفينة ترسـو في الميـناء. غادرتهـا العائلـة، ثـمّ انطلقـت السـيّارة في اتّجـاه آخـر. توقّفـت بعـد نصـف سـاعة، عنـد حدائـق «فرسـاي» الخلّابـة. اسـتقبلتهم النّافـورات المائيّـة العملاقـة، والمتاهـات المشـجّرة، والممـرّات الواسـعة المفروشـة حـصى ومسـاحات العشـب الشّاسـعة. خـلال دقائـق، كان التّوأمـان قـد انطلقـا يروضـان الحرّيـة.

جلسـت ريـم عـلى مقعـد خشـبيّ، ترقـب لهوهمـا، فيمـا غـاب شـهاب فجـأة، ليعـود وبـين كفّيـه كوبـا عصـير. شـكرته بابتسـامة، فاتّخـذ مجلسـا إلى جوارهـا. قـال دون أن ينظـر إليهـا:

- ما هي أخبار عمر الرشيدي؟

فاجأهـا سـؤاله الغريـب. لقـد تجنّبـا خـوض الحديـث في تلـك القضيّـة بشـكل كامـل، كلّ هـذا الوقـت. لكنّـه لـم يغفـر لهـا أن أطلقـت اسـم عمـر عـلى طفلهمـا. لقـد كان غائبًـا، ولـم يعلـم بولادتهـا إلّا بعـد أسـبوع. حـتّى إن لـم يتمكّـن مـن تغيـير الاسـم في وثائـق الهويّـة الرّسـميّة، فقـد رفضـه بشـكل قاطـع. أسـماه «إيـاد». كانـا سـمر وإيـاد بالنّسـبة إليـه.

حافظت على ثباتها وهي تقول:

- لقد غادر السجن.

- آه!

- ثمّ غادر البلاد.

- إلى أين؟

هزّت كتفيها وهي تقول:

- لا أدري!

ثـمّ عـادت إلى ارتشـاف عصيرهـا بهـدوء ظاهـريّ، وباطنهـا يغـلي قلقًـا وشـكًا. لـم يكـن بوسـعها تخمـين مـا يـدور بخلـده في تلـك اللحظـة.

- وكيف حال ماتيلد؟

قالت في ضيق:

- بغيضة.. كعادتها!

- ألا تفكّريـن في تـرك البرنامـج؟ لقـد مضـت سـبع سـنوات! حسـبتها حماسـة مؤقتـة.. لكنّـك استمررت أكـثر مما توقّعـت.

تنهدت وسرحت نظرتها إلى البعيد، حيث يلهو الولدان على العشب.

- لقـد فكـرت بالتّوقـف.. كثـيرًا. في كلّ مـرّة اضطـررت فيهـا إلى تغطيـة قصّـة سـخيفة، أو حُـشرت فيهـا في الزّاويـة، كي أدلي بتصريحـات تناقـض مبـادئي! لكنّـي كنـت أفكّـر بـكلّ العائـلات الـتي سـاعدها البرنامـج، وكلّ الحقائـق الـتي كشـفناها للـرّأي العـام.. فترجـح كفّـة الاسـتمرار. لقـد تمنيّـت في وقـت مـا أن أمسـك بزمـام الإنتـاج.. أن أفـرض وجهـة نظـر مختلفـة، وأضـع لمسـة خاصّـة.. لكـنّ الظـروف حالـت دون ذلـك!

- تقصدين الحمل والولادة؟

- تعرف أنّي أقصد ذلك!

تبادلا ابتسامة متواطئة، ثمّ أضافت رنيم:

- أفكّر حقًا في طيّ الصّفحة. أعتقد أنّ مرحلة جديدة تنتظرني.

- ما الذي تصبو إليه رنيم شاكر الآن؟

- مواصلة الدّراسة!

- حقًا؟

- لطالما رغبت في التّدريس الجامعيّ.

- الدّكتوراه إذن؟

- أفكّر في ترك البرنامج عند نهاية الموسم.. والتّسجيل في الجامعة العام المقبل.

هزّ رأسه مؤيّدًا وقال:

- يبدو ذلك جيّدا. رنيم شاكر، أتمنّى لك التّوفيق في مرحلتك الجديدة!

اتّسعت ابتسامتها. كانت راضية، عن حديثهما الجميل الهادئ، وعن قراراتها النّاضجة المرنّة، وعن المشهد العائليّ الدّافئ. لكنّها كانت تنتظر أكثر من تلك النّزهة. فجأة تعالت جوقة موسيقيّة قرب النّافورة المركزيّة. وقف شهاب وأشار إليها أن تتبعه:

- سيبدأ العرض!

أخذا الطّفلين وحثّا الخطى إلى موقع عرض النّافورة الموسيقيّة. وقفا بين الجمهور الكثيف، يرقبان قاذفات الماء ترتفع وتنزل تباعًا في نسق مدروس، متوافق والعزف المبثوث عبر مكبّرات الصّوت. كان الولدان يتابعان بشغف مرفق بتصفيق ووثبات مرحة، في حين قال شهاب وعيناه ترقبان حركات الرّقصة المائيّة:

- والدتي تبحث لي عن عروس منذ فترة.. ولم أكن لأتّخذ هذه الخطوة قبل أن أحادثك في الأمر...

انقطع تنفّسها فجأة، كأنّ طعنة سدّدت إلى صدرها. هل يستشيرها بشأن زواجه؟ هل اختار أكثر أوقات النّزهة رومانسيّة كي يفسد يومها؟ همهمت في تشوّش:

- طبعا.. هذا أمر يخصّك وحدك.

- أردت أن تعلمي أنّ هذا لن يؤثّر على اهتمامي بالتّوأمين.

- أعرف أنّك لن تقصّر.

ابتلعت غصّتها وركّزت عينيها على النّافورة. لم تنظر إليه بعد ذلك أبدًا. سارت باتّجاه السيّارة فور انتهاء العرض، في صمت مطبق. كان الولدان متعبين، فغفيا ما إن تحرّكت السيّارة. وساد السّكون طيلة رحلة الإياب بينها وبين شهاب.

حين وصلت إلى مبنى سكناها، حملت عمر بين ذراعيها، ثمّ تبعها شهاب وهو يحمل سمر. لم يقل شيئًا. ترك البنت بين ذراعي رانيا، ثمّ حيّاهما في اقتضاب وانصرف.

دخلت الغرفة، واستلقت إلى جوار الطّفلين النّائمين. كان الألم يعتصر صدرها. لم تعن له تلك النّزهة العائليّة شيئًا، بينما كانت الفراشات ترفرف داخلها طيلة اليوم! لم تشعر قطّ بالنّبذ والخذلان والهوان، كما تفعل الآن. هل كان عليه أن يفتح باب الأمنيات أمامها، يغريها بالولوج، ثمّ يصدّها؟

انهمرت عبراتها في سخاء على الوسادة.

***

جلست رانيا وميار متقابلتين إلى مائدة المقهى. طلبتا كوبي عصير ليمون، وأخذتا ترتشفان في صمت. كانت عينا ميار معلّقتين بالمدخل، ترقّب ظهور كزافيي بين لحظة وأخرى، بينما انكبّت رانيا على هاتفها، تعبث في مواقع التّواصل الاجتماعيّ على غير هدى.

- لقد وصل!

هتفت ميار في جذل، فوقفت رانيا على الفور وقالت بلهجة جادّة:

- سأعود خلال ساعة.. اتّفقنا؟

- ساعة ونصف؟ أرجوك!

زفـرت في استسـلام، ثـمّ اتّجهـت إلى المخـرج. التقـت بكزافـي الـذي كان يعـبر البوّابـة الزّجاجيّـة في الوقـت ذاتـه. ألقـى بلهجـة سـاخرة:

- هل رأيت شبحًا؟

هـزّت كتفيهـا في تجاهـل وسـارت مبتعـدة. لكنّـه سـارع يمسـك ذراعهـا يسـتوقفها. حرّرتهـا بحركـة حـادّة وحدجتـه باسـتياء.

- ماذا تريد؟

- لماذا تتصرّفين كالأطفال؟

- ولماذا لا تتصرّف كرجل؟

احتقنت ملامحه وتطاير الشّرر من نظراته.

- إيّاك، أن تكرّري هذه الكلمة!

- اذهب.. شقيقتك في انتظارك.

حانـت منـه التفاتـة ليلمـح ميـار تلـوّح لـه بحمـاس. زفـر في ضيـق، ثـمّ سـار إلى الدّاخـل للقياهـا.

ابتعـدت رانيـا عـن المقهـى بخطـوات واسـعة. تسـكّعت في الجـوار، تتأمّـل واجهـات المحـلّات، تتوقّـف لتعايـن حقيبـة يـد أو تجـرّب قطعـة ثيـاب، ثـمّ تسـتأنف هيمانهـا الحـرّ. كانـت تشـعر بالانزعـاج. لكنّهـا لا تسـتطيع البـوح لأحـد.

لقـد كانـت تفعـل ذلـك مـن أجـل سـكينة. طيلـة الوقـت. لـم تهتـم بـه بشـكل شـخصيّ، فهـو لا يناسـبها مـن كل النواحـي. إنـه «فرنسـي جـدّا» في شـكله وسـلوكه وعاداتـه.

لكنّه لا يتركها وشأنها.

يسـتمرّ يرسـل إليهـا تلـك الدّعابـات الجريئـة عـلى هاتفهـا. يعاملهـا أحيانـا كصديقـة مقرّبـة، يفـضي إليهـا بهمومـه، يشـاركها مشـاريعه المسـتقبلية،

ويطلب مشورتها. لكنّ ما يثير غيظها هو الغموض الذي يتلبّس علاقتهما. كلّ تصرّفاته تحتسب على سبيل التلميح. لم يطلب ودّها بشكل مباشر، حتى تمتلك ترف الاختيار.. القبول أو الرفض!

ينتابها إحساس بغيض بأنه يبقيها معلقة، لشيء في نفسه. لو أنها تصدّه، سيتّهمها بثقتها المبالغة في نفسها وتأويلها المغلوط لتصرّفاته. ولو أنها تتقرّب إليه، فستجده يهينها ويسخر من عاطفتها. لذلك وجدت الحلّ الأمثل في التجاهل. إنها راحلة خلال شهرين على أي حال.

ارتفع رنين هاتفها فجأة. لم تكن قد مضت سوى نصف ساعة على تركها ميار برفقته. جاءها صوت الطفلة العابسة وهي تقول:

- هل يمكنك المجيء الآن؟ كزافيي على موعد هامّ.

تعجلت في العودة إلى المقهى. ما إن أشرفت على الواجهة، حتّى لمحت ميار تجلس بمفردها، وقد علت ملامحها علامات الحزن.

- ماذا حصل؟

- لا أدري.. لقد وقف فجأة وقال أنّ عليه الرّحيل!

- هل أغضبته؟

- بالتّأكيد لا.. كنّا نتحدّث عنك، ثمّ تذكّر موعده فجأة.

تسارعت نبضات رانيا في ذعر. همهمت في استغراب:

- تتحدّثان عنّي؟

- أخبرته أنّك ترحلين قريبًا إلى مصر.

- آه.

كانتا قد اقتربتا من المبنى السّكنيّ، حين وردت رسالة نصيّة على هاتفها. «هل يمكننا أن نتحدّث؟».. المرسل: كزافيي.

- اصعدي أنت.. سألحق بك.

اطمأنّت إلى ولوج ميار إلى المصعد، ثمّ عادت أدراجها إلى المقهى. كان يقف في الخارج، مستندًا إلى الجدار مثل شابّ متسكّع. قالت في ضيق:

- لقد كسرت خاطر البنت. كانت تنتظر الموعد منذ أسبوعين!

قال في لهجة جادّة لم تتعوّدها منه:

- هل نحن صديقان؟

- أنت شقيق ميار، وابن سكينة.. وهما صديقتاي!

- لم تكوني لتخبريني برحيلك، صحيح؟

هزّت كتفيها متظاهرة باللامبالاة وقالت:

- حين يحين الوقت، كنت ستعرف بشكل أو بآخر.

- لكنّ الأمر ليس مهمًّا في نظرك؟

زفرت في ملل، ثمّ قالت:

- هل تعرف ما هي مشكلتك؟ أنت غير قادر على اتّخاذ قرار واحد بمفردك! كزافيي، لقد كبرنا.. أنا كبرت على كلّ حال، أنا في الخامسة والعشرين.. في هذه السنّ، يتحمّل المرء المسؤوليّة، يجد عملًا، يتزوّج أيضا، ينجب أطفالًا.. وأنت غير قادر بعد على تحديد ما تريده بالضبط!

قال في صدمة:

- ستتزوّجين؟

ضحكت رغمًا عنها، ثمّ قالت:

- أنت ميؤوس منك! عليّ الذّهاب...

خلّفته وراءها وسارت على الرّصيف، فتبعها بخطواته الواسعة. قال فجأة:

- ما رأيك لو نبدأ صفحة جديدة؟ أريد أن نكون صديقين...

حدجته بنظرة شاملة، ثمّ قالت بلهجة ساخرة:

- جاسر السّوريّ قد تكون له فرصة.. لكن كزافي الفرنسيّ، لن ينفع!

- ماذا تقصدين؟

قالت في تصميم:

- ما فهمته. إن أردت أن ترى ميار بعد الآن، فستكون سكينة برفقتها. ولتعلم أنّهما سترحلان أيضا.. خلال أشهر.

- إلى أين؟

- تركيا! العالم يتحرّك يا صديق، وأنت ساكن مكانك.. عليك أن تجاري الحركيّة من حولك، وإلّا خلفك الآخرون وحيدًا!

ثمّ لوّحت بكفّها وهي تبتعد دون أن تلتفت.

إنّها تعرف ما تريده الآن. ولن تقدّم تنازلات أبدًا.

***

لم تخرج للقائه في الغد. رافقت رانيا الطّفلين إلى مدخل البناية. وكذلك فعلت في اليومين التّاليين، حين جاء لاصطحابهما بعد المدرسة. كانت سمر تثرثر في المساء: بابا قال، بابا فعل. لكنّ رنيم لم تكن تتجاوب مع حكاياتها.

سألتها سكينة في قلق:

- تبدين شاحبة.. هل هي مشكلات في العمل؟

كانت ساهمة طوال النّهار، تركيزها مشتّت وذهنها غائب. لم تدع قطّ حياتها الشخصيّة تؤثّر في نشاطها المهنيّ. لكنّها على شفير الانهيار. معنويّاتها في هبوط مستمرّ. قبل أن تنطق، ارتفع رنين هاتفها. تطلّعت إلى الشّاشة، ثمّ اعتذرت لتدلف إلى غرفتها. ردّت بصوت مبحوح:

- أهلا شهاب.

قال دون مقدّمات:

- أنا أمام المبنى.. هل يمكنك النّزول؟

ارتدت معطفا طويلا فوق ثيابها، وغادرت الشقة دون تفكير. لمحت خياله يروح ويجيء في توتّر على الرّصيف. اقتربت لتهتف في قلق:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

حدّق في عينيها في حزم ثمّ قال:

- رنيم.. هل يمكن أن نعقد اتّفاقًا، ونكون أكثر نضجًا هذه المرّة؟

هتفت في استياء:

- هل توهم نفسك الآن بأنّني من خرق اتّفاقنا الأوّل؟

- لم يكن اتّفاقًا معقولًا، حتّى نتمكّن من احترامه، يجب مراعاة الواقعيّة ابتداءً.

شبكت ذراعيها أمام صدرها وقالت في لهجة دفاعيّة:

- أنت تحاول وضع اللّوم عليّ، في حين أنّك من قبل الشّروط، ثمّ تراجع!

- حسنًا.. هلّا تركنا هذا الخلاف العقيم وراء ظهورنا؟ لنضع أسسًا جديدة.. من أجل الطّفلين.

لم تكن تستوعب طبيعة طلبه. قالت وقد استبدّ بها الذّعر فجأة:

- لا تريد أن يستمرّا في زيارتك في الإجازات المدرسيّة فقط؟ إنّهما دون سنّ الرّشد، لا يمكنك طلب الحضانة الكاملة الآن!

أشار إليها بكفّه أن تهدأ، ثمّ قال بتأنّ:

- ما أريده هو.. أن نهب أنفسنا فرصة جديدة.. كعائلة.

تسمّرت مكانها غير مصدّقة. كان يطالعها في اهتمام، مترقّبا ردّة فعلها. لكنّ الصّمت الذّاهل كان ردّها الوحيد، فتابع يشرح:

- لقد رأيت البهجة في عينيك، نهار السّبت، حين كنّا معًا.. وقد أحيت تلك السويعات الرّائقة مشاعر في داخلي.. حسبتها ماتت. ولقد لحظت كيف غادرت البسمة شفتيك حين أعلنت مشروع زواجي. لقد تيقّنت في تلك اللّحظة أنّ كلّ شيء لم ينته.. وأنّه من الجنون أن نكابر دون مراعاة وجود طفلين بيننا. ألا توافقينني؟

كان أمامها خياران: أن تلتزم العناد الذي هو طبعها، أو تستسلم لنداء قلبها. لكنّها بدل ذلك، انهارت باكية. قالت بين دموعها:

- وكيف سنفعل؟

- نفكّر في حلّ.. قلت أنّك ستتركين البرنامج؟

- نعم.. لكن ماذا عن رسالة الدكتوراه؟

- ألا يمكنك العمل عليها عن بعد؟ وتزورين باريس مرّة كلّ شهر؟

قالت في تذمّر:

- أنت لا تبحث عن حلّ.. بل تطلب منّي التّنازل!

قال في انزعاج:

- أنت تعلمين.. لو كانت لديّ خيارات، لما تردّدت. كلّ ما أريده هو أن نجتمع تحت سقف واحد.. مثل أيّ عائلة طبيعيّة!

سكتت في امتعاض، ثمّ زفرت. لقد منحت نفسها أربع سنوات مستقطعة، افتقدت خلالها اهتمامه وشغفه ومرحه مرّات، وتمنّت حياة أكثر استقرارًا وهدوءًا لطفليها مرّات أخرى. لقد كرهت إحساسها بالخيبة، بعد صفعة يوم السّبت. ولا يمكنها أن تولّي اقتراحه ظهرها ببساطة، دون أن تتجرّع كؤوس النّدم بعد ذلك. قالت أخيرًا:

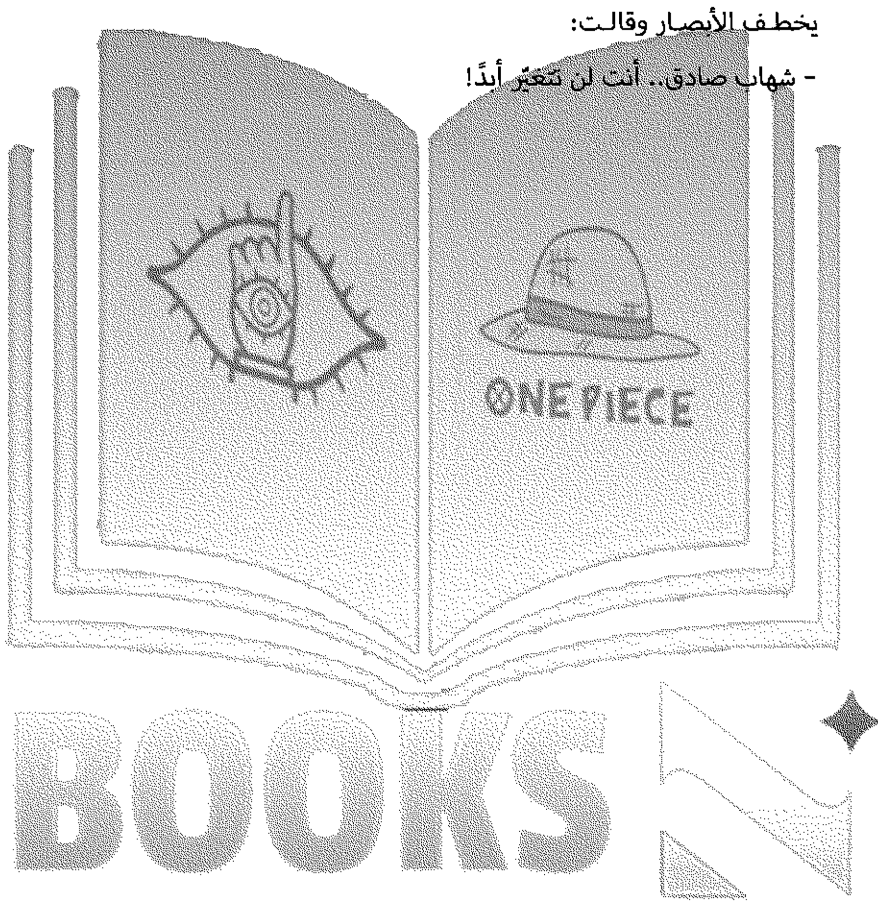
- دعني أفكّر...

أخرج علبة مخمليّة حمراء من جيب سترته وقال باسمًا:

- هل تساعدك هذه على التّفكير؟

حدّقت فيه ذاهلة، ثمّ انفجرت ضاحكة. تأمّلت الخاتم الماسيّ الذي يخطف الأبصار وقالت:

- شهاب صادق.. أنت لن تتغيّر أبدًا!



فتحت ياسمين جهازها، ولبثت تحدّق في الشّاشة، حتّى أضاءت باتّصال مرئيّ وارد. ظهرت أوّلا صورة رنيم من القاهرة، ثمّ شطرت الشّاشة نصفين، لتنظمّ إليها صورة رانيا من الاسكندريّة. وأخيرًا انشقّ عنها قسم ثالث حوى صورة سكينة وميار معًا من اسطنبول. هتفن بصوت واحد:

- مبارك!

فضحكت ياسمين في جذل:

- هل آخذكنّ في جولة حول المكتبة؟

وقفت وبين كفّيها هاتفها، وأخذت تتمشّى بين الغرف وتشرح لصديقاتها وظائف الفضاءات المختلفة. كانت المنشأة أكثر من مجرّد مكتبة. كانت قد اشترت البناء الواقع في طابقين. في الطّابق الأوّل، غرفة قراءة مفروشة بمقاعد وثيرة وإضاءة خافتة، لأجواء تركيز حميميّة وهادئة، وقاعة اجتماعات، بالإضافة إلى ورشة حرف يدويّة وقاعة عرض. أمّا الطّابق الأرضيّ، فيضمّ المكتبة الهائلة المكوّنة من أقسام عدّة: القرطاسيّة والأدوات المدرسيّة ثم الكتب العلميّة والأدبيّة المحليّة والعالميّة. قالت في حماس:

- سأشرع على الفور في التّواصل مع مدرسة القرية والقرى المجاورة.. سيكون من الرّائع ندوات ثقافيّة ونقاشات أدبيّة لطلبة الثانوية هنا!

شاركتهنّ أحلامها والفخر يشعّ من عينيها. أخيرًا أمكنها أن تُنشئ مشروعها الخاصّ والعزيز على قلبها. منذ حدّثتها رنيم عن حساب الادّخار الذي تركه هيثم وذهنها في غليان مستمرّ، تخطّط وتصمّم

وتتخيّل. الآن، أصبح الحلم حقيقة، ولم يكن هناك أغلى من شريكات الغرفة (٤٠٤) ليقاسمنها الفرح.

- كيف حال رسالة الدّكتوراه؟

تنهّدت رنيم، ثمّ قالت في وجوم غير متوقّع:

- سيكون عليّ السّفر إلى باريس يوم السّبت!

كان الإتيان على ذكر باريس دومًا مبعث سرور لديها، أمّا الآن وقد اجتمع شملها وشهاب والطّفلين في القاهرة، وتفرّقت شريكات السّكن، فقد خفت حماسها تجاهها. كانت قد اشترت الشّقّة، منذ ستّة أشهر، لتكون موطئ قدم لها في باريس، كلّما زارتها من أجل متابعة رسالتها مع المشرف.

لقد بات روتينها الحياتيّ مزدحمًا بالكثير، تتعاقب السّهرات المسهدة والأيّام المضنية بين مكتب المحاماة في القاهرة، وواجبات الأسرة ومسودّة الرّسالة. لكنّ الشهور الماضية اتّسمت بالهدوء. استقالت من مكتب المحاماة الباريسيّ على مضض، وتركت برنامج «الحقيقة الكاملة» غير آسفة.

غير أنّ السّفر الشّهري يظلّ مربكًا لنظام حياتها الجديد، برفقة شهاب والطّفلين. لم تكن قد عرفت معنى الحياة الأسريّة الطبيعيّة حتّى ذلك الحين. لكنّ الشّهور الأولى لاجتماعهم تحت سقف واحد في صائفة ٢٠١٥، كانت مثل حلم ساحر. كانت أروع من «أشهر العسل» السّابقة كلّها مجتمعة! وحين تعيّن عليها في مطلع السّنة الدّراسيّة أن تتركهم وتغادر بمفردها إلى باريس لأسبوع واحد، عانت من أعراض انسحاب «الدّفء العائليّ» بشدّة.

كانت تستيقظ كلّ يوم وفي عينيها نظرة رضا. لقد حازت الحياة المثاليّة التي أرادتها، ولم تكن لتستبدل بها أيّا من كنوز الدّنيا.

- ماذا ستفعل ميار بشأن الجامعة؟

سألت ياسمين، فأجابت سكينة في فخر:

- ستدخل كليّة الطبّ!

تعالت هتافات التّهنئة والفرح، ثمّ قالت رانيا بلهجة الأخت الكبرى:

- أخيراً، ستكون لدينا طبيبة في العائلة!

كان مفهوم «العائلة» مختلفًا عن المعتاد بالنّسبة إليهنّ، ومثيراً للدّهشة عند الغرباء. العائلة تتفرّق في أصقاع الأرض، لكنّ أفرادها يتشاركون الأفراح والأتراح، ولا يتخلّفون عن المناسبات العائليّة، حتّى لو كان الحضور افتراضيًا. بقي «ميثاقهنّ» الذي وقّعن عليه ذات أمسية صافية نصب عيونهنّ وملء قلوبهنّ، في اتّفاق صامت وضمنيّ.

قالت رنيم في تهكّم:

- شهاب طبيب.. هل نسيت؟

هزّت رانيا كتفيها وراوغت:

- قصدت الإناث.. ليست لدينا طبيبة أنثى!

قالت ميار فجأة بحماس لا يخفى:

- جاسر قادم لزيارتنا الأسبوع القادم!

لم يكن جاسر قد رضي نهائيًا بأمومة سكينة، لكنّه لم يعد يعارض وجودها في حياته. كانت والدة ميار وحاضنتها، وهو مضطرّ للتعامل معها. بعد رحيلهما إلى إسطنبول، زارهما خلال الإجازة الصيفيّة. وفي أوقات أخرى، تسافر ميار وحدها لإمضاء بعض الوقت برفقته. قالت رنيم وهي تلحظ تغيّر تعابير رانيا في حذر:

- مناسبة جيّدة للاحتفال. استمتعا!

ضحكن في مرح، ثمّ امتدّت الجلسة ساعة بعد، تشاركن فيها الأخبار

ومستجدّات الحياة الخاصّة بكلّ منهنّ، مثل أيّ جلسة اجتماعيّة سبق وظلّلتهنّ بظلّها، في الشقة الباريسيّة القديمة.

***

تأمّلت رانيا الرّسالة المغلقة الواردة إلى بريدها الإلكتروني دون أن تجرؤ على فتحها. مازال «بطل حرب النّجوم» يطاردها، مثل مراهق لم ينضج بعد. لم تعد تلك المحادثات الصبيانيّة تثير اهتمامها. تنهّدت وهي تقذف بها إلى سلّة المهمّلات بنقرة على جهازها. انتبهت إلى الاتّصال الوارد من رنيم. لقد كنّ يتحدّثن منذ حين في لقاء جماعيّ. أما زالت في جعبتها حكايات أخرى؟

- رانيا، هل يمكن أن نتحدّث بصراحة؟

توجّست رانيا من لهجتها الصّارمة، لكنّها قالت في انتباه:

- بالتّأكيد.

- هل هناك شيء بينك وبين كزافي؟

زفرت رانيا في امتعاض. لم تعرف أنّ الأمر مكشوف حتّى تلك اللّحظة. قالت في فتور:

- لا تشغلي بالك.. ليس هناك ما يستحقّ الاهتمام.

لكنّ رنيم ألحّت:

- أنت شقيقتي ومصلحتك تهمّني. أعرف مدى تعلّقك بسكينة وميار.. وربّما تكون علاقتك بكزافي جادّة...

قاطعتها رانيا بضحكة ساخرة:

- كزافي والجدّية.. في جملة واحدة؟ إنّه يفتقر إلى الوضوح والمباشرة.. وأنا فقدت الشّغف والثقة!

استمعت إليها رنيم في اهتمام ثمّ قالت:

- فهمت. أردت فقط أن تعرفي أنّني أدعمك مهما كان خيارك.

أصغت رانيا في سكون وألم. إنّها تعرف ما تعنيه رنيم. في ذلك الوقت، لم يدعمها أحد. لقد سحق والداها إرادتها وأمليا شروطهما. ذلك الإحساس القاسي بالوحدة والهوان، كانت رنيم تريد حمايتها منه. ابتسمت في امتنان وقالت:

- أعلم أنّك تفعلين.

***

دخلت مدبرة المنزل البرتغالية البدينة ذات السّنوات الخمسين ونيف غرفة المعيشة، ورفعت صوتها لتقول:

- سيدي، العشاء جاهز.. هل أضع المائدة الآن؟

رفع عمر رأسه عن كتابه وقال بابتسامة:

- شكرًا لك.. سأتصرّف بنفسي بعد حين.

تنهّدت بصوت عالٍ، ثمّ انبرت تمسح الغبار عن اللّوحات المعلّقة على الجدار الرّئيسيّ للغرفة خلفه. كان قد انسجم في القراءة من جديد، ونسي أمرها. إلّا أنّها انتشلته من استغراقه وهي تقول في فضول:

- هذا الولد.. إنّه لا يشبهك. من يكون؟

التفت عمر ليطالع صورة طفل صغير في الثالثة أو الرّابعة، يقف وحيدًا قرب شجرة معمّرة. ابتسم وهو يقول:

- إنّه ابن أخي.

أشارت إلى صورة أخرى، يعلوها شريط أسود، وقالت:

- أخوك الرّاحل؟ إنّه يشبهه فعلًا!

أومأ في صمت وعاد إلى كتابه. لكنّها بدت مصرّة على الثّرثرة:

- لماذا لا يأتي إلى زيارتك؟ لقد جاءت شقيقتك وأولادها الصّيف

الماضي...

كانت تشير إلى صورة ثالثة، تظهر عليها عائلة جميلة.. هو وعائشة وولداها. التقطها في حديقة المنزل، حين جاؤوا جميعًا لقضاء أسبوعين برفقته. كان يشعر بالأسى، لإفساده الرّحلة الباريسيّة التي انتظرها ثلاثتهم كثيرًا. لذلك أراد أن يعوّضهم. «لوزان» ليست باريس.. لكنّ المتعة كانت في الموعد. والطّعم الأوّل للمناخ الأوروبيّ يبقى ساحرًا، خاصّة على أبواب الرّيف السّويسريّ! انطلق أربعتهم في رحلة شملت المناطق الجبليّة الشماليّة ومقاطعة البحيرات الخلابة.

شرد في أفكاره ولم ينتبه إلى سؤالها المعلّق، فهزّت كتفيها وعادت إلى عملها في صمت. «إنّه غريب الأطوار».. همست في نفسها. شابّ وسيم -لولا النّدبة التي تظهر على جانبه الأيسر -وحيد، وغريب الأطوار!

- متى تصل سيّدة المنزل؟

- قريبًا يا لويزا.. قريبًا.

ابتسم. لقد أصبح كلّ شيء جاهزًا الآن لاستقبال العروس. لقد انتظرته آية طويلا حتّى يلملم شتات نفسه وتثبت قدماه من جديد. زار «بون» الألمانيّة منذ شهرين، واتّفقا على تفاصيل الزّفاف. قريبًا تنتهي وحدته.

- هل تحتاج منّي شيئا بعد، سيّدي؟

قال دون أن يرفع رأسه:

- لا، شكرًا لك لويزا.

- إذن أستأذنك في الانصراف.

خطت لويزا نحو المدخل، حيث علقت مريلتها وارتدت معطفها ثم غادرت. كانت تحضر كل يوم، ترتّب الغرف، تعدّ الوجبات وتهتمّ بالغسيل والتنظيف، ثم تنصرف. إنّه الزّبون المثاليّ في نظرها. شابّ أعزب، وثريّ. لا أطفال يجعلون البيت في فوضى دائمة. ولا سيّدة بيت

تدقّق خلفها وتتبّع الأخطاء. وفي نهاية الأسبوع، يدفع لها بسخاء.

تناديه «سيّدي»، ويعرفه الجميع بالجوار بـ«المغربيّ». كانت تلك صفته المميّزة والفريدة في تلك القرية السّويسريّة التي قلّما يستقرّ فيها الغرباء. كان لديه جار فرنسيّ، يقطن على مبعدة شارعين. يُعرف بـ«المتكبّر»! تلك صفة ملاصقة للفرنسيّين في سويسرا عمومًا. الفرنسيّ كسول، متعجرف ومتطلّب. هكذا تحاكمه النّظرة السّويسريّة الثاقبة!

التقيا وجهًا إلى وجه أمام كشك الجرائد ذات مرّة، فبادره الفرنسيّ بالتّحيّة، مثل غريبين يتآلفان من نظرة. قال متذمّرًا:

- لا شيء يحصل في القرية.. إنّها الحياة المملّة ذاتها، كلّ يوم. أفكّر في الانتقال إلى «لوزان» حيث أعمل.

ابتسم عمر وقال بلباقة:

- حسنًا تفعل!

ثمّ حيّاه مبتعدًا. إنّه يتجنّب الاحتكاك بالنّاس. يحافظ على مسافة أمان، ويتجنّب الصّداقات والعلاقات الحميميّة. لقد بات يدرك أنّه مصدر خطر على المحيطين به. يفضّل أن تبقى هويّته مجهولة وحياته باردة وخالية من البشر.

ترك عمر مجلسه عند الموقد التّقليديّ الذي تضطرم نيرانه في الحطب الجافّ الذي قطعه بيديه الأسبوع الماضي، ثمّ وضع الكتاب على المنضدة.

استدار نحو الجدار الذي كانت تتعهّده لويزا بالتنظيف منذ حين. كانت ذاكرته كلّها تجتمع على تلك الرّقعة الصّغيرة. «حائط مبكاه» الخاصّ. عصارة آلامه وخلاصة كوابيسه. كان المنزل المنعزل قد غرق في السّكون في تلك الآونة من النّهار، بعد انصراف المدبّرة الثرثارة، فيمتلئ صدره وحشة وتزداد وطأة الوحدة على روحه.

يتّجـه إلى النّافـذة العريضـة المطلّـة عـلى الحديقـة، ويفتـح الدّفتـين عـلى مصراعيهمـا. يقـف عـلى الشّرفـة المرصوفـة بخشـب أشـجار اسـتوائيّة، يتأمّـل المسـاء الهـادئ والمظلـم الـذي يتربّـع عـلى عـرش القريـة، ثـمّ يأخـذ نفسًـا عميقًـا بـاردًا لاذعًـا. يقـف وحـده مـع اللّيـل والسّـماء والسّـكون، ويتنهّـد بقـوّة في شـكوى صامتـة. ثـمّ تغشـاه سكينة تطبطـب عـلى وجدانـه، فينسـحب إلى الدّاخـل.

يبـدأ نهـاره في وقـت مبكّـر. كلّ صبـاح، يقصـد المكتـب الواقـع في مركـز «لـوزان». اختـار هـذه المـرّة أن يقـف عـلى الدّرجـة الأولى مـن سـلّم تطويـر الأجهـزة الكهربائيّـة. يعمـل المختـبر عـلى تصميـم نمـاذج مختلفـة مـن البطاريّـات، حسـب حاجـة الحرفـاء. يتعامـل بالأسـاس مـع مصنّعـي الآلات المنزليّـة، مـن المنبّـه إلى المكيّـف الصحـراويّ. كلّ آلـة تعتمـد عـلى نـوع مغاير مـن البطاريّـات. لقـد فـرض معيـارًا جديـدًا عـلى السّـوق، وتسـابق المنتجـون لتوقيـع عقـود حصريّـة تمكّنهـم مـن الاسـتفادة مـن البطّاريـة المميّزة.

منـذ أربعـة أشـهر، تعمـل خمسـة خطـوط إنتـاج في مصنـع صينـيّ في الـشّرق الأقـصى بشـكل حصريّ وبطاقـة قصـوى، لتصنيـع البطّاريّـات عاليـة الكفـاءة.

أعلنـت شاشـة حاسـوبه المحمـول عـن رسـالة واردة. ابتسـم وهـو يطالـع اسـم وليـد. قـرأ عـلى مهـل الكلمـات المرصوفـة عـلى الشّاشـة. يحدّثـه الشّـاب عـن تفاصيـل أسـبوعه بسـخاء. منـذ وصولـه إلى بريطانيـا مـن أجـل التّحضـير لرسـالة الدّكتـوراه في القانـون الـدّوليّ، يتراسـلان بانتظـام. تـرك المخيّـم أخـيرًا وحلّـق نحـو آفـاق أخـرى، لعلّـه يومًـا مـا يتصـدّر المشـهد الإعلامـيّ مدافعًـا عـن حقـوق المهجّريـن ويرفـع في فخـر اسـم فلسـطين.

كانـت سـاعة مـن أهنـأ سـاعات يومـه، حـين يتلقّـى تلـك الرّسـائل المنعشـة والمفعمـة بالأمـل.

لقـد كانـت فكـرة هيثـم، كفالـة شـابّ في المهجـر حـتّى يسـتكمل الدّراسـات

العليا في واحدة من أفضل جامعات العالم. منذ حدّثه عن مخيّم اليرموك، وطموح الشّباب هناك، عاهد نفسه على أن يكفل شابًا كل عام. وها هو يحمل المشعل من بعده.

قبل أن يغلق الجهاز، توقّف ليتأمّل الاسم المجهول الذي ظهر في صندوق البريد. تردّد لحظة، ثمّ ضغط على الرّسالة، وقرأ فحواها بعينيه في صمت. لقد تعوّد على هذا النّوع من الرّسائل مؤخّرا، بعدما كانت تفاجئه في المرّات الأولى.

لقد أصبح «بطاقة محروقة» الآن، بعد المحاكمة والاعتراف. لم يعد بوسعه السّعي أو التنقّل مثل السّابق دون أن يستجلب الشّكوك لكلّ من حوله. لكن هناك سبيلا دائمًا لمواصلة الرّحلة...

منذ الحادثة، تلقّى عشرات الرّسائل على بريد الشّركة، من علماء مسلمين من مختلف أنحاء العالم. كلّهم يريدون التّعاون مع المقاومة الفلسطينيّة!

يستهلك وقتًا غزيرًا قبل أن يردّ على أحدهم. يتثبّت من خلفيّة كلّ منهم قدر المستطاع، وبكلّ الأساليب المتاحة. يحاول التّأكّد من هويّته ومساره المهنيّ ومحيطه المباشر، ليضمن عدم السّقوط في فخاخ المندسّين. ثمّ يصله بغيره من المتطوّعين الذين يشاركونه الاختصاص والاهتمامات. قريبًا، ستكون هناك شبكة في مختلف أنحاء العالم من العلماء والمهندسين، الحاملين لهمّ القضيّة، قادرين بتعاونهم على تغيير شكل العالم.

يؤمن بأنّ هذا اليوم سيأتي قريبًا. وحينها، لن تكفي عمليّة اغتيال واحدة، ولا عشر عمليّات، لقطع شرايين المقاومة.

لقد أرادوا أن يكون هيثم «عبرة»، لكنّه كان «قدوة» رغم أنوفهم!

تنهّد، ثمّ سار باتّجاه المرآب المتّصل بالمنزل عبر بوّابة داخليّة. أدار

المفتـاح في القفـل ثـمّ دفـع الدّفّـة ليـشرف عـلى مسـتودعٍ واسـعٍ، تتوقّـف داخلـه سـيّارة حديثـة، يسـتخدمها في تنقّلاتـه الضّروريّـة إلى المدينـة، وفي ركنـه الخلفـيّ أنشـأ ورشـة ورفـوف تخزيـن عريضـة.

عـلى الطّاولـة الخشـبيّة المرتفعـة، كان نمـوذج تجريـبيّ للطّائـرة الجديـدة الـتي شرع في صنعهـا منـذ أسـابيع. كان حـذرًا. لـم يكـن يدخـل المسـتودع في حضـور مدبّـرة المنـزل. ولـم يكـن يسـمح لأحـد بالولـوج إليـه. لا البسـتانيّ الـذي يحـضر مـرّة كلّ أسـبوع لاقتـلاع الأعشـاب الضّـارّة وتعهّـد الأشـجار بالرّعايـة -فقـد احتفـظ بـأدوات البسـتنة في الرّكـن الخارجـيّ المسـقوف- ولا السـبّاك الـذي اسـتأجره لتجديـد شـبكة التّطهـير الخاصّـة بالمنـزل.

أنهـى تعديـل المحـرّك منـذ يومـين، وهـا هـو يقـضي مسـاءاته الطّويلـة يحـاول تشـغيل برنامـج هيئـم عليـه. ضغـط عـلى زرّ فتـح البوّابـة الآليّـة، فارتفعـت الدّفّـة مفرجـة عـن الطّريـق المـؤدّي إلى الشّـارع. حمـل طائرتـه ولفّ حـول السّـور لينفـذ إلى الحقـل الخلفـيّ السّـاكن. ضغـط عـلى زرّ التّشـغيل، فانطلقـت الطّائـرة الصّغـيرة لتحلّـق فـوق رأسـه.

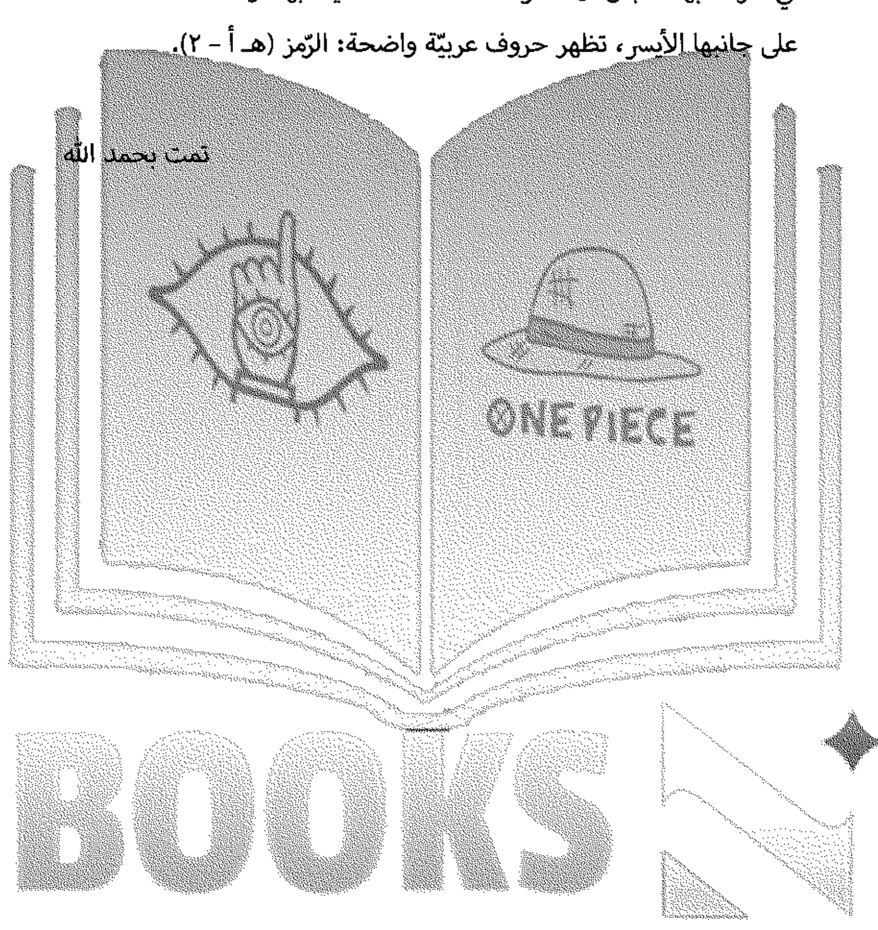
يتخيّلهـا وهـي تمـضي في مهمّتهـا الميدانيّـة الأولى، تعـبر مسـاحات شاسـعة مـن حقـول البرتقـال والزّيتـون، ثـمّ تـنزل بخفّـة حـتّى تقـترب مـن الأرض النّديّـة، فتنبجـس ذراع معدنيّـة مـن جوفهـا، تقبـض قبضـة مـن تـراب بلـدة «صويريـف» في رام الله، تسـحبها إلى الدّاخـل بعنايـة، ثـمّ ترتفـع مجـدّدا لترجـع أدراجهـا.

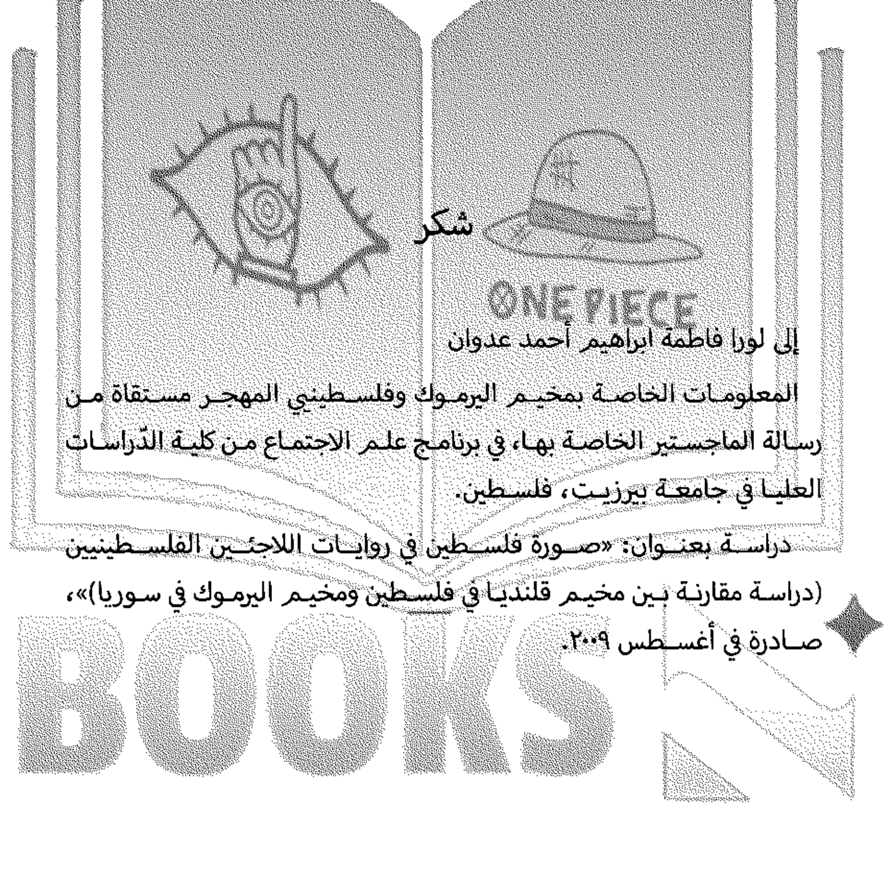
لـم يرضـه قـطّ أن يعـود بـتراب غـزّة وحدهـا. لقـد رضيـت أمّ محمّـد، لكنّـه لـم يـرض. بكـت بحرقـة، حـين حمـل إليهـا كيـس الـتّراب ذاك. أدرك وهـو يرقـب تأثّرهـا أنّ المهجّريـن قـد باتـت طموحاتهـم هزيلـة، حـتّى أنّهـم يكتفـون بالفتـات مـن رائحـة الوطـن! فيحـزّ ذلـك في نفسـه ويزيـد مـن تصميمـه.

راقب الطّائرة النّموذجيّة بابتسامة خفيفة وهي تؤدّي سلسلة الحركات التي أمرها بها، قبل أن تعود لتحطّ عند قدميه بهدوء.

على جانبها الأيسر، تظهر حروف عربيّة واضحة: الرّمز (هـ أ – ٢).

تمت بحمد الله





شكر

إلى لورا فاطمة ابراهيم أحمد عدوان

المعلومات الخاصة بمخيم اليرموك وفلسطينيي المهجر مستقاة من رسالة الماجستير الخاصة بها، في برنامج علم الاجتماع من كلية الدّراسات العليا في جامعة بيرزيت، فلسطين.

دراسة بعنوان: «صورة فلسطين في روايات اللاجئين الفلسطينيين (دراسة مقارنة بين مخيم قلنديا في فلسطين ومخيم اليرموك في سوريا)»، صادرة في أغسطس ٢٠٠٩.